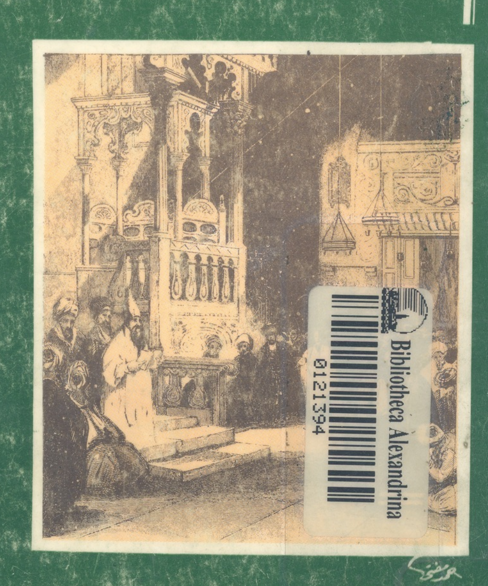
موسوعة العصور الوسطى

العلاقات السياسية والكنسية

بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى

الدكتور عادل زيتون

مدرس تاريخ العصور الوسطى بجامعة دمشق



دار دمشق

العلاقات السياسية والكنسية

بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني
في العصور الوسطى

العلاقات السياسية والكنسية

بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني
في العصور الوسطى

الدكتور عادل زيتون
مدرّس تاريخ العصور الوسطى بجامعة دمشق

الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

نشر هذا الكتاب تحت رقم (٧٧٧١) وتاريخ (١٩٨٠/٣/٣١)

دار دمشق - شارع بور سعيد هاتف ١١١٠٤٨
١١١٠٢٢

المحتوى

مقدمة

تعتبر العلاقات السياسية والكنسية ، بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني ، من الموضوعات ذات الأهمية البالغة ، في تاريخ العصور الوسطى ، لا بالنسبة إلى الغرب الأوروبي فحسب وإنما بالنسبة إلى الشرق ، المسيحي والاسلامي ، أيضاً . وتأتي أهمية هذا الموضوع إلى أنه يكشف عن جذور الكثير من الظواهر السياسية والكنسية التي ورثها عالمنا المعاصر عن العصور الوسطى ، كما أنه يلقي بعض أضواء على البناء الحضاري لكل من الشرق والغرب المسيحيين ، ويوضح صور الاحتكاك السياسي ـ العسكري والاتصال الثقافي والاقتصادي ، الذي قام بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في فترة من أدق فترات العصور الوسطى وأنشطها .

ويتركز هذا البحث في علاج مسألة «العلاقات السياسية والكنسية بين الامبراطورية البيزنطية والقوى الايطالية في القرن الثاني عشر الميلادي» . وأهمية القرن الثاني عشر لا تخفى على الباحثين في التاريخ بعامة والمتخصصين في تاريخ العصور الوسطى بخاصة . وذلك لأن هذا القرن شهد نهضة ، اقتصادية وفكرية وسياسية ، كبرى في الغرب الأوروبي ؛ وجرت فيه آخر محاولة حقيقية لاحياء الامبراطورية البيزنطية من جهة ولاعادة الوحدة الامبراطورية إلى العالم المسيحي من جهة أخرى ؛ وعاشت فيه المملكة النورمانية ، في ايطاليا الجنوبية وصقلية ، عصرها الذهبي ؛ ووصل الصراع بين البابوية والامبراطورية إلى مرحلته الحاسمة ، وبذلت آخر المحاولات «الجادة» لتحقيق الوحدة الكنسية بين روما والقسطنطينية ، وقامت الجمهوريات التجارية الايطالية وأرست أسس سلطانها التجاري والمالي في عالم البحر المتوسط .

كما شهد القرن الثاني عشر الميلادي المرحلة «النشطة» من الحركة الصليبية ، واشتد فيه الصراع الصليبي ـ الاسلامي من ناحية والصراع الصليبي ـ البيزنطي من ناحية أخرى . ففي بداية هذا القرن كان ميزان القوى في صالح الصليبيين

والغرب اللاتيني ، ولكن عند نهايته كان الميزان قد اعتدل بشكل واضح وحاسم لصالح العالم العربي الاسلامي ؛ إلا أن الصورة مغايرة تماماً بالنسبة الى الصراع الصليبي ـ البيزنطي ، ففي بدايات القرن الثاني عشر كان ميزان القوى في صالح العالم البيزنطي ، ولكن عند نهايته كان الميزان قد اعتدل بشكل حاسم لصالح الصليبيين والغرب اللاتيني ، وبالتالي سقطت الامبراطورية البيزنطية في الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ م ، وأقام الصليبيون امبراطورية لاتينية في القسطنطينية . وفي غمرة هذا الصراع السياسي ـ العسكري ، الذي نتج عن الاحتكاك بين الشرق والغرب ، قامت العلاقات المتعددة الزوايا بين الدولة البيزنطية أو الامبراطورية الرومانية الشرقية من ناحية وبين القوى الايطالية ، وعلى رأسها النورمان والجمهوريات التجارية الايطالية والبابوية ، من ناحية أخرى .

وهذا الموضوع يعتبر من الموضوعات الشائكة والمعقدة ، خاصة وأن أطراف النزاع فيه عديدة ومتداخلة في بعضها . ومسرح الأحداث واسع وفسيح بحيث يشمل اجزاء واسعة من أوروبا وآسيا . والزمان الذي جرت فيه هذه الأحداث هو القرن الثاني عشر بطوله ، الذي التقت على ساحته المصالح والأهواء مرة وتناقضت وتعارضت مرات ، وفقاً لمقتضيات الظروف والأحوال ، ليس فقط بالنسبة لمسرح الأحداث والقوى التي اسهمت فيه بنصيب فحسب وإنما بالنسبة إلى الغرب الأوروبي والمشرق العربي الاسلامي .

ولقد تصديت لعلاج هذا الموضوع بجدية وصبر وأناة ، وحاولت أن ألمّ بكل أطرافه وأن أمسك بناصيته وخيوطه ، واستخدمت في ذلك منهجاً علمياً قائماً على الوصف والتحليل ، والنقد والربط والمقارنة . وطبيعة الموضوع اقتضت أن أقسمه تقسيماً موضوعياً وليس زمنياً ، وحرصت ، في الوقت ذاته ، حرصاً شديداً على التسلسل الزمني للوقائع والأحداث داخل التقسيم الموضوعي لكل باب من أبواب الدراسة . وفضلاً عن ذلك كله فقد نظرت إلى القضايا الرئيسية للموضوع نظرة شمولية وموضوعية ، فعندما كنت استعرض العلاقات بين القوى المعنية ، في شتى صورها ومضامينها ، فإنني لم أنظر إلى كل حدث أو واقعة أو قضية نظرة منفصلة مستقلة قائمة بذاتها من زاوية محدودة ، وانما نظرت إلى الموضوع ككل ، بكل ما فيه من

سياسات وصراعات ، هادئة أو ساخنة ، وبكل ما فيه من مزالق وتيارات ، ظاهرة أو خفية ، وبكل ما فيه من مصالح وأهواء ، متناقضة ـ متباينة أو متفقة ـ متقاربة ، ومن هنا تشابكت الخيوط وتداخلت في بعضها أحياناً وتعارضت وتضاربت أحياناً أخرى وتآلفت واندمجت في بعض الأحيان . ولقد حاولت خلال هذه الدراسة ، أن اكشف كل هذه المغاليق واميط اللثام عنها ، وذلك بغية استخراج الحقيقة التاريخية المنزهه عن كل الميول والأهواء وسط اعاصير السياسية الأوروبية في فترة من أدق فترات العصور الوسطى .

واقتضت طبيعة دراسة هذا الموضوع أن ينقسم إلى ستة أبواب رئيسية ، بعد أن تناولت بالنقد والتحليل أهم المصادر الأجنبية والعربية التي اعتمدت عليها في اعداد هذا البحث .

الباب الأول : «أحوال الامبراطورية البيزنطية في مستهل القرن الثاني عشر للميلاد» . وتناولت فيه بإيجاز شديد السمات العامة لأحوال الامبراطورية حتى اعتلاء الكسيوس كومنين العرش البيزنطي عام ١٠٨١ م ، ثم عالجت اهم المشاكل والأخطار التي تعرضت لها بيزنطة في الفترة الممتدة ما بين عام ١٠٨١ م وعام ١٠٩٩ م وهي : الغزو النورماني ، ومشاكل البلقان ، والخطر السلجوقي ، ومن ثم الحملة الصليبية الأولى . وركزت على اهم المسائل التي ستتحكم في العلاقات بين بيزنطة والقوى الايطالية .

الباب الثاني : «أحوال القوى الايطالية في مستهل القرن الثاني عشر للميلاد» . وبحثت فيه بروز البابوية وتحولها إلى قوة سياسية ودينية كبرى في الغرب اللاتيني ، وتناولت قيام الجمهوريات التجارية الايطالية (البندقية وجنوه وبيزا) ، وعالجت مسألة قيام الدولة النورمانية في ايطاليا الجنوبية وصقلية . وركزت خلال ذلك كله على اهداف هذه القوى والسياسة التي رسمتها كل منها في علاقاتها مع الدولة البيزنطية في الفترة موضوع البحث .

الباب الثالث : «المسألة الانطاكية بين بيزنطة والقوى الايطالية» . وعالجت فيه أصول المسألة الانطاكية ، وحملة بوهيموند بن جويسكارد النورماني ضد بيزنطة عام ١١٠٧ م ونتائجها ، كما تناولت حملة يوحنا كومنين ضد نورمان انطاكية عام ١١٣٧ م

ونتائجها ، وبحثت حملة مانويل كومنين ضد نورمان انطاكية عام ١١٥٨ م ونتائجها . كما كشفت خلال ذلك عن موقف الجمهوريات التجارية الايطالية والبابوية من هذه المسألة .

الباب الرابع : «الصراع بين بيزنطة ومملكة الصقليتين» . وتناولت فيه مسألة تتويج روجر الثاني ملكاً على ايطاليا الجنوبية وصقلية عام ١١٣٠ م وموقف بيزنطة من هذا التتويج ، وبحثت حملة روجر الثاني ضد اليونان ورد الفعل البيزنطي ، وذلك خلال الفترة الممتدة ما بين ١١٤٧ ـ ١١٥٠ م ، كما درست حملة مانويل كومنين على ايطاليا ورد الفعل النورماني ، وذلك خلال الفترة الممتدة ما بين ١١٥٤ ـ ١١٥٨ م . وبيّنت في الوقت ذاته موقف الجمهوريات التجارية الايطالية والبابوية من الصراع النورماني ـ البيزنطي .

الباب الخامس : «مذابح القسطنطينية والاتجاه نحو الكارثة : الصراع بين بيزنطة والقوى الايطالية ١١٧٠ ـ ١٢٠٤ م» . وبحثت فيه مسألة اعتقال البنادقة ومصادرة ممتلكاتهم في بيزنطة عام ١١٧١ م ، ومذبحة اللاتين في القسطنطينية عام ١١٨٢ م ونتائجها ، كما تناولت حملة الملك النورماني وليام الثاني ضد بيزنطة عام ١١٨٥ م وظروفها ونتائجها ، وعالجت الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ م علاجاً تفصيلياً وافياً من حيث اسبابها ودوافعها وأحداثها ونتائجها ومسألة تحويلها .

الباب السادس : «العلاقات الكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني حتى أواخر القرن الثاني عشر» . وتناولت فيه الأصول التاريخية للعلاقات الكنسية بين روما والقسطنطينية ، وركزت على القطيعة الشرقية عام ١٠٥٤ م ونتائجها ، كما بينت بعض تأثيرات الحركة الصليبية على العلاقات الكنسية بين روما والقسطنطينية ، وناقشت المساعي التي بذلت لتحقيق الوحدة بين الكنيستين واسباب فشلها ، وفي خاتمة هذا الباب كشفت عن تأثيرات الحملة الصليبية الرابعة على العلاقة بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية .

وفي خاتمة هذه الدراسة القيت نظرة شمولية وموضوعية على القضايا الاساسية التي تحكمت في العلاقات بين بيزنطة والقوى الايطالية ، وعرضت اهم النتائج والاستنتاجات التي توصل اليها البحث .

وأخيراً ، لا يسعني إلا أن أقدم شكري وامتناني لاستاذي الفاضل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، الذي قدم لي العون والمساعدة والتشجيع أثناء اعداد هذا البحث ؛ كما اقدم جزيل شكري إلى الاستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع ، الذي محضني النصح والارشاد ؛ وكذلك لا يفوتني أن اشكر الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، الذي ساعدني في الاطلاع على مجموعة مصادر التاريخ البيزنطي وبعض وثائق دير سانت كاترينه في الاسكندرية ؛ كما اقدم شكري إلى المسؤولين في بطريركية الروم الأرثوذوكس في دمشق ودير وجامعة البلمند في طرابلس الشام ؛ وكذلك لا يفوتني أن أشكر المسؤولين في المكتبة العامة ومكتبة كلية الآداب بجامعتي القاهرة والاسكندرية ، فضلاً عن دار الكتب المصرية ، كل باسمه وموقعه ، على العون والخدمات العلمية الطيبة التي قدموها لي خلال سني اعداد هذا البحث .

وأرجو الله أن أكون قد وفقت ، فيما ذهبت إليه ، والله ولي التوفيق .

القاهرة ١٠/٢/٩٧٥

عادل زيتون

«دراسة نقدية لأهم مصادر البحث»

لا شك أن بحثاً يتناول العلاقات بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى ، يتطلب من الباحث قبل كل شيء العودة الى الأصول الاغريقية واللاتينية المعاصرة على حد سواء ، فضلاً عن بعض المصادر الارمنية والعربية التي ربما تعرضت ـ بشكل أو بآخر ـ لبعض جوانب هذا الموضوع . وقد حرصت في بحثي هذا على العناية بالمصادر الاغريقية واللاتينية المعاصرة وعلى الاهتمام بشؤون بيزنطة والغرب معا ، واعتمدت الموضوعية الكاملة في كل خطوة خطوتها في بحثي هذا واستخدمت النقد العلمي النزيه للمادة العلمية التي جمعتها من المصادر ، وقارنت روايات المؤرخين البيزنطيين منهم واللاتين والأرمن منهم والعرب . وكان هدفي الأول هو البحث عن الحقيقة التاريخية وانتشالها من بين الصراعات السياسية والاقتصادية والكنسية التي انعكست ـ بشكل أو بآخر ـ في معظم ما كتبه المؤرخون المعاصرون ، ووضع الأمور في مواضعها الصحيحة . وربما كنت جريئا أكثر مما يجب عندما كنت أبدي رأيا بواقعة تاريخية أو برواية مؤرخ . ولكن كان أملي في كل ذلك هو الوصول الى أصدق الوقائع وأسلم النتائج على ضوء الحقيقة التاريخية .

أولا : المصادر الأغريقية (البيزنطية) :

اعتمدت في بحثي على عددٍ من المصادر الاغريقية المعاصرة ، والتي تعتبر من الدرجة الممتازة بالنسبة لموضوع هذا البحث . وفي مقدمة هذه المصادر مؤلف المؤرخة والاميرة البيزنطية آنا كومنين(1) . وقد ولدت هذه الأميرة عام ١٠٨٣ م وتوفيت عام ١١٤٨ م . وهي أبنة الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين (١٠٨١ ـ ١١١٨ م) . وقد وضعت آنا كتابا اسمته «الألكسياد» The Alexiad نسبة الى والدها . ورغم أن هذا المؤلف هو في حقيقته سجل شامل لتاريخ الامبراطورية البيزنطية في الفترة

(١) اعتمدنا على الترجمة الانكليزية لهذا المصدر :

The Alexiad, By Anna Commnen, Tr. By Elizabeth A. S. Dawes, London, 1967.

الوقائع التاريخية عن أحوال القوى الايطالية من وجهة النظر البيزنطية . وقد قسّمت هذه المؤرخة مؤلفها الضخم الى خمسة عشر كتاباً ـ كما ترغب هي في تسميته ـ ، واستفدنا من الكتب الثلاثة الاولى في حديثنا عن أحوال الامبراطورية البيزنطية في مستهل القرن الثاني عشر وعن الظروف التي مكنت الامبراطور الكسيوس كومنين من الوصول الى العرش وعن بروز الخطرين : السلجوقي والنورماني على الامبراطورية . واستفدنا من الكتاب الرابع والخامس والسادس ـ من الالكسياد ـ في تناولنا للغزو النورماني (١٠٨١ ـ ١٠٨٥ م) ضد الامبراطورية البيزنطية بقيادة جويسكارد وابنه بوهيموند . وبدءاً من منتصف الكتاب السادس وحتى نهاية الكتاب الحادي عشر ، أمدتنا المؤرخة بالحقائق والوقائع ـ من وجهة النظر البيزنطية الرسمية ـ المتعلقة بعلاقة بيزنطة بالحملة الصليبية الاولى وبالظروف التي واكبت انتزاع بوهيموند لانطاكية وسياسة التوسع على حساب بيزنطة التي تبناها الأخير وابن اخته تانكريد . أما ما استفدناه من الكتابين الثاني عشر والثالث عشر فهو ثمين جداً ، حيث امدتنا المؤرخة بتفاصيل وافية ـ يفتقدها أي مصدر معاصر ـ عن حملة بوهيموند ضد الامبراطورية البيزنطية (١١٠٧ ـ ١١٠٨ م) . واستفدنا من الكتابين الاخيرين ـ الرابع عشر والخامس عشر في حديثنا عن المساعي التي بذلها الكسيوس كومنين في أواخر حياته لاسترجاع انطاكية واللاذقية من النورمان .

أما المصادر التي اعتمدت عليها آنا كومنين فيمكن اكتشافها من خلال احاديثها . فبالنسبة للأحداث التي وقعت قبل مولدها أو خلال فترة طفولتها فهي تقول بأنها سمعتها من والدها أو والدتها أو من أناس ـ موثوق بهم ـ عاصروا هذه الأحداث . أما أحداث الفترة التي كانت فيها هذه المؤرخة قد شبّت عن الطوق فقد اطلعت عليها بنفسها من خلال وجودها في القصر كأبنة للامبراطور . وتخبرنا في أكثر من موضع بأنها سمعت هذه الحادثة من والدها نفسه ـ اذا كانت الحادثة قد وقعت خارج العاصمة ـ أو من والدتها التي كانت ترافق الامبراطور ـ أحيانا ـ في حروبه خارج العاصمة ، أو من اناس كانوا شهود عيان على هذه الحادثة . ورغم أن هذه المؤرخة لا تذكر ـ اطلاقاً ـ اي مصدر كتابي قد اعتمدت عليه اثناء وضعها لمؤلفها ، الا أنه لا

يستبعد ان تكون المؤرخة قد اطلعت على مصادر كتابية ووثائق عامة ورسمية ، سواء في تأريخها للفترة التي لم تعاصرها أو التي عاصرتها .

أما موضوعية هذه المؤرخة ـ فيما أمدتنا به من مادة علمية ـ فيمكن القول أنها كانت موضوعية الى أبعد الحدود . فهي ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ تعترف بشجاعة جويسكارد وذكائه على الرغم من كرهها الذي لا يُحد للنورمان عامة ولجويسكارد ـ عدو والدها اللدود ـ بشكل خاص ، بل انها تضع جويسكارد في مستوى والدها في الشجاعة والدهاء . كما أنها أعربت عن اعجابها بشخصية بوهيموندبن جويسكارد ـ رغم كرهها الصريح له ـ وبشجاعته وذكائه . كما أن آنا كومنين لم تتورع عن نقد أعمال والدها وتسجيل أخطائه ، بل وفي تدوين الهزائم التي لحقت به وبكثير من التفصيل والنقد والتحليل ، وفي ذات الوقت لم تبخس حق اعداء والدها ، بل أنها تسجل انتصارات هؤلاء بكثير من التفصيل والنقد والتحليل .

أما أهم المآخذ على هذه المؤرخة ـ كما يُستنتج ذلك من خلال مؤلفها ـ فهي طغيان العاطفة الأبوية أحياناً وانعكاس هذه العاطفة على كتابتها . فهي تعتبر والدها ـ على سبيل المثال ـ «الرسول الثالث عشر» ، وتكرر في أكثر من موضع انه «أقدر رجالات ذلك العصر» . كما يؤخذ على هذه المؤرخة المبالغة في الاعتزاز بثقافتها وتراثها والذي انعكس في نظرتها للآخرين وتقييمها لهم . فهي استخدمت كلمة «بربري وبرابرة» في أكثر الأحيان للدلالة على اللاتين . ويبدو أن المؤرخة قد اخطأت عندما نظرت الى اللاتين من خلال عداء النورمان للامبراطورية البيزنطية أو من خلال سلوك الصليبيين وأعمالهم والاضرار التي الحقوها بالامبراطورية البيزنطية . ولهذا فقد بالغت ـ وربما أخطأت كثيراً ـ عندما اتهمت كل اللاتين ـ ودون تمييز ـ بالبربرية والغدر والضعف أمام الذهب والاموال والهدايا ... ، هذا الى أنها ظلمت البابا جريجوري السابع حين رسمت له صورة قاتمة نتيجة دعمه للنورمان ضد والدها . بل وأخطأت في حديثها عن بعض جوانب الصراع بين هذا البابا والامبراطور الالماني هنري الرابع ، ولعل الخطيئة الكبيرة التي وقعت فيها هذه المؤرخة هي فهمها المغلوط لمقررات المجمع المسكوني الرابع ـ وقد أشرنا الى ذلك في بحث العلاقات الكنسية .

أن هذه المآخذ على المؤرخة البيزنطية ـ آنا كومنين ـ لا تعتبر جوهرية ، ولا تُنقص اطلاقاً من القيمة العلمية لمؤلفها بل ربما كان لهذه المآخذ والاخطاء ما يبررها ، خاصة وقد كتبت مؤلفها وقد تجاوزت الستين من عمرها . ويعتبر مؤلفها «الالكسياد» مصدراً رئيسياً ومن الدرجة الممتازة بالنسبة للعلاقات البيزنطية الايطالية في الفترة الممتدة ما بين ١٠٦٩م و ١١١٨م . وتعتبر آنا مؤرخة من الطراز الاول والقارىء المتعمق لمؤلفها يلمس بسهولة انها تمتعت بثقافة أدبية وفلسفية وتاريخية واسعة وعميقة جداً ، فضلاً عن أنها تمتلك اسلوباً أدبياً رائعاً وجذاباً ، اضافة الى ذلك كله قدرتها العجيبة في ربط الأحداث ببعضها وتحليلها والكشف عن أسباب الواقعة التاريخية ونتائجها القريبة والبعيدة . كما أن المؤرخة لم تنس القارىء عندما كتبت مؤلفها فهي تخاطبه بألطف العبارات وأرقها عندما تذكّره بحادثة سبق أن دونتها أو عندما تعتذر منه عندما تنفرد في معالجة قضية فرعية .

كذلك اعتمدت على مصدرٍ اغريقي آخر وهو من الدرجة الأولى بالنسبة لموضوع هذه الدراسة ، وهو مؤلف المؤرخ البيزنطي حنا كناموس John Kinnamos الذي ولد في بداية العقد الرابع من القرن الثاني عشر وتاريخ وفاته غير معروف ـ بالضبط . عمل كناموس موظفاً لدى الامبراطور مانويل كومنين (١١٤٣ ـ ١١٨٠م) ومن ثم عمل كاتباً في القصر الامبراطوري ورافق الامبراطور مانويل في معظم حروبه في آسيا الصغرى وأوروبا[٢] .

ألفّ كناموس كتاباً في التاريخ أسماه Epitome[٣] أي المختصر أو الخلاصة تناول فيه أحداث الفترة التي عاصرها ، وبشكل خاص أعمال الامبراطور مانويل كومنين . وأهمية هذا المصدر بالنسبة الى موضوعنا أنه يُكمل ما انتهت اليه المؤرخة آنا كومنين ، ويصل بنا في عرضه للأحداث حتى أواخر عهد الامبراطور مانويل . ولذا

---

(٢) عن حياة حنا كناموس انظر

Encyclopedia Pyrsos. Athens, 1926— 34, Vol. 14, P. 437.

(٣) اعتمدنا على النسخة الموجوده في مجموعة المصادر البيزنطية :

Kinnamos. J.,

Epitome Historiarum, in C.S.H.B. Bonn. 1836.

فقد اعتمدت اعتماداً كبيراً على هذا المصدر في حديثي عن علاقات بيزنطة بالقوى الايطالية في الفترة الممتدة ما بين أواسط العقد الثالث وحتى وفاة مانويل كومنين عام (١١٨٠م) . وقد قسّم كناموس كتابه الى سبعة كتب (أو فصول) خصّص الكتاب الاول عن أعمال الامبراطور يوحنا كومنين (١١١٨ ـ ١١٤٣م) بينما خصص الكتب الستة التالية للحديث عن أعمال الامبراطور مانويل كومنين وأحوال الامبراطورية في عهده وعلاقته بالقوى الايطالية ، وبشكل خاص صراعه مع النورمان والجمهوريات الايطالية . ويتوقف كناموس فجأة عن عرض الأحداث عند وفاة مانويل كومنين ، وقبل أن يتمم الكتاب السابع .

يعتبر كناموس من المؤرخين البيزنطيين الذين يمكن الاعتماد عليهم والوثوق بهم . فقد كان دقيقاً وعلمياً في كتاباته وكانت وثائق الدولة الرسمية ـ السياسية منها والعسكرية ـ مصادره الاساسية التي اعتمد عليها في كتابه . وعندما يتعرض لحادثة ما ، ولم يكن قد رآها بأم عينه أو تحقق منها فانه يخبر القارىء بذلك ويترك له مهمة التحليل والاستنتاج .

رغم ان كناموس كان موضوعياً في معظم القضايا التي استقينا منه مادتها العلمية المتعلقة بهذا البحث ، الا انه كان يظهر تعصباً ملموساً للامبراطور مانويل . ويرفع من قيمة أعماله السياسية والحربية ، ويبرر له كل الأخطاء أو الهزائم التي لحقت به . فضلاً عن أن كناموس كان متعصباً لبني جلدته «الاغريق» وشعبه عموماً ولوطنه وبلاده بشكل خاص . ويتمتع كناموس باسلوب أدبي رصين ، وهو متأثر الى حدٍ كبير بالمؤرخ اليوناني المشهور هيرودوت ـ كما يشير بنفسه إلى ذلك ـ سواء في أسلوبه أو في طريقة تفكيره أو تناوله للأحداث . وقد استخدم كناموس جملاً قصيرة وابتعد عن الحشو والاستطراد .

ويعتبر تاريخ كناموس مصدراً رئيسياً لمن يعالج تاريخ بيزنطة وعلاقاتها بالقوى الايطالية بشكل خاص والقوى اللاتينية الغربية بشكل عام في الفترة التي عاصرها هذا المؤرخ .

واعتمدت على مصدرٍ اغريقي آخر ، له أهميته الممتازة أيضاً ، وأقصد به مؤلف

المؤرخ البيزنطـي الذائـع الصيت نيقتـاس قونياتس (أو خونياتس) Nicetas Choinates . ولد هذا المؤرخ في إحدى مدن مقاطعة فريجيا بآسيا الصغرى في أواسط القرن الثاني عشر وتوفي في أواسط العقد الثاني من القرن الثالث عشر . ولقد تربى وتثقف نيقتاس على يد أخيه ميخائيل قونياتس الذي كان في ذلك الوقت رئيساً لأساقفة أثينا . ولقد تقلّد نيقتاس عدة وظائف فعمل استاذاً ومؤرخاً ، إلا أنه بدأ عمله سكرتيراً للامبراطور مانويل كومنين ، وتولى تسجيل القرارات الامبراطورية ، حتى أصبح عضواً في مجلس الشيوخ البيزنطي ، كما عمل قاضياً ثم أصبح كبير كتاب المراسيم الامبراطـورية . وفي عام ١١٨٩م أصبـح نيقتـاس محافظـاً لاقليم فيليوبوليس . ومن ثم عاد الى القسطنطينية ولكن عندما سقطت الأخيرة بيد اللاتين عام ١٢٠٤م التجـأ هذا المؤرخ الى مدينـة نيقية حيث عاش في بلاط تيودور لاسكاريس حتى وفاته(٤) .

إن أهم أعمال نيقتاس ـ والتي اعتمدنا عليها في بحثنا هذا ـ كتابـه المشهـور «التاريخ»(٥) . وقد قسم هذا المؤرخ مؤلفه الضخـم الى عشرة كتـب أو فصـول . وخصص الكتاب الاول للحديث بايجاز عن عهد الامبراطور يوحنا كومنين (١١١٨ ـ ١١٤٣م) وفي الكتاب الثاني تحـدّث عن فتـرة حكم مانـويل كومنـين (١١٤٣ ـ ١١٨٠م) ، وفي الثالث عن عهد الكسيوس الثاني ابن مانويل كومنين (١١٨٠ ـ ١١٨٣م) . وخصص الكتاب الرابع للحديث عن عهد اندرنيق كومنين (١١٨٣ ـ ١١٨٥م) ، وتحدث في الكتاب الخـامس عن عهـد اسحـق انجيلـوس (١١٨٥ ـ ١١٩٥م) وخصّص الكتاب السادس للحديث عن عهد الكسيوس الثالث انجيلوس (١١٩٥ ـ ١٢٠٣م) ، وتحدث في الكتاب السابع عن الفترة القصيرة التي عاد فيها اسحق انجيلوس وابنه الكسيوس الرابع الى الحكم عام ١٢٠٣م . وخصّص الكتاب الثامن للحديث عن الفترة القصيرة التي حكم فيها الكسيوس الخامس دوقـاس

---

(٤) عن حياة نيقتاس انظر

Religious and moral Encyclopedia, Athens, 1966, Vol. 9, pp. 472—73.

(٥) اعتمدنا على النسخة الموجودة في مجموعة المصادر البيزنطية :

Nicetas choinates, Historia, in C.S.H.B., Bonn, 1835.

،سوررمعوس، في بدايه عام ١٢٠٤م . بينما خصّص الكتابين الاخـيرين ـ التاسع والعاشر ـ للحديث عن الحملة الصليبية الرابعة واحتلال اللاتين للقسطنطينية عام ١٢٠٤م .

وأمدناه هذا المؤرخ بالوقائع المتعلقة بعلاقة بيزنطة بالقوى الايطالية في الفترة التي عاصرها بشكل خاص (١١٨٠ ـ ١٢٠٤م) وقد استمد نيقتاس معلوماته فيما كتبه من معرفته الشخصية بهذه الأحداث كشاهد عيان أو من أناس كانوا شهود عيان ، فهو مثلاً عندما يتحدث عن حملة وليام الثاني النورماني ضد بيزنطة عام ١١٨٥م يقول بأنه استمد معلوماته عن هذه الحملة وعن أعمال رجالاتها في تسالونيكا من مطران المدينة الأخيرة الذي كان يعيش اثناء هذه الأحداث فيها . ورغم أن هذا المؤرخ لا يذكر المصادر الكتابية التي اعتمد عليها في كتابة تاريخه إلا أنه اعتمد على كثير من الوثائق والمصادر عند كتابته للفترة التي لم يعاصرها ، خاصة وأنه وصل الى مراكز مرموقة في أجهزة الدولة ، وتقلّد مناصب عدة مكنته من معرفة ما يجري في البلاط الامبراطوري معرفة دقيقة .

ويتميز اسلوب نيقتاس بالتعقيد ويكتنف كتاباته شيء من الغموض الا أنه يمتلك عقلاً علمياً كبيراً ، حيث كان يكره المنجمين ولا يعتقد بالسحر والشعوذة ويوجه النقد الشديد للامبراطور اندرنيق عندما كان يأخذ رأي المنجمين بمستقبله السياسي ...

وكان نيقتاس حيادياً وموضوعياً الى أبعد الحدود في معظم المادة التي أمدنا بها حول موضوعنا ولكنه افتقد هذه الموضوعية أثناء حديثه عن الامبراطور أندرونيق وعلاقته بالقوى الايطالية ، واعتبر الامبراطور اندرنيق انساناً طيباً وعادلاً بالنسبة الى موضوع الضرائب ، ويمكن الصفح عنه بالنسبة لأخطائه الأخرى .

ويُعتبر مؤلف نيقتاس مصدراً من الدرجة الممتازة بالنسبة لتاريخ بيزنطة في الربع الاخير من القرن الثاني عشر وبالنسبة لسقوط القسطنطينية بيد اللاتـين . وقـد اعتمدنا عليه في دراستنا اعتماداً ملموساً لانه يمثل وجهة النظر البيزنطية في الاحداث . ولا يمكن لاي باحثٍ يعمل في العلاقات البيزنطية ـ الايطالية في هذه الفترة الاستغناء عنه .

هذا الى أنني اعتمدت على مجموعة الباترولوجيا جريكا Patrologia Graeca وهي

الموسوعة اللاهوتية التي تضم العديد من الرسائل الدينية وتهتم بالشؤون الروحية والكنسية(٦).وكان لا بد لي من الرجوع الى هذه الموسوعة الضخمة حين تناولت بالحديث العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية . ومن بين الكتابات والرسائل اللاهوتية التي اعتمدت عليها في بحثي رسالة فوتيوس ـ بطريرك القسطنطينية في أوسط القرن التاسع للميلاد ـ حول أصل العقيدة المسيحية الصحيحة(٧) ، وذلك أثناء حديثي عن قطيعة فوتيوس ونتائجها ، والمسائل الدينية التي برزت بين الكنيستين في ذلك القرن . كما اعتمدت على رسائل ميخائيل كريولا ريوس ـ بطريرك القسطنطينية في أواسط القرن الحادي عشر ـ أثناء حديثي عن القطيعة بين الكنيستين (١٠٥٤م)(٨) باعتباره كان طرفاً رئيسياً في احداث هذا الانشقاق ، وحدثنا في رسائله عن أحداث القطيعة وأسبابها بتفصيل وافٍ وذلك من وجهة النظر البيزنطية ، ونتائجهابالنسبة للكنيسة الشرقية . كما اعتمدت على كتابات ورسائل ثيوفيلاكت ـ رئيس اساقفة أخريدة ورئيس الكنيسة البلغارية ـ الذي توفي عام ١١٠٧م . وتركّزت أبحاث تيوفيلاكت هذا حول الاختلافات في التعليم والطقوس بين الكنيستين اللاتينية واليونانية . ولكتابات هذا العالم أهمية كبيرة لانه يمثل التيار المعتدل والمحب للسلام المسيحي في الكنيسة الشرقية(٩) . كذلك اعتمدت على الكتابات والرسائل الدينية التي كتبها أسقف نيقوميديا المشهور نيقتاس (لا علاقة لهذا الاسقف بالمؤرخ نيقتاس قونياتس الذي ذكرناه سابقا) والذي كان معاصراً للامبراطور يوحنا كومنين . وأهم ما استفدناه من كتابات هذا العالم هو الخلافات الكنسية والقضايا الدينية التي تحول دون التسوية بين الكنيستين الشرقية والغربية(١٠) كما اعتمدنا على كتابات ورسائل ثيودور بلسامون ـ بطريرك القسطنطينية (١١٨٥ ـ ١١٩٥م) ـ والذي كشف فيها النقاب ليس عن القضايا الدينية التي تقف في طريق اتحاد الكنيستين فحسب وانما

(6) Patrologia Graeca, ed. by J.P. Migne, 166 vols., Paris, 1857— 66.

(7) Photius, Epistolae, in P.G., vol. 102, Paris, 1966.

(8) cerularius, Michael, Patriarch of constantinople, letters,in M.P.G., vol. 120.

(9) theophylact, archbishop of bulgaria, in M.P.G., vol. 126.

(10) Nicetas, in M.P.G. vol. 139.

عن العوامل التاريخية والسياسية التي تجعل الوحدة بالغة الصعوبة إن لم تكن مستحيلة . ولكتابات بلسامون أهمية كبيرة لأنه يمثّل التيار المتطرف في الكنيسة الشرقية والذي يرفض الوحدة بالمفهوم الروماني اللاتيني ، فضلاً عن أن كتابات بلسامون تعكس العداء بين الشعبين اللاتيني والاغريقي الذي وصل الى ذروته في الفترة التي كتب فيها هذا البطريرك ابحاثه ، وفي ذات الوقت تكشف عن الجو الذهني الذي كان يسود العالم البيزنطي قبيل الحملة الصليبية الرابعة(١١) .

وتعتبر هذه الموسوعة اللاهوتية ذات أهمية بالغة ولا يمكن الاستغناء عنها لأي باحثٍ في العلاقات الكنسية وتطوراتها بين الكنيستين في العصور الوسطى . وقد نشرها Migne في ١٦٦ مجلداً ما بين عام ١٨٥٧ و ١٨٦٦م باللغتين اليونانية واللاتينية في باريس .

واعتمدنا على عددٍ آخر من المصادر الاغريقية التي امدتنا بمعلومات جزئية حول هذا البحث منها مثلا : كتاب المؤرخ البيزنطي ميخائيل باسيللوس الذي كان لاهوتياً وفيلسوفاً ومؤرخاً ورياضياً وطبيباً ومدرساً للفلسفة في القسطنطينية . ثم أصبح مربياً ومعلماً لأولاد الامبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوقاس (١٠٥٩ ـ ١٠٦٧م) ، وهو مربي ومعلم الامبراطور ميخائيل السابع دوقاس (١٠٧١ ـ ١٠٧٨م) وفي عهد تلميذه الأخير انصرف الى الدير وتوفي عام ١١٠٦م . ورغم أن ميخائيل باسيللوس كان من الكتاب الكنسيين الا أنه ترك كتاباً في التاريخ ، وترجم هذا الكتاب الى اللغة الانكليزية تحت عنوان «أربعة عشر حاكماً بيزنطياً»(١٢) . وهو سجّل لأحوال الامبراطورية البيزنطية من خلال حياة هؤلاء الاباطرة ، ويُنهي كتابه بسقوط ميخائيل السابع عن العرش عام ١٠٧٨م . ولقد استفدنا من هذا المصدر في علاجنا لأحوال الامبراطورية البيزنطية في مستهل القرن الثاني عشر وبشكل خاص عن أحوال هذه الامبراطورية قبيل اعتلاء الكسيوس كومنين العرش (١٠٨١م) . ورغم أن كتابات ميخائيل باسيللوس قد اختلطت فيها القضايا الشخصية بالكنسية وبالسياسية . ورغم

(11) balsamon, theodor. in M. P. G., vol. 138.

(١٢) اعتمدنا على الترجمة الانكليزية للأصل .

Michael Psellus, Fourteen byzantine rulers, tr. by E.R.A. Sewter, London, 1966.

أنه معجب بعائلة دوقاس ويغرقنا بأخبار العديد من افرادها ، ولكن تبقى كتابات هذا المؤرخ مصدراً هاماً للباحث في أحوال بيزنطية خلال القرن الحادي عشر ، خاصة وقد اشتمل هذا الكتاب على الكثير من الحقائق السياسية والكنسية والاقتصادية .

ومن المصادر الأغريقية التي أمدتنا بمعلومات جزئية حول بحثنا ، ما كتبه المؤرخ المجهول عن تاريخ موريا(١٣) . وفي الواقع أن كاتب هذا المصدر لا يزال مجهولاً الى اليوم . وظهرت نظريات عديدة للكشف عن جنسية هذا المؤرخ وقد اعتقد بعضهم ان كاتب الأصل هو رجل ايطالي بينما اعتقد آخرون ان كاتب الاصل هو فرنجي بينما كاتب النسخة الأخيرة هو أغريقي . ويعتقد البعض أن الأصل كتب بالفرنسية بينما يعتقد البعض الآخر أن النسخة الأصلية قد كتبت بالاغريقية بواسطة رجل فرنجي .... وقد أمدنا هذا المؤرخ بمعلومات وافية عن الحملة الصليبية الرابعة . ويمكن ان نكتشف بسهولة من كتاباته تحيزه ضد البيزنطيين وتعصبه الاعمى للاتين والكنيسة الرومانية فضلاً عن بعض الأخطاء التي وقع فيها حول بعض أحداث هذه الحملة ، ورغم ذلك فان لهذا المصدر اهميته الفائقة فهو النسخة اليونانية الوحيدة التي نملكها سواء أكان كاتبه يوناني أم فرنجي الجنسية .

ثانيا : المصادر اللاتينية :

كذلك اعتمدت على عددٍ لا بأس به من المصادر اللاتينية ذات الأهمية الكبيرة ـ بالنسبة لهذا البحث ـ فقد كان عليَّ عند كتابة بدايات هذا البحث أن أعود الى المصادر الأصلية المتعلقة بالحملة الصليبية الاولى ، وذلك عندما تناولت في الحديث الأحداث الرئيسية للحملة الصليبية الاولى وعلاقة رجالات هذه الحملة بالبيزنطيين ـ حكومة وشعباً ـ وعندما تناولت ـ بشيء من التفصيل ـ علاقة بوهيموند النورماني بالامبراطور الكسيوس كومنين في بداية تلك الحملة وعندما تحدثت عن أصول المسألة الأنطاكية ، والتي تطلبت مني مقارنة الروايات اللاتينية والاغريقية حول هذه

---

(١٣) اعتمدنا على الترجمة الانكليزية للنسخة الوحيدة اليونانية . وهي تحت عنوان :

The chronicle of Morea Crusaders as conguerors, Tr. From the Greek, By Harold E. Lurier, Newyork and London 1966

المسألة(١٤) . ولهذا اعتمدت على أربعة مصادر لاتينية أساسية ، وفي مقدمتهم مؤلف المؤرخ المجهول(١٥) . الذي يُعتبر من المصادر الأصلية التي لا غنى عنها بالنسبة لعلاقة الصليبيين بالبيزنطيين خلال الحملة الأولى وبدايات المسألة الأنطاكية . وكان المؤرخ المجهول من أتباع بوهيموند النورماني ورافقه في الحملة الصليبية الأولى . ولذا فقد عكست كتابات المؤرخ المجهول وجهة نظر سيده بوهيموند بالأحداث . ورغم أن هذا المؤرخ متعصب لبوهيموند وابن اخته تانكريد ـ وقد أشرنا الى ذلك في أكثر من موضع خلال البحث ـ فإنه يعتبر مصدراً رئيسياً ومن الدرجة الممتازة . كذلك اعتمدت على كتاب «تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس»(١٦) لمؤلفه ريموند داجيل Raymond d'Agiles وكان هذا المؤرخ في عداد الجيش الذي اشترك به ريموند كونت تولوز في الحملة الصليبية الأولى . وبدأ داجيل كتابة تاريخه أثناء حصار انطاكية وانتهى منه في أواخر عام ١٠٩٩م . وقد اشتهر هذا المؤرخ بالصدق والبساطة في الاسلوب ، ولكن يؤخذ عليه ايمانه بالمعجزات وكرهه لمن يعارضه وهذا جعل البعض يشكّون برواياته ،فضلاً عن أنه متعصب لسيده ريموند تولوز . ورغم ذلك يعتبر هذا المؤرخ من الثقاة وقدّم لنا الكثير من الحقائق المتعلقة بموضوعنا ، خاصة وأن سيده ريموند تولوز لعب دوراً هاماً في الصراع الذي دار بين بوهيموندالنورماني والكسيوس كومنين . كما اعتمدت على كتاب «أعمال الفرنجة الحاجين الى بيت المقدس «لمؤلفه فوشيه شارترFulcher of chartres(١٧) الذي ولد بمدينة شارتر بفرنسا عام ١٠٥٩م . وقد جاء فوشيه هذا الى الشرق مع جيش روبرت النورماندي وايتن كونت بلووشارتر .

---

(١٤) انظر الدراسة العلمية القيمة التي قام بها الدكتور جوزيف نسيم يوسف لمصادر الحملة الصليبية الأولى في مقدمة كتابه : «العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى» ، ص ١ ـ ٢٩ .

(١٥) اعتمدنا على الترجمة العربية لهذا المصدر وهي تحت عنوان : «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس» ترجمة د . حسن حبشي القاهرة ١٩٥٨ .

(١٦) اعتمدنا على الكتاب المنشور في الجزء الثالث من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (الغربيون) من ص ٢٣١ ـ ٣٠٩ :

Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem, in R.H.C. OCC. VOL. III.

(١٧) اعتمدنا على القسم الذي ترجم الى الانكيزية عن الحملة الصليبية الأولى . وهو تحت عنوان :

Chronicle of the first Crusade, By Fulcher of Chartres, Tr, By E.M. Martha, oxford, 1941.

وقبل استيلاء الصليبيين على انطاكية انفصل عن الجيش الصليبي الرئيسي ورافق بلدوين في رحلته ألتي انتهت بتأسيس أمارة الرها الصليبية . وظل إلى جانب بلدوين بعد أن انتقل الاخير الى بيت المقدس ملكاً عليها . ولقد استفدنا من هذا المؤرخ في حديثنا عن علاقة رجالات الحملة الصليبية الاولى بالبيزنطيين ، ويعتبر هذا المؤرخ موضوعياً فيا اعتمدنا عليه حيث لم يبخس حق البيزنطيين في رواياته حيث سجل ما قدمته الحكومة البيزنطية من خدمات للصليبيين . كما اعتمدنا عليه في حديثنا عن بداية المسألة الأنطاكية وبعض النشاطات السياسية والعسكرية التي قام بها بوهيموند بعد استيلائه على انطاكية . وكان أميناً في معظم رواياته الا أنه لم يذكر حقوق بيزنطة في انطاكية . كذلك اعتمدت على كتاب «تاريخ بيت المقدس» لمؤلفه البرت اكس Albert of Aix (Achen)(١٨) ، وهو من مدينة اكس لا شابيل الالمانية وليس البروفانسية . ان هذا المؤرخ لم يزر الشرق اطلاقاً ، وكل ما كتبه عن الحملة الصليبية الاولى وما تلاها من أحداث انما اعتمد في تسجيلها على ما رواه له شهود عيان ، فجمعها دون نقد أو تمحيص . وقد كتب البرت تاريخه حوالي عام ١١٣٠م . ويعتبر مصدراً هاماً لا يستغني عنه الباحث في علاقة الصليبيين بالبيزنطيين منذ قيام الحملة وحتى عام ١١٢٠م .

ومن المصادر اللاتينية التي اعتمدت عليها ، والتي تعتبر من الدرجة الأولى ، مؤلف المؤرخ الفرنسي المشهور أودو من دويل Odo of deuil الذي أطلق عليه أسم «رحلة لويس السابع الى الشرق»(١٩) . وكان أودو راهباً في دير القديس دينيس St. Denis ، ومن الواضح أنه من مقاطعة دويل بفرنسا ورافق الملك لويس السابع في الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق وبعد فشل الحملة الاخيرة عاد المؤرخ الى فرنسا وأصبح عام ١١٥٢م رئيساً لدير القديس دينيس وتوفي عام ١١٦٢م . ويعتبر كتاب أودو

---

(١٨) اعتمدنا على ما نشر في الجزء الرابع من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (الغربيون)

Historia Hierosolymitama, in R.H.C. Occ. Vol. IV.

(١٩) اعتمدنا على الترجمة الانكليزية للاصل اللاتيني .

Odo of deuil, De profectione Ludovici VII in oriontem, Ed. and Tr. By virginia Gingerick Berry, New York, 1948.

سجلاً حافلاً لأحداث الحملة الصليبية الثانية والتي اشترك فيها هذا المؤرخ نفسه - من ضمن جيش الملك لويس - وعاش احداثها منذ أن بدأ التفكير بها عام ١١٤٥م ومن ثم التبشير بها على يد برنارد وقيامها)وبالتالي نهايتهاالفاشلة . ولقد استفدت من هذا المصدر في حديثي عن أثر هذه الحملة على علاقة بيزنطية بالقوى الايطالية ، وعن محاولات روجر الثاني الاشتراك في هذه الحملة ، وعن موقف لويس السابع من الصراع الدائر بين بيزنطية ونورمان ايطالية الجنوبية آنذاك ، وعن بعض الحقائق المتعلقة بالهجوم النورماني على بيزنطة أثناء انشغال مانويل بمراقبة جيوش الصليبية الثانية ، وفضلاً عن ذلك كله فقد تعرض هذا المؤرخ - في أكثر من موضوع - إلى الخلافات الكنسيّة التي كانت مستحكمة بين الكنيستين الشرقية والغربية . ولعل أهم ما يؤخذ على هذا المؤرخ تعصبه لبني جلدته (اللاتين) وللبابوية ضد البيزنطيين وكنيسة القسطنطينية . فهو يتجاهل اسم الامبراطور مانويل في حديثة ويطلق عليه أسم «امبراطور القسطنطينية» ويعّي بأنه يجهل اسم مانويل لانه «لم يذكر في سجل الخالدين» «The book of life» . ومن جهة أخرى نجده يكيل المديح للملك النورماني روجر الثاني - عدو بيزنطة - ويصفه بأنه «الملك الحكيم والقوي» . ورغم هذه المآخذ وغيرها فان كتاب أودو يُعتبر مصدراً رئيسياً ليس بالنسبة للحملة الصليبية الثانية فحسب وانما بالنسبة لعلاقة بيزنطة بالغرب الأوروبي والقوى الايطالية خلال هذه الحملة وقد كان أودو صادقاً تماماً عندما صوّر لنا الآراء التي كانت تسود المعسكر الفرنسي أثناء عبور لويس بقواته عبر الأراضي البيزنطية ، سواء بالنسبة لاطماع الصليبيين ببيزنطة أو بالنسبة لمواقف رجال الدين المرافقين للحملة من الكنيسة الشرقية .

كما اعتمدت على كتابات المؤرخ أوتو اسقف فريسينك Otto of Freising . وهو أسقف ومؤرخ الماني . وكان قد ولد ما بين عام ١١١١ وعام ١١١٥م . وهو ابن ليوبود الثالث صاحب استريا ووالدته ابنة الامبراطور الالماني هنري الرابع وهو شقيق الملك الالماني كونراد الثالث . ولذا ينتسب أوتو الى أعظم البيوتات الالمانية الحاكمة . وتوفي أوتو عام ١١٥٨م . وكان هذا المؤرخ قد وضع كتابين الأول وقد ترجم الى الأنكليزية

تحت عنوان «المدينتين»(٢٠) وهو سجل حافل لتاريخ العالم عامة والمانيا بشكل خاص حتى عام ١١٤٦م . وقد استفدنا من هذا المصدر في بعض الحقائق المتعلقة بالأحداث التي دارت في ايطاليا في النصف الأول من القرن الثاني عشر وبشكل خاص قيام المملكة النورمانية وموقف ألمانيا وبيزنطة من هذه المملكة والاتفاق البيزنطي الألماني في عهد يوحنا كومنين ولوثير ضد روجر الثاني وحملة لوثير الى ايطاليا . والكتاب الثاني وقد ترجم الى الانكليزية تحت عنوان «أعمال فردريك بربروسا»(٢١) . وقد أمدنا هذا المصدر بحقائق على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للصراع السياسي والعسكري الدائر في ايطاليا في أواسط القرن الثاني عشر . ورغم أن هذا الكتاب يعتبر سجلاً حياً لأعمال فردريك بربروسا ـ السياسية منها والعسكرية ـ الا أنه أمدنا بالكثير من الوقائع المتعلقة بعلاقة بيزنطة ونورمان ايطاليه الجنوبية ، وبشكل خاص في عهد الملكيين النورمانيين روجر الثاني والفترة الأولى من عهد وليام الأول . ورغم أن هذا المؤرخ يقع في عدد من الأخطاء التاريخية ورغم تعصبه ضد البابوية والنورمان ، ورغم الحشو الذي يكتنف مؤلفاته ، فانه يظل مصدراً من الدرجة الأولى بالنسبة للعلاقات الايطالية البيزنطية من وجهة النظر الالمانية .

كذلك اعتمدت اعتماداً ملموساً على ما كتبه المؤرخ اللاتيني وليام الصوري . وكان قد ولد هذا المؤرخ في بيت المقدس حوالي عام ١١٣٠م . ودرس في بداية حياته في احدى المعاهد الدينية في بيت المقدس ، ثم سافر الى غرب أوروبا حيث تابع دراسته وحصل على قسط وافر من العلم والمعرفة والدليل على ذلك إلمامه بالعديد من اللغات . وبعد عودته من أوروبا دخل في خدمة الملك عموري ـ ملك بيت المقدس ـ ومن ثم أصبح رئيساً لأسقافة كنيسة صور وذلك عام ١١٧٥م(٢٢) . إن ما يهمنا من كتابات

---

(٢٠) اعتمدنا على الترجمة الانكليزية للاصل اللاتيني :

Otto of Freising, The two cities, ed. and Tr. C.C. Mierow, Newyork, 1928.

(٢١) اعتمدنا على الترجمة الانكليزية للأصل اللاتيني :

Otto of Freising, The deeds of Barbarossa, ed. and Tr. C.C. Mierow, New York, 1953.

(٢٢) عن حياة وليام الصوري أنظر الدراسة القيمة التي نشرها الدكتور عمر كمال توفيق في مجلة كلية الآداب لجامعة الاسكندرية . العدد ٢١ (١٩٦٧) من ص ١٨١ ـ ٢٠٠

هذا المؤرخ في كتابه الآنف الذكر تاريخ مملكة بيت المقدس منذ أن سقطت بيد رجالات الحملة الصليبية الأولى وحتى قبيل استعادتها على يد صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧م ، وقد استفدنا منه بشكل جلي في حديثنا على المسألة الانطاكية في معظم أدوارها . وكان مصدرنا الرئيسي عندما تناولنا النشاطات السياسية والعسكرية التي تبادلها الاباطرة البيزنطيون (يوحنا ومانويل كومنيين بشكل خاص) وامراء انطاكية النورمان . كذلك أمدنا هذا المؤرخ بحقائق على جانب كبير من الأهمية عن علاقة الايطاليين بالبيزنطيين داخل الامبراطورية البيزنطية ، والنشاطات السياسية والعسكرية التي تبادلها نورمان ايطالية الجنوبية والبيزنطيين ، وحدثنا هذا المؤرخ عن أطماع الملوك النورمان بانطاكية وبيت المقدس ، فضلا عن الوقائع التي قدمها عن مذابح اللاتين في القسطنطينية وردود الفعل ... الخ . ولا يسعنا المجال للافاضة بكل ما استفدناه من هذا المؤرخ ، ويكفي القول أنه كان مصدراً رئيسياً للعلاقات البيزنطية ـ الانطاكية ـ الايطالية في الفترة الممتدة ما بين عام ١١٢٧م وحتى عام ١١٨٤م . ويبدو أن وليام الصوري اعتمد في كتابته عن الفترة التي لم يعاصرها على مصادر موثوقة في حين اعتمد في القسم الثاني من كتابه ـ والذي سجل فيه الاحداث التي عاصرها ـ على اطّلاعه الشخصي عليها فضلاً عن اعتماده على وثائق مملكة بيت المقدس ومعرفته الشخصية بملوكها ، فضلاً عن المؤتمرات التي حضرها والوفود التي ترأسها الى روما والقسطنطينية ، والتي أتاحت له معرفة الكثير من القضايا السياسية والدينية عن كثب . ورغم أن وليام كان موضوعياً في معظم ما اعتمدنا عليه الا أنه يكنّ تعصباً واضحاً ضد البيزنطيين وسياسة الكسيوس كومنين وأبنه يوحنا بشكل خاص . ولكنه يتعاطف مع مانويل لان الأخير كان يتودد الى اللاتين . ولقد اشرت خلال بحثي الى مواقف هذا المؤرخ ـ وفي اكثر من موضع ـ من الاحداث التي يرْويها . ويعتبر هذا المصدر من الدرجة الأولى بالنسبة لموضوع هذا البحث .

(٢٣) اعتمدت على الترجمة الانكليزية للأصل اللاتيني وهي تحت عنوان :

A History of deeds done Beyond the sea, By william, Archbishop of Tyre, 2 vols. Tr. By E.A. BaBoock and A.C. Krey, New York, 1943.

وكان عليَّ الاعتماد على المصادر الاصلية المتعلقة بالحملة الصليبية الرابعة وعلاقات ايطاليا ببيزنطة قبيل وخلال هذه الحملة ونتائج هذه الحملة على الطرفين الايطالي والبيزنطي . ولذا اعتمدت اعتماداً اساسياً وملموساً على المؤرخ المعاصر جيوفروي فيل هاردوان G., Villehardouin (١١٦٤ ـ ١٢١٦م) فلقد كان فيل هاردوان ماريشال شامبانيا ، ولعب دوراً هاماً في الإعداد للصليبية الرابعة ، وكان على رأس اللجنة التي وقّعت المعاهدة مع البندقية بشأن نقل الصليبيين الى مصر ، ثم رافق الحملة وعاش كل أحداثها كرجل بارز من رجالاتها ووضع فيل هاردوان كتاباً تحت عنوان «فتح القسطنطينية»(٢٤) وهو سجل حي لأحداث الحملة الصليبية الرابعة بقلم شاهد عيان منذ أن كانت هذه الحملة فكرة حتى احتلال الصليبيين للقسطنطينية ، ويصل بتأريخه للأحداث حتى عام ١٢٠٧م . ولذا يعتبر كتاب فيل هاردوان مصدراً تاريخياً عظيم الأهمية بالنسبة للحملة الصليبية الرابعة وعلاقة بيزنطة بالقوى الايطالية من خلال هذه الحملة . ويعتبر كتاب فيل هاردوان صحيحاً ودقيقاً بشكل عام واعتمده كافة المؤرخين المحدثين ، فضلا عن أنه كان موضوعياً في سرد الأحداث بأسلوب سهل وشيق . وأهم ما يؤخذ على هذا المؤرخ أنه لم يتعرض للعوامل التي وجّهت الحملة الصليبية الرابعة نحو القسطنطينية بل يمر بها مرور الكرام وكأنما الحوادث والظروف الطارئة هي وحدها التي وجهت خطى للصليبيين دون ارادة أو تدبير ، وهذا ما يثير الكثير من الريب ، خاصة وقد كان فيل هاردوان لسان حال الامراء والسادة والمؤرخ الرسمي للحملة . كما يمكن للقارىء المتعمق بهذا المصدر أن يلمس الاعجاب الشديد الذي يكنّه هذا المؤرخ للبنادقة وبشكل خاص للدوج انريكو دوندولو الذي كال له المديح في أكثر من موضع .

كذلك اعتمدت على مؤرخ لاتيني آخر وهو روبرت كلاري الذي كان أيضاً شاهد عيان على أحداث الحملة الصليبية الرابعة . وقد وضع هذا المؤرخ كتاباً تحت عنوان

(٢٤) اعتمدت على الترجمة الانكليزية للاصل اللاتيني :

Villehardouin, G. The Conquest of Constantinople, Tr. By M. R. B. Show, London, 1963.

«فتح القسطنطينية على يد الصليبيين»(٢٥) باللغة الفرنسية القديمة . وروبرت هو ملاك صغير من منطقة بيرون في شمال فرنسا وكان في عداد رجالات الحملة الصليبية الرابعة ، وبعد أن سقطت القسطنطينية بيد اللاتين عاد الى بلاده عام ١٢٠٥م . ويعتبر كتابه مصدراً رئيسياً بالنسبة لأحداث هذه الحملة وعلاقة بيزنطة بالقوى الايطالية خلالها . وطالما أن روبرت هذا لم يكن زعيما كبيرا من زعماء الحملة الرابعة ـ كما هو الحال بالنسبة لفيل هاردوان ـ بل فارساًعادياً ولذا فقد جاء كتابه مصوّرا للاراء التي سادت عامة الجيش الصليبي في هذه الحملة . وقد وضع هذا المؤرخ الكثير من المعلومات والحقائق القيمة عن الحملة من بدايتها واتفق في معظم ما رواه مع غير من المؤرخين ، والملاحظ أن هذا المؤرخ يركز على دور البنادقة في توجيه الحملة اكثر من زميله اللاتيني فيل هاردوان وغيره من المصادر المتعلقة بالحملة .

واعتمدت كذلك على عدد من المصادر اللاتينية المتأخرة نسبيا عن موضوع هذا البحث ، الا أنها قدمت لنا الكثير من الحقائق العلمية والصحيحة ، خاصة وقد إعتمدت هذه المصادر على مصادر معاصرة ورئيسية . ومن هذه المصادر كتاب «ازهار من التاريخ»(٢٦) لمؤلفه روجر من وندوفر Roger of Wendover وهو من مدينة وندوفر في انكلترا وقد انخرط في سلك الرهبنة ، ومن ثم اصبح رئيساً لأحد الاديرة . وتوفي روجر هذا عام ١٢٣٧م . وبالنسبة الى كتابه فقد احتوى على سجل لتاريخ العالم منذ بدء الخليقة وحتى عام ١٢٣٥م . وقد أمدنا هذا المؤرخ بالعديد من الحقائق والمعلومات القيمة المتعلقة بموضوعنا وبشكل خاص أحوال ايطاليا وعلاقتها ببيزنطة في أواخر القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر . وقيمة هذا المصدر أنه ينقل من مصادر لاتينية وأغريقية معاصرة وموثوق بها . وعندما يتحدث هذا المؤرخ عن الفترة الّتي عاصرها بنفسه يرتفع الى مستوى الكاتب والمؤرخ المتميز . ويلحظ القارىء لهذا المصدر تعصب المؤرخ ضد البيزنطيين وتحيزه الواضح للاتين ، وربما السبب في ذلك هو

---

(٢٥) اعتمدت على الترجمة العربية لهذا المصدر وهي تحت عنوان : «فتح القسطنطينيه على يد الصليبيين» ترجمه د . حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

(٢٦) اعتمدت على الترجمة الانكليزية للاصل اللاتيني :

Roger of Wendover's, Flowers of history, 2 vols., Tr. By J. A. Giles, London, 1849.

أنه اعتمد في معظم ما كتبه على مصادر لاتينية فضلاً عن كونه مؤرخاً لاتيني الجنسية ومن رجال الدين الغربيين الذين اعتمرت قلوبهم بالحقد على البيزنطيين نتيجة التقارير التي بعثها الصليبيون خلال القرن الثاني عشر الى الغرب الأوربي عن موقف بيزنطة من الحركة الصليبية .

كما اعتمدت اعتماداً جزئياً على بعض المصادر اللاتينية التي تعرضت لبعض النقاط الفرعية في هذا البحث مثل الشاعر امبراوز الذي رافق ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة ووضع كتاباً تحت عنوان «حملة ريتشارد قلب الأسد الصليبية»(٢٧) والذي أمدنا من خلاله ببعض الحقائق القيمة عن أحوال صقلية النورمانية في عهد تانكريد ليسي ، وعن أحوال جزيرة قبرص وكيف انتهت الى يد اللاتين وفقدتها بيزنطة نهائيا . كما لدينا المؤرخ متى من وستمنستر ، وهو «راهب بندكتي في احدى أديرة انكلترا ، والذي وضع كتابا تحت عنوان «ازهار من التاريخ»(٢٨) والذي استعرض فيه تاريخ العالم منذ بدء الخليفة حتى بداية القرن الرابع عشر للميلاد على غرار نظام الحوليات .

ثالثا : المصادر الأرمنية :

في الواقع رجعنا الى عدد من المصادر الأرمنية المعاصرة لهذا البحث . وقد استفدنا من المصادر الأرمنية في نقطتين اساسيتين الاولى : علاقة بيزنطة بالأمراء النورمان في انطاكية خلال القرن الثاني عشر ، والثانية : عن العلاقة الدينية بين الكنيسة الشرقية والغربية ، وموقف الكنيسة الارمنية من السياسة الكنسية التي اتبعها نورمان انطاكية في شمال الشام . ونستطيع القول ـ اعتمادا على اطلاعنا الموضوعي ـ بشكل عام أن المؤرخين الأرمن الذين رجعت اليهم كانوا يفتقدون الى الموضوعية في تفسيرهم للصراع البيزنطي ـ النورماني حول انطاكية . فضلاً عن وقوع بعض هؤلاء المؤرخين

(٢٧) اعتمدت على الترجمة الانكليزية للإصل الفرنسي القديم وهي تحت عنوان : The Crusade of Richard lion-Heart, By Ambroise, Tr. By M. J. bubert, New York, 1941.

(٢٨) اعتمدت على الترجمة الانكليزية للاصل اللاتيني وهي تحت عنوان :

The Flowers of history From the Begnning of the world to the year 1307, 2 vols. By Matthew of westminster, Tr. By C. D. Yonge, London, 1853.

بأخطاء تاريخية عن جهل أو تجاهل . فقد كان المؤرخون الارمن ـ وقد أشرت خلال البحث في اكثر من موضع ـ متعصبين بشكل واضح للنورمان واللاتين عموماً ضد البيزنطيين ، وتكررت في كتاباتهم الفاظ الغدر والخيانة والتخنث لنعت البيزنطيين . وفي مقدمة هؤلاء المؤرخين الأرمن الذين اعتمدت عليهم : متى الرهاوي Matthew of Edessa . الذي كتب حولية تناولت الأحداث من عام ٩٥٢ م الى ١١٣٧ م(٢٩) . وقد ولد متى في مدينة الرها . ويبدو أنه توفي أثناء استيلاء عماد الدين زنكي عليها عام ١١٤٤ م . وقد قام أحد تلاميذ متى الرهاوي وهو الكاهن جريجوار Grégoire le pretre باتمام حولية متى ، ووصل في عرضه للأحداث حتى عام ١١٦٣ م(٣٠) . ويبدو أن جريجوار هذا لم يكن يشاطر استاذه (متى الرهاوي) في كراهيته للبيزنطيين فحسب وانما يشابهه في الطريقة التي ينظر منها الى الرجال والأحداث معاً . وقد أمدنا هذا المؤرخ بحقائق وافية عن حملة يوحنا كومنين على أمارة انطاكية ما بين ١١٣٧ ـ ١١٣٨ م ، وعن حملة أرناط ضد جزيرة قبرص وعن حملة مانويل كومنين على انطاكية ما بين عام ١١٥٨ ـ ١١٥٩ م . ورغم ان هذا المؤرخ يظهر تعصباً واضحاً ضد البيزنطيين وتعاطفاً مع النورمان ، الا أنه يُعتبر في قمة المؤرخين الأرمن المعتدلين . ويتميز جريجوار ـ كما يفهم من خلال رواياته ـ أنه كان يدرك خلفيات الصراع البيزنطي النورماني حول انطاكية في الفترة التي عاصرها .

كذلك اعتمدت على حولية المؤرخ الأرمني المشهور ميخائيل السرياني Michel le Syrian (٣١) . وقد بدأ هذا المؤرخ عمله راهباً ثم أصبح بطريركا وظل في هذا المنصب حوالي ٣٣ عاماً . وتوفي ما بين ١١٩٩ ـ ١٢٠٠ م . وقد أمدنا هذا المؤرخ بمعلومات وافية عن المسألة الانطاكية في ادوارها الاخيرة (في النصف الثاني من القرن الثاني عشر) والصراع النورماني ـ البيزنطي حول هذه المسألة . والتنظيم الموضوعي لحولية

(٢٩) اعتمدت على الترجمة الفرنسية للأصل الأرمني :

Matthew of Edessa, chronicle, (French trans. By E. Dulaurier) Paris, 1858.

(٣٠) اعتمدت على النسخة الموجودة في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، (المؤرخون الارمن) :

Grégoire le Pretre, Chronique, in R. H. C. Doc. Arm. vol. I, Paris, 1869.

(٣١) اعتمدت على ما نشر في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية :

Michel le Syrian, chronique in R. H. C. Doc. Arm. Vol. I, Paris, 1869.

ميخائيل السرياني نكمل حولية جر يجوار الكاهن وتصل بها الى أواخر القرن الثاني عشر . وقد وقع هذا المؤرخ بعدة أخطاء تاريخية في روايته التي رجعنا اليها ، فضلاً عن أنه أظهر تعصباً متطرفا ضد البيزنطيين وتحيزاً ملموساً للنورمـان ، ويفتقـر الى الاعتدال في احكامه وتفسيره للأحداث «كما اعتمدت على مقتطفات من كتابات بعض المؤرخين الأرمن المعاصرين أمثال فارتان الكبير وسيباد وغيرهما . وقد أشرت الي أهمية كتابات هؤلاء بالنسبة الى البحث في حواشي هذه الدراسة .

رابعا : المصادر العربية :

ولسوء الحظ فإن المصادر العربية لم تمدنا الا بالنزر اليسير من المادة العلمية المتعلقة ببعض جوانب الموضوع ، ومن المؤرخين الذين أفدنا من مؤلفاتهم : ابن القلانسي في كتابه «ذيل تاريخ دمشق» ؛ وابن منقذ في «كتاب الاعتبار» ؛ وابن الاثير في كتابيه «الكامل في التاريخ» و «التاريخ الباهر» ؛ وابن شداد في «النوادر السلطانية» ؛ وابن العديم في «زبدة الحلب في تاريخ حلب» ؛ وابن قاضي شهبة في كتابه «الكواكب الدرية في السيرة النورية» ؛ وابن العبري في «تاريخ مختصر الدول» ، وغيرهم .

كما أفدنا من بعض المصادر العربية التي اهتمت بجزيرة صقلية وسياسة الامراء النورمان خلال القرن الثاني عشر ، والتي جمعها المؤرخ ميخائيل أماري في «المكتبة العربية الصقلية» ، مثل ابن أبي الدينار وابـن عذارى المراكشي ، وغـيرهما . كما اعتمدت بشكل خاص على الجغرافي العربي الادريسي صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»[٣٢] الذي عاش في بلاط روجر الثاني (ت ١١٥٤) . وكان الادريسي قد ولد بسبته عام (٤٩٣هـ / ١١٠٠) . وتلقى العلم بالاندلس (قرطبة) . وفي عام ١١٣٨ م عبر البحر الى صقلية حيث رحب به الملك النورماني روجر الثاني وأصبح موضع ثقته . وبقي الادريسي في باليرمو حتى وفاة الملك النورماني الاخير عام ١١٥٤ م . ومن ثم عاد الادريسي الى مسقط رأسه وتوفي عام ١١٦٠ م . وقد أمدنا الادريسي بمجموعة طيبة من الحقائق العلمية الاقتصادية والسياسية عن صقلية في ظل الملك النورماني روجر الثاني .

---

(٣٢) اعتمدت على طبعة روما بالنسبة لهذا المصدر والتي نشرت عام ١٨٧٨ م .

كما رجعت الى ما كتبه الرحالة العربي ابن جبير . وكان الاخير قد ولد في غرناطة (٥٤٠هـ/ ١١٣٥ م) وتوجه الى الحج (٥٧٨/ ١١٨٣ م) . وأثناء عودته زار العديد من المواقع والمدن . وعندما وصل الى جزيرة صقلية (في طريق عودته) عام ١١٨٥ م كان الملك النورماني وليام الثاني يعد حملته لغزو بيزنطة . فطالعنا هذا الرحالة بمعلومات قيمة ومثيرة عن استعدادات هذه الحملة واسبابها(٣٣) . فضلاً عن الوصف الحي الذي قدمه لنا عن بلاط الملك النورماني ، اضافة الى مجموعة من الحقائق الاقتصادية عن جزيرة صقلية وأسواقها ومواردها وصناعاتها .

وقد اعتمدت كذلك على عدد من المخطوطات العربية غير المنشـورة ، وأخص بالذكر منها المخطوطات التي رجعت اليها في دير البلمند في طرابلس الشام ، والتي يتعلق معظم ما ورد فيها بالعلاقات الكنسية بين روما وبيزنطة . كذلك رجعت الى عدد من المخطوطات العربية التابعة لدير القديسة كاترينه في سيناء(٣٤) والموجودة على شكل ميكروفلم في كلية الاداب بجامعة الاسكندرية . وقد امدتنا هذه المخطوطات بمادة علمية طيبة بالنسبة للعلاقات الكنسية خلال القرن الثاني عشر بشكل خاص .

وقبل ان اختم حديثي عن المصادر أود أن أشير الى الرحالة اليهودي بنيامـين التطيلي ، الذي رجعت الى مشاهداته التي دونها خلال رحلته(٣٥) . وبنيامين من سكان مدينة قشتالة في الاندلس . وكان قد قام برحلته ما بين عام ١١٦٥ ـ ١١٧٣ م . وأمدنا هذا الرحالة بمعلومات قيمة عن الأحوال الاقتصادية في المناطق والمدن التي زارها ـ والتي تعنينا في بحثنا هذا ـ مثل القسطنطينية وجزر بحر ايجه وأهم المدن الايطالية . ولهذا المصدر أهميته القصوى لكل من يبحث في العلاقات الاقتصادية في القـرن الثاني عشر .

أما بالنسبة للمراجع الحديثة التي اعتمدت عليها فهـي كثـيرة جداً ، ويمـكن للقارىء الاطلاع عليها في الفهرس الموجود في نهاية هذه الدراسة . ولكن يمكن ان

---

(٣٣) اعتمدت على النسخة الموجودة في المكتبة العربية الصقلية ، ج ٢ .

(٣٤) انظر الدراسة العلمية القيمة في المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه في سيناء للدكتور جوزيف نسيم يوسف ، في مجلة كلية الآداب (١٩٦٨/ ١٩٦٩ م) ، من ص ٩٥ الى ص ١٣٩ .

(٣٥) اعتمدت على الترجمة العربية للأصل العبري ، والتي قام بها عزرا حداد ، بغداد ، ١٩٤٥ م .

أعرض في هذه المقدمة أهم المؤرخين المحدثين الذين اعتمدت على مؤلفاتهم ذات الصلة المباشرة بموضوع هذا البحث .

بالنسبة للعلاقات السياسية اعتمدت على مؤلفات : شالندون Chalandon ونورويتش Norwichوجورانسون Joransonوكورتس Curtisوجاي Gay ، ويودال Yewdale وستيفنسون Stphensonوهاسكنس Haskinsوأومان Oman . وبالنسبة للحركة الصليبية رجعت الى غروسية :Grousse ، ورنسيان Runcimanومجموعة سيتون Setton ، وستيفنسون Stevenson ، وكات Cate . وبالنسبة للتاريخ البيزنطي فقد اعتمدت على فنلاي Finlayوديل Diehlوفازيليف Vasilievوأوستروغروسكي Ostrogorsky وهسي Hussey ، وفريونس Vryonis ، وبراند Brandوبيلي Bailly ، وبينز و موس Baynes and moss ، وغيرهم .

أما بالنسبة للعلاقات الكنسية : فقد اعتمدت على ما كتبه : دفرونيك Dvornik ، وكرنيسلا ,Greensladeوايفري Every ، وأولمان Ullmanوتوت Tout ، ومجموعة هافلي Hefele ومجموعة فليش ومارتين Fliche et martinوجوجي Jugieوبرييه Bréhierوكيلت Kellett و بلدوين Baldwinوكانتور Cantor ، ووير Wareورنسيان وغيرهم ...

البَابُ الأوَّل

أحوال الامبراطورية البيزنطية في مستهل القرن الثاني عشر للميلاد

مقدمة :

إن وفاة الامبراطور البيزنطي بازيل الثاني المقدوني (٩٧٩ ـ ١٠٢٥م)(١) تمثّل نقطة تحولٍ خطيرة في تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، نظراً لما أعقب هذه الوفاة من انحطاط في أجهزة هذه الامبراطورية في الداخل ومن تدهور في أحوالها ومكانتها في الخارج(٢) . ذلك أن بازيل الثاني لم يترك ابناً يرثه فانفرد شقيقه قسطنطين الثامن بعرش الامبراطورية (١٠٢٥ ـ ١٠٢٨م) إلا أنه كان رجلاً مسناً ويفتقر الاحساس بالمسؤولية ، ولذا فقد ترك شؤون الحكم بيد الآخرين وصرف معظم وقته في حضور الولائم وحفلات السباق وأحاط نفسه بالغانيات والخصيان ، في حين كانت قبائل البجناك(٣) تجتاز الدانوب وتلحق أفدح الأضرار بالأراضي البيزنطية(٤) .

توفي قسطنطين الثامن دون أن يترك وريثاً ذكراً ، وإنما ترك ثلاث بنات وهن : يودكياوزويه وثيودورا . فاعتلى العرش ازواج زويه واحظياؤها . وكان أول هؤلاء المحظوظين أحد أعضاء مجلس الشيوخ واسمه روما نوس الثالث آرجيروس (١٠٢٨ ـ ١٠٣٤م) . ورومانوس هذا شخصية محترمة إلا أنه اتصف بالتبذير والغرور . وبعد وفاته تصيّدت زويه زوجاً آخر اعتلى العرش باسم ميخائيل الرابع (١٠٣٤ ـ

(١) عاشت الامبراطورية البيزنطية عصراً ذهبياً في المرحلة الأولى من حكم الاسرة المقدونية والتي تمتد من اعتلاء بازيل الأول العرش البيزنطي عام ٨٦٧م ووفاة بازيل الثاني عام ١٠٢٥م . حيث نجح أباطرة هذه الفترة في إعادة بناء الدولة البيزنطية في الداخل وفرض هيبتها واحترامها في الخارج وأصبحت بيزنطية في هذه الحقبة القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية والحضارية العظمى في عالم البحر المتوسط . انظر : Vryonis, S., byzantium and Europe, pp. 89—99; Guerdan, R., byzantium, its triumphs and tragedy, P. 283.

(2) ostrogorsky, G., hist ' of the byzantine state, p. 283.

(٣) البجناك pechenegs أو كما يسميهم البيزنطيون أحياناً أحياناً الباتزيناك patzinaks هم قبائل بدوية من أصل تركي كانت تقطن في الأصل السهوب الجنوبية لروسيا . وفي القرن التاسع تركوا موطنهم واستقروا في الاقليم الواقع بين الدانوب الأسفل والدنيبر ، وهو اليوم عبارة عن رومانيا والجزء الجنوبي القريب من روسيا . أنظر Charanis, the byzantine Empire in the eleventh century, in setton, hist. of the crusades, vol. i, pp. 181—82.

(4) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 193.

١٠٤١م) . وكان الأخير قائداً شجاعاً إلا أنه كان مريضاًنفسياً.وبعدوفاته تبنت زويه أبن أخيه الذي اعتلى العرش باسم ميخائيل الخامس (١٠٤١ ـ ١٠٤٢م) . وسرعان ما حاول الأخير التخلص من زويه والانفراد بالسلطة ، الا أنه فشل وخُلع وسُلمت عيناه . ومن ثم تولّت زويه وشقيقتها الصغرى ـ ثيودورا ـ مسؤولية الحكم . ولكن ما لبث أن دبّ دبيب الحسد بين الأختين وأصبح من الضروري وجود رجل على رأس الحكم ، ولذا تزوجت زويه رجلاً اعتلى العرش باسم قسطنطين التاسع موثوماخوس (١٠٤٢ ـ ١٠٥٥م) .(٥) ولكن الأخير انصرف الى ملذاته وأهمل شؤون الحكم ، في حين تفاقمت الأخطار على الامبراطورية في عهده . فمن جهة ازداد خطر البجناك ، حتى اضطر موثوماخوس نفسه الى السماح لفئة منهم بالاستقرار على طول نهر الدانوب ليقوموا بحماية حدود الامبراطورية ، ومن جهة ثانية ظهر الخطر النورماني على أملاك الدولة البيزنطية في جنوب ايطاليا ، ومن جهة ثالثة بلغ الخلاف الكنسي والسياسي ـ بين روما والقسطنطينية ـ ذروته بالقطيعة بين الكنيستين عام ١٠٥٤م . ولم يتح لزويه أن تتزوج للمرة الرابعة لأنها توفيت عام ١٠٥٤م في حين توفي زوجها ـ الثالث والأخير ـ مونوماخوس بعد ذلك بعام واحد (١٠٥٥م) .

وبعد وفاة مونوماخوس استولت تيودورا بمفردها على مقاليد الحكم في الامبراطورية(٦) ما بين ١٠٥٥ ـ ١٠٥٦م ، وبوفاتها (١٠٥٦م) كانت نهاية الأسرة المقدونية .

وقد شهدت الامبراطورية البيزنطية مرحلة خطيرة من تاريخها ما بين نهاية الأسرة المقدونية (١٠٥٦م) واعتلاء أسرة كومنين العرش البيزنطي عام ١٠٨١ م . ذلك أن ثيودورا عيّنت قبل وفاتها رجلاً اسمه ميخائيل ستراتيوتيكوس ليخلفها على العرش ، فتوج امبراطوراً باسم ميخائيل السادس (١٠٥٦ ـ ١٠٥٧م) . ويعتبر قيامه في الحكم انتصاراً للارستقراطية المدنية التي بيدها زمام السلطة في العاصمة ، وفي ذات الوقت كان طعنة نجلاء للارستقراطية العسكرية في الأقاليم . وسرعان ما تبنّى هذا الامبراطور سياسة معادية للقادة العسكريين ، في حين أغرق رجالات الحزب المدني بالمنح

(5) ostrogorsky, pp. 284— 87; Cam. Med-Hist, vol. iv, pp. 193— 99.

(٦) أنظر : رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، الترجمة العربية ، ص٥١ .

والالقاب ، ولذا قام أحد أفراد الارستقراطية العسكرية واسمه اسحق كومنين بثورة ناجحة ، واعتلى العرش البيزنطي في سبتمبر من عام ١٠٥٧م(٧) .

وكان أن واجه اسحق كومنين ظروفا قاسية ، وفي مقدمتها فراغ الخزينة وفوضوية الجيش في الداخل ، وتزايد اعداء الامبراطورية في الخارج . وقد حاول اسحق معالجة هذه الأوضاع المتردية عن طريق جمع الضرائب بدقة ومصادرة ممتلكات الأديرة والكنائس ... ، الا أن هذه الاجراءات كانت وبالاً عليه ، إذ تعاونت الكنسية مع الارستقراطية المدنية على إسقاطه . واضطر اسحق كومنين أخيراً الى التنازل عن العرش (١٠٥٩م) وعينّ خلفاً له وهو قسطنطين العاشر دوقاس (١٠٥٩ ـ ١٠٦٧م)(٨) .

وقد شهد عهد قسطنطين العاشر فوضى شاملة على الصعيد العسكري حيث ترك الجنود مهنتهم وتحولوا الى «رجال قانون» في الوقت الذي كانت فيه الاخطار تحدق بالامبراطورية من كل حدب وصوب . فالنورمان واصلوا انتصاراتهم في جنوب ايطاليا ، والبجناك أخذوا في الانتشار في البلقان ، والسلاجقة أخذوا يشقون طريقهم في آسيا الصغرى(٩) .

وعند وفاة قسطنطين هذا (١٠٦٧م) انتقلت السلطة الى زوجته يودوكيا التي مارست الحكم بوصفها وصّية على أبنائها الثلاثة : ميخائيل واندرنيق وقسطنطين(١٠) .

---

(7) charanis, the byzantine Empire in the eleventh century», P. 197; Ostrogorsky, op. cit., pp. 298-99-

(8) Charanis, op. cit., P. 198 .

(٩) السلاجقة فرع من الأتراك الغز ، نسبوا إلى جدهم الأول سلجوق بن تُقاق ، وعاشوا في أول أمرهم في اقليم تركستان ، ومن ثم استقروا قرب بخاري ، حيث اعتنق سلجوق الاسلام وتبعه قومه . وفي عام ١٠٤٠م انزل الزعيم السلجوقي طغرل بك محمد بن ميكائيل بن سلجوق هزيمة بالسلطان مسعود الغزنوي ، وسيطر السلاجقة على أثر ذلك على خراسان . وطلب الخليفة العباسي القائم بأمر الله العون من طغرك بك للقضاء على مؤامرة الزعيم البويهي ، البساسيري ، التي استهدفت ادخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية . ولبى طغرل بك نداء الخليفة ودخل بغداد سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م وانقذ الخلافة وبالتالي حل السلاجقة محل البويهين في الوصاية على الخلافة العباسية . ولقد تمكن أحد أفراد البيت السلجوقي وهو سليمان بن قتلمس بن اسرائيل بن سلجوق من اقامة دولة سلجوقية على حساب البيزنطيين في اسيا الصغرى . منذ عام ١٠٧٨/ ٤٧٠هـ/ . اطلق عليها اسم دولة سلاجقة الروم . ولم تسقط هذه الدولة الاعلى يد الاتراك العثمانيين عام ١٣٠٠/ ٧٠٠هـ/ . انظر تفاصيل ذلك كله عند : الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٧ ـ ١٤؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٤٥٧ ، ٤٧٣ ـ ٤٨٥ ، ٥٠٤ ، ٦٠٩ : عاشور : الحركة الصليبية ، ج١ ، ص٨٠ : دائرة المعارف الاسلامية ، ج١٢ ، ص٢٤ ـ ٣٧ .

(10) Psellus, M., Fourteen byzntine rulers, pp. 374— 75.

ولكن تدهور الموقف على حدود الامبراطورية تطلّب وجود حكومة عسكرية ولذا تزوجت يودوكيا من أحد القادة العسكريين ، الذي اعتلى العرش باسم رومانوس الرابع ديوجينوس (١٠٦٨ ـ ١٠٧١م) . ورغم أن هذا الامبراطور قد قام بحملتين ناجحتين ـ نسبياً ـ ضد السلاجقة في عام ١٠٦٨م ، إلا أنه لقي هزيمة ماحقه في حملته الثالثة في معركة ملاذكرد بتاريخ ١٩ أغسطس من عام ١٠٧١م ، والتي مُزّق فيها الجيش البيزنطي ووقع الامبراطور رومانوس نفسه أسيراً في قبضة سلطان السلاجقة ألب أرسلان . ورغم أن الأخير قد أطلق سراح الامبراطور الأسير ، إلا أن رومانوس لم يتمكن من العودة الى العرش البيزنطي ، بل عاقبة شعبه بسمل عينيه ، ثم وفاته في العام التالي (١٠٧٢)(١١) .

وبعد رومانوس اعتلى العرش البيزنطي ميخائيل السابع دوقاس ابن قنسطنطين العاشر دوقاس . ويُعتبر عهد ميخائيل السابع (١٠٧١ ـ ١٠٧٨م) على جانب كبير من الأهمية ، حيث تعرضّت الامبراطورية في مستهله لنكبتين : الأولى هزيمة ملاذكرد (١٠٧١م) التي فتحت الطريق أمام السلاجقة لابتلاع آسيا الصغرى ، والثانية احتلال النورمان لمدينة باري التي تعتبر آخر معاقل الامبراطورية البيزنطية في جنوب ايطاليا(١٢) . ولقد واجه ميخائيل السابع ظروفاً قاسية في الداخل والخارج ، فمن جهة انفجرت ثورات القبائل ـ وفي مقدمتها البجناك ـ في البلقان وهددّت السيادة البيزنطية في ذلك الاقليم ، ومن جهة ثانية بدأ الصراع على السلطة وتجلى ذلك بثورات عسكرية قادها الطامعون في العرش ، ومن جهة ثالثة برزت أزمة اقتصادية ومالية خطيرة بسبب فقدان الامبراطورية للكثير من أقاليمها الخصبة في آسيا الصغرى وجنوب ايطاليا(١٣) .

وكان أن قاد أحد الطامعين بالعرش ـ واسمه نيقفور بوتانياتس ـ ثورة ناجحة (في يناير ١٠٧٨م) ، وأجبر ميخائيل السابع على التخلي عن العرش،وتم تتويج بوتانياتس

---

(١١) انظر تفصيل ذلك عند : الاصفهاني : المصدر نفسه ، ص٤٠ ـ ٤٤ .

(12) chalandon, F., Hist. de la domination Normand En Italie et Sicilie, vol. I, pp. 189 Fi.

(١٣) عن مشاكل عهد ميخائيل السابع أنظر التفاصيل عند : psellus, op. cit., pp. 366 ff; also, Anna, the Alexiad, pp. 7— 12.

امبراطوراً (مارس ١٠٧٨م) في حين انتظم سلفه في سلك الرهبنة . وقد تزوج بوتانياتس أرملة ميخائيل السابع ليكسب دعم عائلة دوقاس . ولكن كانت الامبراطورية تعيش في حالة من الارتباك والفوضى والأخطار والصراعات الداخلية ، في حين أن بوتانياس العجوز لم يكن بامكانه انقاذ الأوضاع ، حتى أن فترة حكمه القصيرة (١٠٧٨ ـ ١٠٨١م) تعتبر المشهد النهائي لتلك الحقبة المأساوية من حياة بيزنطه على الصعيدين الداخلي والخارجي . ولم تنته هذه المأساة إلا باعتلاء أقدر القادة العسكريين العرش البيزنطي وهو الكسيوس كومنين عام ١٠٨١م(١٤) .

كان الكسيوس كومنين (١٠٨١ ـ ١١١٨م) قائداً عسكرياً فذاً وسياسياً من الطراز الأول ، ووصوله الى العرش كان بداية مرحلة جديدة من تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، حيث نجح هذا الامبراطور ـ مؤقتا ـ في ايقاف التدهور والانحطاط الذي ألم بالامبراطورية منذ وفاة بازيل الثاني (١٠٢٥م) ، وتمكن من انقاذ امبراطوريته من الأخطار الخارجية التي أحدقت بها ، فضلاً عن أنه أسس أسرة حكمت الامبراطورية البيزنطية قرابة قرن من الزمن (١٠٨١ ـ ١١٨٥م) .

تعتبر المرحلة الأولى من عهد الامبرطور الكسيوس كومنين ، والتي تقع بين عام ١٠٨١ وعام ١٠٩٩ م ، على جانبٍ كبيرٍ من الاهمية بالنسبة لموضوعنا ، وذلك لأن أحوال الامبراطورية في هذه المرحلة ، والأخطار التي تعرضت لها ، قد ساهمت في تحديد المشاكل الرئيسية التي ستتحكم في العلاقات البيزنطية ـ الايطالية خلال القرن الثاني عشر ، فضلا عن أن «الاستراتيجية» التي رسمها الكسيوس كومنين في هذه الفترة (١٠٨١ ـ ١٠٩٩ م) في علاقاته الدولية هي نفسها ـ الى حد بعيد ـ التي اتبعها خلفاؤه خلال القرن الثاني عشر ، موضوع بحثنا . ولذا فانني سأعمد إلى شيء من التفصيل في تناول أحوال الأمبراطورية البيزنطية في هذه المرحلة ، لأنها المدخل الحقيقي لفهم علاقة بيزنطة بالقوى الايطالية بخاصة والاوروبية اللاتينية بعامة خلال القرن الثاني عشر .

لقد ورث الكسيوس كومنين عن أسلافه ـ عندما اعتلى العرش عام ١٠٨١ م ـ

(١٤) أنظر التفاصيل الكاملة عن عهد بوتانياتس وعن اعتلاء الكسيوس كومنين العرش عند المؤرخة البيزنطية آنا كومنين : Anna, op. cit., pp.12—20, 25—26, 61 ff, 71—75.

وضعاً اقتصادياً وعسكرياً سيئاً للغاية : فالميزانية خاوية)(١٥) والعملة البيزنطية الذهبية قد تم خلطها بمعادن رخيصة مما أساء إلى قيمتها في الأسواق العالمية وأضر بسمعتها(١٦) وموارد الامبراطورية من آسيا الصغرى وجنوب ايطاليا قد توقفت . وبالنسبة للمسألة العسكرية فهي ترتبط ارتباطا مباشرا بالمشكلة الاقتصادية خاصة وقد شكل المرتزقة جزءاً كبيراً من الجيش البيزنطي في تلك الفترة(١٧). ولم يكن الامبراطور الكسيوس كومنين يملك الوقت والوسائل لمعالجة هاتين المشكلتين فور اعتلائه العرش . وذلك لأن الدفاع عن حدود الامبراطورية ، أو بالأحرى الدفاع عن وجودها ، قد شغله وشغل شعبه بشكل كلي منذ اللحظات التي كان يضع فيها التاج الامبراطوري على رأسه في كنيسة الحكمة الالهية على يد البطريرك كوزماس(١٨) .ولهذا فقد اضطر الكسيوس كومنين ـ بدلاً من أن يتفرغ لمعالجة المشاكل الاقتصادية ـ أن يضع الاقتصاد الامبراطوري في خدمة الدفاع عن الامبراطورية . حيث تعرضت الامبراطورية في الفترة الأولى من عهده (١٠٨١ ـ ١٠٩٩ م) لأربعة إخطار ماحقة ومتتالية بل ومتداخلة أحياناً وهي :

---

(١٥) يخبرنا المؤرخ ميخائيل باسيلوس أن الخزينة الامبراطورية تعرّضت لسرقة في عهد الامبراطور ميخائيل السابع دوقاس دون أن يجرؤ الأخير على معاقبة الجناة . أنظر

Psellus, op, cit., p. 368.

(16) Ostrogorsky, hist. of the byzantine Empire, p. 309.

(17) Anna, the Alexiad,. pp. 116— 18.

(18) Anna, op. cit., p. 75.

الفصل الأول

بيزنطة والغزو النورماني ١٠٨١ ـ ١٠٨٥م.

في الوقت الذي كان الكسيوس كومنين يضع التاج الامبراطوري على رإسه (ابريل ١٠٨١ م) ، كان زعيم النورمان في جنوب ايطاليا ـ وهو روبرت جويسكارد ـ على وشك الانطلاق بقواته من ايطاليا ـ عبر الادرياتي ـ لغزو الامبراطورية البيزنطية وانتزاع عرشها(١). ولكي تكون الصورة في أذهاننا عن هذا الغزو أكثر وضوحاً ، في أسبابه وأحداثه ونتائجه ، يجدر بنا أن نعود قليلاً الى الوراء ، وذلك لأنها ليست المرة الأولى التي تتعرض فيها بيزنطة للخطر النورماني إذ عرفتهم الامبراطورية منذ أوائل القرن الحادي عشر ، وذلك عندما اتخذت أعداداً كبيرة منهم كمرتزقة في جيشها . ولعل أبرز مثال على هؤلاء المرتزقة النورمان ـ الذين كانوا في أغلب الأحيان وبالاً على الامبراطورية ـ جماعة روسل باليل النورماني ، الذي لعب دوراً مشبوهاً في معركة ملاذكرد ومن ثم أخذ يعمل على اقامة أمارة لنفسه على حساب بيزنطة في آسيا الصغرى ،بل وربما تطلع لانتزاع العرش البيزنطي(٢).

ولكن الخطر النورماني ـ الحقيقي والمستمر ـ بالنسبة لبيزنطة لم يتمثل في حركاتهم وأطماعهم كمرتزقة وانما تمثل في توافد هؤلاء النورمان الى جنوب ايطاليا منذ أوائل القرن الحادي عشر ، واستقرارهم في الأملاك البيزنطية الموجودة في جنوب شبه الجزيرة الايطالية ، واستغلالهم للظروف السياسية والاضطرابات التي سادت تلك المنطقة آنذاك ، لانتزاع تلك الأملاك تدريجياً . ورغم الجهود التي بذلها الاباطرة البيزنطيون ـ العسكرية منها والدبلوماسية ـ خلال القرن الحادي عشر لكبح جماح النورمان واحتفاظ الامبراطورية بأملاكها هناك ، فقد نجح النورمان في طرد البيزنطيين

(1) Anna, the Alexiad p. 31.

(2) See Anna, op cit. pp. 7—11.

نهائياً من شبه الجزيرة الايطالية وذلك بسقوط آخر المعاقل البيزنطية - وهي مدينة باري - عام ١٠٧١ م بيد روبرت جويسكارد(٣).

ويعتبر سقوط مدينة باري حدثاً على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للعلاقات البيزنطية - النورمانية . فسقوط هذه المدينة بيد النورمان لا يعني في حقيقته طرد البيزنطيين نهائياً من ايطاليا فحسب وإنما فتح الطريق أمام النورمان لتهديد الأملاك البيزنطية عبر الادرياتي والبلقان ، بل لتهديد وجود الامبراطورية ذاته . ذلك أن زعيم نورمان جنوب ايطاليا وهو روبرت جويسكارد كان رجلاً طموحاً فأخذ يتطلع نحو القسطنطينية ذاتها التي ربما بدت له فريسة سهلة يمكنه الاستيلاء عليها ولذا وضع مخططات واسعة تستهدف ضرب بيزنطة في أعماقها ، بحيث لم يكن هدفه النهائي سوى الحصول على العرش البيزنطي(٤). خاصة وأن الزعيم النورماني - جويسكارد - كان يعرف الظروف القاسية التي تعيشها الامبراطورية آنذاك وأن أكثر من ربع قرن من الفوضى - عاشتها بيزنطة - لم تترك سوى أشباح جيش(٥).

وكان قد أدرك البيزنطيون خطورة هذه الدولة النورمانية الجديدة ، التي قامت على حساب أملاكهم في جنوب ايطاليا ، قبل سقوط مدينة باري ، وأخذوا يروضون أنفسهم على فقدان ممتلكاتهم الايطالية ، وتبنوا سياسة هدفها كسب صداقة الزعيم النورماني جويسكارد . وكان أول من بدأ هذه السياسة هو الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينوس (١٠٦٨ - ١٠٧١ م) الذي عرض زواج أحد أولاده من إحدى بنات الزعيم النورماني جويسكارد ، إلا أن الأخير رفض هذا المشروع(٦). وتابع ميخائيل السابع (١٠٧١ - ١٠٧٨ م) سياسة سلفه تجاه النورمان ، وسعى لكسب صداقة الزعيم النورماني جويسكارد . وكان العاهل البيزنطي يستهدف من وراء ذلك تحقيق أمرين أساسيين أولهما : حماية الأمبراطورية من أطماع جويسكارد . وثانيهما :

(٣) انظر تفاصيل توافد النورمان إلى جنوب ايطاليا وانتزاعهم الاملاك البيزنطية في تلك المنطقة في الفصل الثالث من الباب التالي .

(4) Anna, the alexiad, p. 31.

(5) Bailly, byzance, p. 308.

(6) Charanis, the byzantine Empire in the Eleventh Century,p. 187.

أستخدام النورمان لكبح جماح السلاجقة في آسيا الصغرى . ونجح ميخائيل السابع في اتصالاته ، التي استمرت ما بين ١٠٧٢و١٠٧٤ م ، مع النورمان ، وتم توقيع معاهدة بيزنطية ـ نورمانية (أغسطس ١٠٧٤ م) تضمنت خطوبة ابنة جويسكارد ـ واسمها هيلانه ـ لابن الامبراطور ميخائيل السابع ووريثه على العرش البيزنطي ـ واسمه قسطنطين ، فضلاً عن قيام تحالف سياسي بين الطرفين تعهد جويسكارد بموجبه بعدم الاعتداء على الامبراطورية البيزنطية فحسب وإنما أيضاً بالدفاع عن الامبراطورية ضد إعدائها . وهذه المعاهدة تعني ـ ضمنياً ـ اعتراف الحكومة البيزنطية بالوجود النورماني في جنوب ايطاليا من جهة وتنازلها عن حقوق الامبراطورية في تلك المنطقة من جهة اخرى (٧)

وجاءت ابنة جويسكارد الى القسطنطينية ، ولكن لم يتم الزواج فور وصولها لأن العروسين (هيلانه وقسطنطين) كانا صغيرا السن(٨) ولكن خلع ميخائيل السابع عن العرش عام ١٠٧٨ م واعتلاء بوتانياتس ، العرش البيزنطي جعل مشروع المصاهرة وبالتالي الاتفاقية البيزنطية ـ النورمانية ، فارغة المضمون ، حيث أرسل العاهل الجديد الامبراطور ميخائيل السابع الى الدير(٩) كما أرسل ابنة جويسكارد الى دير للراهبات أيضاً(١٠) وربما قدمت الأحداث الأخيرة فرصة طيبة لجويسكارد ليضع أطماعه في الأمبراطورية البيزنطية موضع التنفيذ ، عن طريق استغلال اتفاقية عام ١٠٧٤ م التي وقعها مع ميخائيل السابع ، كورقة رابحة لتبرير الأطماع ولذا سرعان ما جعل جويسكارد من نفسه المدافع عن حقوق ميخائيل السابع في العرش البيزنطي .

وأخذ جويسكارد يستعد لمشروع غزو بيزنطة منذ اعتلاء نيقفور بوتانياس العرس (١٠٧٨ م) ، ويبدو أنه لقي معارضة لمشروعه لدى اتباعه الذين اعتقدوا بان هذا المشروع سيكون «حرباً غير عادلة ضد مسيحيين»(١١)

(7) Anna, the alexiad, pp. 26, 30; Chalandon, Alexis, pp. 61 ff.; charanis, op. cit., p. 188.

(8) Anna, op cit., pp 30— 31

(9) Ibid , p 31.

(10) Finlay: hist. of Creece, vol. III, p. 73; chalandon, Alexis, p 63

(11) Anna, op cit , p 32.

ولذا كان لا بد للزعيم النورماني من ايجاد ذريعة معقولة تمكنه من اسكات المعارضة والحصول على القوات اللازمة لحملته . ووفقاً لرواية المؤرخة آنا كومنين(١٢) فإن جويسكارد قد أرسل اثنين من أتباعه إلى مدن كلابريا ليجدا له فيها ـ من بين القادمين من الشرق ـ راهباً بيزنطياً يشبه ميخائيل السابع ، وأن يقنعاه بتقمص شخصية الامبراطور ميخائيل وبالحضور الى ساليرنوم لمقابلة جويسكارد والتظلم أمامه وطلب المساعدة منه لاسترجاع عرشه المغتصب . وتمكن المبعوثان من جلب راهب بيزنطي اسمه ريكتور Rector الذي استطاع أن يلعب الدور الذي رُسم له بدقة .

واذا قبلنا رواية المؤرخة البيزنطية ـ آنا كومنين ـ فإن جويسكارد قد حقق الكثير من المكاسب من وراء هذه المسرحية ، فمن جهة أضفى على حملته الصبغة الشرعية في أعين اتباعه ، باعتباره يقوم بواجبه تجاه امبراطور تربطه به صلات المصاهرة والتحالف ، وقد نجا بنفسه وجاء الى ساليرنوم يستغيث به لاسترجاع عرشه الذي انتزعه منه بوتانياتس ظلماً . وبالفعل فان وجود هذا الراهب «الامبراطور الدجال» قد أثار حماسة اتباع جويسكارد الذين أصبحوا يشعرون بعدالة القضية التي سيقاتلون من أجلها(١٣) . وأعطى جويسكارد هذه الحماسة زخماً قوياً عندما أخذ يقطع الوعود لجنوده وأتباعه باعطائهم «أكوام» الذهب من خزينة الامبراطورية في حال تحقيق هذا المشروع(١٤) . ولعل الشيء الأكثر خطورة في المسرحية أن جويسكارد قد نجح في اقناع البابا جريجوري السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م) أن هذا الراهب (ريكتور) هو الامبراطور ميخائيل السابع الحقيقي المخلوع عن العرش . ولذا قام هذا البابا بتأييد مشروعات جويسكارد ضد بيزنطة(١٥) . وكتب في ٢٥ يوليو (تموز) من عام ١٠٨٠م الى أساقفة أبوليا يطلب منهم تقديم كل مساعدة ممكنة لجويسكارد في حملته التي يستعد لها

(12) Ibid., p. 32.

(13) Finlay, hist. of Greece, vol. III, p.73.

(14) Anna, the Alexiad, p. 33

(١٥) إن تأييد البابا لمشروع جويسكارد ضد بيزنطة قد جرح شعور البيزنطين ولذا رسمت المؤرخة آنا كومنين صورة قاتمة للبابا جريجوري السابع وسياسته . أنظر :

Anna, op. cit., pp. 34— 35.

ضد بيزنطة(١٦) . وفي ذات الوقت أصدر البابا قراراً بحرمان بوتانياتس من الكنيسة(١٧) .

ومهما يكن من أمر فقد جمع جويسكارد قواته اللازمة للحملة من أبوليا وكلابريا ، وفي ذات الوقت بعث أحد رجاله ـ واسمه راؤول Raoul ـ إلى بيزنطة ليقدم احتجاجاً شديداً للامبراطور بوتانياتس ولينذره بسوء العاقبة لما لحق بنسيبه وحليفه ميخائيل السابع وبصهره قسطنطين وبابنته هيلانه من جور وظلم(١٨) .

وقد مهد جويسكارد لهجومه الفعلي ضد الامبراطورية البيزنطية ، بأن أرسل ابنه بوهيموند ـ في مارس (آذار) من عام ١٠٨١م ـ على رأس قوات كبيرة ، بهدف احتلال الاقليم البيزنطي الواقع حول آفالونا (على الشاطىء الشرقي للأدرياتي) ، بايجاد نقاط استناد للحملة الرئيسية . ونجح بوهيموند في هذه المهمة ، حيث تمكن من احتلال آفلونا Avalona وكانينا Canina وهيريكو Hiericho ، (والتي تقع كلها على الشاطىء الشرقي للأدرياتي) ، كما تقدم بوهيموند جنوبا واحتل بوترينتو butrinto الواقعة على البر البيزنطي المقابل لكورفو(١٩) .

وفي ابريل (١٠٨١م) انتقل جويسكارد بقواته من ساليرنوم الى اوترانتو Otranto وبصحبته الامبراطور ميخائيل السابع دوقاس (الدجال) ، ومن ثم انتقل الى برانديزي(٢٠) ، وهي ميناء هام على ساحل البحر الأدرياتي الغربي ـ حيث توقف الزعيم النورماني في المدينة الأخيرة ليُعيد النظر في قواته ، وأثناء ذلك وصل السفير الذي كان قد بعثه جويسكارد الى البلاط البيزنطي ـ وهو راؤول ـ وقد حمل معه أخباراً مزعجة لسيده ومن هذه الأخبار وأخطرها بالنسبة لحملة جويسكارد أن الراهب الذي يزعم عن نفسه أنه ميخائيل السابع ، إنما هو انسان محتال ، وأن قصته كلها ليست إلا تلفيقاً واختراعاً ، وأنه (أي راؤول) قد رأى خلال وجوده فى القسطنطينية

(16) Chalandon, Alexis, p. 63.

(17) Runciman, the Eastern Schism, p. 59.

(18) Anna, the Alexiad, 37—38.

(19) [illegible], op. cit., pp. 37, 40; Finlay, hist. of creece. vol. III, p. 74; chalandon, Alexis, pp. 72—73.

(20) [illegible], op. cit., p. 38.

ميخائيل السابع بأم عينه وهو يرتدي لباساً رمادياً ويعيش في دير للرهبان . كما أن راؤول قد أبلغ سيده جويسكارد أن انقلاباً قد وقع (قبل أيام) في القسطنطينية وأن الكسيوس كومنين قد اعتلى العرش البيزنطي ، وعزل بوتـانياتس وأنـه قد أحضر قنسطنطين بن ميخائيل السابع (خطيب ابنة جويسكارد) وأشركه في الحكم(٢١) . إلا أن هذه الأنباء ـ التي جلبها السفير النورماني ـ لم تثن جويسكارد عن الاستمرار في مشروعه . ولندع جويسكارد في برانديزي يتأهب لعبور الأدرياتي ، لنـرى الموقف البيزنطي ازاء هذا الخطر .

اعتلى الكسيوس كومنين العرش البيزنطي (ابريل ١٠٨١م) في الوقت الذي كان فيه جويسكارد يضع اللمسات الأخيرة على مشروعه في مينـاء برانـديزي . وكان الامبراطور الجديد على علم كامل بمجريات الأمور على الجبهة الغربية واستعدادات الزعيم النورماني ، ولذا وجد نفسه في موقف صعب للغاية . ولا تبالغ آنا كومنين(٢٢) في قولها أن اليأس أخذ يتسرب الى نفس الامبراطور في تلك اللحظات ، خاصة وأن الوضع في داخل الامبراطورية لا يوازيه سوءا إلا وضعها على الحـدود . فالميزانية خاوية ، وهذا يعني عدم امكانية الحصول على قوات أو مرتزقة ، في حين لم تكن القوات الامبراطورية الرسمية تزيد عن /٣٠٠/ جنديا وبعض القوات الاحتياطية المساعدة(٢٣) .

ولكن ـ كما أثبتت مجريات الأحداث ـ الكسيوس كومنين واجه التحدي النورماني بشجاعة ودبلوماسية فائقتين ، واتخذ عدة اجراءات فورية لمواجهة الغزو النورماني فعلى الصعيد الداخلي : بعث الى الحكام البيزنطيين ـ الذين لا زالوا في مواقعهم ـ في آسيا الصغرى يطلب منهم الحضور الى القسطنطينية بما لديهم من قوات ومما يمكنهم الحصول عليه من متطوعين جدد(٢٤) ، كما قام بعزل حاكم مدينة دورازو ، واسمه مونوماخوس Monomachus لأنه كان شخصاً مشبوهاً ، وعينّ مكانه صهره جورج

---

(21) Anna, the alexiad, pp. 38— 39; chalandon, alexis, p. 64; yewdale, bohemondI, p. 12.

(22) Anna, op. cit., p. 39.

(23) Ibid., pp. 39, 90.

(24) Ibid., p. 90.

باليولوغوس George Palaeologus ، وبعثه على الفور الى تلك المدينة ليقوم بتجهيز دفاعاتها وأسوارها(٢٥) . كما اتصل الكسيوس بزعماء ومسؤولي المناطق الساحلية والجزر البيزنطية ، وطلب منهم التمسك بالشجاعة ومراقبة تحركات جويسكارد ، وحذّرهم من مغبة هجوم نورماني مفاجيء وحثّهم على اتخاذ الاستعدادات اللازمة(٢٦) .

أما على الصعيد الخارجي : فقد أدرك الكسيوس عدم امكانية التغلب على الخطر النورماني بقواته وامكاناته الخاصة . ولذا أجرى عدة اتصالات مع الغرب فقد اتصل بعدد من الشخصيات النورمانية والايطالية المناوئة لجويسكارد وطلب منهم الوقوف الى جانبه مقابل عروض سخية(٢٧) . ولم يغب عن الكسيوس أن أقوى شخصية من بين زعماء الغرب آنذاك هو الملك الألماني هنري الرابع ، ولذا كتب اليه أكثر من مرة . وتطالعنا المؤرخة آنا كومنين(٢٨) بنص الرسالة التي حملها سفراء والدها الى هنري الرابع ، والتي تتضمن مشروعاً مفاده أن يقوم هنري بحملة ضد جويسكارد . وتتضمن الرسالة أيضا الهدايا التي بعثها الكسيوس للعاهل الألماني وهي /١٤٤/ ألفا من النوميسما الذهبية . و /١٠٠/ قطعة من الحرير الأرجواني(٢٩) . ووعده بالرسالة ، أنه اذا انجز وعده وقاد الحملة المشار اليها ، بأنه سوف يبعث له أيضاً بمبلغ /٢١٦/ ألفا من النوميسما الذهبية . كما طرح العاهل البيزنطي في رسالته مشروعاً للمعاهدة بين العائلتين المالكتين في المانيا وبيزنطة . ولكن يبدو أن هنري الرابع كان يواجه في ذلك الوقت ظروفا داخلية قاسية ، فضلاً عن أنه لم ينته من صراعه مع البابا جريجوري السابع(٣٠) ، ولذا لم يكن بامكان هنري الرابع القيام بعمل ما ضد النورمان في جنوب ايطاليا ـ وعلى الأقل ـ في تلك الآونة(٣١) .

(25) Ibid., pp. 41—42, 91.

(26) Ibid., p. 91.

(27) Loc. cit.

(28) Ibid., pp. 91—93; chalandon, Alexis, pp. 69—70.

(٢٩) ان النوميسما البيزنطية هي الوارثة الشرعية للصولدي الروماني . وقد أطلق الأغريق على الصولدي في العصور الوسطى اسم النوميسما كما سميت بالبيزانت . وفي القرن الثاني عشر اتخذت اسم الهيبروبيرون . انظر تفصيل ذلك عند : عادل زيتون : العلاقات الاقتصادية بين الشرق والعرب في العصور الوسطى ، ص٤٥ وما بعدها .

(30) Vasiliev, hist. of the byzantine Empire, vol. II, p. 380.

(31) Finlay, hist. of creece, vol. III, p. 74.

ومهما يكن من أمر فإن طلب المساعدة من هنري الرابع والأمراء الإيطاليين كان أمراً غير كافٍ ، لأنه من الضروري أن يكون لدى الامبراطور اسطولاً يسمح له أن يقطع مواصلات جويسكارد مع شبه الجزيرة الايطالية ، وبما أن الأسطول البيزنطي لم يكن قوياً لدرجة القيام بهذه المهمة ، فقد طلب الكسيوس كومنين المساعدة من جمهورية البندقية التي كانت تمتلك قوات بحرية هائلة . وكان أن وافقت الأخيرة ـ دون تردد ـ على مقترحات الامبراطور البيزنطي ، الذي تعهد باعطائها امتيازات تجارية هائلة في الامبراطورية ، سواء انتصروا في الحرب ضد جويسكارد أو انهزموا(٣٢) . وتجدر الاشارة أن لجمهورية البندقية مصالح هائلة توجب عليها دعم البيزنطيين في حربهم ضد النورمان ، لأنه في حال انتصار النورمان ، عسكرياً ، فان هؤلاء سيسيطرون على الطريق التجارية المؤدية الى بيزنطه والشرق ، وبمعنى آخر فإن النورمان سيمتلكون ما كان البنادقة يتطلعون لامتلاكه والسيطرة عليه على مدى الزمن (٣٣) .

وفي اطار الاستعدادات البيزنطية لمواجهة الغزو النورماني ، وقّع الكسيوس كومنين معاهدة صلح مع سليمان بن قتلمش ـ زعيم السلاجقة في آسيا الصغرى ـ وذلك ليتفرغ لشؤون الجبهة الغربية ، وبالفعل هدأت أمور الجبهة الشرقية فور توقيع المعاهدة الآنفة الذكر (٣٤) .

هذه هي أهم الاجراءات والاستعدادات التي اتخذها الكسيوس كومنين لمواجهة الغزوالنورماني على بلاده،ولنعدالآن الى جويسكاردالذي تركناه يضع اللمسات الأخيرة على مشروعه في برانديزي (٣٥) . لقد كان الهدف المباشر لجويسكارد وحملته هو احتلال مدينة دورازو. الواقعة على الساحل الشرقي للأدرياتي . وتعتبر هذه المدينة على

(32) ANNa, The Alexiad, p.100.

(33) Vasiliev, hist. of the Byzantine Enpire vol. 11, P. 380

(34) Anna, op. cit., P. 95.

(٣٥) كانت مدينة دورازو تسمى من قبل دراخيوم أو آبيدوس أو سلافونيك . أنظر :

Vasiliev, op. cit. vol. 11, p. 380.

جانب كبير من الأهمية فهي مفتاح الامبراطورية البيزنطية نحو الغرب ، حيث أن الطريق الروماني القديم (الامبراطوري) المشهور Via. Egnatia يمتد من دورازو الى تسالونيكا ومنها يتجه شرقاً الى القسطنطينية . فضلا عن ان دورازو تعتبر عاصمة إقليم الليريا والحصن المنيع على الساحل الشرقي للأدرياتي (٣٦) ولكل هذه الميزات الاستراتيجية قرر جويسكارد أن تكون دورازو هدفه الأول .

وفي النصف الثاني من شهر مايو (ايار) ١٠٨١م ، عبر جويسكارد بقواته الأدرياتي بعد أن ترك ابنه روجر بورصا نائبا عنه في أبوليا وكلابريا ـ ووصل الى آفالونا ـ التي كان قد احتلها ابنه بوهيموند ـ كما أشرنا ـ ، حيث انضم اليه ابنه بوهيموند واتجها معاً الى جزيرة كورفو (البيزنطية) ، وتمكنا من احتلالها (٣٧) . ومن ثم بدأت القوات النورمانية تتجه شمالاً الى دورازو ، حيث قاد بوهيموند القوات البرية على الطريق الساحلي ، في حين قاد جويسكارد الأسطول النورماني . ووصلت القوات النورمانية ـ البحرية والبرية ـ الى دورازو واحتلت السهل الممتد أمامها ومن ثم بدأت بحصارها في ١٧ يونيه (حزيران) ١٠٨١م (٣٨) .

حقيقة أنه لمن حسن حظ مدينة دورازو أن وصلها جورج باليولوغوس قبل أن يبدأ جويسكارد بحصارها . حيث قام باليولوغوس بتجهيز دفاعات المدينة ، وبرفع معنويات سكانها الذين ذعروا عند رؤيتهم للقوات النورمانية حول مدينتهم خاصة وأن جويسكارد قد جلب معه آلات لحصار المدينة ودكّ أسوارها ، مما جعلهم يدركون أن الهدف الحقيقي لهذه الحملة ليس مجرد السلب والنهب وجمع الأسلاب ، والغنائم ، وانما هو رغبة جويسكارد في التربع على عرش الامبراطورية البيزنطية (٣٩) .

وقبل أن يتمكن الكسيوس كومنين من التوجه ، على رأس القوات التي تمكن من جمعها ، لانقاذ المدينة المحاصرة ، لبى البنادقة نداءه ، وأبحر أسطولهم بقيادة الدوج

(36) Finlay, hist. of creece, vol. 111, p. 74; chalandon, Alexis, p. 73; yewdale, op. cite. p. 13; Hodgson, venice, p. 213

(37) Anna, the Alexiad, p, 96. also cf chalandon, alexis, p. 73, cam. med hist. vol. 4, pp. 212 — 13.

(38) Anna, op. cit pp 96 — 98, cf chalandon, op. cit, pp. 37 —74.

(39) Anna, op cit, pp. 98-99

دومنيكو سيلفو ، الى مياه دورازو . وبعد وصول هذا الأسطول (يوليو أو أغسطس ١٠٨١م) دخل في معركة عنيفة مع الأسطول النورماني الذي كان بقيادة بوهيموند . ولقي الأسطول النورماني هزيمة ساحقة ، ونجا بوهيموند بنفسه بصعوبة بالغة ، ومن ثم نقل البنادقة المعركة الى البر حيث تركوا سفنهم وهاجموا معسكر جويسكارد واعملوا فيه القتل والسلب والنهب . وعادوا الى أسطولهم (٤٠) .

لم تقتصر نتائج المعركة النورمانية ـ البندقية أمام دورازو على تحطيم الأسطول النورماني وفك الحصار البحري عن دورازو فحسب وانما أدت الى فرض حصار بندقي ـ بيزنطي بحري على حملة جويسكارد عن طريق حراسة جميع المضايق والممرات البحرية المؤدية الى دورازو . وبذلك قطع كل اتصال بين الحملة النورمانية وايطاليا وبالتالي لم تصل أية امدادات ـ غذائية أو عسكرية أو بشرية ـ من ايطاليا الى جويسكارد (٤١) . ويضاف الى ذلك أن سكان الجزر والسواحل البيزنطية ، التي كانت قد خضعت لجويسكارد ، رفضوا دفع الأتاوات المالية التي فرضها الأخير عليهم عندما سمعوا بهزيمة الأسطول النورماني (٤٢) . ومن جهة أخرى فان تحطم الأسطول النورماني قد دفع جويسكارد لتشديد الحصار على المدينة مستخدماً أكثر آلات الحصار فعالية ، إلا أنه فشل في اقتحام المدينة نتيجة مناعتها ومقاومة سكانها بقيادة باليولوغوس واستخدامهم للنار الاغريقية (٤٣) .

وأخيرا غادر الكسيوس القسطنطينية على رأس جيش تمثلت فيه قوميات متعددة ونصب معسكره قرب المدينة المحاصرة في ١٥ أكتوبر (تشرين ١) من عام ١٠٨١م . وعقد الامبراطور ، فور وصوله ، اجتماعاً لكبار قادته لمناقشة الخطة القتالية . وبعد مناقشات مطولة قرر الامبراطور شنّ هجوم مباشر على الجيش النورماني (٤٤) ودارت

(40) ibid., p. 101.

(41) Finlay, op. cit., 111, p. 75.

(42) Anna, op. cit., p. 102.

(43) ibid., pp. 104 — 105.

(٤٤) انظر تفاصيل الخطة التي تمت مناقشتها ، وخاصة تلك التي طرحها باليولوغوس على اساس اتباع حرب طويلة المدى عن طريق فرض الحصار على النورمان . انظر Anna, op. cit., pp. 106 — 108.

معارك قاسية في صباح يوم ١٨ أكتوبر (١٠٨١م) انتهت بتمزق الجيش البيزنطي وهزيمته هزيمة منكرة(٤٥) ، وجُرح الامبراطور الكسيوس نفسه ، ولم ينقذه إلا فراره من المعركة وسرعة جواده وقوة ساعده ، بعد أن رأى ما حل بجيشه وكيف حصدت سيوف النورمان زهرة ضباطه (٤٦) .

ولعل أهم نتائج هذه المعركة ـ على الصعيد البيزنطي ـ ليس سقوط آلاف القتلى وخيرة الضباط فحسب ، وانما التمزق الكامل للجيش الذي بذل الكسيوس كل شيء في سبيل حشده ، حيث انسحبت بعض الفرق عائدة الى بلادها(٤٧) ، فضلاً عن أن مدينة دورازو قد تركت تواجه مصيرها لوحدها(٤٨) . أما على الصعيد النورماني ، فقد كان لانتصارهم أهمية قصوى في استعادة الثقة بأنفسهم بعد هزيمتهم البحرية أمام البنادقة ، فضلاً عن المكاسب المادية التي حصل عليها النورمان من المعسكر البيزنطي ، وخاصة الخيمة الامبراطورية التي أدى الاستيلاء عليها الى رفع الروح المعنوية في المعسكر النورماني(٤٩) .

اتجه الأمبراطور الكسيوس بعد الهزيمة الى مدينة تسالونيكا لجمع سنات فواته والاستعداد للقتال تانية ، ومن المدينة الأخيرة بعث العاهل البيزنطي الى أمه وزوجته وشقيقه ـ الموجودين في القسطنطينية ـ يطلب المعونة المالية ليتمكن من جمع الجيش وكسب الحلفاء والمرتزقة . فارسلت الأم والزوجة كل ما تملكان من ذهب وفضة الى دار السك الامبراطوري وذلك «ادراكاً منهما للمأزق الخطير الذي تعينه الامبراطورية ،

---

(٤٥) أنظر الدراسه التي ماة بها أومان لهزيمه الكسيوس في هذه المعركه من الناحيه التكتكيه Oman, Ahist. of the art of war, vol I, pp 166 — 67

(46) Anna, the alexiad, pp. 109 — 111

(47) Ibid, p 120

(٤٨) لم يتمكن باليولوغوس ـ الذي حضر اجتماع القادة لمناقشه خطه القتال ـ العوده الى المدينه بسبب الهزيمه . فعين الامبراطور أحد الألبان حاكماً على المدينه وكلف أحد البنادقة بحماية أبراجها . أنظر: Finlay, op cit vol 111, p. 79; chalandon, Alexis, pp 79, 54.

(49) Anna, op cit., p 115

وأملاً في أن تضربا بذلك مثلاً يُحتذى للآخرين» . أما شقيقه اسحق فقد تمكن من اقناع البطريرك بتحويل ثروة الكنائس الذهبية والفضية وايقوناتها الى عملات ، بغية استخدامها لسلام وأمن الامبراطورية . ورغم معارضة رئيس كنيسة خلقدونية فقد تم ارسال خزائن الكنائس الى دار السك الامبراطوري . كما وقفت بعض العائلات البيزنطية موقفاً مشرفاً وقدّمت الذهب والفضة دفاعاً عن الامبراطورية .(٥٠) . وتمكن الكسيوس ـ بهذه الأموال التي وصلته من العاصمة ـ أن يحشد أعداداً وفيرة من الجند . وفي ذات الوقت بعث الى الملك الألماني هنري الرابع يستحثه ثانية للنزول الى ايطاليا . ويبدو أن حلول فصل الشتاء قد منع الكسيوس كومنين من استئناف القتال ، فترك تسالونيكا وعاد الى العاصمة(٥١) .

أما بالنسبة للجانب النورماني ، فإن حلول الشتاء اضطر جويسكارد لرفع الحصار عن المدينة حتى الربيع القادم (١٠٨٢م) . وقبل أن يستأنف الزعيم النورماني حصار دورازو ، أدرك سكان المدينة خطورة الموقف ، وقرروا فتح باب المفارضات مع جويسكارد وتسليمه المدينة وتم ذلك فعلاً حيث دخل النورمان دورازو في فبراير (شباط)١٠٨٢م(٥٢).ويعتقدبعض المؤرخين المحدثين ـ أمثال فنلاى وشالندون ـ أن دخول جويسكارد للمدينة قد تم بخيانة أحد البنادقة المسؤولين عن حراسة أحد أبراج المدينة واسمه دومينيك Dominic (٥٣) .

والواقع أن الحملة النورمانية كانت تسير وفق خطة مرسومة بدقة من قبل جويسكارد ، الذي لم يكن رجل حرب فحسب وانما كان رجل سياسة أيضا(٥٤) . ويبدو أن هذه الخطة كانت ستُنفذ وفق ثلاث مراحل رئيسية : الأولى احتلال دورازو(٥٥)

(50) ibid., pp. 116 — 18.

(51) Anna, the Alexiad, pp. 119 — 120.

(52) Ibid., p. 115;

(53) Finlay, hist. of greece, vol. 111, p. 79; chalandon, Alexis, p. 84.

(54) Bailly, Byzance, p. 308.

(55) Ostrogorsky, pp. 316 — 17.

والثانية احتلال مدينة تسالونيكا التي تعتبر العاصمة الثانية في الامبراطورية بعد القسطنطينية(٥٦) ، والثالثة : احتلال القسطنطينية واعتلاء عرشها من قبل جويسكارد ، كما تعتقد آنا كومنين(٥٧) .

وفي مطلع الربيع (١٠٨٢م) انطلق جويسكارد لتنفيذ المرحلة الثانية من خطته وأخذ يشقّ طريقه ـ على الطريق الامبراطوري ـ الى تسالونيكا ، وأخذت المواقع البيزنطية تستسلم للغازي النورماني دون صعوبة ، ولكن عندما احتل مدينة كستوريا Castoria بدأ الموقف يتغير لصالح بيزنطة(٥٨) .

ولا شك في أن مسيرة جويسكارد هذه قد نشرت الرعب في أرجاء الامبراطورية واعتقد البيزنطيون ـ لفترة وجيزة ـ أن سقوط مدينة قسطنطين العظيم ليس ضرباً من المستحيلات كما كانوا يعتقدون . ولكن حدث في تلك الظروف الحرجة أن أخذت الدبلوماسية البيزنطية تُعطي أكلها ، هذه الدبلوماسية التي كانت دائماً إحدى الأسلحة الامبراطورية الأكثر فعالية ، فبينما كان جويسكارد في مدينة كستوريا ـ يتأهب للانطلاق نحو تسالونيكا ـ وصله رسول من ايطاليا (ابريل أو مايو ١٠٨٢م)(٥٩) ـ وأبلغه أن أتباعه في جنوب ايطاليا قد شقوا عصا الطاعة واشتعلت أملاكه بالثورة(٦٠) ، وأن الملك الألماني هنري الرابع قد وصل بقواته الى ايطاليا واتخذ طريقه الى روما(٦١) . كما وصلت في ذات الوقت رسالة من البابا جريجوري السابع يرجوه فيها العودة بأقصى سرعة للوقوف الى جانبه ضد عدوه اللدود هنري الرابع(٦٢) . وكان لهذه الأنباء وقع الصاعقة بالنسبة لجويسكارد ووضعته في مأزق خطير للغاية ، فعقد ،

(56) cam. med. hist. vol. 4, p. 213.

(57) Anna, op. cit., p. 31.

(58) hodgson, op. cit,. p 217 chalandon, Alexis, p. 84; yewdale, op. cit., p. 16.

(59) Anna, op. cit., p. 120.

(60) Chalandon, Alexis, p. 84.

(61) Anna, op. cit., pp. 120 — 21.

(62) Hodgson, op. cit., p. 217; chalandon, op. cit., p. 84.

اجتماعاً فورياً لكبار مرافقيه وأبلغهم بما يجري في ايطاليا ، وشرح لهم الخطر الذي يتهدد أملاكه من قبل هنري الرابع ، وعرض عليهم في ذات الوقت ، المبررات التي توجب عودته الى ايطاليا لمعالجة الموقف ، واختتم جويسكارد حديثة لمرافقيه قائلا : «ان الرجل الذي يهاجم أراضي الآخرين يجب ألا يهمل أراضيه» . ومن ثم غادر جويسكارد المعسكر النورماني بعد أن عيّن ابنه بوهيموند قائداً للحملة ، طالباً منه عدم التخاذل أمام البيزنطيين(٦٣) .

ويجب الاعتراف مسبقاً أن وقائع الحملة ـ بدءاً من مغادرة جويسكارد لها تبدو متشابكة ومعقدة ، خاصة وأن المصدر الوحيد الأكثر تفصيلاً لهذه الوقائع هو ما كتبته آنا كومنين ، يقدمها لنا بشيء من الاضطراب حيناً والتناقض حيناً آخر ، يضاف إلى ذلك النقص الواضح في المعلومات الجغرافية لدى المؤرخة آنا بالنسبة للمسرح الذي تدور فيه الأحداث . ولكن الشيء الحقيقي أن الحملة النورمانية قد تغيّر مسارها بعد انصراف جويسكارد وتولي بوهيموند قيادتها . فبدلاً من أن تتجه الحملة من كستوريا الى تسالونيكا ، وفقاً للخطة ، نجدها تتجه ـ بقيادة بوهيموند ـ نحو الجنوب الغربي وتحتل مدينة ينينه Joanina(٦٤)

حقيقة أن المصادر المعنية بهذا الموضوع لا تعطى تفسيراً لهذا التغير في مسار الحملة النورمانية ، وتنظر الى الوقائع على أنها مجرد صدف تمليها العفوية حينا والقدر حينا آخر . وقد حاول بعض المؤرخين المحدثين ايجاد التفسير المناسب لأسباب تغير مسار الحملة . فالمؤرخ الفرنسي شالندون(٦٥) يفترض السبب في ذلك أن بوهيموند ـ اعتماداً على الصداقة المتينة التي تربطه مع القبائل التي تعيش حول ينينه ـ قام باحتلال المدينة الأخيرة ، وذلك لكي يجعل منها قاعدة صلبة لعمليات عسكرية أخرى في الجنوب ، كما هو الحال بالنسبة لدورازو في الشمال . ويفترض المؤرخ

---

(63) Anna, op. cit., pp. 120 — 21.

(64) Anna, the Alexiad, p. 122.

(65) Chalandon, alexis, pp. 85 — 86.

الأمريكي يودال Yewdale(٦٦) ، أن السبب هو أن جويسكارد ـ الذي لم يكن يتوقع أن الأمور في ايطاليا سوف تعيقه طويلاً عن العودة الى ساحة القتال في البلقان ـ قد طلب من ابنه بوهيموند أن يكرس وقته خلال غيابه ـ في تعزيز مركز النورمان في المناطق التي تم احتلالهم لها دون المغامرة في أية معركة عسكرية حاسمة مع الكسيوس كومنين .

عندما علم الكسيوس كومنين برحيل جويسكارد غادر القسطنطينية على رأس قواته (مايو ١٠٨٢م) متجهاً الى مدينة ينينه لانتزاعها من بوهيموند ، إلا أن القوات النورمانية ـ بقيادة بوهيموند ـ الحقت هزيمة بالجيش البيزنطي خلال معركتين متتاليتين واضطر الامبراطور البيزنطي للعودة الى القسطنطينية مخذولاً . وتحمّل المؤرخة آنا كومنين مسؤولية هزيمة والدها للجواسيس الذين كانوا يبلّغون بوهيموند بخطط الكسيوس القتالية ، فضلاً عن أن بعض الفرق ـ التي تعمل في الجيش البيزنطي ـ كانت تنسحب من المعركة دون قتال أو تهرب والقتال على أشده(٦٧) .

وقبل أن يستأنف الطرفان الحرب في ربيع العام التالي (١٠٨٣م) كان بوهيموند قد احتل عدداً من المدن والمواقع الجديدة . وفي مطلع الربيع (١٠٨٣م) فرض الحصار على مدينة لاريسا Larissa ، الواقعة في مقاطعة تساليا ، والتي استغاث سكانها بالامبراطور(٦٨) . وبالفعل لبى العاهل البيزنطي النداء ، وتمكن من هزيمة القوات النورمانية ـ ولأول مرة ـ وبذلك انقذ المدينة من الأحتلال النورماني ومن ثم عاد الكسيوس الى مدينة تسالونيكا حيث بدأ من تلك المدينة حملة دبلوماسية مركزة تستهدف تمزيق الجيش النورماني(٦٩) . حيث اتصل سراً بكبار قادة الحملة النورمانية وطلب منهم ، احراج بوهيموند لكي يدفع لهم كافة مرتباتهم عن السنوات السابقة وإذا

(66) Yewdale, Bohemond, p. 17.

(67) Anna, op. cit., pp. 122 — 25.

(68) Ibid., pp. 125-26.

(٦٩) كان برفقة الجيش البيزنطي في هذه المعركة فرقة تقدّر بسبعة آلاف جندي بعثها السلطان سليان بن قتلمش لمساعدة الكسيوس ضد النورمان : أنظر

Chalandon, Alexis, p. 89.; Finley, Hist. of creece, vol. III, p. 80.

لم يكن باستطاعة بوهيموند دفع هذه المرتبات ، فيجب عليهم ـ عندئذ ـ اقناعه بالعودة إلى ايطاليا لتدبر الأمر . وقد وعدهم الأمبراطور ـ مقابل ذلك ـ بالأموال والمنح والهبات ، كذلك عرض عليهم الخدمة بجيشه ـ لمن يرغب ـ أو العودة الى أوطانهم بأمان . وطبقاً لرواية المؤرخة آنا كومنين ـ وهي مصدرنا الرئيسي عن هذه الأحداث ـ أن القادة قد نفذّوا الخطة التي اتفقوا عليها مع الأمبراطور واضطر بوهيموند ـ بعد مماطلة ـ الى مغادرة كستوريا (التي مكثوا فيها بعد هزيمتهم أمام لاريسا) الى ايطاليا ، بعد أن عينّ أشهر قادته خلفاً له ـ واسمه برينيوس Bryennieus ـ لتولي أمر الحملة(٧٠) .

عندما علم الأمبراطور البيزنطي برحيل بوهيموند إلى أيطاليا انطلق بقواته وحاصر مدينة كستوريا بالجيش والسفن (لأن كستوريا تقع على ضفة بحيرة تحمل نفس الأسم) . ورغم أن القوات البيزنطية قد دخلت المدينة الأخيرة إلا أن برينيوس رفض الأستسلام . ولكنه اضطر أخيراً الى أداء قسم يتضمن تعهداً بألا يحمل هذا القائد سلاحاً ضد الأمبراطور ثانية ، شريطة أن يعطيه الأخير أماناً بمغادرة حدود الأمبراطورية سالماً . وقد وافق الكسيوس على ذلك ، وفي ذات الوقت انضم قسم من قوات الحملة النورمانية الى الجيش البيزنطي وقسم آخر اتجه الى وطنه . وبذلك تسلّم الأمبراطور كستورياً ـ بعد أن فرّق ـ بدبلوماسية ـ الجيش النورماني ـ (في أكتوبر أو نوفمبر ١٠٨٣م)(٧١) . وتمكن البيزنطيون حتى نهاية عام ١٠٨٣م من تحرير كافة المدن والمواقع التي احتلها الغزاة النورمان ما عدا ثلاثة مراكز رئيسية وهي : دورازو وآفالونا وجزيرة كورفو(٧٢) .

أما جويسكادر ـ الذي نجح في اخماد ثورة اتباعه وفي اجبار هنري الرابع على مغادرة ايطاليا ـ فقد صعق بوصول ابنه بوهيموند وبالفشل التام للحملة ، إلا أنه صمم على استئناف الحرب ضد بيزنطة ، ناسياً أن فترة غيابه الطويلة في ايطاليا قد أعطت خصمه ـ الكسيوس كومنين ـ فرصة طيبة لاعادة بناء قواته وتنظيمها . واتم

---

(70) ANNA, op. cit., pp. 127-31.

(71) ANNA, The Alexiad, pp. 138-39.

(72) Yewdale, Bohemond., p. 22.

جويسكارد استعداداته للحملة الجديدة في خريف عام ١٠٨٤م . ولكنه قبل أن ـ يغادر ايطاليا بعث بقسم من قواته ، تحت قيادة ولديه روجر بورصا وجاي ، بهدف احتلال آفالونا ـ التي استعادها البيزنطيون في أوائل عام ١٠٨٤م ـ ونجح روجر وجاي في احتلالها ومن ثم احتلا مدينة بوترينتو التي كان قد استعادها البيزنطيون(٧٣) .

وفي أوكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٠٨٤م غادر جويسكارد ميناء برانديزي على رأس قوات كبيرة(٧٤) ، والتقى بولديه عند بوتر نيتو ، ومن ثم تابع طريقه إلى جزيرة كورفو لاجهاض الثورة التي قام بها سكان هذه الجزيرة ضد الوجود النورماني ولرفع الحصار البيزنطي البندقي الذي فرض على الحامية النورمانية التي سبق أن تركها جويسكارد في هذه الجزيرة(٧٥) .

عندما علم الكسيوس بحملة جويسكارد الجديدة ، كتب الى البنادقة يحثهم على منازلة جويسكارد بأقصى سرعة ، ويؤكد لهم في ذات الوقت كل الأمتيازات التي سبق أن قطعها لهم ، مع استعداده لتحمل كافة نفقات اسطولهم(٧٦) . كذلك قام الأمبراطور من جانبه بارسال قوات بحرية ضخمة لتشترك مع الاسطول البندقي في مواجهة جويسكارد. وبالفعل وصل البنادقة الى سواحل كورفو باسطولهم ، ودخلوا في حرب مباشرة مع البحرية النورمانية قرب الجزيرة الأخيرة ، ولقي الأسطول النورماني هزيمتين متتاليتين . ولقد ظن البنادقة أن جويسكارد قد هُزم بشكل لا يمكنه فيه استئناف القتال ، أو بمعنى آخر ، لقد اعتقد البنادقة بأن الحرب قد انتهت ، وأصابهم نوع من الاسترخاء ، كما لو أنهم قد اتّموا مهمتهم بشكل نهائي ، ولقد بعثوا بقسم كبير من أسطولهم الى البندقية ليحمل أنباء انتصاراتهم على جويسكارد الى ذويهم فانتهز جويسكارد هذه الفرصة ، وهاجم ـ بما تبقى من أسطوله ـ السفن البندقية المبعثرة ، والحق بها هزيمة ساحقة أمام جزيرة كورفو(٧٧) .

(73) ANNA, op. cit., pp. 144-45; chalandon, Alexis, p. 91.

(٧٤) كان بحوزة جويسكارد اسطولا يقدر بحوالي ١٢٠ سفينة : أنظر :

Hosdgson, Venice, p. 218.

(75) ANNA, op. cit., p. 145.

(76) ANNA, op. cit., p. 145; Hodgson. , p 219;

(77) ANNA, The Alexiad, pp. 145-146.

وكان للمعركة الأخيرة أبلغ النتائج بالنسبة للقوى المتصارعة ، فبالنسبة للنورمان فقد تمكنوا من رفع الحصار عن الحامية النورمانية الموجودة في الجزيرة وبالتالي ثبتوا مواقعهم فيها . وبالنسبة للبنادقة فقد كانت الهزيمة قاسية عليهم نفسياً ، بعد انتصاراتهم المتتالية - خلال السنوات الثلاث السابقة ، ويشير بعض المؤرخين المحدثين - أمثال فنلاي وهدسن(٧٨) - الى أن البنادقة قد حمّلوا مسؤولية الهزيمة الى الدوج دومنيكو سيلڤو (الذي كان يقود الأسطول البندقي خلال الحرب النورمانية البيزنطية) ولهذا فقد عزلوه وعينوا خلفا له . إضافة الى ذلك فقد خسر البنادقة عدداً من السفن وفقدوا أعداداً هائلة من رجالهم بين قتلى وأسرى . ووفقاً لما ذكرته الأميرة آنا كومنين(٧٩) . فقد عامل جويسكارد الأسرى البنادقة بوحشية بالغة ، حتى أنه اقتلع عيون البعض وقطع أنوف آخرين وبتر أطراف قسم آخر .

ومهما يكن من أمر فقد أُصيبت القوات النورمانية بكارثة هائلة (في شتاء ١٠٨٥م) حيث انتشر وباء ذهب ضحيته عدد هائل من كبار رجالات الحملة ، وسقط بوهيموند ابن جويسكارد نفسه مريضاً ، واستأذن والده وعاد الى ايطاليا للمعالجة(٨٠) . وفي مطلع الربيع (١٠٨٥م) بعث جويسكارد ابنه روجر بورصا لاحتلال جزيرة سيفالونيا وفي بداية الصيف (١٠٨٥م) لحق جويسكارد بابنه هذا ، إلا أنه ما كاد يصل الى أطراف الجزيرة الأخيرة حتى سقط مريضاً وتوفي في ١٧ يوليو ١٠٨٥م . عن عمر يقدر بسبعين عاماً ، ونقل جثمانه الى ايطاليا(٨١) .

وكان لوفاة جويسكارد وقع هائل بين أفراد وضباط القوات النورمانية ، فأخذوا يتركون مواقعهم ويعودون الى ايطاليا . كما أن البيزنطيين تنفسوا الصعداء عند سماعهم بوفاة الزعيم النورماني . وأحس الأمبراطور الكسيوس وكأن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهله . ولم يبق أمام الكسيوس كومنين لازالة الآثار المادية التي خلفتها

(78) Finlay, Hist. of Creece, vol. III, pp. 82-83; Hodgson, venice, p. 224.

(79) ANNA, op. cit., p. 146.

(80) Chalandon, Alexis: p. 93; Yewdale, Bohemond; p. 23.

(81) ANNA, The Alexiad, pp. 147-48; Finlay, op.cit. vol. III, p. 82; Hodgson, venice, p. 223; chalandon, Alexis, p. 93; yewdale, Bohemond, p. 23.

الحملة النورمانية سوى استرجاع مدينة دورازو، التي لا زالت قلعتها بيد حامية نورمانية . وأخيراً تمكن العاهل البيزنطي من استرجاع المدينة المذكورة عن طريق الاتصالات السرية التي أجراها مع سكانها الذين قاموا بترتيب مؤامرة انتهت بتسليم المدينة للامبراطور مقابل كميات هائلة من الأموال والعروض السخية(٨٢) . وعلى هذا الوجه انتهت الحملة النورمانية (١٠٨١ ـ ١٠٨٥م) بعد أن اقضّت مضاجع الأمبراطورية البيزنطية ـ حكومة وشعباً ـ أكثر من أربع سنوات .

تعتبر هذه الحملة النورمانية (١٠٨١ ـ١٠٨٥م) مقدمة للصراع البيزنطي النورماني الذي استمر طوال قرن من الزمن . والمهم أن يبقى في أذهاننا أن أهداف هذه الحملة والاستراتيجية التي اتبعها جويسكارد في صراعه مع بيزنطة بقيت ـ إلى حد بعيد ـ نفس الأهداف ونفس الاستراتيجية التي اتبعها خلفاؤه فيما بعد في صراعهم مع بيزنطة . ومن جهة أخرى فان الاستراتيجية التي اتبعها الكسيوس كومنين عندما واجه هذا الغزو النورماني ـ والتي اعتمدت أساساً على التحالف مع البندقية وألمانيا ـ هي نفسها ـ الى حد بعيد ـ الاستراتيجية التي اتبعها خلفاؤه من بعد ، في صراعهم مع نورمان جنوب ايطاليا خلال القرن الثاني عشر ، كما سنرى ذلك كله خلال هذا البحث .

---

(82) ANNA, op. cit., p. 148.

الفصل الثاني

بيزنطة ومشاكل البلقان ١٠٨٦ ـ ١٠٩٤م

بيزنطة والبجناك (١٠٨٦ ـ ١٠٩٢م) :

ما كادت الأمبراطورية البيزنطية تتخلص من الخطر النورماني (١٠٨١ ـ ١٠٨٥م) حتى تعرضت لغارات القبائل التركية البجناكية القاطنة على ضفاف الدانوب . ومن حسن حظ البيزنطيين أن البجناك لم يستفيدوا من الهزائم التي حلّت بالجيوش الأمبراطورية خلال حربها ضد الغزاة النورمان ، لأنه لو تعرضت الامبراطورية خلال ذلك لغزو بجناكي فإن ذلك كان يمكن أن يؤدي الى كارثة تهدد العنصر البيزنطي(١) .

وقد سبقت لنا الاشارة الى أصل البجناك(٢) وموطنهم وغاراتهم المستمرة ـ تقريباً على الأقاليم البيزنطية منذ منتصف القرن الحادي عشر . ولكن خطرهم الحقيقي على الأمبراطورية بدأ منذ عام ١٠٨٦م . حيث أغار هؤلاء على تراقيا بتحريض من مذاهب دينية مخالفة للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية ، وبشكل خاص المانوية(٣) ، وذلك أن الامبراطور الكسيوس كومنين كان قد أنزل أشد أنواع العذاب بالمنويين بسبب خيانتهم للدولة البيزنطية أثناء الحرب النورمانية ، حيث انسحبوا من ساحة القتال في أحرج الأوقات وأصعبها . وهذا الاضطهاد دفع المانويين للثورة بالتعاون مع البجناك(٤) .

---

(1) Finlay, Hist. of Greece, vol. III, p. 83.

(٢) تطلق المؤرخة البيزنطية آنا كومنين على البجناك اسم الـ Scythians أنظر :

ANNA, op. cit., p. 164.

(٣) المانوية مذهب فارسي الأصل . ويعتقد أتباعه أن في الكون الهين مستقلين أحدهما للخير والآخر للشر ، والحياة في نظرهم صراع بين الجسد والروح وبين الظلام والنور في سبيل الخلاص الذي هو الغاية النهائية لكل حي . وقد اعتنق هذه الازدواجية بعض الفئات المسيحية . أنظر : كولتون : عالم العصور الوسطى ، ص٢٦٩ ؛ وكذلك هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية ، ص٥٨ .

(4) Finlay, op. cit., vol. III, p. 83; Bailly, Byzance, p. 310.

ومهما يكن من أمر فان الامبراطور ما كاد يسمع بغارة البجناك هذه وتعاونهم مع المانويين حتى أمر حاكم الأقليم الغربي واسمه باكوريانوس Bakourianos بتجهيز جيش والتوجه لمحاربتهم . وبالفعل اتجه باكوريانوس واصطدم مع البجناك في معركة قاسية ، انتهت بتمزق الجيش البيزنطي وقتل قائده ، باكوريانوس نفسه(٥) . وقبل أن ينتهي ذلك العام (١٠٨٦م) بعث الامبراطور الكسيوس كومنين جيشاً آخر ، تحت قيادة تاتيكوس ، تمكن من هزيمة البجناك هزيمة منكرة قرب فيلوبوليس ، وعاد الى القسطنطينية محمّلاً بالأسلاب والغنائم(٦) .

وفي ربيع عام ١٠٨٧م قام القائد الأعلى للجيش البجناكي ـ واسمه تزيلكو ـ Tzelgu بعبور الدانوب على رأس قوات تعد حوالي /٨٠/ ألفاً ، وهاجم مدينة كاريوبوليس Chariopolis ، وانتزع كميات كبيرة من الغنائم ، ومن ثم استقر في مكان مجاور لهذه المدينة . ولهذا بعث العاهل البيزنطي جيشاً كبيراً بقيادة مافروكاتاكلون Mavrocatacalon ، تمكن من هزيمة البجناك هزيمة منكرة وجرح قائدهم . ومن ثم عادت القوات الأمبراطورية الى العاصمة (٧) .

على أنه يبدو أن مثل هذه الغارات البجناكية لم تكن لتشكل خطراً كبيراً على بيزنطة . ولكن بدخول عام ١٠٨٨م بدأت العناصر البجناكية ـ التي طردت من مقدونيا وفيلوبوليس ـ بالعودة ثانية والاستقرار قرب نهر الايسترا(٨) ونهب الاقليم البيزنطي وكما لو أنه كان ملكاً لهم . ولذا قاد الامبراطور الكسيوس كومنين بنفسه جيشاً كبيراً ، وهاجم به المراكز البجناكية الواقعة على الدانوب الأدنى . ورغم الانتصارات الجزئية التي حققها العاهل البيزنطي في حملته هذه ، إلا أن وصول /٣٦٦/ ألف بجناكي جدد ـ لمساعدة أبناء جنسهم ـ حسم الموقف لصالح هذه القبائل حيث تمزق الجيش البيزنطي خلال معركة طاحنة ، أعمل فيها البجناك سيوفهم في رقاب البيزنطيين دون شفقة أو رحمة ، والتجأ الامبراطور الى مدينة أدرنه

(5) ANNA, The Alexiad, p. 165.

(6) Ibid., p. 166.

(7) Ibid., pp. 168-69.

(٨) يدعى نهر الايسترا في قسمه الأعلى باسم نهر الدانوب بينا قسمه الأسفل يدعى بنهر الايسترا ، وهو يصب في البحر الأسود . أنظر : Ibid., p. 171.

بعد أن كاد يقع أسيراً ، ومن ثم عاد الى عاصمته تاركاً خيرة ضباطه مضرجين بدمائهم في ساحة المعركة(٩) .

بعد هذه المعركة وقّع الطرفان ـ البيزنطي والبجناكي ـ صلحاً في عام ١٠٨٨م وآخر في عام ١٠٨٩م(١٠) . ولكن سرعان ما استأنف الطرفان الحرب في بداية عام ١٠٩٠م حيث انطلق البجناك باعدادٍ هائلة يسلبون وينهبون ووصلوا بأعمالهم هذه الى ضواحي القسطنطينية . وتمكن الامبراطور ـ أخيراً من الحاق هزيمة ساحقة بهؤلاء المغيرين وأنقذ عاصمته من خطر ساحقٍ(١١) .

وكان أن تأثر البجناك لهزيمتهم الأخيرة ، فعقدوا العزم على شن حملة مصيرية حاسمة ضد بيزنطة بالتنسيق الكامل مع أمير أزمير تزاخاس Tzachas . وبالفعل انطلق البجناك (أوائل عام ١٠٩١م) باتجاه القسطنطينية ، بأعدادٍ قدّرها المؤرخ الأرمني متى الرهاوي بحوالي /٦٠٠/ ألف رجل(١٢) ، وتمكنوا من تشتيت القوات البيزنطية التي حاولت اعتراض طريقهم الى العاصمة البيزنطية . وفي النهاية نجحوا في احتلال ضواحي القسطنطينية وفرضْ حصارٍ عليها من ناحية البر . وفي ذات الوقت ـ تقريباً ـ قام الأمير التركي تزاخاس على رأس حملة بحرية وفرض الحصار على العاصمة البيزنطية من ناحية البحر(١٣) .

وأدرك الامبراطور الكسيوس كومنين خطورة الموقف ، «فأذاع منشوراً دعا فيه رعاياه للتطوع دفاعاً عن العاصمة(١٤) . فلبى السكان نداء الامبراطور . وتمت هزيمة تزاخاس هزيمة منكرة ورفع الحصار البحري عن القسطنطينية(١٥) . ومن ثم تفرغ الامبراطور لرفع الحصار البرى . حيث دارت معركة رهيبة بين البيزنطيين والبجناك قرب ليبورنيوم Leburnium(في ابريل من عام ١٠٩١م) ، انتهت بتمزق القوات

(9) ANNA, op. cit., pp. 169-76; Matthieu of Edessa, op. cit., p. 199.

(10) Anna, The Alexiad, pp. 180-82.

(11) Ibid., pp. 195-96.

(12) Matthew of Edessa, chronicle, pp. 199-200.

(13) ANNA, op. cit., p. 198; Bailly, op. cit., pp. 310-11.

(14) Matthew of Edessa, op. cit., pp. 199-200.

(15) ANNA, op. cit., p. 199.

البجناكية وابادة اعدادٍ هائلة من الرجال والنساء والأطفال وكانت هذه المعركة مذبحة مرتّبة ومنسقة للاجهاز على البجناك»(١٦) ، وأراح الكسيوس بلاده من الخطر البجناكي لفترة طويلة من الزمن .

. بيزنطة والصرب (١٠٩٠ ـ ١٠٩٤م) .

قبل أن ينتهي الامبراطور من الخطر البجناكي ، بدأت القلاقل والاضطرابات في الشمال الشرقي من البلقان ، حيث أخذ الصرب(١٧) يغيرون على المدن البيزنطية المجاورة ، ويعملون فيها السلب والقتل والتدمير(١٨) . وكان قد طلب العاهل البيزنطي من دوق مدينة دورازو ـ واسمه يوحنا دوقاس ـ مواصلة القتال ضد الصرب وتمكن يوحنا هذا من استعادة العديد من المواقع البيزنطية التي كان قد احتلها الزعيم الصربي بولكانوس Bolcanus ، ومن أسر أحد أمراء الصرب واسمه بودينوس Bodinus . ولكن حدث في العام التالي (١٠٩١م) أن أطلق الكسيوس كومنين سراح هذا الأمير تمشياً مع هدنة تم توقيعها بين بيزنطة وأمراء الصرب(١٩) .

ومع مطلع عام ١٠٩٣م نقض الصرب الهدنة مع بيزنطة ، وأغاروا على بعض المدن الامبراطورية واحتلوا بعضها الآخر . وعندما سمع الامبراطور البيزنطي بذلك ، توّجه بنفسه الى موقع الأحداث على رأس قوات كبيرة . إلا أن بولكانوس فتح باب المفاوضات مع العاهل البيزنطي قبل بدء القتال ، وتم توقيع معاهدة صلح بين الطرفين (١٠٩٣م)(٢٠) .

ولقد ماطل بولكانوس في تنفيذ شروط الصلح ، وخاصة تسليم الرهائن المطلوبة بل أنه عاود الاغارة مجدداً على المدن البيزنطية المجاورة وذلك في عام ١٠٩٣ ـ ١٠٩٤م ،

---

(16) Edessa, p. 200; Bailly, op. cit., pp. 311-12.

(١٧) تطلق آنا كومنين على الصرب اسم الدالماشيين Dalmations أنظر :
ANNA, The Alexiad, p. 186.

(١٨) ان العلاقة بين بيزنطة والصرب في هذه الفترة تبدو غامضة جداً . والمصدر الوحيد ـ تقريباً ـ عن هذه العلاقة هو «الالكسياده» لآنا كومنين . ولكن هذا المصدر يقدّم لنا معلومات مضطربه حيناً ومبتورة حيناً آخر ـ حول هذا الموضوع ـ فضلاً عن أنه يفتقد الى تحديد زمني للحوادث بين الصرب والبيزنطيين .

(19) ANNA, op. cit., pp. 186-207.

(20) Ibid., pp. 220-21.

وعندما حاول حاكم دورازو الجديد (يوحنا ابن شقيق الامبراطور، اسحق كومنين) التصدي لهؤلاء الصرب أوقعوا به هزيمة ساحقة(٢١).

وأخيراً قاد الامبراطور الكسيوس كومنين جيشاً، لمعاقبة بولكانوس وأتباعه واتجه الى دالماشيا (١٠٩٤م) مباشرة. وقد أدرك بولكانوس خطورة موقفه وعدم قدرته على مواجهة القوات البيزنطية. ولذا فتح باب المفاوضات مع العاهل البيزنطي وقدم أبناء أخيه كرهائن ليثبت حسن نيته في الصلح، وتعهد ـ في ذات الوقت ـ بعدم القيام بأعمال عدوانية ضد الامبراطورية. وكان أن وافق الكسيوس كومنين على شروط الصلح هذه، واستطاع ايجاد حل سلمي لما يمكن انجازه عن طريق الحديد والدم(٢٢).

ومن حسن حظ الامبراطورية أن الفوضى سرعان ما مزقت هذه المملكة الصربية الحديثة العهد، واستفاد الامبراطور يوحنا بن الكسيوس كومنين من هذه الفوضى لفرض السيادة البيزنطية على جزء من هذه البلاد.

بيزنطه والكومان (١٠٩٣ ـ ١٠٩٤م):

ما كادت تهدأ شؤون البلقان بتوقيع معاهدة الصلح بين بيزنطة والصرب حتى بدأ الكومان(٢٣) غاراتهم على الأراضي الامبراطورية. ولم تستهدف غارات هذه القبائل السلب والنهب فحسب وانما احتلال القسطنطينية لتنصيب أحد الطامعين بالعرش البيزنطي، والذي انتحل اسم ليو بن رومانوس الرابع ديوجينوس (١٠٦٨ ـ ١٠٧١م). ووفقا لما تقوله آنا كومنين(٢٤) فان ليو هذا قد جاء من الشرق ودخل القسطنطينية وأخذ يجوب بيوت الأهلين، مدعياً أنه ليو ابن الامبراطور ديوجينوس وأنه صاحب الحق الشرعي في العرش، وتعلق المؤرخة على هذا الادعاء بقولها: أن ليو ابن ديوجينوس كان زوج عمتها، وأنه كان قد قتل قبل سنوات. ولقد حذّر الامبراطور الكسيوس هذا الرجل «الدجال» أكثر من مرة من الاستمرار بمثل هذه الاقاويل

(21) Ibid., pp. 221-22.

(22) ANNA, The Alexiad. pp. 222-23; chalandon, Alexis, p. 149.

(٢٣) الكومان من القبائل البدوية التي كانت تسكن السهوب الجنوبية لروسيا، وكانوا رحّلاً يعيشون على الغزو، ولغتهم هي اللغة التركية ويعتقد البعض أنهم والأتراك من أصل واحد، وتشير اليهم بعض المصادر باسم القبجاق. أنظر: عاقل: المرجع السابق، ٢٧٣.

(24) ANNA, op. cit., 237-38; chalandon, op. cit., pp. 149-54.

الكاذبة ، ولكنه استمر في نشاطه الى أن اضطر الامبراطور لاعتقاله وسجنه في مدينة خرسون . وتتابع المؤرخة آنا كومنين روايتها : أن اتصالاً قد تم بين هذا المدعي وبين عدد من التجار الكومان الذين كانوا يترددون على مدينة خرسون وأقنعهم بقصته ، حتى هرب بمساعدتهم من السجن ، والتف حوله الكومان واعتبروه امبراطورا . واذا كانت هذه الرواية صادقة فان الكومان قد استخدموا هذا الشخص ورقة لتبرير هجماتهم على الامبراطورية ، كما فعل جويسكارد قبل عقد من الزمن تقريبا عندما اخترع راهباً باسم ميخائيل السابع .

وبالفعل اجتاز الكومان الدانوب تحت رعاية «ديوجينوس المزيف» ، واحتلوا عدة مدن بيزنطية ، ومن ثم فرضوا الحصار على مدينة انخياليوس Anchialus (الواقعة على الضفة الغربية للبحر الأسود) . إلا أن هذا الحصار فشل بسبب مناعة المدينة وشجاعة حاميتها . ولذا اتجه الكومان إلى مدينة أدرنة المشهورة وبصحبتهم «الامبراطور الدجال» ولكنهم فشلوا في اقتحام المدينة(٢٥) .

وأخيراً تمكن أحد رجال الامبراطور من خداع ليو «الدجال» واستمالته الى احدى القلاع البيزنطية . وقتله مع مرافقيه . في حين تمكن الامبراطور الكسيوس من هزيمة الكومان هزيمة منكرة ـ بعد عدة معارك ـ وذلك في ربيع عام ١٠٩٥م ، وانتهى بذلك الخطر الكوماني على الامبراطورية لفترة طويلة(٢٦) .

وصفوة القول ، أن غارات البجناك والصرب والكومان وثوراتهم ، في البلقان ، قد شكلت خطراً حقيقياً على الامبراطورية البيزنطية في مستهل القرن الثاني عشر . واذا كان الامبراطور الكسيوس كومنين قد نجح في انقاذ عاصمته وبلاده من أخطارهم لفترة ، إلا أن هذه القبائل استأنفت أعمالها ضد الامبراطورية خلال القرن الثاني عشر ، وبالتالي أعاقت ـ الى حد ما ـ نشاطات بيزنطة في صراعها مع القوى الايطالية . ومن ناحية أخرى قام ملوك نورمان جنوب ايطاليا ـ وخاصة روجر الثاني ـ في أواسط القرن الثاني عشر بإثارة قبائل الكومان والصرب ضد الدولة البيزنطية لاعاقة مشاريع البيزنطيين في ايطاليا ، كما سنشير الى ذلك خلال البحث .

(25) ANNA, The Alexiad, pp. 239-42.

(26) Ibid., pp. 243-44, 245-47.

الفصل الثالث

بيزنطة والسلاجقة ١٠٨١ ـ ١٠٩٥م .

سبق أن أشرنا الى الخطر السلجوقي الذي بدأت تتعرض له الامبراطورية البيزنطية منذ منتصف القرن الحادي عشر تقريبا ، وكيف وصل هذا الخطر الى ذروته بهزيمة ساحقة تكبّدتها بيزنطة في ملاذكرد عام ١٠٧١م على يد السلطان السلجوقي ألب أرسلان . ولا يسعنا المجال للافاضة في أسباب هذه الهزيمة وانما نكتفي بالقول أنها كانت أشد الكوارث الحاسمة التي وقعت في التاريخ البيزنطي . فلقد تحطمت قوتها وحصد ألب أرسلان زهرة ضباطها وأسر امبراطورها ، وهو أول أمبراطور يأسره المسلمون ، وفُتح الطريق أمام الأتراك السلاجقة لابتلاع آسيا الصغرى التي تعتبر مصدراً من المصادر الرئيسية لموارد بيزنطية ـ البشرية والاقتصادية(١) . ولعل أهم من ذلك كله أن مأساة بيزنطة في ملاذكرد جاءت دليلاً على نهاية دور الدولة البيزنطية في حماية المسيحية من خطر الاسلام ، وفي حراسة الباب الشرقي لأوروبا من غزو الآسيويين ، وبذلك صار على الغرب الأوربي أن يقوم بدوره في هذا بدلاً من اعتماده حتى ذلك الوقت ، على الامبراطورية البيزنطية(٢) . وبعبارة أخرى فان ما حدث عام ١٠٩٥م من دعوة للحرب الصليبية في الغرب الأوربي ، انما كان على أساس أن هذه الدعوة جاءت رد فعل للكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية سنة عام ١٠٧١م(٣) . ولهذا لم يبالغ بعض المؤرخين عندما اعتبروا هذه المعركة البداية الفعلية لزوال الامبراطورية البيزنطية وقيام الدولة التركية على يد العثمانيين في بداية العصور الحديثة(٤) .

وعلى أية حال فقد سبق لبيزنطية أن هُزمت أمام أعدائها من مسلمين وغير

---

(1) Stephenson, Med. Hist., p. 293; Cam. Med. Hist., Vol. IV, p. 212.

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٨٨ ـ ٨٩ .

(3) Ostrogorsky, Op. Cit., p. 305.

(4) Stephenson, Op. Cit., p. 293.

مسلمين ، ومعركة ملاذكرد تبقى في كل الأحوال معركة عسكرية ، وكان بالامكان تجاوزها خاصة وأن السلاجقة لم يستغلوا انتصارهم فيها مباشرة بسبب ميلهم الى فتح الديار المصرية(٥) ووفاة ألب أرسلان في العام التالي(٦) . ولكن المجتمع البيزنطي لم يكن سليماً من الآفات حتى يتمكن من تجاوزهذه الكارثة . فلقد استمر الصراع حول السلطة بين الارستقراطيتين العسكرية والمدنية ، وظل الجيش مطية الطامع في العرش ، بل أكثر من ذلك أن الطامعين في السلطة البيزنطية استعانوا بالسلاجقة الأتراك لتحقيق مطامعهم . من ذلك أن ميخائيل السابع (خليفة أسير ملاذكرد رومانوس) ، استعان بالسلاجقة ضد زعيم المرتزقة النورماني روسل باليل ، كما استعان ميخائيل نفسه بالسلاجقة ضد نيقفور بوتانياتس الذي كان يتطلع للعرش البيزنطي ، كما استعان الأخير بقوات سلجوقية ضد ميخائيل ... ، وفي كل مرة كان يتم فيها الاستعانة بالسلاجقة كان يتمّ انتشارهم واستقرارهم في مدن ومناطق بيزنطية جديدة داخل آسيا الصغرى(٧) .

ومهما يكن من أمر فانه عندما اعتلى الكسيوس كومنين العرش البيزنطي (١٠٨١م) كان السلاجقة يعيشون على ساحل بحر مرمرة الشرقي ، كما كان زعيمهم سليمان بن قتلمش (وهو قريب السلطان ملكشاه) قد اتخذ من نيقية مقراً له ، وبدأ يشن الغارات لنهب اقليم بثينا ، بل حاول هؤلاء السلاجقة اجتياز بحر مرمرة الى الشاطىء الأوربي(٨) . وبعبارة أخرى فإن السلاجقة ـ عند اعتلاء الكسيوس كومنين ـ كانوا السادة الحقيقيون في آسيا الصغرى ، من الفرات شرقاً حتى بحر مرمرة غرباً .

وكان أن حاول الكسيوس كومنين (صيف ١٠٨١م) طرد السلاجقة من بعض المواقع التي احتلوها على الضفة الشرقية لبحر مرمرة . ويبدو أنه اتبع في ذلك نوعاً من حرب العصابات.وفقاً لرواية آنا كومنين(٩) ، فإن الامبراطور حقق شيئاً من النجاح في

(٥) كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ٣٥٠ .

(٦) ابن العديم : ج ٢ ، ص ٤٧٠ ؛ ابن العبري : ص ٣٢٤ .

(7) Ostrogorsky, pp. 307-308; Setton, 1, p. 201.

(8) Anna, p. 94.

(9) Ibid ., p. 94.

هذا السبيل ، حيث اضطر السلاجقة الى التخلي عن بعض مواقعهم على طول ساحل بحر مرمرة . ولكن محاولات الكسيوس هذه ـ ضد السلاجقة ـ توقفت تماماً بوصول الحملة النورمانية ـ بقيادة جويسكادر ـ الى البلقان . بل اضطر الكسيوس ـ كما ذكرنا سابقا ـ الى عقد معاهدة سلام مع الزعيم السلجوقي سليمان بن قتلمش ، للتفرغ لمواجهة الخطر النورماني . ويبدو أن العلاقة بين بيزنطة وسلاجقة آسيا الصغرى قد ظلت سلمية ، خلال الغزو النورماني ضد بيزنطة (١٠٨١ ـ ١٠٨٥م) ، والدليل على ذلك أن السلطان سليمان بن قتلمش أمد العاهل البيزنطي بفرقة من اتباعه، تقدر بسبعة آلاف رجل ، لمساعدة القوات البيزنطية ضد الغزاة النورمان بقيادة جويسكادر كما رأينا ذلك من قبل .

بدأت العلاقات البيزنطية ـ السلجوقية بالتوتر منذ وفاة السلطان سليمان بن قتلمش عام ١٠٨٦م(١٠) ، وذلك لأن دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، افتقدت بوفاته الى حاكم قوي ينظِّم شؤونها ويضبطها . وتعددت مراكز القوى في هذه الدولة . وظهر عدد من الأمراء التركمان على مسرح الأحداث وفي مقدمتهم أبو القاسم ، الذي كان قد عيّنه سليمان بن قتلمش على نيقية قبيل وفاته(١١). وكذلك تزاخاس أمير أزمير، الذي أشرنا اليه سابقاً ، وكذلك الملك غازي بن دانشمند(١٢) ، أمير كابادوكيا . وقد اتبع هؤلاء الأمراء سياسة توسعية على حساب بيزنطية . ولذا فقد كان على الكسيوس كومنين كبح جماح هؤلاء الأمراء أولاً والعمل على استعادة أملاكه في آسيا الصغرى ثانياً ؛ خاصة وأن أحد هؤلاء الأمراء ـ وهو أبو القاسم ـ كان يعمل على أن يجعل من نفسه سلطاناً على كافة أتراك آسيا الصغرى(١٣) ، بل ربما كان يحلم في الاستيلاء على

---

(١٠) كان سليمان بن قتلمش قد انتزع أنطاكية من البيزنطيين عام ١٠٨٥م . ولكن قتل (أو انتحر) عندما حاول مدنفوذه الى حلب على يد تتش (حاكم دمشق وشقيق سلطان السلاجقة ملكشاه) أثر معركة قرب حلب عام ١٠٨٦م . أنظر : ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ ـ ٤٦١ . أيضا :

ANNA, The Alexiad, p. 103- 104

(11) ANNA, op. cit., pp. 153, 155.

(١٢) الداتشمند Ad- Danichmand من أصل ارمني كانت تقطن منطقة ملطية في نهاية القرن الحادي عشر . أنظر : عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٧١.

(13) ANNA, op. cit., p. 155.

القسطنطينية ، حتى أنه بنى اسطولاً لهذا الغرض(١٤) .

في الوقت الذي كان فيه الكسيوس كومنين يتأهب لمواجهة الخطر البجناكي (١٠٨٦م) ، قام أبو القاسم بشنّ غارات مستمرة على بثينا وبحر مرمرة ، في محاولة منه لتوسيع ممتلكاته على حساب بيزنطة . فاضطر الامبراطور البيزنطي إلى ارسال قوات عسكرية ، تحت قيادة تاتيكوس ، الى نيقيه ضد أبي القاسم . ولكن تمكن الأخير من هزيمة القائد البيزنطي هزيمة منكرة ، وأجبره على العودة الى القسطنطينية(١٥) .

وفي نفس العام (١٠٨٦م) بعث العاهل البيزنطي جيشين ضد أبى القاسم ، أحدهما بري بقيادة تاتيكوس نفسه ، والآخر بحري بقيادة مانويل بوتوميتس . وتمكن الجيشان البيزنطيان من هزيمة قوات أبى القاسم هزيمة منكرة . وأعقب هذه الهزيمة توقيع معاهدة صلح بين الكسيوس وأبى القاسم ، وعلى أثرها زار أبو القاسم القسطنطينية تلبية لدعوة الكسيوس كومنين(١٦) .

وفي نفس العام (١٠٨٦م) بعث السلطان ملكشاه جيشاً كبيراً ، تحت قيادة برسق ، لانتزاع أملاك سليمان بن قتلمش في آسيا الصغرى . وتمكن هذا القائد التركي من ضرب الحصار على مدينة نيقيه . واضطر أبوالقاسم الى طلب المساعدة من الكسيوس كومنين قائلاً له : «أننا نفضّل أن نكون خدماً عندك على ألا نخضع لبرسق»(١٧) . وكان أن لبى الامبراطور نداء الأمير التركي ، وبعث فرقة من أفضل قواته لمساعدته . وتعلّق المؤرخة آنا كومنين(١٨) على هذه الأحداث بقولها «إن الامبراطور لم يبعث بقوات لمساعدة أبى القاسم حباً في الأخير أو كرهاً لبرسق ، وكان يعتقد أن الاثنين عدوان للامبراطورية ، وكان من مصلحته أن يقاتل أحدهما الآخر ، الا أنه أدرك أن مساعدة الطرف الأضعف فيهما ، ليس بهدف تقويته ، بل للقضاء على الطرف الآخر ، ومن ثم يصبح من السهولة على الامبراطور التخلص من الطرف الثاني واسترداد نيقيه» .

---

(١٤) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(15) ANNA, The Alexiad, pp. 155- 56.

(16) Ibid., pp. 156- 57.

(17) Ibid., p. 158.

(18) Ibid., pp. 158- 59.

ومهما يكن من أمر فقد فشلت حملة برسق ، وعادت القوات البيزنطية الى القسطنطينية ، ولكن السلطان ملكشاه ، بعث جيشاً آخر بقيادة ' أمير الرها ، بوزان ، ضد أبي القاسم . وطلب أبو القاسم المساعدة من الكسيوس كومنين للمرة الثانية . ولبى الأخير النداء ، وتمكنت القوات المتحالفة من احباط محاولات بوزان للاستيلاء على نيقيه(19) . وفي هذا الصدد يقول أحد المؤرخين(20) ، إن السبب الذي دفع الكسيوس الى مساعدة أبي القاسم هو ادراك الأول أنه من الخير له أن يجاوره أمير صغير مثل أبي القاسم ، بدلاً من أن يجاوره السلطان ملكشاه ، ولهذا فقد أقدم على مساعدة أبي القاسم ، وبفضل هذه المساعدة تمكن الأخير من الدفاع عن نيقيه .

وتطالعنا المؤرخة آنا كومنين(21) برواية مفادها أن السلطان ملكشاه بعث برسالة الى الامبراطور الكسيوس كومنين يقترح فيها زواج ابنه من ابنة العاهل البيزنطي ، مقابل اعادة انطاكيه وآسيا الصغرى الى بيزنطة . ووافق الامبراطور الكسيوس على هذا الاقتراح ، وبعث وفداً لتبليغ السلطان تلك الموافقة ، ولكن الوفد البيزنطي سمع بوفاة السلطان ملكشاه (١٠٩٢م) قبل وصوله واضطر للعودة الى القسطنطينية .

بعد وفاة أبي القاسم (١٠٩٢م) تولى شقيقه بولكاس شؤون نيقيه ، وبعث الكسيوس كومنين الى بولكاس هذا يطلب منه تسليم المدينة (أي نيقية) مقابل كميات هائلة من الأموال والهبات(22) . وقبل أن يُعطي بولكاس جواباً حاسماً بالنسبة للعرض البيزنطي ، وصل قليج ارسلان(23) ، وهو ابن السلطان سليمان بن قتلمش وتسلم نيقية من بولكاس ، باعتباره الابن الأكبر والوريث الشرعي لسليمان بن قتلمش .

في الوقت الذي كان فيه الصراع البجناكي ـ البيزنطي على أشده ، قام الأمير

(19) Ibid., p. 160.

(٢٠) عاسور : الحركة الصليبية . ج ١ . ص ١١٨ ـ ١١٩ .

(21) ANNA, pp. 160-61.

(22) IBID., p. 162.

(٢٣) كان السلطان ملكشاه قد أسر أولاد سليمان بن قتلمش . إلا أنه عند وفاة ملكشاه (١٠٩٢م) أفرج خلفه السلطان بركياروق عن أولاد سليمان وعادوا الى آسيا الصغرى لتسلم املاك والدهم . أنظر :

ANNA, op. cit., p. 162.

التركي ـ صاحب أزمير ـ تزخاس(٢٤) بمهاجمة الجزر البيزنطية في بحر ايجة مثل خيوس وساموس ورودوس ... الخ ، بل واحتل بعضها . وكان أن حاول الامبراطور الكسيوس تقليم أظافر تزخاس ، إلا أن القوات التي بعثها ضده عام ١٠٩٠م) فشلت في ذلك(٢٥) ، مما شجع تزاخاس على التعاون مع البجناك ، في العالم التالي (١٠٩١م) ، وفرض الحصار على القسطنطينية كما رأينا سابقاً .

وفي أواخر عام (١٠٩١م) احتل تزاخاس أكبر جزيرة بيزنطية في بحر ايجة ، وهي جزيرة ميتلين ، وعندئذ أحس الكسيوس بضرورة توجيه ضربة قاضية لتزاخاس ، خاصة وأن الكسيوس كان على أبواب الصراع ضد الصرب . ولذا بعث العاهل البيزنطي جيشين (مطلع ربيع عام ١٠٩٢م) أحدهما بحري بقيادة يوحنا دوقاس (حاكم دورازو سابقاً) ، والآخر بري بقيادة دلاسينوس ، واتفق أن يعمل الجيشان بتنسيق كامل فيما بينهما . وتمكنت القوات البيزنطية هذه من هزيمة تزاخاس ، واستعادة عددٍ من الجزر البيزنطية التي سبق أن احتلها ، وفي مقدمتها جزيرة ميتلين(٢٦) .

إلا أن تزاخاس سرعان ما استأنف أعماله ضد الجزر البيزنطية ، في الوقت الذي كان فيه الكسيوس مشغولاً في حروبه ضد الصرب . ولذا اتفق العاهل البيزنطي مع السلطان قليج ارسلان ضد تزاخاس(٢٧) ، الا أن هذا التحالف لم يضعَ حداً لأطماع وأعمال تزاخاس . ولكن قدوم الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧ ـ ١٠٩٩م) أعطى البيزنطيين فرصة طيبة لاستعادة نيقية بالتعاون مع الصليبيين ، ومن ثم تقليم أظافر تزاخاس . حيث دخلت القوات البيزنطية مدينة أزمير ، واضطر تزاخاس الى الارتحال(٢٨) .

---

(٢٤) تزاخاس : هو قرصان تركي . كان يعيش في شبابه في القسطنطينية ، وكان قد حصل من الامبراطور بوتانياس على ألقاب تشريفية ووضع تزاخاس في اعتباره ضعف البحرية البيزنطية . فتجهز بإسطول صغير على سواحل آسيا الصغرى مما أتاح له في العمليات الأولى نهب الموانىء وأصبح ثرياً ووسع من أسطوله البحري وأصبح مهيبا يخشى بأسه : أنظر :

Bailly, Byzance, pp. 310- 311.

(25) ANNA,The Alexiad, p. 183.

(26) Ibid., pp. 215- 17.

(27) ANNA, op. cit., pp. 219- 220.

(28) Ibid., pp. 280- 82.

الفصل الرابع

بيزنطة والحملة الصليبية الأولى ١٠٩٧ ـ ١٠٩٩ م

اذا كانت معركة ملاذكرد (١٠٧١ م) قد قررت مصير آسيا الصغرى ، فإن البيزنطيين لم يرضوا بانتشار السلاجقة الأتراك ، وصمّموا على طردهم واستعادة ممتلكاتهم في تلك المنطقة ، ولكنهم كانوا يدركون في ذات الوقت صعوبة ذلك دون مساعدة حلفاء يقفون الى جانبهم . ولهذا توجه الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع (١٠٧١ ـ ١٠٧٨ م) ـ كما رأينا سابقاً ـ الى جويسكارد ـ زعيم نورمان جنوب ايطاليا ـ يعرض عليه مشروعا للتحالف بينهما ـ وقد استهدف ميخائيل من مشروعه هذا حماية امبراطوريته من اطماع جويسكارد وأتباعه من جهة والحصول على مساعدة هؤلاء النورمان ضد سلاجقة آسيا الصغرى من جهة ثانية . ولكن قبل أن تصل مفاوضات ميخائيل ـ جويسكارد الى نتيجة ما ، فتح ميخائيل هذا باب المفاوضات مع البابا جريجوري السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥ م) لنفس تلك الأهداف وأعرب البابا جريجوري عن تحمسه لمساعدة بيزنطة ضد السلاجقة ، خاصة بعد أن دغدغ ميخائيل عواطف جريجوري بإعادة الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية(١) .

ولكن مفاوضات ميخائيل ـ جريجوري كانت حبراً على ورق ، ومع أننا لا نستطيع أن نقرر سبب فشلها ، الا أنه يمكن القول أن نجاح مفاوضات ميخائيل ـ جويسكارد في المرحلة الثانية من المفاوضات (١٠٧٤ م) وقيام التحالف بين الأخيرين ، ربما كان مسؤولاً عن فشل المفاوضات البيزنطية ـ البابوية الدائرة آنذاك ، خاصة اذا علمنا أن العلاقة بين البابا جريجوري السابع ـ وجويسكارد ـ في تلك الآونة ـ كانت سيئة(٢) .

---

(1) Runciman, The Eastern schism, p. 59.

(٢) أنظر الدراسة العلمية التي قام بها كارنيس عن العلاقة بين بيزنطة والبابوية في هذه المرحلة في مقال له تحت عنوان :

Charanis, p.,

«The west and the Origin of the First crusade», in Byzantion (1948-49), XiX, pp. 17-36.

وكان أن أصبح التحالف بين ميخائيل السابع وجويسكارد حبراً على ورق ، حيث أنزل ميخائيل عن العرش البيزنطي ١٠٧٨ م واعتلاه نيقفور الثالث بوتانياتس (١٠٧٨ ـ ١٠٨١ م) ، وتبنى جويسكارد مهمة «الدفاع» عن حقوق ميخائيل السابع ، وجرّد حملته ، التي بحثناها في مستهل هذا الباب ، بدعم من البابا جريجوري السابع نفسه الذي رشق بوتانياتس ومن ثم الكسيوس كومنين ، بالحرمان الكنيسي ، وشاطر النورمان مسؤولية هجومهم (١٠٨١ ـ ١٠٨٥ م) . وقد ردّ الكسيوس على الحرمان البابوي باقفال كنائس اللاتين الموجودة في القسطنطينية ، باستثناء كنائس حلفائه البنادقة ، ورد على دعم جريجوري لحملة جويسكارد ، بالتعاون مع امبراطور المانيا ـ هنري الرابع ـ عدو البابا ـ ضد جويسكارد وجريجوري معاً ، على النحو الذي أشرنا إليه أثناء حديثنا عن الغزو النورماني (١٠٨١ ـ ١٠٨٥م) .

واستمرت العلاقة بين بيزنطة والبابوية متوترة حتى اعتلاء البابا أوربان الثاني المنصب البابوي عام ١٠٨٨ م . ورأى الأخير أن المسألة البيزنطية قد عُولجت بشكل خاطىء ، ولذا فقد أوفد من قبله وفداً الى القسطنطينية يحمل رسالة الى الامبراطور الكسيوس كومنين ملؤها المحبة والرجاء بأن تُفتح الكنائس اللاتينية التي أُغلقت والسماح لاتباعها بأداء شعائرهم الدينية(٣) . وكان أن وافق الامبراطور وأصدر مرسوماً دعا فيه البابا الى القسطنطينية للاشتراك في مجمع يبحث القضايا الدينية التي هي موضع خلاف بين الكنيستين . فوافق البابا وأرسل من يمثله في هذا المجمع الذي عقد في القسطنطينية (١٠٨٩ م) . ولدى وصول الوفد البابوي أعلن رئيسه رفع قرار الحرمان عن الكسيوس ، وقابل الأخير هذه البادرة بأن طلب من البطريرك البيزنطي نيقولا الثالث (١٠٨٤ ـ ١١١١ م) البحث في موضوع ادراج اسم البابا أوربان الثاني في لوحات الكنيسة البيزنطية . ورغم أن أسم البابا لم يُدرج في اللوحات إلا أن المياه عادت الى مجاريها بين بيزنطة والبابوية ، وتجاوز الطرفان موقف البابا الراحل جريجوري السابع ، وحل الوفاق بينهما(٤) .

---

(3) Runciman, The Eastern Schism, p. 61.

(4) Setton, Hist. of the Crusades, vol. I, pp. 226-27.

في الواقع اغتبط العاهل البيزنطي الكسيوس كومنين بقيام هذه العلاقات الطيبة بينه وبين البابوية ، لأنه كان يأمل من خلالها الحصول على مساعدة عسكرية من الغرب . ولكن ما هو نوع هذه المساعدة ؟ هل رغب الكسيوس في حرب صليبية أم مجرد تزويده بمرتزقة ؟. إن المصادر المعاصرة لا تشير اطلاقا الى أن الكسيوس قد دعا الى حرب صليبية ضد المسلمين «لتحرير الأماكن المقدسة» ، والقضية الأخيرة لم تكن تقلقه اطلاقاً ، أو على الأقل في تلك المرحلة بالذات . ومؤرخة حياته ـ ابنته آنا كومنين ـ لا تشير الى ذلك اطلاقاً ، تلميحاً ولا تصريحاً . بل ربما كان يدرك الكسيوس كومنين خطورة القيام بمثل هذا المشروع وإن كان بمساعدة الغرب الأوروبي . ولذا ربما كان أقرب الى المعقول أن الكسيوس قد رغب ـ من خلال علاقته الطيبة بالبابوية ـ الحصول على مرتزقه . خاصة إذا علمنا أن استخدام المرتزقة في الجيش البيزنطي كاد يصبح تقليداً منذ معركة ملاذكرد (١٠٧١ م) .

وكان أن تعرضت البابوية لأزمة داخلية(٥) . وعقد البابا أوربان الثاني مجمعاً في بياسنزا (مارس ١٠٩٥ م) للنظر في أمر نزاعة مع منافسه على الكرسي البابوي . ولكن أثناء انعقاد هذا المجمع وصل وفد بيزنطي الى ايطاليا لجمع المرتزقة للذود عن الامبراطورية ضد السلاجقة . وعلم أوربان بأمر هذا الوفد ، فدعاه ليخطب في رجال الدين المجتمعين ويبينّ لهم الخطر الذي يهدّد الكنيسة في الشرق(٦) . ويبدو أن الوفد البيزنطي قد بالغ في الصورة التي رسمها للمجتمعين عن مشاكل العالم المسيحي في الشرق . والآلام التي يتحملها المسيحيون الشرقيون من «الأتراك»(٧) .

وفي نوفمبر من نفس العام (١٠٩٥ م) عقد البابا أوربان مجمعاً دينياً في كليرمونت ـ بفرنسا ـ للنظر ببعض المسائل الدينية ، وقبل أن يختم هذا المجمع أعماله ألقى البابا خطبة في المجتمعين ذكر فيها السلاجقة وما ارتكبوه من «الفظائع» في الشرق ، وأظهر قدسية«أورشليم»وضرورة المحافظة عليها(٨) وتأمين وصول الحجاج

(5) Setton, 1, p. 229.

(6) Munro, D. C. «Did Alexius Ask For aid at Piacenza», in Amer. Hist. Rev., XXVII, pp. 731 — 33.

(7) Runciman, Hist. of the crusades, 1, pp. 103-105.

(٨) حول أعمال مؤتمر كليرمونت ونص الخطاب الذي ألقاه البابا في هذا المؤتمر أنظر :

Chartre, op. cit., pp. 12-16.

اليها ، وحض الأغنياء والفقراء على الجهاد ، وأعلن الغفران للمجاهدين(٩) . وتعهد بحماية عائلات المتطوعين وأملاكهم ، وأوجب حمل شارة الصليب ، وجعل القسطنطينية ملتقى المحاربين ، وحدّد موعد الانطلاق من الغرب الى الشرق في الخامس عشر من أغسطس عام ١٠٩٦ م(١٠) . ووجدت كلمات البابا قبولاً وحماسة عند الحاضرين ، وأخذ الغرب الأوروبي يتأهب للقيام بأول حملة صليبية الى الشرق .

وقد اعتاد المؤرخون ، عند الحديث عن الحملة الصليبية الأولى ـ أن يقسموها الى قسمين ، القسم الأول ويشمل الحملة الشعبية أو حملة العامة ، والقسم الثاني يشمل حملة الأمراء أو الحملة النظامية . وبالنسبة للحملة الشعبية ، التي كانت بمثابة طلائع للحملة النظامية ، فهي خمس جموع ضمت الفقراء واللصوص والمجرمين وقطاع الطرق والرهبان ، من النساء والرجال والأطفال ، ومن الفرنسيين والالمان وغيرهم ...، وقد فشلت ثلاث جموع من هؤلاء في الوصول الى القسطنطينية نتيجة اصطدامهم بالمجريين الذين شتتوا شملهم . أما البقية الباقية فقد وصلت الى القسطنطينية ، بقيادة والتر المفلس (يوليو ١٠٩٦ م) وبطرس الناسك (أغسطس ١٠٩٦ م) بعد أن الحقت الخراب والقتل والسلب بالأراضي التي اجتازتها(١١) . وقد رحّب العاهل البيزنطي الكسيوس كومنين بهؤلاء ، ونصح بطرس الناسك بالبقاء وأتباعه حول أسوار المدينة ريثما يصل أمراء الحملة النظامية ، مع مراعاة الانضباط واحترام حقوق السكان(١٢) . الا أن هؤلاء عاثوا في ضواحي القسطنطينية فساداً . وأضرموا النيران في القصور البيزنطية وانتهكوا حرمة الكنائس . فاضطر الكسيوس كومنين أن يسهّل لهذه الجموع الصليبية مهمة العبور الى آسيا الصغرى ، حيث وقعوا فريسة سهلة بأيدي السلاجقة الذين نصبوا لهم كميناً واجهزوا عليهم خلال مذبحة رهيبة وعادت القلة الباقية منهم إلى القسطنطينية(١٣) .

---

(٩) أنظر دراسة الكاتبة مونرو لنص خطاب البابا في كليرمونت :

Munro, «The speech of pope Urban II at Clermont» in Amer. Hist. Rev., xi (Newyork, 1906).

(10) Chalandon, Hist. de la pre. Cro., pp. 44-46; Grousset, Hist. des cro., vol. III, pp. 2-5.

(11) Chartre, pp. 21f; Roger of wendaver, 11, pp. 381-83.

(١٢) المؤرخ المجهول : ص ١٩؛ أيضاً انظر : Anna, pp. 250-51.

(١٣) المؤرخ المجهول : ص ١٩ ـ ٢٢ .

وهكذا أخفقت الحملات الشعبية من تحقيق أي هدف صليبي ، بل أنها على العكس من ذلك ، فقد تركت آثاراً سيئة في نفوس البيزنطيين الذين كانوا يتأهبون لاستقبال زملائهم . ولذا فانه لمن سوء حظ الحملة الصليبية الأولى أن كانت طلائعها ـ التي دخلت الأراضي البيزنطية ـ فوضوية ، اذا نبهت البيزنطيين الى الخطر الذي يمكن أن تتعرض له امبراطوريتهم وعاصمتهم من الحملات النظامية الوافدة ، ودفعت الكسيوس كومنين لأن يرسم استراتيجية متينة ، لمواجهة الحملات النظامية ، تستهدف حماية شعبة وأرضه وعاصمته من الصليبيين من جهة ، ومحاولة الاستفادة منهم لاسترداد أملاكه في آسيا الصغرى من جهة ثانية ، وذلك عن طريق مراقبة تحركاتهم ، ومنع تجمعهم أمام العاصمة ، وانتزاع يمين الولاء والطاعة منهم واستخدام الذهب والفضة والمنافسة فيما بينهم(١٤) .

وكان أول من اتجه الى القسطنطينية من الأمراء الصليبيين هو شقيق فيليب ملك فرنسا ، واسمه هيوكونت فرماندو . وقبل أن يصل الأخير الى الحدود الامبراطورية بعث برسالة الى الكسيوس كومنين ملؤها الصلف والكبرياء ، ونعت نفسه فيها «بملك الملوك وأعظمهم على الاطلاق تحت قبة السماء» . الا أن الامبراطور ، استقبله عند وصوله إلى القسطنطينية (نوفمبر ١٠٩٦م) . استقبالاً حافلاً ، وسرعان ما أقسم هيو يمين الولاء والطاعة للعاهل البيزنطي وأنقده الأخير مبلغاً من المال(١٥) .

حقيقة ان أول «حملة» صليبية نظامية اتجهت الى الشرق كانت بقيادة جودفري بوايون ، دوق اللورين السفلي ، وشقيقة بلدوين ، الذي عبر بقواته هنغاريا ، ووصل الى القسطنطينية في ديسمبر من عام ١٠٩٦ م(١٦) ـ ورفض الدوق مقابلة الامبراطور البيزنطي وأداء اليمين الولاء بحجة أنه يتبع الامبراطور الالماني وكاثوليكي المذهب ولرغبته في عدم توريط زملائه الأمراء الصليبيين القادمين(١٧) . ولذلك تأزم الموقف بين

(١٤) جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(15) Anna, pp. 252-54.

(16) Ibid., pp. 257-58.

(١٧) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

الامبراطور والدوق . وحاول هيو التوسط بينهما فخذله الدوق(١٨) . وبعد تبادل أعمال العنف بين أتباعهما(١٩) اضطر الدوق الى أداء اليمين المطلوب ، والذي تضمن «بأن يعيد كل مدينة أو بلدة أو حصن ، قد يحتلها الدوق ، الى الامبراطور فيما إذا كانت هذه المواقع تتبع للامبراطورية البيزنطية سابقا»(٢٠) . وبعد ذلك نقل جودفري قواته الى الضفة الأسيوية عبر البوسفور انتظاراً لقدوم زملائه .

وبعد ذلك جاء بوهيموند بن جويسكاريد يقود ، حملته الصليبية ، المؤلفة من نورمان جنوب ايطاليا وبرفقته عدد من الأمراء النورمان وفي مقدمتهم ابن أخته تانكريد(٢١) . وقدوم بوهيموند هذا أثار موجة من الشك والرعب في نفوس البيزنطيين الذين لم ينسوا أعماله وأعمال أبيه في البلقان قبل عقد ونيف من الزمن . إلا أن بوهيموند نجح في ازالة بعض هذه الشكوك ـ مبدئياً ـ عندما منع أتباعه من القيام بأعمال تخريبية خلال اجتيازهم الأرض البيزنطية ، وعندما ترك بوهيموند واتجه الى القسطنطينية ، حيث اقسم يمين الولاء والطاعة للامبراطور البيزنطي بعد أن تسلم كميات من الذهب والفضة والتحف والهدايا الثمينة ، وذلك في ابريل من عام ١٠٩٧ م(٢٢) ، في حين عبر تانكريد بمعظم القوات النورمانية الى الضفة الأسيوية للبوسفور ، دون أن يؤدي اليمين المطلوب . وتقول المؤرخة آنا كومنين أن بوهيموند قد طلب من الكسيوس كومنين أن ينصبّه «كبير خدام الامبراطورية في الاقاليم الشرقية» فأجابه الكسيوس قائلا : «إن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا الطلب ، ولكن بنشاطك وسمعتك الطيبة ، وفوق كل شيء بوفائك واخلاصك فان تحقيق هذا المطلب ليس بعيد

---

(18) ANNA, The Alexiad, pp. 258-61.

(١٩) تذكرنا آنا كومنين ويشير الى ذلك أيضا وليام الصوري أن الامبراطور كان يخشى أن يكون هناك اتفاق سري بين الأمراء الصليبيين يستهدف احتلال القسطنطينية وانتزاع العرش . أنظر : ANNA, op. cit., p. 258; William of Tyre of deeds, vol. I, pp. 130-31.

(20) ANNA, op. cit., p. 261.

(٢١) أنظر مناقشتنا لحملة بوهيموند وعلاقته بالبيزنطيين أثناء حديثنا عن المسألة الانطاكية في الباب الثالث من هذه الدراسة .

(22) Anna, op. cit., pp. 263-66; Willian of Tyre, op. cit., vol. I, pp. 134-37.

المنال»(٢٣) اما مؤرخ بوهيموند(٢٤) فيذكر ان الامبراطور قد وعد بوهيموند بان يقطعه ارضا وراء انطاكية . وسنتعرض لمناقشة هاتين الروايتين أثناء حديثنا عن أصول المسألة الانطاكية .

وبعيد الحملة النورمانية وصلت الحملة البروفانسية الى القسطنطينية (أواخر ابريل ١٠٩٧ م) ، بقيادة ريموند الصنجيل كونت تولوز ومركيز بروفانس ، ويرافقه المندوب البابوي أدهيار أسقف بوي(٢٥) . ورفض ريموند أداء اليمين للعاهل البيزنطي وتأزم الموقف بين الطرفين ، وأعلن بوهيموند صراحة وقوفه الى جانب الامبراطور ضد ريموند . وأخيراً نجح الأمراء الصليبيون في اصلاح ذات البين بين ريموند والكسيوس ، وأقسم الأول «بالمحافظة على حياة الامبراطور واحترام مكانته وشرفه ...(٢٦)» ولكنه رفض أداء يمين الولاء والطاعة كما فعل زملاؤه . وسرعان ما توطّدت العلاقة بين ريموند والكسيوس ، وطلب الأخير من ريموند مراقبة بوهيموند فيما اذا كان سيحنث باليمين الذي قطعه . وهذا يفسر لنا المديح الذي كالته الأميرة آنا كومنين(٢٧) لريموند ونعته بأنه «الشخصية المتألقة بين كل اللاتين» . وهكذا عبرت القوات البروفانسية إلى الضفة الآسيوية للبوسفور واتخذت مكانها الى جانب بقية القوات الصليبية .

وأخيراً وصلت الحملة الفرنسية الى القسطنطينية (مايو ١٠٩٧ م) بقيادة روبرت أمير نورمانديا وصهره أيتين (ستيفن) أمير بلو وغيرهما . ولم يحدث ما يعكّر العلاقة بين البيزنطين ورجالات هذه الحملة ، وامّتثل قادتها وأدّوا يمين الولاء والطاعة للامبراطور دون صعوبة ، ويعلّق مؤرخ هذه الحملة فوشيه شارتر ـ على ذلك : بقوله : «لقد كان من الضروري بالنسبة الى الجميع الاحتفاظ بالصداقة والعلاقة الطيبة مع الامبراطور البيزنطي ، وذلك لأنه بدون استشارته ومعونته فإننا لا نستطيع أن نتم رحلتنا ، ولا يستطيع أولئك الذين يلحقون بنا ـ على نفس الطريق ـ أن يتمموا

(23) ANNA, op. cit., p. 267.

(٢٤) المؤرخ المجهول : ص ٣١ .

(25) Chartre, chronicle; p. 22.

(٢٦) المؤرخ المجهول : ص٣١ـ٣٢ ؛ ايضاً أنظر

william of Tyre, Hist. of deeds, vol. I, p. 140.

(27) ANNA, The Alexiad . pp. 267-68.

رحلتهم أيضا»(٢٨) . ومن ثم عبرت الحملة الفرنسية الى آسيا الصغرى .

وهكذا نجح الامبراطور في تنفيذ شطر من الاستراتيجية التي رسمها في علاقاته مع الصليبيين ، وفي ذات الوقت انتزع من القادة قسماً باعادة ما يحتله الصليبيون الى الامبراطورية اذا كانت من أملاكها سابقا . ويبدو أن الكسيوس قد وعد الصليبيين بتقديم المساعدة لهم في مهمتهم ولكن هناك شك فيا ذهب اليه المؤرخ المجهول من أن الامبراطور وعد الأمراء الصليبيين بأن يرافقهم شخصياً في حروبهم(٢٩) .

وكان أن زحف الصليبيون على نيقيه وبرفقتهم فرقة عسكرية بيزنطية تحت قيادة تاتيكوس . وضربت القوات الصليبية والبيزنطية الحصار على المدينة الأخيرة (مايو ١٠٩٧ م) . وأمد الامبراطور الصليبيين بالمؤون اللازمة طيلة أيام الحصار . ولكن سرعان ما قامت اتصالات ـ دون علم الصليبيين ـ بين البيزنطيين وسكان مدينة نيقيه والتي انتهت بتسلم القائد البيزنطي بوتاميتس المدينة من سكانها وحاميتها التركية(٣٠) . وبطبيعة الحال فان امتلاك الامبراطور لمدينة نيقيه بهذا الشكل قد ترك انطباعاً سيئاً في نفوس الصليبيين . وأعرب المؤرخ المجهول(٣١) عن الاستياء من ذلك بوضوح . وربما بدأ الصليبيون ينظرون الى الفرقة البيزنطية المرافقة لهم بقيادة تاتيكوس نظرة ملؤها الشك والارتياب . ولعل الشيء الذي أساء للصليبيين أيضاً هو منعهم من دخول المدينة بعد أن تسلمها البيزنطيون بالشكل الذي يرغبونه(٣٢) . وكان أن أدرك الكسيوس كومنين ـ الذي كان يرقب الأحداث على الضفة الآسيوية للبوسفور ـ ما تركته حادثة نيقية في نفوس الصليبيين . فاستدعاهم الى مقره ووزع عليهم الأموال الذهبية والفضية(٣٣) .

ومهما يكن من أمر فقد استمرت العلاقة طيبة بين البيزنطيين والصليبيين حتى ذلك الوقت . وبدأ الصليبيون يشقون طريقهم إلى انطاكية وبرفقتهم الفرقة البيزنطية ،

(28) Chartre, pp. 27-28.

(٢٩) المؤرخ المجهول : ص ٣١ .

(30) ANNA, pp. 268—75.

(٣١) المؤرخ المجهول : ص ٣٧ .

(32) ANNA, p. 275.

(33) ANNA, The Alexiad, pp. 275-76; Chartre, Chronicle, p. 31.

بقيادة تاتيكوس لمساعدة الصليبيين من جهة ولتسلم المدن التي يفتحها الصليبيون بالنيابة عن الامبراطور وفق القسم الذي قطعه الأمراء ، من جهة ثانية . وأعاد الصليبيون لبيزنطة كل ما تم فتحه في طريقهم من مدن ، ولكن قبل وصول الصليبيين الى أنطاكية انفصل تانكريد وبلدوين وراحا يتنازعان على امتلاك مدن قليقيه دون مراعاة للتعهد الذي أخذوه على أنفسهم للامبراطور البيزنطي ، حتى انتهى المطاف ببلدوين الى امتلاك الرُّها وتأسيس أول امارة صليبية فيها رغم أنها كانت تعتبر من «املاك الدولة البيزنطية(٣٤)».

أما الجيش الصليبي الرئيسي فقد تابع طريقه الى انطاكية ، وفرض الحصار عليها (أكتوبر ١٠٩٧ م) ، ولكن مهمة الحصار لم تكن سهلة ، فطال أمده وصمد ياغي سيان ـ حاكم انطاكية ـ أمامهم حتى حل الشتاء وقلت المؤونة لدى الصليبيين ففترت همّة بعضهم وأخذوا في الفرار(٣٥) . وخلال هذه الظروف نجح بوهيموند الذي كان يطمع في امتلاك انطاكية(٣٦) في تثبيت مواقعه بين الصليبيين وفي انتزاع وعد من معظم الأمراء بتمليكه انطاكية اذا تمكن من «فتحها»(٣٧). وكان أن اتصل بوهيموند بأحد رجال ياغي سيان ـ وهو فيروز الأرمني ـ الذي قام بتسليم أحد مداخل المدينة لبوهيموند ، ودخل الصليبيون المدينة ، وفتكوا بالأهالي ، وفرياغي سيان ثم قتل(٣٨) وبعد قليل وصل كربوغا ـ صاحب الموصل وضرب حصاراً حول المدينة(٣٩) ، في حين كانت قلعتها لا تزال بيد الأتراك(٤٠) ، وغدا الصليبيون بين شقي رحى ، ونفذ قوتهم وانتشر الجوع بينهم ، وفر بعضهم طلباً للنجاة(٤١) ، ومن أبرز الفارين ستيفن كونت

---

(34) ANNA, 271-77; chartre, op. cit., pp. 38-41; william of tyre, Hist. of deeds, vol. I, pp. 178-79.

(٣٥) انظر : المؤرخ المجهول : ص ٤٦ ـ ٥٥ .

(٣٦) المصدر السابق : ص ٦٦ ـ ٦٧ .

(٣٧) انظر مناقشة ذلك في حديثنا عن أصول المسألة الانطاكية .

(٣٨) انظر تفصيل ذلك عند : المؤرخ المجهول : ص ٦٦ ـ ٧١ : ابن القلانسي : ص ١٣٦ ؛ أيضاً :
William of Tyre, 1, pp. 249-50.

(٣٩) ابن العديم : ج ٢ ، ص ٤٩٧ .

(40) ANNA, p. 279.

(٤١) ابن القلانسي : ص ١٣٦ ؛ ابن العديم : ج ٢ ، ص ٥٠٠ .

شارتر ، الذي التقى بالامبراطور الكسيوس كومنين ، في آسيا الصغرى ، والذي كان في طريقه لمساعدة الصليبيين ، بعدم جدوى هذا المشروع لأن الصليبيين قد أبيدوا عن بكرة أبيهم ، فصدق الكسيوس ذلك وعاد الى عاصمته(٤٢) .

وأخيرا اندفع الصليبيون خارج انطاكية ، وخاضوا معركة يائسة ومصيرية ضد كربوغا ، انتهت بهزيمة الأخير في ٢٨ يونيه ١٠٩٨ م ، وسرعان ما استسلمت قلعة انطاكية ، وبدأ النزاع بين الأمراء الصليبيين حول امتلاك المدينة . وانجلى الموقف كما سنرى ذلك تفصيلاً في حديثنا عن أصول المسألة الانطاكية ـ بامتلاك بوهيموند لها ، دون مراعاة للقسم الذي قطعه للامبراطور البيزنطي(٤٣) .

أما الصليبيون فقد تابعوا زحفهم جنوباً الى بيت المقدس ، واحتلوا بطريقهم العديد من المدن في الساحل الشامي ، عنوة أو صلحا ، وتمكنوا أخيرا من اقتحام بيت المقدس ، واستباحتها ، وأحدثوا بأهلها مذبحة رهيبة ، ثم اختاروا جودفري حاكماً على بيت المقدس في ٢٢ يوليو من عام ١٠٩٩ م(٤٤) .

اذا ألقينا نظرة شمولية وموضوعية على أحوال الامبراطورية البيزنطية ـ الداخلية منها والخارجية ـ في مستهل القرن الثاني عشر للميلاد ، يمكن أن نحدد أهم القضايا التي ستتحكم في العلاقات بين هذه الامبراطورية وبين الغرب اللاتيني بعامة والقوى الايطالية بخاصة ، خلال القرن الثاني عشر ـ من وجهة النظر البيزنطية ـ بما يلي : أولا : قضية الأملاك البيزنطية في جنوب ايطاليا ـ أبوليا وكلابريا ـ التي احتلها النورمان في أواسط القرن الحادي عشر . ثانيا : مسألة أطماع النورمان في الامبراطورية البيزنطية ذاتها أو سياستهم التوسعية نحو بيزنطة التي افتتحها جويسكارد عام ١٠٨١ م . ثالثا : مشكلة الامتيازات الاقتصادية التي منحها الكسيوس كومنين للبنادقة ، للحصول على مساعدتهم البحرية ضد النورمان ، وكيف أدت هذه الامتيازات تدريجياً الى سقوط الاقتصاد البيزنطي فريسة لهذه الامتيازات خلال القرن

(42) Anna, pp. 277-83; William of Tyre, 1, pp. 275-77.

(٤٣) المؤرخ المجهول : ص ٩٢ ـ ١٠٢ ؛ ابن العديم : ج ٢ ، ص ٥٠١ ـ ٥٠٢ .

(٤٤) المؤرخ المجهول : ص ١١٨ ـ ١٢٠ ؛ أيضاً : Chartre, pp. 69-71.

الثاني عشر من جهة ، وإلى حصول بقية الجمهوريات الايطالية (بيزا وجنوه) على امتيازات مشابهة من جهة ثانية ، والى نمو العداء الشعبي بين البيزنطيين واللاتين خلال القرن الثاني عشر من جهة ثالثة رابعا : قضية الامارات الصليبية التي زرعتها الحملة الصليبية الأولى في بلاد الشام والتي تبنّت سياسة معادية لبيزنطة ، وبشكل خاص أمارة انطاكية التي أقامها بوهيموند النورماني على حساب بيزنطة ، وسنرى خلال هذه الدراسة كيف لعبت الحركة الصليبية بشكل عام والأمارات الصليبية والمسألة الأنطاكية ، دوراً هاماً في رسم السياسة البيزنطية تجاه الغرب اللاتيني بصفة عامة والقوى الايطالية بصفة خاصة .

الباب الثاني

أحوال القوى الايطالية في مستهل القرن الثاني عشر للميلاد .

أحوال القوى الايطالية في مستهل القرن الثاني عشر :

مقدمة :

ان الدارس لتاريخ أوروبا عامة وشبه الجزيرة الايطالية بشكل خاص ، في العصور الوسطى ، يدرك أن ايطاليا ظلت طوال تلك العصور - تقريباً - وحتى القرن التاسع عشر ، مجرد تعبير جغرافي ، وذلك لأنها افتقدت للوحدة السياسية وبقيت مسرحاً تتنازعه مجموعة من القوى ذات مصالح متفقة حينا ومتناقضة معظم الأحيان . فعندما سقط القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية ، في أواخر القرن الخامس للميلاد ، بيد البرابرة الجرمان ، كانت ايطاليا من نصيب القوط الشرقيين (الاوستروغوط) . وعلى الرغم من أن ايطاليا ظلت ، في ذلك الوقت ، تتبع ، من الناحية القانونية الامبراطورية الرومانية التي بقيت على قيد الحياة ، وهي الامبراطورية البيزنطية ، إلا أن نفوذ هذه الامبراطورية في ايطاليا أصبح ضعيفاً ، مما ترك البابوية القوة الوحيدة التي التف حولها الايطاليون ورأوا فيها الزعامة والسند لحمايتهم من القوة الجديدة التي تمثلت في ذلك الدور بالقوط الشرقيين .

وفي أواسط القرن السادس تمكن الامبراطور البيزنطي جستنيان الكبير من سحق القوط وإعادة السيادة البيزنطية على ايطاليا ، رغم المقاومة الباسلة التي أظهرها القوط ، وبذلك اختفى القوط الشرقيون كأمة قائمة بذاتها من صفحات التاريخ . الا أن الفتح البيزنطي لشبه الجزيرة في عهد جستنيان هذا كان مؤقتا وقصير الأجل ، إذ سرعان ما اقتحم اللمبارديون شمال شبه الجزيرة الايطالية وأقاموا أنفسهم كقوة سياسية على حساب بيزنطة في النصف الثاني من القرن السادس ، وأصبحت الأملاك البيزنطية ، نتيجة الغزو اللمباردي الجديد ، في ايطاليا متناثرة ، وبذلك حطّم اللمبارديون الوحدة الايطالية التي أجهد جستنيان نفسه في إحيائها . وأصبحت ايطاليا منذ أواخر القرن السادس مسرحاً للصراع بين ثلاث قوى : البيزنطيون واللمبارديون والبابوية ، التي كانت تنمو في تلك الفترة تدريجيا كقوة سياسية ودينية في

ايطاليا ، حتى أصبحت الكنيسة (البابوية) أكبر مالك للأراضي في ايطاليا ـ في تلك المرحلة ـ نتيجة الحق الذي تمتعت به الكنيسة ـ منذ عهد قنسطنين الكبير ـ في حيازة الممتلكات ، وتزايد هذه المملكات عبر السنين نتيجة وصايا أغنياء النصارى لها بالأموال وما كان يهبه لها أشراف روما فضلاً من تزايد الميل عند صغار الملاك الى وضع أنفسهم تحت حمايتها .

وفي أواسط القرن الثامن انفجر الصراع بين اللمبارديين والبابوية ، وأخذ اللمبارديون يجتاحون الممتلكات البابوية ، في الوقت الذي كانت فيه العلاقة بين البابوية والامبراطورية البيزنطية سيئة جداً بسبب السياسة اللاأيقونية التي اتبعها أباطرة الاسرة الايسورية ، ولهذا فقد اضطرت البابوية لأن تتجه نحو الفرنجة تشحذ مساعدتهم ضد اللمبارديين . وكان أن لبى الملوك الفرنجة النداء وتحالفوا مع البابوية ، ونجحوا في تقليم أظافر اللمبارديين في النصف الثاني من القرن الثامن ووصل التحالف الفرنجي البابوي إلى ذروته بتتويج شارلمان (٨٠٠م) ، امبراطوراً في روما والذي قضى نهائياً على اللمبارديين كقوة سياسية في ايطاليا ، في حين استقر اللمبارديون كشعب في شمال ايطاليا .

ولذا فقد دخلت شبه الجزيرة الايطالية قوة سياسية جديدة منذ أواخر القرن الثامن ، وهي قوة الفرنجة الذين قضوا على اللمبارديين . وأصبحت ايطاليا وقتذاك مسرحاً لثلاث قوى وهي البابوية ، والتي وجدت في الفرنجة حماتها الابرار وأخذت توسع نفوذها المادي والأدبي في ايطاليا ، والفرنجة الجدد والدولة البيزنطية الا أن نفوذ الدولة البيزنطية أصبح ضعيفاً بدخول الفرنجة الى شبه الجزيرة ، وأصبح حكمهم مقتصراً في ذات الوقت على بعض المواقع في جنوب ايطاليا بالاضافة الى صقلية .

ولكن ضعف الامبراطورية الكارولنجية ـ التي أسسها شارلمان ـ في أواسط القرن التاسع وانقسامها ، كان معاصراً ـ الى حد ما ـ لظهور الأسرة المقدونية التي اعتلت عرش الامبراطورية البيزنطية منذ عام ٨٦٧م . وقد نجح أباطرة هذه الأسرة في استغلال الانحطاط الذي أصاب الدولة الكارولنجية واستعادوا بعضاً من مكانتهم ، وتأثيرهم في شبه الجزيرة الايطالية ، وبشكل خاص تثبيت مواقعهم في جنوب شبه

الجزيرة الايطالية وفرض السيادة البيزنطية عليها بعد أن تمكنوا من طرد المسلمين من المدن والمواقع التي كان قد احتلها هؤلاء في مقاطعتي أبوليا وكلابريا وذلك ما بين عام ٨٧٥م وعام ٨٨٧م .

وكان أن تم إحياء الامبراطورية الرومانية في الغرب على يد البيت السكسوني في المانيا في اواسط القرن العاشر ، وطالما أن هذه الامبراطورية كانت من الناحية العملية استمراراً للامبراطورية الكارولنجية ، فقد كان طبيعياً أن تمارس سياستها في ايطاليا وأن تدعّي بحقوق لها في شبه الجزيرة . ولذا فقد أصبحت ايطاليا منذ أواسط هذا القرن وحتى منتصف القرن الحادي عشر مسرحاً لثلاث قوى رئيسية . أولاً : الامبراطورية الرومانية المقدسة . ثانياً : البابوية ، ثالثاً : الامبراطورية البيزنطية . إلا أننا نود أن نشير الى أن أقوى هذه القوى وأكثرها فعالية في السياسات الايطالية في الفترة الممتدة من أواسط القرن العاشر وحتى أواسط القرن الحادي عشر ، هي الامبراطورية الرومانية المقدسة وذلك لأن البابوية كانت تمر وقتذاك في مرحلة من الانحطاط والتفسخ بسبب انتشار الأمراض الكنسية وتدخّل العلمانيين في الكنيسة ، كما سنرى بعد قليل ، كما أن نفوذ الامبراطورية البيزنطية في ايطاليا كان يضعف تدريجياً خلال تلك الفترة بسبب الانحطاط الذي ألمّ بالامبراطورية في أعقاب وفاة بازيل الثاني عام ١٠٢٥م ، كما رأينا ذلك سابقاً ، فضلا عن مشاغل الامبراطورية في الجبهات الشرقية والشمالية .

ولكن منذ مطلع القرن الحادي عشر اخذت تبرز قوى جديدة في الساحة الايطالية وكان بروز هذه القوى أساساً على حساب النفوذين البيزنطي والألماني في شبه الجزيرة الايطالية ، وهذه القوى تمثلت في ظهور الجمهوريات الايطالية : البندقية وجنوة وبيزا ، من جهة ، وتوافد النورمان الى جنوب ايطاليا وصقيلة وبالتالي قيام الدولة النورمانية من جهة ثانية . ولذا فإننا سنركّز الحديث عن هذه القوى الجديدة ، فضلاً عن القوة التقليدية في ايطاليا وهي البابوية ، لأنها هي القوى الأساسية التي ستتحكم في العلاقات السياسية والكنسية والاقتصادية بين ايطاليا وبيزنطه خلال القرن الثاني عشر ، موضوع بحثنا .

الفصل الأول

البابوية حتى مستهل القرن الثاني عشر :

إن بروز البابوية كقوة سياسية ودينية في مستهل القرن الثاني عشر ومساهمتها الفعالة في السياسات الايطالية خاصة والأوروبية بشكل عام كان نتيجة لمجموعة من العوامل التاريخية . فلقد ساد الاعتقاد في الدوائر الكنسية في الغرب الأوروبي ، منذ مطلع العصور الوسطى ، أن أسقف مدينة روما هو خليفة القديس بطرس وله الأمارة على الكنيسة العالمية . فمن المعروف أن القديس بطرس هو أمير الرسل «والصخرة التي بُنيت عليها الكنيسة» ، وبيده مفاتيح ملكوت السماء وسلطة العقد والحل ، إضافة الى أن القديس بطرس كان أول من بشرّ بالمسيحية في روما ولقى ما لقي من الأذى في سبيل الدين .(1). وانطلاقاً من هذا الاعتقاد فقد تمسك أسقف روما بأحقيته في وراثة الامتيازات التي كان يتمتع بها أمير الرسل واعتبر نفسه رأس الكنيسة الكاثوليكية ، والحارس الأول على قوانينها ونظمها وعقائدها ومعلم أتباعها المعصوم من الخطأ ، هذا فضلاً عن كونه نائب المسيح على الأرض .

وفي الواقع لم يكن ، أسقف روما ـ خلال القرون الثلاثة الاولى من تاريخ المسيحية ـ بحاجة للتأكيد على النظرية البطرسية وامتيازاتها ، وذلك لأن مدينته كانت آنذاك هي المركز الوحيد للعالم المتحضر(2) ولكن نقل العاصمة الامبراطورية الى الشرق وتأسيس عاصمة جديدة للامبراطورية الرومانية ، ألا وهي القسطنطينية ، على يد قنسطنطين لتكون روما الجديدة ، خلق تهديداً لمركز مدينة روما وبالتالي لاساقفتها الذين اعتقدوا ـ حتى ذلك الوقت ـ أن التسليم بامتيازاتهم ـ القائمة على النظرية البطرسية ـ أمر لا يقبل الجدل .

---

(1) See Eusebius, the Hist. of Church, (Eng. T.,) pp. 85— 89, 107.

(2) cam. Med. hist., vol. iv, p. 432.

ورغم أن ظهور القسطنطينية كان تهديداً لروما إلا أنه كان في ذات الوقت البداية الحقيقية لبروز أسقف روما وبالتالي للبابوية كقوة سياسية ودينية في العصور الوسطى كلها ، فلقد استقر الأباطرة الرومان على ضفاف البوسفور ، في روما الجديدة ، يحكمون القسم الشرقي من الامبراطورية حكماً مباشراً أو مطلقاً في حين أصبحت سلطتهم في القسم الغربي من تلك الامبراطورية أسمية ، ولذا فقد احتل أسقف روما (البابا) مكان الامبراطور وورث مركزه كحاكم مطلق ومصدر للتشريع ، وأخذ ينظّم كنيسته وفق التنظيمات الادارية الامبراطورية ، خاصة وأن نائب الامبراطور في القسم الغربي فضّل الاقامة في ميلان أو رافنا أكثر من الإقامة في العاصمة القديمة (روما) ، وهذا أعطى بدوره أسقف روما حرية في الفكر والتنظيم ، بل وشهرة أيضا . ولهذا فلو بقي الاباطرة في روما لأصبح البابوات رهن اشارة هؤلاء الاباطرة ووكلائهم ، ولضاعت عليهم السلطة الأدبية اللازمة لاقامة الاستقلال الديني على أساس متين(٣).

ولعل أهم الأحداث التي ساهمت ـ بعد انتقال العاصمة ـ في بروز البابوية هو سقوط القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية بيد الجرمان البرابرة في أواخر القرن الخامس للميلاد . فلقد تداعى المجتمع الروماني تحت ضغط الغزو البربري ، وبقيت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية القوة المعنوية الوحيدة المتماسكة أمام عوامل الاضطراب والفوضى وبتعبير آخر ، فإن العناصر الجرمانية المتبربرة ، وهي تكتسح العالم الروماني في الغرب ، في أخريات التاريخ القديم ، قضت على مدنيته وحضارته ، ولكنها لم تمس الكنيسة الغربية ورجالها . ويفسر بعض المؤرخين المحدثين المعنيين بهذا الموضوع ، مثل كولتون في كتابه «عالم العصور الوسطى» ، هذه الناحية بقوله «إن الجرمان البرابرة اعتقدوا أن رجال الدين جماعة من السحرة وأنهم اذا مسوهم بسوء ربما يصبون عليهم لعنتهم وتحل عليهم الكوارث والويلات ، ولهذا اكتسح هؤلاء المدنية الرومانية وحضارتها وأبقوا على شيء واحد هو الكنيسة اللاتينية الغربية ورجالها» . وهذا كله ربما يوضح لنا الدور القيادي الذي لعبته الكنيسة في الغرب االأوروبي خلال تلك الظروف المظلمة . ففي الوقت الذي تحطمت فيه السلطة الامبراطورية في

(3) Runciman, the Eastern Schism, p. 9.

الغرب الأوروبي ، واختفى الحكام ونواب الأباطرة ، ظل البابوات والاساقفة في مراكزهم ، وقاموا بالتفاوض مع الغزاة المنتصرين ، واضطلعوا بمسؤولية ادارة شؤون المدن(٤) . يضاف الى ذلك أن الغارات البربرية قد أحدثت تدميراً في الثقافة العلمانية في الغرب الأوروبي ، وأخذت الحروب والاضطرابات مناطق الثقافة في ايطاليا بشكل خاص ، وطالما أن رجال الدين شكلّوا في ذلك الوقت الطبقة المفكرة في الغرب ، فان الثقافة الوحيدة التي بقيت هي الثقافة التي تديرها الكنيسة ولمصلحة الكنيسة وحدها (٥).

اذا كان سقوط القسم الغربي بيد الجرمان البرابرة قد قدّم الأرضيّة الخصبة لبروز البابوية ، فان القسم الشرقي ساهم في نفس الوقت في اعطاء البابوية زخماً قوياً في ادعائها بالأمارة العالمية على العالم المسيحي وفق النظرية البطرسية . فلقد قامت الاسقفيات الشرقية تعارض روما في ادعائها بالسيادة العالمية ، وبشكل خاص كنيسة أنطاكية ـ التي أسسها القديس بطرس ـ وكنيسة الاسكندرية ـ التي أسسها القديس مرقص(٦) . ولكن لم تكن معارضةِ هاتين الكنيستين لتشكل خطراً على ادعاءات أسقفية روما ، وذلك لأن الخلافات الدينية استشرت بين أنطاكية والاسكندرية منذ بداية العصور الوسطى ، وحاولت كل منهما كسب روما الى جانبها ، وهذا بدوره ساهم في خلق الزعامة التدريجية لاسقفية روما على العالم المسيحي ولا سيا في الغرب الأوروبي(٧).

الا أن الشيء الذي كانت تنظر اليه روما بعين الحذر والخوف هو النمو المتزايد لأسقفية القسطنطينة ، التي منحها المجمع المسكوني الثاني (٣٨١م) ، والذي عقد في القسطنطينية ، المرتبة الثانية بعد أسقف روما مباشرة ، لأن القسطنطينية هي روما الجديدة ، وكان أن احتج البابا داماسيوس (٣٣٦ ـ ٣٨٤م) على مقررات ذلك المجمع وأعلن أن الكرسي المسيحي الأول هو كرسي روما ، واعتبر كرسي الاسكندرية هي في

(4) cantor, N. F., the medieval world., p. 93.

(5) Runciman, the eastern Schism, p. 9.

(6) Eusebius, the hist. of church, p. 89.

(٧) أنظر : العدوى : المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى ، ص٥١ ـ ٥٢ .

المرتبة الثانية وتليها كرسي كنيسة انطاكية . وكذلك فعندما منح المجمع المسكوني الرابع (٤٥١) ، الذي عقد في خلقدونية ، أسقف القسطنطينية نفس الامتيازات التي يتمتع بها أسقف روما ، سرعان ما احتج البابا ليو الأول (٤٤٠ ـ ٤٦١م) وأعلن رفضه لهذه المنحة وذلك لأن كنيسة القسطنطينية ليس لها أصل رسولي أي لم يؤسسها أحد من الحواريين(٨) .

ومهما يكن من أمر فقد بدأ أسقف روما مهمته الطويلة لتحقيق ثلاثة أهداف كبرى : أولها : تأكيد سمو البابوية وسلطتها العالمية وفق النظرية البطرسية ، ثانيها : تنظيم الكنيسة المسيحية ، وثالثها : فرض الثقافة المسيحية اللاتينية في الممالك الجرمانية في الغرب الأوروبي . وكان أول من بدأ في تحقيق هذه الأهداف هو البابا ليو الأول الكبير (٤٤٠ ـ ٤٦١م) ، الذي يُعتبر أول من افتتح العصر الذهبي في تاريخ البابوية الوسيطة . وذلك أن هذا البابا أكد بوضوح سلطة البابا باعتباره ممثل المسيح على الأرض انطلاقاً من النظرية البطرسية ، وأصبحت صياغة ليو للعقيدة المسيحية هي الصياغة الرسمية بالنسبة للكنيسة الرومانية الكاثوليكية(٩) .

وقام بعد ذلك البابا جيلاسيوس (٤٩٢ ـ ٤٩٦م) الذي ساهم بدوره في ارساء قواعد النظرية البطرسية ، وأكدّ الاقتراحات التي قدمها الآباء الأوائل والموجهة أصلاً ضد ادعاءات الامبراطور البيزنطي في أن يحكم الكنيسة وأن يحدّد العقيدة بمرسوم امبراطوري . وبينّ جيلاسيوس أن العبء المُلقى على عاتق البابا اثقل من العبء الملقى على عاتق الامبراطور ، ويُعتبر هذا البابا صاحب الفضل في توضيح المبدأ الذي أقامت البابوية على أساسه علاقاتها مع السلطة الزمنية . وأصبح هذا المبدأ النظرية السياسية الرسمية للكنيسة الغربية منذ الفترة المبكرة للعصور الوسطى(١٠) .

أما البابا جريجوري الكبير (٥٩٠ ـ ٦٠٤)(١١) فقد رسم البرنامج الذي سارت

(8) Greenslade, Schism in the early church, pp. 82- 83.

(9) Cantor, p. 93, Diehl, Byzantium, p. 211.

(10) Cantor, The med. World, Doc. No. 20, pp. 95- 97.

(١١) كان جريجوري الكبير هو الرجل الذي وضع الأساس المتين الذي بُني عليه نفوذ بابوية روما في الأمور الدينية والعلمانية على السواء وكان يسعى الى استقلال الكنيسة الغربية على زميلتها الشرقية من الناحية الدينية ، وعند وفاته كانت معالم الطريق واضحة أمام خلفائه .

عليه البابوية طوال القرون الثلاث التالية ، والذي تضمن ثلاث نقاط رئيسية وهي : تنصير أوربا ، والتحالف مع الملكية الفرنجية ، وتأكيد الزعامة الكنسية في جميع نواحي الحياة الاخلاقية والسياسية والأجتماعية ، وهكذا ساهم جريجوري الكبير في برنامجه هذا في تشكيل وصياغة الحضارة الأوربية المعاصرة(١٢) .

وفي الواقع يعتبر القرن الثامن الميلادي قرناً متميزاً في تاريخ بروز البابوية كقوة سياسية ورئيسية في الغرب الأوربي . فلقد قطع الرهبان البندكتيون في ذلك القرن - خطوات واسعة في طريق نشر المسيحية في أوروبا بتوجيه البابوية وارشاداتها(١٣) . كما أن البابوية تلقت - في ذلك القرن أيضاً - دعم الاسرة الكارولنجية ضد اللمبارديين الذين هددوا الممتلكات البابوية في ايطاليا وتحدوا أباطرة الأسرة اللايقونية التي كانت تحكم الامبراطورية البيزنطية في ذلك الوقت .

وكان أن أدت الامبراطورية الكارولنجية خدمات كبرى للبابوية في تخليصها من الخطر اللمباردي من جهة وفي كبح جماح الطبقة النبيلة في روما التي كانت دوماً على استعداد للقيام في وجه البابا من جهة ثانية ، فضلاً عن حماية الكارولنجيين للدولة البابوية من الاخطار واحترامهم للرتب الكنيسية وأخذهم بمناصرة النفوذ المسيحي بين شعوب الغرب . ولكن عندما سقطت الامبراطورية الكارولنجية في أواخر القرن التاسع ، فقدت البابوية حماتها الأبرار وأصبحت خاضعة لنير أرستقراطية النبلاء في روما نفسها . وهذا بدوره أدى الى كسوف في السلطة الرسولية التي تدعيها روما ، والى ضعف النظام الأكليركي والأخلاق المسيحية ، حتى أن كثيراً من البابوات ضربوا لغيرهم المثل في البعد عن المثل والفضيلة . ولهذا فان سلطة الكرسي الأقدس التي بناها جريجوري الكبير وخلفاؤه لم يكتب لها البقاء بعد زوال الأمبراطورية الكارولنجية ، حتى أن جميع المحاولات التي بذلت في هذا السبيل ذهبت عبثاً لأن

= انظر : هارتمان وبارا كلاف : الدولة والامبراطورية ، ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، ص ٤٧ .

(١٢) عن برنامج جريجوري الأول والمركز الذي تمتعت به البابوية في عهده ، ودور بعثاته التبشيرية في نشر المسيحية الكاثوليكية . انظر :

Baldwin, Med. Church, pp. 27f., Cantor, Doc. No. 23, pp. 114- 15; oman, The Dark ages, pp. 202ff.

(13) Canter, op. cit., Dec. No. 26; pp. 126- 28.

البابوية لبثت سجينة الارستقراطية ولم تلعب دوراً سياسياً هاماً في ايطاليا(١٤) .

إن خضوع البابوية للاستفراطية أدى الى انتشار الأمراض الكنيسية مثل السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلماني حتى أواسط القرن الحادي عشر(١٥) . ولكن شاء حسن حظ البابوية أن تظهر في تلك المرحلة حركات اصلاحية دينية في الغرب الأوربي ، نددت بالانحطاط الذي تردت فيه الكنيسة وطالبت بانقاذها من تلك الأمراض ، واشهر هذه الحركات كانت الحركة الكلونية التي تأسست في فرنسا، والتي ما لبثت أن تطورت واتسع أفقها حتى أخذت تستهدف في القرن الحادي عشر اصلاح الكنيسة اصلاحاً شاملاً(١٦) .

وكان أول البابوات المصلحين الذين أتت بهم الحركات الاصلاحية الدينية الى الكرسي البابوي هو البابا ليو التاسع (١٠٤٨ ـ ١٠٥٥م) . ولعل أبرزها ما حدث في عهده هو هزيمة هذا البابا أمام النورمان في جنوب ايطاليا من جهة (١٠٥٣م) والقطيعة مع الكنيسة الشرقية (١٠٥٤م) من جهة ثانية ، علماً أن هاتين الحادثتين ترتبطان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً . واذا كانت البابوية قد اقتنعت بعد هزيمتها في كيفتاتي (١٠٥٣م) أمام النورمان أنه من غير الممكن اخضاع هؤلاء بقوة السلاح ، بل أصبح واضحاً لها بأن النورمان يمكن أن يكونوا حلفاء مفيدين للبابوية في نزاعها ضد الامبراطورية(١٧) ، فان القطيعة (١٠٥٤م) ـ كما سنرى ذلك في فصل العلاقات

(١٤) أنظر : عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج١ ، ص٣٣٨ ـ ٣٤٢ ؛ حاطوم : تاريخ العصر الوسيط ، ص ٥٠٠ ـ ٥٠٢ .

(١٥) المقصود بالسيمونية هو شراء الوظائف الدينية بالمال ، وهو داء فشا فشواً خطيراً بين رجال الدين حتى توصل كثير من المجرمين وغير الصالحين الى المناصب الدينية الكبرى عن طريق المال مما أضعف الكنيسة وشوه سمعتها أما عن زواج رجال الدين فالمعروف أن معظم الاساقفة ظلوا عزاباً في حين أقبل على الزواج معظم القساوسة وصغار رجال الدين . ورغم عدم وجود قانون كنسي يفرض حياة العزوبة على رجال الكنيسة ، فان الحركات الاصلاحية رأت ضرورة الزام رجال الاكليروس بحياة العزوبة أسوة برهبان الأديرة . أما التقليد العلماني فيعني أن يقوم الحكام العلمانيون ـ من أباطرة وملوك وأمراء بتقليد رجال الدين مهام مناصبهم الدينية . علما أن ذلك من حقوق الاساقفة أنظر : عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج١ ، ص٣٤١ ـ ٣٤٤ .

(١٦) عن الحركة الكلونية وأهدافها ونشاطاتها ، أنظر : Bainton, R. H., The medieval church, pp. 33- 34.

(17) Haskins, The Normans in European History, p. 203.

الكنسية ـ كان حلقة مثيرة في الصراع بين القسطنطينية وروما وكانت مقدمة للانشقاق النهائي الذي أدت اليه الحملة الصليبية الرابعة في مستهل القرن الثالث عشر .

وفي عام ١٠٥٩م عقد البابا نيقولا الثاني مجلساً كنسياً في ملفي Melfi حضره كبار رجال الكنيسة في الجنوب الايطالي ، وعدد من الزعماء النورمان وفي مقدمتهم روبرت جويسكار . وقد تم في هذا المجلس توقيع معاهدة بين البابوية والنورمان وأصبح بموجبها جويسكارد دوقاً على أبوليا وكلابريا والأمارات اللمباردية الأخرى ، ودوقاً على صقلية عندما يتم فتحها . وبالمقابل أقسم جويسكارد يمين الولاء والطاعة للكرسي الرسولي وعلى أن يكون تابعاً مخلصاً للبابوية وأن يدفع مبلغاً سنوياً عن أملاكه للحبر الأعظم وتعهد جويسكارد في هذا القسم بالدفاع عن كنيسة القديس بطرس وأملاكها ضد أي اعتداء وبموجب هذه المعاهدة فقد أصبح النورمان ـ من وجهة نظر البابوية ـ حلفاء أقوياء لها في الجنوب يمكن أن تتجه اليهم عندما يتأزم الموقف بينها وبين الامبراطورية الرومانية المقدسة .

وفي عام ١٠٧٣م اعتلى المنصب البابوي جريجوري السابع(١٨) ، الذي كان أعظم البابوات وأشدهم بأساً في القرن الحادي عشر . وقد بدأ جريجوري السابع عمله بمعالجة الأمراض التي عانت منها الكنيسة ، وبشكل خاص السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلماني ، حيث أصدر جريجوري هذا عدة مراسيم لاستئصال شأفة هذه المشكلات واصلاح الكنيسة ، هذا الاصلاح الذي اقترن باسمه في التاريخ

(١٨) ولد هيلد براند عام ١٠٢١م . وهو من مقاطعة تسكانيا . وابن لوالدين فقيرين . وجاء إلى روما في مطلع شبابه . درس في دير القديسة ماري . وذهب إلى المنفى إلى ألمانيا مع البابا جريجوري السادس عام ١٠٤٦م . وعند وفاة الأخير عاد هيلد براند إلى دير كلوني عام ١٠٤٧م . ثم ذهب إلى روما عام ١٠٤٩م . وبرزت شخصيته في البلاط البابوي في حبرية البابا ليو التاسع (١٠٤٨ ـ ١٠٥٥م) . وأصبح له منذ ذلك الوقت التأثير الفعال في الكنيسة الرومانية . ولقد كان لهيلد براند دوراً ملموساً في القرار الذي اتخذه البابا نيقولا الثاني المتعلق بانتخاب البابا من قبل الكرادله (عام ١٠٥٩م) . وفي بابوية الكسندر الثاني كان هيلد براند مستشار الكرسي الرسولي . وفي عام ١٠٨٣م انتخب هيلد براند بابا باسم جريجوري السابع . انظر تفاصيل ذلك عند :

Kellett, E., Ashort Hist. of Religions,

P. 284, Gross, oxford Dictionary, pp. 584- 85.

وعرف بالاصلاح الجريجوري .The Gregorian Reform(١٩) . ولا يسعنا المجال للافاضة بالمواقف التي اتخذتها القوى العلمانية والدينية في الغرب، الأوربي من مراسيم الاصلاح الجريجوري(٢٠) الا أنه يمكن القول أن هذه المراسيم أحدثت الاستياء والامتعاض الشديدين لدى الطبقات الحاكمة . فلقد رفض وليام الفاتح ـ ملك انجلترا ـ التخلي عن مسألة التقليد العلماني(٢١) ، كما أن فيليب ملك فرنسا لم يعبأ بآراء البابا جريجوري واستمر في سياسته نحو الكنيسة(٢٢) .

أما امبراطور المانيا هنري الرابع ـ صاحب المصالح القوية في ايطاليا ـ فقد أدت سياسة البابا جريجوري الى فتح باب صراع عنيف بينه وبين البابوية انتهى بانتصار البابا على خصمه ، أولاً ، ولكن كفة الامبراطور ما لبثت أن رجحت وعندئذ استنجد جريجوري السابع بحلفائه النورمان في جنوب ايطاليا في الوقت الذي كان فيه جويسكارد مشغولاً بمشروعه في غزو الامبراطورية البيزنطية (١٠٨١ ـ ١٠٨٥م)(٢٣) .

وكان أن تمكن هنري الرابع ـ بعد محاولات متكررة ـ من دخول مدينة روما

(19) Every, The Byzantine patriarchate, pp. 34-36; Bainton, pp. 34-36.

(٢٠) أصدر البابا جريجوري السابع عدداً من المراسيم الحبرية خلال عامي ١٠٧٤ و١٠٧٥م حرّم فيها السيمونية وزواج رجال الدين واتخاذ خليلات والتقليد العلماني . ولكن اعظم ما أصدره هذا البابا من مراسيم هو المرسوم الذي عرف بالارادة البابوية أو الأوامر البابوية Dictatus papae . وفيها جرد جميع القوى الدينية والعلمانية على حد سواء من أية حقوق ولم يبق إلا اسم البابا وحده وارادته . وكان من الطبيعي أن يصطدم جريجوري ـ اذا ما حاول وضع هذه المراسيم موضع التنفيذ ـ بالقوى السياسية من الأباطرة والأمراء فضلاً عن بعض رجال الدين . وافتتح البابا جريجوري بمراسيمه الاصلاحية هذه حقبة من الصراع الطويل والمديد بين البابوية والامبراطورية الرومانية المقدسة . انظر هذه المراسيم عند :

Cantor, Doc. No. 33, pp. 188-89; Bainton, Doc. No. 4, pp. 121-22;

Ashour, S., and Rabie, H., Fifty Documents in med. Hist. Doc. No. 22, pp. 62-63.

(21) Gross, op. cit., p. 584.

(22) Tout, The Empire and the papacy, vol. 11, p. 80.

(٢٣) انظر بعض أحداث الصراع بين جريجوري السابع وهنري الرابع عند

Otto of Freising, The deeds of Barbarossa, p. 28-29. ANNA, op. Cit., pp. 33-35; Roger of wendover op. Cit. Vol. I, p. 347; Bainton, op. Cit., p. 35; Kellett, Ashort. Hist. Of Religions, p. 285; M. Of Westminster, The Flowers of Hist., p' 8.

واحتمى جريجوري بقلعة سان انجيلو(٢٤) ، واعتلى كليمنت العرش الرسولي وتوج هنري الرابع امبراطوراً(٢٥) . وعندما وصلت هذه الأنباء الى جويسكارد ترك الأخير الأراضي البيزنطية وعاد الى ايطالية(٢٦) ، واضطر هنري الرابع أن يقوم بعملية تقهقر استراتيجي اذ لم يكن بمقدوره مواجهة النورمان(٢٧) . فدخل جويسكارد بقواته مدينة روما ، ودارت معركة في الشوارع بين سكان روما والنورمان ـ انتهت بتدمير المدينة تحت سمع وبصر جريجوري ، حيث احرقت الكنائس واستُرق عدد من الرومان(٢٨) ، فضلاً عن أعمال السلب والنهب ، وتمكن النورمان من انقاذ البابا جريجوري من القلعة ، الا أنه لم يكن بمقدور الأخير البقاء في روما ـ بسبب الاستياء الذي انتشر ضده بين السكان لما فعله حلفاؤه النورمان في المدينة ، ولذا فقد صحب جريجوري النورمان والتجأ معهم الى مدينتهم ساليرنو في الجنوب ، حيث توفي في السنة التالية على هذه الأحداث (١٠٨٥م) محتجاً حتى النهاية «أنه مات في المنفى لأنه أحب العدالة وكان يكره الظلم»(٢٩) .

وبعد وفاة البابا جريجوري ١٠٨٥م وقعت البابوية في أزمة لم تنته الا بنجاح الحزب الجريجوري ـ الذي تبنى اصلاحات جريجوري السابع ـ في انتخاب فيكتور الثالث (١٠٨٦ ـ ١٠٨٧م)(٣٠) . وعلى الرغم من قصر عهد البابا الأخير فقد سار على برنامج سلفه العظيم بالنسبة لتحريم السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلماني(٣١) .

واعتلى الكرسي البابوي ، بعد وفاة فيكتور الثالث (١٠٨٧م) ، البابا أوربان الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩م) الذي أعلن التزامه بتعاليم جريجوري السابع ومبادئه ، ولكن هذا

(24) ANNA, The Alexiad, pp. 34- 36.

(25) Otto of Freising, op. cit., p. 29

(26) ANNA, op. cit., pp. 120—21.

(27) Kellett, op. cit., p. 286.

(28) curtis, Roger of sicily, pp. 79—80;

(29) otto of Freising, The deeds of Barbarossa, p. 30 ; Haskins, The Normans., P. 205; Bainton, p. 36.

(30) Hayward, A Hist of the popes, p. 163.

(31) Runciman, The eastern Schism p. 61.

الالتزام اتخذ طابعاً أكثر دبلوماسية من سابقيه . ولقد اعتمد أوربان الثاني على النورمان ضد منافسه على الكرسي الرسولي ، واضطر أن يقضي السنوات الأولى من حبريته تحت الحماية النورمانية في الجنوب(٣٢) ولعل أبرز أعماله في جنوب ايطالية أنه عقد في عام ١٠٨٩م مجمعاً في مدينة ملفي ، حضره الدوق روجر بورصا خلال هذا المجمع أنه فصل تابع للبابوية كما فعل والده من قبل(٣٣) .

ولقد رغب أوربان الثاني في توحيد القوى المناوئة لهنري الرابع في ايطاليا والمانيا ، ولذلك فقد رتّب (١٠٨٩م) زواجاً سياسياً بين الكونتسه ماتيلدا ـ الأرملة البالغة من العمر ثلاث وأربعين سنة وبين ولف الخامس دوق بافاريا الذي لم يكن له من العمر سوى سبعة عشر عاماً(٣٤) . ولكن ذلك لم يمنع هنري الرابع من الذهاب الى ايطاليا في العام التالي (١٠٩٠م) ، حيث اجتاح أراضي الكونتسه ماتيلدا(٣٥) ، وعندئذ فر البابا الى النورمان حيث انتهى به المطاف في ساليرنو ، مقر الدوق النورماني . الا أن أوربان الثاني لم يكن بامكانه الحصول على مساعدة من حلفائه النورمان عندئذٍ لأن الخلافات بين ابناء جويسكارد ، وبشكل خاص بين روجر بورصا وشقيقه بوهيموند(٣٦) ، قد مزّقت الدوقية النورمانية واصابتها بالضعف(٣٧) . على أن تدهور قوة الامبراطور هنري الرابع منذ عام ١٠٩٣م نتيجة المشاكل الداخلية التي كادت تطيح بسلطته ، خاصة ثورة ابنه كونراد ضده(٣٨) ، أتاح فرصة طيبة لأوربان الثاني ، حيث تمكن من العودة الى روما واعتلاء الكرسي الروماني في عام ١٠٩٤م(٣٩) .

ويقترن اسم أوربان الثاني بالحركة الصليبية التي بشرّ بها وخطط لها ، والتي كانت نقطة تحوّل خطيرة لا في تاريخ العلاقات بين بيزنطة والبابوية فحسب وانما في

---

(32) Chartre, chronicle, p. 19; Tout, The Empire and the papacy, vol. 11, p. 127.

(33) Yewdale, Bohemond 1., pp. 30—31.

(34) Cross, The oxford dictionary, p. 1396.

(35) Tout, The Empire and The papacy, vol. 11, pp. 137.

(36) Yewdale, Bohemond 1, pp. 32-33.

(37) Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire, vol. 11, p. 381.

(38) Tout, op. cit., 11, pp. 138 ff.

(39) Cross, op. cit., p. 1396.

تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب . وشاءت الظروف أن يموت أوربان الثاني بعد خمسة عشر يوماً من سقوط القدس في أيدي رجالات الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٩م) ، ودون أن يعلم بالنجاح الذي حققته حملته .

الفصل الثاني

الجمهورية التجارية الايطالية (البندقية - جنوه - بيزا) حتى مستهل القرن الثاني عشر للميلاد

إن ظهور المدن الايطالية ، وتحول بعضها الى جمهوريات مستقلة في مستهل القرن الثاني عشر ، كان في حقيقة أمره نتيجة لعوامل عديدة أهمها التطورات الاقتصادية والاجتماعية الهائلة التي أخذت تجتاح شبه الجزيرة الايطالية منذ أواسط القرن العاشر للميلاد .

واذا كان سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب - في أواخر القرن الخامس للميلاد - قد جاء مصحوباً بتدهور حياة المدينة الأوربية باقتصادها النقدي ونشاطها التجاري المعروف حتى غدت هذه المدن مجرد مراكز دينية بعد أن ذبل نشاطها المرتبط بالتجارة والصناعة ، واذا كان الغرب الأوربي قد احتفظ بالسمات العامة للتنظيم الاقتصادي الذي فرض نفسه منذ العصر الكارولنجي ، والذي يقوم أساساً على الزراعة والاقطاع ، حتى أواخر القرن الحادي عشر تقريباً ، بحيث لم يكن للتجارة والصناعة الا دور محدود ومحلي في آن واحد(1) ، اذا كانت الأمور كذلك بالنسبة لأوربا عامة ، فان الوضع بالنسبة الى شبه الجزيرة الايطالية اختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً ، لأن المدينة لم تختف في ايطاليا بشكل مطلق ، بل ظل الشمال الايطالي مزدحما سكانياً واحتفظت العديد من المدن الايطالية بتجارة مزدهرة مع القسطنطينية ، واستخدمت السفن بثبات وانتظام وتحت حماية الأسطول البيزنطي ، بين الموانىء الايطالية والعاصمة البيزنطية(2) .

ومنذ أواسط القرن العاشر أخذ الاقتصاد الايطالي يتطور بشكل هائل وكان

(1) Pirenne, H., Hist. of Europe, pp. 210-11 '

(2) Setton, Hist. of the crusades, Vol. 1, p. 109.

العنصر الحاسم في تطوره هو احياء التجارة ، الذي جاء نتيجة وسبباً في آن واحد لنهوض المدن الايطالية ، والذي جاء بدوره ثورة بالغة الخطورة لا في الميدانين السياسي والاقتصادي فحسب بل في الميدان الاجتماعي أيضا .

وكان أن أدى ظهور المدن الايطالية الى زعزعة بقايا النظام الاقطاعي ومهد الطريق لقيام مجتمع جديد وحضارة جديدة أساسها التجارة والصناعة . ومن جهة أخرى فقد كان النشاط التجاري بمثابة انقلاب اقتصادي كبير أدى الى التوسع في نظام الأجر النقدي وابتداع العملات بدلا من نظم الخدمة الاقطاعية التي كانت سائدة من قبل(٣) .

ثم أن التطور الاقتصادي الذي حدث في ايطاليا في القرن الحادي عشر ، جاء شاملا ، بحيث شمل الحقلين الزراعي(٤) والتجاري والصناعي جميعاً ، وشكّل في النهاية نقطة تحول هامة لا في تاريخ تطور المجتمع الايطالي فحسب ، بل بالنسبة للمجتمع الأوروبي أيضاً . فمن الحقائق الكبرى الواضحة في القرن الحادي عشر ، احياء الحركة التجارية في ايطاليا ، والذي أدى بدوره الى دفع الحياة المدنية دفعا ملموسا الى الأمام . ويمكن لنا أن نرسم نوعاً من التوازن بين الأحداث الاقتصادية ـ التي كانت شبه الجزيرة الايطالية مسرحاً لها ـ من ناحية والأحداث المدنية من ناحية أخرى ، وهذا التوازن أكده المؤرخون الذين عالجوا حركة النهضة الايطالية(٥) . فإذا كانت غالبية الناس في السابق قد رضوا بأن يعيشوا داخل الحدود الاقطاعية الضيقة ، فانهم غدوا بعد احياء النشاط التجاري على استعداد كافٍ للتحرك من مكان الى آخر بحثاً عن حياة أفضل ، وهذا بدوره أدى الى تغيير العلاقات الاجتماعية ، حيث أخذت تنسلخ طبقة من الطبقات الدنيا للمجتمع الاقطاعي ، وهي

---

(3) Pirenne, med. cities, pp. 58f.,

idem, Economic and social history of med. Europe pp. 42f., 116ff., 169.

(٤) أنظر الدراسة القيمة التي قام بها ويلي Waley حول النشاط الزراعي في ايطاليا خلال القرنين العاشر والحادي عشر ، في كتابه :

Waley, d., The Italian city- Republics, pp. 14- 15.

(5) Haskins, The Renaissance of the twelfth Century, p. 12.

الطبقة الوسطى ، التي غدت تمثل الطبقة البرجوازية التجارية . وسرعان ما أخذت المفاهيم تواكب هذا التطور الاجتماعي الخطير . ووصلت هذه التغيرات الاجتماعية الى ذروتها في أواخر القرن الحادي عشر بظهور الحركة القومونية(٦) .

وكانت المدينة الايطالية في الشطر المظلم من العصور الوسطى تخضع عادة لسيادة أسقف أو احد كبار الاقطاعيين في حين كان النبلاء ، الذين وقعت أراضيهم حول هذه المدينة ، هم أفصال أو أتباع لذلك الأسقف(٧) ولكن حدث خلال القرن الحادي عشر أن أخذ سكان المدن الايطالية ، وخاصة مدن لمبارديا وتسكانيا ، يعملون على التحرر من وطأة الاساقفة والأمراء الاقطاعيين ، فاتفق التجار والصناع والنبلاء على تأليف اتحاد أو تحالف بينهم عرف باسم قومون Commune(٨) ، بهدف تحطيم سلطة اسقف المدينة والحصول على استقلال مدينتهم وادارة شؤونها بحرية(٩) .

وسرعان ما ظهر عجز الأساقفة أمام ذلك التحالف المسلح بين مختلف العناصر الطبقية التي تشكلت منها المدن وضواحيها ، فاضطروا الى التسليم بمطالبهم والسماح لهم بما يطمحون اليه من نفوذ سياسي . وبذلك ظهرت هذه القومونات في صورة قوة سياسية واقتصادية عظمى في ايطاليا ، مثلث في ذات الوقت ـ انتصار رأسمال العمل على ثروة الأرض ، مثلت انتصار التجارة على الزراعية ، التي كان من المعتقد حتى ذلك الحين انها هي القوة المسيطرة في كل مكان على مناحي النشاط الانساني ، وهكذا حولت الحركة القومونية شمال ايطاليا الى جمهوريات مستقلة(١٠) .

---

(6) Luzzato, An Economic history of Italy, (Tr. from the Italian), p. 66.

(7) Painter, Hist. of the middle ages, p. 232.

(٨) القومون هو : «المدينة ذات الكيان السياسي والاقتصادي المستقل ، بمعنى أن أهلها يختارون حكامهم وموظفيهم دون أن يكون هناك مندوب من قبل سيد أو أمير خارجي يتحكم فيها» . انظر :

عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج٢ ، ص١٠٧ ؛ عادل زيتون : العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص٣٠ .

(٩) عن الحركة القومونية في العصور الوسطى من حيث نشأتها وتطورها وسماتها انظر :

عادل زيتون : العلاقات الاقتصادية . ص٢٧ ـ ٣٤ . أيضا أنظر :

Pirenne, Med. cities, pp. 177- 78; Waley, pp. 17- 20; Luzzato, pp. 66ff.; painter, p. 232; Stephenson, p. 220.

(10) Luzzato, p. 66.

واذا كانت المدن الايطالية قد سبقت غيرها من المدن الأوروبية في هذا الاتجاه الاستقلالي ، فان ذلك يعود الى عدة عوامل أهمها الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة الايطالية ، والتي تمثل حلقة اتصال بين الشرق والغرب من جهة فضلاً عن موقع بعض المدن الايطالية بشكل خاص من جهة ثانية(١١) . هذا بالاضافة الى تزايد عدد سكان ايطاليا تزايداً ملحوظاً وتأثير هذا التزايد على تطور المدن والاقتصاد الايطالي(١٢) ، في الوقت الذي استمرت الروابط السياسية والاقتصادية دون انقطاع ـ تقريبا ـ بين ايطاليا ، أو بعض أجزائها على الأقل ، وبين الشرق عموماً والامبراطورية البيزنطية بشكل خاص منذ سقوط الامبراطورية الرومانية(١٣) . وهنا ينبغي أن نتذكر أن جنوب ايطاليا ظل تحت السيادة البيزنطية ـ مهما تكن هذه السيادة أسمية في بعض الأحيان ـ حتى وصول النورمان الى تلك البلاد واستقرارهم فيها ، في أواسط القرن الحادي عشر للميلاد ، مما مكن معظم مدن جنوب شبه الجزيرة الايطالية ، فضلاً عن بعض مدن الشمال ، مثل البندقية من الاحتفاظ بعلاقات تجارية واسعة مع القسطنطينية بل مع الموانيء العربية الاسلامية أيضا(١٤) .

ويعنينا من هذه الجمهوريات الايطالية في هذا البحث جمهورية البندقية وجمهورية بيزا وجمهورية جنوه ، وهي الجمهوريات الثلاث التي شكلّت أهم القوى السياسية والاقتصادية في شبه الجزيرة الايطالية ، والتي أقامت علاقات واسعة ومتنوعة مع بيزنطة خلال القرن الثاني عشر للميلاد . وذلك لأن الاحتلال النورماني لجنوب ايطاليا وبعض مدن وسط ايطاليا كبح جماح تطور المدن في تلك المناطق ، وحال ـ الى حد بعيد ـ دون تحولها الى جمهوريات مستقلة ، كما حدث بالنسبة الى مدن الشمال الايطالي ، بل أوقف هذا التطور واحتواها سياسيا واقتصاديا(١٥) .

---

(11) Waley, The Italian city- Republics, P. 15.

(١٢) عن تزايد سكان ايطاليا خلال القرنين العاشر والحادي عشر وأثره على التطور الاقتصادي ، أنظر :
Waley, op. cit., pp. 14-16

(13) Lopez, R., Med. Trade p. 33.

(14) Heyd W., Hist. du commerce du Levant., vol. 1, p. 98; lopez, op. cit., p. 33.

(15) Waley, The Italian city- Republics, p. 20.

أولاً : جمهورية البندقية :

تمركزت عملية احياء التجارة خلال القرن الحادي عشر في مدينة البندقية(١٦) ، التي حصلت في النهاية على مكانة متميزة في التاريخ الاقتصادي في عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى . فلهذه المدينة تاريخ بحري مجيد انفردت به عن غيرها من دول الغرب الأوروبي مثلما انفردت به عن زميلتيها جنوه وبيزا . ويكشف موقعها الجغرافي عن عظمتها البحرية والتجارية(١٧) ، إذ تقع على رأس البحر الأدرياتي الذي كان أعظم طريق بحري لتجارة العصر الوسيط ، فضلاً عن أنها تمثّل حلقة اتصال بين الشرق والغرب ، إضافة الى كونها ميناء من موانيء البحر المتوسط ، ويكاد هذا الميناء يكون في قلب أوروبا لوقوعه في أقصى الطرف الشمالي وكل هذا أكسبها ميزات حسدتها عليها كثير من بلدان أوروبا(١٨) .

وعاش البنادقة في البداية على صيد الأسماك واعداد الملح لكسب رزقهم ، وحصلوا على القمح والحنطة عن طريق مبادلة منتوجاتهم مع سكان الشواطيء المجاورة . ولهذا فان التجارة فرضت نفسها بنفسها على البنادقة ، وكان لدى هؤلاء القدرة على جعل كافة الظروف تخدم مصالحهم التجارية ، وما أن حل القرن الثامن حتى غدت مجموعة الجزر الصغيرة التي يقطنها البنادقة مزدحمة بالسكان لدرجة كبيرة(١٩) .

وعلى الرغم من تعاقب عديد من القوى السياسية في السيادة على ايطاليا فقد ظلت البندقية ترتبط بنوع من التبعية للدولة البيزنطية حتى أوائل القرن الحادي

---

(١٦) تتألف مدينة البندقية من مجموعة من الجزر الصغيرة . وقد سميت الجزيرة الرئيسية ريالتو Rialto وأطلق على هذه الجزر كلها اسم جزيرة فينيتا Venetia ومن هنا جاء اسم البندقية Venice أنظر :

Pirenne, Hist. of Europe, pp. 202- 203.

(١٧) قال المؤرخ البيزنطي نيقتاس قونياتس ، «يعيش البنادقة في عمق خليج الادرياتي وهم بحارة مهرة جداً ولكنهم كانوا خبثاء جداً» . وقال الادريسي «وبلاد البنادقة التي قاعدتها البندقية تقع على الخليج (جون) ـ المعروف باسمها جون البنادقة» . أنظر : ;Nicetas, p. 220 الادريسي : نزهة المشتاق ، ص١١ .

(١٨) جوزيف نسيم : علاقات مصر بالممالك الايطالية التجارية في ضوء وثائق صبح الأعشى ، ص٦٤ .

(19) Pirenne, med. cities, p. 84.

عشر(٢٠) . ففي الوقت الذي كانت أوروبا الغربية ـ منذ شارلمان ـ تعمل على فصل نفسها عن الشرق ، كانت مدينة البندقية تعمل على البقاء جزءاً من هذا الشرق(٢١) . ولذا يجب أن نعير أهمية كبرى الى الفائدة العظيمة التي حققتها البندقية من خلال ارتباطها ـ بشكل أو بآخر ـ بالامبراطورية البيزنطية ، وذلك لأن هذا الارتباط مكنّها من المشاركة في التجارة الشرقية ، وخاصة مع الصين والهند ، وفي النهاية وارثة هذه التجارة(٢٢) . وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الاقتصادي البلجيكي هنري بيرين : إن إحياء التجارة البندقية كان نتيجة منبه خارجي ، وهو ناتج عن اتصال البندقية بالتجارة الأجنبية ، وطالما أن القسطنطينية كانت ، وخاصة في عصر الأسرة المقدونية ، أكثر المدن حضارة ومدنية ، فقد استفادت البندقية من تحالفها معها ، وتعلمت منها الأشكال الرفيعة للحضارة ومشاريع العمل التجاري والتنظيم الاداري والسياسي ، الذي منحها في النهاية مكانة خاصة وفريدة في أوروبا العصور الوسطى(٢٣) .

منذ أواسط القرن الثامن أصبح رجال الدين وموظفو المدينة هم الذين ينتخبون دوق البندقية ، ولم يكن لهذا الدوق ـ الذي سيعرف فيما بعد باسم «الدوج»(٢٤) ـ في البداية ذلك السلطان الذي أصبح له فيما بعد ، خاصة وأن علاقة الخضوع بين الدوج والامبراطور البيزنطي استمرت حتى منتصف القرن التاسع(٢٥) ، ولقد تمكنت البندقية في ظل الأدواج من الحصول على استقلالها وبالتالي جعلت نفسها جمهورية تجارية ، واعتباراً من القرن العاشر وصاعداً فإن سياسة البندقية كانت تُوجّه بكل دقة وفقاً لمصالحها التجارية(٢٦) .

---

(٢٠) أرسيبالد : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، الترجمة العربية ، ص٣١٦ .

(21) Pirenne, med. cities, pp. 84- 85.

(22) Hodgson, Venice, p. 149.

(23) Pirenne, med. cities, pp. 82- 86.

(٢٤) يقول أبو الفداء : «ان ملك البندقيه يُطلق عليه اسم (الدوك)» .
أنظر تقويم البلدان ، ص٢١١ .

(٢٥) ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، الترجمة العربية ، ص١٤ ـ ١٥ .

(26) Pirenne, Hist. of Europe, p. 203.

وكان أن أدركت البندقية ـ منذ أواسط القرن العاشر ـ أن مستقبل تجارتها وعظمتها مرهون بتحقيق ثلاثة أهدافٍ أساسية أولاً : تنظيف البحر الادرياتي ، ومن ثم البحر المتوسط ، من القراصنة ، سواء أكانوا مسيحيين أو مسلمين ، وابقاء هذه البحار مفتوحة لتأمين حرية تجارتها . ثانياً : الابقاء على أفضل العلاقات مع الامبراطورية البيزنطية والحصول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات التجارية في الامبراطورية . ثالثاً : التحرك بمهارة بين القوى السياسية الغربية عامة وتلك المتصارعة على امتلاك شبه الجزيرة الايطالية بشكل خاص ، والعمل في ذات الوقت على ضرب هذه القوى ببعضها من جهة ومنع قيام قوة سياسية عظمى في ايطالية من جهة ثانية ، والعمل على دفع الصراع الى المنحى الذي يمكن أن يخدم مصالحها التجارية من جهة ثالثة . وسنثبت خلال هذه الدراسة كيف التزمت البندقية بهذه الاستراتيجية التزاماً صارماً طوال القرن الثاني عشر كله ، وكيف نجحت في النهاية في تحقيق حلمها الكبير وهو اقامة امبراطورية تجارية تحكّمت في اقتصاد عالم البحر المتوسط .

فبالنسبة الى قضية تنظيف البحار من القراصنة نجحت البندقية في مستهل القرن الحادي عشر ، تحت قيادة دوجها العظيم بطرس الثاني أورسيللو في تنظيف البحر الادرياتي من القراصنة السلاف وأخضعت استريا وأقامت مستوطنات ومنشآت عسكرية عند زارا وغيرها من مدن الساحل الدالماشي(٢٧) . وفي عام (١٠٠٤م) هزم التجار البنادقة القراصنة المسلمين في باري ورفعوا الحصار عنها وطردوا المسلمين من أبوليا(٢٨) . وبهذا نجح البنادقة في تنظيف البحر الادرياتي من القراصنة وكسبوا بذلك مدخلاً هاماً إلى البحر المتوسط الشرقي(٢٩). وأخذ أدواج البندقية في تلك الفترة يلقبون أنفسهم بأدواج البندقية ودالماشيا(٣٠) ،كذلك عملت البندقية بالتعاون مع بيزنطة على تنظيف شرقي البحر المتوسط من القراصنة(٣١) .

(27) Pirenne, med. cities, p. 88.

(٢٨) أرنسيبالد : القوى البحرية والتجارية ، ص ٣١٦ : عاسور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزاوتونس ، ص ٣٥ .

(29) Ault, Europein the middle ages, p. 368.

(30) Brown, «The venetians and the venetian Quarter» in Hellenic studies, xl (1920), p. 70; :

(31) Ault, op. cit., p. 372.

أما بالنسبة إلى الابقاء على أفضل العلاقات مع بيزنطة ، فقد نجحت البندقية في توطيد علاقاتها بالامبراطورية البيزنطية وفي الحصول على امتيازات تجارية بالغة الأهمية . ففي عام ٩٩٢م أصدر الامبراطور البيزنطي بازيل الثاني أول المراسيم الامبراطورية التي وصلتنا والمتعلقة بجمهورية البندقية . ولعل أهم الامتيازات التجارية التي تضمنها هذا المرسوم هي : ١ - لايدفع التاجر البندقي رسوماً جمركية في آبيدوس أكثر من صولديين عند الدخول وسبعة عشر صولدي عند المغادرة ، شرط أن تكون حمولة سفينته تخص البندقية وحدها وألا تكون البضائع والسلع المحمّلة لتجار من اليهود أو لشعوب أخرى . ٢ - لا يجوز للسلطات البيزنطية تأخير اقلاع السفن التجارية البندقية أكثر من ثلاثة أيام . ٣ - يجب على البنادقة تأمين وسائل النقل اللازمة متى رغبت الامبراطورية في ارسال قوة عسكرية إلى جنوب ايطاليا . إن هذه الامتيازات اكسبت البنادقة مركزاً تجارياً ممتازاً ، في بيزنطة ، لم ينله أحد من التجار الغربيين الآخرين الذين كانوا يتعاملون مع الامبراطورية(٣٢) .

وبعد تسعين عاماً على صدور مرسوم بازيل الثاني جاء مرسوم الامبراطور الكسيوس كومنين ، عام ١٠٨١ - ١٠٨٢م ، ليمنح امتيازات تجارية لجمهورية البندقية أكثر شمولاً وبالتالي أعمق تأثيراً على الاقتصاد البيزنطي . والواقع أن الخطر النورماني ، الذي أحدق بالامبراطورية البيزنطية من جراء غزو روبرت جويسكارد (١٠٨١ - ١٠٨٥م) للأراضي البيزنطية هو الذي اضطر الامبراطور الكسيوس كومنين إلى اصدار مرسومه الشهير بمنح جمهورية القديس مرقص امتيازاتٍ تجارية في بيزنطة ، وذلك مقابل الحصول على مساعدتهم البحرية لصد الغزو النورماني . وقد ربط المؤرخون البيزنطيون المعاصرون ، أمثال آنا كومنين(٣٣) ومن ثم نيقتاس قونياتس(٣٤) بين هذه الامتيازات التي مُنحت للبنادقة وبين الخطر النورماني الذي هدد الامبراطورية في مستهل عهد الكسيوس كومنين . وبالفعل لبّت البندقية نداء العاهل البيزنطي واشتركت بقسم كبير من اسطولها في صد الغزو النورماني عن بيزنطة ، واستمرت

---

(32) Pirenne Economic and social hist., p. 20, Brown, op. 68- 69; Luzzato, p.49.

(33) ANNA, The Alexiad, (Eng. Trans.), p. 100.

(34) Nicetas, in C.S.H.B., pp. 220-21.

الجمهورية تقاتل الى جانب الامبراطورية طوال الغـزو (١٠٨١ ـ ١٠٨٥م) الـذي انتهى بالفشل كما بحثنا ذلك في الباب الأول من هذه الدراسة . ونود أن نؤكد أن وقوف جمهورية القديس مرقص الى جانب بيزنطة لمواجهة الخطر النورماني لم يكن نتيجة الامتيازات التي منحها الكسيوس كومنين للبنادقة فحسب وانما لأن المصالح التجارية للجمهورية تطلبت العمل بأي شكلٍ من الأشكال على منع قيام أية قوة منافسة على جانبي البحر الادرياتي(٣٥) وابعاد أي خطر يمكن أن يهدد الطرق التجارية البحرية أو قوتها البحرية الناشئة(٣٦) .

وكان أن تمّ التوقيع رسمياً على المرسوم الذي أصدره الكسيوس كومنين في مايو من العام ١٠٨٢م وأهم الامتيازات التجارية التي منحت بموجبه للبنادقة هي(٣٧) .

أ ـ يُعرب الكسيوس كومنين في بداية المرسوم عن عرفانه بالجميل للخدمات التي قدمها البنادقة للبيزنطين في القتال ضد النورمان أمام دورازو ويعتبر ما ورد في هذا المرسوم انما هو مكافأة على خدماتهم العظيمة هذه . ٢ً ـ يمنح المرسوم دوج البندقية لقباً تشريفياً والمرتّب المرتبط بهذا اللقب ، له ولمن سيخلفه في منصبـه . ٣ً ـ يمنـح اسقف البندقية لقباً تشريفياً والمرتّب المرتبط بهذا اللقب له ولمن سيخلفه في منصبه . ٤ً ـ يوزع الامبراطور مبلغاً كبيراً من الذهب سنوياً (يقدّر بعشرين جنيهاً ذهبياً) على كنائس البندقية ، ٥ً ـ يجب على كل أصحاب الحوانيت في مدينة القسطنطينية ، والذين هم أصلاً من مدينة آمالفى الايطالية ، أن يدفعوا أتاوة سنوية (تقدر بثلاثة صولدات من الذهب) لكنيسة القديس مرقص الموجـودة في البنـدقية . ٦ً ـ يُمنـح البنادقة محطتين تجاريتين في نهاية الشارع المؤدي الى ميناء القسطنطينية (أي على ساحل القرن الذهبي) وثلاثة مراسي (أو أحواض) لرسو السفن في المنطقة الآنفـة الذكر . ٧ً ـ يحق للبنادقة التملك في أي مكان في الامبراطورية البيزنطية . ٨ً ـ يُعفى التجار البنادقة من كل أنواع الضرائب في كافة أرجاء الامبراطورية .

والواقع ان هذا المرسوم يعتبـر أساسـاً لكل المراسيم التـي أصدرهـا الأباطـرة

(35) Ostrogorsky, op. cit., p. 317.
(36) Vryonis, S., Byzantium and Europe, pp. 134-36.

(٣٧) انظر النص الكامل لمرسوم الكسيوس كومنين عند
ANNA, The Alexiad, pp. 146-147.; Adelson, Med. Com. Doc. No. 31, p. 160.

البيزنطيون حتى نهاية القرن الثاني عشر . ومن الملاحظ أن الامتيازات التي مُنحت للبنادقة بموجب هذا المرسوم تشكّل خطراً كبيراً على الاقتصاد البيزنطي فضلاً عن التجارة والتجار البيزنطيين . ويبدو أن البنود الأخيرة من هذا المرسوم هي التي هددّت الاقتصاد البيزنطي ، فمنح محطات تجارية في القرن الذهبي للبنادقة ، والاعفاء المطلق من أية رسوم جمركية واعطائهم حرية كاملة للعمل بدون قيد أو ضبط في كل انحاء الامبراطورية براً وبحراً يضاف الى ذلك الخسائر التي لحقت بالموارد الامبراطورية من جراء الاعفاء من دفع الرسوم التي لم يكن يعفى منها التجار البيزنطيون أنفسهم . (٣٨) ان اعطاء البنادقة حق حرية التملك كان الأساس الذي ساهم في وجود جالية بندقية ومن ثم مستعمرة تجارية بندقية في القسطنطينية وغيرها من المدن الامبراطورية . ولعل الأخطر من ذلك كله أن المرسوم يمنع ضباط الجمارك من تفتيش بضائع التجار البنادقة(٣٩) . وهذا شكّل خطراً على السلع التي كانت تحرص الحكومة البيزنطية على عدم تصديرها أو احتكار المتاجرة فيها للدولة البيزنطية نفسها مثل خام الحرير(٤٠) . كذلك أعطى هذا المرسوم البنادقة امتيازاً لم يتمتع به غيرهم من الايطاليين ، بل أنه جعل الجالية الأمالفية المقيمة في القسطنطينية تتبع كنيسة القديس مرقص ، وهذا بدوره وضع الجذور العميقة للغيرة والحسد المرير الذي نشب أظافره بين الجمهوريات الايطالية كلها . وسنرى فيما بعد الأضرار التي لحقت بالاقتصاد البيزنطي من تنافس هذه الجمهوريات على امتلاك أكبر قسط ممكن من الامتيازات التجارية في بيزنطة . وتجدر الاشارة الى أن هذا المرسوم الامبراطوري فرض عقوبة على كل من يحاول انتهاك حرمة الامتيازات التجارية التي منحت للبنادقة بموجبه . لذلك لا عجب اذا وجدنا المؤرخة آنا كومنين تركّز بشكل ملفت للنظر على هذه الامتيازات وتشير اليها في أكثر من موضع ، لانها ادركت الآثار السلبية العميقة التي ستتركها مثل هذه الامتيازات والحقوق الواسعة على الاقتصاد البيزنطي .

ومنذ أن صدر المرسوم الآنف الذكر أخذ البنادقة يتدفقون على الأراضي البيزنطية ،

---

(38) Pirenne, Ecinomic and social., p. 20.

(39) Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire, vol. 11, p. 382. Vryonis, op. cit., p. 142.

(40) Baynes and Moss, Byzantiums p. 66; Guerdan, op. cit., pp. 93, 101; «A book of the prefect» in Lopez, R., Raymond, L.W., Med. Trade, pp. 20-23.; Brown, op. cit., p. 73.

وأخذت سفن جمهورية القديس مرقص تجوب المياه البيزنطية دون قيد أو شرط ، وأخذ التجار البنادقة يدخلون الأسواق الامبراطورية مرفوعي الرؤوس ، يصدّرون ويستوّردون ، دون رسوم جمركية ودون تفتيش وكأنهم في وطنهم الأم .

وأما بالنسبة لسياسة البندقية تجاه القوى الغربية عامة والايطالية بشكل خاص من أجل مصالحها الاقتصادية ، فلقد عملت البندقية منذ فترة مبكرة على اقامة أفضل العلاقات مع القوى الغربية عموماً وذلك بهدف كسب مواقع تجارية . فمثلاً حصلت على امتيازات تجارية هامة في شمال ايطاليا منذ شارلمان ، ولكن الامبراطور الالماني أوتو الثاني ألغى الكثير من حقوق البندقية التجارية في وادي نهر البو ، وفرض عليها عدة قيود اقتصادية ليجبرها على الأذعان . إلا أنه سرعان ما أدرك أن محاولته لا يمكن أن تنجح فاضطر كارهاً الى تجديد امتيازات البنادقة عام ٩٨٣م شريطة اداء بعض الأموال الى الخزانة الامبراطورية الألمانية ، وفي عام ٩٩٦م منح أوتو الثالث البندقية امتيازاتٍ تجارية في المانيا وأكد لها حقوقها في صيد البحر والبر في لمبادريا وأدى ذلك إلى احتكار تجارة شمال ايطاليا مع الشرق(٤١) . واستمرت البندقية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر تعمل للحصول على امتيازات تجارية من الأباطرة الالمان ، حتى أنها نجحت في احتكار وتسويق كل البضائع التي تصل الى مينائها مع المدن الغربية عموماً ومع ايطاليا بشكل خاص(٤٢) .

والواقع أننا لا نستطيع أن نتجاهل ـ ونحن نرسم صورة موجزة عن أحوال البندقية حتى مستهل القرن الثاني عشر ـ العلاقات التجارية الطيبة التي أقامتها البندقية ، والمدن الايطالية الأخرى ، مع مصر والشام خلال القرن الحادي عشر(٤٣) . ومن المعروف أن الحكومة الفاطمية في مصر أذنت للتجار الايطاليين وغيرهم من التجار الأوروبيين بانشاء الفنادق الخاصة بهم ، وكانت لكل جالية أجنبية بالاسكندرية فندق للاقامة ويحفظون بضائعهم إما داخل المدينة أو خارجها وأخذت السفن

(٤١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ .

(42) Pirenne, Med. Cities, p. 88.

(٤٣) عن العلاقات التجارية بين البندقية والقوى الاسلامية في العصور الوسطى انظر : عادل زيتون : العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ١٨٧ وما بعدها

البندقية تنقل الخشب والحديد إلى الموانيء المصرية(٤٤).

ثم جاءت الحملة الصليبية الأولى في مستهل القرن الثاني عشر لتكون فرصة طيبة أمام تصاعد نفوذ البندقية، إذ أسهم البنادقة بسفنهم وأساطيلهم في نقل الجنود والعتاد والمهمات من موانيء أوربه الى سواحل الشام ومصر. كما اشتركوا مع الصليبيين في الاستيلاء على العديد من المدن الشامية تحقيقاً لمصالحهم وأطماعهم التجارية في بلاد الشام بخاصة والحوض الشرقي للبحر المتوسط بعامة. كما طلبت البندقية أن يكون لها في كل مدينة محتلة في الشام كنيسة ومكتب للتجارة وأن تُعفى تجارتها من الضرائب والرسوم(٤٥). ولذا كان هدف البنادقة منذ بداية الحركة الصليبية حتى نهايتها هو الربح والكسب المادي، ولم يكن يعنيهم الباعث الديني الا بالقدر الذي يحقق مصالحهم، اذ غلبت الصفة التجارية على مسلكهم وتصرفاتهم ويكفي أن نعرف أن شعارهم الذي عرفوا به وقتذاك هو: «لنكن أولاً بنادقة ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين»(٤٦).

ثانيا: جمهوريتا جنوه وبيزا:

لقد نهضت كل من مدينتي جنوه وبيزا في وقت واحد تقريباً، وفي ظل ظروف واحدة، وعملتا في شؤون البحر، منذ بداية القرن الحادي عشر، ضد عدو مشترك، ولتحقيق أهداف واحدة(٤٧). ولذا فمن الأفضل بحث أحوالها في مستهل القرن الثاني عشر معاً.

أما مدينة جنوه فتقع على الساحل الشمالي للبحر التيراني، وهي ميناء بحري هام للغاية منذ عهد الجمهورية الرومانية. وكانت الزعامة البحرية لجنوه في القسم الغربي من المتوسط تضاهي الزعامة البحرية للبندقية في شرقيه. ولكن انقطاع جنوه عن الشرق، بحكم استيلاء المسلمين، لفترة طويلة على جزيرة كورسيكا وسردينيا

(٤٤) سرور: الدوله الفاطمية، ص ١٥٨-١٥٩.

(٤٥) بور: نماذج من العصور الوسطى، ص ٥٢-٥٣.

(٤٦) عن العلاقه بين البندقية والجمهوريات التجاريه الأخرى وبين الحركة الصليبيه انظر: عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص ١٢٩ وما بعدها.

(47) Pirenne, Med. cities, p. 90.

وصقلية ومالطة ، جعل نهوض جنوه متأخراً بالنسبة للبندقية(48) . وقال الادريسي(49) عن مدينة جنوه : «انها مدينة قديمة ازلية البناء حسنة الجنبات والأفناء ... وهي وافرة الثمر كثيرة المزارع والقرى والعمارات وأهلها تجار مياسير يسافرون براً وبحراً ويقتحمون سهلاً ووعراً ، ولهم أسطول مخيف ، ولهم معرفة بالحيل الحربية ..» .

أما بالنسبة الى نظام الحكم الذي ساد جنوه في مستهل القرن الثاني عشر ، والذي أكده بنيامين التطيلي(50) ـ الذي زار جنوه في أواسط القرن الثاني عشر ـ بقوله : «ولا يحكم مدينة جنوه ملك بل شيوخ ينتدبهم الأهلون للقضاء» ، نظام حكم القناصل الذين ينتخبهم شعب الجمهورية .

أما بالنسبة الى جمهورية بيزا ، فهي كزميلتها جنوه ، تقع على الساحل الشرقي للبحر التيراني . وقد استهر البيازنه ـ منذ عهد الجمهورية الرومانية ـ كتجار وقراصنة في آن واحد ، وأُعتبر ميناؤها واحداً من الموانيء العظيمة المألوفة في البحر التيراني(51) . وقال الادريسي(52) عنها : «انها مدينة مشهورة ، كبيرة القطر ، عامرة بالأسواق والديار ، بعيدة الافناء والاقطار ، كثيرة البساتين ... ، ولأهلها مراكب وخيل واستعداد لركوب البحر وقصد البلاد» .

أما بالنسبة الى نظام الحكم في بيزا ، فقد تمتعت بيزا بالاستقلال السياسي ، كما هو الحال بالنسبة الى جنوه ، وحكمها القناصل الذين ينتخبهم الشعب ، وقد أكد ذلك أيضا بنيامين التطيلي(53) الذي قال : «ان أهل بيزا قوم أشداء لا يدينون بطاعة لملك وانما يمنحون السلطة شيوخاً ينتدبونهم للحكم» .

واذا كانت عظمة البندقية ومستقبلها التجاري قد ارتبطا ـ كما رأينا ـ بتنظيف الادرياتي والبحر المتوسط الشرقي من القراصنة ، فان عظمة جنوه وبيزا ومستقبلها

---

(48) Ault, op. cit., pp. 37f.

(49) الادريسي : نزهه المشتاق ، ص ٧٢

(50) بنيامين التطيلي : رحلته ، الترجمه العربيه ، ص ٥٨ .

(51) Hodgson, venice, p. 235.

(52) الادريسي : ص ٧٢ .

(53) بنيامين التطيلي : ص ٥٨.

التجاري ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بتنظيف البحر التيراني من القراصنة وتخليص جزر سردينيا وكورسيكا وصقلية من نفوذ المسلمين . ولذا أخذ البيازنة والجنوية ـ منذ أوائل القرن الحادي عشر ـ في بناء قوتهم البحرية ، وتنظيم سلسلة من الحملات العسكرية ضد المسلمين ، الذين كانوا يحتلون آنذاك جزيرة كورسيكا وسردينيا ، بهدف حماية تجارتهما ـ كما يعتقد سدني بينتر(٥٤) . ولكن أرشيبالد لويس يخالف الى حد ما رأي بينتر ويرى أنه ربما كان من الخطأ أن تنظر الى النشاط البحري لكل من بيزه وجنوه ، انه كان يستهدف أساساً حماية التجارة من غارات المسلمين ، رغم أن هذه هي النتيجة التي أدى إليها هذا النشاط ، ولكن ـ كما يرى أرشيبالد(٥٥) ـ لم تتحركا في البداية بدوافع اقتصادية ، بل تحركتا لأسباب دفاعية صرفه ، فلقد رغبوا في البداية التخلص من المسلمين ، الذين يغيرون على سواحلها ، ولكن سرعان ما اكتشف البيازنة والجنوية أن ثمة مغانم كثيرة يمكنهم الحصول عليها لو أنهم غامروا في البحر . ولهذا فقد أخذوا يحترفون القرصنة منذ أوائل القرن الحادي عشر وينهبون التجارة والموانىء الاسلامية الساحلية ، وكانت مغانم القرصنة ـ لا التجارة ـ هي الدافع الأساسي لتحرك أساطيل هاتين المدينتين في القرن الحادي عشر .

وفي الواقع شكل الخطر الاسلامي والغارات التي قام بها المسلمون من شمال افريقية بشكل خاص ـ خلال القرنين العاشر والحادي عشر ـ ضد جنوه وبيزا تحدياً صارخاً لهاتين الجمهوريتين . ولعل أبرز مثال على ذلك الغارة العنيفة التي شنّها المسلمون ضد مدينة جنوه عام ٩٣٤ ـ ٩٣٥م ، والتي انتهت بمجزرة رهيبة حلت بالجنوية ، واسترق المسلمون بنتيجتها الكثيرين من سكان مدينة جنوه فضلاً عن نهب المدينة وكنائسها(٥٦) . كما قام القراصنة المسلمون بالاغارة على مدينة بيزا عام ١٠٠٤م وكذلك عام ١٠١١م ، واعملوا في هذه المدينة السلب والنهب(٥٧) .

وكان أن اكتشفت الجمهوريتان ـ جنوه وبيزا ـ ان قضية الدفاع عن الوجود

---

(54) Painter, medieval sociaty, p. 69.

(٥٥) أرسيبالد : ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

(56) Pirenne, Economic and Social hist. pp. 25-30.

(57) Pirenne, H.; Med. cities, p. 90; Economic and social history, p. 25; Ault, Europe in middle ages, p. 368

والحدود وقضية نهوض تجارتهما ترتبطان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً . ولهذا انتقلوا من الموقف الدفاعي الى الموقف الهجومي ضد الخطر الاسلامي الذي يتهددهما . وكان أن قامت جنوه ـ بالتعاون مع بيزا ـ عام ١٠١٥م وعام ١٠١٦م بحملة مشتركة ضد جزيرة سردينيا وكورسيكا (٥٨) ، اللتين كانتا تخضعان للمسلمين آنذاك ، وذلك بتحريض من البابا بندكت الثامن(٥٩) ، ونجحت أساطيل هاتين الجمهوريتين في فتح سردينيا وطرد المسلمين منها(٦٠) ، وفي النهاية أصبحت السلطة العليا في سردينيا وكورسيكا لجمهورية بيزا(٦١) .

وفي عام ١٠٣٤م قام البيازنة بشن غارة عدوانية ضد مدينة بونه ـ الواقعة على الساحل الافريقي ـ واحتلوها فترة من الوقت ، وربما كان هذا الهجوم بدعم من الجنوية والبروفانسيين ، وقد قدم البيازنة جميع الاسلاب والغنائم التي حصلوا عليها الى دير كلوني(٦٢) . ويبدو أنه كان لهذه الغارة أهمية كبيرة حيث أثبتت للبيازنة ضعف المسلمين في شمال افريقية وأن حقيقة أمرهم ليست كما يتوهمون ولهذا فقد أصبحت الغارات بعد عام ١٠٣٤م تستهدف القرصنة والرغبة في الحصول على الغنائم ، بينما كانت قبل هذا التاريخ تستهدف الدفاع عن كيانها والانتقام لما حل بها على يد المسلمين(٦٣) .

وفي عام ١٠٦٢ وعام ١٠٦٣م شقّ البيازنة طريقهم نحو ميناء باليرمو في جزيرة صقلية التي كانت لا زالت بيد المسلمين ، ودمروا دار الصناعة الاسلامية هناك ، وأحرقوا خمس سفن تجارية . ولقد كسب البيازنة من هذه الحملة مجداً عظيماً لأنهم نجحوا في قطع السلاسل التي تغلق ميناء باليرمو وتمكنوا أيضا من أسر حوالي ست

---

(٥٨) عن جغرافية هاتين الجزيرتين وثرواتهما . أنظر : الادريسي : نزهة المشتاق ، ص ١٥ ـ ١٦ .

(٥٩) منح البابا بندكت الثامن عام ١٠١٥ م الحق لأي من الجمهوريتين (بيزا أو جنوه) بامتلاك سردينيا وكورسيكا اذا نجحت أي منهما في «طرد» المسلمين منها . أنظر : Bent, Genoa, p. 68.

(60) Pirenne, med. cities, p. 90.

(61) Bent, op. cit., p. 68.

(62) Adelson op. cit., p. 64; Heyd, Hist. du commerce du levant, vol. I, p. 121; pirenne, med. cities, p. 90; Idem. Economic and social history, p. 30.

(٦٣) عاسور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

سفن كبرى ، ويقال أن البيازنة قد باعوا ـ فيما بعد ـ واحدة من هذه السفن ، وبثمنها بنوا أسوار مدينتهم (٦٤) .

وكان أن عظمت قوة الجمهوريتين ـ جنوه وبيزا ـ البحرية ، حتى أنهما قامتا عام ١٠٨٧م (٤٨٠هـ) بأكبر هجوم بحري لهما على شمال افريقية . حيث نزلت حملة بحرية مؤلفة من /٣٠٠/ قطعة بحرية ، وتحمل حوالي /٣٠٠/ ألف مقاتل ، على ساحل شمال افريقية . واستولت هذه الحملة على المهدية وزويله ، وأعمل البيازنه والجنوية السلب والنهب والقتل والنيران في المهدية(٦٥) . وربما كان هذا الهجوم بتحريض من البابوية . وذلك لأن وجود أحد الاساقفة في هذه الحملة أضفى عليها رعاية ووجود الكنيسة وتشجيعها لها(٦٦) . وانتهت هذه الحملة بأن وقعّ تميم(٦٧) معاهدة صلح مع المغيرين (البيازنة والجنوية) واضطر إلى دفع مبلغ كبيرٍ من المال ثمناً لانسحاب قواتها من بلاده ، كما وعد تميم هذا بعدم التعرض لسفن المدن الايطالية في المياه الافريقية(٦٨) .

ورغم أن نشاط بيزا وجنوه قد تركّز أساساً في الجزء الغربي من البحر المتوسط ، خلال القرن الحادي عشر ، فقد كانت لهما نشاطات تجارية ورحلات إلى الشرق ، إلا أنها كانت محفوفة بالمخاطر ، خاصة وأن جزيرة صقلية لا تزال بيد المسلمين . ولكن عندما نجح النورمان ـ بقيادة الكونت روجر ـ في إتمام احتلال صقلية عام ١٠٩١م ، وأصبحت بذلك مضائق مسينا بأيدي قوة مسيحية ، صار بإمكان هاتين الجمهوريتين القيام ببعض الرحلات التجارية الى السواحل الشرقية للبحر المتوسط فضلاً عن

---

(٦٤) ارشيبالد : القوى البحرية والتجارية ، ص ٣٧١ .

(٦٥) ابن ابى الدينار : المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ، ص ٥٣٠ ـ ٥٣١ ؛ محمد التيجاني : رحلته ، ص ٣٩٠ .

(66) Pirenne, Economic and Social Hist, p. 30.

(٦٧) وهو تميم بن المعز ، خامس حكام افريقية من الزيريين . نصّبه والده المعزّ بن باديس والياً على المهدية عام ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) عقب ظهور العرب الهلالية وامتلاكهم جزءاً كبيراً من افريقية . وبعد وفاة أبيه المعزّ عام ٤٥٤ (١٠٦٢ م) أنفرد تميم بالسلطان حتى وفاته عام ١١٠٨ م .

انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٥ ، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠ .

(٦٨) انظر تفصيل ذلك عند : التيجاني : ص ٣٩٠ ـ ٣٩١ .

موانىء جزيرة صقلية ذات الأهمية البالغة في تجارة البحر المتوسط(٦٩) . وهناك عدة أدلة تشير الى النشاط التجاري الذي قامت به كل من بيزا وجنوه قبيل الحملة الصليبية الأولى . فيقال على سبيل المثال ، أن جود فرى بوايون ، الذي أصبح ملكاً على بيت المقدس (١٠٩٩ ـ ١١٠٠م) ، كان قد حج الى القدس وعاد الى أوربا عام ١٠٩٤ ـ ١٠٩٥م على ظهر سفينة جنوية(٧٠) . كما أن جيوش الحملة الصليبية الأولى ، التي وصلت الى الساحل الشامي ، قد التقت هناك بسفن ايطالية ـ من جنوه وبيزا والبندقية ـ وكانت هذه السفن في رحلاتها العادية الى الساحل الشامي(٧١) . ومن جهة أخرى فقد أقامت كل من جنوه وبيزا علاقات تجارية مع مصر ، قبل الحملة الصليبية الأولى ، وكانت سفنهما تتردد على الموانىء المصرية في عهد الفاطميين ، كما كان لهما جاليات تجارية في مدينة الاسكندرية بشكل خاص(٧٢) .

إلا أن العلاقات التجارية بين جنوه وبيزا وموانىء البحر المتوسط الشرقية عامة كانت غير مستقرة ، وخضعت لمجموعة من الظروف ، وتأثرت بشكل مباشر بالعلاقات السياسية التي كانت قائمة بين قوى البحر المتوسط آنذاك ، اسلامية وبيزنطية وأوروبية غربية لذا فقد جاءت الحروب الصليبية فرصة ذهبية لهاتين الجمهوريتين ، ونقطة تحول بالنسبة لنشاطهما ومستقبلهما التجاري . وكان أن لعبت جنوه وبيزا دوراً ملموساً سواء في نقل رجالات الحملة الصليبية الأولى إلى الساحل الشامي أو في مساعدة القوات الصليبية في الاحتلال ـ كما فعل الجنوية أمام انطاكية (١٠٩٧ ـ ١٠٩٨م)(٧٣) ـ أو في نقل المؤن والذخائر للصليبيين وبالتالي في تثبيت أقدام الصليبيين في الشام وحماية الأمارات الصليبية من البحرية العربية الإسلامية . إلا أن الامتيازات التجارية التي حصلت عليها جنوه وبيزا ازاء دعمهما للصليبيين يفوق في أهميته ونتائجه ذلك الدعم وتلك المساعدة . فمن جهة كسبت كل منهما لنفسها في

(69) Hodgson, Venice, p. 237.

(70) 1bid.

(71) 1bid., pp. 237-38.

(٧٢) عن العلاقات التجارية بين جنوه وبيزا وبين الفاطميين في مصر انظر :
عادل زيتون : العلاقات الاقتصادية ، ص ٢٠٨ وما بعدها ؛ سرور : الدولة الفاطمية ، ص ١٥٨ ـ ٥٩ .

(73) William of Tyre, 1, pp. 228-29.

كل مدينة احتلها الصليبيون سوقاً تجارية وحيّاً لجاليات كل منها ، وكنيسة ومستودعات وفنادق... ، ومن جهة ثانية احتكرت التجارة بين الغرب الأوروبي والمدن والامارات الصليبية ، بل والشرق الاسلامي عامة . وترتب على ذلك تدفق الأموال والسلع على الغرب الأوروبي وبالتالي ساعد ذلك كله على انعاش الحضارة وازدهار الأعمال المصرفية والمالية والبحرية(٧٤) .

---

(٧٤) عن العلاقات التجارية بين جنوه وبيزا وبين المدن والأمارات الصليبية في الشام انظر :
عادل زيتون : العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ١٢٩ وما بعدها .

الفصل الثالث

قيام الدولة النورمانية في جنوب ايطاليا وصقلية وأحوالها حتى مستهل القرن الثاني عشر للميلاد

كان القرن الحادي عشر عصر التوسع النورماني سواء في فرنسا أو انكلترا أو جنوب ايطاليا وبعض جزر البحر المتوسط ولا يهمنا هنا سوى تعقب ذلك الفريق من النورمان الذين تركوا موطنهم في نورماندیا وأخذوا يتوافدون على الجنوب الايطالي ، منذ مطلع ذلك القرن تقريباً ، واستغلوا الظروف السياسية التي كانت سائدة في تلك المنطقة ، ومن ثم تمكنوا من تأسيس دولة نورمانية ، كان لها شأن كبير لا في تاريخ إيطاليا فحسب وإنما في تاريخ عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى .

ويمكن لنا أن نقسّم جنوب ايطاليا في مطلع القرن الحادي عشر ، وقبيل قدوم النورمان ، الى ثلاث مجموعات سياسية ورئيسية : أولاً : الامارات اللمباردية ، وهي ثلاث امارات رئيسية : امارة سالیرنوم وامارة كابو وامارة بنفنتو . وكانت هذه الأمارات تتمتع بالاستقلال الذاتي تماما(1) ، وفي نفس الوقت تقاوم بشكل متواصل البيزنطيين من أجل السيطرة على جنوب ايطاليا(2) . ثانياً : الدويلات البحرية ، وهي ثلاث رئيسية : جيته (غيته) ، ونابولي(3) وأمالفي(4) . وكانت تتمتع هذه الدويلات

---

(1) Haskins, The Normans in European History, p. 197.

(2) Yewdale, Bohemond 1, p.2.

(٣) يقول الرحالة بنيامين التطيلي أن مدينة نابولي هي : «بلدة حصينة مستحكمة واقعة على شاطيء البحر التيراني وقد بناها الاغريق في أول عهدها» . أنظر : بنيامين : رحلته : الترجمة العربية ، ص٦٧ .

(٤) يقول بنيامين التطيلي : «أن نصارى مدينة أمالفي تجار ولا يشتغلون بالزراعة ، بل يبتاعون كل ما يحتاجونه بالمال وأراضيهم غنية بالفواكه تكثر فيها الكروم وأشجار الزيتون وهم أشداء لا مثيل لأحد بمثلهم» . أنظر بنيامين : المصدر السابق ، ص٦٨ .

بحكم ذاتي وتدين بالتبعية الاسمية ـ على الأكثر ـ للامبراطورية البيزنطية(٥) . ويبدو أن أمالفي هي وحدها التي كانت تتمتع باخلاص بيزنطة ، وذلك لأن تجارتها مع بيزنطة والشرق عامة كانت مزدهرة ، ولم يكن من مصلحتها التحلل الكامل من أي نوع من التبعية تجاه بيزنطة(٦) . ثالثاً : الاقاليم البيزنطية ، لم يكن لبيزنطة سيطرة حقيقية ومباشرة في جنوب ايطاليا إلا على اقليمين فقط وهما أبوليا وكلابريا(٧) وأبوليا هي كعب حذاء شبه الجزيرة الايطالية بينما كلابريا هي مقدم الحذاء ، وكانت المسؤولية المطلقة في إدارة هذين الاقليمين تقع على عاتق الحاكم البيزنطي الذي كان مقره في مدينة باري ، وكان هذا الحاكم يتمتع بصلاحيات عسكرية ومدنية(٨) . وتجدر الاشارة الى أن هناك اختلاف في التركيب السكاني في هذين الاقليمين البيزنطيين ، فكلابريا كان سكانها ـ بشكل كلي ـ اغريقاً (أي بيزنطيين) ، أما أبوليا فقد كان سكان مدنها اغريقاً بينما كان ريفها يتكون من اللمباردين واللاتين(٩) . وهذا التوزع السكاني انعكس في الناحية الدينية . حيث كان جنوب ايطاليا مسرحاً يتنازعه المذهبان الأرثوذكسي ، التابع لبطريرك القسطنطينية ، والمذهب الكاثوليكي التابع للبابا في روما .

ما هي العوامل التي ساعدت النورمان على فتح جنوب ايطاليا ؟ . في الواقع كانت أحوال جنوب ايطاليا في مطلع القرن الحادي عشر ملائمة تماماً للفتح النورماني . ويمكن أن نوجز ذلك في النقاط التالية : أولاً : كانت هذه المنطقة مسرحاً للنزاع بين عدة قوى ـ ذات مطامع سياسية واقتصادية ودينية ـ وهي الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الالمانية والأمراء اللمبارديين والبابوية (١٠) . ثانياً : ان الحكم البيزنطي في أبوليا كان صارماً وافتقد بالتالي للشعبية وللتأييد من الأهالي بسبب

(5) Joranson, E., «The inception of the Career of the Normans in Italy-legend and history», speculum, xxiii (1948), pp. 353-375.

(6) Runciman, S., The Eastern Schism, p. 37.

(7) Yewdale, Bohemond, p.2; Haskins, The Normans, pp. 197-98; Joranson, op. cit., pp. 353-54,

(8) Joransson, op. cit., p. 354.

(9) Rucinian, op. cit., p.37.

(10) Yewdale, Bohemond, p.2.

الضرائب الباهظة وقسوة الحياة من جهة وفرض الخدمة العسكرية على السكان من جهة ثانية(١١) . **ثالثاً** : غارات المسلمين المستمرة تقريباً على كل سواحل جنوب ايطاليا ، مثل غاراتهم السنوية على مدينة ساليرنو اذا لم يدفع سكان هذه المدينة الجزية السنوية المعتادة(١٢) . **رابعاً** : الانقسام المذهبي لسكان جنوب ايطاليا فالكاثوليك (اللاتين) يتطلعون إلى سيدهم البابا ، والأرثوذكس البيزنطيون (الاغريق) يتطلعون الى بطريركية القسطنطينية(١٣) . **خامسا** : رغبة الأمراء اللمبارديين في طرد البيزنطيين من جنوب ايطاليا(١٤) ، وصراع هؤلاء الأمراء مع الدويلات البحرية من جهة أخرى(١٥) . **سادساً** : ضعف الامبراطورية البيزنطية والمشاكل الداخلية التي كانت تعاني منها عتنية وصول النورمان الى جنوب ايطاليا(١٦) .

ويرتبط ظهور النورمان لأول مرة على مسرح الأحداث ، في جنوب ايطاليا بثورة أحد أثرياء مدينة باري واسمه ميلو ، الذي أراد تحرير ابوليا من السيطرة البيزنطية . وكان ميلو هذا قد قام بثورة فاشلة عام ١٠٠٩م(١٧) ، ولكنه استأنف ثورته ـ بعد ثمان سنوات (١٠١٧م) ـ ضد البيزنطيين، وارتبط ظهور النورمان في جنوب ايطاليا بثورته الأخيرة . ورغم أن المؤرخين المحدثين لم يتفقوا بعد على الكيفية التي تم فيها الاتصال بين النورمان وميلو هذا ، إلا أن الروايتين(١٨) السائدتين حول هذا الموضوع هما : **الأولى وملخصها** : ان أربعين نورمانياً كانوا في طريق عودتهم من بيت المقدس بعد أدائهم الحج ، وعندما وصلوا الى مدينة ساليرنو وجدوها محاصرة من قبل المسلمين ، فلبوا نداء حاكم المدينة الأخيرة وانضموا إلى أهالي ساليرنو وهاجموا

---

(11) Haskins, The Normans in European History, p. 198.

(12) Joranson, «The Inception of the career of the Normans», p. 356.

(13) Gay, L'Italie Meridionale, pp. 414-29.

(14) Yewdale, op. cit., p.2.

(15) Curtis, E., Roger of sicily, p. 38.

(16) Yewdale, op. cit., p. 2.

(17) Joranson, op. cit., p. 354.

(١٨) أنظر الدراسه العلميه القيمه التي قام بها جورانسون لهاتين الروايتين في :

Joranson, «The Inception of the Career of the normans in Italy», Speculum, xxiII (1948), pp. 353-375.

المسلمين الذين اضطروا إلى رفع الحصار عن المدينة . ومن ثم عاد هؤلاء الحجاج النورمان إلى بلادهم (نورماندیا) ومعهم وفد مرسل من أمير ساليرنو بهـدف حث النورمان في تلك المنطقة على القدوم الى ساليرنو «أرض اللبن والعسل» . وكان أن لبى هذه الدعوة اعداد وفيرة من النورمان . ولكن قبل وصول هؤلاء النورمان الى ساليرنو التقوا في كابوا بالثائر ميلو ، ووافقوا على مساعدته في الثورة ضد البيزنطيين واتجهوا بصحبته الى أبوليا وبدأوا في القتال ضد البيزنطيين وذلك عام ١٠١٧م . أما الرواية الثانية فملخصها : أن عدداً من النورمان قد تسلقوا قمة جبـل جارجانـو ـ على الساحل الشرقي لجنوب ايطاليا ـ لزيارة ضريح القديس ميخائيل ، وهناك التقوا بالثائـر ميلـو الذي طلـب منهـم المسـاعـدة . ووعـد هؤلاء بتحـريض ذويـهم ، عند عودتهم الى نورماندیا ، على القدوم لمساعدته واستجابـت اعـداد كبـيرة من النورمان لما تفوه به حجاج القديس ميخائيل ، وقدموا الى جنوب ايطاليا وساعدوا ميلو في ثورته ضد البيزنطيين (١٠١٧م) .

ويعتقد المؤرخ هاسكنس(١٩) أن الروايات المتعلقة بظهور النورمان لأول مرة في جنوب ايطاليا تحمل جانباً كبيراً من الخرافة والأساطير . ولكن يبدو أن الرؤية العامة صحيحة ، لأن النورمان عادوا الى جنوب ايطاليا عام ١٠١٧م بقوة ونشاط ومستعدين للعمل . ورغم أن ثورة ميلو (١٠١٧م) ضد الوجود البيزنطي في أبوليا قد فشلـت وبالتالي سحقت عام ١٠١٨م(٢٠) ، إلا النورمان توطنوا في تلك المنطقة ، وبدأوا في العمل لتحقيق مصالحهم الخاصة ، رغم قلـة عددهـم ، عن طريق خدمـة مختلف الاطراف المشتركة في لعبة السياسة الايطالية وانتقلوا من خدمة أمير إلى خدمة أمير آخر ـ في الجنوب الايطالي ـ عندما تبدو لهم أن المنفعة أكبر ، وحرصوا في ذات الوقت على أن لا يحقق أي أمير منهم غلبة وقوة فيستغني عن خدماتهم(٢١) . وسرعان ما استقر هؤلاء النورمان ، واستدعوا أقاربهم وأصدقاءهم من شمال فرنسا (نورماندیا) الى جنوب ايطاليا ، بحيث لم يأت عام ١٠٣٠م حتى كان النورمان قد أسسوا امارة

(19) Haskins, The Normans., p. 199.

(20) Curtis, Roger of cicily. p. 36.

(21) Haskins, The Normans, p. 200.

لأنفسهم في أفرسا (شمال نابولي) ، وهي أول مركز للنورمان ، أو بالأحرى أول امارة نورمانية في جنوب ايطاليا ، وكانت برئاسة شخص اسمه رانولف(٢٢) . وكان أن بعث الأخير الى نورماندیا يحث أقاربه وبني جلدته للقدوم إلى جنوب ايطاليا للتمتع «بأراضي الجنوب الخيرة» . ولعل أبرز من لبى هذا النداء أسرة نورمانية ، تسكن منطقة تدعى هوتفيل (تقع في نورماندیا العليا) ، ورب هذه الأسرة رجل اسمه تانكريد ، الذي كان أميراً على منطقة هوتفيل ، وعرف بتانكريد هوتفيل(٢٣) .

وتعتبر أسرة تانكريد هوتفيل ذات أهمية كبرى في تاريخ العصور الوسطى ، لأن قيام الدولة النورمانية في جنوب ايطاليا وصقلية يرتبط عملياً بتوافد أبناء تانكريد الى هذه المناطق . وبتعبير آخر فإن التوسع النورماني في عالم البحر المتوسط ، في القرن الحادي عشر ، لم يكن أكثر من كونه السيرة الذاتية لبيت هوتفيل ذات الحظ الطيب . وكان أن وصل من أبناء تانكريد هوتفيل الى جنوب ايطاليا كل من وليام وشقيقه دروجو ، ويفترض هاسكنس(٢٤) أن وصولهما كان حوالي سنة ١٠٣٦م . ويبدو أن الشقيقين قد استهلاً عملهما في هذه المنطقة ـ كما فعل النورمان الذين سبقوهم برئاسة رانولف ـ كمرتزقة(٢٥) يبيعون سيوفهم للبيزنطيين تارة وللمبارديين تارة أخرى(٢٦) . ولكن سرعان ما أخذ الشقيقان (وليام ودروجو) يوطّنان أنفسهما ـ مع اتباعهما من النورمان الآخرين ـ في الأراضي والقلاع البيزنطية ويتطلّعون في ذات الوقت الى السيادة والمجد . حتى أنه لم يأت عام ١٠٤٢م حتى تمكن وليام بن تانكريد هوتفيل من

---

(22) Joranson, pp. 356-58; curtis, pp. 37-38.

(23) Haskins, op. cit., p. 199; painter, Hist of Middle ages, p. 197; curtis, p. 39; Yewdale, p.3.

(24) Haskins, op. cit., p. 201.

(25) painter, op. cit., p. 197.

(٢٦) في عام ١٠٣٨م بعثت بيزنطة قائدها المشهور جورج مانياسيس لإعادة السيادة البيزنطية على جزيرة صقلية التي كانت آنذاك تخضع للمسلمين . وقد استأجر جورج هذا أعداداً من المرتزقة النورمان من أمير ساليرنو لينضموا الى قواته المتجهة الى صقلية وكان من أبرز هذه الشخصيات النورمانية الشقيقان وليام ودروجو هوتفيل . وقد لقب وليام وقتها ـ نتيجة شجاعته ـ بوليام زند الحديد . وبعد فشل حملة جورج مانياسيس ، أخذ النورمان يتعاونون مع اللمبارديين في ثوراتهم ضد البيزنطيين في جنوب ايطاليا . أنظر :

Curtis, Roger of sicily, pp. 42-45.

امتلاك العديد من المناطق في أبوليا ، وجعل نفسه أميراً على أبوليا ، واتّخذ مدينة ملفي عاصمة لهذه الأمارة(٢٧) .

وعند وفاة الأمير وليام (١٠٤٦م) خلفه شقيقه دروجو ، واعترف الامبراطور الالماني هنري الثالث عام١٠٤٧م بدروجوأميراً على أبوليا ، وأغلب الظن أنه في تلك السنة (١٠٤٦م) وصل إلى الجنوب الايطالي أحد أبناء تانكريد هوتفيل (من زوجته الثانية) واسمه روبرت(٢٨) ، والذي لُقّب بجويسكارد(٢٩) .

في الواقع يعتبر روبرت جويسكارد المؤسس الحقيقي للدولة النورمانية في جنوب ايطاليا وصقلية . ولقد أثارت شخصيته الكثير من المؤرخين المعاصرين والمحدثين جميعاً . فهذه المؤرخة البيزنطية ، آنا كومنين ، تقدم لنا صورة حية عنه ، على الرغم من أنه كان العدو اللدود لوالدها ، فهي لم تخف اعجابها بشخصيته وأعماله ، فتقول : «لقد كان روبرت قائداً فذاً ، حاد الذكاء جميل المظهر ، حاضر البديهة ، طويل القامة قصير الشعر ...»(٣٠) وتقول عنه نفس المؤرخة في موضع آخر من مؤلفها : «أن روبرت جويسكارد نورماني النسب حقير وتافه الأصل ، استبدادي الطبع ، ماكر العقل ...»(٣١)

عندما غادر جويسكارد نورمانديا الى جنوب ايطاليا كان بصحبته خمسة فرسان وثلاثين من المشاة(٣٢) . ولدى وصوله (١٠٤٦م) أقطعة شقيقة دروجو حصناً في جبال كلابريا ، وقضى جويسكارد المرحلة الأولى من حياته في هذه المنطقة الجديدة كقاطع طريق أو كزعيم عصابة من اللصوص . إلا أن هذه المرحلة لم تكن طويلة ، اذ سرعان ما نزل وانضم الى عملية فتح أبوليا (البيزنطية) التي كان يقودها شقيقه

---

(27) Curtis, op. cit., p. 45.

(28) Haskins, p. 201.

(٢٩) يقول المؤرخ المعاصر أوتو فريسنيك أن كلمة جويسكارد تعني المتسرد أو المتجول . أنظر :

Otto of Fretsing, The deeds of Barbarossa, p. 30.

(30) ANNA, The Alexiad, p 150.

(31) Ibid., p. 27.

(32) I bid., otto of Freising, The deeds, p. 30.

دروجو ، والتي تتقدم يوما بعد آخر ، حتى انه في عام ١٠٤٦م تمكن الأخير من هزيمة العامل البيزنطي في جنوب ايطاليا ، وأصبحت ـ نتيجة ذلك ـ معظم المنطقة الممتدة من جبل جارجانو الى برانديزي بيد دروجو(٣٣) . ويعتقد المؤرخ أوتو فريسينك(٣٤) أن سبب نجاح النورمان في فتوحاتهم في جنوب ايطاليا هو أن هذه المنطقة تخلو من أية مقاومة ، ويسكنها أناسٌ «جبناء» لا يحبون الحرب . وإذا كنا لا نجاري هذا المؤرخ في نعته لشعوب الجنوب الايطالي بالجبن والتخاذل فاننا نؤيده في النقطة الأولى وهي وجود فراغ سياسي وحربي ؛ وذلك لأن الامبراطورية البيزنطية ـ صاحبة أبوليا وكلابريا ـ كانت تعاني في ذلك الوقت أزمات داخلية وخارجية عنيفة ، مما جعل قبضتها على أملاكها في جنوب ايطاليا ضعيفة جداً .

وتجدر الاشارة الى أن البابوية كانت مرتاحة في البداية من الانتصارات الأولى التي حققها النورمان على البيزنطيين في جنوب ايطاليا (أبوليا وكلابريا) ، وذلك لأن هؤلاء النورمان ينتمون الى المذهب الكاثوليكي ، على الرغم من كونهم كانوا قطاع طرق . ولكن عندما بدأ هؤلاء النورمان يجتاحون الأمارات اللمباردية ويقتربون من حدود روما ، قررت البابوية عندئذ تبديل موقفها تجاههم(٣٥) وبتعبير آخر : ان توسع النورمان في جنوب ايطاليا ، وما صحب هذا التوسع من أعمال الغصب والعنف قد أثار ضيق البابوية ومخاوفها(٣٦) . فعلى الرغم من ترحيب البابوات والاساقفة الكاثوليك بأولئك النورمان ليكونوا عوناً لهم ضد المسلمين من جهة والكنيسة الشرقية من جهة أخرى ، إلا أن النورمان أثاروا الجميع بعد أن اشتهروا بالنهب والسلب والقسوة . ولذا فقد تطلع البابا ليو التاسع (١٠٤٨ ـ ١٠٥٥م) نحو بيزنطة بغية التحالف معها ضد النورمان . وربما شجع البابا على ذلك أن عامل بيزنطة على أملاكها في أبوليا

(33) Curtis, Roger of Sicily, p. 47.

(34) otto of Freising, op. cit., p. 30.

(35) Runcinan, The eastern Schisn, p. 38; I dem, hist. of the crusades, vol. I, pp. 56— 57.

(٣٦) لم يظهر النورمان في جنوب ايطاليا ـ في البداية على الأقل ـ احتراماً للكنائس أو لرجال الدين ، فنهبوا الكنائس وذبحوا المسيحين دون تمييز بين امرأة أو شيخ أو طفل . وبدأت الشكاوي تتوارد الى البلاط البابوي ، عن انتهاكات النورمان ، من قبل رؤساء الأديرة والاكليروس والاهالي واعتقد هؤلاء أن البابا الروماني هو الشخصية الوحيدة القادرة على حمايتهم . أنظر : curtis, op. cit., pp. 49 ff.

وكلابريا كان في ذلك الوقت آجيروس ابن الثائر الأبولي ميلو . ورغم أن آرجيروس هذا لمباردي وكاثوليكي المذهب ، إلا أنه كان يدرك أهمية التحالف بين بيزنطة وروما من الوجهة السياسية لانقاذ الممتلكات البيزنطية من النورمان(٣٧) . وكان أن تم التحالف بالفعل بين آرجيروس ـ كممثل لبيزنطة ـ وبين البابا ليو التاسع الذي كان يؤيده اعداد هائلة من اللمبارين الساخطين على النورمان . وانطلق البابا ليو نفسه في مايو ١٠٥٣م على رأس جيش لينضم الى العامل البيزنطي آرجيروس ، ويزحفا معاً ضد النورمان . ولكن قبل أن يلتقي الحليفان عاجل النورمان ـ بقيادة همفري شقيق دروجو وجويسكارد ـ القوات البيزنطية بقيادة آرجيروس وألحقوا بها هزيمة نكراء ، ومن ثم تصدّوا للقوات البابوية ومزقوها ارباً قرب موقع اسمه كيفتياتي civetate في يونيو ١٠٥٣م ، ووقع البابا أسيراً بأيدي النورمان واصطحبوه معهم الى بنيفتو(٣٨) . ومنذ ذلك الوقت أخذت البابوية تروض نفسها على أن النورمان قوة لا يمكن طردها من ايطاليا .

وفي صيف عام ١٠٥٧م مات همفري ، وهو آخر المجموعة الأولى من بيت هوتفيل(٣٩) ، بعد أن كلّف شقيقه جويسكارد بالوصاية على الامارة ريثما يبلغ ولداه ، ابيلارد وهيرمان ، سن الرشد(٤٠) . الا أن الزعماء النورمان اختاروا روبرت جويسكارد أميراً على أبوليا وقائداً للنورمان خلفاً لأخيه همفري(٤١) . ويبدو أن أصغر أبناء تانكريد هوتفيل واسمه ـ روجر ـ قد وصل إلى جنوب ايطاليا في هذه الفترة وانضم الى شقيقه جويسكارد في اتمام فتح أبوليا وكلابريا . وأخذت تتوالى انتصارات النورمان بعد تولي جويسكارد زعامتهم ، ولم يعد بامكان بيزنطة ابقاء قبضتها على أملاكها في الجنوب ، وسرعان ما أدرك جويسكارد أن لقب أمير أو كونت لم يعد كافياً ومتناسباً مع

---

(37) Gay, L'Italie meridionale, pp. 433— 34.

(38) Gay, Le papes du xl siecle, pp. 14— 15; Runciman, The eastern schism; p. 42.

(39) Painter, Hist. of the Middle ages, p. 197.

(40) Curtis, op. cit., p. 57.

(41) Haskins, op. ci The Normans; p. 202.

الأملاك الكبيرة التي أصبحت في حوزته ولهذا تطّلع نحو البابوية وطلب منها أن تمنحه لقب دوق(٤٢) .

وكانت البابوية قد أدركت بعد هزيمة كيفتاتي أن النورمان يمكن أن يكونوا حلفاء مفيدين للبابوية(٤٣) . ولذا عقد البابا نيقولا الثانـي مجلسـاً كنسياً في مدينة ملفي عام ١٠٥٩م ، تم فيه توقيع معاهدة بين البابوية والنورمان ، واقسم جويسكارد يمين الولاء والطاعة للكنيسة الرومانية ، وتعهّد بألا يشارك في قولٍ أو عملٍ ضد الحبر الروماني . وأن يقدم كل مساعداته لحماية حقوق وممتلكات القديس بطرس . ومقابل هذا القسم منح البابا لجويسكارد لقب دوق أبوليا وكلابريا والأمارات اللمباردية الأخرى وكذلك صقلية عندما يتمكن جويسكارد من طرد العرب المسلمين منها(٤٤) .

ان هذه المعاهدة بين النورمان والبابوية على جانب كبير من الخطورة ، فهي عدوان مباشر على حقوق الامبراطورية البيزنطية في جنوب ايطاليا من جهة وكشفـت أن البابوية قد تبنّت سياسة «انتهازية» وذلك بتخليها عن اللمبارديين وتسليمها الجنوب لاعدائهم من جهة ثانية(٤٥) . وفضلاً عن ذلك كله أن هذه المعاهدة تخلو من الاشارة لأية حقوق المانية في جنوب ايطاليا ، ومن هنا اكتسبت هذه المعاهدة أهميتها لأنها جاءت والصراع الطويل المرير بين البابوية والامبراطورية الغربية كان على وشك البداية ، حيث هيأت هذه المعاهدة للبابوية حليفاً في الجنوب يمكن أن تلجـأ اليه لمساعدتها عندما يتأزم الموقف بينها وبين الامبراطورية الغربية .

ان اعتراف البابوية بالوجود النورماني أعطى جويسكارد واتباعه زخماً قوياً ، حيث بدأت المدن البيزنطية المتبقية في أبوليا وكلابريا تسقط بأيديهم تباعاً . ولم يأت عام ١٠٧١م حتى كان النورمان قد احتلوا كل ما تملكه بيزنطة في جنوب ايطاليا وذلك

(42) Thatcher, (ed), Source book for med. Hist., p. 124

(43) Haskins, op. cit., p. 203.

(٤٤) أنظر النص الأصلي للقسم الذي قطعه جويسكارد على نفسه وحيثيات التحالف النورماني ـ البابوي عند : Thatcher, O., (ed). Source book for med. Hist., pp. 124—26; Chalandon, f., Hist. de la domination Normand., vol. I, pp. 170—72; Gey, L'Italie meridionale, pp. 516—190

(45) Curtis, Roger of Sicily, p. 60.

بسقوط آخر معاقل البيزنطيين في أبوليا ، وهي مدينة باري ، بأيدي النورمان عام ١٠٧١م ، بعد حصار استمر ثلاث سنوات(٤٦) . ومن ثم وجه الزعيم النورماني جويسكارد أنظاره نحو الدويلات البحرية والأمارات اللمباردية ، حيث نجح في اخضاع أمالفي عام ١٠٧٣م وساليرنو عام ١٠٧٦م(٤٧) .

على أنه يبدو ان موجه التوسع النورماني الأخيرة هذه أثارت حقد البابوية . وأدرك البابا جريجوري السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م) الاخطار الناتجة عن هذا التوسع بالنسبة لبرامجة الاصلاحية وأملاك الكنيسة الرومانية . الا أنه لم يكن بقادر على اتخاذ اجراء عسكري مثل لبو التاسع . ولهذا فقد اكتفى برشق جويسكارد بالحرمان الكنسي عام ١٠٧٤م . ولكن سرعان ما بدأ الصراع بين البابا والملك الالماني هنري الرابع ، واضطر البابا جريجوري السابع لتغيير موقفه من النورمان ، واتجه (عام ١٠٨٠م) جنوبا لاقامة تحالف مع جويسكارد ضد هنري الرابع(٤٨) . وكان أن تم هذا التحالف فعلاً عام ١٠٨٠م بعد أن رفع قرار الحرمان الصادر ضد جويسكارد . وتقول آنا كومنين(٤٩) في هذا الصدد بأن البابا وعد جويسكارد بتتويجه ملكاً على جنوب ايطاليا . ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن المعاهدة البابوية ـ النورمانية الأخيرة كانت نتيجة دوافع سياسية أملتها مصالح الطرفين ، فالبابا كان يرغب في الحصول على مساعدة النورمان لمواجهة الخطر الالماني ، في حين كان جويسكارد يرغب في الحصول على دعم البابوية له في مشروعه لغزو بيزنطة .

وكان أن انشغل الزعيم النورماني روبرت جويسكارد ما بين ١٠٨١ ـ ١٠٨٥م بحملته التي هاجم فيها الامبراطورية البيزنطية والتي لم تنته الا بوفاته في يوليو من عام ١٠٨٥م ـ في جزيرة سيفالونيا البيزنطية وهو في حومة الصراع بينه وبين بيزنطة .

---

(٤٦) أنظر تفاصيل الفتوحات النورمانيه في هذه المرحله عند : Delarc, Les Normands, pp. 438—39; Curtis, op. cit., % pp: 62, 71; Setton, Hist. of the crusades, vol. 11, p. 64.

(47) Anna, The Alexiad, p. 35

(48) Otto of Fresing, The deeds, pp. 28—30; Anna, pp. 33—35'

(49) Anna, p 35'

وبعد وفاة جويسكارد تولى ابنه روجر بورصا الدوقية النورمانية في أبوليا وكلابريا . وكان على الدوق الجديد الحصول على اعتراف الافصال النورمان به كخليفة لوالده جويسكارد ، فضلاً عن اعتراف شقيقه الأكبر بوهيموند الذي حُرم من الوراثة . وقد اعتمد روجر بورصا في انتزاع الاعتراف بسيادته وتثبيت سلطته في أبوليا وكلابريا على مساعدة عمه روجر كونت صقلية ، إلا أن ثمن هذه المساعدة كان باهظاً ، حيث تسلم العم (كونت صقلية) من أبن أخيه معظم المواقع التي تتبع بورصا في منطقة كلابريا(٥٠) .

ومهما يكن من أمر فإن وفاة جويسكارد كانت نقطة تحول خطيرة في تاريخ الدوقية النورمانية في أبوليا وكلابريا ، وذلك لما أعقب هذه الوفاة من تمزق وانحطاط في الدوقية ، بسبب ضعف خليفة جويسكارد وصراع الأخوة فيما بينهم على وراثة والدهم ، فضلاً عن ثورات الافصال النورمان الذين رفضوا الاعتراف لروجر بورصا بالسيادة عليهم . الا أن الخطر الحقيقي على الدوق روجر بورصا تمثل ـ لفترة ما ـ في شقيقه بوهيموند الذي قام ضده عام ١٠٨٥م (بعيد وفاة جويسكارد مباشرة) ، وتمكن بوهيموند من فرض سيادته على عدة أقاليم في أبوليا ، واضطر الدوق لتوقيع معاهدة صلح مع شقيقه بوهيموند عام ١٠٨٦م منح الأخير بموجبها عدة مدن في أبوليا مثل اوترانتو وتارانت وبراندزي وغيرها . وحكم بوهيموند هذه المناطق كفصلٍ تابع لأخيه بورصا(٥١) . إلا أن بوهيموند سرعان ما جدد ثورته عام ١٠٨٧م ، ولم تنته هذه الثورة إلا عام ١٠٨٩م بتوقيع صلح بين الشقيقين مُنح بموجبه بوهيموند مناطق جديدة(٥٢) . ولم يتوقف النزاع بين الشقيقين ـ روجر بورصا وبوهيموند ـ عملياً ـ إلا بقيام الحملة الصليبية الأولى واشتراك بوهيموند في هذه الحملة وانشغاله في تأسيس أمارة له في شمال الشام (انطاكية) كما سنبحث ذلك في بداية الباب التالي .

أما بالنسبة لاحتلال النورمان لصقلية فيمكن القول أن النورمان أدركوا ـ بثاقب نظرهم ـ أن تدعيم سلطتهم في أبوليا وكلابريا واقامة دولة قوية لهم في جنوب ايطاليا ،

(50) Chalandon, hist. de La domination; vol. I pp. 287— 88.

(51) yewdale, Bohemond I., pp. 25— 26

(52) curtis, Roger of Sicily, pp. 89— 90.

يُوجب عليهم فتح صقلية(٥٣) ، ليس لكونها قريبة ولا يفصلها عن جنوب ايطاليا سوى مضيق مسينا فحسب وانما لكونها بأيادي المسلمين آنذاك(٥٤) . وهذا بطبيعة الحال يشكل مصدر خطر على فتوحات جويسكارد في جنوب ايطاليا(٥٥) . ولكن يجب ألا يفهم من ذلك أن دوافع الفتح النورماني لجزيرة صقلية هي دوافع سياسية وعسكرية فقط ، بل يجب ألا نهمل العامل الاقتصادي وأهميته القصوى في هذا الشأن . فلقد كانت جزيرة صقلية غنيمة مفضلة أكثر من أي بلاد سبق للنورمان أن هاجموها ، اضافة الى كونها عالم جديد للفتح أغنى من جنوب ا يطاليا ذاته .

وقد طالعنا الجغرافيون والرحّالة المسلمون المعاصرون بالكثير عن اقتصاديات صقلية وازدهارها أثناء الحكم الاسلامي لها (٩٠٢ ـ ١٠٩١م) . فقد اشتهرت هذه الجزيرة بعدة مزروعات أهمها : البندق والأرز والصنوبر(٥٦) والقمح والكتان(٥٧) . وأدخل المسلمون اليها زراعة قصب السكر والبلح(٥٨) . واحتوت صقلية على ثروة معدنية مثل الذهب والكبريت والزئبق والنحاس والرصاص والفضة ، اضافة الى ثروة حيوانية ومائية مثل المرجان(٥٩) . وكان في الجزيرة عدة صناعات أهمها صناعة السفن

---

(53) Runciman, The sicilian vespers, p. 19.

(٥٤) يُنسب فتح جزيرة صقلية إلى دولة الأغالبة التي نشأت في افريقية والمغرب الأوسط . وقد اهتم ابراهيم بن الأغلب في فتح هذه الجزيرة رغبة في ثروتها وموقعها التجاري في البحر المتوسط من جهة وبغية التخلص من القراصنة البيزنطيين الذين كانوا يستخدمون صقلية قاعدة لأعمالهم ضد المسلمين في افريقية والمغرب . وقد فُتحت صقلية في عهد زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب الذي ارسل حملة ، بقيادة قاضي القيروان الفقيه أسد بن الفرات ، عام ٢١٢هـ / ٨٢٧م . الا أن العرب المسلمين لم يتمكنوا من اتمام فتح صقلية بشكل كامل الا عام ٩٠٢م ، وذلك بسبب الخلافات التي وقعت في الجزيرة بين المسلمين الأسبان والمسلمين الأفريقيين اضافة الى المحاولات الحربية التي قام بها الأباطرة البيزنطيون لمقاومة عملية تقدم الفتح العربي في الجزيرة . انظر تفصيل ذلك عند : ابن عذاري المراكشي : ص ٣٥٥ ؛ ابن الأثير ؛ ج ٦ ، ص ٣٣٣ وما بعدها .

(55) Curtis, Roger of Sicily, p. 62.

(٥٦) القزويني : عجائب المخلوقات ، المكتبة الصقلية ، ج ٢ ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٥٧) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٣١ .

(58) Setton, Hist. the crusades, Vol. 11, p. 56.

(٥٩) عن ذلك أنظر : أبو عبد الله الأنصاري : نخبة الدهر وعجائب البر والبحر ، المكتبة الصقليه ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ؛ القزويني : آثار البلاد ، ص ١٣٣ ؛ الزهري : كتاب الجغرافية ، المكتبة الصقليه ، ج ٢ ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤١٦ ـ ٤١٩ .

في باليرمو(٦٠) ، وصناعة الايقونات ، وذلك لأن صنّاع الأيقونات كانوا قد التجأوا الى هذه الجزيرة واستقروا فيها بعد أن تركوا القسطنطينية ، منذ أواسط القرن الثامن ، نتيجة السياسة اللاأيقونية التي أتبعها أباطرة الأسرة الأيسورية(٦١) . أما من الناحية التجارية فقد لعبت صقلية دوراً هاماً في تجارة عالم البحر المتوسط بحكم موقعها الممتاز اضافة الى أنها كانت بمنجاة عن الاضطرابات والتدمير الذي لحق بشبه الجزيرة الايطالية أثناء وبعيد الغارات الجرمانية البربرية في أواخر القرن الخامس(٦٢) .

وبعد كل هذه المميزات وغيرها ـ الاستراتيجية منها والاقتصادية ـ ألم يكن من حق نورمان جنوب ايطاليا التفكير في اخضاع هذه الجزيرة لسيادتهم ؟ ولكننا نود أن نؤكد أنه على الرغم من المغريات الاقتصادية والاستراتيجية التي جذبت النورمان الى صقلية ، إلا أن هناك مغريات لا تقلّ أهمية شجعت النورمان على مهاجمة صقلية واحتلالها ، ونقصد بذلك الانقسام الذي كان متفشياً بين مسلمي الجزيرة قبيل وأثناء الاحتلال النورماني لها(٦٣) . فقد ضعفت السلطة المركزية في الجزيرة وانقسمت الأخيرة بدورها الى امارات متناحرة واضطربت أحوالها و«انفرد كل انسان ببلده» على حد تعبير أحد المؤرخين المعاصرين(٦٤) ، حتى أن أحد أمرائها ، وهو ابن الثمنة ، قد استجار بالنورمان «وهوّن عليهم أمر المسلمين» و«كان أمير النصارى اسمه «روجر» فسار مع ابن الثمنة الى البلاد التي بأيدي المسلمين فحاصرها فاستولى على مواضع كثيرة من الجزيرة»(٦٥) . وفضلاً عن وجود مثل هذا التيار بين مسلمي صقلية بزعامة ابن الثمنة ـ يؤيد التدخل النورماني في الجزيرة ، فقد رحّب وأيد هذا التدخل فئة من مسيحي الجزيرة الذين قدّموا مساعدة لروجر أثناء محاولاته الأولى لفتح الجزيرة(٦٦) .

والواقع أنه يجب علينا ألا نحمّل خيانة ابن الثمنة ولا مساعدة سكان الجزيرة

---

(٦٠) الدمشقي : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، المكتبة الصقلية ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

(61) Runciman, The Sicilian vespers, p. 18.

(62) Ibid., p. 17.

(63) Ibid., P. 20.

(٦٤) ابن ابي الدينار : المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ، المكتبة الصقلية ، ج ٢ ، ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤ .

(٦٥) المصدر السابق : ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤ .

(66) Runciman, The Sicilian vespers, p. 20; curties, Rpger of sicily, p. 62.

المسيحيين المسؤولية الكاملة في غزو النورمان لصقلية ، فهذه الأمور وغيرها مجرد عوامل مساعدة ، وذلك لأن لدى نورمان جنوب ايطاليا مخططاً لغزو هذه الجزيرة قبل أن يتلقوا أية دعوة من ابن الثمنة ، والدليل على ذلك أنه منذ أن أصبح جويسكارد دوقاً على أبوليا وكلابريا عام ١٠٥٩م توزّع مع أخيه روجر الأدوار(٦٧) ، حيث كُلف الأخير بمهمة شن الغزوات التمهيدية على جزيرة صقلية بهدف إيجاد نقاط استناد لاحتلالها . وكان أن قام روجر بغارة استكشافية عبر مضيق مسينا وذلك قبل يتلقى دعوة ابن الثمنة عام ١٠٦٠م(٦٨) . ويضاف الى ذلك أن روجر قد استخدم المسلمين والمسيحيين في عملية احتلال صقلية ، ولم تكن أملاك ابن الثمنة نفسه بمنجاة من أطماع روجر(٦٩) . ورغم أن النورمان قد دخلوا صقلية كحلفاء لبعض المسلمين إلا أن ذلك لم يمنعهم من قتل واسترقاق سكان مسينا المسلمين ، ولم تمنعهم أيضاً الصداقة التي تربطهم بالفلاحين المسيحيين من سلبهم ونهبهم(٧٠) .

ولا يسعنا المجال للافاضة بكل التفاصيل المتعلقة بعملية احتلال النورمان لجزيرة صقلية التي استغرقت ثلاثين عاما (١٠٦١ ـ ١٠٩١م) . ولكن يمكننا أن نلخص عملية الاحتلال النورماني لصقلية بأنها كانت عبارة عن عدد لا يُحصى من المناوشات والغارات المعاكسة ، وفي نفس الوقت فان المعارك الحاسمة أو الكبرى في هذا الاحتلال كانت قليلة ، ولم يحدث إلا حصار واحد يستحق الذكر ، واضافة الى ذلك كله لم يُستخدم في هذا الاحتلال تكتيك أو أسلحة جديدة في القتال أو لم يسبق استخدامه في مكان آخر . وقد استهل روجر أعماله القتالية ضد جزيرة صقلية بعددٍ من الغارات عبر مضيق مسينا وذلك عام ١٠٦٠م وأوائل عام ١٠٦١م ، ولكنها كانت فاسلة . وقبل أن ينتهي عام ١٠٦١ نجح روجر وجويسكارد معاً في احتلال مدينة مسينا ، بمساعدة المسلمين من أتباع ابن الثمنة ومسيحي تلك المنطقة(٧١) . وعلى أثر

(67) Painter, Hist. of the middle ages, p. 197.

(68) Setton, Hist. of the Crusades, vol. 11, p. 61

(69) Runciman, op. cit., p. 20.

(70) Setton, op. cit., vol. 11, p. 62.

(71) curtis, Roger of sicily, pp. 63-66; Runciman, The sicilian vespers p 20;

سقوط مسينا استغاث مسلمو صقلية بأمير تونس ـ تميم ـ، ورغم أن الأخير لبى النداء ، إلا أن القوات التي بعثها لنجدتهم ـ بقيادة ولديه أيوب وعلي ـ اندحرت في صيف ١٠٦٣م ولقيت هزيمة شنعاء أمام القوات النورمانية بقيادة روجر(٧٢) . وبعد ذلك وجّه الغزاة النورمان عنايتهم القصوى لاحتلال مدينة باليرمو . وبعد محاولات استمرت ثمان سنوات نجح النورمان في احتلال مدينة بالميرمو وذلك في يناير عام ١٠٧٢م . وبعد ذلك سارت عملية الفتح النورماني بشكل تدريجي حتى أتم روجر احتلال صقلية كاملة عام ١٠٩١م(٧٣) .

ما هو موقف البابوية من احتلال النورمان لجزيرة صقلية ؟

وفي الواقع اختلف موقف البابوية من احتلال النورمان لجزيرة صقلية عن موقفها تجاه فتوحات النورمان في جنوب ايطاليا . ففي الوقت الذي كانت فيه البابوية تنظر الى أعمال جويسكارد ، في أبوليا والدويلات البحرية واللمباردية ، بكثير من الخوف والارتياب ، وفي الوقت الذي كانت تعتبر فيه النورمان في جنوب ايطاليا عقبة امام الاصلاح الكنسي ، وفي الوقت الذي كانت ترسق فيه جويسكارد بالحرمان الكنسي ، خلال ذلك كله كانت تنظر البابوية إلى عمليات الاحتلال النورماني لصقلية من زوايا أخرى . وقد اعتبرت البابوية فتح صقلية نوعاً من الحروب الصليبية . والدليل على ذلك أن البابا أرسل الى روجر العصا المقدسة عندما انتصر الأخير على القوات الاسلامية في الجزيرة عام ١٠٦٣م(٧٤).ورغم أن فتح النورمان لجزيرة صقلية كان انتصاراً للمسيحيين على المسلمين في القرن الحادي عشر ، إلا أنه من الصعوبة بمكان أن نعتبره أو ننظر إليه كمبارزة بين الصليب والهلال . وذلك لأن روجر هوتفيل هاجم جزيرة صقلية لنفس الاسباب التي هاجم فيها اخوته (وليام ودروجو وهمفري وجويسكارد)ـ وخاضوا الكثير من الحروب ضد المسيحيين ـ جنوب ايطاليا ، فضلاً عن أن روجر كان يرغب في إقامة دولة يكون هو زعيمها كما قال مؤرخه ومحامي

---

(72) curtis, op. cit., p. 66

(73) Ibid., p. 60. Runciman, op. cit., p. 20.

(74) Curtis, Roger of sicily, p. 66

الدفاع عنه جوفري المالطي(٧٥) ، إضافة الى ذلك فقد استخدم روجر في عمليّة فتح صقلية المسلمين والمسيحيين لمصلحته . كما أن السياسة التي اتبعها روجر ازاء السكان المقيمين في صقلية لم تظهر أية تفرقة بين المسلمين والمسيحيين ، بل عامل روجر السكان كلهم بنفس الطريقة ، وهذا بدوره يدحض المبررات التي يقدمها المؤرخون الكنسيون الذين مجدوا ـ بكثير من الافراط والاطراء ـ النورمان كأبطال وانصار غيورين على العقيدة المسيحية الكاثوليكية(٧٦) .

وعلى أية حال فقد باركت البابوية الاحتلال النورماني لصقلية ، منطلقة في مباركتها هذه من شعارها الذي رفعته بأن من يقاتل في سبيل استرداد الأماكن المسيحية من المسلمين تغفر له ذنوبه مهما عظمت . وهذا ما انطلقت على أساسه البابوية في تأييدها لحرب «الاسترداد في الأندلس» وهذا ما اتخذته ازاء الاحتلال النورماني في صقلية . ولهذا قام البابا أوربان الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩م) بتسلم روجر كونت صقلية شرف المندوبية البابوية في الجزيرة ، وذلك عام ١٠٩٨م ، أي أصبح روجر نائباً بابوياً في جزيرة صقلية ، وعلى أن يرث ابناؤه هذا التشريف من بعده ، وذلك مكافأة له على طرد المسلمين من تلك الجزيرة . وتمشياً مع هذا التشريف فقد أصبح البابا يتعامل مع كنيسة صقلية الكاثوليكية من خلال الكونت روجر فقط(٧٧) .

وهكذا نجح النورمان في اقامة دولة لهم في جنوب ايطاليا ، على حساب البيزنطيين ، وفي صقلية على حساب المسلمين ، بدعم من البابوية ومباركتها . واذا كانت الدوقية النورمانية قد تعرضت لمرحلة من الانحطاط بعد وفاة جويسكارد عام ١٠٨٥م ، واذا كانت كونتية صقلية النورمانية قد تعرضت لمرحلة من الاضطراب بعد وفاة الكونت روجر عام ١١٠١م ، إلا أنه سرعان ما تمكن روجر الثاني ابن الكونت روجر «فاتح صقلية ومؤسس الدولة النورمانية في الجزيرة» من توحيد الاملاك النورمانية في جزيرة صقلية وفي جنوب ايطاليا ، واقامة دولة نورمانية واحدة ، وتأسيس مملكة نورمانية بمباركة البابوية عام ١١٣٠م ، كما سنرى ذلك بعد قليل .

(75) Setton, Hist. of the Crusades, vol. 11, p. 54.

(76) Ibid., p. 55.

(77) Haskins, The Normans in European history, pp. 209- 210.

وبعد هذا العرض لأحوال القوى الايطالية في مستهل القرن الثاني عشر ، يمكن لنا أن نحدد أهم القضايا التي ستتحكم في علاقات هذه القوى بالامبراطورية البيزنطية خلال ذلك القرن . فبالنسبة الى البابوية رسمت سياستها وكيفتها تجاه الامبراطورية البيزنطية لتحقيق الأهداف التالية أولاً : حماية الممتلكات البابوية في ايطاليا من أية قوة خارجية أو داخلية . ثانياً : العمل على تحقيق المبادىء الجريجورية في الاصلاح الكنسي والسمو البابوي . ثالثاً : العمل على تحقيق الوحدة بين الكنيسية الشرقية والغربية وفق المفهوم البابوي لهذه الوحدة . رابعاً : رعاية الحركة الصليبية وحماية المكتسبات التي حققتها الحملة الصليبية الأولى ، السياسية منها والمذهبية ، على حساب المسلمين والبيزنطيين في بلاد الشام .

أما بالنسبة الى الجمهوريات الايطالية ، فقد رسمت سياستها وكيفيّتها تجاه الامبراطورية البيزنطية خلال القرن الثاني عشر لتحقيق الأهداف التالية : أولاً : الحصول على امتيازات اقتصادية وتجارية في الامبراطورية البيزنطية وحماية هذه الامتيازات وتوسيعها . ثانياً : منع أية قوة ـ بيزنطية كانت أم ايطالية ـ من السيطرة على ضفتي البحر الادرياتي أو مداخله وتحطيم أي عائق يحول دون استخدام البحر المتوسط ـ بجزره ـ وسواحله ـ لصالح الجمهوريات الايطالية التجارية . ثالثاً : حماية مصالحها التجارية في الامارات الصليبية وتوسيعها بأي ثمن .

أما بالنسبة الى النورمان ، فقد رسموا سياستهم تجاه الامبراطورية البيزنطية خلال القرن الثاني عشر لتحقيق الأهداف التالية : أولاً : العمل على انتزاع اعتراف بيزنطة بشرعية وجودهم على حساب ممتلكاتها في جنوب ايطاليا (وبالتالي في صقلية) وبأنهم دولة ذات سيادة . ثانياً : تحطيم أية محاولة ، بيزنطية كانت أم المانية ، تستهدف تجريدهم من ممتلكاتهم في جنوب ايطاليا وصقلية . ثالثاً : توسيع ممتلكاتهم في عالم البحر المتوسط سواء على حساب البيزنطيين بشن الحملات المتتالية على الامبراطورية ، أو على حساب المسلمين في بلاد الشام ومصر وشمال افريقية ، أو حتى على حساب المناطق والمدن التي احتلها الصليبيون في بلاد الشام .

البَابُ الثالِث

المسألة الأنطاكية بين بيزنطة والقوى الايطالية .

الفصل الأول

أصول المسألة الإنطاكية

لم تكن أمارة انطاكية النورمانية وليدة الحملة الصليبية الأولى فحسب وانما كانت في حقيقة أمرها وليدة الصراع المرير الذي نشب بين نورمان جنوب ايطاليا والامبراطورية البيزنطية خلال القرن الحادي عشر للميلاد . فرغم فترة الراحة المؤقتة التي عاشتها بيزنطة في أعقاب وفاة الزعيم النورماني روبرت جويسكارد (١٠٨٥ م) ظل الخطر النورماني ماثلاً أمام الحكام البيزنطيين ، بعد أن تبين أن حملة جويسكارد ضد بيزنطة (١٠٨١ ـ ١٠٨٥ م) فتحت طريقاً جديداً لمطامع أولاده ، حتى ترسّخت في أذهانهم أحلام السيطرة على الامبراطورية البيزنطية . لهذا لم يكن مستغرباً على الاطلاق أن يؤسس بوهيموند بن جويسكارد أمارة نورمانية على حساب بيزنطة في انطاكية بعد عقدٍ ونيفٍ من وفاة والده . ومن جهة أخر فقد كان على بيزنطة أن تأخذ في اعتبارها دائماً أطماع أبناء جويسكارد في أرضها وعاصمتها ، فضلاً عن أن البيزنطيين استمروا ينظرون الى الوجود النورماني في جنوب ايطاليا على أنه وجود غير شرعي . واثبتت العلاقات البيزنطية ـ الايطالية ، خلال القرن الثاني عشر للميلاد ، أن البيزنطيين لم ينسوا ممتلكاتهم ـ في ايطاليا ـ التي اغتصبها آل هوتفيل بموافقة البابوية .

بعد وفاة جويسكارد خلفه ابنه روجر بورصا ، واعترف الانفصال النورمان بروجر هذا دوقاً على ابوليا وكلابريا في جنوب ايطاليا ، في حين حُرم شقيقه بوهيموند ابن جويسكارد من ورثة أبيه(١) ولهذا تنازع الشقيقان (بورصا وبوهيموند) ، واصبح جنوب

---

(١) عندما قدم جويسكارد إلى الجنوب الايطالي تزوج من سيدة نورمانية اسمها ـ البرادا ، وذلك عام ١٠٥٠ م ، والتي أنجبت له ولداً واحداً وهو بوهيموند ، إلا أن جويسكارد طلّق زوجته النورمانية هذه عام ١٠٥٨ م ، وتزوج في نفس العام من سيدة لمباردية اسمها سيجلجتنا ، وهي شقيقة أمير سالرنو اللمباردي جيزولف . وانجبت زوجته الثانية له عدة أولاد اشتهر منهم روجر الذي لقبه والده ببورصا تمييزا عن عمه روجر كونت صقلية . ومن البنات اشتهرت هيلين التي خطبها =

ايطاليا مسرحاً لمعارك طاحنة دارت بينهما حتى اضطر روجر بورصا ـ اكثر من مرة ـ الى طلب المساعدة من عمه روجر كونت صقلية ضد أخيه بوهيموند . وأخيراً اتفق الشقيقان ووقّعا بينهما معاهدة (عام ١٠٨٩ م) حصل بوهيموند بموجبها على عدة مواقع في أبوليا مثل تارنتوم وبرانديزي وباري ، إلا أنه في حكمه لهذه المناطق كان فصلاً تابعاً لأخيه روجر بورصا ، دوق ابوليا وكلابريا(٢) .

والواقع أن بوهيموند بن جويسكارد لم يرث عن والده الصفات الجسمانية والعقلية فحسب ، وإنما ورث عنه أطماعه في الامبراطورية البيزنطية(٣) . فضلاً عن أنه لم يرض بوضعه في جنوب ايطاليا ، وهذا بدوره يفسرّ لنا السبب الذي جعل بوهيموند يتلقى أنباء الحملة الصليبية الأولى ببالغ السرور(٤) . فلقد أخبرنا مؤرخه أن بوهيموند كان يحاصر مدينة أمالفي الثائرة الى جانب عمه روجر كونت صقليه وذلك عندما علم بمقدم جماعة مسيحية من الفرنجة لا يحصيها العد وأنها عزمت على المضي الى ضريح السيد ... وفي الحال امتلأ بوهيموند بالروح القدس وأمر بتجزئة عباءة ثمينة كان يرتديها إلى اجزاء صغيرة وان تعمل صلباناً(٥) .

وكان أن انطلق بوهيموند ، للمشاركة في الحملة الصليبية الأولى ، على رأس جيش نورماني ، وبرفقته العديد من الشخصيات النورمانية في مقدمتها ابن اخته تانكريد(٦) . حيث عبر الأدرياتي ونزل على شاطئه الشرقي في شهر نوفمبر (تشرين

= قسطنطين ابن الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع (١٠٧١ ـ ١٠٧٨ م) . انظر تفاصيل ذلك عند :

ANNA, THE ALEXIAD, pp. 33-40; Yewdale, R. B. Bohemond I, Prince of Antioch pp. 4-6.

(2) Curtis, E., Roger of Sicily, pp. 89-90; Yewdale, Op. cit., pp. 25-33; Ault W. O., Op. cit., p. 339; Runciman, s., Hist. of the crusades, Vol. I, p. 154.

(3) ANNA, Op.cit., pp. 250, 266-67, 320.

(٤) لقد كانت العلاقة وطيدة للغاية بين بوهيموند والبابا أوربان الثاني فلقد زار الأخير في عام ١٠٨٩ م ـ بناء على دعوة بوهيموند ـ مدينة باري وتراني وبرانديزي ، وفي عام ١٠٩٢ م قام البابا اوربان الثاني بزيارة تارنتوم ـ بناء على دعوة بوهيموند ـ ومن ثم ذهبا معاً لزيارة ديرمونت كاسينو .

انظر : Yewdale, Op. pp. 31-2.

(٥) المؤرخ المجهول : الجستا ، الترجمة العربية ص ٢٥ .

(٦) كان تانكريد ابن اخت بوهيموند ، واسم هذه الأخت ايما EMMAوقد وُلد حوالي عام ١٠٧٢ ، وهو ابن المركيز ايد دوي بون :

انظر : Grousset, R., Hist. des Croisades, Vol. I, p. 20, N. 2. =

الثاني) من عام ١٠٩٦ م(٧) .

وكان من حق البيزنطيين أن يرتابوا من قدوم بوهيموند بن جويسكارد على رأس حملة «صليبية» ، فذكريات الحملة التي رافق فيها والده ضد بيزنطة (١٠٨١ ـ ١٠٨٥ م) قريبة جداً ، ولهذا أخذوا يتشككون فيما إذا كانت حملة النورمان الايطاليين بقيادة بوهيموند هذا حملة صليبية فقط ، وهل يُستبعد أن تكون هذه الحملة التي يقودها ابن جويسكارد تجديداً لمحاولات الأخير في فتح الامبراطورية البيزنطية ؟ وهذا يفسر لنا لماذا ربطت المؤرخة البيزنطية آنا كومنين بين قدوم بوهيموند في الصليبية الأولى وبين حملة أبيه ضد الامبراطورية قبل خمسة عشر عاماً ، فهي تقول : «لقد كان بوهيموند متظاهراً بالذهاب إلى الضريح المقدس لاداء الحج ، ولكن كان هدفه الحقيقي هو كسب مملكة لنفسه ، بل اكثر من ذلك ، فقد كان يهدف الى اتباع نصيحة والده والاستيلاء على الامبراطورية الرومانية (البيزنطية) نفسها»(٨) . كذلك أشار المؤرخ الصليبي وليام الصوري بصراحة الى ارتياب البيزنطيين ومخاوفهم من قدوم بوهيموند في الحملة الصليبية الأولى ، وربطها بالأخطار التي أحدقت بالامبراطورية البيزنطية من جرّاء الحملة النورمانية التي قادها جويسكارد وابنه بوهيموند قبل عقدٍ ونّيفٍ من وصول الحملة الصليبية الأولى (٩) .

ولهذا كله اعتقد الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين أن التاريخ سيُعيد نفسه ، وأن بوهيموند سيقف مهدداً القسطنطينية كما فعل والده من قبل ، وربما تساءل البيزنطيون : ألم تكن حماسة ابن جويسكارد للحملة الصليبية مبرراً بسيطاً ليستأنف زحفه على القسطنطينية ؟ وبعد أن بسط النورمان سيادتهم على ممتلكات بيزنطة في جنوب ايطاليا ألا يُحتمل أن يطمعوا في بسط سيادتهم على بيزنطة نفسها ؟ هنا يرى المؤرخ فازيلييف : أنه ليس من المستحيل اطلاقاً أن يكون بوهيموند قد أمل ـ للوهلة

= أما المؤرخة آنا كومنين فقد ذكرت أن تانكريد هو ابن اخت بوهيموند التي اسمها مارسيس Marcesesانظر : ANNA, Op. cit., p. 297.

(7) ANNA, Op. cit., pp. 263-65.

(8) Ibid., pp. 266-67.

(9) William of Tyre, Hist. of deeds., Vol. I, pp. 134-35.

الأولى ـ في تسوية حساباته مع بيزنطة من خلال اشتراكه مع ابن اخته تانكريد في الحملة الصليبية الأولى(١٠) . ومن جهة أخرى يرى شالندون أن الكسيوس كومنين كان يعتقد دائماً أن بوهيموند يطمع في عرشه ولهذا فقد كان موضع حذره وشكه الدائمين(١١) . ويعتقد المؤرخ سدني بينتر : أنه في الوقت الذي كان فيه عدد من الصليبيين مندفعين بغيرة دينية حقيقية ، كان يبدو واضحاً أن بوهيموند لم يكن واحداً من هؤلاء ، إذ كان هدفه الأول هو كسب أمارة اقطاعية في الشام تعوض عليه الامارة التي فشل في الحصول عليها في ايطالية(١٢) .

ويرى المؤرخ الفرنسي رينيه غروسيه : أن مخاوف البيزنطيين من حملة بوهيموند «الصليبية» كانت سابقة لأوانها وذلك لأن بوهيموند لمس اثناء حملة أبيه (١٠٨١ ـ ١٠٨٥ م) صلابة الامبراطورية البيزنطية ، ولهذا لم يكن يرغب في ذلك الوقت في معاداة الامبراطور الكسيوس كومنين ، ولكنه لم يتخل عن أمل الاستفادة من الحملة الصليبية ليقتطع مملكة لنفسه على حساب البيزنطيين(١٣) .

لقد أدرك بوهيموند مسبقاً أن لحملته وقعٌ على نفوس البيزنطيين ـ حكومة وشعباً ـ وتوقّع انه سيصطدم بعدم ثقة البيزنطيين فيه ، ولهذا نجد الكاتبة آنا كومنين تقول : «لقد كان بوهيموند قلقاً جداً حول الطريقة التي يمكنه بها كسب ثقة الأمبراطور ، مع اخفاء خططه الخاصة في نفس الوقت(١٤) .

وكان أن نجح بوهيموند في كبح جماح رجاله في معظم مراحل الطريق الذي سلكه من آفالونا الى القسطنطينية(١٥) . بحيث لم تقع حوادث بين النورمان والبيزنطيين

---

(10) Vasiliev, A. A., Hist. of the Byzantine Empire, Vol. II, pp. 405-406.

(11) Chalandon, F., Essai sur le Règne d'alexis I, p. 184.

(12) Painter, S., A Hist. of the Middle ages, p. 203.

(13) Grousset, Hist. des Croisades, Vol. I, pp. 20-21.

(14) ANNA, The Alexiad, pp. 263-64.

(١٥) انظر تفاصيل رحلة بوهيموند واتباعه من أفالونا إلى القسطنطينية عند : المؤرخ المجهول : الجستا ، ص٢٦ ـ ٢٩ ؛ أيضا William of Tyre, Op. cit., Vol. I, p. 134.

بشكل تؤثر على العلاقات بين الطرفين(١٦) . وفي إحدى مراحل الطريق ترك بوهيموند جيشه تحت قيادة تانكريد وتوجه بنفسه الى العاصمة تلبية لدعوة الامبراطور الكسيوس كومنين(١٧) ، غير مصطحب معه سوى عشرة من اتباعه(١٨) .

وقد استقبل الامبراطور البيزنطي القائد النورماني بحفاوة بالغة كما تشير الى ذلك آنا وكما يذكر مؤرخ بوهيموند نفسه(١٩) . وبعد أن داعب الكسيوس بوهيموند وذكّره بأعماله الجريئة أمام دورازو، أجاب بوهيموند «رغم إنني كنت في السابق عدوك ، ولكنني جئت الآن بكامل حريتي وارادتي كصديق مخلص لجلالتك(٢٠)» .

وعلى أية حال فقد اقسم بوهيموند يمين الولاء والطاعة بين يدي الامبراطور وفق الطريقة اللاتينية بكل سرور ودون إكراه او مماطلة(٢١) . وعلى أثر ذلك قدّم الكسيوس كميات هائلةٍ من الأموال الذهبية والفضية والتحف والأحجار الكريمة والهدايا الثمينة للقائد النورماني(٢٢) . وبمقتضى هذا القسم غدا بوهيموند رجل الامبراطور(٢٣) ، ويعتقد غروسيه أن مثل هذا اللون من التبعية والولاء يدخل في إطار مخططات بوهيموند ومشاريعه للمستقبل(٢٤) .

---

(١٦) يبدو أن المؤرخ وليام الصوري كان متعصباً ضد البيزنطيين ، في اكثر من موضع فهويتهم البيزنطيين بأنهم حاولوا إعاقة تقدم بوهيموند كما أن ما أبداه الامبراطور وحاسيته من دبلوماسية ومرونة في تعامله مع بوهيموند ... اعتبره وليام الصوري نوعاً من المداهنة التي تخفي وراءها الكثير من المكر والخداع انظر : William of Tyre, Op. cit., Vol. I, pp. 134-35.

(١٧) يذكر وليام الصوري أن بوهيموند قد استقبل وفداً بيزنطياً وطلب هذا الوفد منه ترك قواته والتوجه لمقابلة الامبراطور وكان بوهيموند متردداً في قبول هذا الاقتراح ، ولكن وصل الدوق جودفروي ، وأخذ يتوسل لبوهيموند بقبول اقتراح الوفد البيزنطي ، وأخيراً أذعن بوهيموند للاسباب الوجيهة التي قدمها الدوق جودفروي لبوهيموند بضرورة مقابلة الامبراطور .

انظر : William of Tyre, Hist. of deeds, Vol. I, pp. 136-37.

(١٨) المؤرخ المجهول : الجستا ، ص ٢٩ : ANNA, Op. cit., pp. 263-64.

(١٩) المؤرخ المجهول : للجستا ، ص ٣٠ : ANNA, Op. cit., pp. 263-64.

(20) ANNA, Op. cit., p. 265.

(21) Fulcher of Chartres, Chronicle of the First Crusade, P. 28; ANNA, Op. cit., Vol. I, p. 137.

(22) ANNA, The Alexiad, p. 266; William of Tyre, Op. cit., Vol. I, p. 137.

(23) William of Tyre, Vol. I, p. 137.

(24) Grousset, Hist. des Croisades,. Vol. I, p. 22.

ويبدو أن القسم «الذي قطعه بوهيموند ـ وبقية القادة الصليبيين ـ قد صِيغَ ـ كما يعتقد وليام الصوري بشكل معاهدة وقّعها الطرفان ـ البيزنطي والصليبي ـ وذلك عام ١٠٩٧ م في القسطنطينية ، وعُرفت بمعاهدة القسطنطينية ويعتقد هذا المؤرخ أن هذه المعاهدة تضمّنت تعهداتٍ من قبل الأمراء وأخرى من قبل الامبراطور. فمن جهة أقسم الأمراء بما فيهم بوهيموند ـ بألا يحتفظوا بأية مدينة أو حصن ـ يتمّ استرداده من المسلمين ـ كان يتبع الامبراطورية من قبلْ ، بل لا بد من تسليمه للامبراطور ، ولم تُستْثن القدس من ذلك أيضاً . كذلك تعهّد الامبراطور مقابل ذلك بأنه سيتبعهم فوراً وبدون تأخير(٢٥) مصطحباً معه كل حاشيته وقوات كبيرة من الجند وأن يقدم لهم المساعدة والمساندة بقدر ما تتطلب حاجة هؤلاء الامراء الصليبيين(٢٦) .

واستمرت العلاقات طيبة بين بوهيموند والكسيوس كومنين في بدايات الحملة الصليبية ، حتى أن بوهيموند أجبر ابن اخته تانكريد ـ الذي عبر البوسفور ـ دون مقابلة الامبراطور(٢٧) ـ أن يقسم اليمين المطلوب للعاهل البيزنطي ، وذلك بعد استرداد نيقية(٢٨) . والتزم الطرفان بالمعاهدة السابقة ، فمن جهة لم يعترض بوهيموند على إعادة كل ما فتحه الصليبيون في آسيا الصغرى للامبراطور البيزنطي ، ومن جهة ثانية فقد كانت فرقة بيزنطية بقيادة تاتيكوس تشارك الصليبيين في القتال ضد السلاجقة ، فضلاً عن أن الامبراطور قد قام بتزويد الصليبيين بكل ما احتاجوا إليه في مسيرتهم ، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ فوشيه شارتر : «يجب أن نذكر أنه منذ بدأنا في حصار نيقيه ولمدة طويلة ، فاننا كنا نشتري الطعام الذي كان قد جُلب الينا بإذن من الامبراطور(٢٩) .

---

(٢٥) يشك المؤرخ شارل ديل بأن يكون الامبراطور قد وعد الصليبيين بمشاركتهم شخصياً ، ويرى أنه قد وعدهم بالمساعدة والمحافظة على سلامتهم خلال أراضيه وتسهيل عملية التموين ، وأن يضع فرقة تحت تصرفهم . بينما يؤيد شالندون ما ذهب اليه المؤرخ المجهول بأن الكسيوس قد وعد بأن يشترك شخصياً في الحملة الصليبية . انظر Diehl, L'Europe Oriental p. 22; Chalandon, Alexis, p. 188; أيضاً : المؤرخ المجهول : الجستا ، ص ٣١ .

(26) William of Tyre, Op. cit., Vol. I, pp. 326-27.

(27) William of Tyre, Hist. of deeds Vol. I, 137;

• المؤرخ المجهول: الجستا ، ص ٣٢ .

(28) Anna, The Alexiad, p. 276.
(29) Fulcher of Chartres, Op. cit. p. 31.

وما أن وصلت الجموع الصليبية الى مشارف قيليقية حتى تكشّفت أطماع بعض الأمراء الصليبيين ، حيث انفصل كل من تانكريد وبلدوين عن الجيش الصليبي الرئيسي وراحا يتنازعان على امتلاك مدن قيليقيه ، دون مراعاة التعهد الذي أخذوه على أنفسهم للامبراطور البيزنطي ، حتى انتهى المطاف ببلدوين الى امتلاك الرُّها وتأسيس أول أمارة صليبية فيها ، رغم أنها كانت تعتبر من أملاك الدولة البيزنطية(٣٠) .

اما بقية الجيوش الصليبية فقد وصلت الى مدينة انطاكية ، في ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٠٩٧م وبرفقتهم الفرقة البيزنطية بقيادة تاتيكوس(٣١) وكانت انطاكية آنذاك بيد الامير التركي ياغي سيان(٣٢) ، وقد طال أمد حصار الصليبيين للمدينة حتى حل الشتاء ، وقلّت المؤونة لديهم ، ففترت همّة بعضهم ، وأخذوا في الفرار والعودة الى أوطانهم ، وانطلق بوهيموند وروبرت كونت فلاندر على رأس قوة للبحث عن القوت في قرى وادي العاصي ، وعادا فارغي اليدين دون القوت المطلوب ، واشتد الجوع في المعسكر الصليبي وفتك بهم ، في نفس الوقت الذي أخذت تتوارد فيه انباء اقتراب كربوغا صاحب الموصل لانقاذ المدينة(٣٣) .

وفي ظل هذه الظروف القاسية التي ألّمت بالصليبيين حول انطاكية كان بوهيموند يفرض نفسه تدريجياً ، بشكل أصبح فيه الكل يتجهون إليه غريزياً بوصفه المنقذ الوحيد لهم مما هم فيه . وهذا بدوره شجع القائد النورماني على استغلال تلك الظروف وتسخيرها لتحقيق هدفه المباشر وهو امتلاك أنطاكية . ويعتقد غروسيه : أنه كان على بوهيموند ايجاد المبرر القانوني لامتلاك المدينة ، ولهذا فقد كان عليه عندئذ أن يحاول أولاً التخلص من الفرقة البيزنطية وقائدها تاتيكوس ، الذي كان يشارك الصليبيين باسم الامبراطور ، ثم يحاول بعد ذلك انتزاع وعد من الامراء الصليبيين بأن يملكوه انطاكية بعد فتحها(٣٤) .

---

(30) chartre, Op. cit., pp., pp. 38— 40; William of Tyre, Op. cit., Vol. I. pp. 179— 80;

المؤرخ المجهول : ص٤٤ ـ ٤٥ .

(31) Anna, The Alexiad, P. 277.

(٣٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٤٦٥ .

(٣٣) المؤرخ المجهول : ص٥١ ـ ٥٥ :

Chartre, Op. Cit PP. 43— 45; Anna, Op. Cit., P. 278.

(34) Grousset, Hist. des Croisades, Vol. I, pp. 79— 80.

وقد نجح بوهيموند في اقناع القائد البيزنطي تاتيكوس بأن بقية الامراء الصليبيين يخططون للتآمر على حياته وذلك لأنهم يعتقدون بأن قدوم كربوغا لتخليص انطاكية إنما هو بتحريض من الامبراطور الكسيوس ، وطلب بوهيموند من القائد البيزنطي أن ينجو بحياته قبل أن يفتك به الأمراء الصليبيون وبالفعل تقبـل تاتيكوس هذه الفـرية كنصيحة وغادر المعسكر الصليبي متجهاً بحراً الى قبرص ، وذلك في يناير (كانون الثاني) أو فبراير (شباط) ١٠٩٨م(٣٥) . هذه هي الرواية البيزنطية حول انسحـاب القائد تاتيكوس ، أما الرواية النورمانية فتقول بأن تاتيكوس قد ترك المعسكر الصليبي بسبب الفزع الذي ألمّ به عندما سمع باقتراب قوات تركية لمحاربة الصـليبيين ، متذرعاً بأنه ذاهب لجلب المؤونة والذخيرة اللازمة ، وأنه غادر المعسكر تاركاً أهل بيته وقواته وكل ما يملكه مع الصليبيين(٣٦) .

ومن المشكوك فيه ان يكون انسحاب القائد البيزنطي قد حدث نتيجة خوف ـ كما يذهب المؤرخ المجهول ـ وإلا لِم تَرك أهل بيته وقواته وكل ما يملك مع الصليبيين ، كما يقرر ذلك أيضاً المؤرخ المجهول . ويبدو أن الرواية البيزنطية لا تتناقض البتة مع المجرى العام للأحداث(٣٧). كما أن بوهيموند أدرك أن وجود الفرقة البيزنطية، بقيادة تاتيكوس في حصار انطاكية تشكل عقبة في سبيل خطته لامتلاك انطاكية . ويفترض غروسيه انه لو كان القائد البيزنطي موجوداً وقت الاستيلاء على انطاكية لاستطاع هذا القائد إلزام بوهيموند بتنفيذ التعهدات التي أقسم عليها للامبراطور ، ولسلّم بوهيموند المدينة ـ مضطراً ـ لمندوب الامبراطور تاتيكوس ، فماذا سيجيب بوهيمونـد منـدوب الامبراطور عندما يضعه الأخير أمام القانون ويذكّره بالمعاهدة الفرنجية ـ البيزنطية التي وُقعَت في القسطنطينية (١٠٩٧) والتي كان بوهيموند أول من اقسم على الالتزام بها ؟(٣٨)

ومهما يكن من أمر فإن القائد البيزنطي ما كاد يرحل حتى قام بوهيموند بإثارة

---

(35) Anna, Op. Cit., P. 278; Chalandon, Alexis, PP. 202 F.

(٣٦) المؤرخ المجهول : الجستا ، ص٦٥ .

(٣٧) انظر مناقشة الروايتين عند :
Chalandon, Hist de La Premiere Croisade, PP. 192— 4; I dem, Alexis, PP. 200- 203.

(38) Grousset, Hist. des Croisades, Vol. I, P. 80.

الرأي العام الصليبي ضد بيزنطة متهماً قائدها بالخيانة العظمى لتركه الصليبيين في احرج الاوقات، ومشيراً إلى أن بيزنطة - بفرار قائدها - قد نقضت اتفاقية القسطنطينية وبالتالي سقط حقها في انطاكية . وهكذا تخلّص بوهيموند من تاتيكوس ، وبالتالي من الوصاية البيزنطية التي فُرضت عليه منذ بداية القتال ، من جهة ، كما كسب معظم الرأي العام الصليبي من جهة ثانية .

ثم شرع بوهيموند في تنفيذ الشطر الثاني من خطته ، وهو انتزاع وعدٍ من الأمراء الصليبيين بتسليمه انطاكية عند فتحها ، ولهذا أعلن فجأة أمام الصليبيين - الذين يعيشون أخطر الأوقات - عن عزمه على ترك الحملة والعودة الى ايطاليا . وقال : «إنه يرى موت رجاله وخيوله ، وأنه ليس غنياً لدرجة أنه يستطيع تحمل مصاريف حملة طويلة ، فليسمحوا له - على الأقل - بالعودة إلى ايطاليا ليرسل لهم من هناك النجدات اللازمة»(٣٩) .

وسرعان ما خلق هذا التهديد المقنع في نفوس الصليبيين - وخاصة العساكر منهم - الأثر الذي توّخاه بوهيموند نفسه ، لأن رحيل رجلٍ مثل بوهيموند - وفي تلك الحالة الحرجة التي يعيشها الصليبيون - كانت تعني التخلي عن فتح انطاكية وبالتالي قبول احتمال فشل الحملة الصليبية كلها(٤٠) . ولهذا التف حوله الأمراء الصليبيون وقرروا تمليكه مدينة انطاكية اذا تمكن (أي بوهيموند) من فتحها شريطة تقديم هذه المدينة للامبراطور إذا راعى الأخير اتفاقية القسطنطينية وقَدم لنجدة الصليبيين .(٤١) . على أن ريموند كونت تولوز - حليف الامبراطور - رفض اعطاء مثل هذا الوعد للقائد النورماني(٤٢) .

وتخبرنا المؤرخة آنا كومنين أن بوهيموند اقترح على زملائه أن تكون انطاكية من نصيب من يتمكن من فتحها أولاً ، ريثما يصل من يبعث به الامبراطور لتسلمها ، وقد وافق الصليبيون على ذلك(٤٣) . وأشارا المؤرخ العربي ابن العديم الى طمع بوهيموند

(39) Chalandon, Hist. de la Premiere Croisade, PP. 225- 27.
(40) Grousset, Op. Cit., Vol. I, p. 80.
(٤١) المجهول المؤرخ المجهول : الجستا ، ص٦٧ .
(42) William of Tyre, Hist. of deeds., Vol. I, P. 244.
(43) Anna, Op. Cit., P. 278.

في انطاكية ، ومحاولته انتزاع وعدٍ من الصليبيين بامتلاكها بقوله : «فجمعهم بيمند (أي بوهيموند) وقال لهم : «هذه انطاكية ان فتحناها لمن تكون ؟ فاختلفوا ، وكل طلبها لنفسه ، فقال : «الصواب أن يحاصرها كل رجلٍ منا جمعة ، فمن فُتحت في جمعته فهي له» . فرضوا بذلك(٤٤) .

ونستنتج من هذه الروايات أن بوهيموند قد نجح في انتزاع وعد أو اعتراف مؤقت بحقه في امتلاك انطاكية من الامراء الصليبين ـ ما عدا ريموند ـ مفترضاً انه قد لا ينضم الكسيوس كومنين الى الصليبيين أو قد لا يقدّم المساعدة التي وعد بها لتنفيذ مشروعهم .(٤٥) .

وفي تلك الأثناء كان بوهيموند يجري ـ دون علم الصليبيين ـ اتصالاتٍ مع أحد رجال ياغي سيان ـ وهو فيروز الأرمني ـ ليحمله على خيانة سيده . ونُفذت الخطة التي رسمها بوهيموند وفيروز ، وكان القائد النورماني أول من دخل المدينة وتبعه الصليبيون وذلك في يونيو ١٠٩٨م . وما كاد يستقر هؤلاء في انطاكية حتى ضرب كربوغا الحصار حولها (في يونيو ـ حزيران ـ ١٠٩٨م) ، واصبح الصليبيون محاصرين من الخارج ومن الداخل ، باعتبار أن قلعة المدينة لا زالت بيد الاتراك ، ولهذا كله اضطربت أحوال الصليبيين ، وفرّ بعضهم طلباً للنجاة ، وكان أبرز هؤلاء الفارين ستيفن كونت شارتر(٤٦) .

وفي الوقت الذي كان يمر الصليبيون بتلك الضائقة ، أو بالأحرى المحنة ، كان الامبراطور البيزنطي قد انهى أعماله القتالية ضد الاتراك في آسيا الصغرى(٤٧) ، وزحف جنوباً على رأس جيشه لمساعدة الصليبيين في انطاكية ، ولكن عندما وصل إلى مدينة فيلوميليوم Philomeiium التقى بعددٍ من الصليبيين الفارين من انطاكية ، ومنهم ستيفن كونت شارتر وابلغ هؤلاء الامبراطور بالضائقة العسيرة التي ألمّت

(٤٤) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٤٩٨ .

(45) Stevenson, W.B., The Crusaders in the east, P. 28.
(46) Chartre, Op. cit., PP. 45— 48; Anna, Op. cit., PP. 277- 82; William of Tyre, Op. cit., Vol. I, PP. 248- 50, 274-75;

(٤٧) أيضاً : المؤرخ المجهول : الجستا ، ص ٦٦ ـ ٧٣ ؛ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ؛ ص ١٣٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص٤٩٧ ـ ٥٠٠ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص٣٤١ .

بالصليبيين ، وأكدوا له أن الصليبيين قد سقطوا عن بكرة أبيهم ، وانزعج العاهل البيزنطي لهذه الأنباء ، وعزم على متابعة زحفه لانقاذهم ، ولكن ستيفن ورفاقه أخذوا يحثونه على التخلي عن مشروعه هذا «الذي لا جدوى فيه»(٤٨) ، وفي ذات الوقت وردت أنباء مفادها أن قوات تركية كبيرة قد اتخذت طريقها ضد القسطنطينية ولهذه الأسباب مجتمعة عاد الكسيوس الى عاصمته للدفاع عنها ضد الخطر التركي القادم . هذا ما روته المؤرخة البيزنطية آنا كومنين ويؤيدها في ذلك المؤرخ المجهول والمؤرخ اللاتيني وليام الصوري وأحد مؤرخي القرن الثالث عشر وهو روجر وندوفر(٤٩) .

وكان ان عمّ الاستياء المعسكر الصليبي بتوارد أنباء عودة الكسيوس الى عاصمته ، واستغل بوهيموند هذا الموقف ليقنع الصليبيين بانتهاك بيزنطة لاتفاقية القسطنطينية ، وبالتالي ليبرر أحقيته في امتلاك انطاكية فيما بعد . ويعتقد رنسيمان : أن الكسيوس ارتكب خطيئة سيكولوجية (نفسية) في عودته الى القسطنطينية بالنسبة الى الصليبيين(٥٠) ، بينما يرى ستيفنسون في عودة الكسيوس الى القسطنطينية فرصة طيبة أمام بوهيموند للسير قدماً في مشروعه في امتلاك انطاكية(٥١) .

وأخيراً تمكن الصليبيون من هزيمة كربوغا (٢٨ يونيو ١٠٩٨) ، واستولوا على قلعة المدينة(٥٢) ، وعندئذ اصبحت مسألة امتلاك انطاكية ـ التي كانت حتى ذلك الوقت في دور التحضير ـ موضع دراسة من الناحيتين الواقعية والقانونية . وانقسم الامراء الصليبيون حيال هذه المسألة وتنازعوا(٥٣) . وأخيراً تبلور الموقف عن اتجاهين : الأول بزعامة ريموند كونت تولوز الذي رأى ضرورة تسليم المدينة للامبراطور استناداً الى

---

(48) Anna, Op. Cit., PP. 280— 82.
(49) I bid, PP. 282— 84; William of Tyre, Op. Cit., Vol. I pp. 275- 77.

المؤرخ المجهول : الجستا ، ص٨٧ ـ ٨٩ ؛

Roger of Wendover, Op. Cit., Vol. I, P. 415.

(50) Runciman, The eastern Schism, pp. 84 ff.

(51) Stevenson, Op. cit., p. 29.

(52) Chartre, Op. cit., pp. 53—55; ANNA, Op. cit., p. 285; also:

المؤرخ المجهول : ص ٩٢ ـ ٩٦ ؛ ابن العديم : المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ٥٠٠ ـ ٥٠٢ ؛ ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٧ .

(53) Vasiliev, Op. cit., Vol. II, p. 408; Stevenson, Op. cit., pp. 29-30.

مبدأين أولهما : أن مدينة انطاكية كانت من أملاك الدولة البيزنطية حتى عام ١٠٨٥ م وثانيهما : ان الصليبيين ـ وفي مقدمتهم بوهيموند ـ قد اقسموا يمين الـولاء ووقّعـوا اتفاقية القسطنطينية المتضمنة إعادة ، كل ما يتم الاستيلاء عليه الى بيزنطة اذا كان من ممتلكاتهم سابقاً . أما الاتجاه الثاني فقد كان بزعامة بوهيموند نفسه والذي رأى وجوب منح انطاكية للقائد النورماني استناداً الى مبدأين أولهما : أن بوهيموند لعب الدور الرئيسي في عملية فتح المدينة سواء باتصاله الناجح مع فيروز أو في ادارة الاعمال القتالية . وثانيهما : ان الصليبيين قد قطعوا وعداً لبوهيموند ـ ما عدا ريموند ـ بتسليمه المدينة ، إذا تمكن من فتحها ، خاصة وأن الامبراطور البيزنطي قد خذل الصليبيين وتقاعس عن تقديم المساعدة لهم في أحلك الظروف(٥٤) .

وعقد الزعماء الصليبيون اجتماعاً في اوائل شهر يوليو (تموز) من عام ١٠٩٨ م ، قرروا فيه بالاجماع ارسال سفارة الى الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين لدعوته للحضور لتسلم انطاكية(٥٥) ، شريطة أن يشاركهـم شخصياً في الـزحف على بيت المقدس(٥٦) . وقبل أن يصل الجواب الامبراطوري ، بعث الصليبيون رسالة الى البابا اوربان الثاني (سبتمبر ١٠٩٨ م) يخبرونه فيها بكل الأحداث التي وقعت وبوفاة المندوب البابوي ادهيار ، وفي نهاية الرسالة يطلبون منه الحضور لتسلم كنيسة القديس بطرس في انطاكية ، وانهم قد انتصروا على الأتراك «الوثنيين» ولكنّهم على أية حال «لـم يقضـوا بعـد على :«الهراطقة» الاغـريق (البيزنـطيين) والأرمـن والسريان واليعاقبة(٥٧) .

ويخبرنا ريموند آجيل(٥٨) وينقل عنه وليام الصوري أيضا(٥٩) أن سفارة وصلت الى انطاكية في ابريل (نيسان) من عام ١٠٩٩ م تحمل موافقة الامبراطور على العرض

(54) Grousset, Hist. des Croisades, Vol. I, pp. 108-109.

(٥٥) المؤرخ المجهول : ص ٩٧ ـ ٩٨ .

(56) Grousset, Op. cit., Vol. I, p. 111.

(57) Chartre, Op. cit., pp. 55-58.

(58) Raymond d'Agiles, in R. H. C. occ. Vol. III, p. 286.

(59) William of Tyre, Op. cit., Vol. I, pp. 326-27.

الصليبي ، إلا أن الأخير طلب من الصليبيين انتظاره حتى شهر يوليو (١٠٩٩ م) . ومن الواضح أن الرد الامبراطوري جاء متأخراً لأن بوهيموند قد دعّم مركزه خلال ذلك بحيث أصبح من الصعوبة على الكسيوس كومنين زحزحته(٦٠) . ولهذا يتهم غروسيه العاهل البيزنطي بقصر النظر والتردد وكثرة المخاوف والشكوك «لعدم استغلاله هذه الفرصة الطيبة التي كانت ستمكنه من استرداد شمالي الشام والاشراف على فتح بيت المقدس(٦١) .

وعلى أية حال فقد رفض الصليبيون انتظار الامبراطور ، وبدأ التذمر يسود المعسكر الصليبي ، واضطر الأمراء الى تجميد النزاع وبدأوا في الزحف على بيت المقدس ، ورافقهم بوهيموند الى مدينة اللاذقية(٦٢) ولكنه سرعان ما عاد الى انطاكية(٦٣) ، حيث أخذ يمارس صلاحياته كأمير عليها . وهكذا كانت البداية العملية لظهور أمارة انطاكية النورمانية .

قبل أن نتابع عرض الاحداث التالية يجب أن نتوقف قليلاً لمناقشة الوعد الذي اورده المؤرخ المجهول حول انطاكية ، هذا الوعد الذي كان الأساس القانوني لوجهة النظر النورمانية في تأسيس امارة انطاكية . فلقد قال المؤرخ المجهول أن الامبراطور الكسيوس كومنين ، «وعد بوهيموند الشجاع أن يقطعه أرضاً وراء انطاكية تمتد مسيرة خمسة عشر يوما طولاً وثمانية أيام عرضاً ، اذا اقسم بوهيموند للامبراطور يمين الولاء دون رجاء ، وعاهد الامبراطور أنه لن ينسى وعده إليه ابداً طالما هو مقيم على يمينه له»(٦٤) .

أما الرواية البيزنطية فتطالعنا بها المؤرخة آنا كومنين ، التي لا تشير اطلاقاً الى مثل

(٦٠) عاشور : الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٢٦٦ ؛ جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، ص ٢١٥ .

(61) Grousset, Op. cit., Vol. I, pp. 111-112.

(٦٢) المؤرخ المجهول : الجستا ، ص ١١١ .

(٦٣) يعتقد المؤرخ وليام الصوري أن بقاء بوهيموند في انطاكية وكذلك بلدوين في الرها ، وعدم مشاركتهما في الزحف الى بيت المقدس ، كانت لظروف أمنية ولحماية هذه المناطق من هجمات «الاعداء» ، لأنه لو تُركت هذه المناطق دون حماية لعاد الاعداء واحتلوها مجدداً وذهبت جهود الصليبيين سدى : انظر : William of Tyre, Op. cit., Vol. I, p. 400.

(٦٤) المؤرخ المجهول : الجستا ، ص ٣١ .

هذا الوعد ، وإنما تقول بأن بوهيموند طلب من الامبراطور ـ بعد أن أدى الأول اليمين المطلوب ـ أن يسبغ عليه منصب القائد الأعلى للقوات الأمبراطورية في الشرق ، ولكن الامبراطور ردّ على هذا الطلب رداً غامضاً ، ودغدغ أحلام القائد النورماني قائلاً : «ان الوقت لم يحنْ بعد لمثل هذا الطلب ، ولكن بنشاطك وسمعتك الطيبة ، وفوق ذلك بوفائك واخلاصك فإن تحقيق هذا الطلب ليس بعيد المنال»(٦٥) .

ان الدراسات الحديثة تميل الى القول أن النص الذي أورده المؤرخ المجهول حول وعد العاهل البيزنطي للقائد النورماني يُعتبر نصاً مدسوساً على الأصل(٦٦) . ولا تستبعد هذه الدراسات أن يكون بوهيموند قد أقحمه فيما بعد على النسخة الأصلية لكتاب المؤرخ المجهول ، والدليل على ذلك هو صمت بقية المصادر المعاصرة حول هذا الوعد ، فضلاً عن أن المؤرخ المجهول لا يذكر هذه المنحة الامبراطورية خلال حديثه عن تنازع القادة حول امتلاك انطاكية ، واذا كانت هذه المنحة صحيحة فلماذا يقول أن الأمراء الصليبيين بعثوا الى الامبراطور يطلبون منه الحضور لتسلم انطاكية ؟

ان الباحث المتعمق في دراسة العلاقات النورمانية ـ البيزنطية خلال نصف القرن السابق على هذه الاحداث لا يقتنع بسهولة باحتمال منح هذا الوعد من الامبراطور الكسيوس كومنين الى بوهيموند بن جويسكارد . فكيف يمكن لألكسيوس ان يقطع على نفسه وعداً بمنح بوهيموند انطاكية في الوقت الذي لم يعترف فيه بعد بشرعية الوجود النورماني في جنوب إيطاليا ، والذي قام اصلاً على حساب الاملاك البيزنطية في تلك المنطقة ؟ وكيف يمكن لألكسيوس ان يفعل ذلك وهو اكثر المعاصرين خبرة بنوايا النورمان وأطماعهم في امبراطوريته وعاصمته ؟ ألم يصطدم الكسيوس نفسه قبل أن يصبح امبراطوراً بزعيم المرتزقة النورمان روسيل باليل ، الذي كان يعمل على تأسيس أمارة نورمانية على حساب بيزنطة في آسيا الصغرى ؟(٦٧) . ألم تعش الامبراطورية في مستهل عهده ـ حكومة وشعباً وجنداً ـ أربع سنوات ونيف من القلق والرعب من جراء الغزو النورماني (١٠٨١ ـ ١٠٨٥ م) الذي كان يقوده جويسكارد

(65) ANNA, The Alexiad, p. 267.

(66) Setton, Hist of the Crusades, Vol. I, p. 391; Runciman, Hist. of the Crusades, Vol. II, p. 47;

(67) ANNA, The Alexiad, pp. 7-11.

وابنه بوهيموند ، والذي باتت خلاله عاصمته وعرشه قاب قوسين أو أدنى من السقوط بيد النورمان ؟ ألم يقع في مشاكل ، مع كنيسة القسطنطينية عندما حوّل ايقوناتها وكنوزها الى عملة للحصول على المرتزقة لمواجهة الغزو النورماني ؟ ألم يقدّم الكسيوس نفسه اقتصاد امبراطوريته على طبق من ذهب للبنادقة ليحصل على مساعدة اسطولهم ضد الغزو النورماني ؟(٦٨)

اضافة الى كل هذه الاستنتاجات ، ألم يكن الكسيوس كومنين يُدرك خطورة قيام أمارة نورمانية في انطاكية ؟ ويبدو أنه كان يعلم تماماً أن هذه الأمارة هي مخفر متقدم للصدام مع نورمان جنوب ايطالية ، وأنها ستكونُ بمثابة خنجر في جنب الامبراطورية يُعيق سياساتها لا في شرقي البحر المتوسط وآسيا الصغرى فحسب ، وإنما في اوروبا عامة ، وايطاليا بشكل خاص . ولذا كان بإمكان بيزنطة قبول قيام مملكة صليبية لا تخضع لسلطانها في بيت المقدس ، ولكن قيام امارة نورمانية بزعامة بوهيموند في انطاكية كانت مسألة اخرى نظراً لقرب المدينة الأخيرة من أراضي الامبراطورية وصلاتها التاريخية بها فضلاً عما في ذلك من اعتداء صارخ ومباشر على المصالح البيزنطية الحيوية في شمال الشام(٦٩) .

ويبدو أن الامبراطور الكسيوس كومنين أحسّ بالخذلان لاغتصاب بوهيموند انطاكية وتنكره لمعاهدة القسطنطينية (١٠٩٧ م) وبالتالي لحقوق بيزنطة في هذه المدينة . ولهذا بعث (١٠٩٩ م) الكسيوس بقائده بوتوميتس الى انطاكية للتفاوض مع الأمير النورماني بشأن أنطاكية ، إلا أن بوهيموند قام باعتقال السفير البيزنطي ، بوتوميتس ، خمسة عشر يوماً متهماً إياه بأنه قادم لاشعال النار في سفنه . وبعد اطلاق سراحه عاد بوتوميتس الى القسطنطينية عن طريق قبرص دون أن يُنجز شيئاً من مهمته(٧٠) .

وقد أدرك بوهيموند أن تثبيت سلطته في انطاكية يتطلب منه تبني سياسة توسعية ،

---

(68) Ibid., p. 100.

(69) Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine state, p. 323.

(70) ANNA, The Alexiad, p. 294.

ولهذا توجه (أواخر اغسطس ١٠٩٩ م) لانتزاع اللاذقية من أيدي البيزنطيين(٧١) ، غير أنه لم يكن بوسعه فتحها لمناعة استحكاماتها من جهة ولاتصال حاميتها بجزيرة قبرص البيزنطية التي كانت تمدّ الحامية بما تحتاجه من المؤن والذخائر من جهة ثانية(٧٢) . وجاء الاسطول البيزاوي ـ تحت قيادة اسقف بيزا دايمبرت ـ في الوقت المناسب ، فاتفق معه بوهيموند ، وفرض حصار بري وبحري على المدينة(٧٣) ، إلا أن قدوم ريموند كونت تولوز الذي كان في طريقه من بيت المقدس الى القسطنطينية قد انقذ مدينة اللاذقية ، حيث نجح ريموند في فرط التحالف النورماني ـ البيزاوي ، وذلك بعد أن عنّف دايمبرت على تعاونه مع بوهيموند ضد «مدينة مسيحية» . وتخلى دايمبرت أخيراً عن بوهيموند ورفع الحصار البحري عن المدينة ، وهذا بدوره اضطر بوهيموند الى فكّ الحصار البري والعودة الى انطاكية مخذولاً . وفي نفس الوقت دخل ريموند اللاذقية ورفع علمه على أسوارها بجانب العلم البيزنطي ، وترك فيها فرقة من قواته الى جانب الحامية البيزنطية ، وتوجه إلى القسطنطينية لمقابلة الامبراطور(٧٤) . وتجدر الاشارة الى أن ما تذرع به دايمبرت في مساعدته لبوهيموند أن الأخير قد صور له بأن البيزنطيين هم الأعداء الحقيقيون للصليبيين وأنهم «منافقون» وحلفاء للاتراك و «خونة» للقضية الصليبية ، وأنه قد اقنعه بأن مهاجمة اللاذقية هو بهدف الانتقام للصليبيين من البيزنطيين(٧٥) .

ثم ان بوهيموند رغب في ايجاد سندٍ شرعي لأمارته الجديدة ، وذلك بالتحالف مع الكنيسة ، تماماً كما فعل والده عام ١٠٥٩م ، عندما وقّع معاهدة تحالف مع البابا

---

(٧١) كانت اللاذقية قد سلّمها الصليبيون الى بيزنطة عندما احتلوها وهم في طريقهم الى بيت المقدس (١٠٩٩ م) ولقد عينّ الكسيوس كومنين أحد قواده حاكماً على مدينة اللاذقية واسمه اندرنيق تزينتزيلوس Andronicus Tzintziluces
انظر : ANNA, Op. cit., p. 287.

(٧٢) لقد عمد الكسيوس على الافادة من موقع قبرص في استعادة حقوقه في انطاكية وكبح بوهيموند الذي فرض الحصار على اللاذقية ولعب حاكم قبرص البيزنطي دوراً في افشال حصار بوهيموند لمدينة اللاذقية عام ١٠٩٩ م .
انظر : عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢٢ .

(73) ANNA, The Alexiad, pp. 292-93; Chalandon, Alexis, pp. 216-18.

(74) Setton, Hist. of the Crusades, Vol. I, p. 374; Runciman, Hist. of the Crusades, Vol. I, pp. 318-19.

(75) Albert of Aix, in R. H. C. occ. Vol. IV, p. 520; Grousset, Hist. des Croisades, Vol. I, pp. 377-78.

نيقولا الثاني . ولهذا فقد توجه بوهيموند للحج الى بيت المقدس في ديسمبر من عام ١٠٩٩م واصطحب معه الاسقف دايمبرت(٧٦) . ولعب الزعيم النورماني دوراً ملموساً خلال اقامته في القدس - في انتخاب دايمبرت بطريركاً على بيت المقدس بدلاً من آرنولف ، وقام البطريرك الجديد بتقليد بوهيموند منصب الأمارة على انطاكية(٧٧) ، وبذلك وجد بوهيموند في البطريرك الجديد حليفاً سياسياً يقف معه ضد بيزنطة .

وبعد أن عاد بوهيموند من بيت المقدس (مطلع عام ١١٠٠م) ، مكث في انطاكية ينظّم شؤونها ، ولعل أخطر ما اتخذه في هذا السبيل هو عزل بطريرك انطاكية الشرعي الارثوذكسي البيزنطي يوحنا الرابع وتعيين بطريرك لاتيني وهو برنارد دي فالنس . ذلك أن بوهيموند نظر الى يوحنا هذا على أنه «عميل للامبراطور البيزنطي» ، فضلاً عن أن هذا الاجراء كان متمشياً مع سياسة «الكتلكة» التي رسمها بوهيموند بالنسبة الى جميع المناطق التي انتزعها من البيزنطيين(٧٨) . وبذلك أخذت المسألة الأنطاكية بعداً دينياً سوف نبحثه في فصل العلاقات الكنسية .

ولم ينس بوهيموند أنه خُذل امام اللاذقية عام ١٠٩٩م ، ولهذا هاجم مدينة مرعش (عام ١١٠٠م) التي كانت قد أعيدت الى البيزنطيين بموجب اتفاقية القسطنطينية(٧٩) . وقبل أن يتمكن بوهيموند من اقتحام هذه المدينة استنجد به الزعيم الأرمني جبريل صاحب ملطيه ضد الملك غازي الدانشمند ، أمير سيواس ، الذي كان قد ضرب الحصار حول ملطية ، ووعد جبريل الأمير بوهيموند ان يسلّمه المدينة اذا انقذه من الخطر التركي . ولبى أمير انطاكية النداء ، ولكنه فشل في مهمته ، ووقع أسيراً بيد الملك غازي (أغسطس ١١٠٠م) ولم ينقذ ملطية سوى قدوم بلدوين - أمير الرها وملك بيت المقدس في المستقبل - حيث أضطر الملك غازي الى فك الحصار عن

---

(76) William of Tyre, Hist. of deeds; Vol. 1. pp. 400- 401.

(77) Ibid., Vol. 1, pp. 402- 403; Setton, Hist. of the Crusades, Vol. 1, pp. 377- 78.

(78) Grousset, Op. cit., Vol. 1, p. 385; Setton, Op. cit., Vol. 1, p. 387; Smail, Op. cit., p. 51; Runciman, Hist. of the Crusades, Vol. 1, p. 320; Idem., The Eastern Schism, pp. 91 - 92.

(79) M. of Edessa, Op. cit., pp. 229- 30; Chalandon, Alexis, p. 220.

المدينة والاتجاه شمالاً ومعه بوهيموند الذي سجنه في قلعة قرب البحر الأسود(٨٠) .

ولا شك في أن أسر بوهيموند جاء طعنة بالغة الشدة تعرضت لها انطاكية النورمانية في صيف عام ١١٠٠م . وكادت تكون نقطة تحول خطيرة بالنسبة لمستقبل الأمارة النورمانية الناشئة لو لم يتدارك امراء انطاكية ورجال الدين اللاتين فيها الموقف ، حيث قاموا باستدعاء تانكريد(٨١) على جناح السرعة ، ليقوم بالوصاية على الأمارة أثناء أسر خاله(٨٢) . وقد لبى تانكريد النداء ، ووجد نورمان انطاكية فيه قائداً لا يقل كفاءة ونشاطاً عن بوهيموند(٨٣) . واتّبع تانكريد سياسة خاله تجاه بيزنطة ، والتي تتلخص في التوسع على حساب الأخيرة من جهة والاستمرار في عملية الكثلكة لكل ما يتم احتلاله من جهة ثانية . ولكي يحمي نفسه من أي اعتداء بيزنطي فقد اعتنق المبدأ القائل بالهجوم خير وسيلة للدفاع(٨٤) .

وقد استهلّ تانكريد فترة وصايته هذه بانتزاع المدن البيزنطية الرئيسية الثلاث في قيليقيه وهي المصيصة وأذنه وطرطوس ، وذلك في صيف عام ١١٠١م (٨٥) .

ومن ثم اتجه الى اللاذقية ، حيث نجح في احتلالها ـ بعد حوالي سنة من الحصار ـ بمساعدة الاسطول الجنـوي ،وذلك في بداية عام ١١٠٣م(٨٦) . وعندئذ شعرت بيزنطة

---

(80) Chartre, Op. cit., pp. 81- 82; William of Tyre op. cit., vol. 1 pp. 411- 12.

انظر أيضاً : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٥٠٩ ، ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٠٠ .

(٨١) كان تانكريد أميراً على الجليل في فلسطين ، وكان تابعاً لملك بيت المقدس ، واستدعاء تانكريد الى انطاكية للوصاية عليها قد خلصه من القلق الذي يعتريه في تبعيته لملك بيت المقدس الجديد بلدوين والذي سبق أن تنازع معه في قليقية في بداية الحملة الصليبية . وقبل أن يغادر تانكريد فلسطين إلى انطاكية اشترط على الملك بلدوين أنه اذا عاد خاله خلال ثلاث سنوات ولم تعد انطاكية بحاجة له ينبغي أن يرد إليه اقطاعه في الجليل . انظر ذلك عند :
Grousset, 1, pp. 382- 83; Stevenson, p. 40: Setton, 1, p. 377.

(82) William of Tyre, op. cit., 1, p. 428; Grousset, op. cit., 1, p. 382.

(٨٣) لقد اشارت المؤرخة آنا كومنين الى شخصية تانكريد بقولها أنه «شاب تعتمر في قلبه الفتوة والروح الاستقلالية ، وأنه يدين بالوفاء والأخلاص الشديدين الى خاله بوهيموند» انظر : ANNA,Op. cit., p. 275.

(84) Grousset, Op. cit., Vol. 1, p. 383; Runciman, Hist. of the Crusades, Vol. 11, p. 33.

(85) ANNA,Op. cit., pp. 291- 92; Chalandon, Alexis, p. 223; Grousset, Op. cit., Vol. 1, p. 384; Setton, Op. cit., Vol. 11, pp. 33.

(86) ANNA,Op. cit., pp. 287- 88; Albert of Aix, p. 582; M. of Edessa, Op. cit., p. 242; Roger of Wendover, Vol. 1, pp. 499- 58.

بخطورة تزايد نفوذ تانكريد منذ أن توجه (١١٠١م) لانتزاع مدنها في قيليقية ، وأخذت تستعد لمواجهة الأمير النورماني ، إلا أن قدوم حملة عام ١١٠١م الصليبية قد أعاق تنفيذ أي أجراء عملي في هذا السبيل .

وكانت حملة سنة ١١٠١م الصليبية تتألف من عدة فرق انطلقت من الغرب الأوروبي إلى بيت المقدس ـ مروراً بالقسطنطينية ـ تحت تأثير الانتصارات التي حققتها الصليبية الأولى . ولقد أشارا المؤرخون المعاصرون امثال شارتر ـ الى هذه الحملة باعتبارها حملة صليبية جديدة ، إلا أن ـ الدراسات الحديثة تفضّل تسميتها بحملة عام ١١٠١م(٨٧) .

ويهمنا من هذه الحملة العنصر الايطالي بالذات وعلاقته ببيزنطة . ذلك أن المصادر المعاصرة اكدت أن الفرقة الرئيسية والموجّهه في هذه الحملة كانت الفرقة اللمباردية ، التي غادرت ايطاليا في سبتمبر (ايلول) من عام ١١٠٠م ، تحت قيادة رئيس اساقفة ميلان أنسليم بويه Buis وعدد من الأمراء العلمانيين(٨٨) . ولقد ارتابت السلطات البيزنطية من مقاصد هؤلاء اللمبارديين ، وذلك لأن بوهيموند كان يتمتع بمكانة محترمة بين صفوفهم ، وهذا يفسر لنا لماذا اطلقت المؤرخة البيزنطية آنا كومنين على هذه الحملة اسم «حملة النورمان»(٨٩) .

وكان أن وصلت الفرقة اللمباردية الى القسطنطينية(٩٠) في فبراير أو مارس من العام ١١٠١م ، وذلك بعد أن ارتكبت الكثير من أعمال السلب والنهب في معظم مراحل طريقها عبر البلقان(٩١). وبعد أن مكثت هذه الفرقة فترة حول العاصمة البيزنطية ، تخللتها أعمال العنف بينهم وبين البيزنطيين ، انتقلوا الى الشاطىء الاسيوي للبوسفور ، وذلك في ابريل من العام ١١٠١م ، حيث مكثوا انتظاراً لوصول فرق أوروبية أخرى(٩٢) .

---

(87) Runciman, Hist. of the Crusades, Vol. 11, pp. 18FF; Setton, Op. cit., Vol. 1, p. 34.

(88) Cate, J.L., «Gay Crusader», Byzantion, XVI (1942-43), pp. 513-52.

(89) ANNA,Op. cit., p. 288.

(٩٠) تقدّر المؤرخة آنا كومنين عدد القوات النورمانية (اللمباردية) بـ /٥٠/ ألفاً من الفرسان و /١٠٠/ ألف من المشاة ، ويبدو أن في هذه الأعداد شيء من المبالغة . انظر : ANNA,Op. cit., p. 289

(91) Albert of Aix, Op. cit., pp. 560-81; ANNA, Op. cit., pp. 288FF.

(92) Albert of Aix, Op. cit., pp. 560-63; Cate, Op. cit.; pp. 515FF., also Cf., Chalandon, Alexis, p. 225; Setton, Op. cit., Vol. 1, p. 353.

وقد نجح الكسيوس كومنين في اقناع قادة هذه الحملة بأن يتولى قيادتها ريموند كونت تولوز ـ الذي كان في ذلك الوقت في ضيافة الامبراطور ـ باعتباره اكتسب خبرة في جغرافية آسيا الصغرى وطرقها كما وعد العاهل البيزنطي قادة هذه الحملة بأنه سيبعث معهم فرقة عسكرية تحت قيادة القائد البيزنطي تزتياس . إلا أن خلافاً نشب بين قادة الحملة حول الطريق الذي يجب اتباعه ، فلقد أصرّ اللمبارديون على الاتجاه شرقاً لتخليص بوهيموند من الأسر التركي ، بينما رأت بقية الفرق ضرورة اتباع طريق الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧م) ، ولقد أيد الأمبراطور البيزنطي وريموند كونت تولوز الرأي الأخير . واضطر الجميع اخيراً للاذعان لرأي اللمبارديين ، وزحفوا نحو الشرق وبرفقتهم فرقة بيزنطية يقدّر عددها ب /٥٠٠/ رجلاً تحت قيادة تزيتاس(٩٣) .

وعندما سمع الأتراك بوصول هذه الحملة وحّدوا صفوفهم ، وانقضّوا على أولئك الصليبيين وأنزلوا بهم هزيمة ما حقة ، وفرّ من بقي منهم نحو الغرب باتجاه القسطنطينية ، ونجا ريموند وتزيتاس ، ولم يتمكن الفارون من الوصول الى القسطنطينية قبل نهاية عام ١١٠١م(٩٤) .

وقد حمّلت بعض المصادر المعاصرة(٩٥) بيزنطة مسؤولية ما حلّ بتلك الحملة وأن الكسيوس كومنين قد تآمر مع الأتراك ضد الصليبيين ، حتى أن أحد المؤرخين اللاتين(٩٦) يقول بأن هزيمة هذه الحملة وما حلّ بها إنما كان نتيجة خطة مدبّرة بين الكونت ريموند والكسيوس كومنين . إلا أن البرت أكس يدحض هذه الاتهامات

---

(93) Anna, The Alexiad, pp. 288- 89; Albert of Aix, op. cit., pp. 562- 63; M. of Edessa, op. cit., p. 515.

(94) ANNA, op. cit., pp. 289- 90; Albert of Aix, op. cit., pp. 564- 66.

(٩٥) يقول المؤرخ الأرمني متى الرهاوي في هذا الصدد : «لقد طلب الكسيوس كومنين من ضباطه أن يأخذوا الفرنجة الى مناطق غير مسكونة واجتاز هؤلاء الفرنجة خلال خمسة عشر يوما أماكن مقفرة وخالية من الماء . ولقد كان الكسيوس قد أمر بمزج الكلس مع الخبز وتقديمه للفرنجة جاهزاً . وكان سلوك الامبراطور البيزنطي ينبع من الحقد الذي يكنه ضد الفرنجة وذلك لأنهم تنكروا للعهد الذي قطعوه له بالأصل وهكذا جعلهم ضحية كيده وسبب لهم الدمار» انظر : M. of Edessa, op. cit., p. 243.

(96) Orderic Vitalis, op. cit., 120; chalandon, Alexis, p. 227; Diehl. Hist. of the Byzantine Empire, p. 123.

ويُظهر بأن الكسيوس وريموند كانا من أشد المعارضين لتحويل اللمبارديين لاتجاه الحملة(٩٧) .

وخلال وجود بوهيموند في الأسر التركي (١١٠٠ ـ ١١٠٣) تفاوض الكسيوس كومنين مع الملك غازي من أجل ان يسلمه بوهيموند مقابل مبلغ من المال ، ولكن المفاوضات لم تصل الى نتيجة في هذا الشأن(٩٨) . وأخيراً قام الصليبيون بافتداء بوهيموند الذي أُطلق سراحه في مايو ١١٠٣م(٩٩) وعاد الأمير النورماني الى انطاكية حيث استقبله رجال الدين والعلمانيون استقبالاً رائعاً ، وبعد أن شكر بوهيموند تانكريد على خدماته وانتصاراته ، على البيزنطيين في قيليقية واللاذقية ، اقطعه قسماً من أمارة أنطاكية(١٠٠) .

وتلقى بوهيموند بعد فكاكه من الأسر رسالة من الامبراطور الكسيوس كومنين يذكره فيها بالعهود التي قطعها على نفسه ، وبأنه أول من حنث بها باغتصابه انطاكية واحتلال ابن اخته تانكريد لمدن قيليقيه واللاذقية . واختتم العاهل البيزنطي رسالته بقوله : «لذلك انسحب من انطاكية ومن كل المدن الأخرى واعمل بما توجبه عليك العدالة والحق ولا تثر حروباً ومزعجات لنفسك(١٠١) .

وكان أن أجاب الأمير النورماني برسالةٍ اتّهم فيها بدوره العاهل البيزنطي بحنث الوعود التي قطعها للصليبين ، وعدم تقديم المساعدة لهم ، وذكّره بفرار قائدة تاتيكوس من أمام انطاكية ، تاركاً الصليبين يعيشون أحلك الظروف . واختتم بوهيموند رسالته قائلاً : «بعد كل هذا كيف سيكون من العدالة أن نحرم انفسنا ـ برغبة ـ من الشيء الذي كنا قد كسبناه بعرقنا وجهدنا(١٠٢) .

---

(97) Albert of Aix, op. cit., pp. 565— 68; ANNA, op. cit., pp. 288- 89.

(98) Albert of Aix, op. cit., p. 610.

(٩٩) لقد قام الزعيم الأرمني كوج فازيل بافتداء بوهيموند من الأسر التركي انظر : Chalandon, Alexis, p. 233; Setton, op. cit., vol. 1, p. 388.

(100) William of Tyre, Hist. of deeds, vol. 1, p. 451; Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, p. 323; vasiliev, op. cit., vol. 11 p. 410; Runciman, Hist. of the Crusades, vol. 11, p. 39.

(101) ANNA, The Alexiad, P. 290.

(102) Ibid., PP. 290— 91.

وازاء ذلك قرر العاهل البيزنطي اتخاذ اجراء عسكري لتقليم أظافر نورمان انطاكية ، فبعث حملة تحت قيادة بوتوميتس لاسترداد مدن قيليقية وذلك في خريف عام ١١٠٣م . غير أن جيش بوتوميتس لم يكن يعوّل عليه فضلاً عن أن سكان قيليقية الأرمن كانوا قد وقعّوا هدنة مع تانكريد . ولهذا وجد القائد البيزنطي نفسه غير قادر على استردادها ، وجل ما فعله هو تأسيس عدة مواقع دفاعية وهجومية في اقليم مرعش التي كان بوهيموند ينوي انتزاعها من البيزنطيين . ثم عاد القائد البيزنطي الى القسطنطينية ـ بناء على طلب الامبراطور ـ بعد أن ترك حامية عسكرية في هذه المنطقة(١٠٣) .

وفي العام التالي (١١٠٤م) هاجمت الجيوش الصليبية ، بقيادة بوهيموند وتانكريد وبلدوين دي بورج (حاكم الرها) وجوسلين (حاكم تل باشر) ، مدينة حران ، الواقعة الى الجنوب من مدينة الرها ، بغية انتزاعها من يد المسلمين . ولكن القوات التركية اوقعت بهم هزيمة ماحقة قرب حران ، ووقع بلدوين وجوسلين في الأسر التركي في حين نجا بوهيموند وتانكريد بصعوبة بالغة(١٠٤) .

وكان لهزيمة حران اهمية بالغة في كونها قد حطمت خطط بوهيموند في تأسيس دولة نورمانية في الشرق فضلاً عن أنها قد انعشت آمال كل من البيزنطيين والمسلمين في استرداد حقوقهما التي اغتصبها الأمير النورماني(١٠٥) . وبالفعل انتهزت بيزنطة هذه الفرصة ، وبعث الكسيوس كومنين جيشاً بقيادة مونستراس تمكن من استرجاع مدن قيليقية مثل طرسوس وأذنه والمصيصة(١٠٦) . وفي نفس العام قام الاسطول البيزنطي بقيادة كانتاكوزينوس . Cantacuzenus باسترجاع اللاذقية ما عدا القلعة التي تجمعت فيها الحامية النورمانية . كما قام الاسطول البيزنطي باحتلال عدد من المواقع الهامة بين طرطوس واللاذقية مثل جبلة فضلاً عن قلعة المرقب(١٠٧) .

(103) Ibid., PP. 291— 92.
(104) William of Tyre, I,pp. 456; Roger of Wendover, I,pp. 457— 58;

أيضاً : ابن القلانسي : ص١٤٣ .

(105) Vasiliev, Op. cit., II, P. 410; Setton, I,p. 389.
(106) Anna, Op. cit., P. 297.
(107) Ibid., PP. 296— 97.

وفي الوقت الذي كان الخطر البيزنطي يهدد امارة انطاكية من الشمال (باستعادة قيليقية) ومن الجنوب (باستعادة اللاذقية) ، كانت القوات الاسلامية من الشرق ـ بقيادة رضوان صاحب حلب ـ تستعيد المناطق التي احتلها بوهيموند سابقاً مثل البارة ومعرة النعمان وكفرطاب وبلطمين ، حتى أنه قد «اتصلت غارات عساكر حلب الى بلدة انطاكية»(١٠٨) كما يقول المؤرخ ابن العديم . هنا أدرك بوهيموند ـ رغماً عنه ـ أن موارده وقواته لا تمكنه من مواجهة عدوين في آن واحد واقتنع بأن البقاء في الشرق ـ منذ ذلك الوقت فصاعداً ـ عديم الجدوى . ولذلك قرر العودة الى الغرب الاوروبي لقيادة حملة ضد بيزنطة ، التي اعتقد بأنها عدوته الحقيقية ، تاركاً ابن اخته تانكريد وصيّاً ـ للمرة الثانية ـ على انطاكية(١٠٩) .

ما هو موقف الجمهوريات التجارية الايطالية من النزاع النورماني ـ البيزنطي على انطاكية في هذه المرحلة ؟ .

واتخذت القوى الايطالية مواقفَ متباينة ازاء المسألة الانطاكية في هذه المرحلة . فبالنسبة الى جمهورية البندقية لم تتخذ موقفاً واضحاً ازاء هذه المسألة ، ولكن يبدو أنها كانت تقف الى جانب بيزنطة ـ من حيث المبدأ ـ في صراعها مع النورمان ، وذلك انطلاقاً من المعاهدة البيزنطية ـ البندقية (١٠٨١ ـ ١٠٨٢) والتي أملتها ظروف الصراع بين الكسيوس كومنين وروبرت جويسكارد (١٠٨١ ـ ١٠٨٥م)(١١٠) . وكل الدلائل تشير الى أن هذه المعاهدة لا زالت سارية المفعول ، فأثناء فترة تأسيس النورمان لامارة انطاكية وصراعهم خلال ذلك مع بيزنطة لم تقدم البندقية أي دعم لبوهيموند أو تانكريد .

أما بالنسبة الى جمهورية بيزا ، فقد كان موقفها واضحاً حيث وقفت الى جانب بوهيموند ضد بيزنطة . فعندما وصل الأسطول البيزاوي الى ساحل الشام (صيف ١٠٩٩م) كان في علاقات عدائية مع بيزنطة وذلك لأن البيازنة ـ تحت قيادة رئيس اساقفتهم دايمبرت ـ قاموا باعمال القرصنة ضد الجزر البيزنطية قبل وصولهم الى انطاكية والتحالف مع بوهيموند . وبعث الامبراطور البيزنطي اسطولاً ، تحت قيادة

(١٠٨) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٥١٢ ـ ٥١٣ .

(109) ANNA, The Alexiad, P. 297.
(110) Ibid., P. 100.

تاتيكوس ولاندولف ، للتصدي للبيازنة وحماية هذه الجزر . وبعد عملية ملاحقة مدهشة في عرض البحر المتوسط ، التقى الاسطولان البيزاوي والبيزنطي ما بين جزيرة باترا (بترا Patara) وجزيرة رودس . ورغم أنه لم تحدث بينهما معركة حقيقية ، الا أن الاسطول البيزنطي نجح في شن هجمات سريعة ومفاجئة ضد السفن البيزاويه ، مستخدماً في ذلك النار الاغريقية . واضطر الاسطول البيزاوي الى الفرار متجهاً الى اللاذقية التي وصلها في سبتمبر من العام ١٠٩٩ . وفي نفس الوقت اتجه الاسطول البيزنطي الى جزيرة رودس حيث قاموا بذبح كافة الأسرى البيازنة الذين وقعوا في ايديهم اثناء هذه الاشتباكات(١١١) .

ونستنتج مما سبق أن البيازنة وصلوا الى ساحل الشام وهم في حالة حربٍ سافرة ضد بيزنطة ، وكان طبيعياً أن يتحالفوا مع بوهيموند ضد بيزنطة ويقدّموا له الدعم البحري لانتزاع اللاذقية كما أشرنا سابقا . ورغم أن التحالف البيزاوي ـ النورماني ضد بيزنطة قد فشل في احتلال اللاذقية ، بسبب انسحاب البيازنة ، الا أن التّحالف ظل قائماً ، واصطحب بوهيموند الاسقف دايمبرت الى بيت المقدس ، واصبح دايمبرت بطريركاً على القدس بدعم من بوهيموند ، وتلقى الأخير الأمارة من البطريرك الجديد ، كما ذكرنا قبل قليل . وكان هدف بوهيموند من دعمه لدايمبرت هو كسب تأييد الكنيسة من جهة والاسطول البيزاوي من جهة ثانية في صراعه ضد بيزنطة(١١٢) .

وعندما تعرض دايمبرت ـ البطريرك الجديد لبيت المقدس ـ لضغوط شديدة من ملك بيت المقدس بلدوين الأول (١١٠٠ ـ ١١١٨م) ، بعث دايمبرت يستنجد بحليفه بوهيموند . ويطالعنا المؤرخ اللاتيني وليام الصوري بالرسالة التي وجهها دايمبرت الى بوهيموند ، وفيها يُعرب دايمبرت عن شكره لبوهيموند على الدور الذي لعبه في انتخابه بطريركاً على بيت المقدس ، ثم يخبره بالأخطار المحدقة به وبالكنيسة في بيت المقدس . ولعل اخطر ما في هذه الرسالة أن دايمبرت يذكّر الامير النورماني بالدور العظيم الذي لعبه والده جويسكارد في انقاذ البابا جريجوري السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م) من الامبراطور الالماني هنري الرابع ، ويحثّه أن يلعب نفس الدور بالنسبة

(111) Ibid., pp. 292—93.
(112) William of Tyre, Hist. of deeds, Vol. I, pp. 400—403.

له(١١٣) . وعلى أية حال ، فإن هذه الرسالة لم تصل الى بوهيموند لكونه كان قد وقع في الأسر التركي ـ كما اشرنا سابقا ـ ولو وصلت هذه الرسالة الى بوهيموند ولبى الأخير نداء دايمبرت لربما أصبحت أو أدت تلك الاحداث الى نتائج خطيرة ليس بالنسبة الى تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية فحسب وإنما بالنسبة الى علاقة نورمان انطاكية بالامبراطورية البيزنطية . ولكن الاحداث اتخذت طريقاً مغايراً ، حيث نفي الملك بلدوين البطريرك دايمبرت (١١٠١م) ، والتجأ الأخير الى انطاكية حيث رحّب به تانكريد ووضع تحت تصرفه كنيسة القديس جورج في جنوب انطاكية . وعندما هُزم بلدوين على يد المسلمين في الرملة استنجد بتانكريد ، الا أن الأخير رفض مساعدته ما لم يرجع دايمبرت الى بطريركية بيت المقدس . ولقد وافق بلدوين على ذلك وعاد دايمبرت الى عرشه الكنسي ، إلا أنه ما لبث أن نُفي ثانية ، بعد أن أدانه مجمع ديني في بيت المقدس ، فاتجه الى انطاكية ثانية (١١٠٢م) ، حيث بقي فيها الى أن رافق بوهيموند الى ابوليا عام ١١٠٤م(١١٤) ، كما سيأتي شرح ذلك .

اما بالنسبة الى موقف جمهورية جنوه من المسألة الانطاكية فقد كان واضحاً ايضاً . فلقد هرع الكثير من الجنويه الى انطاكية حينما سمعوا بهزيمة كربوغا (١٠٩٨م) وحرصوا على أن يكونوا أول من يظفر بتجارتها . ولقد ادركت السلطات البيزنطية مسبقاً الأضرار التي سيؤدي اليها تحالف جنوه مع بوهيموند . ولهذا بعث الامبراطور الكسيوس كومنين بقواتٍ برية وبحرية ، تحت قيادة كانتا كوزينوس ولاندولف ، للتصدي للاسطول الجنوي قبل وصوله الى الساحل الشامي ، إلا أن الاسطول البيزنطي تخلى في اللحظات الأخيرة عن مهاجمة الاسطول الجنوي بسبب ضخامة الاسطول الأخير(١١٥) . وفور وصول الجنوية الى انطاكية تحالفوا مع بوهيموند الذي منحهم (في ١٤ يوليو ١٠٩٨م) سوقاً وكنيسة وثلاثين بيتاً في المدينة ، ومنذ ذلك الوقت أصبح الجنوية يدافعون عن دعاوي بوهيموند ، وأصبح في وسع الأخير الاعتماد على تأييدهم ونصرتهم له في انطاكية(١١٦) .

---

(١١٣) انظر النص الكامل لرسالة دايمبرت الى بوهيموند عند : William of tyre, op. cit., Vol. I, pp. 419—21.

(114) Ibid., Vol. I, P. 452.

(115) Anna, The Alexiad, pp. 295—96.

(116) Hodgson, Venice, p. 238; Bent, T., Genoa, P. 92;

واثناء فترة وصاية تانكريد (١١٠٠ ـ ١١٠٣م) تنازل الأخير عن ثلث دخل ميناء السويدية للجنويه فضلاً عن شارع وكنيسة القديس يوحنا في انطاكية كما وعد تانكريد الجنويه باعطائهم نصف دخل ميناء اللاذقية اذا قدموا له الدعم البحري اللازم لانتزاعها من البيزنطيين . وبالفعل لعب الاسطول الجنوي دوراً ملموساً في حصار اللاذقية (١١٠٢ ـ ١١٠٣م) حتى سقطت المدينة الأخيرة بيد الأمير النورماني تانكريد(١١٧) .

ونستنتج مما سبق أن الجمهوريات الايطالية اتخذت مواقف متباينة ازاء المسألة الانطاكية ووفقاً لمصالح كل منها ، ففي الوقت الذي استمرت فيه البندقية الى جانب بيزنطة ، كانت بيزا وجنوة تقفان الى جانب بوهيموند وتانكريد لطرد البيزنطيين من شواطىء الشام .

(117) ANNA, The Alexiad, P. 288; Grousset, Hist. des Croisades, Vol. I, p. 353; Setton, op. cit., Vol. I, p. 387.

الفصل الثاني

حملة بوهيموند ضد بيزنطة عام ١١٠٧ م ونتائجها

لقد أدرك بوهيموند أن حُلمه في بناء دولة نورمانية في شمال الشام بدأ يتحطم ، فالبيزنطيون استردوا قيليقيه واللاذقية ، والاتراك وصلوا الى مشارف انطاكية ، ولذا حزّ في نفسه أن يرى أمارته وقد اقتصرت على مدينة انطاكية وضواحيها ، فضلاً عن أن الخطر لا زال قائماً عليها ، وخاصة من قبل البيزنطيين الذين لم يتنازلوا عن حقوقهم في هذه المدينة ، وبالتالي لم يعترفوا بشرعية الوجود النورماني فيها . وعلى هذا اعتبر بوهيموند استرداد قيليقيه واللاذقية من قبل البيزنطيين (عام ١١٠٤ م) مقدمة لاستردادهم انطاكية والاجهاز على الامارة النورمانية الناشئة التي اقامها هو وابن اخته تانكريد بالعرق والدم .وانطلاقاً من هذا التصور للموقف اعتقد بوهيموند أن الحل الوحيد للخروج من ذلك المأزق هو شن حملة جديدة ضد بيزنطة .

ولذا استدعى بوهيموند ابن اخته تانكريد من الرها(١) وعهد اليه بالوصاية على انطاكية(٢) ، في حين اجتمع بكبار رجالات أمارته ـ كنسيين وعلمانيين ـ في كنيسة القديس بطرس ، حيث شرح لهم الأخطار المحدقة بانطاكية وقال لهم : «ونحن لسنا إلا حفنة من الرجال تتناقص يوماً بعد يوم» ، ثم أعلن عن عزمه على الذهاب الى الغرب الأوروبي للحصول على المساعدة(٣) .

وكان أن تسلّل بوهيموند من بين القوات البيزنطية في خريف عام ١١٠٤ م في

---

(١) كان تانكريد وصيّاً على أمارة الرها ، وذلك لأن أميرها بلدوين دي بورج قد وقع أسيراً بيد الأتراك في موقعة حران سنة ١١٠٤ م وعندما توجه تانكريد الى انطاكية للوصاية عليها ثانية كلف ابن عمه وصهره ريتشارد دي سالرنو بالوصاية على الرها ريثما يُعتق بلدوين من الأسر .

انظر عن ذلك : M. Of Edessa, Chronique, p. 260.

(2) ANNA, The Alexiad, p. 297; William of tyre. Hist. of deeds., Vol. I, pp. 460-61; أيضاً

ابن العديم : زبدة ، ج٢ ، ص٥١٣ .

(3) Grousset, Hist. Des Croisades, vol. I, p. 415

خليج السويدية(٤) . وعندما وصل الى جزيرة كورفو، بعث برسالة الى الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين ـ عن طريق الحاكم البيزنطي لهذه الجزيرة ـ ملؤها الصلف والكبرياء ومقرونة بالتهديد الصريح للامبراطور واختتم بوهيموند رسالته قائلا : «وحالما أصل الى القارة المقابلة (اوروبا) سأجمع اللمبارديين واللاتين والألمان ومواطني الافرنج ، وأعود اليك مالئاً مدنك واقاليمك بجثث القتلى وبالدم ولن اتوقف حتى اغرس رمحي في بيزنطة نفسها(٥)» .

وفي يناير من العام ١١٠٥ م وصل بوهيموند الى أبوليا ، حيث قُوبل بحماسةٍ شديدة . واذا كان قد بعث سابقاً بخيمه كربوغا ـ بعد هزيمة الأخير امام انطاكية (١٠٩٨ م) ـ إلى كنيسة القديس نيقولا في باري ، فإنه في هذه المرة يعود الى ايطاليا حاملاً معه الكثير من الآثار المقدسة والذهب والفضة والهدايا التذكارية(٦) . ولذا احتشد الناس لمعاينته ، وعلى حد تعبير أحد المؤرخين المعاصرين «وكأنهم ذاهبون لرؤية السيد المسيح نفسه(٧) .

والواقع أن موقف الرأي العام الاوروبي عامة من الامبراطورية البيزنطية ـ في تلك الفترة ـ كان مشجعاً لبوهيموند في السير قدماً في مشروعه ، الذي يتلخّص في شن حملة «صليبية» ضد الامبراطورية البيزنطية . ذلك أنه ساد الاعتقاد في الغرب الأوروبي آنذاك أن الامبراطور الكسيوس كومنين هو المسؤول عن الصعوبات التي واجهت الحملة الصليبية الأولى ، وعن الكوارث التي ألَمّت بحملة عام ١١٠١ م ، فضلاً عن الخشونة التي كان يُعامل بها الحجاج الغربيون ـ احيانا ـ أثناء مرورهم بالأراضي البيزنطية . وعلاوة على ذلك كله فقد ساد الاعتقاد في الغرب الأوروبي بأن العاهل البيزنطي تحالف مع الأتراك ضد الصليبيين(٨) . وكان أن حاولت بيزنطة

---

(٤) انظر الرواية ، التي هي في حقيقتها مزيج من الاسطورة والحقيقة ، التي تطالعنا بها آنا كومنين حول الطريقة التي انسلّ بها بوهيموند من خليج السويدية :

ANNA, op. cit., pp. 292-98.

(5) ANNA, op. cit., p. 299.

(6) Yewdale, Bohemond I, p. 106.

(7) Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire, vol. II, p. 410; Yewdale, op. cit. p. 106.

(8) William of Tyre, op. cit., vol. I, pp. 470-71.

الدفاع عن نفسها - اكثر من مرة - أمام الغرب ازاء هذه الاتهامات ، ولعل أبرز مثال على ذلك هو ما حدث عند استقبال الامبراطور الكسيوس لاسقف برشلونة اللاتيني واسمه ماناسيس ، في القسطنطينية في أواخر عام ١١٠١ م وأوائل عام ١١٠٢ ، إذ طلبَ الكسيوس من هذا الأسقف اقناع البابا ببراءة بيزنطة من كل الاتهامات الموجهة اليها . وقد وعد الاسقف بذلك ، ولكن الأخير فعل العكس ، حيث قدّم تقاريراً عن خيانة الامبراطور البيزنطي للصليبيين وذلك في مجمع بينفنتو الذي عقد عام ١١٠٢م(٩) . وهكذا وجد بوهيموند الغرب مهيئاً لقبول حملته الدعائية وتصديقها ضد بيزنطة وضد امبراطورها الذي اعتبره بوهيموند اسوأ عدو للصليبيين ، وأن الاستيلاء على القسطنطينية يجب أن يكون هدفاً أساسياً لأي برنامج صليبي ينطلق مستقبلاً من الغرب(١٠) .

وقد مكث بوهيموند في ايطاليا منذ يناير عام ١١٠٥ م حتى فبراير من عام ١١٠٦ م . حيث تفقد خلال هذه الفترة ممتلكاته في ابوليا ، وأشرف على بناء اسطول لنقل القوات التي أمل في جمعها . ثم تجول في ايطاليا يحثّ المحاربين للانضمام الى حملته ضد بيزنطة . ولعل أهم ما قام به بوهيموند في هذه الفترة هو زيارته للبابا باسكال الثاني في روما . وكان الأخير لا يزال متأثراً بالتقارير التي سبق أن رفعها الأسقف ماناسيس عن خيانة البيزنطيين للحركة الصليبية ، ولهذا سرعان ما اقتنع بكل ما قاله بوهيموند حول خيانة الامبراطور الكسيوس للقضية الصليبية وحول ضرورة قيام حملة «صليبية» ضد البيزنطيين «المنشقين» . وهكذا خضع البابا للتيار المعادي لبيزنطة في ايطاليا وبارك مشروع بوهيموند ضد بيزنطة ، كما سبق أن بارك البابا جريجوري السابع مشروع جويسكارد - والد بوهيموند - ضد بيزنطة قبل ربع قرن من الزمن تقريبا . وقام البابا باسكال الثاني بتقديم راية القديس بطرس للزعيم النورماني بوهيموند ، وعينّ الأسقف برونو Bruno مندوباً بابوياً للتبشير بحملة بوهيموند ومساعدة الأخيرة في تنظيمها(١١) . ومن هذا يبدو أن حملة بوهيموند ضد الكسيوس

(9) Albert of Aix, in R. H. C. occ., vol. Iv, pp. 584-85.

(10) cam. med. Hist. vol. iv, p. 215.

(11) ANNA, The Alexiad, p. 318; Finlay, Hist. of Greece vol. III, p. 118; Vasiliev, op. cit., vol. II, p. 410; Yewdale, op. cit., p. 108; setton, op. cit., vol. I, p. 391'

كومنين لم تكن مجرد حركة سياسية ، لأنها تلقت موافقة وعطف البابوية ـ وهي احدى القوى الايطالية الرئيسية ـ واتخذت بذلك صفة الحملة الصليبية الموجهة ضد اعداء العقيدة ، ونستطيع القول بأن دعم باسكال الثاني لمشروع بوهيموند هذا يعتبر نقطة تحول خطيرة على صعيد العلاقات بين الكنيستين ـ القسطنطينية وروما ـ كما سنرى ذلك في فصل العلاقات الكنسية .

وفي مارس من عام ١١٠٦ م قام بوهيموند بزيارة فرنسا لجمع قوات لحملته ، وكان يرافقه المندوب البابوي ، فاستقبله الفرنسيون استقبالاً حافلاً . وخلال هذه الزيارة تحالف بوهيموند مع ملك فرنسا فيليب الأول على أساس المصاهرة(١٢) . ثم قام بوهيموند بجولة في ربوع فرنسا ، عقد خلالها المؤتمرات الشعبية ، واعتبر الكسيوس كومنين «وثنياً وعدواً للصليبيين»(١٣) ، وحث المحاربين الفرنسيين على مرافقته في الحملة ضد بيزنطة ومنّى احلامهم بالمدن الغنية التي سيمنحها لهم . وقد نجح بوهيموند نجاحاً ملموساً في كسب الجماهير الفرنسية ، حتى أن عداداً كبيرة من الجماهير التي شهدت مؤتمراته حملت الصليب على الفور «واتخذت طريقها الى بيت المقدس كما لو أنها تسرع لحضور وليمة طعام شهية أو مأدبة فاخرة»(١٤) .

ويحدثنا المؤرخ اللاتيني المعاصر فيتالس أن عدداً من النبلاء البيزنطيين رافقوا بوهيموند في جولته في الغرب الاوربي آنذاك . وكان أحد هؤلاء النبلاء يطالب بالعرش البيزنطي مدعّياً بأنه ابن الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينيوس (١٠٦٨ ـ ١٠٧١ م)(١٥) . وهذا يذكرنا بالراهب الذي اخترعه جويسكارد قبل ربع قرن من الزمن وجعل

---

(١٢) لقد تزوج بوهيموند ابنة الملك فيليب واسمها كونستانس Constance وخطب ابنة فيليب الصغرى واسمها سيسليا Cecilia الى ابن اخته تانكريد . وكان الملك فيليب قد انجب ابنته سيسليا سفاحاً من برترادا Bertrada من مونتفرات . وقد تم الاحتفال بزواج بوهيموند في مقاطعة شارتر بدعوة من ارملة الصليبي ستيفن كونت شارتر ، وحضر الاحتفال فيليب نفسه وذلك في ٢٥ مارس ١١٠٦م . انظر :

Orderic, op. cit., pp. 210-13; William of Tyre, op. cit., vol. I, pp. 460-61; Runciman, Hist. of the Crusades, vol. II, pp. 48-49; Finlay, op. cit., vol. III, p. 118.

(13) ANNA, The Alexiad. p. 300; Orderic, Historia, vol. 4, p. 212; William of Tyre, vol. I, pp. 460-61.

(14) Orderic, op. cit., vol 4, p. 213.

(15) Ibid., p. 212.

منه الامبراطور ميخائيل السابع ليبرر غزوه للامبراطورية البيزنطية (١٠٨١ ـ ١٠٨٥ م) .

وفي يونيو (حزيران) من عام ١١٠٦ م عقد مجمع في بواتيه Poitiers تحدث فيه المندوب البابوي برونو والزعيم النورماني بوهيموند لبث الحماس في المجتمعين للحملة «الصليبية» التي سيقودها بوهيموند . ويبدو أن اختيار بواتيه لعقد هذا المجمع كان هَادِفاً . وذلك لأن بواتيه هي قلب المقاطعة التي اشتركت اعداد هائلة من سكانها في صليبية عام ١١٠١ م ، ولذا فان العداء للامبراطور البيزنطي فيها قوياً(١٦) . ومن بواتيه اتخذ بوهيموند طريقه عائداً الى أبوليا وبرفقته الاعداد الهائلة التي استجابت لدعوته ، حيث وصلها في اغسطس من نفس العام (١١٠٦ م)(١٧) .

فإذا تركنا بوهيموند يتأهّب لعبور الادرياتي ، لنرى موقف الامبراطورية من العاصفة التي أثارها بوهيموند ضدها في ايطاليا والغرب الاوروبي ، وبالتالي استعدادات بيزنطة لمواجهة الحملة النورمانية الجديدة ، لوجدنا أن العاهل البيزنطي الكسيوس كومنين اتخذ عدة اجراءات ـ سياسية وعسكرية ـ لمواجهة حملة بوهيموند فعلى الصعيد السياسي بعث برسائل عديدة الى الجمهوريات الايطالية ـ بيزا وجنوه والبندقية ـ يحثهم فيها على عدم الانضمام الى بوهيموند في مشروعه (١٨) . كما قام الامبراطور ـ كما تخبرنا ابنته آنا ـ بالتوسط لدى الخليفة الفاطمي في مصر للافراج عن /٣٠٠/ من الأسرى الفرنج (الصليبيين) المحتجزين في القاهرة . ونجح الكسيوس في هذا السبيل ، فحضر الأسرى الى القسطنطينية ، واعربوا عن شكرهم للامبراطور الذي رحّب بهم وأكرمهم ، ومن ثم بعثهم الى بلادهم على نفقته بغية دحض الأقاويل التي يروجها بوهيموند في الغرب الأوروبي ، وتقديم صورة صادقة عن معاملة الكسيوس للفرنجة في الشرق . ويبدو أن هؤلاء الأسرى قاموا بهذه المهمة التي كلفوا بها (١٩) .

(16) Yewdale, op. cit., pp. 111-12.

(17) William of tyre, op. cit., vol. I, p. 461.

(18) ANNA, The Alexiad, p. 300; Heyd, Hist. du Commerce, vol. I, p. 192; Finlay, Hist. of Greece vol. III, p. 118.

(19) ANNA, op. cit., pp. 301-302; Finlay, op. cit., vol. III, p. 118.

أما على الصعيد العسكري، فان الامبراطور استدعى القوات الامبراطورية المرابطة في قيليقيه واللاذقية بعد أن ترك حاميات في تلك المنطقة (٢٠) . وتخبرنا المصادر العربية ان الكسيوس كومنين طلب مساعدة عسكرية من السلطان قليج ارسلان لمواجهة بوهيموند ، ولبى السلطان طلبه وبعث اليه بقوات من اتباعه (٢١) .

كما قام الامبراطور الكسيوس بعزل حاكم مدينة دورازو ـ وهو يوحنا بن اسحق كومنين ، شقيق الامبراطور ـ وعينّ مكانه الابن الثاني لاسحق هذا واسمه الكسيوس . وطلب الامبراطور من الحاكم الجديد تحصين مدينة دورازو وكافة المدن الموجودة على ساحل الليريا (٢٢) . كما طلب منه مراقبة السواحل وألا يسمح لبوهيموند بالعبور (٢٣) . كذلك عين الامبراطور الضابط اسحق كونتو ستيفانوس قائداً للقوات البحرية البيزنطية العاملة في الادرياتي . وكلفه بحراسة جميع المضائق والممرات البحرية ما بين ابوليا واليريا ، وهدده بقلع عينيه اذا فشل في احباط محاولات بوهيموند في عبور الأدرياتي الى الليريا (٢٤) .

على أن بوهيموند لم يكن مستعداً لعبور الادرياتي قبل خريف عام ١١٠٧م . وخلال ذلك الوقت شنّ قائد القوات البحرية البيزنطي ـ كونتو ستيفانوس ـ هجوماً فاشلاً على مدينة اوترانتو (التي كانت من أملاك بوهيموند في ابوليا) ولكنه اضطر في النهاية الى التقهقر مخذولاً إلى آفالونا (٢٥) . وخلال ذلك الهجوم قبض النورمان على ستة من المرتزقة الذين كانوا يخدمون في القوات البحرية البيزنطية (٢٦) ، وجلب بوهيموند

(20) ANNA, op. cit., p. 302.

(٢١) قال ابن القلانسي : «كان قليج ارسلان قد انفذ بعض مقدمي اصحابه الى بلاد الروم في خلق كثير من التركمان لانجاد ملك القسطنطينية على بيمند (بوهيموند) ومن معه من الافرنج» . كما أورد ابن الاثير هذه الحقيقة ايضا . انظر : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٨ ؛ ابن الاثير : الكامل ، ج١٠ ، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦ .

(22) ANNA, op. cit., p. 302; Finlay, op. cit., vol. III, pp. 118-19.

(23) ANNA, op. cit., pp. 316-17.

(24) Loc. cit.

(٢٥) تشكك المؤرخة آنا كومنين في كفاءة كونتو ستيفانوس ، وتحمّله مسؤولية هذا الهجوم ونتائجه وذلك لأنه كان يجهل الطرق المؤدية ما بين الليريا وجنوب ايطاليا . فضلاً عن كونه قد تجاهل أوامر الامبراطور .

انظر : ANNA, op. cit., pp. 317-19.

(٢٦) يقول المؤرخ فانلاي : «ربما كان هؤلاء الأسرى من البجناك أو الغز أو الكومان أو من الأتراك الذين يعيشون في =

هؤلاء الأسرى بكامل أسلحتهم الى البابا باسكال الثاني ليثبت له بالدليل القاطع بأن الامبراطور البيزنطي عدو للمسيحيين وأنه يتحالف مع «البرابرة» ضدهم(٢٧) .

وفي سبتمبر من عام ١١٠٧م انطلق بوهيموند بقواته عبر الادرياتي باتجاه الساحل الالباني . وقد اختلف المؤرخون المعاصرون في تقديم حجم قوات بوهيموند . فالمؤرخة البيزنطية آنا كومنين لا تُعطى رقماً معّيناً لهذه القوات وانما تكتفي بالقول بأن اسطول بوهيموند يحتوي على /١٢/ سفينة للقرصنة ، فضلاً عن اعدادٍ كثيرة من السفن الأخرى التي تحمل جيشاً هائلا(٢٨) . أما المؤرخ العربي ابن القلانسي فقد قال : «وفي هذه السنة (٥٠٢هـ) وصل صاحب انطاكية من بلاد الافرنج عائداً الى مملكته في خلق كثير(٢٩) . وقال ابن العديم أيضاً : «وخرج بيمند (بوهيموند) من بلاده ومعه خلق عظيم(٣٠) . أما المؤرخ الصليبي وليام الصوري فقد قدّرها بخمسة آلاف من الفرسان ، وأربعين الفاً من المشاة(٣١) . أما المؤرخ اللاتيني البرت من اكس فقد قال بأنها تتألف من /١٢/ ألفاً من الفرسان و/٦٠/ ألفاً من المشاة(٣٢) . أما المؤرخ المجهول لمدينة باري فقد قال بأن اسطول بوهيموند يتألف من مائتي سفينة ـ بين كبيرة وصغيرة ـ اضافة الى /٣٠/ سفينة حربية والجيش كله ـ بين مشاة وفرسان ـ يتألف من /٣٤/ ألفاً من المحاربين . وتميل الدراسات الحديثة الى قبول رواية المؤرخ المجهول الأخيرة وتعتبرها أقرب الروايات الى الحقيقة التاريخية(٣٣) . أما بالنسبة للعناصر التي تألّف منها جيش بوهيموند ، فيبدو من المحتمل أن الجزء الأعظم من

= أخريدا ، وربما كانوا مسيحيين ولكن لباسهم واسلحتهم تختلف تماماً عماّ يُستعمل في الغرب الاوروبي آنذاك . انظر :
Finlay, op. cit. III, p. 119.

(27) ANNA, The Alexiad, p. 318.

(28) Ibid., pp. 319-320.

(٢٩) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٤ .

(٣٠) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٥١٧ ـ ٥١٨ .

(31) William of Tyre, op. cit., vol. p. 471.

(32) Albert of Aix, in R. H. C. occ. vol. iv, p. 650.

(33) Finlay, op. cit., vol. III, p. 119; Chalandon, Alexis, p. 243; Yewdale, op. cit., p. 116; Setton, op. cit., vol. I, p. 391.

هذا الجيش كان من فرنسا وايطاليا(٣٤) ، وان كان من الأرجح أن هذا الجيش ضمّ عناصر انكليزية والمانية واسبانية(٣٥) .

وبهذا الجيش عبر بوهيموند الادرياتي (في سبتمبر من عام ١١٠٧م) في اتجاه مدينة آفالونا ـ الواقعة على الساحل الشرقي للادرياتي ـ وعندما سمع القائد البيزنطي كونتوستيفانوس ـ المرابط في آفالونا ـ بقدوم بوهيموند تملكّه الرعب وادعى المرض ، فانسحب من المدينة تاركاً القيادة للاندولف . ولكن ما لبث الأخير أن أدرك عجزه عن اعتراض الاسطول النورماني ، فانسحب من المدينة ، الأمر الذي ساعد بوهيموند على سرعة احتلال مدينة آفالونا دون أية مقاومة في ٩ أكتوبر (١١٠٧م)(٣٦) . وخلال أيام قليلة اكتسح الجيش النورماني جميع المدن الساحلية الممتدة من آفالونا حتى دورازو شمالاً وبدأ بوهيموند بحصار المدينة الأخيرة في ١٣ أكتوبر ١١٠٧م(٣٧) .

أما الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين فلم يلبث أن غادر القسطنطينية(٣٨) على رأس قواته(٣٩) لمواجهة الغازي النورماني(٤٠) في شهر نوفمبر (١١٠٧م) . وبعد أن قضى

(34) Albert of Aix, in R. H. C. occ. vol. iv, p. 650.

(35) ANNA, The Alexiad, p. 320.

(36) ANNA, op. cit., pp. 319-20; William of Tyre, op. cit., vol. I, p. 471; Albert of Aix, op. cit., p. 650; Finlay, op. cit., vol. III, p. 119; Chalandon, Alexis, p. 243; Ostrogorsky, op. cit., p. 324; setton, op. cit., vol. I, p. 391; Cam. Med. Hist. vol. iv, pp. 215-16.

(37) ANNA, op. cit., p. 320; William of tyre, op. cit., vol. p. 471; Albert of Aix, op. cit., p. 650; Roger Wendover, op. cit., vol. II, p. 462.

(٣٨) عندما علم حاكم دورازو ـ الكسيوس بن اسحق كومنين ـ بنبأ عبور بوهيموند بعث رسولاً على جناح السرعة لابلاغ الامبراطور بذلك ، ولقد التقى هذا الرسول بالامبراطور ، وكان الأخير قد وصل لتوه من الصيد وصاح الرسول بصوت عالٍ «لقد عَبَرَ بوهيموند» ، وتقول آنا كومنين أن جميع من كانوا حول الامبراطور في هذه اللحظة قد روعوا ووقفوا دون حركة كأنما على رؤوسهم الطير ، ولكن الامبراطور قال ـ وهو يحلّ رباط حذائه ـ «دعنا الآن نذهب للغداء ، وبعد ذلك سننظر بأمر بوهيموند» انظر رواية آنا في هذا الصدد :

ANNA, The Alexiad, p. p. 320-21.

(٣٩) ان المصادر المعاصرة لا تُعطي تقديراً لحجم قوات الكسيوس ، فالمؤرخة آنا كومنين لا تشير الى ذلك اطلاقاً ، ولكن المؤرخ اللاتيني البرت من اكس يذكر أن جيش الكسيوس يتألف معظمه من الاغريق والأتراك والكومان والبنجاك . انظر :

Albert of Aix, op. cit., p. 651.

(٤٠) اشار ابن القلانسي الى خروج الكسيوس لمواجهة بوهيموند بقوله : «وفي هذه السنة (٥٠٢هـ) وصل بيمند صاحب انطاكية من بلاد الافرنج عائدا الى مملكته في خلق كثير ، ونزل بالقرب من القسطنطينية ، وخرج ملكها إليه ومعه =

الشتاء في مدينة تسالونيكا ، اعاد خلاله النظر بقواته وأعدها للقتال ، توجه في بداية ربيع العام التالي (١١٠٨م) الى دورازو ، وضرب معسكره أخيراً في مدينة ديابوليس - قرب دورازو - متخذا منها مقراً له خلال الحرب (٤١) .

ومنذ أن وصل بوهيموند الى مدينة دورازو ، فرض الحصار عليها ، وحاول اقتحامها مستخدماً الأبراج وآلات دك الاسوار ، الا أن محاولته هذه باءت بالفشل بسبب مناعة المدينة وشجاعة سكانها(٤٢) . وعندما وصل الكسيوس كومنين في الربيع (١١٠٨م) الى ديابوليس ، لم يدخل في معركة مباشرة مع بوهيموند ، كما فعل ذلك قبل ربع قرن مع جويسكارد وفي نفس المكان ، حتى لا يتعرض لنفس المصير من الهزيمة ، وإنما قام باحتلال الجبال والتلال المحيطة بالقوات النورمانية والمرابطة حول دورازو ، ووزع قواته عليها توزيعاً استراتيجياً ، بهدف منع أية محاولة من الجانب النورماني للتوغل الى الداخل(٤٣) .

وهكذا التقى النورمان بالبيزنطيين للمرة الثانية - بعد ربع قرن - في نفس المكان ولنفس الاهداف . ولكن الفارق الوحيد هو أن وضع الامبراطور البيزنطي هذه المرة اقوى مما كان عليه عام ١٠٨١ - ١٠٨٥م . ودارت المعارك بين الجانبين في البر والبحر (٤٤) إلا أنها لم تكن معارك حاسمة ، ففي البر أوقعت الفرق البيزنطية عدة هزائم بالقوات النورمانية وأخذ ميزان القوى يتحوّل لصالح البيزنطيين تدريجياً(٤٥) . وفي

= خلق كثير من التركمان المجاورين له ..» . انظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٤ .

(41) ANNA, op. cit., pp. 323-26, 331; William of Tyre, op. cit., vol. I, p. 471.

(42) ANNA, The Alexiad, pp. 327-331.

(43) Ibid., p. 331.

(44) ANNA, op. cit. pp. 334-38; Albert of Aix, op. cit., p. 651.

(٤٥) في الوقت الذي كانت القوات البيزنطية تقاتل بشراسة القوات النورمانية كان الامبراطور الكسيوس يقود بمفرده - من مقره في ديا بوليس - معركة دبلوماسية ونفسية . حيث كتب رسائل الى كبار قادة جيش بوهيموند مصاغة بشكل يفهم منها أنها أجوبة لرسائل سبق أن بعثها هؤلاء القادة الى الامبراطور . وفي هذه الرسائل يُعرب الكسيوس عن شكره لهم ويلمح بالمنح والهدايا التي سيقدّمها لهم اذا تخلوا عن بوهيموند . وفي نفس الوقت بعث الامبراطور برجل الى بوهيموند مدّعياً بأنه هارب من الخدمة بالجيش البيزنطي ، وأن يقوم هذا المدّعي بابلاغ بوهيموند عن الرسائل المتبادلة بين قادته والامبراطور ... الخ . وكان الهدف من هذه الأساليب تمزيق وحدة الجيش النورماني ، إلا أنها لم تكن ناجحة في أكثر الأحيان .

انظر تفاصيل ذلك عند آنا كومنين : ANNA, op. cit., pp. 332-34.

البحر كانت المعارك بين الاسطولين البيزنطي والنورماني لصالح بيزنطة بكل تأكيد . وكان الكسيوس قد عزل القائد اسحق كونتو ستيفانوس عن قيادة الاسطول وعينّ مكانه ماريانوس مافروكتكلان ، الذي نجح نجاحاً تاماً في قطع جميع الاتصالات بين بوهيموند وجنوب ايطاليا ، بحيث لم تتمكن أية سفينة نورمانية من الوصول الى المعسكر النورماني حول دورازو(٤٦) . يضاف الى ذلك أن اسطولاً بندقياً ـ تحت قيادة الدوج اورديلافوس فاليترو ـ كان يعمل جنبا الى جنب مع الاسطول البيزنطي في الادرياتي لفرض الحصار على القوات النورمانية(٤٧) .

ولم يلبث أن أخذ الاضطراب يدب في المعسكر النورماني في صيف ١١٠٨م للأسباب التالية : ـ

أولاً : فشلُ جميع محاولات بوهيموند في اقتحام مدينة دورازو بسبب مناعتها وشجاعة سكانها الذين استخدموا النار الاغريقية وأحرقوا أدوات الحصار التي يستخدمها بوهيموند .

ثانيا : انتشار المجاعة والعوز الشديدين بين قوات بوهيموند بسبب نفاذ المنطقة التي رابطوا فيها من المواد الغذائية وعدم تمكنهم من التوغل الى الداخل بسبب سيطرة القوات البيزنطية على جميع الطرق والمسالك فضلاً عن عدم وصول أية امدادات أو مؤن للقوات النورمانية من ايطاليا بسبب الحراسة المشدّدة التي فرضها الاسطولان البندقي والبيزنطي .

ثالثا : بدأت الأوبئة والامراض في الانتشار بسبب المجاعة التي ألمت بقوات بوهيموند ، وخاصة مرض الدوسنطاريا بسبب تناولهم لبعض النباتات الضارة(٤٨)

وفي وسط تلك الظروف بدأ التذمر يسود المعسكر النورماني ، ودبّ اليأس والقنوط بين القادة النورمان وقدّر هؤلاء هول الكارثة التي سينتهي اليها الموقف ، فأخذ بعضهم في الفرار الى المعسكر الامبراطوري خوفاً من الهلاك جوعاً(٤٩) . وأدرك بوهيموند

(46) ANNA, The Alexiad, pp. 339-41.

(47) Hodgson, Venice, p. 245; Heyd, op. cit., vol. I, p. 192.

(48) ANNA, op. cit., pp. 327-31, 341.

(49) ANNA, The Alexiad, pp. 342; Orderic, Historia, Vol. iv, p. 241; Albert of Aix, p. 652.

نفسه ـ بعد أحد عشر شهراً بائسة ـ استحالة فتح دورازو والتقدم الى الداخل ونزولاً عند نصيحة كبار ضباطه قرر التقدم بمبادرة لعقد معاهدة سلام مع الامبراطور البيزنطي(٥٠) .

وكان أن تقدم بوهيموند بمبادرته في شهر سبتمبر (١١٠٨م) ، وبعد تبادل العديد من السفارات بين الطرفين(٥١) قَدِمَ بوهيموند بنفسه الى مقر القيادة في مدينة ديابوليس ، حيث يقيم الامبراطور الكسيوس كومنين ، ووقع الطرفان في النهاية معاهدة عُرفت بمعاهدة ديابوليس (ديفول) عام ١١٠٨م(٥٢) . ويمكن ايجاز أهم بنود هذه المعاهدة بالنقاط التالية(٥٣) :

١) تبدأ المعاهدة بنسخ الاتفاقية التي وُقِّعت بين الكسيوس وبوهيموند عام ١٠٩٧م في القسطنطينية ـ اثناء عبور الأخير الى بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى ـ بسبب تغير الظروف .

٢) اعتبر بوهيموند نفسه فصلاً تابعاً للامبراطور الكسيوس ولولي عهده ، ابنه يوحنا ، من بعده .

٣) يجب على بوهيموند ان يحمل السلاح ضد اعداء الامبراطور ، وأن يقدم لمساعدته بكل قواته وبشخصه اذا كان في وضع يسمح له بذلك .

٤) أن لا يحتفظ بوهيموند بأراضي تخص الامبراطورية ، ما عدا تلك التي فُتحت له من قبل الامبراطور .

---

(50) Orderic, op. cit., pp. 241-42; Albert of Aix, op. cit., p. 652.

(٥١) انظر تفاصيل المفاوضات التمهيدية ، قبل التوقيع على المعاهدة ، عند آنا كومنين :

ANNA, op. cit., pp. 243-46.

(٥٢) لقد تمّ توقيع هذه المعاهدة في وثيقتين ، إحداهما وقّعها بوهيموند وسُلمت الى الكسيوس ، بينما وقِّعت الثانية من قبل الكسيوس وسُلّمت الى بوهيموند . ان الوثيقة الأولى التي سُلمت الى الكسيوس ، والتي تحتوي التزامات بوهيموند تجاه الامبراطور قد احتفظت لنا بها كاملة المؤرخة آنا كومنين في مؤلفها «الالكسياد» . أما الوثيقة الثانية ، والتي تحتوي المنح والامتيازات التي قدّمها الامبراطور لبوهيموند قد فُقدت ، ولكن يمكننا أن نستنتج بعض محتويات الوثيقة المفقودة من خلال نص الوثيقة الأولى الموجودة في الالكسياد ومن الفقرات المتناثرة الموجودة في المصادر الغربية المعاصرة . انظر مناقشة هذه النقطة عند شالندون :

Chalandon, Alexis, pp. 246 ff.

(٥٣) انظر النص الكامل للمعاهدة في الالكسياد :

ANNA, The Alexiad, pp. 348 — 58.

٥) ان يسلّم بوهيموند الأراضي التي كانت سابقاً تخص الامبراطورية ، والتي فُتحت من قبله ، ما لم يسمح الامبراطور له بالاحتفاظ بها .

٦) ألا يدخل بوهيموند في أي تحالفٍ يضر بمصالح الامبراطور ، وألا يصبح فصلا لأي سيد آخر بدون موافقة الامبراطور ، وألا يأوي رعايا الامبراطور الفارين الذين يلتجأون اليه ، بل يجب أن يجبرهم بالقوة على العودة الى تبعية الامبراطور(٥٤) .

٧) ان الأراضي التي لم تكن مطلقاً جزءاً من الامبراطورية ، والتي كسبها بوهيموند بأية وسيلة ، يجب أن يحتفظ الأخير بها كما لو أنها منحت له من قبل الامبراطور .

٨) تعهد بوهيموند أن يؤدي جميع المرافقين له في هذه الحملة يمين الولاء والطاعة للامبراطور ، قبل أن يسمح لهم بالعودة الى ايطاليا ، وتعهّد بأن يؤدي جميع افصاله في الشرق اللاتيني يمين الولاء للامبراطور أمام المندوب الذي يبعثه الأخير لهذا الغرض .

٩) وعد بوهيموند بأن يحارب ابن اخته تانكريد فيما اذا لم يتخل الأخير عن كل الأراضي ، ما عدا تلك التي منحت له من قبل الامبراطور بمرسوم امبراطوري .

١٠) يجب على بوهيموند ألا يضايق المسلمين الذين يرغبون في أن يصبحوا رعايا الامبراطورية البيزنطية ـ ما عدا أولئك الذين تم اخضاعهم بالقوة سابقاً ـ والذين يبحثون عن الأمن والحماية لدى الامبراطور .

١١) يجب أن يكون على بطريركية انطاكية بطريرك بيزنطي يعينه الامبراطور وليس بطريركا لاتينياً .

وفي مقابل ذلك منح الامبراطور لبوهيموند عدداً من المدن والأراضي تم ذكرها بالتفصيل في نص المعاهدة كما نصت المعاهدة على فصل عدد هام من المدن والمواقع عن امارة انطاكية ، وقد ذكرت في نص المعاهدة ايضا بشكل مفصل(٥٥) . ونتيجة

---

(٥٤) ولقد تضمنت بعض المراجع الحديثة بعض فقرات من هذه المعاهدة . انظر مثلاً :
Finlay, hist, of Greece, Vol. 111, pp. 122 — 23; Chalandon, Alexis, pp. 246 — 49; Yewdale, Bohemond, pp. 127 — 30; Vasiliev, Hist. of The Byzantine Empire, vol. 11, p 411; Setton, Hist. of the Crusades, vol. 1, p. p. 391.

(٥٥) انظر اسماء المدن والمواقع التي منحها الامبراطور لبوهيموند والمناطق التي تم فصلها عن انطاكية عند المؤرخة آنا كومنين :

ANNA, op. cit., pp. 354 — 55.

لتوسلات بوهيموند أضيف ملحق الى المعاهدة تضمن اعادة بعض المناطق والحاقها بانطاكية كتعويض عن المناطق والمدن التي تم فصلها عن انطاكية ، وقد ذُكرت بالتفصيل ايضا(٥٦) .

واختتمت الوثيقة بقسم بوهيموند «على خشبة الصليب وحربة السيد والأناجيل المقدسة بأن يكون وفياً لكل شروط الاتفاقية» . وتجدر الاشارة الى أن عدداً من الشخصيات الايطالية قد شهدت مراسيم توقيع هذه المعاهدة مثل موروس Mouros ، اسقف أمالفي ، الذي كان مندوباً عن البابا باسكال الثاني ، والذي وقّع في اسفل الوثيقة كشاهد على كل ما ورد فيها(٥٧) .

أما الوثيقة التي تسلّمها بوهيموند من الكسيوس فانها تشمل الاقطاعات التي منحها الأخير للأمير النورماني ، والتي وردت في نص الوثيقة التي عرضنا ملخصها قبل قليل اعتماداً على النسخة الموجودة في الالكسياد . إلا أن المؤرخين : البرت من اكس ووليام الصوري ـ وإن كان الأخير ينقل عن الأول ـ يؤكدان أن الامبراطور البيزنطي وعد بوهيموند بتأمين سلامة وأمنْ جميع الحجاج الذين سيعبرون أراضيه في طريقهم الى بيت المقدس ، وأن يقدّم لهم الارشاد والعون «دون خداع» وأنه لن يسمح بأي عائق يُوضع في طريقهم(٥٨) . ويبدو أن بوهيموند تشدّد في ادخال هذه الفقرة في الوثيقة وذلك لكي يظهر أن السبب في حملته ضد بيزنطة لم يكن اطماعه الشخصية وإنما لايجاد حل للمعاملة السيئة التي يعانيها الصليبيون خلال الامبراطورية . او بتعبير آخر إيجاد حل للمسألة الصليبية في الأرض البيزنطية . ولا ندري فيما اذا تمّ ادخال هذه الفقرة بايحاء من المندوب البابوي أو من الصليبيين المرافقين لحملة بوهيموند أو من الأخير بالذات .

وبهذه المعاهدة التي أذلّت الزعيم النورماني ، انتهت مغامرات الأخير في الشرق ، فبعد أن أنعم عليه الامبراطور ببعض ألقاب التشريف وسلمه مبلغاً من

---

(٥٦) انظر اسماء المواقع التي تضمنها الملحق عند :

ANNA, op. cit., pp. 355 — 56; chalandon, Alexis, p. 248.

(57) Anna, the Alexiad, pp. 356 — 58; William of Tyre, Hist. of deeds, vol. 1, pp. 471 — 72; Finlay, op. cit., Vol., 111, p. 123.

(58) Albert of Aix, op. cit., p. 652; William of Tyre, op. cit., vol. 1, pp. 71 — 72.

المال ، لم يتجه بوهيموند الى انطاكية ، وانما اتجه بعد توقيع المعاهدة الى اوترانتو مباشرة(٥٩) . بينما انفرط عقد قواته حيث عاد قسم منها الى أوطانها وقسم آخر اتجه الى بيت المقدس(٦٠) .

على أن معاهدة ديابوليس هذه ، كانت حبراً على ورق ففي الوقت الذي كان فيه الصراع على أشدّه بين بوهيموند والكسيوس أمام دورازو ، وفي الوقت الذي كان فيه الأخيران يوقّعان المعاهدة الآنفة الذكر ، كان الأمير النورماني تانكريد قد انتزع ثانية معظم قيليقيه من البيزنطيين ، فضلاً عن اللاذقية وجبلة وبانياس وغير ذلك من المناطق والمواقع التي تدعي بيزنطة بامتلاكها في شمال الشام ، وذلك في أواخر عام ١١٠٧م وأوائل عام ١١٠٨م(٦١) .

وقد بعث الامبراطور البيزنطي ـ في العام التالي على معاهدة ديابوليس (١١٠٩م) ـ وفداً الى انطاكية ، يطالب تانكريد بتنفيذ معاهدة ديابوليس (١١٠٨م) ، ولكن تانكريد قابل مطالب الامبراطور بالازدراء وذكر العاهل البيزنطي بأقذع الالفاظ وسخر من البيزنطيين واعتبرهم «غلاً وأضعف من كل المخلوقات على الأرض»(٦٢) . وبذلك فشلت جهود الكسيوس في تنفيذ المعاهدة . وما أشبه اليوم بالبارحة فعام ١٠٩٩ رفض بوهيموند تنفيذ معاهدة القسطنطينية لعام ١٠٩٧م واعادة انطاكية للامبراطورية . وفي عام ١١٠٩م رفض تانكريد الخضوع أو الاعتراف بمعاهدة ديابوليس وكان على الكسيوس كومنين أن يبدأ من جديد .

وكان أن عقد الامبراطور البيزنطي اجتماعاً لمجلس الشيوخ البيزنطي لمناقشة خطة مفادها القيام بحملة على انطاكية لتقليم اظافر تانكريد واستعادة حقوق بيزنطة . إلا

---

(٥٩) لقد عاد بوهيموند بعد توقيع المعاهدة مباشرة الى أوترانتو (سبتمبر ١١٠٨م) وعاش سنوات ثلاث كأمير مغمور في ايطاليا وفي مارس من عام ١١١١م توفي الزعيم النورماني بوهيموند في أبوليا تاركاً ولداً وحيداً وهو بوهيموند الثاني من زوجته كونستانس ابنة ملك فرنسا فيليب الأول . انظر حول ذلك :
William of Tyre, 1, p. 472.
(60) Albert of Aix, in R. H. C. occ. vol. iv, p. 652; William of tyre, op. cit., vol. 1, pp. 471 — 72; Anna, op. cit., p. 359;
Orderic, op. cit., vol. iv, p. 258;
Finlay, op. cit., vol. 111, p. 123.
(61) ANNA, op. cit., pp. 262 — 304;
Chalandon, Alexis, pp. 250 — 5[illegible] Setton, op. cit., vol. 1, pp. 382, 398.
(62) ANNA, op. cit., p. 363.

ان المجلس رفض هذا المشروع ، مبدئياً ، وقرر استخدام الدبلوماسية في معالجة المسألة الانطاكية . واتُفق في هذا الاجتماع على أن تجرى اتصالات مع الأمراء الصليبيين في الشام في محاولة لكسب تأييدهم لمشروع الحملة البيزنطية المقترحة ضد تانكريد . وبالفعل أرسلت سفارة بيزنطية عام ١١١١م ، برئاسة مانويل بوتوميتس ، الى الشام ، وزُودت بالاموال اللازمة للحصول على دعم الأمراء الصليبيين وتأييدهم ، ولكن فشلت هذه السفارة في مهمتها فشلاً ذريعاً(٦٣) .

ويخبرنا المؤرخ ابن القلانسي أن الامبراطور الكسيوس بعث (عام ١١١١م) بسفارة الى بغداد تحمل الكثير من الهدايا والتحف ورسائل إلى الخليفة العباسي المستظهر ، ومضمون هذه الرسائل تحريض الخليفة على قصد الافرنج «والايقاع بهم والاجتماع على طردهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم»(٦٤) . على أن محاولة الكسيوس هذه في التحالف مع العرب المسلمين ضد تانكريد لم تؤد الى نتيجة .

وفي العام التالي (١١١٢م) توفي الأمير النورماني تانكريد(٦٥) ، وكانت وفاته نهاية مرحلة هامة في العلاقات بين أمارة انطاكية النورمانية والامبراطورية البيزنطية . ولم يكن بإمكان بيزنطة الاستفادة من الفراغ الذي تركته وفاة تانكريد بحكم تفاقم الصراع بينها وبين الاتراك في آسيا الصغرى في ذلك الدور حتى أن الامبراطور الكسيوس كومنين (١٠٨١ ـ ١١١٨م) صرف السنوات الأخيرة من حياته في مواجهة الخطر التركي(٦٦) .

وقبل ان نختتم حديثنا عن حملة بوهيموند ضد بيزنطة ونتائجها ، يجدر بنا أن نشير الى موقف القوى الايطالية من هذه الحملة . ولعله من الواضح من خلال دراستنا لهذه الحملة أن موقف البابوية كان واضحاً ، وأن البابا باسكال الثاني أيد حملة بوهيموند الصليبية ، مما صار له تأثير كبير على العلاقة بين الكنيستين . كما أننا أشرنا الى موقف جمهورية البندقية من هذه الحملة ، وكيف بعثت باسطولها ، تحت قيادة الدوج

---

(63) ANNA, op. cit., pp. 363 — 67.

(٦٤) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٣ .

(٦٥) أنظر المديح الذي كاله المؤرخ الارمني متى الرهاوي إلى تانكريد بمناسبة حديثه عن وفاته :
M. of Edessa, op. cit., p. 282.

(66) ANNA, the Alexiad, pp. 368 — 71, 390 ff.

نفسه ، لمساعدة بيزنطة ضد الحملة النورمانية . في حين اتخذت جمهورية جنوه موقفاً حيادياً ، بحيث لا يوجد هناك ما يشير الى اشتراكها بجانب أي من الطرفين المتنازعين . واتخذت جمهورية بيزا موقفاً متناقضاً ، ففي الوقت الذي التزمت فيه بالحياد بالنسبة للحملة ، ولم تقدم أي دعم لأي من الطرفين ، إلا أن اسطولها في ذات الوقت كان يساعد تانكريد في انتزاع اللاذقية من البيزنطيين (اوائل ١١٠٨م) مقابل بعض الامتيازات التي منحها تانكريد للبيازنة في اللاذقية(٦٧) .

(67) Runciman, Hist. of The crusades, vol. 11, p. 54.

الفصل الثالث

حملة يوحنا كومنين ضد نورمان انطاكية عام ١١٣٧م

تُوفي الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين عام ١١١٨م ، وخلفه على العرش ابنه يوحنا كومنين (١١١٨ ـ ١١٤٣)(١) . واستمرت سياسة الأخير الخارجية في نفس الاتجاه الذي سلكه والده(٢) ، والذي كان قد حدّد المشاكل الهامة ـ الأوروبية منها والآسيوية ـ التي تهم الامبراطورية في تلك الفترة . وكانت المسألة الانطاكية أولى القضايا التي كان على الامبراطور الجديد تحديد موقفه منها ، خاصة وقد فشل والده ـ عسكرياً ودبلوماسياً ـ في حلها . إلا أن يوحنا كومنين واجه ظروفاً داخلية ودولية معقدة ، بحيث لم يكن بامكانه التفرغ لمعالجة المسألة الانطاكية قبل مضي عقدين من الزمن على اعتلائه العرش . وخلال هذه الفترة تعرضت أمارة انطاكية النورمانية لفترة من الاضطرابات الداخلية انعكست على علاقة هذه الأمارة ببيزنطة ، ولذا نجد لزاماً علينا استعراض الخطوط الرئيسية لهذه الأمارة في ذلك الدور .

والواقع أن وفاة تانكريد (١١١٢م) جاءت نهاية للحقبة البطولية(٣) التي وضع اساسياتها خاله بوهيموند بن جويسكارد . وسرعان ما ألّمت الاضطرابات الامارة بسبب تعدد فترات الوصاية عليها من قبل امراء ليسوا من البيت النورماني من جهة وبسبب الصراع على السلطة ومشكلة الوراثة من جهة أخرى . وكان تانكريد ، وهو على فراش الموت ، قد عهد الى ابن عمه روجر بن ريتشارد دي سالرنو بالوصاية على

---

(1) M. Of Edessa, Chronique, P. 200; William Of tyre, Op. Cit., Vol. I P. 523.

(٢) اشار ابن القلانسي إلى سياسة يوحنا كومنين بقوله : «وعمل يوحنا بسيرة أبيه» . انظر : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص١٩٩ .

(٣) لقد اعترفت المؤرخة آنا كومنين ـ العدوة اللدودة للبيت النورماني ـ بالدور البطولي الذي لعبه تانكريد بقولها : «لقد كان تانكريد أقوى من كل الرجال المعاصرين له ، فضلاً عن أنه واحد من أعظم الرجال خبرة في شؤون الحرب» انظر : Anna, The Alexiad, PP. 303— 304.

امارة انطاكية(٤) ، ريثما يبلغ ابن خاله بوهيموند الثاني(٥) ابن بوهيموند بن جويسكارد سن الرشد ويأتي الى الشرق للحصول على تركة أبيه(٦) . وبالفعل تولى روجر سالرنو الوصاية على الامارة حوالي سبع سنوات (١١١٢ ـ ١١١٩م) . والشيء الهام ـ بالنسبة لموضوعنا ـ في فترة حكم روجر سالرنو هذا أن الأخير استقبل سفيراً بيزنطياً (١١١٩م) موفداً من الامبراطور يوحنا كومنين واسمه رافنديnوس Revendinos وكانت مهمة الأخير طلب يد ابنة روجر للزواج من أحد افراد الاسرة المالكة في بيزنطة . ورافق السفير البيزنطي روجر سالرنو في حربه ضد الأمير نجم الدين إيلغازي (أمير ماردين) ، ولكن قبل ان تصل المفاوضات بينهما الى نهايتها قُتل روجر سالرنو في معركة ساحة الدم (البلاط) في نفس العام (١١١٩م) على يد الأمير إيلغازي نفسه(٧) . ووقع السفير البيزنطي أسيراً(٨) . وبذلك فشلت أول مبادرة دبلوماسية تقدم بها يوحنا كومنين لتسوية المسألة الانطاكية .

وبعد مقتل روجر سالرنو تولى الوصاية على الأمارة الانطاكية النورمانية(٩) ملك بيت المقدس بلدوين الثاني(١٠) ، بناء على طلب امراء انطاكية ورجال الدين فيها ، وذلك

(4) M. of Edessa, Op. Cit., P. 282.

(٥) بوهيموند الثاني هو الابن الوحيد لبوهيموند بن جويسكارد ، ووالدته هي كونستانس ابنة الملك الفرنسي فيليب ، وولد بوهيموند الثاني عام ١١٠٩م في ابوليا ، وعندما تُوفي والده (١١١١م) ظل بوهيموند الثاني في كنف أمه كونستانس في أبوليا ، ويعتبر بوهيموند الثاني الوريث الشرعي الوحيد لبوهيموند الأول في أبوليا وانطاكية . انظر : William Of tyre, Hist. Of deeds, Vol. I, P. 531. وعن شخصية بوهيموند الثاني انظر : M. Of Edessa, Op. Cit., P. 319.

(6) William Of Tyre, Op. cit., Vol. I, PP. 492— 93, 531; M. Of Westminster, Vol. I, P. 34; Roger Of Wendover, Vol. II, P. 465.

(٧) عن معركة ساحة الدم ونهاية روجرسالرنو. أنظر : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٠٠ ـ ٢٠١ ؛ ابن منقذ الاعتبار ، ص٤٠ ، ص١١٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج١٠ ، ص٥٥٣ ـ ٥٥٥ ؛ ايضا ، William Of Tyre, Vol. I, PP. 530— 31.

(8) Chalandon, Les Commenes, Vol. II, P. 120.

(٩) لقد أشار ابن القلانسي الى وضع انطاكية بعد مقتل روجر سالرنو بقوله : «وبقيت انطاكية شاغرة ، خالية من حُماتها ورجالها خاوية من كُماتها وابطالها ، فريسة الواثب نهزة الطالب ...» انظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٠١ .

(١٠) عندما توفي بلدوين الاول (شقيق جودفري) ملك بيت المقدس عام ١١١٨م انتقل تاج المملكة الى بلدوين دي بورج ـ أمير الرها الذي أُطلق عليه اسم بلدوين الثاني . انظر : Hethoum, Comte de Groigos, in R.H.C.Arm. Vol. P. 473.

ريثما يصل بوهيموند الثاني من ايطاليا(١١) . واستمرت وصاية بلدوين الثاني على انطاكية حوالي سبع سنوات (١١١٩ ـ ١١٢٦م) . والجدير بالذكر أن بيزنطة لم تقم بأية محاولة خلال وصاية بلدوين الثاني لانتزاع حقوقها في انطاكية(١٢) . وفي اكتوبر (أو نوفمبر) من العام ١١٢٦م قدم بوهيموند الثاني من ايطاليا وتسلم امارة انطاكية من بلدوين الثاني(١٣) . ولكن سرعان ما قتل بوهيموند الثاني على يد الامير ايلغازي وهو يدافع عن مصالح النورمان في قيليقية البيزنطية ، وذلك عام ١١٣٠م قرب المصيصة(١٤) .

بعد مقتل بوهيموند الثاني تعرضت أمارة انطاكية لموجة من الاضطرابات الداخلية التي كادت تعصف بالأمارة كلها . ولكن لحسن حظ نورمان انطاكية أن بيزنطة لم تستغل هذه الاحداث ، ولو فعلت ذلك لوضعت نهاية حتمية للسيادة النورمانية أو ربما للوجود النورماني في شمال الشام بأكمله . فمنذ مقتل بوهيموند الثاني راحت أرملته أليس تعمل على السيطرة الكاملة على شؤون الحكم ، غاضة النظر عن الحقوق الشرعية لابنتها الوحيدة كونستانس بنت بوهيموند الثاني(١٥) . ووقف رجالات انطاكية في وجهها ، ولم تتورع ازاء معارضتهم عن الاتصال بزنكي ـ اتابك الموصل ـ تطلب مساعدته مقابل اعترافها بالتبعية له(١٦) . واستدعى رجالات انطاكية الملك بلدوين

---

(١١) عن فترة وصاية بلدوين الثاني على انطاكية ، انظر : William Of tyry, Op. Cit., Vol. II, P. 33.

(١٢) لقد انشغلت بيزنطة في تلك الفترة بالصراع ضد البجناك ، انظر : Vasiliev, Op. Cit., Vol. II, P. 413. كما انشغلت بالصراع ضد البنادقة انظر : Ostrogorsky, op. Cit., P. 335; Cam. med, Hist. Vol IV, P. 222.

(١٣) لقد استقبل بلدوين الثاني الأمير بوهيموند الثاني لدى وصوله الى انطاكية استقبالاً حافلاً وأزوجه ابنته الصغرى واسمها أليس وذلك عام ١١٢٧م ، وبذلك توطدت العلاقة بين مملكة بيت المقدس وأمارة انطاكية . انظر تفاصيل ذلك عند :

William Of tyre, Op. Cit., Vol. II, PP. 32—33; M. Of Edessas Op. Cit., P. 319.

انظر ايضاً : ابن منقذ : الاعتبار ، ص١٢١ .

(١٤) انظر تفاصيل ذلك عند :

William Of tyre, Op. Cit., Vol. II, PP. 33—34; M. of Edessa, Op. Cit., P. 319, Roger Of Wendover, Flowers Of History, Vol. II, PP. 477, 480

(15) William Of tyre. Op. Cit., Vol. II, P. 44; Setton, Hist. Of the Crusades, Vol. I, P. 431.

(16) William Of tyre, Op. Cit., Vol. II, PP. 43—44.

الثاني للوصاية على انطاكية للمرة الثانية ، ونجح الأخير في دخول انطاكية وقطع دابر المتآمرين(١٧) .

وبعد وفاة الملك بلدوين الثاني (١١٣١م) حاولت أليس السيطرة ثانية على الامارة(١٨) . ويبدو أنها اتصلت في هذه الفترة بالامبراطور البيزنطي يوحنا كومنين ، وعرضت عليه زواج ابنتها كونستانس - الوريثة الشرعية للامارة وابنة بوهيموند الثاني - من ابنه مانويل كومنين(١٩) . إلا أن زعماء انطاكية ورجال الدين فيها توسلوا الى ملك بيت المقدس الجديد «فولك» بأن يختار شخصية مناسبة تصلح زوجاً للأميرة كونستانس . ووقع اختيار الملك فولك اخيراً على ريموند ابن الكونت وليام من بواتيه ، الذي كان يعيش آنذاك في بلاط هنري ملك انكلترا(٢٠) . وقدم ريموند هذا الى انطاكية وتزوج من كونستانس (١١٣٦م) ، واضطرت أليس الى قضاء بقية حياتها ذليلة في اللاذقية(٢١) .

على أن زواج ريموند من كونستانس الانطاكية قوبل بالاستياء والغضب الشديدين في الدوائر البيزنطية واعتبره الامبراطور يوحنا كومنين تحدياً صارخاً من زعماء انطاكية لحقوقه ولمضامين معاهدة ديابوليس (١١٠٨م) ، التي وقعت بين والده وبوهيموند ابن جويسكارد . ولذا أخذ يوحنا يتحين الفرص لتأديب زعماء انطاكية العصاة . ولكن الدوائر النيزنطية كانت تدرك تماما أن المسألة الانطاكية غدت اكثر تعقيداً مما كانت عليه في بدايات القرن الثاني عشر . والدليل على ذلك قيام دولة ارمينية الصغرى في قيليقية وانتزاعها معظم الاملاك البيزنطية في تلك المنطقة وذلك في الربع الأول من

(١٧) يقول المؤرخ وليام الصوري أن أليس أوصدت أبواب انطاكية في وجه والدها وكانت مصممة على مقاومته . إلا أن بلدوين نجح في دخول المدينة ، وامتثلت أليس لارادة والدها ، الذي قام بنفيها عن انطاكية ، وأعطاها اللاذقية وجبلة لتعيش فيهما باعتبار أن هاتين المدينتين كان قد منحهما لها زوجها بوهيموند الثاني كبائنة لها عند زواجهما . انظر: William Of tyre, Op. Cit., Vol. II, PP. 43—45, 53—54.

(١٨) انظر تفاصيل المؤامرة التي رتبتها أليس للسيطرة على مقاليد الحكم في انطاكية بالتعاون مع وليام صاحب حصن صهيون وبونس كونت طرابلس وجوسلين كونت الرها ، وكيف فشلت هذه المؤامرة . انظر: William Of tyre, Op. Cit., Vol. II, PP. 53—54.

(19) Kinnamos, In C.S.H B., p. 16.

(20) William Of tyre, Hist. Of deeds, Vol. II, P. 59.

(21) I bid., PP. 59—60; Roger Of Wendover, Op. Cit., Vol. II, P. 481.

القرن الثاني عشر . وبذلك شكل الأرمن دولة عازلة ما بين بيزنطة وامارة انطاكية(٢٢) . والأخطر من ذلك ـ كما يخبرنا المؤرخ الأرمني جريجوار الكاهن ـ أن العلاقات توطّدت تماماً بين زعماء الأرمن في قيليقية وامراء انطاكية وتم توقيع معاهدة دفاع مشترك بين الزعيم الأرمني ليون وأمير انطاكية ريموند بواتيه(٢٣) . يضاف الى ذلك أن الوجود النورماني في أمارة انطاكية كان قد ثبتت اركانه ، ونجحت عمليات الكثلكة في شمال الشام نجاحاً ملموساً ، ولاسيما بعد أن ارتبطت انطاكية آنذاك بعلاقات وثيقة مع بقية الامارات الصليبية ، وخاصة مملكة بيت المقدس والرها . وكان من الطبيعي ان تقف هذه الدويلات الى جانبها ضد بيزنطة اذا ما حاولت الأخيرة المطالبة بحقوقها في انطاكية والمساس باستقلال الأمارة النورمانية ومصالح رجالاتها . ونخلص الى القول أنه كان على السلطات البيزنطية ان تفكر مليّاً في كل هذه القضايا قبل الاقدام على أي مشروع عسكري في شمال الشام .

وكان الامبراطور يوحنا كومنين (ما بين ١١٣٠ ـ ١١٣٥م) قد أنهى حروبه في آسيا الصغرى بنجاح كبير(٢٤) . ومع بداية عام ١١٣٧م توجه الى قيليقية على رأس قواته ، وتمكن من استرداد المدن الرئيسية هناك مثل طرسوس وأذنه والمصيصة من الزعيم الأرمني ليون(٢٥) . ومن ثم استولى على عين زربه(٢٦) والقى القبض على الزعيم ليون حيث أرسله الى القسطنطينية مع اولاده قائلاً له : «أنت بين الفرنج والأتراك لا يصلح لك المقام»(٢٧) . وتُوفي ليون في الأسر بالقسطنطينية ما بين ١١٣٩ـ ١١٤٠م(٢٨).وبذلك

---

(22) Gregoire Le Pretre, R.H.C. Arm., Vol. I, P. 153; Vasiliev, Op. Cit., Vol. II, P. 415.

(23) Grègoire Le Pretre. Op. Cit., P. 153.

(٢٤) انظر تفاصيل ذلك عند : عاسور : الحركة الصليبية ، ج١ ، ص٥٨١ ؛ عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، ص٢٨٣ .

(25) Grègoire Le Pretre, Op. Cit., P. 153; Le Conne—table Sempad, R.H.C.Arm., Vol. I, P. 617; Hethoum, Comte de Groigas, Op. Cit., P. 474. Also: ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٥٨ ؛ ابن الاثير الكامل ج١١ ، ص٥٣ .

(26) Le Connetable, Op. Cit., P. 617; Also : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٥٨ ؛ ابن الاثير : الكامل ، ج١١ ، ص٥٣ .

(٢٧) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٦٢٧ ، انظر أيضاً : Grègoire Le Pretre, in R.H.C. Arm. Vol. I, P. 153; Hethoum, P. Op. Cit., P. 474'

(28) Le Connetable, Op. Cit., P. 617; Hethoum, Op. Cit., 474; Grègoire Le Pretre, Op. Cit., P. 153.

استعاد يوحنا كومنين قيليقية واصبح الطريق امامه مفتوحاً الى انطاكية .

وقد أدرك ريموند من بواتيه ـ أمير أنطاكية ـ عدم قدرته لمواجهة الامبراطور يوحنا ، ولذا استنجد بملك بيت المقدس فولك ، إلا أن الأخير تعرّض لهزيمة على يد المسلمين ، فانقلب الموقف ، حيث أرسل فولك يستنجد بريموند وهرع الأخير لمساعدة الملك الصليبي ، تاركاً امارة انطاكية تحت رحمة العاهل البيزنطي ، وعندما عاد ريموند الى انطاكية (أواخر أغسطس ١١٣٧م) وجد يوحنا كومنين قد شرع في حصار المدينة ، إلا أن ريموند نجح في الدخول اليها(٢٩) .

وقد أحس ريموند بخطورة موقفه وعجزه عن الصمود أمام الأمبراطور يوحنا كومنين ولذا آثر التفاوض معه . ومن جهة اخرى أكتشف يوحنا أن اقتحام أنطاكية المنيعة ليس بالمهمة السهلة ، فضلاً عن أن يوحنا نفسه خشي من تحطيم قوة الصليبيين عامة ونورمان انطاكية خاصة في ذلك الوقت بالذات الذي كان فيه عماد الدين زنكي(٣٠) يعمل بنشاط ضد الصليبيين والبيزنطيين على حد سواء ، ولذلك فقد تغلبت روح الاعتدال على الطرفين .

ويخبرنا المؤرخ وليام الصوري بتفاصيل وافية عن المفاوضات التي دارت بين يوحنا

(29) William of Tyre. Hist. of deeds, vol. 11, p. 92.

(٣٠) وهو عماد الدين زنكي ابن قسيم الدولة آق سنقر . كان آق سنقر مملوكاً تركياً في خدمة السلطان السلجوقي ملكشاه . ثم اصبح قائداً من قادة جيشه واقطعه مدينة حلب (٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) . وبعد وفاة ملكشاه قُتل آق سنقر على يد السلطان تتش (شقيق ملكشاه) عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م . وبذلك فقد عماد الدين ـ الذي كان عمره آنذاك لا يزيد على عشر سنوات ـ املاك أبيه (التي انتقلت إلى تتش وامرائه) فنشأ بعيداً عن السلطان والنفوذ . ودخل عماد الدين في خدمة أتابكة الموصل . ثم اقطعه والى بغداد ـ واسمه آق سنقر البرسقي ـ مدينة واسط ومن ثم البصرة . واظهر عماد الدين خلال ذلك كفاية ومقدرة فائقين مما جعل السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه يقطعه الموصل . ثم نجح عماد الدين بامتلاك البلاد الجزرية وحلب وحماه . كما نجح عماد الدين بفتح حصن الأرثاب وحصن بعرين وانتزاعهما من الصليبيين . وتوج عماد الدين زنكي انتصاراته بفتح الرُها . وبذلك قضى على أول أمارة أقامها الصليبيون في الشرق . ومن ثم هاجم عماد الدين قلعة جعبر ولكنه اغتيل على يد مماليكه وهو على حصار هذه القلعة وذلك عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م . خلف عماد الدين زنكي على الموصل ولده صفي الدين غازي الأول . في حين خلفه على حلب ابنه نور الدين محمود . انظر تفصيل ذلك كله عند :

ـ ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٦ ـ ٧ ، ١٥ ـ ١٦ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٢ ـ ٤٢ ، ٥٩ ، ٦٦ ـ ٧٦ .

ـ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية في السيرة النورية ، ص ١٥ ، ٥٩ ، ٩٣ ـ ٩٤ ، ٩٧ ـ ٩٩ ، ١٠٨ ـ ١١١ ، ١١٥ .

وريموند ، والتي انتهت بتوجه ريموند إلى مقر الامبراطور ـ قرب انطاكية ـ حيث أقسم يمين الولاء والطاعة للعاهل البيزنطي . وتعهد بعدم وضع أية عراقيل فيما اذا رغب الامبراطور بدخول انطاكية سلماً أو حرباً . واتفق الطرفان أيضاً على القيام بحملة مشتركة ضد المسلمين ، واذا نجحا في احتلال حلب وشيزر وحماه وحمص ، فإن هذه المدن ستعطى لريموند ، ليكون أميراً عليها ، على أن يُعيد الأخير انطاكية الى الأمبراطور(٣١) . كذلك وافق ريموند على تنصيب بطريرك بيزنطي في انطاكية بدلاً من البطريرك اللاتيني الذي كان يجلس وقتها على كرسي البطريركية الانطاكية الارثوذكسية(٣٢) . ولقد أشار ابن القلانسي الى هذا البند من المعاهدة بقوله «لما تقرر الصلح بين ملك الروم وريموند صاحب انطاكية شرط ملك الروم على ريموند من جملة الشروط أن ينصب بانطاكية بطركاً من قبل الروم على ما جرى بمثله الرسم قديماً(٣٣) . ويقول وليام الصوري أنه ما كاد يتم توقيع هذه الاتفاقية حتى رُفعت الاعلام الامبراطورية على البرج الرئيسي لقلعة المدينة ومن ثم عاد الأمير ريموند الى المدينة (انطاكية) وهو محمل بالهدايا الثمينة(٣٤) .

لم يشأ الامبراطور يوحنا كومنين أن يدخل انطاكية تلك المرة ، وإنما اتجه الى قيليقيه حيث قضى فصل الشتاء على الساحل قرب طرطوس . وفي بدية ربيع العام التالي (١١٣٨م) طلب يوحنا من أمير انطاكية وأمير الرها الاستعداد للقيام بالحملة التي اتفق عليها في معاهدة العام السابق (١١٣٧م) ضد المسلمين . ومن ثم اتجه الامبراطور على رأس قواته (ابريل ١١٣٨م) لاحتلال مدينة شيزر(٣٥) . وسرعان ما وصلت قوات ريموند ، أمير انطاكية وقوات جوسلين ، أمير الرها ، وبدأت الجيوش المتحالفة بحصار المدينة وقد أشار ابن منقذ في كتابه «الاعتبار» إلى هذه الواقعة بقوله «ثم إن ملك الروم عاد خرج الى البلاد في سنة ٥٣٢ هـ واتفق هو والافرنج ، خذلهم

(31) William of Tyre, 11, p. 93.

(32) Ibid., pp. 97. 97-99.

(٣٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٣ .

(34) William of Tyre, 11, p. 93.

(٣٥) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٥٥ ـ ٥٧ ؛ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ـ

الله ، واجمعوا على قصد شيزر ومنازلتها(٣٦) . ولكن سرعان ما اتصل سكان شيزر ـ سراً ـ بالأمبراطور الذي رفع الحصار فوراً عن المدينة ـ بعد أن تسلّم مبلغاً ضخماً من أمير شيزر ـ وأمر قواته بالاستعداد للرحيل(٣٧) .

وقد اختلف المؤرخون في الكشف عن اسباب انسحاب يوحنا من حصار شيزر ، فالمؤرخ ابن العديم يقول : «ان الروم ارتحلوا عن شيزر عندما بلغهم أن قرا ارسلان ابن داود بن سكمان قد عبر الفرات في جموع عظيمة تزيد عن خمسين الفا من التركمان(٣٨) . اما المؤرخ الفرنسي اودو من دويل فانه اكتفى بالتلميح الى ذلك بقوله أن يوحنا كومنين قد تعاون مع «الكفار» ضد المسيحيين(٣٩) . ولكن المؤرخ اللاتيني وليام الصوري يقدّم لنا تقريراً مفصلاً عن هذه الأحداث ويحكم من خلالها على موقف الطرفين ، ويبدو أن هذا المؤرخ كان موضوعياً الى حد بعيد فيما رواه حول هذه النقطة . فقد أشاد وليام بالجهود الضخمة التي بذلها يوحنا كومنين أثناء حصار المدينة إذ قال بصراحة : «انه في الوقت الذي كان فيه الأمبراطور ورجاله مشغولين في قتال عنيفٍ ، فان الأمير (أي امير انطاكية) والكونت (أي كونت الرها) كانا مستمرين في لعب الميسر» ثم قال هذا المؤرخ أن الامبراطور يوحنا قد لاحظ سلوكهما المشين وحاول بكل الطرق الودية اقناعهما بضرورة القيام بواجبهما ، ولكنهما استمرا في تقاعسهما وفي القاء تبعات الحرب على القوات الأمبراطورية ، وإزاء ذلك كله فقد انتهز الامبراطور العرض الذي تقدم به أهل شيزر ورفع الحصار عن المدينة(٤٠) .

لقد توجه الامبراطور يوحنا من شيزر مباشرة الى انطاكية ، بهدف الانتقام من ريموند الذي حنث بقسمه وانتهك حرمة معاهدة العام السابق (١١٣٧م) . ودخل يوحنا مدينة انطاكية دخول الفاتحين وبرفقته عدد من جنوده . وتوجه الى الكتدرائية اولاً ومنها الى القصر وكان يتبعه البطريرك اللاتيني ورجال الدين واعداد هائلة من

---

(٣٦) ابن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ٢ .

(37) William of Tyre, Hist. of deeds, vol. 11, pp. 93—96.

(٣٨) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٦٣٢ .

(39) Odo of deuil, De profectione Ludovici VII in Orientem, (Eng. Trans.), p. 71.

(40) William of Tyre, op. cit., vol. 11, pp. 95 - 96.

سكان المدينة . وفي نفس الوقت كانت التراتيل الدينية والمعزوفات الموسيقية تصاحب الموكب الامبراطوري المهيب . وبعد أن استقر الأمبراطور في القصر استدعى كلا من ريموند وجوسلين ووبخهما بلهجة عنيفة على موقفهما امام شيزر ، وطلب من ريموند تسليم قلعة المدينة (انطاكية) والسماح للقوات البيزنطية بالدخول والخروج من المدينة دون عقبات ، وتقديم ما يوجب عليه بوصفه تابعاً يدين بالولاء لسيده الامبراطور(41) .

وكان لمطالب الامبراطور وقع الصاعقة على ريموند ورجالات انطاكية النورمان . وبدا لهؤلاء أنه من المستحيل تسليم انطاكية الى أولئك «البيزنطيين المخنثين(42)» . ويقول وليام الصوري أن أمير الرها جوسلين تدخل عندئذٍ وتوسل الى الامبراطور بأن يسمح لريموند بمشاورة زعماء المدينة بشأن تنفيذ هذه المطالب ، ووافق الأمبراطور يوحنا على ذلك شريطة ألا يبرح ريموند القصر . وعندئذ غادر جوسلين نفسه القصر وراح ينشر في ضواحي انطاكية مطالب الامبراطور المجحفة ويحرض السكان على حمل السلاح ضد يوحنا كومنين . وسرعان ما تجمعت الجماهير وبدأ الهيجان الشعبي ، واسرع جوسلين وقتها عائداً الى القصر ، حيث القى بنفسه عند أقدام الأمبراطور ، وقص عليه أن الجماهير الثائرة باتت تتهمه بالخيانة العظمى لأنه ينوي بيع انطاكية للامبراطور ، وأن هذه الجماهير تطالب في هتافاتها بمعاقبة جوسلين وامتدت الثورة السعبية من الضواحي الى المدينة ، وأخذت الغوغاء بمهاجمة الجنود البيزنطيين المقيمين داخل المدينة وقتلوا اعداداً منهم ، واضطر الامبراطور نفسه الى اغلاق بوابات القصر خوفاً من الجماهير الثائرة(43) .

وكان أن أحس يوحنا كومنين بخطورة الموقف ـ كما يقول وليام الصوري ـ فاستدعى ريموند وزعماء المدينة ، وأعلن لهم تنازله عن مطالبه الأخيرة ، الا أنه طلب منهم الوفاء لشروط معاهدة العام السابق (١١٣٧م) . ومن ثم طلب منهم تهدئة الجماهير الثائرة فوراً ، وابلغهم في ذات الوقت بأنه عقد العزم على مغادرة المدينة في اليوم التالي . ووافق زعماء انطاكية على ذلك ، ونجحوا ـ في الحال ـ في اعادة الأمن

(41) William of Tyre, Hist of deeds, vol 11, pp. 96- 98.

(42) Ibid., p. 98

(43) Ibid., pp. 98- 99.

الى المدينة ، وقبيل مغادرة الامبراطور لانطاكية قام وفد من زعماء انطاكية ، برئاسة ريموند وجوسلين ، بزيارة الامبراطور في القصر ، وفي نهاية اللقاء شرح الامبراطور «لزواره» الأسباب التي توجب عليه العودة الى القسطنطينية ، ووعدهم بالعودة ثانية لمحاربة المسلمين اذا سنحت له الظروف بذلك ، وفقاً لاتفاقية عام ١١٣٧م ، وغادر يوحنا كومنين انطاكية ـ عائداً بقواته ـ الى القسطنطينية عن طريق قيليقية(٤٤) .

وهكذا يبدو أن حملةيوحنا كومنين ، على انطاكية كانت فاشلة تماماً . على أن أحداثها بقيت تحزّ في نفسه ، وأخذ يتحين الفرص لتقليم اظافر زعماء انطاكية . وفي عام ١١٤٢م توجه يوحنا كومنين ثانية لاسترجاع حقوقه في انطاكية وعندما وصل الى منتصف الطريق بين قيليقية وانطاكية ، وعند مدينة جاستين Gastun بالذات ، توقف يوحنا كومنين حيث وجه انذاراً الى ريموند أمير انطاكية طالباً منه تسليم المدينة مع القلعة وكل الحصون التابعة لها دون استثناء(٤٥) .

وقد ناقش ريموند مع زعماء انطاكية الانذار البيزنطي ، وقرروا في النهاية ايفاد سفارة لابلاغ الأمبراطور قرارهم برفض الانذار من جهة والتأكيد ـ من جهة أخرى ـ على أن ريموند لا يمتلك الحق ـ اذا رغب ـ في التسليم بالمطالب البيزنطية لانه لم يتلق الامارة بالوراثة وانما بالزواج من الأميرة النورمانية كونستانس ، حتى أن الأخيرة نفسها لا يحق لها تسليم امارتها «لأي مخلوق» دون موافقة زعماء المدينة النورمان . كما كُلفت السفارة ـ على قول وليام الصوري ـ بابلاغ الأمبراطور : أن الزعماء قد هددوا ريموند وزوجته بأنهم نافضون عن كواهلهم حقوقهما اذا أقدما على التسليم بمطالب الأمبراطور البيزنطي(٤٦) . ان صياغة جواب زعماء انطاكية كان بترتيب وموافقة ريموند نفسه لكي يحتفظ بماء وجهه امام يوحنا كومنين . وعندما أبلغ الأمبراطور هذا الرد على انذاره استشاط غضباً ، الا أنه فضل قضاء الشتاء (١١٤٢ ـ ١١٤٣م) في قيليقية على أن يستأنف زحفه على انطاكية في الصيف المقبل (١١٤٣م)(٤٧) .

(44) Ibid., pp. 100- 102.

(45) Ibid., pp. 123- 124.

(46) Ibid., pp. 124- 125.

(47) Ibid., pp. 127- 28.

وبالفعل عاد الامبراطور يوحنا بقواته الى قيليقية ، ولكنه قُتل في ابريل (١١٤٣م) اثناء اصطياده للخنازير في غابات قيليقية . وعندما كان على فراش الموت عينّ ابنه مانويل خليفة له . وعاد الأمبراطور الجديد على رأس القوات الامبراطورية الى العاصمة (٤٨) . مصطحباً معه جثمان والده الذي يمكن أن نسميه شهيد المسألة الانطاكية . ولكن ما هو موقف القوى الايطالية من حملة يوحنا كومنين هذه ؟.

لقد اتخذت القوى الايطالية مواقف مختلفة إزاء حملة يوحنا ضد نورمان انطاكية ، فبالنسبة الى البابوية فقد وقفت موقفاً صريحاً معادياً لبيزنطة . ففي ٢٨ من مارس (١١٣٨م) اصدر البابا انوسنت الثاني مرسوماً بابوياً دعا فيه كل اللاتين الذين يخدمون في صفوف الجيش البيزنطي لترك الخدمة في الجيش الأمبراطوري في حالة هجوم يوحنا كومنين على امارة انطاكية أو الممتلكات اللاتينية الاخرى في الشرق(٤٩) . ويبدو أن البابا كان ينظر الى تقدم الامبراطورية البيزنطية باتجاه الشام بقلق شديد وهذا الموقف البابوي ينبع من الاعتقاد بأن الفتح السياسي البيزنطي في شمال الشام سوف يتبعه «الفتح الديني الارثوذكسي» . وقد أشار المؤرخ الفرنسي المعاصر أودو من دويل الى هذه النقطة بقوله : « ان المدن والمواقع التي احتلها يوحنا كومنين في قيليقية قام بعزل اساقفة كنائسها الكاثوليك وعين بدلاً منهم اساقفة ارثوذكس(٥٠) . ونفهم من هنا بأن روما كانت تراقب بقلق الكنيسة الارثوذكسية من خلال تزايد النفوذ السياسي البيزنطي في شمال الشام . ولهذا اتخذ البابا قراره كمحاولة لاعاقة التقدم البيزنطي عن طريق تحريض اللاتين على ترك الخدمة في القوات البيزنطية .

أما بالنسبة الى الجمهوريات الايطالية ، فقد اتخذت موقفاً حيادياً ، إزاء هذا النزاع ، في ذلك الدور . ولكن يمكن الافتراض بأن هذه الجمهوريات كانت تؤيد ـ معنوياً ـ جهود يوحنا كومنين في شمال الشام وانطاكية بشكل خاص ، وذلك تمشياً مع مصالحها الاقتصادية والتجارية ، التي تتطلب اقامة أوثق العلاقات مع القوى الأكثر

---

(48) Nicetas, in C.S.H.B., pp. 54 f.; Grégoire le pretre, op. cit., pp. 156- 57; odo of deuil, op. cit., p. 71; William of Tyre, op. cit., vol. 11, p. 129; Michel the syrian, in R.H.C.Arm. vol. 1, pp. 338- 39.

(49) Chalandon, les commenes, p. 164.

(50) Odo of deuil, De profectione ludovici VII in Orientem, p. 69.

نفوذاً في الشرق . فقبيل مغادرة يوحنا القسطنطينية نحو انطاكية (عام ١١٣٧م) تم توقيع معاهدة اقتصادية بينه وبين بيزا وذلك عام ١١٣٦م(٥١) .

اما بالنسبة الى جمهورية البندقية فقد جدّدت المعاهدات الاقتصادية والسياسية بينها وبين بيزنطة عام ١١٢٦م(٥٢) . وبالنسبة الى جمهورية جنوه فانها اخذت تتفاوض مع يوحنا كومنين عندما كان الأخير في قيليقية (١١٤٢م) في طريقة للمرة الثانية الى انطاكية(٥٣) . وهذه المعاهدات بين يوحنا كومنين والجمهوريات الايطالية قبيل أو خلال حملته على انطاكية تسمح لنا بالقول بأن الجمهوريات الايطالية اتخذت موقفاً حيادياً ازاء الصراع البيزنطي ـ النورماني على انطاكية في ذلك الدور ، بل ربما كانت تؤيد ـ معنوياً ـ كما قلنا قبل قليل الجهود البيزنطية في هذا السبيل .

---

(51) Heyd, Hist. du commerce, vol. 1, pp. 196- 97.

(52) Chalandon, les Commenes, Vol. 11, p. 158; Ostrogorsky, op. cit., p. 335; Hodgson, Venice p. 259.

(53) Heyd, op. cit., vol , 1, p. 198; chalandon op. cit., p. 161

الفصل الرابع

حملة مانويل كومنين ضد نورمان

انطاكية عام ١١٥٨م .

ظلت معاهدة انطاكية (عام ١١٣٧م) التي وُقِّعت بين يوحنا كومنين وريموند من بواتيه حبراً على ورق ، مما جعل المسألة الانطاكية تبقى معلقة دون حل . وقد أتاح مقتل العاهل البيزنطي يوحنا كومنين في غابات قيليقية (١١٤٣م) فرصة طيبة لريموند أمير انطاكية فقام بغزو بعض المواقع البيزنطية في اقليم قيليقية ، مستغلاً عودة القوات البيزنطية الى القسطنطينية وهي تحمل جثمان عاهلها . ولكن الأمبراطور الجديد ـ مانويل كومنين ـ بعث ـ على الفور ـ بقوات برية وبحرية الى قيليقية . تمكنت هذه القوات من طرد النورمان من المواقع التي استولوا عليها ومهاجمة انطاكية نفسها والحاق هزيمة بالأمير ريموند(١) .

وأخذت المسألة الانطاكية تزداد تعقيداً ، منذ أواسط القرن الثاني عشر ، وذلك بسبب نمو القوى الذاتية الاسلامية في الشرق على يد الزنكيين ، وبسبب تعاظم قوة النورمان في جنوب ايطاليا وصقلية في عهد الملك روجر الثاني ، فضلاً عن تجدد الحملات الصليبية الى الشام . والواقع اننا لا نستطيع ان نغفل أهمية ظهور هذه القوى السياسية في عالم البحر المتوسط وتأثيرها على العلاقات ما بين بيزنطة وامارة انطاكية النورمانية .

ولم يلبث أن أدى سقوط أمارة الرها الصليبية (١١٤٤ م) بيد عماد الدين زنكي(٢) ،

---

(1) Chalandon, les commenes, Vol. 11, pp. 239- 42.

(٢) انظر تفاصيل سقوط الرها : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٥٨ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٦٤٢ ـ ٦٤٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج١١ ، ص ٩٨ ـ ١٠٠ ؛ التاريخ الباهر ، ص ٦٦ ـ ٧٠ ؛ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ص ١١٥ ـ ١١٦ .

الى خلق تهديدٍ خطير لامارة انطاكية النورمانية ، مما جعل ريموند يندم على فعلته تجاه بيزنطة في العام السابق (١١٤٣ م) ويدرك أن الخروج من هذا المأزق والوقوف في وجه الخطر العربي الاسلامي الجديد لن يكون الا بالتودد الى بيزنطة واقامة أفضل العلاقات معها(٣) . ولذا توجه ريموند الى القسطنطينية (١١٤٥ م) ليطلب العفو من مانويل كومنين . كما زار ـ اثناء وجوده في القسطنطينية ـ ضريح الامبراطور الراحل يوحنا كومنين ، وركع امامه تكفيراً وتعظيماً ، واعترف بنفسه تابعاً للامبراطور . وبعد ذلك عفا مانويل كومنين عنه ووعده بالمساعدة ضد عماد الدين زنكي(٤) .

وفي عام ١١٤٧ م قدمت الحملة الصليبية الثانية الى بلاد الشام نتيجة صيحات الاستغاثة التي انطلقت من «الشرق اللاتيني» الى الغرب الاوروبي بعد سقوط الرها(٥) . ورغم أن هذه الحملة استهدفت اساساً كبح جماح المسلمين وحماية الامارات الصليبية الباقية(٦) ، إلا أن الاعتقاد الذي ساد الدوائر البيزنطية ـ آنذاك ـ أن هذه الحملة ستلحق الضرر بالمصالح الامبراطورية في شمال الشام عامة وانطاكية بشكل خاص . وبتعبير آخر فان بيزنطة اعتقدت أن هذه الحملة الصليبية ستعقّد المسألة الانطاكية وتزيد من قوة امرائها النورمان وتجعلهم يتجاهلون الامبراطور البيزنطي وحقوقه(٧) .

وكان يحق للدوائر البيزنطية أن ترتاب من الحملة الصليبية الثانية ، خاصة إذا علمنا أن الفرنسيين ـ تحت قيادة ملكهم لويس السابع ـ قد شكلوا الجزء الرئيسي من تلك الحملة الصليبية . وذلك لأن فرنسا كانت اكثر بلاد الغرب الاوروبي قناعة بأن بيزنطة تقف وراء كل الكوارث التي لحقت بالصليبيين على مدى نصف القرن السابق . يضاف الى ذلك أن الفرنسيين كانوا متعاطفين مع أمير انطاكية ريموند ،

---

(3) Setton, Hist of the Crusades, vol. I, p. 531.

(4) Chalandon, les comnenes, vol. II, pp. 240-42; Diehl, Hist. of the Byzentine Empire, p. 125.

(5) William of Tyre, op. cit., vol. II, pp. 163-64.

(٦) لقد بسّر بهذه الحملة القديس برنارد ، رئيس دير كليرفو ، عام ١١٤٥ وقادها الملك الالماني كوراد الثالث والملك الفرنسي لويس السابع . انظر : تفاصيل ذلك ـ

Otto of Freising, The deeds, of Barbarossa, pp. 70-73; William of Tyre, op. cit., vol. II, pp. 163-64.

(7) Vasiliev, Hist of The Byzantine Empire, vol. II, p. 419.

الفرنسي الأصل ، وخاصة أن ملكة فرنسا ايلانور ELEANOR ـ زوجة لويس السابع ـ هي ابنة أخ ريموند ، الكونت وليام ، صاحب بواتيه(٨) .

ولا شك في أن هذه الروابط العائلية ، بين ريموند والفرنسيين ، جعلت بيزنطة تعتقد باحتمال اعتماد ريموند على تأييد لويس السابع ضدها . ويخبرنا المؤرخ اللاتيني وليام الصوري أن فكرة توسيع أمارة انطاكية ـ بمساعدة الملك لويس السابع ـ قد خامرت عقل ريموند ، حتى قبل أن يغادر لويس فرنسا . والدليل على ذلك أن ريمون كان قد بعث الى الملك الفرنسي بكميات كبيرة من المال والهدايا الثمينة أملاً في كسب عطفه وتأييده(٩) . وهذا يفسر لنا بدوره الاستقبال الحافل الذي قوبل به العاهل الفرنسي فور وصوله الى ميناء السويدية ـ ميناء أمارة انطاكية ـ في ١٩ مارس عام ١١٤٨ م ، حيث كان في انتظاره كبار رجالات الأمارة النورمانية وفي مقدمتهم ريموند نفسه(١٠) .

على أن الملك الفرنسي أحبط محاولات ريموند في استغلال حملته «الصليبية» وتسخيرها لمصالحه . مما اغضب أمير انطاكية . حتى أن الملك لويس اضطر الى مغادرة انطاكية مع رجاله سراً خوفاً من المؤامرات التي أخذ يحيكها ريموند ضده(١١) . وعلى هذا الشكل لم تتحقق مخاوف الدوائر البيزنطية وبالتالي تحطمت آمال نورمان انطاكية التي عُلقت على حملة لويس السابع .

ولا شك في أن فشل محاولات ريموند في استمالة لويس السابع ، ثم الفشل الذريع الذي منيت به الحملة الصليبية الثانية(١٢) ، قد ترك أمارة انطاكية ليس أمام الخطر البيزنطي فحسب ، وانما تحت رحمة المسلمين الذين راحوا يقلمون أظافر نورمان انطاكية حتى أنهم انتزعوا ـ ما بين ١١٤٧ ـ ١١٤٨ م ـ كل ما تملكه أمارتهم شرقي نهر العاصي ، حتى انتهى الأمر بمقتل ريموند نفسه على يد نور الدين زنكي(١٣) ، وذلك في

(8) William of Tyre, Hist. of deeds, vol, II, P. 179.

(9) Loc. cit.

(10) Ibid., pp. 179-80.

(11) Ibid., pp. 180-81.

(12) Ibid., 11, pp. 171-72, 174-77, 195-96.

(١٣) كان نور الدين محمود قد تولى أمارة حلب بعد مقتل والده عماد الدين زنكي . وبالنسبة إلى صراع نور الدين مع نورمان انطاكية في هذه الفترة يقول ابن الأثير إنه في سنة ٥٤٤ هـ «سار نور الدين إلى حصن حارم ، وهو للفرنج ، =

٢٩ يونيو من العام ١١٤٩ م(١٤)، وهذا بدوره دفع نور الدين الى التضييق على مدينة انطاكية نفسها(١٥) وبالتالي تهديد الوجود النورماني كله في شمال الشام(١٦).

وبعد مقتل ريموند تولت أرملته كونستانس السلطة في الامارة كوصية على ابنها بوهيموند الثالث ابن ريموند نفسه(١٧). وعندئذ وجد الامبراطور مانـويل في أحـوال انطاكية فرصة لفرض سيادته على الأمارة عن طريق المصاهرة. حيث أوفد القيصر يوحنا - أرمل شقيقة مانويل - الى انطاكية. وكانت مهمة القيصر طلب يد الأميرة كونستانس للزواج منه، ولكن القيصر فشل في غزو قلب الأميرة النورمانية، واغلب الظن أنها رفضت الاقتران به بسبب كبر سنه(١٨).

ورغم فشل العرض البيزنطي، إلا أنه قُوبل بالاستنكار والاستياء الشديدين من قبل زعماء انطاكية. ورأوا فيه حركة سياسية تستهدف السيطرة البيزنطية على الأمارة من خلال أميرتها. ولهذا طرحوا موضوع زواج كونستانس طرحا جدياً باعتباره اصبح ضرورة سياسية تمليها تحرشات البيزنطيين بأنطاكية. فضلاً عن تصاعد الخطر العربي الاسلامي، وأخيراً قبلت كونستانس بالزواج من فارسٍ فرنسي، كان في خدمة الملك الفرنسي لويس عندما وصل الأخير الى الشام في الصليبية الثانية، واسمه رينود دي

= فحصره وخرب ربضه ونهب سواده. ثم رحل عنه إلى حصن إنّب فحصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إنب، فلم يرحل بل لقيهم، وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر على حداثة سنة ما تعجب الناس منه، فانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً. وفيمن قتل البرنس صاحب انطاكية، وكان عاتياً من عتاة الفرنج وذوي التقدم فيهم والملك». ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٩٨ - ٩٩.

(١٤) انظر تفصيل ذلك عند: ابن القلانسي: ص ٣٠٤ - ٣٠٥؛ ابن العبري: ص ٣٦٠؛ ابن العديم: ج٢، ص ٦٦٣؛ ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص ١٤٤؛ ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص ١٣٠.

(١٥) انظر الاتصالات التي تمت بين نور الدين وأهل انطاكية عند ابن القلانسي: ص ٣٠٥.

(16) William of Tyre, 11, pp. 196-99.

(١٧) يبدو ان ازدياد الخطر الاسلامي دفع زعماء انطاكية وملك بيت المقدس الى حثّ الأميرة كونستانس على الزواج برجلٍ قادر على حماية الامارة والدفاع عنها، ولكن الأرملة الشابة رفضت مبدأ الزواج بازدراء وكبرياء رغبة في ادارة السلطة بيدها. أنظر تفاصيل ذلك

William of Tyre, op. cit., vol. II, p. 224; setton, Hist of the Crusades, vol. I, pp. 533, 536, 540.

(18) Chalandon, Les comnenes, vol. II, p. 197; Setton, op. cit., vol. I, p. 536.

شاتيون ، والذي عرفه العرب باسم أرناط ، وتم الزواج فعلاً في أوائل عام ١١٥٣ م(١٩) .

وكان أن أحسّ أرناط (رينود دي شاتيون) أن لزواجه من الأميرة كونستانس وقع قاسٍ على نفوس البيزنطيين . ولذا بعث الى الامبراطور مانويل يطلب منه الصفح ويبدي استعداده لتنفيذ ما يطلب منه لكسب رضاء الامبراطور(٢٠) . وازاء ذلك طلب الامبراطور البيزنطي من أرناط ـ أمير انطاكية الجديد ـ قيادة حملة ضد الزعيم الأرمني ثوروس(٢١) . وتعهد الامبراطور لأرناط بدفع كافة الأموال اللازمة لتمويل هذه الحملة(٢٢) . وبالفعل امتثل أرناط لارادة الامبراطور ، وجرّد حملة الى قيليقيه ، ودارت بينه وبين ثوروس معركة طاحنة قرب الاسكندرونه (١١٥٥ م) انتهت بانتصار أمير انطاكية(٢٣) . على أن أرناط سرعان ما قلب ظهر المجن للامبراطور مانويل ، حيث وقّع ـ بُعيد المعركة ـ معاهدة صلحٍ مع الزعيم ثوروس ـ عدو بيزنطة ـ وتحالف معه ضد الامبراطور ، وقرر الاغارة على جزيرة قبرص ـ البيزنطية ـ الغنية (٢٤) .

وكانت جزيرة قبرص آنذاك تحت قيادة يوحنا كومنين ـ ابن شقيق الامبراطور

---

(١٩) يقول ابن الأثير «ولما قتل البرنس خلف ابناً صغيراً وهو بيمند ، فبقي مع أمه بأنطاكية ، فتزوجت أمه بإبرنس آخر ، وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند بن البرنس المقتول» . انظر : ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٩٩ . وانظر تفاصيل أكثر عن هذه المسألة عند : ابن العبري : ص ٣٥٩ ؛ ابن العديم : ج٢ ، ص ٦٦٣ ؛ أيضاً عند وليام الصوري :

William of Tyre, II, pp. 224, 235.

(٢٠) ان زواج كونستانس من أرناط أثار سخطاً في الأوساط الصليبية ، وذلك لأن أرناط كان فارساً عادياً ، ولهذا تعقّدت علاقاته مع الأمراء اللاتين في الشام الذين هم أرفع منه منزلة وطبقة . وكان في مقدمة الساخطين بطريرك انطاكية إيمري ولهذا استهل أرناط عهده بالقبض على البطريرك وطرحه أرضاً ونزع ثيابه وطلاه عسلاً وأمر بضربه نهباً وتركه للذباب في الشمس المحرقة . ولم ينقذ هذا البطريرك المسن ـ خليفة القديس بطرس على كنيسة انطاكية الرسولية ـ سوى تدخل ملك بيت المقدس ـ بلدوين الثالث ـ والتجأ البطريرك أخيراً الى بيت المقدس . انظر :

William of Tyre, Hist. of deeds., vol. II, pp. 235-36.

(٢١) لقد ثار الأرمن تحت زعامة ثوروس بن ليون ، وانتزعوا معظم الاملاك البيزنطية في قيليقيه ، والحقوا الهزيمة بأكثر من قائد بيزنطي أرسل الى قيليقيه لاعادة السيادة البيزنطية الى ذلك الاقليم . انظر

Michel the Syrian, op. cit., p. 345; Vahram of Edessa, op. cit., pp. 505-7. Le connetable, op. cit., p. 619; Grégoire Le pretre, op. cit., pp. 167-72.

(22) William of Tyre, op. cit., vol. II, pp. 253-54.

(23) Micheel the syrian, op. cit., p. 349; William of Tyre, op. cit. vol. II, p. 254.

(24) Le connetable, op. cit., p. 621; William of Tyre, op. cit., vol. II, p. 253.

مانويل ـ ويعاونه القائد البيزنطي ميخائيل براناس BRANAS . وما أن وصلت سفن الغزاة ـ تحت قيادة ارناط نفسه ـ (١١٥٦ م) الى شاطىء الجزيرة حتى تصدّت لها القوات البيزنطية الموجودة في الجزيرة في محاولة منها لمنع نزولها ودارت معارك قاسية بين الطرفين . إلا انها انتهت أخيراً بهزيمة القوات البيزنطية وتمزيقها شر ممزق وأسر الحاكم يوحنا كومنين والقائد براناس . وبذلك اذعنت الجزيرة البيزنطية لأمير انطاكية ، الذي راح يكتسحها دون مقاومة ودون شفقة . وتطالعنا المصادر اللاتينية والأرمنية المعاصرة ـ عن أعمال أرناط في هذه الجزيرة ـ بروايات مثيرة مفادها أن أمير أنطاكية قد دمّر المدن ودك الحصون وطرد السكان من منازلهم ، وانتزع ثرواتهم ، وجرّد سيفه برقاب عدد كبير منهم ، كما اقتحم أديرة الرجال والنساء ، واعتدى على الرهبان وجدع أنوف عدد كبير من رجال الدين وصلم آذانهم ... ومن ثم غادر أرناط الجزيرة عائداً الى انطاكية ، وقد اثقل سفنه بالمنهوبات والاسلاب الثمينة(٢٥) .

ويعتقد المؤرخ وليام الصوري أن السبب الذي دفع أرناط للاغارة على قبرص انما هو عدم ارسال العاهل البيزنطي مانويل كومنين الأموال التي وعد بها حينما كلف أرناط بقيادة حملة ضد ثوروس الأرمني(٢٦) . ولكن يبدو أن الامبراطور البيزنطي كان لديه الكثير من المبررات التي جعلته يمتنع عن الايفاء بوعده وعدم دفع الاموال لأمير انطاكية ، ولعل أهم هذه المبررات هو أن الحملة التي قادها أرناط الى قيليقيه ضد ثوروس لم تحقق ما هدف اليه مانويل وبالتالي كان أرناط نفسه هو المستفيد الوحيد منها(٢٧) .

والواقع أن احداث قبرص صدمت الرأي العام البيزنطي ، ولكن مانويل كومنين لم يكن بمقدوره الانتقام آنذاك من أرناط لانشغاله في الصراع ضد الملك النورماني وليام الأول (١١٥٤ ـ ١١٦٦ م) كما سنرى ذلك فيما بعد . على أن مانويل أقام علاقة وثيقة مع ملك بيت المقدس في العام التالي لإغارة ارناط على قبرص ، وذلك بزواج ابنة

---

(25) Grégoire le pretre, op. cit., p. 187- le connetable, op. cit., p. 621; William of Tyre, cit., vol. II, p. 254.

(26) William of Tyre, op. cit., vol. II, p. 254.

(27) Setten, Hist. of the crusades, vol. I, p. 541.

اخيه ـ ثيودورا ـ من ملك بيت المقدس بلدوين الثالث (عام ١١٥٧ م)(٢٨) . وربما أمل مانويل أن يجد في ملك بيت المقدس حليفاً ضد أمير انطاكية . وعلى أية حال ، ما أن وصلت العروس البيزنطية الى بيت المقدس (سبتمبر من عام ١١٥٨ م)(٢٩) ، حتى انطلق مانويل على رأس حملة ضخمة لتقليم أظافر أمير أنطاكية وزعيم الأرمن ثوروس . ووصل مانويل الى قيليقيه فجأة لأخذ ثوروس على حين غرة . وبالفعل . دب الهلع في نفس ثوروس الذي فر هائماً على وجهه في جبال وتلال قيليقيه ، ثم استقر الامبراطور في المصيصة ليتدبر الطريقة التي سينتقم بها من أرناط(٣٠) .

وعندما أدرك أرناط عدم قدرته على مقاومة العاهل البيزنطي ، شعر بهول الموقف وخشي من مصير أسود يمكن أن يحل به ، خاصة وأن ملك بيت المقدس ـ نسيب الامبراطور والطامع بانطاكية(٣١) ـ رفض الوقوف الى جانبه . وأخيراً نزل أرناط عند نصيحة مستشاريه ، وتوجه الى الامبراطور ـ الذي كان في المصيصة ـ لإعلان توبته ، وبرفقته عدد من كبار رجالات انطاكية ، فضلاً عن عدد من رجال الدين يتقدمهم جيرارد اسقف اللاذقية(٣٢) .

ويطالعنا المؤرخ وليام الصوري برواية مثيرة حول الكيفية التي توجّه بها أرناط ، ومن تم اللقاء بينه وبين الامبراطور مانويل ويقول «أن أرناط غادر انطاكية إلى مقر الامبراطور في المصيصة وهو : حاسر الرأس ، حافي القدمين ، عاري اليدين حتى العنق الذي التف حوله حبل من مسد ، وامسك سيفه بيده اليسرى من حده وليس من المقبض وبرفقته حشدٌ من النّساك عُراة الرؤوس ، حُفاة الأقدام . وما أن وصل أرناط الى قبالة الامبراطور ، المتربع على عرسه ، حتى ارتمى عند قدميه وهو يصرخ ، في حين زكع مرافقوه وهم يمدون أيديهم توسلاً للرحمة والغفران . وقد تعمد مانويل اطالة

---

(٢٨) انظر تفاصيل زواج بلدوين الثالث من ثيودورا عند :

William of Tyre, Hist of deeds, vol. II, pp. 264-65, Grégoire le pretro, R H C. Arm. vol. I, pp. 186-87.

(29) William of Tyre, op. cit , vol II, pp 273-75

(30) Ibid, pp. 273-76; Grégoire le pretre, op cit., pp. 186-87.

(31) William of Tyre, op. cit., vol. II, p. 276

(32) Loc. Cit.

هذا المشهد المهين ، حتى ان كل فرد من الحضور أصيب بالغثيان«(٣٣)» . وربما زاد الموقف اذلالاً بالنسبة لأرناط وبقية اللاتين وجود عدد من سفراء الدول الأجنبية مثل جورجيا وخراسان وبغداد وحلب وقونيه ، الذين شهدوا هذه «المذلة لأمير انطاكية واللاتين عامة(٣٤)» .

وأخيرا أقسم أرناط يمين الولاء والطاعة للعاهل البيزنطي ، معترفاً بنفسه فصلاً تابعاً للامبراطور ، ومتعهداً بتسليم قلعة انطاكية اذا طلب الامبراطور منه ذلك ، وتقديم بعض الكتائب العسكرية للخدمة في الجيش الامبراطوري - عند الحاجة - وتعهد أرناط بعزل بطريرك انطاكية اللاتيني واحلال آخر بيزنطي بدلاً منه(٣٥) .

وبعد أن مكث مانويل قرابة سبعة أشهر في المصيصة(٣٦) ، توجّه في ابريل من العام التالي (١١٥٩م) لزيارة انطاكية(٣٧) . حيث دخلها دخول الفاتحين ، وهو يمتطي جواده الذي أمسك لجامه أرناط ، وسار خلفه ملك بيت المقدس راكباً جواده ولكن دون تاج أو سلاح ، في حين سار بقية الأمراء اللاتين خلف الموكب الامبراطوري . وعند بوابات المدينة استقبل الشعب ورجال الدين - وفي مقدمتهم البطريرك الانطاكي اللاتيني نفسه - الامبراطور ، واجتاز الموكب شوارع المدينة «التي فُرشت بالسجاجيد والازهار»

---

(33) Ibid., pp. 276-77; setton, op. cit., vol. I, p. 543; Vasiliev, op. cit., vol. II, p. 426; Cam. med. Hist., vol. 4, p. 234;

انظر ايضا : عاسور : الحركه الصليبيه ، ص ٦٧٣ - ٦٧٤ ؛ عاقل : الامبراطوريه البيزنطيه ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ؛ رستم : الروم ، ج٢ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ؛ عبيد : روما وبيزنطه ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(34) Kinnamos, in C. S. H. B. p. 183.

(35) Ibid., pp. 199 ff.; Ostrogorsky, op. cit., pp. 342-43; Hussey, op. cit., p. 65; Vasiliev, op. cit., vol. II, p. 426; Cam. Med. Hist., 4, p. 234.

(٣٦) لقد وصل ملك بيت المقدس وبصحبته البطريرك الانطاكي امري الى المصيصه ونجح بلدوين هذا في التوسط للزعيم الارمني ثوروس . وأقسم الأخير يمين الولاء والطاعه وتعهّد بتسليم الحصون المنبجية للامبراطور . انظر تفصيل ذلك :

William Of Tyre, Op. Cit., Vol. II, P. 278; Grégoire Le Pretre, Op. Cit., PP. 187— 88.

(٣٧) يخبرنا المؤرخ الأرمني جرجوار الكاهن أن مانويل قد طلب من السلطان الانطاكيه تسليمه رهائن من أولاد كبار رجالات النورمان وذلك ليضمن سلامته خلال زيارته الى انطاكيه . ولقد أُجيب طلبه . انظر ذلك عند :
Gregoire Le Pretre, op. Cit. PP. 188— 90.

على انغام الأبواق والطبول والترانيم الدينية . وبعد أن زار الامبراطور الكتدرائية أولاً اتجه الى القصر(٣٨)

وخلال ثمانية أيام ـ أمضاها مانويل في انطاكية ـ رفرفت الأعلام الامبراطورية على أسوار المدينة وقلعتها ، ومتّع الامبراطور نفسه بكثير من الألعاب الرياضية التي أقيمت على شرفه ، وصَدَّقَ الشعبَ الكثير من الهبات والاموال(٣٩) . وخلال اقامة مانويل هذه ، اتفق الأخير مع أرناط وملك بيت المقدس بلدوين الثالث على القيام بحملة مشتركة ضد المسلمين . وبالفعل خرجت هذه الحملة في مايو ١١٥٩م ، ولكن قبل بدء القتال بدأت المراسلات بين مانويل ونور الدين زنكي وانتهت بتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين الاسلامي والبيزنطي(٤٠) . وبموجبها افرج نور الدين عن عددٍ من الأسرى «اللاتين» المسجونين في الديار الاسلامية(٤١) . وفي نفس الوقت قرر مانويل عدم القتال وجمع قواته واتخذ طريقه عائد الى القسطنطينية دون أن يطلب من حليفيه ـ أرناط وبلدوين ـ سوى الانسحاب مثله(٤٢) .

ولا شك في أن انسحاب العاهل البيزنطي أثار استياء اللاتين عامة وأمير انطاكية بشكل خاص ، بحيث لم يجد هؤلاء تفسيرً كافياً لموقف الامبراطور سوى أنه خيانة اخرى ارتكبها «البيزنطيون الأنذال المخنثون بحق الصليبين في الشرق»(٤٣) . على أن المؤرخ وليام الصوري ذكر «أن سبب انسحاب مانويل من قتال المسلمين والعودة الى القسطنطينية هو أن أخباراً وصلته من العاصمة مفادها أن ثورة اندلعت هناك ، تستهدف انتزاع العرش منه»(٤٤) . وأيّد كل من المؤرخ ميخائيل السرياني والمؤرخ

---

(38) William Of Tyre, op. Cit., Vol. II, P. 279; Diehl, Hist. Of the Byzentine Empire, P. 125.
(39) William Of Tyry, op. Cit., Vol. II. 280—81.

(٤٠) يقول ابن قاضي شهبة أنه في سنه ٥٥٤هـ «هادن نور الدين ملك الروم القادم من القسطنطينية بقصد المعاقل الاسلامية بعد تكرار المراسلات والاقتراحات في التقديرات . وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من اطلاق مقدمي الفرنج المقيمين في حبس نور الدين ...» انظر : ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ص١٥٦ ؛ أيضاً أنظر تفاصيل أكثر عند ابن القلانسي : ص٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

(٤١) يعتقد المؤرخ الأرمني غريجوار الكاهن أن عدد هؤلاء الأسرى حوالي عشرة آلاف . انظر :
Gregoire, in R.H.C. Arm. Vol. 1, PP. 189—90
(42) William of Tyre, Hist. Of deeds, Vol. 11, P. 280; I bid., P. 191.
(43) Gregoire Le Pretre, P. 191.
(44) William of Tyre, II, P. 281.

جريجوار الكاهن ، ما رواه وليام الصوري عن سبب انسحاب مانويل وعدوله عن قتال نور الدين(٤٥) .

وهكذا نجحت حملة مانويل كومنين الى حدٍ بعيد ، واعتقد البيزنطيون آنذاك أن المسألة الانطاكية قد سُوّيت ، إذ أفلح الامبراطور في انتزاع اعتراف صريح بسيادة بيزنطة على أمارة انطاكية من أرناط وكبار رجالات الامارة ـ علمانيين وكنسيين ـ وذلك بعد جهود استمرت اكثر من ستين عاماً . كما أن تعهّد أرناط بتعيين بطريرك بيزنطي أرثوذكسي بدلاً من اللاتيني الكاثوليكي ـ في انطاكية ـ يعتبر انتصاراً للكنيسة البيزنطية الارثوذكسية .

ولكن الانتصار البيزنطي هذا كان مؤقتاً ، لأن القوى السياسية في عالم البحر المتوسط ـ آنذاك ـ والأخطار التي احاقت بالطرفين البيزنطي والنورماني الانطاكي ، جعلت الانتصار البيزنطي (عام ١١٥٨ ـ ١١٥٩م) هشاً وقصير الأمد .

تعرضت العلاقات السياسية بين أمارة أنطاكية النورمانية والامبراطورية البيزنطية ـ في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر ـ لكثيرٍ من الاضطرابات التي أملتها الظروف السياسية للطرفين معاً على الصعيدين الداخلي والخارجي . ففي عام ١١٦٠م (أي العام التالي لحملة مانويل على انطاكية) وقع أرناط أسيراً في قبضة نور الدين زنكي(٤٦) . فتولى الوصاية على انطاكية الملك بلدوين الثالث بالتعاون مع البطريرك ايمري(٤٧) . ولكن سرعان ما استنجدت أرملة أرناط ، كونستانس ، بالأمبراطور البيزنطي مانويل ، ونادت به سيداً عليها وعلى أمارتها بموجب معاهدة المصيصة عام ١١٥٩م . وذلك رغبة منها في السيطرة على مقاليد الحكم في الامارة ريثما يبلغ ابنها بوهيموند الثالث ابن ريموند من بواتيه سن الرشد(٤٨) . وكان أن وقف مانويل الى جانب كونستانس ، وبعث وفداً الى انطاكية أعلن وقوف الامبراطور الى جانب الأميرة ، ومن ثم نجح الوفد في خطبة ابنة الأميرة كونستانس نفسها واسمها ماريا ، للزواج من الامبراطور مانويل نفسه الذي كان أرملاً منذ عام ١١٥٨م ، بسبب وفاة

(45) Michel the Syrian, Op. Cit., PP. 352—53; Gregoire Le Pretre, PP. 190—91.

(46) Michel the Syrian, in R.H.C. Arm., Vol. I. PP. 356—57; William Of Tyre, Hist., Of deeds, Vol. II, PP. 283—84.

(47) William Of Tyre, Op. Cit., Vol. II, P. 287.

(48) Cf. Setton, Hist. Of the Crusades, Vol. I, P. 546'

زوجته الالمانية ايرين ، وتم الزواج بين مانويل وماريا (الانطاكية ـ اللاتينية) في ٢٥ ديسمبر من العام ١١٦١م(٤٩) .

رغم أن زواج مانويل من ابنة كونستانس قد ساهم في ازدياد النفوذ البيزنطي في أمارة انطاكية ، إلا أن الحالة الداخلية في انطاكية ذاتها لم تستقر بعيد ذلك . إذ ارتاب نبلاء انطاكية من كونستانس واعتبروها متآمرة مع القسطنطينية . ولهذا التمسوا العون من الزعيم الأرمني ثوروس ـ كما يخبرنا المؤرخ الأرمني ميخائيل السرياني ـ الذي زحف الى انطاكية عام ١١٦٢م وعزل كونستانس عن الوصاية وثبّت ابنها ـ الذي كان قد بلغ سن الرشد ـ اميراً على انطاكية رغم معارضة أمه واحتجاجها(٥٠) .

وكان أن شهدت السنوات الأولى من عهد بوهيموند الثالث (١١٦٢ ـ ١٢٠١م) تعاوناً وثيقاً بين انطاكية وبيزنطة ، والدليل على ذلك هو الحملة التي قادها بوهيموند الثالث ضد المسلمين بالاشتراك مع حاكم قيليقية البيزنطي ـ كولومان ـ وذلك في اغسطس ١١٦٤م ، والتي انتهت بأسرهما على يد نور الدين زنكي(٥١) . وفي العام التالي (١١٦٥م) اطلق نور الدين سراح بوهيموند الثالث لقاء اطلاق ما لديه من الأسرى المسلمين فضلاً عن فدية تعهد بوهيموند بدفعها . فاتجه بوهيموند الثالث الى القسطنطينية يرجو صهره الامبراطور مانويل امداده بالمال اللازم لدفع الفدية . فصدقه الامبراطور السعي ولبى مبتغاه(٥٢) . وخلال وجود بوهيموند الثالث في القسطنطينية اقترن بأميرة بيزنطية وهي نيودورا ـ ابنة شقيق مانويل كومنين ـ ولكن الشيء الهام هو أن بوهيموند تعّهد للامبراطور البيزنطي بأن يقيم بطريركاً بيزنطياً على انطاكية بدلاً من اللاتيني ، وأن يقوم بملء الاسقفيات الشاغرة في الامارة بأساقفة بيزنطيين وذلك مقابل مساعدات مالية سخية(٥٣) .

(49) William Of Tyre, II, PP. 287—92.

(50) Michel the Syrian, P. 358.

(٥١) يقول ابن الأثير إنه عندما حلّ الهزيمة بالفرنج ووقع بوهيموند الثالث في الأسر أشار الزعماء المسلمون على نور الدين بالمسير إلى انطاكية واستردادها من الصليبين . بحجة خلوها أنذاك ممن يحميها ويدفع عنها . الا أن نور الدين رفض هذه النصيحة بسبب حصانة قلعة انطاكية من جهة وخشية أن يستنجد الصليبيون في هذه المدينة بالامبراطور البيزنطي مانويل كومنين من جهة ثانية . وقال نور الدين «وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه . ومجاورة بيمند أحب إلي من جوار ملك الروم» . انظر ابن الأثير : التاريخ الباهر . ص١٢٥ .

(52) William Of Tyre, II, PP. 296—98.

(53) Chalandon, Les Comnenes, Vol. II, PP. 531 FF.; Runciman, The Eastern Schism, P. 96.

وبالفعل غادر بوهيموند الثالث القسطنطينية (اواخر عام ١١٦٥م). الى انطاكية مصطحباً معه البطريرك البيزنطي الارثوذكسي اثناسيوس الثاني . ولكن وصول الأخير الى أنطاكية أثار موجة من السخط لدى السكان اللاتين واحتج البطريرك اللاتيني ايمري ، ولعن المدينة وانسحب الى قلعة مجاورة اسمها القصير . ورغم أن الأخير لقي التأييد والدعم من كاثوليك الشرق اللاتيني عامة وانطاكية خاصة ، ورغم تعاطف بابا روما (الكسندر الثالث) مع قضيته ، رغم كل ذلك فقد بقي البطريرك البيزنطي الارثوذكسي اثناسيوس الثاني مواظباً على ممارسة صلاحياته في كنيسة القديس بطرس بانطاكية(٥٤) .

ويبدو أن الأمير الانطاكي بوهيموند الثالث كان يقدّر تماماً ضرورة الابقاء على أفضل العلاقات مع بيزنطة وذلك للحصول على مساعدتها في ظروف ازداد الخطر العربي الاسلامي على أمارته ، بظهور صلاح الدين الأيوبي ، مما جعله يخاطر في معارضة رعاياه وكبار رجالات انطاكية - علمانيين وكنسيين - في قضية البطريرك اللاتيني . على أنه حدث في التاسع والعشرين من يونيو عام ١١٧٠م أن زلزلت الأرض في شمال الشام(٥٥) ، ولم تنج انطاكية من هذه الكارثة ، حيث تحطمت كتدرائية القديس بطرس وتناثرت حجارتها وأصابت البطريرك البيزنطي اثناسيوس الثاني وحاشيته اثناء قيامهم بالخدمة الدينية في الكتدرائية . وكان أن ادعّى ايمري وجماعته أن الغضب قد حل على المدينة نتيجة خروج البطريرك الكاثوليكي (ايمري) ودخول البطريرك الأرثوذكسي (اثناسيوس الثاني) ، فأمر بوهيموند الثالث عندئذ مضطراً - باخراج اثناسيوس من بين حطام الكنيسة واعاد ايمري الى العرش البطريركي . ويبدو أن الامبراطور البيزنطي لم يكن في ذلك الوقت في وضع مناسب لكي يقوم باحتجاج فعّال ضد هذا الاجراء(٥٦) ، الذي يعتبر انتهاكاً لمعاهدة المصيصة (١١٥٩م) التي وقعت بين مانويل كومنين وارناط ، وانتهاكاً للاتفاق الذي تمّ بين مانويل ذاته والامير بوهيموند الثالث في القسطنطينية عام ١١٦٥م .

---

(54) Runciman, Op. Cit., P. 96; Setton, op. Cit., Vol. I, P. 554.
(55) Hethoum, Comte de Groigas, Op. Cit., P. 476.
(56) Runciman, The Eastern Schism, P. 96; Setton, I, P. 554.

وخلال الربع الأخير من القرن الثاني عشر لم يقمْ الطرفان ـ البيزنطي والنورماني الانطاكي ـ بأية نشاطات عسكرية أو سياسية تجاه بعضهما . والسبب في ذلك انشغال بيزنطة بشكل كلي ـ كما سنوضح ذلك في الفصول التالية ـ في مواجهة الدفاع عن وجودها ضد اللاتين المقيمين في أراضيها من جهة والغزو النورماني الذي قام به وليام الثاني ضدها من جهة ثانية والحملة الصليبية الثالثة من جهة ثالثة ومن ثم تدهور الاحوال الداخلية والخارجية والاتجاه نحو كارثة الحملة الصليبية الرابعة . أما بالنسبة الى أمارة انطاكية فقد تعرضت خلال تلك الفترة الى اضطرابات داخلية نتيجة مشاكل بوهيموند الثالث مع الكنيسة(٥٧) ، هذا بالاضافة الى الخطر العربي الاسلامي على الأمارة والذي تجلى بانتزاع صلاح الدين الأيوبي معظم مدن وقلاع الامـارة عام ٥٨٤هـ (١١٨٨م)(٥٨) . ورغم أن الظروف اتاحت لبوهيموند الثالث امكانية توحيد أمارتي انطاكية وطرابلس ، عندما ورث ابنه بوهيموند الرابع امارة طرابلس بعد وفاة أميرها ريموند الثالث (١١٨٧م) ، إلا انهما لم يوّحدا جهودهما ، فضلاً عن أن بوهيموند الثالث قد فشل فشلاً ذريعاً عندما حاول استرجاع جبلـة والـلاذقية من العـرب المسلمين(٥٩) . حتى أن بوهيموند اضطر إلى زيارة صلاح الدين الأيوبي الذي استقبله بحفاوة بالغة(٦٠) وذلك في محاولة منه للحفاظ على ما تبقى من امارة انطاكية . واستمر الانحطاط في الامارة ، في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وإذا كانت بيزنطة قد سقطت بيد اللاتين في الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م ، فان أمارة انطاكية قد سقطت بيد الظاهر بيبرس ، الذي دمرها عام ١٢٦٨م ، وتحوّلت انطاكية الى قرية قائمة في وسط خراب كبير(٦١) . وبذلك سوّيت المسألة الانطاكية على يد قوة ثالثة ، ليست بيزنطية وليست نورمانية ! وانما عربية اسلامية .

---

(57) William Of Tyre, II, PP. 454—57.

(٥٨) انظر : ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص٨٦ ـ ٩٥ .

(٥٩) المصدر السابق : ص١٩٣ .

(٦٠) المصدر السابق : ص٢٤٠ .

(٦١) انظر تفصيل ذلك عند : ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، ص٣٠٨ وما بعدها .

البَابُ الرَّابِعُ

الصراع بين بيزنطة ومملكة الصقليتين

١١٣٠ ـ ١١٥٨م

الفصل الأول

بيزنطة وتتويج روجر الثاني ملكاً على جنوب ايطاليا وصقلية عام ١١٣٠م .

بوفاة روبرت جويسكارد عام ١٠٨٥م ، انتهى العصر البطولي للنورمان في جنوب ايطاليا ، ليبدأ عصر آخر استغرق نصف قرن من الزمن ، تميز بالتدهور والتفسخ ، نتيجة عوامل ذاتية وموضوعية ، في آن واحد . فبعد وفاة جويسكارد آلت ممتلكاته ـ في ابوليا وكلابريا ـ فضلاً عن لقبه الى ابنه روجر بورصا (١٠٨٥ ـ ١١١١م) . على أن الأخير كان يفتقر الى سمات رجل الدولة ، ولذا عجز عن ضبط شؤون الدوقية وتنظيم أمورها . والدليل على ذلك أنه صرف عهده في العمل على تثبيت سيادته على املاكه . وكان أن وقع في نزاع مع شقيقه بوهيموند على تركة ابيهما وحصل الأخير نتيجة ذلك على امارة تارنتوم ، ومن ثم انشغل الدوق روجر بورصا في القضاء على ثورات اتباعه، التي كان للدبلوماسية البيزنطية دور ملموس في اثارتها(١) .

ولم يلبث أن تُوفي بورصا (فبراير ١١١١م) تاركاً الدوقية لابنه الوحيد وليام ، وبما أن الأخير كان قاصراً فقد تولّت أمه ـ ايلين من الفلاندر ـ الوصاية عليه وادارة شؤون الدوقية(٢) . ويعتقد المؤرخ نورويتش Norwich أنه لو كان بوهيموند في ذلك الوقت على قيد الحياة لتسلم الدوقية ، في تلك الفترة العصيبة التي كانت تتطلب شخصية قوية اكثر من أي وقت مضى . ولكن الظروف شاءت أن يموت بوهيموند بعد وفاة شقيقه ـ الدوق بورصا ـ بأسبوع واحد ، تاركاً بدوره ابنه الوحيد ، بوهيموند الثاني أميراً على تارنتوم وبما أن الأخير كان قاصراً ، فقد تولّت أمه كونستانس ـ ابنة الملك الفرنسي فيليب ـ شؤون الامارة كوصية على ابنها(٣)

(1) Yewdale, Bohemond, PP. 25— 33: Curtis, Roger Of Sicily, PP. 89— 92.
(2) Norwich, The Normans In the South, P. 304.
(3) IBid., PP. 303— 304.

والواقع ان الوارث الحقيقي لجويسكارد ـ كزعيم سياسي وقائدٍ عسكري ـ لم يكن ابنه روجر بورصا ، وانما كان شقيقه الكونت روجر ، الذي كان بطـل «الفتوحات» النورمانية في صقلية . وكان روجر هذا قد تسلّم جزيرة صقلية نائباً عن أخيه الدوق جويسكارد واتخذ لقب (كونت صقلية) . وبعد وفاة جويسكارد (١٠٨٥م) أتم الكونت بمفرده فتح صقلية (عام ١٠٩١م)(٤) . ولعل الشيء الجدير بالذكر هو أن الكونت روجر حكم جزيرة صقلية ـ حتى وفاته عام ١١٠١م ـ تابعاً ـ من الناحية الاسمية ـ لابن أخيه الدوق بورصا(٥) . وعندما تعرضت سلطة الأخير للخطر ، سواء من قبل شقيقه بوهيموند أو من قبل اتباعه استنجد بعمه ـ كونت صقلية ـ الذي قدّم له العون مقابل التنازل عن عدد من الحصون والمواقع الهامة في كلابريا(٦) وهذه بدورها اضعفت عملية التبعية بين الدوق والكونت .

وعند وفاة الكونت روجر (عام ١١٠١م) خلف وراءه ولدين هما سيمون وروجر ، تحت وصاية أمهما اديلدا . ولم يلبث أن توفي سيمون عام ١١٠٥م وعمره اثنتي عشر سنة ، تاركاً شقيقه الأصغر ، روجر البالغ من العمر عندئذ عشر سنوات ، وريثاً وحيداً بدون منازع للمتلكات النورمانية في صقلية وكلابريا . وبقيت أمه اديلدا تدير شؤون الحكم كوصية على ابنها روجر هذا ، والذي سيُعرف بروجـر الثانـي ، حتـى عام ١١١٢م ، حيث انتهت الوصاية في ذلك العام ، وعندئذ بدأ روجر الثانـي يمـارس سلطاته «بوصفه» كونت صقلية(٧) .

بظهور روجر الثاني يبدأ العصر الذهبي لنورمان جنوب ايطاليا وصقلية إذ كان شخصية قوية ، ورجل دولة من الطراز الأول ، فضلاً عن أنه أغنى أمراء عصره ، نتيجة ثراء صقلية ورخائها . ويبدو أن مطامع روجر الثاني كانت لا تقل عن ثروته وقوته ، حيث حمل روجر الثاني كل مطامح آل هوتفيل وتطلعاتهم(٨) . وقد اعتقد روجر الثاني أن الخطوة الأولى التي يجب أن يتخذها هي العمل على توحيد كل فتوحات آل

(٤) لقد اشار الادريسي الى أن الكونت روجر فتح صقليه بعد ثلاثين عاماً من القتال والعمل والجد . انظر الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق طبعة روما . ص ٢٠ ـ ٢١ ـ

(5) Haskins, The Normans, PP. 206 — 207; Curtis, Roger of Sicily, p. 92.

(6) Curtis, Op. Cit., pp. 89— 90.

(7) Runciman, The Sicilian Vespers, P. 20; Curtis, Op. Cit., PP. 101— 102, 110; Haskins, Op. Cit., P. 210.

(٨) انظر ما كتبه الادريسي عن سخصية روجر الثاني : نزهة المشتاق ، ص٣ .

هوتفيل في ايطاليا وصقلية داخل اطار دولة واحدة . ولعل قوة روجر الثاني وثروته من جهة وضعف أبناء عمومته في جنوب ايطاليا(٩) من جهة ثانية ، هما العاملان اللذان شجعا روجر الثاني على تبني مشروع التوحيد الذي ربما كان قد راود مخيلة جويسكارد من قبل .

وفعلاً ما كاد يموت الدوق وليام بن بورصا بن جويسكارد عام ١١٢٧م(١٠) ، حتى انطلق روجر الثاني بقواته من صقلية ، وتمكن من فرض سيادته على كل الاملاك النورمانية في جنوب ايطاليا(١١) ، حتى اعترفت به البابوية في أغسطس من عام ١١٢٨م دوقاً على صقلية وأبوليا وكلابريا(١٢) . وسرعان ما تدخل الدوق روجر الثاني في النزاع الذي احتدم آنذاك بين اثنين من البابوات على عرش القديس بطرس في روما ، واعلن روجر الثاني تأييده لأحدهما ، وهو البابا آناكليتوس الثاني (١١٣٠ - ١١٣٨م) ، وقابل الأخير ذلك المعروف بأن أصدر مرسوماً بابوياً (في سبتمبر عام ١١٣٠) يجعل فيه الدوق روجر الثاني ملكاً على النورمان في جنوب ايطاليا وصقلية . وقد أقسم روجر يمين الولاء والطاعة لكنيسة القديس بطرس ، متعهداً بدفع مبلغٍ معينٍ

---

(٩) لقد توفي بورصا بن جويسكارد عام ١١١١م ، وتولت أرملته الوصاية على ابنه الوحيد وليام . وفي عام ١١١٥ أخذ وليام بممارسة صلاحياته كدوق على ابوليا وكلابريا . إلا أنه كان ضعيفاً . واستمر التمزق والانحطاط في الدوقية وذلك نتيجة ثورة افصاله من جهة والأزمات المالية من جهة ثانية . واضطر وليام هذا الى طلب العون من روجر الثاني . واستغل الأخير ظروف وليام وفضّل توسيع ممتلكاته عن طريق الذهبْ بدلاً من الدم . ويقال أن وليام تنازل لورجر الثاني عن كل كلابريا وعن حصة الدوقية في مسينا وباليرمو مقابل المساعدات المالية والعسكرية التي قدمّها روجر الثاني . انظر :Curtis, Roger Of Sicily, PP. 116— 117; Norwich, The Normans in The South, PP. 305—

(١٠) لقد توفي الدوق وليام (١١٢٧م) دون ان يُنجب وريثاً أو يُعينّ خليفه له . ولكن الدراسات الحديثة تشير الى أن الدوق وليام قد زار مسينا عام ١١٢٥م ، حيث تناقس مع روجر الثاني حول مستقبل الدوقية ، وأن وليام قد منح روجر الثاني حق ورانته . انظر: Norwich Op. Cit., PP.306— 307; Curtis, Op. cit., P. 118

(١١) ان احتواء روجر الثاني للأملاك النورمانية في جنوب ايطاليا هو انتهاك للحقوق الشرعية لأمير انطاكية بوهيموند الثاني ابن بوهيموند بن جويسكارد . فلقد كان بوهيموند الثاني أقرب آل هوتفيل للدوق وليام المتوفي عام ١١٢٧م . ويطالعنا المؤرخ وليام الصوري برواية مفادها أنه عندما غادر بوهيموند الثاني تارنتوم إلى انطاكية عام ١١٢٦م اتفق مع الدوق وليام أن من يموت منهما أولاً يحق للثاني أن يرثه . وكان أن توفي وليام دون وريث ، ويحق لبوهيموند الثاني - وفق الاتفاقية - أن يرث الدوقية في ابوليا وكلابريا ، ولكن سرعان ما توفي هو الآخر عام ١١٣٠م . انظر : .William Of Tyre,. 11, P. 32.

(12) Tout, The Empire And the PaPACY, Vol. II, p. 228; Norwich, The Normans in the South, PP. 309— 312.

لها سنوياً . وفي عيد الميلاد (٢٥ ديسمبر من عام ١١٣٠م) ، تُوج روجر الثاني ملكاً في باليرمو على يد المندوب البابوي ، وأصبح بذلك أحد ملوك أوربه الأقوياء .(١٣) وهكذا قامت «مملكة الصقليتين» التي شملت الاملاك النورمانية في ايطاليا الجنوبية وصقلية .

أما البيزنطيون فكانوا قد ظنّوا ـ خلال فترة لانحطاط التي ألّمت بنورمان جنوب ايطاليا وصقلية في الربع الأول من القرن الثاني عشر ـ بأن الخطر النورماني القادم من ايطاليا قد اختفى . ولذا ركّزوا جهودهم في القضاء على رأس الحربة الذي أقامه النورمان في انطاكية ، وفي الوقت نفسه استمروا يرقبون ـ باهتام شديد ـ تطور الأحداث التي كانت جنوب ايطاليا مسرحاً لها . ولم تلبث الدوائر البيزنطية أن أخذت تشعر بقلقٍ شديدٍ منذ عام ١١٢٧م ، ونظرت الى مساعي روجر الثاني في توحيد الممتلكات النورمانية في جنوب ايطاليا وصقلية بغطرسة وكبرياء بالغين ، واعتبرت أن كل انتصار يحرزه روجر الثاني في هذا السبيل انما هو جرح لكبرياء الامبراطورية وبالتالي مصدر خطر على مصالحها وحقوقها في عالم البحر المتوسط .

لم تنس الامبراطورية البيزنطية حقوقها المشروعة في جنوب ايطاليا ، واستمر اباطرتها يعتبرون انفسهم اصحاب السيادة الشرعية على المقاطعات التي يحتلها النورمان(١٤) . وعلى هذا فان كل توسعٍ للقوات النورمانية ، كان يُنظر اليه في بلاط القسطنطينية بعين ملؤها الغضب والقلق ، لأن ازدياد قوة النورمان كان يقلل ـ بطبيعة الحال ـ من الفرص الطيبة أمام البيزنطيين لاستعادة سيطرتهم على ايطاليا .

ثم كان أن وجّه روجر الثاني طعنة نجلاء الى بيزنطة عندما تُوج ملكاً ، واعتبر البيزنطيون ذلك تحدياً صارخاً للسيادة الامبراطورية وانتهاكاً لحقوق صاحب «العباءة الارجوانية» في جنوب ايطاليا(١٥) . وأدرك المعاصرون أن تتويج روجر الثاني ملكاً يمكن أن يكون تأكيداً راسخاً بأن بيزنطة قد فقدت كل أمل في إعادة مقاطعاتها الايطالية . ورغم ذلك كله فإن بيزنطة لم تتنازل عن سيادتها ـ الاسمية ـ على جنوب شبه الجزيرة الايطالية ، وظلت فكرة اعادة فتح ايطالية حلماً محبباً يداعب مخيلة الاباطرة

---

(13) William Of Tyre, Op. Cit., Vol. LL, PP. 59; Thatcher, O.J., Asourcebook, Doc. No. 88, PP. 168— 69; NorWich, Op. Cit., PP. 328— 331.
(14) Chalandon, Hist. de La Domination, Vol. L, P. 3.
(15) Kinnamos, In C.S.H.B.,PP91— 92.

البيزنطيين طوال القرن الثاني عشر(١٦) .

وعندما تفجّرت الثورة في المملكة النورمانية ـ بعد تتويج روجر الثاني ـ توقّع البيزنطيون ان المملكة النورمانية الفتية ستنهار سريعا(١٧) ولكن خاب أملهم عندما نجح الملك الجديد في اخماد هذه الثورة . ورغم أن الامبراطور يوحنا كومنين (١١١٨ ـ ١١٤٣م) لم يتدخل في ذلك الوقت في المسائل الايطالية إلا أنه كان يستقبل بترحاب كبير بعضاً من السادة النورمان الذين يلجأون الى الأراضي البيزنطية . والدليل على ذلك هو أن روجر الثاني قد أغار اكثر من مرة ـ كما يقول المؤرخ نيقتاس ـ على الشواطىء البيزنطية انتقاماً من الامبراطور يوحنا كومنين بسبب الدعم الذي يقدمه الأخير للأفصال النورمان الثائرين ضد الملك روجر الثاني(١٨) . كذلك هاجم روجر الثاني البنادقة لكونهم حلفاء للعاهل البيزنطي يوحنا كومنين(١٩) .

وأخيراً أدركت بيزنطة ـ ازاء قيام المملكة النورمانية في قلب البحر المتوسط وتعاظم قواتها ـ ضرورة رسم سياسة أكثر ايجابية ، فإذا كان من المستحيل إعادة السيادة البيزنطية إلى جنوب ايطاليا ، فعلى الأقل يجب منع روجر الثاني من أخذ زمام المبادرة في شن حرب ضد الامبراطورية البيزنطية(٢٠) .

والواقع ان طموح الملك روجر الثاني لم يهدّد مصالح بيزنطة في الغرب فحسب وانما في الشرق أيضاً . ذلك أن الملك النورماني أخذ يتطلع الى جعل صقلية سيدة التجارة في البحر المتوسط ، وقوة عالمية تمكنه من فرض سيادته وسلطانه على ذلك البحر(٢١) . ولعل الدليل على ذلك هو احتلال روجر الثاني للعديد من المواقع في شمال افريقية(٢٢) ،

(16) Vasiliev, Hist. Of the Byzantine Empire, Vol. LL, P. 414 .
(17) Curtis, Roger Of Sicily, PP. 154— 170.
(18) Nicetas, In C.S.H.B., P. 97.
(19) Setton, Hist. Of the Crusades Vol. LL, P.9.
(20) Bailly, A., Byzance, PP. 327— 28.
(21) Runciman, The Sicilian Vespers, P. 21.

(٢٢) احتل الأسطول النورماني مدينة طرابلس الغرب عام ٥٤١هـ (١١٤٦م) . وعلى أثرها خضعت قابس . ومن ثم احتل النورمان المهدية عام ٥٤٣هـ (١١٤٨م) . وكان استيلاء النورمان على هذه الموانىء الهامة أن هيأ لهم الإغارة على مدن أخرى مجاورة مثل سوسة وصفاقس . ولقد استمر النورمان يحتفظون بأملاكهم في افريقية الشمالية حتى طردهم منها المسلمون الموحدون في عام ٥٥٥هـ (١١٦٠م) . انظر تفاصيل ذلك كله : ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار المغرب . المكتبة الصقلية . ج٢ . ص٣٧٢ ـ ٣٧٤ : ابن ابي الدينار : المؤنس في أخبار أفريقية وتونس . المكتبة الصقلية ج٢ . ص٥٣٧ ـ ٥٣٨ : ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان . المكتبة الصقلية . ج٢ . ص٦٤٢ : النويري :=

ومحاولته الحصول على تاج مملكة بيت المقدس الصليبية وأمارة انطاكية النورمانية .

ويخبرنا المؤرخ وليام الصوري أن اديلدا ـ والدة روجر الثاني ـ قد تزوجت بلدوين الثاني ـ ملك بيت المقدس ـ عام ١١١٣م . ومن المعروف ان بلدوين لم يكن له ولد ، فاشتُرِط في عقد الزواج أنه في حالة وفاة بلدوين دون وريث ، فان تاج مملكة بيت المقدس يجب أن يؤول الى روجر الثاني . الا أن بلدوين قد طلّق اديلدا عام ١١١٧م ، وعادت الأخيرة الى صقلية بعد أن صرف بلدوين ثروتها . ولهذا لم يغفر روجر لملك بيت المقدس هذه الطعنة ، واستمر روجر الثاني يذكّر بأن مملكة بيت المقدس هي حق له(٢٣) .

وكذلك يخبرنا المؤرخ وليام الصوري عن رغبة روجر الثاني في امتلاك انطاكية . فعندما قتل أمير انطاكية بوهيموند الثاني (١١٣٠م) ، واستُدعى ريموند بواتيه ـ الى انطاكية للزواج من كونستانس وتولي شؤون الأمارة ـ فقد تم ذلك في سرية تامة تحاشياً لإثارة الملك روجر الثاني ، الذي كان يطمع في وراثة ابن عمه (بوهيموند الأول ابن جويسكارد) . وكان روجر هذا يعتبر انطاكية وكل ما يتبعها مُلكاً له بحكم الوراثة(٢٤) . ورغم السرّية التي احيط بها استدعاء ريموند فقد علم الملك روجر الثاني بهذا المشروع ، ولذا حاول ـ عبثاً ـ منع وصول ريموند الى انطاكية وفرض رقابة شديدة في البحر المتوسط وعبر ممتلكاته على كل القادمين من الغرب الاوروبي الى الشرق . ولكن ريموند وصل الى انطاكية متنكراً ، وبذلك فشلت محاولة الملك النورماني . وفي عام ١١٣٨م عامل الملك روجر الثاني البطريرك الانطاكي أدولف ، عندما اجتاز الأخير ممتلكات روجر ـ وهو في طريقه الى روما ـ معاملة قاسية . ولكن عندما عاد البطريرك من روما الى انطاكية عامله روجر معاملة طيبة جداً واستقبله استقبالاً حافلاً بل وزوده بسفن لمرافقته(٢٥) . ويبدو أن هذه المبالغة في التودد الى البطريرك الانطاكي تنبع من رغبة روجر في الاستيلاء على عرش انطاكية ووجد أن

= نهاية الأدب في فنون الأدب ، المكتبة الصقلية ، ج٢ ، ص٤٥٦ ـ ٤٥٨ ؛ محي الدين المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، المكتبة الصقلية ، ج٢ ، ص٣١٩ ـ ٣٢٠ .

(23) William of Tyre, Hist, Of Deeds, Vol.I, PP. 496 — 97.
(24) Ibid., Vol. II, PP. 59— 60.
(25) Ibid., Vol. II, PP. 113— 116.

البطريرك الانطاكي هو الحليف المناسب لتحقيق هذه الأمنية .

ونستنتج من الروايات السابقة أن روجر الثاني كان جاداً في مد نفوذه الى بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وهذا وحده كان كافياً لخلق الذعر والخوف في قلوب البيزنطيين ، خاصة وأن يوحنا كومنين ـ كما بينا سابقاً ـ كان جاداً في حسم الموقف في شمال الشام ، وتسوية المسألة الانطاكية بشكل خاص . وازاء محاولات روجر الثاني للاستقرار في الشرق ، فضلاً عن تعاظم قوة المملكة النورمانية في جنوب ايطاليا ، قرر الامبراطور يوحنا كومنين الاتصال بالعاهل الألماني لوثير الثاني الذي كان يحلم بدوره ـ دفاعاً عن المصالح الالمانية في ايطاليا ـ في تدمير المملكة النورمانية(٢٦) .

وبالفعل نجحت المفاوضات البيزنطية ـ الالمانية في تشكيل حلف ضد روجر الثاني(٢٧) . وجرّد الملك الالماني لوثير الثاني عام ١١٣٦م حملة ضخمة ضد الملك النورماني ، هذه الحملة التي ربما تكون الامبراطورية البيزنطية قد تولّت تمويلها . ويخبرنا المؤرخ الالماني أوتو أسقف فريسينك ، بتفاصيلٍ وافيةٍ عن حملة الملك الالماني على ايطاليا ، ويقول «بأن لوثير نجح نجاحاً باهراً في اكتساح الاملاك النورمانية في كامبانيا وأبوليا . وحقق لوثير ما عجز أي ملك أن يحققه منذ شارلمان ، اذ استولى لوثير على معظم مدن هاتين المنطقتين وكان أن حاول روجر الثاني التصدي للملك الالماني ، ولكنه فشل في ذلك فشلاً ذريعاً واضطر الى الفرار الى جبال كلابريا» . واضاف المؤرخ الالماني قائلا : «لقد رغب لوثير في نقل الحرب الى كلابريا وصقلية ، ولكن اتباعه منعوه من ذلك لأنهم كانوا يرغبون في العودة إلى ديارهم . وعندئذ سلمّ لوثير دوقية ابوليا الى شخصية نورمانية مشهورة وهو رينولف ـ عدو روجر الثاني ـ مما جعل الملك الالماني يعود مسرعاً الى بلاده ، وإن كان قد توفي في الطريق ، في شهر ديسمبر من العام ١١٣٧م»(٢٨) .

على أن هذا الانتصار الالماني كان قصير الأمد ، حيث تمكن الملك روجر ـ بعد وفاة رينولف ـ من أن يستعيد كل ما انتُزع منه في ابوليا وكامبانيا(٢٩) . والمهم في ذلك

(٢٦) عن موقف المانيا في هذه الفترة من المملكه النورمانية انظر :
Hodgson, Venice, PP. 260—61; Curtis, Roger of Cicily, PP. 171—72; Hussey, The Byzantine World, P. 61.
(27) Diehl, Hist. Of The Byzantine Empirre, PP. 120—21; Curtis, OpCit., PP. 178—85.
(28) Otto Of Freising, The Two Cities, PP. 426—28.
(29) Ibid., P. 432.

أن الحملة الالمانية على ايطاليا ، والتي اتُفق بشأنها ورُتبت خلال المفاوضات البيزنطية ـ الالمانية قد شغلت الملك روجر عن مهاجمة الأراضي البيزنطية من جهة وسمحت ليوحنا كومنين في القيام بحملته ضد نورمان انطاكية (عام ١١٣٧م) ، دون ان يخشى هجوماً مفاجئاً من الملك النورماني ، من جهة ثانية .

وفي عام ١١٤٠م ، عادت بيزنطة تحاول تجديد تحالفها مع الامبراطورية الالمانية لمواجهة خطر المملكة النورمانية ، خاصة وأن الامبراطور البيزنطي ، يوحنا كومنين ، كان يعتزم القيام بحملة ثانية ضد أمارة انطاكية النورمانية . ولذا رغب في أن يلعب الملك الالماني الجديد ، كونراد الثالث (٣٠) نفس الدور الذي لعبه سلفه لوثير الثاني . ولدينا رسالة موجهة من الملك الالماني كونراد الثالث الى الامبراطور يوحنا كومنين ، بتاريخ ١١٤٢م ، يعرب فيها الملك الألماني عن رغبته في تجديد التحالف مع بيزنطة الذي وضع أساسه لوثير . ومن ثم يشرح العاهل الألماني الخطر الذي تشكله مملكة النورمان على المانيا وبيزنطة على حد سواء . وطلب كونراد من يوحنا ضرورة التعاون فيا بينهما لتقليم أظافر روجر الثاني . وفي نهاية الرسالة أبلغ الملك الألماني الامبراطور البيزنطي بأنه اختار شقيقة زوجته ، الأميرة برتا ، لتكون زوجة لمانويل ـ ابن الامبراطور يوحنا ـ بهدف تقوية الروابط بين الاسرتين الحاكمتين (٣١) ، وبالفعل تمت الخطوبة وقدمت العروس الألمانية الى القسطنطينية في اغسطس من نفس العام ١١٤٢م (٣٢) . وبذلك تجدّد التحالف بين بيزنطة وألمانيا ، على اساس المصاهرة ، وكان موجهاً بالدرجة الأولى ضد روجر الثاني . ويعتقد المؤرخ المعاصر يوحنا كناموس ، ان تجديد التحالف البيزنطي ـ الالماني هو الذي سمح ليوحنا كومنين في القيام بحملته الثانية (١١٤٢ ـ ١١٤٣م) ضد نورمان انطاكية ، دون ان يخشى استغلال روجر فرصة غيابه ومهاجمة الامبراطورية (٣٣) .

وقد خشي الملك روجر الثاني تحالف الامبراطورتين ، ولهذا حاول التقرب من

---

(٣٠) بعد وفاة لوثير عام ١١٣٧م اعتلى العرش الالماني ابن اخيه كونراد الثالث (١١٣٨ ـ ١١٥٢م) . انظر :
OttO of Freising, Op. Cit., P. 431.
(31) Asource Book, Ed. And Tr., Thatcher, O.J., Doc. No. 93, PP. 173—74.
(32) Kinnamos, C. S.H.B., PP. 63 FF.
(33) Ibid., P. 91.

الامبراطورية البيزنطية . فأرسل سفارة الى القسطنطينية (عـام ١١٤٢ ـ ١١٤٣م) يطلب يد أميرة بيزنطية للزواج من أحد أولاده . ولكن السفارة النورمانية وصلت الى القسطنطينية ويوحنا كومنين على فراش الموت ، فرفض الامبراطور الجديد مانـويل كومنين العرض النورماني ، بل لا يُستبعد أن يكون الأخير قد زجّ السفارة النورمانية في أحد سجون القسطنطينية(٣٤) .

ونستنتج مما سبق أن قيام المملكة النورمانية وتتويج روجر الثاني كان تحدياً صارخاً لبيزنطة وخطراً حقيقياً على مصالحها في الغرب والشرق . وردّت الامبراطورية على ذلك بالتحالف مع المانيا ، ونجحت في هذا السبيل وبـذلك أصبـح الملك روجـر الثاني ـ ازاء التحالف البيزنطي ـ الالماني ـ مضطراً لأن يفكر مليّاً قبل الاقدام على مهاجمة بيزنطة ، ولم يكن هذا مكسباً ضئيلاً بالنسبة للامبراطورية البيزنطية .

(34) Norwich, The Kingdom In The Sun, P. 114; Chalandon, Les Commenes Vol. II, P. 172.

الفَصل الثاني

حملة روجر الثاني ضد اليونان ورد الفعل البيزنطي
١١٤٧ ـ ١١٥٠م

ان المدخل الطبيعي لمناقشة هذه الحملة ودراستها هو تحرك الحملة الصليبية الثانية التي نادى بها عام ١١٤٥م القديس برنارد رئيس دير كليرفو، وقادها الملك الالماني ـ حليف بيزنطة ـ كونراد الثالث والملك الفرنسي لويس السابع(١). ويخبرنا المؤرخ الفرنسي المعاصر اودو من دويل «أن الملك روجر الثاني رغب في المشاركة في هذه الحملة واعلن عن رغبته هذه من خلال وفد بعثه الى الملك لويس السابع، وتعهّد روجر الثاني بتزويد الصليبيين بكل ما تحتاجه الحملة الصليبية من المؤن والذخيرة، فضلاً عن استعداده لنقل الصليبيين على سفنه. كما وعد روجر الثاني بأنه سوف يشترك بنفسه، أو ابنه، في هذه الحملة الصليبية»(٢).

وفي الاجتماع الذي عُقد في مدينة ايتامب (١٦ ـ ١٨ فبراير ١١٤٣م)-لمناقشة الطريق التي يجب أن تسلكه الحملة الصليبية الثانية ـ كرّر الوفد النورماني تعهدات الملك روجر الثاني اذا اتخذت الجيوش الصليبية الطريق البحري واجتازت ممتلكاته. وأشار الوفد النورماني في هذا الاجتماع أيضاً الى مخاطر الطريق البري عبر الأراضي البيزنطية وركز على «خداع البيزنطيين وتضليلهم» عندما اجتازت الحملة الصليبية الأولى بلادهم. ورغم هذه النصائح التي قدمها الوفد النورماني، فقد قرر المجتمعون اتباع الطريق البري عبر الممتلكات البيزنطية. وعندئذ انصرف الوفد النورماني عائداً الى بلاده وعلائم الحزن والألم ـ كما يقول المؤرخ أودو ـ واضحة على

---

(١) ان المؤرخ الرسمي للحملة الصليبية الثانيه وبالذات لدور لويس السابع فيها هو المؤرخ الفرنسي أودومن دويل
Odo of deuil, De profectione ludovici vii in orientem, (Eng. Trans.), New York, 1948.
(2) Ibid., p 11.

وجوههم لفشلهم في مهمتهم(٣) . وبالتالي انسحب روجر الثاني من مشروع الحملة الصليبية الثانية .

وقد اعتقدت الدوائر البيزنطية أن الحملة الصليبية الثانية تحمل في جنباتها خطراً نورمانياً على الامبراطورية من ثلاث زوايا رئيسية :

أولاً : إذا قُدّر لروجر الثاني الاشتراك في هذه الحملة فإنه يحتمل أن يوجه الملك النورماني الحملة الصليبية برمتها ضد القسطنطينية نفسها ، أو على الأقل ضد أمارة انطاكية التي يدّعي بأن له الحق في وراثتها ، كما يخبرنا بذلك المؤرخ الصليبي وليام الصوري(٤) . خاصة وأن العلاقة بين روجر الثاني والفرنسيين كانت طيبة ، والفرنسيون كانوا شريكاً أساسياً في الحملة الصليبية الثانية(٥) .

ثانياً : إذا لم يشترك روجر الثاني في الحملة الصليبية هذه فإن اشتراك العاهل الألماني كونراد الثالث يعني تهديد التحالف البيزنطي ـ الألماني القائم والموجّه اساساً لاحتواء مطامح روجر الثاني ، فضلاً عن أن غياب كونراد عن مسرح الأحداث في ايطاليا يعني اتاحة فرصة ذهبية لروجر الثاني ليغزو الأراضي البيزنطية دون خوف من نزول الألمان إلى ايطاليا كما حدث في السابق(٦) .

ثالثاً : إن انشغال البيزنطيين بمراقبة تحركات جيوش الصليبيين يمكن أن يكون كارثة بالنسبة للامبراطورية ، لانه يقدم فرصة طيبة لروجر الثاني لمهاجمة الامبراطورية البيزنطية في ظرف لا تستطيع فيه الرد بسرعة(٧) .

وبالفعل تحققت الفرضية البيزنطية الثالثة ، ففي الوقت الذي كان العاهل البيزنطي مانويل كومنين مشغولاً بكليّته في مراقبة مرور القوات الصليبية عبر أراضيه(٨) ، غادر أسطول نورماني (خريف عام ١١٤٧م) ضخم مدينة أوطرانت

---

(3) Ibid., pp. 11. 15.

(4) William of Tyre, 11, pp. 59. 60.

(٥) انظر المديح الذي كاله المؤرخ الفرنسي أودو للملك روجر الثاني في أكثر من موضع في كتابه :

Odo of deuil, pp. 7- 15.

(6) Norwich, The Kingdom; p. 116; Vasiliev, 11, pp. 418- 20.

(7) Heyd, Hist. du Commerce, vol. I, p. 198.

(٨) يحدثنا المؤرخ أودو أنه في الوقت الذي كان الصليبيون يشقّون طريقهم عبر الامبراطورية البيزنطية الى الشام ، علموا =

(اوترانتو)(٩) ، تحت قيادة جورج الانطاكي(١٠) واتجه الى جزيرة كورفو البيزنطية(١١) . وقد استقبلت فئة من سكان هذه الجزيرة القوات النورمانية بحفاوة بالغة ، وذلك لأن هؤلاء السكان كانوا مستائين من الضرائب التي تفرضها عليهم الحكومة البيزنطية ، ولهذا اسرعوا في التفاوض مع القوات النورمانية الغازية(١٢) ، ودخلت الأخيرة جزيرة كورفو دون قتال ، ويعلّق المؤرخ البيزنطي المعاصر ، نيقتاس قونياتس ، على هذه الاحداث بقوله : «لقد أراد سكان جزيرة كورفو تجنب الضرائب فوقعوا في نار الاستبعاد»(١٣) .

وبعد أن ترك القائد جورج الانطاكي حامية تقدّر بألف رجل في جزيرة كورفو ، توجه بالأسطول النورماني إلى ممفيسيا بقصد احتلالها . ولكنه فشل بذلك فشلاً ذريعاً ، وتراجعت القوات النورمانية مخذولة دون أن تتمكن من النزول الى الشاطىء(١٤) . فتوجهت عندئذ نحو مدينة ميثون Methon ـ الواقعة على ساحل البيلوبونيز ـ حيث تمكن النورمان من احتلالها ، ثم سقطت بأيديهم العديد من المدن

= أن مانويل قد وقّع معاهدة سرية مع سلطان قونية التركي ، ولهذا ارتفعت اصوات الفرنسيين تنصح الملك لويس بالاستيلاء على الأراضي البيزنطية وأن يكتب لويس الى الملك روجر الثاني بأن يساهم باسطوله لمهاجة القسطنطينية نفسها ، ولكن لويس لم يأخذ بهذه النصائح . أنظر :

Odo of deuil, op. cit., p. 59.

(٩) تقع مدينة أوترانتو قرب برنديزي ، على الشاطىء الغربي للادرياتي ، وبمحاذاة جزيرة كورفو . انظر بنيامين التطيلي : الرحلة ، ص٧١ .

(١٠) يخبرنا ابن عذاري المراكشي أن قائد الاسطول النورماني المشهور جورج الانطاكي هو ابن ميخائيل الانطاكي . وكان الأخير في خدمة تميم صاحب المهدية . وبعد وفاة الأخير دخل ميخائيل في خدمة روجر الثاني . واشتهر ابنه جورج الذي هو بطل الاحتلال النورماني في شمال افريقية واليونان . كما مدح المؤرخ الصفدي شجاعة ودهاء جورج الانطاكي . انظر حول ذلك : ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار المغرب المكتبة الصقلية ، ج٢ ، ص ٣٧٣ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات المكتبة الصقلية ، ج٢ ، ص٦٥٧ .

(١١) قال التطيلي «بعد أن يقطع المسافر مسافة يومين بحراً من اوترانتو يصل الى جزيرة كورفو ، وعند هذه الجزيرة تنتهي مملكة صقلية» انظر : المصدر نفسه ، ص ٧ .

(١٢) يقول المؤرخ الألماني أوتومن فريسنيك أن القوات النورمانية قد دخلت جزيرة كورفو المنيعة بالخديعة والاحتيال . انظر تفاصيل روايته :

Otto of Freising, The deeds of Barbarossa, p. 69.

(13) Nicetas, in C. S. H. B., p. 97; otto of Freising, op. cit., p. 69.

(14) Nicetas, op. cit., p. 97.

البيزنطية تباعاً مثل نوبليه Nauplie وجزيرة ايوبيه Eubée وكذلك نيقروبونت Négropont وجزيرة سيرجو Serigo . كما اخترق الاسطول النورماني خليج كورنث واحتل مدينة خريسون Khrisson الواقعة جنوب سالون Salon(١٥) .

لم تكتف القوات النورمانية بنهب السواحل والمدن الآنفة الذكر ، وانما انزلت فرقاً عسكرية على البر البيزنطي ، وأخذت هذه الفرق تتقدم بجرأة داخل الأراضي البيزنطية حتى وصلت إلى مدينة طيبة(١٦) . ودخل النورمان مدينة طيبة دون مقاومة(١٧) . ثم لم يكتف النورمان بنهب هذه المدينة الغنية والمشهورة بتربية دودة القز وصناعة الحرير ونسج الأقمشة فحسب ، وإنما اصطحبوا معهم عند مغادرتهم لها(١٨) اعداداً كبيرة من أمهر صناع الحرير وبعثوا بهم إلى باليرمو(١٩) . ويخبرنا نيقتاس أن السفن النورمانية كادت تغرق من ثقل المنهوبات والبضائع والكنوز التي سلبها النورمان من مدينة طيبة(٢٠) .

ومن مدينة طيبة اتجهّت القوات النورمانية ، تحت قيادة جورج الانطاكي ، الى مدينة كورنث(٢١) ، التي كانت مركزاً صناعياً وتجارياً عظيماً في بلاد اليونان . وعندما انتشر خبر نزول النورمان ، قام تجار كورنث بنقل بضائعهم المكدسة في الحوانيت والمستودعات الى قلعة المدينة . كما أن سكان الضواحي التجأوا الى المدينة هاربين

---

(15) Ibid., pp. 97- 98; Kinnamos, in C. S. H. B., p. 119.

(١٦) يقول بنيامين التطيلي ان مدينة طيبة بلدة كبيرة ، وسكانها صناع مهرة يتقنون نسج الأقمشة الحريرية الملونة . انظر : بنيامين : رحلته ، ص٧٣ .

(١٧) يعتقد المؤرخ فانلاي : «ان أهالي طيبة لم يقاوموا الغزو النورماني – على الرغم مما عرف عنهم من القوة والشكيمة – وذلك لأنهم كانوا قد فقدوا الروح العسكرية ، ونسوا استخدام السلاح» . انظر :
Finlay, Hist. of Creece, vol. 111, pp. 161- 62.

(١٨) يخبرنا المؤرخ البيزنطي نيقتاس أن النورمان أجبروا سكان طيبة على كتابة قوائم مفصّلة عن ممتلكاتهم والحالة الاجتماعية لكل منهم ، وبعد أن استنفذ النورمان كل الأسباب العادية لجمع الأسلاب والغنائم أجبروا سكان المدينة على اداء قسم على الكتاب المقدس بأنهم لم يخفوا أي جزء من ممتلكاتهم وثرواتهم . أنظر Nicetas, op. cit., p. 99

(١٩) يعلق المؤرخ الالماني أوتو من فريسنيك على هذه الحادثة بقوله : «بعد أن كانت صناعة الحرير سراً يحتكره اليونان البيزنطيون عبر التاريخ ، أصبح في متناول يد النورمان» . انظر :
Otto of Freising, The deeds of Barbarossa, pp. 69- 70.

(20) Nicetas, op. cit., pp. 98- 99; otto of Freising, op. cit., pp. 69- 70.

(٢١) وهي بلدة يونانية شهيرة تقع على البرزخ المنسوب اليها (خليج كورنث) وقد اشتهرت قديماً بتجارتها الواسعة . انظر : بنيامين التطيلي : رحلته ، ص٧٢ .

أمام القوات النورمانية . وفرضت الأخيرة الحصار على المدينة . وسرعان ما اجتاحت السكان مجاعةٌ بسبب التضخم البشري الذي احتشد في المدينة ، واضطر السكان المحاصرون أخيراً الى فتح أبواب المدينة للنورمان ، الذين اكتسحوا المدينة ، ومن ثم انتزعوا كل ما احتوته القلعة من الكنوز والثروات والبضائع ، حتى أنهم نهبوا الآثار المقدسة مثل آثار القديس ثيودور(٢٢) . ومن كورنث اتجهت القوات الى مدينة اثينة المشهورة وأعملت السلب والنهب فيها(٢٣) .

وبعد أن انتهت القوات النورمانية من أعمالها هذه ، عادت الى جزيرة كورفو ثانية ، وكانت الجزيرة الأخيرة هي التي احتلها النورمان بصفة دائمة ، حيث تركوا فيها حامية نورمانية ، وعاد الاسطول النورماني الى صقلية ، وسفنه الحربية مليئة بالأسلاب والغنائم والذهب والفضة والحرائر ، ويقول المؤرخ البيزنطي نيقتاس ساخراً من منظر الأسطول النورماني وهو عائد الى صقلية : «لقد بدا منظر السفن الحربية النورمانية من ضخامة المواد المسروقة ، وكأنها سفن تجارية تشق عباب البحر ببطء وثقل شديدين»(٢٤) .

لقد كان للهجوم النورماني هذا وقع الصاعقة على البيزنطيين ، وذلك لأنه جاء في أسوأ الظروف بالنسبة لهم ، نتيجة لانشغالهم في مراقبة عبور الحملة الصليبية الثانية . ولكن لم يكن بامكان العاهل البيزنطي ، مانويل كومنين ، قبول استيلاء النورمان على جزيرة كورفو ، وفي نفس الوقت وجد نفسه أمام عدو لا يمكن أخذه على حين غرة . ولهذا كله بدأ مانويل يستعدّ ـ دبلوماسياً وعسكرياً ـ لتحرير كورفو أولاً ومن ثم الانتقام من روجر الثاني بنقل الحرب الى الأرض الايطالية نفسها ، في محاولة لاسترجاع السيادة البيزنطية المفقودة في تلك المنطقة(٢٥) .

وقد طلب مانويل كومنين من الملك الألماني كونراد الثالث ـ أثناء عبور الأخير بيزنطة على رأس جيشه الصليبي ـ أن يترك عدداً من فرسانه لمساعدة البيزنطيين ضد النورمان ، إلا أن كونراد رفض هذا الطلب(٢٦) . وعندما وصل الملك الفرنسي لويس

(22) Nicetas, in C. S. H. B., pp. 99- 102; otto of Freising, The deeds., p. 69.
(23) Otto of Freising, op. cit., pp. 69- 70.
(24) Nicetas, op. cit., pp. 101- 102.
(25) Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire vol. 11, p. 422; finlay, Hist. of Creece vol. 111, p. 170.
(26) Chalandon, les Comnenes, vol. 11, p. 321.

السابع إلى القسطنطينية ـ على رأس جيشه الصليبي ـ طرح مانويل كومنين معـه مشروعاً للتحـالف بينهما ضد الملك روجـر الثانـــي ، إلا أن لويس رفض هذا المشروع ، رغم الأموال الهائلة التي عرضها مانويل مقابل ذلك(٢٧) .

ثم قام الامبراطور مانويل باستدعاء قواته المرابطة في آسيا الصغرى ونقلها الى الجبهة الغربية الأوروبية وذلك بعد أن عقد معاهدة صلح مع مسعود سلطان قونيه(٢٨) . وبعد ذلك طلب مانويل من البندقية مساعدته ضد النورمان . وكانت البندقية عندئذ تنظر بقلق لتعاظم نفوذ روجر الثاني ، فضلاً عن أن احتلال كورفو من قبل النورمان يعني التحكم بمدخل الادرياتي وبالتالي الحاق ابلغ الأضرار بالتجارة البندقية ، ولهذه الاعتبارات كلها رحّبت البندقية بالتحالف مع بيزنطة . وبالفعل وقّع التحالف على مرحلتين (١١٤٧ ـ ١١٤٨م) . وتعهّدت الجمهورية بموجبها وضـع اسطولها تحـت تصرف الامبراطورية وذلك مقابل امتيازات تجارية هامة(٢٩) . وطلب دوج البندقية من جميع البنادقة المقيمين في الأراضي البيزنطية بحكم أعمالهم ومصالحهم ، أن يلتحقوا بالجيش البيزنطي لتحرير كورفو وتأديب روجر الثاني(٣٠) .

وفي ربيع عام ١١٤٨م ابحر الاسطول البيزنطـي(٣١) تحـت قيادة أحـد أقـارب الامبراطور واسمه كونتو ستيفانوس(٣٢) باتجاه جزيرة كورفو(٣٣) وبعد أن انضم الاسطول البندقي الى الاسطول البيزنطي تم فرض الحصار (أغسطس ١١٤٨م) على جزيرة كورفو . وقد صمدت الحامية النورمانية الموجودة في الجزيرة ، رغم محاولات القوات البيزنطية والبندقية لاقتحام أسوار الجزيرة . واثناء ذلك قُتل القائد البيزنطي كونتو

(27) Odo of deuil, op. cit., p. 81.
(28) Nicetas, op. cit., p. 102.
(29) Nicetas, op. cit., p. 103; Heyd, op. cit., vol. 1, p. 198; Hodgson, venice, p. 264; Diehl, Hist. of the Byzantine Empire, p. 121; Curtis, op. cit., p. 232; Setton, op. cit., vol. 11, p. 14.
(30) Heyd, Hist. du commerce, vol. 1, p. 198.

(٣١) لقد قدّر المؤرخ البيزنطي كناموس هذا الاسطول بـ /٥٠٠/ سفينة حربية و/١٠٠/ سفينة لنقل الجنود . بينما قدر المؤرخ نيقتاس هذا الاسطول بـ /١٠٠/ سفينة حربية وناقلة معاً . انظر :

Kinnamos, op. cit., p. 93; Nicetas, op. cit., p. 103.

(٣٢) لقد كان من المقرر أن يقود الامبراطور نفسه هذه الحملة ولكنه انشغل بهجوم الكومان في صيف عام ١١٤٨م . انظر :
Kinnamos, op. cit., p. 93; Nicetas, op. cit., p. 103.
(33) Nicetas, op. cit., p. 103.

ستيفانوس وخلفه في قيادة الاسطول يوحنا الاكسوخAxouch(٣٤) . إلا أن الأمـور ساءت بعد ذلك ، حيث وقع اصطدام عنيف حول كورفو بين القوتين المتحالفتين ، أي بين البيزنطيين والبنادقة ، مما هدد الحملة البيزنطية لولا تدارك الموقف وتسوية النزاع على الفور ، ومن ثم عاد التنسيق والتعاون بين الأسطولين فى حصار الجزيرة(٣٥) .

وفي الوقت الذي كان فيه الاسطولان ـ البيزنطي والبندقي ـ يشددان الحصار على كورفو ، كان الامبراطور البيزنطي يقود في العاصمة معـركة دبلومـاسية ضد روجـر الثاني . حيث نجح مانويل في توقيع معاهـدة تحـالف مع الملك الالمانـي كونـراد الثالث(٣٦)-الذي كان في طريق عودته من الشام(٣٧) ـ تضمنّت تعهد الملك الالماني بقيادة حملة الى ايطاليا ضد روجر الثاني في العام القادم(٣٨) .

وما أن غادر الملك الألماني القسطنطينية ، عائداً الى بلاده ، حتى توجه الامبراطور مانويل بنفسه الى جزيرة كورفـو وتـولى قيادة القـوات البيزنـطية . إلا أن الملك النورماني لم يقف موقفاً سلبياً ازاء احداث كورفو والنشاطات الدبلوماسية البيزنطية . ففي الوقت الذي كان فيه العاهل البيزنطي امام كورفو ، أرسل روجر الثاني (ربيع ١١٤٩م) اسطولاً مؤلفاً من ستين سفينة ، تحت قيادة جورج الانطـاكي ، لنهـب سواحل اليونان . وكان الهدف من ذلك تحويل انظار مانويل عن كورفو وفك الحصار عن الحامية النورمانية الموجودة داخل الجزيرة . ولكن الامبراطور لم يرفع الحصار وانما ارسـل جزءاً من السفـن البيزنـطية والبنـدقية بقيادة كوريوبـوس (Churupes) chouroupes للتصدي للاسطول النورماني . ودارت بين الاسطولين معركة عند رأس

---

(34) Ibid., pp. 104-105, 109; Kinnamos, op. cit., pp. 97- 98.

(35) Nicetas, op. cit., pp. 113-15; Kinnamos, op. cit., p. 98; Finlay, Hist. of Creece, vol. 111, pp. 169- 70.

(٣٦) انظر تفاصيل اللقاء بين العاهلين الألماني والبيزنطي عند :

Otto of Freising, The deeds, p. 103.

(٣٧) انظر مصير حملة كونراد الثالث في اطار الحملة الصليبية الثانية عند :

William of Tyre, Hist. of deeds., vol. II, pp. 167-72.

(38) Kinnamos, op. cit., p. 87; Otto of Freising, Thr deeds., p. 110.

مالي Malee(٣٩) انتهت بهزيمة الاسطول النورماني هزيمة قاسية(٤٠) . ورغم ذلك فقد بعث روجر الثاني اسطولاً ـ للمرة الثانية وتحت قيادة جورج الانطاكي نفسه ـ مؤلفاً من أربعين سفينة لمهاجمة القسطنطينية ذاتها في غياب البحرية البيزنطية . وبالفعل وصل هذا الاسطول ـ في جرأة متناهية ـ الى اسوار العاصمة البيزنطية ، ورشق البحارة النورمان ، القصر الامبراطوري بالسهام ، كما نهبوا البيوتات الموجودة على الساحل الآسيوي للبوسفور . واثناء عودة هذا الاسطول تصدّت له السفن البيزنطية ـ البندقية ، وألحقت به هزيمة وخسائر قاسية ، وحسب ما يروي كناموس ، أن عدد السفن التي وصلت الى صقلية بعد هذه المعركة كان قليلاً جداً(٤١) .

وقد أدرك مانويل كومنين استحالة اقتحام كورفو المنيعة(٤٢) ، دون الاعتماد على الخيانة . ونجحت اتصالاته ، أخيراً ، مع قائد الحامية النورمانية ، واسمه ثيودور ، الذي فتح بوابات مدينة كورفو للقوات البيزنطية (صيف ١١٤٩م) . ودخل ثيودور نفسه في خدمة الامبراطور البيزنطي ، في حين ، انسحبت الحامية النورمانية بكامل اسلحتها ، وفقاً للاتفاق الذي تمّ بين مانويل وثيودور(٤٣) .

وبهذا الشكل استعاد البيزنطيون جزيرة كورفو . وبعد ذلك انتقل الامبراطور البيزنطي بقواته من جزيرة كورفو الى مدينة آفالونا ـ على الساحل الشرقي للادرياتي ـ استعداداً لنقل الحرب الى ايطاليا ومهاجمة المملكة النورمانية بالتعاون والتنسيق مع القوات الالمانية التي اتفق أن يقودها كونراد الثالث ، تنفيذاً لاتفاقية

---

(٣٩) صادف اثناء هذه المعركة مرور الملك الفرنسي لويس السابع في طريق عودته من بيت المقدس على ظهر سفينة ، والتقى لويس قبيل المعركة بالاسطول النورماني ، وصعد على ظهر احدى السفن النورمانية . وعندما بدأت المعركة بين الأسطولين البيزنطي والنورماني ، رفع الملك لويس الاعلام البيزنطية لينقذ نفسه . وكاد أن يقع اسيراً لو لم ينجح في الفرار ، إلا أن معظم مرافقيه وقعوا في الأسر البيزنطي ، وفقد لويس نفسه معظم حقائبه . وعندما علم الامبراطور مانويل بهذه الحادثة أمر باطلاق سراح الأسرى الفرنسيين وإعادة كل ما فقده لويس . وهذه الحادثة لها أهمية كبيرة في كونها خلقت الاستياء والحنق لدى لويس على البيزنطيين ، وكانت هذه الحادثة بالتالي لمصلحة روجر الثاني الذي حاول استغلالها للتقرب من الملك الفرنسي . انظر : Curtis, p. 235.

(40) Chalandon, les comnenes, vol. II, p. 330; Curtis, op. cit., p. 235; Setton, op. cit., vol. II, p. 14.

(41) Kinnamos, in C. S. H. B., p. 101;

انظر أيضاً : الصفدي : الوافي بالوفيات المكتبة الصقلية ، ج٢ ، ص ٦٥٧ .

(٤٢) حول مناعة كورفو وتحصيناتها انظر : Nicetas, op. cit., p. 104

(43) Nicetas, in C. S. H. B., pp. 116-18.

القسطنطينية (١١٤٨م) التي أشرنا اليها قبل قليل . الا أن هناك أربعة عوامل ساهمت في افشال المشروع البيزنطي ـ الالماني الموجه ضد روجر الثاني وهي **أولاً** : قيام الصرب بالثورة ضد بيزنطة ، في ذلك الوقت بالذات ، واضطر مانويل الى ترك الحملة والاتجاه للقضاء على هذه الثورة(٤٤) . واشارت المصادر المعاصرة(٤٥) ، وأجمعت الدراسات الحديثة ، على أن ثورة الصرب-التي شلّت العاهل البيزنطي فجأة ـ كانت بتحريض ودعم من الملك النورماني روجر الثاني(٤٦) . **ثانياً** : عدم تمكن الملك الالماني كونراد الثالث من قيادة الحملة المتفق هنا بشأنها الى ايطاليا ، لانشغاله بثورة الدوق ولف ، هذه الثورة التي كانت بدعم مادي وعسكري من قبل الملك النورماني روجر الثاني(٤٧) . **ثالثاً** : عدم كفاءة القائد الاكسوخ ، الذي أوكل إليه الامبراطور مهمة قيادة القوات البيزنطية من آفالونا الى ايطاليا ، وفشل هذا القائد في النزول بأنكونا ، فضلاً عن العواصف البحرية التي ألحقت أبلغ الأضرار بالأسطول البيزنطي ، مما اضطر القائد الاكسوخ الى التقهقر من آفالونا والعودة الى القسطنطينية في شتاء عام ١١٥٠م(٤٨) . **رابعاً** : ان البنادقة المشاركين في الحملة لعبوا دوراً مشبوهاً عندما أراد البيزنطيون نقل الحرب من كورفو الى ايطاليا ، وذلك نتيجة الانطباع السيء الذي تركه اصطدامهم بالبيزنطيين أمام كورفو كما اسلفنا سابقاً ، فضلاً عن أن البندقية لم تكن ترغب في أن يستقر البيزنطيون في ايطاليا وذلك خوفاً على حرية تجارتهم . ولهذا تراخوا في القتال عن عمد أمام أنكونا(٤٩) ـ بجانب القوات البيزنطية ـ حتى انتهى الموقف بتقهقر البيزنطيين والعودة الى القسطنطينية كما اسلفنا في الفقرة السابقة .

وهكذا نجح الملك النورماني في تحطيم المشروع البيزنطي في نقل الحرب الى ايطاليا ، كما نجح في الوقت نفسه في افسال التحالف البيزنطي ـ الالماني من أن يعطي النتائج التي عُلقت عليه ، عن طريق خلق مشاكل داخلية لكلا الامبراطوريتين .

---

(44) Ibid., p. 118.
(45) Kinnamos, in C. S. H. B., pp. 103-104; Nicetas, op. cit., pp. 120-21.
(46) Chalandon, Hist. de la domnation, vol. II, p. 146; Ostrogorsky, Hist. of The Byzantine State, p. 340; Vasiliev, Hist of the Byzantine Empire, vol. II, p. 423; Hussey, op. cit., pp. 63-64; Setton, Hist. of the Crusades, vol II, p. 15.
(47) Kinnamos, in C. S. H. B., p. 101; Vasiliev, Hist. of Byzantine Empire, vol. II, p. 423; Norwich, The Kingdom., pp. 112, 116; Ostrogorsky, op. cit., p. 340; Cam. med. Hist. vol. iv, p. 228.
(48) Kinnamos, op. cit., pp. 101-113.
(49) Loc. cit., vasiliev, op. cit., vol. II, pp. 422-24.

ومنذ عام ١١٥٠م أخذ الموقف السياسي في الساحة الايطالية يتعقد بشكل خطير للغاية ، بل لقد اعتقد المعاصرون أن الحرب النورمانية البيزنطية ستصبح حرباً أوروبية عامة . ذلك أن كلاً من الملك النورماني روجر الثاني والامبراطور البيزنطي مانويل كومنين أخذ يتسابق لكسب الحلفاء ، ضد الطرف الآخر.فبالنسبة الى روجر عمل كل ما في وسعه لخلق تحالف أوروبي وقيادة «حملة صليبية» ضد بيزنطة ، مستغلاً الاستياء الذي ألمّ بالرأي العام الأوروبي آنذاك ضد البيزنطيين بسبب فشل الحملة الصليبية الثانية . حيث اعتقدت الدوائر الغربية آنذاك أن الكارثة التي لحقت بالحملة الصليبية الثانية ، إنما كانت نتيجة «خيانة البيزنطيين» للقضية الصليبية(٥٠) . وقد أيّد لويس السابع ملك فرنسا مشروع روجر الثاني ، وذلك لأن لويس كان يحمل انطباعاً سيئاً عن البيزنطيين خلال عبوره أراضيهم(٥١) فضلاً عن الحادثة التي كادت تودي بحياته في البحر(٥٢) . كما أيد الأمراء الألمان ـ المناوئون للملك كونراد ـ مشروع روجر الثاني في غزو بيزنطة . كما أيد هذا المشروع ايضاً كبار رجال الدين في الغرب الأوروبي آنذاك ، أمثال القديس برنارد ، الذي اعتمر قلبه حقداً على البيزنطيين الذين كانوا السبب ـ كما اعتقد ـ في افشال الحملة التي بشر بها . أما موقف البابوية فقد كان غامضاً ، فمن جهة لم يعارض البابا اوجينوس الثالث مشروع روجر ، الا أنه أظهر تعقّلاً ملموساً ولم يشجّع أولئك الحلفاء على القيام بمثل هذه الحملة الصليبية ضد بيزنطة(٥٣) .

ولم يقف العاهل البيزنطي ، مانويل كومنين ، مكتوف الأيدي ازاء المشاريع التي تدبّر ضده في الساحة الايطالية خاصة والأوروبية عامة . ولذا قام بدوره في خلق حلفٍ ضد المملكة النورمانية وأنصارها ، فاتصل بجمهورية البندقية وجمهورية بيزا ،

---

(٥٠) يظهر المؤرخ اللاتيني وليام الصوري تعصباً أعمى ضد بيزنطه ، ويتهم البيزنطيين جميعاً بالخبث والغدر وكراهيتهم «للمسيحيين» وذلك أثناء حديثه عن حملة كونراد ، ويتهم هذا المؤرخ صراحة الامبراطور البيزنطي بالخيانه العظمى ويحمّله مسؤوليه التدمير الذي لحق بالجيش الالماني من قبل الاتراك . انظر :
William of Tyre, vol. 11, pp. 168-70.

(٥١) عن مصير حمله لويس السابع . انظر : Ibid., vol. 11, pp. 172- 83

(٥٢) لقد عاد الملك لويس من بيت المقدس الى بلاده عن طريق أبوليا . أنظر
Otto of Freising, The deeds, p. 103.

(53) Runciman, The Eastern Schism, p. 128.

ليضمن مساندتها(٥٤) . كما قام بتجديد تحالفه مع الامبراطورية الالمانية ، وأبدى كونراد الثالث استعداده لتجديد التحالف مع بيزنطة ، واعرب في نفس الوقت عن أسفه لعدم قيامه بالحملة التي أُتفق عليها الى ايطاليا ، نتيجة ثورة الدوق وولف . وأكدّ الملك كونراد الثالث خلال هذه الاتصالات للامبراطور مانويل اعتزامه على النزول الى ايطاليا في اقرب فرصة ممكنة لتقليم اظافر روجر الثاني(٥٥) .

وكان أن أدرك روجر الثاني وحلفاؤه أن العقبة الوحيدة التي تعترض تنفيذ مشروعهم هو التحالف البيزنطي ـ الالماني . ولهذا قاموا بحملة دبلوماسية مركّزة ـ برئاسة القديس برنارد ـ تستهدف فصل الملك الالماني كونراد عن حليفه الامبراطور البيزنطي . إلا أن محاولاتهم هذه باءت بالفشل نتيجة اصرار الملك كونراد على وفائه للامبراطور مانويل كومنين(٥٦) . وردّاً على محاولة روجر وبرنارد الأخيرة هذه ، قاد الطرف الآخر حملة دبلوماسية مركّزة ـ برئاسة الملك كونراد نفسه ـ تستهدف فصل البابا اوجينوسْ الثالث من الحلف النورماني ، خاصة ـ كما أشرنا ـ أن البابا كان متردداً وغامضاً في موقفه ازاء مشروع روجر الثاني(٥٧) .

وسرعان ما ساءت العلاقة بين البابا روجر الثاني ، نتيجة تتويج الأخير لابنه وليام ، ملكاً (في عيد الفصح ٢٥ ديسمبر من العام ١١٥١م) دون استشارة البابا . وانسحب الأخير من الحلف الأوروبي رسمياً ، وأبلغ كونراد عن تأييده لحملته المقترحة الى ايطاليا ضد روجر الثاني(٥٨) . وعلى هذا النحو تفكّك الحلف الأوروبي وتحطم مشروع روجر الثاني في غزو بيزنطة نتيجة انسحاب البابا من جهة ونتيجة وفاء الملك الالماني كونراد الثالث للامبراطور البيزنطي مانويل كومنين من جهة أخرى(٥٩) .

وفي الوقت الذي كانت فيه بيزنطة تنتظر نزول كونراد الثالث الى ايطاليا ، توفي الملك الألماني في فبراير ١١٥٢م(٦٠) . وخسرت بيزنطة بوفاته حليفاً مخلصاً ، وسنداً أميناً

(54) Nicetas, in C. S. H. B., p. 120.
(55) Chalandon, les Comnenes, vol. 11, pp. 338-39; Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire, vol. 11,pp. 417-18.
(56) Chalandon, Hist. de la domination, vol. 11, pp. 146-48; Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, p. 340; Vasiliev, op. cit., vol. 11, pp. 423-24: Setton, op. cit., vol.11, pp. 15-16.
(57) Chalandon, Hist. de la domination, vol. 11, p. 120.
(58) Idem., les Comnenes, vol. 11, pp. 341-42.
(59) Cam. med. Hist. vol. iv, p. 228.

(٦٠) يشير أتو أسقف فريسنيك الى أن اشاعات راجت في ألمانيا عند وفاة كونراد مفادها أن الأخير قد مات مسموماً من =

وضعت فيه الأمل الكبير في مساعدتها ضد المملكة النورمانية(٦١) .

وفي بداية عام ١١٥٤م توفي الملك روجر الثاني(٦٢) ، وخلفه ابنه وليام الأول (١١٥٤ ـ ١١٦٦م)(٦٣) ، وبذلك ظهرت في الساحة الايطالية متغيرات سياسية جديدة تطلبت من القوى الايطالية وبيزنطة مواقف جديدة وفق الظروف المستجدة .

= قبل أطباء بلاطه ، وأن هؤلاء الأطباء قد قدموا من ايطاليا ـ من مدرسة الطب المشهورة في ساليرنو ـ الى المانيا وساليرنو كانت في ذلك الوقت تحت سيادة روجر الثاني ، ولهذا لا يستبعد هذا المؤرخ أن تكون وفاة الملك الالماني نتيجة تآمر هؤلاء الاطباء مع روجر للتخلص من كونراد الثالث حليف بيزنطة . انظر :

Otto of Freising, The deeds; p.110.

(٦١) اعتلى العرش الالماني بعد وفاة كونراد الثالث أبن أخيه فريديريك بربروسا . انظر :

William of Tyre, Hist. of deeds, vol. 11, p. 195.

(٦٢) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان المكتبة الصقلية ، ج٢ ، ص٦٤٢ ـ ٦٤٣؛ الصفدي ؛ الوافي بالوفيات المكتبة الصقلية ، ج٢ ، ص٦٥٧ ـ ٦٥٨ .

(٦٣) لُقّب وليم الاول ابن روجر بالسيىء (The bad) بسبب قسوته وعدم شعبيته وكره وزرائه له . أنظر :

Runciman, The sicilian vespers, p. 21.

الفصل الثالث

حملة مانويل كومنين على ايطاليا ورد الفعل النورماني

١١٥٤ ـ ١١٥٨م

اذا كان البيزنطيون قد فشلوا في نقل الحرب الى الأرض الايطالية عام ١١٥٠م ، في محاولة لاستعادة سيادتهم في أبوليا وكلابريا فان المشروع ظلّ في اذهانهم حيّاً ينتظر الظروف المناسبة .

وكان التحالف البيزنطي ـ الالماني يشكّل حجر الزاوية في سياسة بيزنطة تجاه القوى الايطالية منذ أوائل القرن الثاني عشر ، اذ تحالف الكسيوس كومنين (١٠٨١ ـ ١١١٨م) ـ كما أسلفنا ـ مع الامبراطور الألماني هنري الرابع ضد الزعيم النورماني روبرتجويسكارد[1] . وتجدّد التحالف البيزنطي في عهد يوحنا كومنين (١١١٨ ـ ١١٣٤م) مع لوثير الثاني أولاً ثم مع كونراد الثالث بعد ذلك ، ضد الملك النورماني روجر الثاني . وتجدد هذا التحالف بين مانويل كومنين وكونراد الثالث ضد روجر ايضاً . ولكن وفاة الملك الالماني كونراد الثالث (١١٥٢م) ، واعتلاء فردريك بربروسا (١١٥٣ ـ ١١٩٠م) العرش ، كان نقطة تحول خطيرة في السياسات الأوروبية عامة والايطالية خاصة .

ذلك أن فردريك بربروسا كان متشبعاً بفكرة «أنه الامبراطور المطلق الذي يستمد سلطته من الله» . ولذا لم يكن مستعداً لأن يعترف بأية حقوق أو سلطة للامبراطور البيزنطي في ايطاليا . ومن هنا يجب أن ندرك أن ايطاليا ظلّت العنصر الانفجاري في العلاقات البيزنطية ـ الالمانية ، فمصالح بيزنطة والمانيا في إيطاليا متناقضة ، وأحلام مانويل كومنين وفردريك بربروسا فيها متضاربة ، إذ تطلع كل منهما الى احتواء ايطاليا ووضع التاج الامبراطوري على رأسه بمباركة البابوية .

(1) ANNA. The Alexiad, pp. 91-93.

وكان أن جَرحَ بربروسا الشعور البيزنطي عندماوقّع معاهدة كونستانس (مارس ١١٥٣) مع البلاط البابوي . هذه المعاهدة التي تضمّنت فقرة على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية والخطورة في آن واحد وهي : «تعهّدَ بربروسا بعدم منح «ملك اليونان» أية أرضٍ في ايطاليا ، وأنه (اي بربروسا) سوف يستخدم كل قواته لابقاء الملك اليوناني خارج ايطاليا»[٢] . وهذه الفقرة من المعاهدة تكشف التناقض بين المصالح البيزنطية والالمانية في ايطاليا . فنلاحظ أن الأمبراطور البيزنطي قد أُعطي لقب «ملك» ، وفي الوقت الذي كان فيه البيزنطيون يصرّون على أنهم «رومان» وامبراطورهم هو «الامبراطور الروماني» اذا بمعاهدة كونستانس تُعطي الأمبراطور الروماني لقب ملك «اليونان» ، فضلاً عن تعهّد بربروسا في «أن يستخدمَ كل قواته لابقاء الملك اليوناني خارج ايطاليا» ، مما يعني ـ من الناحية العملية ـ تجاهلاً لحقوق بيزنطة التاريخية في ايطاليا من جهة والتصميم على محاربتها اذا حاولت انتزاع هذه الحقوق من جهة أخرى .

وعلى أية حال فإن بيزنطة نجحتْ في إخفاء استيائها من معاهدة كونستانس وذلك لأنها كانت ترغب في ابقاء الحوار مفتوحاً مع البلاط الألماني . واستمر البيزنطيون يأملون بامكانية رأب الصدّع في التحالف البيزنطي ـ الألماني والاعتماد على المانيا ضد نورمان ايطاليا . ويبدو أن العداء النورماني ـ الالماني هو الذي جعل بربروسا ـ بدوره ـ يُبقي الباب مفتوحاً مع بيزنطة ، ويخبرنا المؤرخ الالماني اتومن فريسينك ، وهو مؤرخ فردريك بربروسا نفسه ، أن الأخير بعث وفداً الى القسطنطينية (في بداية عام ١١٥٤م) بهدف اختيار أميرة بيزنطية من الأسرة المالكة ، للزواج من بربروسا ، الذي كان قد طلّق زوجته . وكُلفّ الوفد الألماني هذا ايضاً أن يبحث مع المسؤولين البيزنطيين امكانية وضع صيغة للتحالف بين بيزنطة والمانيا ضد الملك النورماني وليام الأول ، الذي يُعتبر «عدواً للامبراطوريتين»[٣] .

---

(٢) انظر : النص الكامل لمعاهدة كونستانس في :

Source book, ed. and Tr. by Thartcher, o. G., Doc. No. 93, pp. 178- 180.

(3) Otto Of Freising The Deeds Of Barbarossa, PP. 124 — 24.

ولا شك في أن استئناف الاتصالات بين ألمانيا وبيزنطة ـ وهي الاتصالات التي كانت قد قُطعت منذ وفاة كونراد الثالث ـ جعلتْ الملك النورماني وليام الأول (١١٥٤ ـ ١١٦٦م) يشعر بخطورة قيام تحالفٍ بين الملك الالماني بربروسا والامبراطور البيزنطي مانويل كومنين ضده ، خاصة وأن سلطته في جنوب ايطاليا وصقلية كانت غير مستقرة . ولذا عمل الملك وليام الأول على فكّ التحالف بين بربروسا ومانويل . والدليل على ذلك أن وليام بعث في الأيام الأولى لاعتلائه العرش النورماني ، وبعد أيام معدودة من المباحثات الالمانية ـ البيزنطية ، والتي أشار اليها اوتومن فريسينك ، وفداً الى القسطنطينية يطلب الصلح مع العاهل البيزنطي . ويقول المؤرخ يوحنا كناموس : أن وليام تعهّد ـ من خلال الوفد ـ بأن يعيد لمانويل كومنين كل الغنائم التي حصل عليها النورمان اثناء حملتهم على طيبة وكورنث (١١٤٧م) كما تعهد وليام بأن يُطلق سراح جميع الاسرى البيزنطيين الذين وقعوا في أيدي النورمان خلال تلك الحملة . ويضيف المؤرخ قائلاً «بأن وليام عَرَض مساعدته لمانويل في كل ما يُطلب منه»(٤).

ولكن مانويل كومنين رفض مشروع الصلح النورماني هذا ، وربما كان السبب في ذلك أن العاهل البيزنطي كان لا يزال يأمل في تجديد التحالف بينه وبين الألمان ، وربما ـ كما يعتقد شالندون ـ أن مانويل كومنين فهم من هذا العرض النورماني أن المملكة النورمانية تعاني صعوبات داخلية خطيرة ، وأن الظروف ـ والحالة هذه ـ مناسبة تماماً لتنفيذ المشروع البيزنطي وقيادة حملة الى جنوب ايطاليا (٥).

ولم يكتف الامبراطور البيزنطي برفض مشروع الصلح النورماني ، وانما قام بمناورة عسكرية في عرض البحر المتوسط . حيث أرسل جزءاً من اسطوله ـ تحت قيادة قسطنطين انجيلوس ـ الى مدينة مونيمباسيا Monembasia ، للمرابطة أمامها . ولكن أمير البحر البيزنطي انتهز عودة اسطول نورماني من عملية قرصنة قام بها الى مصر(٦)

(4) Kinnamos, C.S.H.B.,PP. 118—19
(5) Chalandon, Les Comnenes, Vol. LL, PP. 348—49.

(٦) انفجرت الحرب بين المملكة النورمانية والفاطميين في مصر (عام ١١٥٤م) ، وأرسل الملك وليام الأول حملة بحرية مؤلفة من ستين سفينة لمهاجمة السواحل المصرية والقيام بأعمال السلب والنهب ، ويبدو أن الحملة نجحتْ في تحقيق هذه المهمة . انظر Setton, Hist. Of The Crusades, Vol. 11, P. 30

وهاجمه ، معتقداً بالامكان التغلب عليه باعتباره مثقلاً بما يحمله من الاسلاب والمنهوبات من جهة وقلة عدد سفنه من جهة ثانية . وكان أن خابت تقديرات القائد البيزنطي إذ كان النصر حليف الاسطول النورماني ، ووقع قسطنطين انجيلوس نفسه أسيراً(٧) .

وسرعان ما خاب أمل البيزنطيين في بربروسا عندما قام (ربيع ١١٥٤م) بحملة الى ايطاليا دون ابلاغ بيزنطة بنواياه . ولذا قرر مانويل كومنين أن يعمل بمفرده في الساحة الايطالية ، مستغلاً الثورة الداخلية التي تمزق المملكة النورمانية آنذاك(٨) .

وكان أن بعث الأمبراطور مانويل سفارة الى ايطاليا ، برئاسة ميخائيل باليولوغوس ويوحنا دوقاس ، مهمتها اتخاذ جميع الترتيبات اللازمة للقيام بحملة ضد المملكة النورمانية . وقد زُودت السفارة بكميات هائلةٍ من الأموال لتحقيق هذه الاجراءات(٩) . وطلب مانويل من مندوبيه تنفيذ هذه المهمة على مرحلتين الأولى : محاولة الاتصال ـ للمرة الأخيرة ـ بفردريك بربروسا ـ الذي كان في ايطاليا كما اسلفنا قبل قليل ـ والعمل على اقناعه بشن حملة المانية ـ بيزنطية مشتركة ضد المملكة النورمانية . واذا رفض بربروسا ذلك ، فيجب والحالة هذه ، الانتقال الى المرحلة الثانية من المهمة وهي : الاتصال بالبابوية والثوار النورمان وتنسيق العمل معهم بشأن الحملة(١٠) .

وبالفعل وصل المندوبان البيزنطيان (باليولوغوس ودوقاس) إلى ايطاليا في أواخر عام ١١٥٤م . واتخذا مدينة انكونا مركزاً لتنظيم أعمالها ونشاطاتها . ويخبرنا المؤرخ أوتومن فريسنك : أن الوفد البيزنطي قد التقى ببربروسا بالقرب من أنكونا ، حيث كان الأخير في طريق عودته من روما الى المانيا ـ بعد أن توج امبراطوراً في روما (١٨ يونيو ١١٥٥م) ـ وقدم الوفد البيزنطي الهدايا الثمينة للامبراطور بربروسا ، باسم سيدهم الامبراطور مانويل ، ومن ثم طرحا معه قضية الحملة المشتركة ضد النورمان . ولقد أبلغ بربروسا ـ والرواية لا تزال لأوتومن فريسينك ـ الوفد البيزنطي استعداده

(7) Kinnamos, Op. Cit., PP. 119—20.
(8) William Of Tyre, Hist, Of Deeds, Vol. LL, PP. 237—38; M. Of Westminester, The Flowers Of History, Vol. LL, P. 54.
(9) Kinnamos, P. 135; Nicetas, P. 120; William OPf Tyre, Vol. LL, P. 247
(10) Kinnamos, PP. 135—36; William of Tyre, Vol. LL, P. 247.

للموافقة على مقترحاتهم والتوجّه الى أبوليا لمحاربة وليام الأول . إلا أنه سرعان ما أعلمهم أن اتباعه وقادته قد عارضوا ذلك ، وهو لا يستطيع اجبارهم على قبول مشروعاته ، ويضيف المؤرخ أوتو قائلاً : «وحاول بربروسا جاهداً اقناع قادته بالنزول الى ابوليا إلا انه فشل في ذلك وعاد الامبراطور بربروسا إلى ألمانيا»(١١) . وبذلك فشلت السفارة البيزنطية في المرحلة الأولى من مهمتها .

وكان على الوفد أن يعمل على تنظيم الحملة البيزنطية بالتعاون مع الثوّار النورمان . وبالفعل تمّ لقاء بين ميخائيل باليولوغوس وبين أحد زعماء الثورة النورمانية واسمه روبرت دي لوريتللو Robert De Loritello(١٢) وهو ابن عم الملك النورماني وليام الأول ، واتفق الطرفان على التعاون والتنسيق الكاملين ضد وليام الأول(١٣) .

وقد نجح القائدان البيزنطيان ـ باليولوغوس ودوقاس ـ بواسطة الذهب البيزنطي في حشد اكبر قوة من المرتزقة ، وفي خريف العام ١١٥٥م زحفت هذه القوات من الحدود الشمالية الشرقية نحو ابوليا جنوباً . وتمكنت خلال الأيام الأولى من احتلال بعض المواقع الهامة على الساحل الغربي للأدرياتي(١٤) . وبذلك أمَّنت الاتصال البحري بالأراضي البيزنطية ، وعلى أثرها أخذت النجدات العسكرية تصل تباعاً إلى الأرض الايطالية(١٥) .

وكان الهدف المباشر للقوات البيزنطية ـ بقيادة باليولوغوس ودوقاس ـ احتلال أبوليا . ونجحت في هذا السبيل نجاحاً ملموساً ، وذلك بالتعاون مع الثوار النورمان بقيادة روبرت دي لوريتللو . حتى تم اكتساح العديد من مدن ابوليا ، وخاصة عاصمة هذا الإقليم وهي مدينة باري ، التي تم فتحها بالتعاون مع فئة من السكان

---

(11) Otto Of Freising The Deeds., PP. 154—55; William Of Tyre, LL, PP. 247—48.

(١٢) يطلق المؤرخ وليام الصوري على روبرت دي لوريتللو اسم «باسافيللا Bassavilla» ويقول بأنه ابن عمة الملك وليام الأول النورماني انظر: William Of Tyre, Vol. LL, PP. 238.

(13) Otto Of Freising The Deeds Of Barbarossa, PP. 165—66; Kinnamos, PP. 136—37.

(١٤) يطالعنا المؤرخ أوتومن فريسينك برواية مفادها أن القائدين البيزنطيين ـ باليولوغوس ودوقاس ـ قد استخدما الخداع في استيلائهم على بعض المدن في ابوليا ، حيث كتبا العديد من الرسائل والخطابات ، وهي ممهورة باسم الامبراطور الألماني بربروسا ، الى بعض زعماء مدن الساحل الأبولي يطلبان منهم الاستسلام لهما باسم الامبراطور الألماني . انظر: Otto Of Freising, P. 165.

(15) Kinnamos, P. 137; Otto Of Freising, PP. 165—66.

المناوئين للسيادة النورمانية . والجدير بالذكر أنه عندما دخلت القوات البيزنطية مدينة باري ، قام سكان هذه المدينة بمهاجمة القلعة ودمروها تدميراً كاملاً باعتبارها رمزاً للظلم والاستبداد(١٦) .

وكان أن أحدث سقوط مدينة باري ـ عاصمة أبوليا ـ دوياً هائلاً في أرجاء المملكة النورمانية . وأسرعت على أثر ذلك العديد من المدن ـ مثل مدينة تراني(١٧) ـ في إعلان استسلامها للبيزنطيين دون مقاومة(١٨) . ويخبرنا المؤرخ اوتومن فريسنك صراحة أن أهم العوامل التي ساعدت البيزنطيين في تحقيق انتصاراتهم الساحقة في ابوليا إنما يعود الى الشعور المعادي للنورمان الذي كان يعتمر قلوب سكان مدن ابوليا ، بسبب ما لحق بهم من ظلم وجور على يد النورمان ، ولذا تعاون هؤلاء السكان مع القوات البيزنطية أملاً في التحرر من ذلك النير الثقيل .وإضافة الى ذلك التعاون والتنسيق الكاملين بين القادة البيزنطيين وزعماء الثورة النورمانية . وفضلاً عن ذلك فقد لعب الذهبُ البيزنطي دوراً ملموساً في كسب الحلفاء والانصار(١٩) .

ولم يقم الملك النورماني وليام الأول ـ القابع في عاصمته باليرمو ـ حتى ذلك الوقت بأي نشاط لاعاقة تقدم القوات البيزنطية ، والسبب في ذلك هو المرض الذي ألم بالملك وليام منذ سبتمبر من العام ١١٥٥م . حتى أن المؤرخ الألماني أوتومن فريسنك يقول بأن اشاعة انطلقت مفادها أن الملك وليام قد توفي(٢٠) . وفضلاً عن ذلك فإن ثورة الامراء التي اندلعت في صقليه ، في ذلك الوقت بالذات ، افزعت الملك وليام ولم تسمح له بإرسال القوات اللازمة لكبح جماح البيزنطيين وحلفائهم(٢١) .

وبعد استسلام مدينة تراني للبيزنطيين ، ظهر الجيش الملكي النورماني لأول مرة على مسرح الأحداث في جنوب ايطاليا . ولكن ذلك الجيش سرعان ما لقي هزيمة

---

(16) Kinnamos, C.S.H.B., PP. 138—39 William Of Tyre, Op. Cit., Vol. P. 247; Otto Of Freising, The Deeds, PP. 165—66.

(١٧) يقول بنيامين التطيلي أن مدينة تراني ثغر ساحلي يجتمع فيه حجاج النصارى قبل ابحارهم الى القدس ، ولها مرسى جيد ... والبلدة كبيرة طيبة المقام أنظر بنيامين التطيلي : رحلته ص٦٩ .

(18) Kinnamos, Op. Cit., P. 141; William Of Tyre, Op. Cit., Vol LL, P. 247.

(19) Otto Of Freising, The Deeds., P. 166

(20) Otto Of Freising, The Deeds., P. 166.

(21) Chalandon, Hist De La Domination, Vol. LL, PP. 219 FF; Runciman, The Sicilian Vespers, P. 21; Curtis, Roger Of Sicily, P. 428.

منكرة وتمزق شر ممزق ، على يد القائد البيزنطي دوقاس ، وذلك في معركة طاحنة قرب اندريا Andria ـ قرب تراني ـ(٢٢) وبذلك فشلت أول محاولة من الجانب النورماني للتصدي للغزو البيزنطي .

في الوقت الذي كانت فيه القوات البيزنطية بقيادة باليولوغوس ودوقاس توالي انتصاراتها في أبوليا ، كانت الدبلوماسية البيزنطية تلعب دورها المعهود في البحث عن الحلفاء وإثارة ما يمكنها من المشاكل للملكة النورمانية(٢٣) . وكان أن نجح القائد البيزنطي المرموق ميخائيل باليولوغوس ، الذي يصفه المؤرخ هايد بأنه «اقدر قادة ذلك العصر»، في توقيع معاهدة مع جنوه، وذلك في اكتوبر من العام١١٥٥م، تعهدت الجمهورية بموجبها بالحياد التام ، ازاء النزاع البيزنطي ـ النورماني . كما كان على الجنوية المقيمين في بيزنطة-وفق هذه المعاهدة ـ مساعدة مانويل كومنين في الدفاع عن الامبراطورية . وتعهدت الجمهورية ايضاً بعدم الاشتراك بأي مشروع او مغامرة يمكن أن تعرّض الامبراطور البيزنطي للحطر ، وذلك كله مقابل العديد من الامتيازات التجارية الهامة بالنسبة الى النجارة الجنوية في الامبراطورية .(٢٤) .

وفي نفس الوقت أجري باليولوغوس مفاوضات مطولة مع البلاط البابوي . ويخبرنا المؤرخ وليام الصوري أن البابا هادريان الرابع ، كان في ذلك الوقت على علاقة سيئة للغاية مع الملك النورماني وليام الأول . حتى أن البابا رفض الاعتراف بوليام ملكاً ، وأصدر بحقه مرسوماً يحرمه فيه كنسياً . كما أن البابا آوى العديد من الثوار النورمان المناوئين للملك وليام ومحضهم الدعم والتأييد(٢٥). ورواية وليام الصوري هذه تفسر لنا النجاح الملموس الذي لقيته المفاوضات التي أجراها باليوغولوس مع البابوية ، والتي

---

(٢٢) انظر التفاصيل الكاملة عن هذا الجيش النورماني وظروف معركة اندريا ونتائجها عند : Kinnamos, Op. Cit., PP. 141—45.

(٢٣) ويحق للقارىء أن يتساءل عن موقف العاهل الألماني فردريك بربروسا من الانتصارات البيزنطية في ايطاليا ؟ ويخبرنا مؤرخ بربروسا نفسه ـ اوتومن فريسينك ـ أن بربروسا غضب غضباً شديداً عندما سمع بالانتصارات البيزنطية في أبوليا «ورغم أن فردريك كان يكره وليام (أي الملك النورماني) إلا أنه لم يكن يرغب أن يستولي الاجانب (أي البيزنطيون) على الأراضي المتاخمة لامبراطوريته» . انظر: ,Otto Of Freising The Deeds Of Barbarossa, P. 166.

(24) Heyd., Hist. Du Commerce, Vol. I, P. 203

(25) William Of Tyre, Vol. LL, PP. 237— 38.

انتهت بتعاون البابا هادريان الرابع مع القوات البيزنطية ضد الملك النورماني . وعلى أثر هذه الاتفاقية حشدَ البابا هادريان الرابع قواتٍ عسكرية ضخمة ، وذلك عن طريق استخدام سلاح المال . كما انضمّ الى البابا في حملته هذه عدد من الثوار النورمان (٢٦) . واكتسح الجيش البابوي خلال شتاء ١١٥٥ ـ ١١٥٦م معظم الأملاك التي سبق أن انتزعها النورمان من كنيسة القديس بطرس(٢٧) .

ومع بداية عام ١١٥٦م بدأت المرحلة الثانية من الحرب البيزنطية ـ النورمانية ، ونجحت القوات البيزنطية في احتلال عددٍ من المدن والمواقع الهامة في ابوليا مثل مدينة مونوبولي . وفي ١٥ ابريل من نفس العام (١١٥٦م) ، دخل البيزنطيون مدينة برانديزي(٢٨) ، إلا أن قلعتها بقيت بيد الحامية النورمانية ، التي ظلّت مخلصة للملك النورماني حتى النهاية ، وعجز البيزنطيون عن اقتحامها(٢٩) .

على أن الانتصار الجزئي الذي حققه البيزنطيون في برانديزي يُعتبر آخر ما حققته القوات البيزنطية على الأرض الايطالية ، حيث أن ميزان القوى أخذ يتغير تدريجياً لصالح المملكة النورمانية . وكانت الظاهرة الأولى في تغير ميزان القوى هي تفكك التحالف بين القوات البيزنطية بقيادة باليولوغوس ودوقاس وبين الثوار النورمان بزعامة روبرت رويتللو . وكنا قد ذكرنا سابقاً أن الانتصارات البيزنطية في ابوليا كانت نتيجة الدعّم والتأييد الذي قدّمه روبرت رويتللو واتباعه . ولكن سرعان ما أخذ القائد باليولوغوس ينظر إلى الثوار وزعمائهم ـ أمثال روبرت ـ لا كحلفاء وإنما «كرعايا للامبراطور البيزنطي»(٣٠) . وبذلك سادت الشكوك بين الطرفين المتحالفين ، ولا يُستبعد أن يكون هذا التشقق في علاقاتهما قد شكلّ نقطة تحوّلٍ خطيرة بالنسبة إلى مصير الحرب البيزنطية ـ النورمانية الدائرة .

وفي بداية عام ١١٥٦م شُفي الملك النورماني وليام من المرض ، ونجح في ذات

---

(٢٦) عن علاقة البابوية بالثوار النورمان . انظر :

William Of Tyre, Vol. LL, P. 238.

(27) Kinnamos, PP. 146— 47; William of Tyre, Vol. LL, pp. 237- 38.

(٢٨) يقول بنيامين التطيلي : «ان برانديزي هي بلدة تقع على شاطىء الادرياتي ، وتقع على مسيرة يوم من مدينة تارنت واشتهر اهلها بالصباغة» انظر : بنيامين : رحلته ، ص٧٠ .

(29) William Of Tyre, Vol. LL, P. 247; Kinnamos, PP. 153— 58.

(30) Kinnamos, PP. 150— 52.

الوقت في اخماد ثورة أفصاله في صقلية . وانطلق في الاسبوع الأول من مايو ١١٥٦م على رأس قواته ، لمواجهة البيزنطيين ، إلى مدينة برانديزي التي كانت قلعتها لا زالت بيد الحامية النورمانية(٣١) . وكان الجيش الذي يقوده وليام هذا كبيراً ، تمّ حشده من كل اجزاء صقلية وكلابريا(٣٢) . وفي نفس الوقت توجّه الاسطول النورماني لفرض الحصار على مدينة برانديزي(٣٣) .

لم يلبثْ أن شعر قائد القوات البيزنطية ، يوحنا دوقاس(٣٤) . بخطورة الموقف . فالقوات الملكية النورمانية بقيادة الملك وليام نفسه قاب قوسين أو أدنى من برانديزي . والحامية النورمانية في القلعة لا زالت صامدة . والاسطول النورماني على وشك أن يفرض الحصار البحري على المدينة ، بحيث يستحيل معه وصول أية نجدات من بيزنطة . هذا الى أن تعداد القوات البرية والبحرية النورمانية القادمة يفوق القوات البيزنطية المتمركزة في برانديزي . وازاء هذه العوامل أخذ الذعر يدبّ في القوات البيزنطية . وزاد الموقف خطورة أن الزعيم النورماني روبرت دي رويتللو كان قد قدّر سلفاً النهاية المأساوية للقوات البيزنطية . ولذا نجده ينسحب من برانديزي ويتجه الى الشمال ، قبل وصول القوات النورمانية(٣٥) . وفضلاً عن ذلك كله فإن المرتزقة الذين حشدهم البيزنطيون لحماية أنكونا طالبوا في ذلك الوقت بالذات بزيادة مرتباتهم ، وعندما لم يحصلوا عليها هرب القسم الأعظم منهم في ظل هذه الظروف العصيبة التي تحيق بالقوات البيزنطية(٣٦) .

---

(31) William Of Tyre, Vol. LL, P. 247.
(32) William Of Tyre, Hist. Of Deeds, Vol. LL, P. 250.

(٣٣) وصل الاسطول النورماني إلى قبالة برانديزي قبل عدة ايام من وصول الجيش البري بقياده الملك نفسه . وحاول هذا الاسطول احتلال ميناء المدينة قبل وصول القوات البرية إلا أنه فشل في ذلك . وهذا الفشل مكّن نجدة بيزنطة ـ طُلبت على عجل ـ من دخول الميناء . وتجدر الاشارة أن هذه النجدة كانت تحت قيادة الكسيوس برونيوس ابن المؤرخة البيزنطية أنا كومنين . انظر :

Kinnamos, PP. 162— 64; Chalandon, Les Commenes, Vol. LL, PP. 367— 68.

(٣٤) تولى دوقاس قيادة القوات البيزنطية بعد وفاة زميله ميخائيل باليولوغوس الذي كان قد مات في أوائل ابريل (١١٥٦م) اثر مرض قصير . انظر :

Otto Of Freising, The Deeds Of Barbarossa, P. 165.
(35) William Of Tyre, Vol. IL, P. 250.
(36) Kinnamos, PP. 164— 66; Chalandon, Les Comnenes, Vol. LL, PP. 368- 69.

وعندما وصل الملك وليام الأول بقواته البرية الى برانديزي ، أدرك حالة الذّعر التي تسود المعسكر البيزنطي لذلك قرّر دخول الحرب فوراً - براً وبحراً - ضد القوات البيزنطية . وفي اللحظات الأولى للقتال انضّمت فرقة نورمانية - كانت تعمل مع الجيش البيزنطي -إلى قوات الملك وليام . ودارت معركة قاسية بين الطرفين - بالقرب من مدينة برانديزي - وانتهت بتمزق الجيش البيزنطي تمزقاً شنيعاً ، وهُزم هزيمة ساحقة وذلك في ٢٨ مايو (١١٥٦م) . وعندما وجدت القوات البيزنطية المتبقية أنها مطوقة من كل الجبهات ، اضطرت الى إلقاء سلاحها واستسلمت للقوات النورمانية . حتى أن القائد البيزنطي يوحنا دوقاس ومساعده الكسيوس برونيوس وعدداً كبيراً من الثوار النورمان - الذين ظلوا حلفاء البيزنطيين - وقعوا في قبضة الملك النورماني . كذلك وقعت في ايدي الملك وليام معظم الأموال التي جلبها القادة البيزنطيون لتنفيذ ومتابعة مشروع حملتهم(٣٧) .

وهكذا جرحت هزيمة برانديزي كبرياء الامبراطورية البيزنطية . ونسفت كل ما شاده البيزنطيون في ايطاليا خلال السنتين السابقتين . وقد ألقى البيزنطيون مسؤولية تلك الهزيمة على القائدين دوقاس وبرونيوس(٣٨) . ولكن لا نستطيع ان نغفل مسؤولية العاهل البيزنطي مانويل كومنين نفسه ، الذي لم يدرك أن تثبيت السيادة البيزنطية في ايطاليا والاحتفاظ بالمدن التي فتحتها قواته لا يتمّ بتوزيع الذهب والفضة والدبلوماسية فحسب وإنما بالقوة العسكرية والتنظيم ايضا(٣٩) . ولم يلبث الانتصار النورماني في ٢٨ مايو أن دفع المدن التي احتلها البيزنطيون في ايطاليا إلى اعلان استسلامها للملك النورماني دون مقاومةٍ . وعندئذ أظهر وليام عُنفاً في معاملة سكان المدن الذين باركوا الفتح البيزنطي(٤٠) .

---

(37) William Of Tyre, Vol. LL, P. 250; Kinnamos., P. 166;

(38) Kinnamos, PP. 168— 69.

(39) Ostrogorsky, Hist. Of The Byzantine State, P. 342.

(٤٠) ونذكر على سبيل المثال مدينه باري - عاصمة اقليم ابوليا - التي دمرها الملك وليام تدميراً كاملاً وتحّولت الى كومة من الحجاره وذلك انتقاماً من سكانها الذين هدّموا القلعه كما اسلفنا . ويحدثنا الرحالة بنيامين التطيلي -الذي زار مدينة باري بعد عقد من الزمن تقريباً من هذه الأحداث - ويقول بأنه وجد مدينة باري مدمرة ومهجرة من السكان . انظر بنيامين : رحلته : ص٦٩ .

بعد أن استعاد وليام كل ما كان قد فتحه البيزنطيون ، توجّه لاسترداد ما انتزعه البابا هادريان الرابع(٤١) . وتمكن الملك النورماني من محاصرة البابا وقواته في مدينة بنفنتو(٤٢) ، واضطر البابا هادريان الرابع الى طلب الصلح من الملك النورماني وخضع الحبر الأعظم ـ خليفة القديس بطرس ـ لشروط الملك النورماني المنتصر . ووُقعّت بينهما معاهدة في ١٨ يونيو ١١٥٦م عُرفت بمعاهدة بنفنتو(٤٣) . وفيها أقر البابا شرعيّة امتلاك وليام وورثته لكل أبوليا وكلابريا وسالرنو وآمالفي ونابولي وصقلية ، وكل ما فتحه النورمان سابقاً ولاحقاً . وفي المقابل أقسم وليام يمين الولاء والطاعة للكنيسة الرومانية وتعهّد بدفع مبلغٍ معينٍ من المال سنوياً للبابوية(٤٤) .

لم يكتفِ وليام باسترداد ما فتحه البيزنطيون في ايطاليا (١١٥٤ ـ ١١٥٦م) ، وانما اراد الانتقام من بيزنطة . ولذا أعدّ حملة بحرية تحت قيادة ايتين(٤٥) ، استهدفت النهب والتدمير في الأراضي البيزنطية . وابحرت هذه الحملة في ربيع العام ١١٥٧م ، حيث أغارت على السواحل اليونانية وأحرقت بعض السفن البيزنطية قرب جزيرة نيقروبونت ، ثم نهبت وأحرقت مدينة نيقربونت نفسها . وتبعاً لما ذكره نيقتاس فإن أربعين سفينة من الأسطول النورماني ـ قد تابعت مسيرها ـ دون مقاومة ـ الى مياه القسطنطينية ورشق البحارة القصر الامبراطوري بوابل من السهام ، ومن ثم عادت إلى صقلية .(٤٦) .

ومع أن هذه الغارة النورمانية ـ الانتقامية ـ جرحت شعور مانويل كومنين ، ورغم أنه اعتبرها تحدّياً صارخاً يضاف الى الخيبة التي ألّمت بآماله في ايطاليا ، إلا أن الظروف كانت لا تسمح له باستئناف الحرب مجدداً ضد النورمان . وفي هذا الصدد

(41) William Of Tyre, Hist. Of Deeds, Vol. LL, P. 250.

(٤٢) مدينة بينفتو بلدة كبيرة وتقع على مسيرة يوم واحد من أمالفي وهي محصورة بين شاطىء البحر والجبل الشاهق . وكان الامبراطور الالماني هنري الثالث قد تنازل عنها للبابا ليو التاسع وذلك عام ١٠٥٣ . انظر : بنيامين التطلي : رحلته ، ص٦٨ .

(43) William Of Tyre, Op. Cit., Vol. LL, P.250.

(٤٤) انظر المعاهدة عند :

Thatcher, Op. Cit., Doc, No. 99, PP. 181—83; M. Of Westminster, The Flowers Of History, Vol. LL, P. 55.

(٤٥) يقول نيقتاس أن الحملة النورمانية اشتملت على /١٤٠/ سفينة حربية و/٢٤/ سفينة نقل و/٢٠/ ألف من المقاتلين . انظر : Nicetas, PP. 130—31.

(46) Loc. Cit.

يخبرنا نيقتاس : «لقد أدرك البازيليوس (أي الامبراطور) مانويل بأن الحرب ضد الصقليين (النورمان) ستكلفه الكثير من الأعباء المادية والعسكرية ولهذا وجد من المناسب عقد الصلح مع ملكهم»(٤٧) وفضلاً عن ذلك فربما يئس مانويل من امكانية التحالف مع بربروسا ، والاعتماد على الدّعم الالماني ضد الملك النورماني(٤٨) . ولهذا كله فقد كان العاهل البيزنطي يرغب في توقيع الصلح مع الملك وليام الأول ، ويبدو أن البابا هارديان الرابع هو صاحب مبادرة السلام بين مانويل ووليام الاول ، حيث وصلت سفارة بابوية الى القسطنطينية لهذا الغرض(٤٩) .

وكان أن رغب الامبراطور مانويل في الضغط عسكرياً على المفاوضات ، وذلك بهدف اشعار النورمان بخطورة الموقف من جهة وتوقيع معاهدة صلح ذات شروط مناسبة أكثر لبيزنطة من جهة ثانية . ولذا بعث وفداً يحمل أموالاً الى ايطاليا ونجح الوفد بحشد قواتٍ من المرتزقة وفي كسب تأييد سكان آنكونا ورافينا ، وفي الحصول على دعم عددٍ من الثوار النورمان . ومنذ اغسطس (١١٥٧م) أخذت الحشود بمهاجمة الحدود الشمالية للمملكة النورمانية(٥٠) .

وخلال ذلك الوقت نضجت المفاوضات الدائرة بين القسطنطينية وباليرمو . وسافر وفدٌ نورماني إلى القسطنطينية . حيث تمّ توقيع معاهدة صلحٍ بين الامبراطورية والمملكة مدتها ثلاثين عاماً . وهي المعاهدة التي عُرفت بمعاهدة عام ١١٥٨م . ورغم أننا لا نملك تفاصيل هذه المعاهدة ، إلا أن المؤرخين المعاصرين : كناموس ونيقتاس يؤكدان أن وليام تعهد باطلاق سراح الأسرى الذين وقعوا في قبضته قرب برانديزي ، في معركة ٢٨ مايو (١١٥٦م) ، دون فدية . إلا أنه احتفظ بأسرى طيبة وكورنث ، الذين وقعوا في الأسر النورماني خلال حملة عام ١١٤٧م(٥١) .

والواقع أن المعاهدة (عام ١١٥٨م) تعني اعتراف بيزنطة ، ولأول مرة ، بشرعيّة الوجود النورماني في ايطاليا وبالتالي تحطّمت آمال آل كومنين عموماً ، ومانويل بشكل خاص ، في استعادة النفوذ البيزنطي في شبه الجزيرة الايطالية .

(47) Ibid., P. 128.
(48) Bailly, Byzance, PP. 335—36; Vasiliev, vol. LI., PP. 424—25.
(49) Nicetas. P. 128.
(50) Kinnamos, PP. 170—72; Nicetas, PP. 128—29.
(51) Kinnamos, P. 172.

البابُ الخامِسُ

مذابح القسطنطينية والاتجاه نحو الكارثة :

الصراع بين بيزنطة والقوى الايطالية ١١٧٠ ـ ١٢٠٤ م

الفصل الأول

الايطاليون في بيزنطة بين السجون والمذابح

١١٧٠ ـ ١١٨٢ م

رسمت الجمهوريات التجارية الايطالية سياستها تجاه الامبراطورية البيزنطية بما يتفق ومصالحها الاقتصادية ، بحيث أن أي تهديد لهذه المصالح الاقتصادية كان ينعكس أثره فوراً على الخط السياسي . أما بالنسبة لبيزنطة فإن الأمور كانت تسير عكس الوضع السابق بحيث أن المصالح السياسية للامبراطورية كانت هي الأساس الذي أقامت عليه علاقاتها الاقتصادية تجاه القوى الايطالية عامة والجمهوريات بشكل خاص . وبعبارة أخرى فإن المصالح الاقتصادية بالنسبة إلى الجمهوريات (بيزا وجنوه والبندقية) كانت تشكّل الاساس الصلب الثابت لسياستها الخارجية التي غدت بمثابة الاداة المرنة والمتغيرة لخدمة تلك المصالح . هذا في حين كانت المصالح السياسية للأباطرة البيزنطيين هي الأساس الصلب والثابت لسياستهم الخارجية وكان الاقتصاد هو الأداة لخدمة هذه المصالح . وفي الوقت الذي كانت فيه الاساطيل والجند والشعب والحكام في خدمة تجارة الجمهوريات الايطالية ومستقبلها الاقتصادي ، فإن موارد الامبراطورية وثروتها واقتصادها كان يسخّر للدفاع عن الامبراطورية من جهة ولتحقيق أحلامها السياسية من جهة أخرى . وهكذا قامت العلاقات بين الجمهوريات وبيزنطة على طرفي نقيض . وربما كان هذا التناقض هو الذي يتحكّم في مسار العلاقات بين بيزنطة والقوى الايطالية كلها ، وإذا كان حل هذا التناقض لصالح أحد الطرفين قد تأخر حتى الحملة الصليبية الرابعة ، فإن هذا التأخير جاء نتيجة تناقض آخر قفز في عالم البحر المتوسط ، واقصد به التناقض بين مصالح الجمهوريات الايطالية وبين الدولة النورمانية في جنوب ايطاليا وصقلية .

ان قيام الدولة النورمانية في جنوب ايطاليا وصقلية ، في النصف الثاني من القرن

الحادي عشر ، ومحاولة الزعماء النورمان السيطرة على الادرياتي والعالم البيزنطي شكلّ ، دون شك ، تهديداً خطيراً للمصالح التجارية للجمهوريات ، وبالتالي كان ذلك يتناقض مع متطلبات اقتصادها ونموه ومستقبله . وكانت البندقية بالذات أكثر هذه الجمهوريات تأثراً بظهور القوة النورمانية الجديدة في عالم البحر المتوسط ، ومن هنا جاء التحالف البندقي ـ البيزنطي ، منذ أواخر القرن الحادي عشر ، ضد النورمان الايطاليين .

ذلك أن تطورات الأحداث اثبتت بكل تأكيد ، أن الصراع النورماني ـ البيزنطي كان لصالح البندقية ، بل ربما كانت تتمنى أن يستمر هذا الصراع لان بيزنطة كانت بحاجة مستمرة للاسطول البندقي لمواجهة النورمان ، وكان ذلك مقابل امتيازات تجارية للبنادقة وغيرهم من التجّار الايطاليين في أراضي الدولة البيزنطية .

ومع أن التناقض بين مصالح الجمهوريات التجارية وبين الاهداف السياسية للنورمان كان تناقضاً حاداً وعنيفاً ، إلا أنه لم يكن أكثر عمقاً وشمولاً مماكان عليه التناقض بين مصالح الجمهوريات والسياسة البيزنطية . وقد اعتقد البنادقة بشكل خاص أن حلّ تناقضهم مع البيزنطيين لن يكون إلا بعد حل التناقض مع النورمان وتحطيم أطماعهم في عالم البحر المتوسط . وبالفعل حدث عندما سقطت الدولة النورمانية في ختام القرن الثاني عشر أن سارع البنادقة لحل تناقضهم مع بيزنطة من خلال الحملة الصليبية الرابعة ، في بداية القرن الثالث عشر .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن بيزنطة اصطدمت عسكرياً وسياسياً ، منذ بداية القرن الثاني عشر ، مع جمهورية بيزا(1) . ومن ثم تحالفت هذه الجمهورية مع نورمان انطاكية ضد بيزنطة(2) . ولكن الامبراطور الكسيوس كومنين اضطر للتقرب من جمهورية بيزا لسحب مساعدتها للنورمان على شواطىء الشام ، مما جعله يوقّع معها معاهدة صلح عام ١١١١م ، منح بمقتضاها امتيازات تجارية للبيازنة(3) ، مقابل تعهد هؤلاء بعدم

---

(1) AnnA, op. cit., pp. 292- 93.
(2) William of Tyre, op. cit., 1,pp. 400- 401.

(3) ولعل أهم الامتيازات التي اشتملت عليها هذه المعاهدة هي : ١ ـ تخصيص هدية سنوية إلى كتدرائية بيزا وأسقفها تتألف من مبلغ من المال وكمية من الأقمشة الحريرية . ٢ ـ منح البيازنة حرية المتاجرة في أرجاء الامبراطورية دون قيود . ٣ ـ تخفيض الرسوم الجمركية المتوجبة على التجار البيازنة في الامبراطورية بحيث تصبح ٤٪ فقط . ٤ ـ منح البيازنة رصيفاً =

القيام بأية اعمال عدوانية ضد بيزنطة . أما البيازنة المقيمون في القسطنطينية فقد تعهدوا بالدفاع عن بيزنطة عند الحاجة(٤) .

ومنذ عام ١١١١م أخذ البيازنة يتوافدون على الامبراطورية . وفي عام ١١٣٦م أصدر الامبراطور يوحنا كومنين مرسوماً جدد فيه للبيازنة الامتيازات التي حصلوا عليها بموجب المعاهدة السابقة ، وأضاف إليها امتيازاً اشتمل على حق البيازنة امتلاك مستوطنة خاصة بهم في القسطنطينية(٥) . ويعتقد بعض المؤرخين المحدثين ، أمثال ديل وفريونس ، أن منح الامتيازات التجارية للبيازنة ومن ثم تجديدها إنما جاء نتيجة خوف الأباطرة البيزنطيين من أن يحتكر البنادقة وحدهم التجارة مع بيزنطة ، فضلاً عن محاولتهم إثارة المنافسة بين الجمهوريات الايطالية وتحريض بعضها ضد بعض ، وذلك للتخفيف من غلواء البنادقة ونفوذهم الاقتصادي الذي أصبح لا يطاق في القسطنطينية بصفة خاصة والامبراطورية بصفة عامة(٦) . على أنه لا يستبعد في نفس الوقت أن يكون يوحنا كومنين قد قبل تجديد الامتيازات لجمهورية بيزا بهدف كسب مساعدتها ضد الملك النورماني روجر الثاني ، خاصة وأن هذه الجمهورية كانت تدعم ثورة الأفصال النورمان ضد روجر الثاني منذ عام ١١٣٥م ، ومن هنا كان اتفاق سياستها الايطالية مع بيزنطة ، التي كانت تدعم بدورها الثوار النورمان لتحويل أنظار روجر الثاني عن بيزنطة(٧) .

ومنذ منتصف القرن الثاني عشر أخذت العلاقات بين جمهورية بيزا وبيزنطة تزداد توتراً . حتى أن الامبراطور مانويل أقدم عام ١١٦٢م على نزع جزء من الامتيازات الممنوحة للبيازنة ، ومن ثم أجبرهم على السكن خارج العاصمة ، وسرعان ما هجر البيازنة حيهم وتحول إلى خرائب . ويفترض هايد : أن السبب في هذا الاجراء إنما هو

= وحياً في القسطنطينية . ٥ - منح البيازنة الذين يقيمون في القسطنطينية حق أداء الصلاة في أماكن تخصص لهم في كنيسة آيا صوفيا . ٦ - تعهد الامبراطور في المعاهدة بتقديم الترضيات الكافية لما قد يلحق بالبيازنة من أضرار ، وبتقديم التعويضات اللازمة في حالة تعرضهم للسرقة أو الاغتصاب . انظر تفصيل ذلك عند :
Heywood, A Hist. of Pisa, pp. 128-29;
Heyd, 1, pp. 193- 97; Chalandon, Les Commenes, II, pp. 156-60.
(4) Finlay, op. cit., 111, p. 155; Chalandon, les Commenes, 11, pp. 159-60.
(5) Heyd, op. cit., 1, p. 197.
(6) Diehl, Hist. of the Byzantine Empire, p. 122; Vyronis, Byzantium and Europe, p. 144.
(7) Chalandon. Hist. de la domination, vol. 11, pp. 32-34; Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, pp. 336-37; Cam. Med. Hist. vol. IV, p. 222.

تنفيذ لخطة رسمها العاهل البيزنطي تستهدف تطهير العاصمة تدريجياً من العناصر الأجنبية التي كانت مستعدة دائماً للتآمر مع أعداء الامبراطورية(٨) . بينما يرى شالندون أن هذا الاجراء الامبراطوري إنما هو نتيجة أعمال العنف التي قام بها البيازنة ضد الجاليات الجنوية في القسطنطينية في نفس العام (١١٦٢م)(٩) . وربما كان السبب أيضا هو تلك المعاهدة التي وقعتها جمهورية بيزا مع الامبراطور الالماني فردريك بربروسا (١١٦٢م)(١٠) .

ولكن العلاقات السياسية أخذت تتحسن بين بيزا وبيزنطة بعد ذلك . ففي عام ١١٧م وقّعت هذه الجمهورية معاهدة صداقة مع بيزنطة ، تعهد فيها مانويل كومنين بالسماح للبيازنة بالعودة إلى حيّهم في العاصمة ، وتعهدت فيها الجمهورية مقابل ذلك بأن تعتبر كل معاهدة كانت قد وقعتها (الجمهورية) ، مع ملك متوج أو غير متوج ، باطلة(١١) . وبعد هذه المعاهدة أخذ البيازنة يتوافدون من جديد إلى القسطنطينية وبقية المدن البيزنطية .

أما بالنسبة إلى علاقة جمهورية جنوة مع بيزنطة ، فقد ابتدأت بموقف عدائي اتخذته جنوة ضد بيزنطة وذلك عندما قدم الجنوية الدعم لنورمان انطاكية ضد بيزنطة منذ الحملة الصليبية الأولى(١٢) . واستمرت العلاقات عدائية بين هذه الجمهورية وبيزنطة ، حتى أن أساطيلاً جنوية حاولت الاغارة على السواحل اليونانية عام ١١١١م ، إلا أنها فشلت في ذلك نتيجة الاجراءات الاحتياطية التي اتخذها الكسيوس كومنين(١٣) .

وعندما ادركت جنوه ، التي كانت مصالحها التجارية واسعة في الشام ، أن الامبراطور يوحنا كومنين جاد في فرض سيادته على شمال الشام ضد نورمان انطاكية ، أخذت تتقرب ، منذ عام ١١٤٢م ، من بيزنطة للحصول على امتيازات مشابهة لما حصل عليه البيازنة والبنادقة(١٤) .

وفي عام ١١٥٥م وقّعت بيزنطة معاهدة مع جمهورية جنوه ، تعهدت الأخيرة فيها

(8) Heyd, op. cit., vol. 1, p. 213.
(9) Chalandon, les Commenes, vol. 11, p. 575.
(10) Idem, Hist. de la domination, vol. 11, p. 282.
(11) Hodgson, p. 290; Heydwood, pp. 128-29, 195.
(12) ANNA, pp. 288, 295-96; Bent, p. 92; Grousset, 1, p. 383; Setton, 1, p. 387; Hodgson, pp. 238, 257.
(13) ANNA, p. 368.
(14) Heyd, 1, p. 198; Diehl, Hist. of the Byzantine Empire, p. 212; Cam. Med. Hist. vol. IV, p. 222.

بالحياد ازاء الصراع النورماني ـ البيزنطي الدائر في ايطاليا آنذاك ، كما تعهدت فيها بأن يقوم الجنوية المقيمون في القسطنطينية بمساعدة الامبراطور مانويل في الدفاع عن الامبراطورية(١٥) . على أن هذه المعاهدة سرعان ما نُسفت ، وذلك بسبب توقيع جنوه معاهدة سلام مع الملك النورماني وليام الأول في العام التالي (١١٥٦) .(١٦) . وتدهورت العلاقات اكثر في العام ١١٦٢م . عندما هاجم البيازنة والبنادقة ـ وربما بمساعدة البيزنطيين ـ الحي الجنوي في القسطنطينية ، والحقوا به خسائر فادحة وأخذ الجنوية على أثر ذلك يهجرون حيّهم ويعودون الى بلادهم . وقد ردت الجمهورية على ذلك بتوقيع معاهدة مع بربروسا في نفس العام ١١٦٢م(١٧) .

وبقيت العلاقات بين جمهورية جنوة وبيزنطة مقطوعة حتى عام ١١٦٩م ، حيث تمّ في هذه السنة توقيع معاهدة بينهما(١٨) ، تعهد فيها مانويل كومنين بمنح الجنوية امتيازاتٍ تجارية ، مقابل تعهد الجمهورية بعدم التعاون مع اعداء الامبراطورية من جهة وبانخراط الجنوية المقيمين في الامبراطورية في القوات البيزنطية في حالة تعرض الامبراطورية للهجوم من جهة أخرى .(١٩)

ومهما يكن من أمر ، فان البندقية كانت بحق زعيمة الجمهوريات الايطالية واكثرها قوة ، سياسياً واقتصادياً وحربياً ، وقد أوضحنا في اكثر من مناسبة أن الخطر النورماني

---

(١٥) كانت هذه المعاهدة على شكل مرسوم أصدره الامبراطور مانويل كومنن عام ١١٥٥م . ولعل اهم ما استمل عليه هذا المرسوم هو تعهد الامبراطور بمنح جمهورية جنوه هدايا ثمينة تتكون من أقمشة حريرية ومصنوعات بيزنطية ثمينة ، كما اشتمل على منح الجنوية حي تجاري وأرصفه لرسو سفنهم في ميناء القسطنطينية . كما نص المرسوم على تخفيض الرسوم الجمركية التي يدفعها الجنوية عن سلعهم في الامبراطورية من ١٠٪ إلى ٤٪ . وبذلك أصبح للجنوية نفس الامتيازات التي يتمتع بها البيازنة في بيزنطة . انظر تفصيل ذلك عند : Fothringham, P. 26; Heyd, 1, P. 205.

(16) Chalandon, Hist. De La Domination, P. 246.

(17) Heyd, 1, PP. 203— 205.

(١٨) ولعل أهم الامتيازات التي مُنحت للجنوية عام ١١٦٩م . هي تعهد مانويل بالتنازل للجنوية عن حي جديد بدلاً من الحي السابق مع رصيف وكنيسة خارج القسطنطينية . كما تعهد بإعطاء السفن الجنوية حرية الملاحة في موانىء الامبراطورية البيزنطية ، ما عدا موانىء البحر الأسود وبحر آزوف التي كان يحظر على التجار الأجانب الاقتراب منها . وتجدر الاشارة إلى أن مانويل منح في العام التالي (١١٧٠م) الجنوية حيّاً داخل العاصمة نفسها . انظر تفصيل ذلك عند Finlay, 111, PP. 155; Forthigham, PP. 26— 27.

(19) Hadgson, P. 289; Finlay, 111, P. 155.

هو الذي فرض على الاباطرة البيزنطيين التحالف مع البندقية ، مقابل امتيازات تجارية هائلة ، ورأينا كيف تحالف الكسيوس كومنين مع البنادقة لمواجهة الغزو النورماني بقيادة جويسكارد (١٠٨١ـ ١٠٨٥م) ، مقابل امتيازات اقتصادية منحها هذا الامبراطور للبنادقة ، وكيف أنه بعد ربع قرن ، تقريباً اضطر الكسيوس نفسه الى طلب العون من البنادقة ، مقابل توسيع امتيازاتهم السابقة ، لمواجهة الغزو النورماني بقيادة بوهيموند بن جويسكارد (١١٠٧ ـ ١١٠٨م) . واستمرت العلاقة طيبة بين بيزنطة والبندقية خلال عهدا الكسيوس كومنين (١٠٨١ ـ ١١١٨م) ، حتى أن الأخير قدّم دعماً ملموساً لجمهورية البندقية خلال حرب الأخيرة ضد الملك الهنغاري كولومان ، وتمكنت الجمهورية بمساعدة بيزنطة من احتلال كرواتيا ودالماشيا عام ١١١٥م ، ثم احتلال زارا ، حتى أن دوج البندقية اتخذ منذ عام ١١١٦م لقب «دوج البندقية ودالماشيا وكرواتيا»(٢٠)

ولا شك في أن الامتيازات التي منحت للبنادقة سمحت لهم باقامة مستوطنات تجارية في القسطنطينية والمدن الرئيسية في الامبراطورية . وسرعان ما اكتظت هذه المستوطنات بالبنادقة التجار الأثرياء ونجح هؤلاء خلال فترة بسيطة في خلق وضع المهيمن لانفسهم في العاصمة والاقاليم الامبراطورية . وقد لاحظ البيزنطيون ثروة هؤلاء الاجانب المتمركزين بين ظهرانيهم واتخذوا تجاههم موقفاً عدائياً ينمّ عن الكراهية والحقد . ولقد تحدث المؤرخان البيزنطيان ، كناموس ونيقتاس ، عن هذه النقطة بالذات كثيراً . فأشار كناموس إلى أن البنادقة نسوا تدريجياً أنهم ليسوا في وطنهم وبدأوا يتعاملون مع البيزنطيين ، وكأنهم في أرض محتلة ، بكثير من الازدراء والاحتقار ، حتى أن عنجهية هؤلاء البنادقة وترفعهم عن البيزنطيين ، جعلت منهم حملاً ثقيلاً على نفوس البيزنطيين وأخذ الكره والحقد عليهم يعمّ الامبراطورية كلها(٢١) .
اما المؤرخ نيقتاس فقد قال : «يعيش البنادقة في عمق الادرياتي ، وهم بحارة ماهرون جداً ولكنهم ماكرون وشديدو الخبث . وبما أن الرومان (اي البيزنطيين) كانوا بحاجة ماسة إلى سفن هؤلاء البنادقة فقد انتشروا بكل انحاء الامبراطورية وأخذوا

(20) Hodgson, Venice, pp. 248- 49.
(21) Kinnamos, In C.S.H.B., P. 281.

يزدادون بأعداد هائلة جداً . وأهم صفاتهم هي التبجح والكبرياء بحيث أنهم لم يعيروا أي اهتمام لأوامر الامبراطور أو تعلياته ، بل أنهم كانوا يهددونه أيضاً»(٢٢)

عندما اعتلى الامبراطور يوحنا كومنين العرش البيزنطي (١١١٨ ـ ١١٤٣م) بعث دوج البندقية ، دومينيكو ميخائيل ، وفداً الى القسطنطينية بهدف تجديد الامتيازات التي سبق أن منحها لهم الكسيوس كومنين . ولكن يوحنا رفض ذلك(٢٣) . وذلك أن العاهل البيزنطي الجديد اعتقد أن الخطر النورماني ـ الذي سبق أن اضطر والده إلى منح تلك الامتيازات الهائلة للبنادقة ـ قد انتهى ، باعتبار أن الدولة النورمانية في الربع الأول من القرن الثاني عشر أصابها الانحطاط ، كما اسلفنا ، ولهذا قرر الغاء امتيازات البنادقة التي خلقت لهم وضعاً استثنائياً في بيزنطة(٢٤) . ويضاف الى ذلك أن يوحنا أراد فك الطوق الذي أحكمه البنادقة على عنق التجارة الامبراطورية واقتصادها والتخلص من صلف البنادقة الذين امتلأت بهم اسواق الامبراطورية . وبطبيعة الحال فإن هذا القرار جرح كبرياء البنادقة الذين اعتقدوا بأن الخدمات التي أسدوها للبيزنطيين في مختلف الحروب قد اكسبتهم حقوقاً معترفاً بها الى الأبد ، فهل هذا هو جزاؤهم ؟(٢٥)

وفي عام ١١٢٢م توجهّ اسطول بندقي لنجدة مملكة بيت المقدس الصليبية(٢٦) . وكان هذا الاسطول تحت قيادة الدوج دومنيكو ميخائيل نفسه ، الذي قرر الانتقام من البيزنطيين على موقفهم الأخير هذا . فهاجم في طريقه جزيرة كورفو البيزنطية ، ولكنه فشل في احتلالها ، واضطر تحت الحاح الصليبيين ، أن يفكّ الحصار عن كورفو ، وأن يتجه الى شاطىء الشام ، مؤجلاً الانتقام للعودة . وبالفعل حدث أثناء عودة هذا

---

(22) Nicetas, In C.S.H.B., PP. 220—21.

(23) Hodgson, Venice, P. 253; Diehl, Hist. Of The Byzantine Empire, P. 121.

(24) Vasiliev, Hist. Of The Byzantine, Empire, Vol. 11, P. 413.

(25) Heyd, Hist. Du Commerce, Vol. 1, P. 195.

(٢٦) يرى بعض الباحثين المحدثين أن رفض الامبراطور يوحنا كومنين تجديد الامتيازات للبنادقة يرجع إلى محاولات جمهورية البندقية توثيق علاقاتها مع الامارات الصليبية في الشام ، خاصة وأن البندقية كانت قد عينت أول قنصل لها في هذه الأمارات وهو تيوفيلوس عام ١١١٧م ، وطالما أن الصليبيين في الشام كانوا في تلك الفترة في حالة عداء مع بيزنطة ، وبخاصة نورمان انطاكية ، فقد أخذ يوحنا يشك في إخلاص البنادقة والتزامهم بضامين المعاهدات الموقعة بينهم وبين بيزنطة . انظر: Brown, Op. Cit., P. 73.

الاسطول من شواطىء الشام الى البندقية عام ١١٢٤م(٢٧) ، أن عامله البيزنطيون كأعداء ورفضوا امداده بالمؤن عند جزيرة رودس . وعندئذ ما كان من الدوج إلا أن اقتحم رودس وأعمل فيها السلب والنهب ، ثم احتل جزيرة خيوس واستقر فيها مع رجاله طوال عام ١١٢٤م . وفي مطلع السنة التالية (١١٢٥م) هاجم دومينكو جزر ساموس وليسبوس وأندروس ، وأعمل البنادقة السلب والنهب في هذه الجزر . وبعد ذلك اتخذ هذا الاسطول طريقه الى البندقية ، وإن كان قد هاجم في طريقه الأرخبيل اليوناني وسواحل دالماشيا ، وجاء ذلك رداً على رفض يوحنا كومنين تجديد امتيازاتهم في امبراطوريته(٢٨) .

وامام هذه الاعتداءات التي لم تتوقف اضطر الامبراطور يوحنا كومنين أن يتخلى عن قراره ، خاصة وأنه لا يملك القوة البحرية القادرة على ردع البنادقة من جهة فضلاً عن أن من مصلحته عدم معاداة تلك القوة البحرية الضخمة من جهة ثانية . ولذا أبلغ الدوج استعداده لتجديد الامتيازات . وبالفعل تم ذلك في القسطنطينية عام ١١٢٦م ، حيث وقع الطرفان معاهدة جُددت فيها الامتيازات للبنادقة من جهة وتعهد يوحنا بالتغاضي عن الأعمال العدوانية التي ارتكبها البنادقة ضده من جهة أخرى(٢٩) .

ثم تجدّد الخطر النورماني من ايطاليا للمرة الثالثة (١١٤٧م) على بيزنطة ، ليكون نقطة تحول خطيرة في تاريخ العلاقات البندقية ـ البيزنطية ، وعندئذ طلب الامبراطور مانويل كومنين (١١٤٣ ـ ١١٨٠م) مساعدة البندقية لتحرير جزيرة كورفو التي

---

(٢٧) قام الاسطول البندقي بمساعدة الصليبيين ضد العرب المسلمين أثناء حصار صور عام ١١٢٣م . وبعد أن نفّذ الاسطول مهمته هذه وقعّ دوج البندقية ـ قائد الاسطول آنذاك ـ معاهدة مع امراء مملكة بيت المقدس وبطريركها ، ومنحت البندقية بموجبها امتيازات تجارية في المملكة الصليبية . إلا أن الخطورة في هذه المعاهدة كونها تشير إلى أن للبنادقة في بيت المقدس نفس الحقوق والامتيازات التي منحها لهم بلدوين الثاني في امارة أنطاكية . وهنا يُكشف سر خطير وهو أن البنادقة كانوا على علاقة طيبة مع نورمان انطاكية ـ اعداء بيزنطة ـ ودون علم من البيزنطيين الذين كانوا يسبغون عليهم الامتيازات التجارية للوقوف إلى جانبهم ضد نورمان انطاكية وايطاليا . أنظر نص المعاهدة عند :
. William Of Tyre, 1, PP. 550— 560.

(28) Heyd 1, P. 195; Chalandon, Les Commenes, 11, PP. 157— 58.

(29) Hodgson, P. 259; Tout, 11, P. 339; Vasiliev, 11, P. 413; Cam Med. Hist. Iv, P. 222; Diehl, P. 121; Ostrogorsky, P. 335.

احتلها النورمان (١١٤٧م) في عهد روجر الثاني . وقد لبى البنادقة النداء ليس من أجل الامتيازات التجارية التي منحها لهم مانويل (١١٤٧و١١٤٨م) فحسب وانما لأن احتلال النورمان لكورفو يهدد حرية تجارتهم ايضاً(٣٠) . ووصل الاسطول البندقي الى جزيرة كورفو وفرض الحصار على هذه الجزيرة الى جانب الاسطول البيزنطي منذ اغسطس (١١٤٨م) .

ورغم الاجراءات التي اتخذها قادة الاسطولين للتفريق بين معسكر البنادقة ومعسكر البيزنطيين اثناء فترة الحصار ومنعاً لوقوع تصادم بينهما ، إلا أنه سرعان ما بدأت المشادّات بين جند الطرفين في السوق التجاري القائم بينهما ، وتحولّت المشادات الى اعمال عنف ومعارك بين الطرفين . ويبدو أن كفة البيزنطيين رجحت اثناء ذلك ، واضطر البنادقة الى العودة الى سفنهم ، حيث أبحروا الى جزيرة قريبة ـ أسمها فيدو ـ وأحرقوا بعض السفن البيزنطية الراسية قرب الجزيرة الاخيرة ، ومن ثم أستولوا على السفينة الامبراطورية ، حيث أستخدموها لاقامة حفلة ساخرة ، تمثلّت في وضع اقمشة حمراء على قسم من السفينة ، كأنه الجناح الذي يجلس فيه الامبراطور ، وجلس على كرسي العرش رجل زنجي قبيح المنظر يمثلّ الامبراطور مانويل ، وأخذوا يقدمون له التشريفات الامبراطورية(٣١) .

لقد نجح مانويل كومنين في كظم غيظه من البنادقة لهذه السخرية التي لحقت بشخصه ، ولكنه كان بحاجة إلى مساعدة أسطولهم . وتمتّ تسوية فورية للمسألة آنذاك ، وعاد البنادقة الى مساعدة البيزنطيين في متابعة حصار الجزيرة إلا أنهم لم ينسوا أعمال العنف التي جرت ، كما أن مانويل لم ينس المسرحية التي كان شخصه بطلها على سفينته ، واستمر البنادقة مع البيزنطيين حتى فتح الجزيرة (١١٤٩م) ولكن عندما رغب مانويل بنقل الحرب من كورفو الى ايطاليا (١١٥٠م) ، لعب البنادقة دوراً

(٣٠) أصدر الامبراطور مانويل كومنين مرسوماً عام ١١٤٨م اشتمل على تجديد الامتيازات التجارية التي كانت قد منحت للبنادقة عام ١٠٨٢م وعام ١١٢٦م . كما تضمن المرسوم منح البنادقة رصيفاً رابعاً في ميناء القسطنطينية ، ووضع عدد من البيوتات تحت تصرف البنادقة لأن حيهم في القسطنطينية قد ضاق بهم ، كما اعفى المرسوم وملحقاته البنادقة من دفع الرسوم الجمركية في موانيء كريت وقبرص . وتأتي أهمية المرسوم أنه سمح للبنادقة بالاختلاط بين السكان ، وبالتالي بدأت المصاهرات بين البنادقة والبيزنطيين . حول هذا المرسوم انظر :.Brown, P. 74; Hodgson, P. 264

(٣١) انظر تفصيل ذلك عند : .Kinnamos, P. 98; Nicetas, PP. 103—113

مشبوهاً في إفشال عملية انزال القوات البيزنطية بقيادة يوحنا الاكسوخ في انكونا ، حتى اضطر الاسطول البيزنطي الى العودة الى القسطنطينية (شتاء ١١٥٠م) دون أن يحقق أية نتيجة على الساحل الايطالي(٣٢) . ولعل السبب في ذلك ـ كما اثبتت الاحداث فيما بعد ـ هو أن احلام مانويل في فرض سيادته على ايطاليا لا تقل خطورة ـ من وجهة نظر البنادقة ـ عن أحلام روجر الثاني في فرض سيادته على بيزنطة وذلك لأن حرية تجارتهم فوق كل اعتبار ، فضلاً عن أحداث كورفو لا زالت حديثهم اليومي وتحز في قلوبهم .

ورغم حرص مانويل ـ كما يقول نيقتاس ـ على ابقاء العلاقات بينه وبين البندقية طيبة ، لأنه كان بحاجة الى مساعدتهم في مشروع حملته على ايطاليا (١١٥٤ ـ ١١٥٨)(٣٣) ، إلا أن مسألة كورفو قد جددت العلاقات بين بيزنطة والبندقية ، ولهذا اتخذت البندقية موقفاً معادياً لمانويل اثناء حملة الأخير الى ايطاليا ،، ووقعت معاهدة صلح مع عدو بيزنطة وليام الاول عام ١١٥٥م(٣٤) . وحصلت بموجبها على امتيازات تجارية في المملكة النورمانية(٣٥) . وفي نفس الوقت أخذت البندقية ترقب بقلقٍ شديدٍ النشاطات البيزنطية في ايطاليا وأحداث الصراع البيزنطي النورماني في أبوليا ، لأن مشاريع مانويل ومطامحه في شبه الجزيرة الايطالية كانت تتناقض مع مصالحهم الاقتصادية ومستقبلهم التجاري(٣٦) .

وجاءت محاولات بربروسا لفرض سيادته على ايطاليا لتمنع العلاقات البندقية ـ البيزنطية من التدهور ، حيث اخذت الجمهورية تتقرب من بيزنطة لانه لم يكن من مصلحة البنادقة ان يكون في ايطاليا سلطة امبراطورية قوية سواء أكانت بيزنطية أو ألمانية ، ولكنها فضّلت صداقة بيزنطة (البعيدة) على صداقة ألمانيا (القريبة) وطالما أن البندقية كانت عضواً رئيسياً في الحلف اللمباردي فقد توثقت العلاقات بين بيزنطة والبندقية ، وعن طريق البندقية وصلت المساعدات البيزنطية الى المدن اللمباردية لاستمرار نضالها ضد بربروسا(٣٧)

(٣٢) انظر الاتهامات التي يوجهها كنّاموس للبنادقة في هذا الصدد . Kinnamos, P. 113

(33) Nicetas, In C.S.H.B., P. 220.

(34) Hodgson, Venice, P. 262.

(35) Vasiliev, POp. Cit., Vol. 11, P. 424

(36) Hodgson, Op. Cit., P. 279.

(37) Ibid., P. 280.

ورغم أن الخطر الالماني أدى مرة اخرى الى توثيق العلاقة بين بيزنطة والبندقية ، إلا أن العداء بين الجالية البندقية في القسطنطينية والبيزنطيين كان يزداد يوماً بعد آخر ، وحقد البنادقة على مانويل كومنين بالذات كان يتفاقم باستمرار نتيجة الامتيازات التي منحها الاخير للجنوية عام ١١٦٩م وللبيازنة عام ١١٧٠م ، حيث وجد البنادقة في هذه الامتيازات خطراً يهدّد تجارتهم في الامبراطورية البيزنطية ، وتوترت العلاقات في داخل القسطنطينية حتى أخذت بالانفجار منذ عام ١١٧٠م . حيث قام مانويل في هذه السنة (١١٧٠م) بمصادرة الأموال التي يمتلكها البنادقة في القسطنطينية وبقية المدن الامبراطورية(٣٨) . ورداً على ذلك أصدَر دوج البندقية ميخائيل الثاني فيتالس أمراً يحظّر فيه رعاياه من السفر أو المتاجرة مع بيزنطة ، وعلى أثر هذا الأمر غادر معظم البنادقة المقيمين في الامبراطورية وعادوا الى وطنهم(٣٩) .

وكان أن أحسّت بيزنطة ، نتيجة ذلك ، أنها خسرت جزءاً كبيراً من ايرادات الجمارك ، ولهذا بعث مانويل كومنين سفارة الى البندقية ، يقترح عليها إعادة العلاقات بينهما ، ويتعهد بالحفاظ على أمنْ التجار البنادقة في الامبراطورية وسلامتهم وانه سيمنحهم امتيازات مطلقة لتجارتهم . ووافق الدوج ، وعادت العلاقات بين الجمهورية وبيزنطة ، وعاد الى الأراضي البيزنطية نحو/٢٠/ ألفاً من البنادقة ، حاملين معهم كميات كبيرة من البضائع والأموال ، ولكنهم مسلحين أيضاً(٤٠) .

ولكن حالما استقر البنادقة في الموانيء الامبراطورية ، عقد مانويل العزم على اعتقالهم بشكل جماعي ومصادرة أموالهم وسلعهم ولذا اتخذت احتياطيات أمنٍ سرية ومشدّدة وبشكل خاص في العاصمة التي تحوي المركز الرئيسي للجاليات البندقية وأكثرها ثراءاً ، وجُلبت قوات عسكرية من كل الجهات لهذا الغرض ، وأُعلنت حالة التأهب في القسطنطينية . وفي ١٢ مارس من العام ١١٧١م صدر أمر أمبراطوري باعتقال جميع البنادقة الموجودين في القسطنطينية وفي كافة ارجاء الامبراطورية ، ومصادرة أموالهم وثرواتهم ووضع املاكهم تحت الحراسة المشددة . ونُفذَ هذا الامر على

---

(38) Nicetas, in C.S.H.B., pp. 220-22.

(39) Heyd , Hist. Du Commerce, Vol. 1, P. 217; Chalandon, Les Comnenes, Vol. 11, PP. 587— 88; Setton, Hist. Of The Crusades, Vol. 11, P. 139

(40) Heyd, Op. Cit? Vol. 1, P. 217; Chalandon, Op. Cit., Vol. 11, P. 588.

الفور ، وفي وقت واحد ، وبمنتهى الحزم(٤١) .

وكانت ضحية هذا المرسوم في القسطنطينية وحدها عشرة آلاف من أفراد الجالية البندقية(٤٢) . ولم تتسع السجون ـ كما يقول نيقتاس ـ لاستيعاب هذا العدد ، ولذا عمدت السلطات البيزنطية الى سجن قسمٍ منهم في الأديرة . ويبدو أن الدولة لم تكن قادرةً من الناحية المادية على ايواء هذه الحشود لمدة طويلة ، ولذا فقد اضطر الامبراطور الى اطلاق سراح عددٍ منهم بعد عشرة أيام بكفالات وضمانات رسمية . وتمكن قسم من الذين تمّ الافراج عنهم من الفرار على ظهر سفينة بيزنطية يقودها أحد البنادقة ، وفشلت المحاولات البيزنطية في اللحاق بها (٤٣) .

ويبدو أن قرار الاعتقال لم يشمل كافة البنادقة ، وإنما يحتمل أنه اقتصر على التجار فقط . والدليل على ذلك ما أشار اليه المؤرخ نيقتاس الذي قال : «بأن البنادقة الذين كانوا قد تزوجوا بيزنطيات فقد ظلوا في القسطنطينية رغم كل ما جرى»(٤٤) . وكذلك يمكننا الاستنتاج مما رواه نيقتاس وكناموس في الفقرة السابقة بأن البنادقة الذين كانوا يعملون لدى الدولة لم يشملهم قرار الاعتقال . فلو شملهم هذا القرار هذا القرار فلماذا لم يكن معتقلاً البحار البندقي ، «الذي كان يقود سفينة بيزنطية» والذي ساعد قسماً من البنادقة على الفرار ؟ .

والواقع أن أحداث عام ١١٧١م كانت نقطة تحول بالغة الخطورة في العلاقات البيزنطية ـ البندقية بشكل خاص والعلاقات البيزنطية ـ الأوروبية الغربية بشكل عام . ولعل اهم الاسباب التي دفعت الامبراطور مانويل كومنـين للقيام بعمليات الاعتقال والمصادرة هي :

اولاً : يعتقد المؤرخ البيزنطي كناموس أن مانويل كومنين رغب في معاقبة البنادقة

---

(٤١) انظر التفاصيل الكاملة عن هذه الأحداث عند Nicetas, PP. 221—25; Kinnamos, PP. 281-83; Luzzato, p. 77; Vasiliev, 11, PP. 425 FF; Ostrogorsky, PP. 345—46.

(٤٢) يقول المؤرخ نيقتاس «بعد أن تم القبض على البنادقة في العاصمة والاقاليم في وقت واحد ، أمر الامبراطور حكام الاقاليم أن يبعثوا بالأموال والثروات التي تمت مصادرتها من البنادقة الى خزينة الدولة ، في القسطنطينية ، إلا أن الحكام احتجزوا الجزء الاعظم من هذه المصادرات لأنفسهم ولم يبعثوا إلا جزءاً يسيراً جداً الى الدولة» . أنظر Nicetas, In C.S.H.B., PP. 222—23.

(43) Kinnamos, Op. Cit., PP. 282—83; Nicetas, Op. Cit., PP. 223—24; Hodgson, Op. Cit., P. 291.

(44) Nicetas, Op. Cit., P. 224.

على اعتدائهم الصارخ ضد التجار الجنوية المقيمين في القسطنطينية ، وأن الامبراطور حمّل البنادقة مسؤولية هذا العمل ، وطلب منهم التعويض عن الخسائر الفادحة التي لحقت بالجنوية وإعادة بناء المساكن التي هدموها لهم . ولكن البنادقة رفضوا مطالب الامبراطور وهددوه بالحرب اذا أصر عليها . ويذكر كناموس صراحة أن البنادقة كانوا يُعاملون اللمبادريين (ويقصد هنا الجنوية بشكل خاص) الذين يقيمون في القسطنطينية معاملة سيئة للغاية(٤٥) .

ثانياً : يعزو المؤرخ البيزنطي نيقتاس عمليات الاعتقال والمصادرة التي قام بها مانويل كومنين إلى الكراهية والحقد والحسد الذي كان يعتصر قلوب البيزنطيين الذين أخذوا ينظرون بغضب الى هؤلاء الأجانب وهم ينهبون ثروتهم ويسيطرون على اقتصادهم واسواقهم وتجارتهم ويتصرفون في القسطنطينية وغيرها من المدن الامبراطورية كأنهم في بلدهم الأم بل كأنهم في بلاد كانوا قد فتحوها بقوة السيف ويحق لهم باسم الفتح أن يستعمروها ويحتقروا شعبها وينظروا الى المواطن البيزنطي العادي نظرة ملؤها الكبرياء والصلف والازدراء ؛ بل نظروا باحتقار شديد إلى الامبراطور البيزنطي وكبار رجالات الدولة ، ورفضوا الأوامر الامبراطورية ، واذ أصر الأمبراطور على طلب ما ، هددوه بالحرب(٤٦) .

ثالثاً : يرى بعض المؤرخين المحدثين أن ثروة البنادقة كانت موضع طمع الامبراطور مانويل ، وطالما أنه كان بحاجة إلى أموال لينفقها على الحرب التي تورط فيها وعلى مشاريعه السياسية في ايطاليا والبلقان وآسيا الصغرى وانطاكية ، فقد وجد في ثروة المستوطنة البندقية الموجودة في القسطنطينية شيئاً مغرياً ولذا قام بمصادرة ممتلكاتهم(٤٧) ، خاصة وأن ثروة هذه المستوطنة ـ كما قدرها أحد المؤرخين المحدثين ـ بلغت حوالي مليونين من الجنيهات الاسترلينية(٤٨) .

رابعاً : وربما كانت هناك اسباب سياسية وراء اجراءات مانويل كومنين ، ولعل اهمها معارضة البندقية لسياسة مانويل في ايطاليا ، حيث نظرت الجمهورية الى

(45) Kinnamos, Op. Cit., PP. 222, 282
(46) Nicetas, pp. 220 FF.
(47) Vasiliev, 11, p. 425.
(48) Brown, pp. 83 — 84.

محاولات هذا الامبراطور فرض سيادته على ايطاليا ، على أنها خطر على مستقبل امبراطوريتها التجارية ، ولذا فقد وقفت ضد احلام مانويل لاستعادة ايطاليا ،وتبنت سياسة جديدة ازاء النورمان في ايطاليا الجنوبية وصقلية ، منذ عام ١١٥٥م ، قائمة على التحالف مع هؤلاء النورمان ضد مطامح العاهل البيزنطي في ايطاليا ، ، والدليل على ذلك ـ كما يعتقد هايدوشالندون ـ أن الامبراطور مانويل كان قد سأل دوج البندقية فيما اذا كان بالامكان الاعتماد على مساعدته في حال قيام حرب بينه وبين المملكة النورمانية ، ولكن الدوج رفض هذا الطلب ، وعندئذٍ قرر مانويل الانتقام من البنادقة المقيمين في بيزنطة(٤٩) .

وعلى أية حال فقد كان لهذه الاحداث وقع الصاعقة في الجمهورية ، اذ هاج البنادقة يطالبون الدوج بالانتقام والثأر من البيزنطيين . وعندئذ قررت الجمهورية شن الحرب ضد بيزنطة واستدعت على الفور كل البنادقة الموجودين في الخارج للاشتراك في الحملة(٥٠)وخلال شهور قليلة أعدّت البندقية أسطولاً ضخماً بلغ حوالي/١٠٠/سفينة حربية و/٢٠/ ناقلة ، وأبحر هذا الاسطول في سبتمبر من العام التالي على الاحداث (١١٧٢م) ، وكان تحت قيادة الدوج ميخائيل فيتالس نفسه ، واستهل البنادقة أعمالهم بمهاجمة بعض المدن في دالماشيا ـ التي كانت قد احتلتها بيزنطة عام ١١٦٦م ـ وتم احتلال بعضهامثل مدينة راجوز التي أُجبر سكانها على دفع فدية كبيرة وعلى هدم أسوار المدينة ، ومن ثم أُنزلت الاعلام البيزنطية عن الاسوار والقلعة ورُفعت مكانها الاعلام البندقية ، ثم توجّه الاسطول البندقي الى نيقروبوت ومن ثم الى جزيرة خيوس (chios) ، واتخذت الاخيرة مقراً لتنفيذ العمليات .

ويخبرنا المؤرخ نيقتاس أن الامبراطور مانويل استشاط غضباً من أعمال السلب والنهب التي يقوم بها الاسطول البندقي في الجزر اليونانية ولهذا أرسل القائد أندرنيق كونتاستيفانوس ، وتحت قيادته أسطولا مؤلفاً من /١٥٠/ سفينة . وبمجرد اقتراب الاسطول الروماني (البيزنطي) ترك البنادقة جزيرة خيوس وهاجموا جزراً أخرى ، ولم يتمكن الاسطول البيزنطي من اللحاق بالاسطول البندقي الذي كان يمخر عباب

(49) Heyd, 1, pp. 215 — 17, chalandon, les Commenes, 11, pp. 586 — 88'
(50) Kinnamos, pp. 282 — 85, Nicetas, p. 224; hodgson, pp. 291 — 94; Finlay, 111, p. 181.

البحر هروباً(٥١) . وخلال ذلك شعرت الحكومة البندقية بالخسائر التي لحقت بتجارتها في عدائها لبيزنطة وخشي مجلس الشيوخ البندقي أن يؤدي تصاعد الموقف الى خسارة البندقية لكل الامتيازات التي سبق أن حصلت عليها . ولذا بعث الدوج بسفارة الى القسطنطينية لفتح باب المفاوضات وتوقيع معاهدة الصلح ، وقبل أن تحدد بيزنطة موقفها من العرض البندقي ، أُصيبت القوات البندقية المرابطة في خيوس بوباء أدى الى وفاة ستة آلاف رجلٍ من بين البنادقة في نفس الوقت الذي كان فيه الاسطول البيزنطي بقيادة كونتاستيفانوس يشق طريقه لقتالهم . وازاء هذه الظروف اضطر الدوج للتخلي عن مشروع الحملة كلياً وأن يعود الى البندقية خاصة وقد رفضت القوات البندقية نفسها ـ في النهاية ـ الاستمرار في الحملة(٥٢) .

وهكذا فشلت الحملة البندقية فشلاً ذريعاً ، ويقال أن الدوج ميخائيل ـ قائد الحملة ـ تعرض للعزل ثم للقتل بسبب فشله . وخلفه الدوج زياني Ziani الذي سرعان ما قدّم المساعدة لبربروسا ضد مدينة أنكونا(١١٧٣) التي كانت مركزاً هاماً للنشاط البيزنطي في ايطاليا(٥٣) . كذلك قام البنادقة بتحريض الصرب ضد الامبراطور مانويل كومنين(٥٤) .

واستمرت العلاقات بين البندقية وبيزنطة سيئة للغاية ، ويعترف المؤرخ البيزنطي نيقتاس قونياتس أن البندقية أخذت بعد فشل حملتها ضد بيزنطة (١١٧٢) تتصل بالملك النورماني وليام الثاني لكي يساعدها ضد بيزنطة(٥٥) . ولذلك أحسّ مانويل

(51) Nicetas, in C. S. H. B., p. 225.

(52) Nicetas, op. cit., pp. 225 — 26; Kinnamos, op. cit., pp. 284 — 6; Finlay, op, cit., vol . 111, p. 181.

(٥٣) ان الفشل الذي مُنيت به الحملة البندقية (١١٧٢) دفع البنادقة للتحالف مع بربروسا ـ عدو بيزنطة آنذاك ـ وقدمّوا له العون ضد مدينة انكونا التي تعتبر نصف بيزنطية والتي تربطها ببيزنطة علاقات طيبة منذ حملة مانويل الى ايطاليا عام ١١٥٤م ، والتي تؤيد عودة الادارة البيزنطية الى ايطاليا . وبعثت الجمهورية بأربعين سفينة لمحاصرة أنكونا بحراً وفي نفس الوقت قام بربروسا بمحاصرتها براً ، ورغم شدة الحصار ورغم الجوع الذي حل بسكان أنكونا ، فقد صمدت المدينة بشجاعة ، ومن ثم انقذت ، من قبل جيش ايطالي متطوع ، من الخطر الالماني ـ البندقي . انظر تفاصيل ذلك عند :

Hodgson, Venice, pp. 293- 94; Finlay, hist. of Greece, vol, III, pp. 182-83

(54) Kinnamos, in C. S. H. B., p. 286.

(٥٥) تشير الدراسات الحديثة ان البندقية وقعّت معاهدة صداقة مع الملك النورماني وليام الثاني عام ١١٧٥م ، ومدة هذه المعاهدة عشرين عاماً ، حصلت الجمهورية نتيجة هذه المعاهدة على امتيازات تجارية في المملكة النورمانية .. انظر :

Hodgson,venice, p. 299; Heyd., op. cit., vol. 1, p. 220.

بخطورة انحراف البنادقة الى الملك النورماني ، وقرّر فتح باب المفاوضات مع البندقية ، وتم نتيجة هذه المفاوضات توقيع معاهدة صلح بين البيزنطيين والبنادقة ، وأعطى مانويل البنادقة امتيازات تجارية جديدة . وكما يقول نيقتاس ان البنادقة قد أصرّوا على الحصول على تعويضات لما لحق بهم من أضرار وما فقدوه نتيجة أحداث عام ١١٧١م . ووافق الامبراطور أخيراً على دفع التعويضات ، وأعاد للبنادقة امتيازاتهم القديمة ، كما أطلق سراح المسجونين من البنادقة منذ عام ١١٧١ م وأخذ البنادقة في العودة الى القسطنطينية وبقية الاقاليم كما كان الحال قبل الاعتقالات(٥٦) .

ان المعاهدة السابقة بين بيزنطة والبندقية(٥٧) لم تعد علاقات المودة بينهما كما كانت عليه في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، واستمر العداء «الشعبي» يعتمر قلوب البيزنطيين حقداً ليس على البنادقة فحسب وإنما على كل الايطاليين المقيمين بين ظهرانيهم . وفي عام ١١٧٧م أُصيبت بيزنطة بطعنة نجلاء عندما تم توقيع الصلح بين المدن اللمباردية ـ التي بذلت بيزنطة الشيء الكثير لدعمها في نضالها ضد بربروسا(٥٨) ـ والامبراطور فردريك بربروسا . فلقد تمّ في هذا العام توقيّع صلح البندقية المشهور. هذا الصلح الذي سوّى كل القضايا المتنازع عليها بين المدن الايطالية وبربروسا ، وبذلك تحطمت «الاستراتيجية» البيزنطية في ايطاليا وأصيبت بضربة ماحقة(٥٩) .

لقد كان الامبراطور مانويل كومنين (١١٤٣ ـ ١١٨٠م) منجذباً نحو الغرب عموماً ومتعاطفاً مع اللاتين . وكانت القسطنطينية في عهده مركزاً للسياسات الاوربية . والباحث المتعمق في فترة حكمه يمكن أن يكتشف هذا الميل نحو اللاتين . فلقد اتخذ

---

(56) Nicetas, in C. S. H. B., pp. 225 — 226.

(٥٧) ان هذه المعاهدة التي يُفترض انها وقُعت عام ١١٧٥م أو عام ١١٧٦م هي موضع شك من قبل بعض المؤرخين المحدثين امثال هايد وشالندون وذلك لان نيقتاس هو المؤرخ الوحيد الذي ذكرها ، وأن المؤرخ داندولو قد قال بأن اطلاق سراح الاسرى البنادقة ودفع التعويضات لم يتم الا في عهد اندرنيق (١١٨٣ ـ ١١٨٥م) . انظر عن ذلك . Heyd, op. cit., vol. `, p. 220; chalandon, les commenes, vol. 11, p. 592

(٥٨) عن دعم مانويل للحلف اللمباردي ضد بربروسا انظر Finlay, hist. of creece, vol. 111, p. 172; ostrogorsky, hist. of the Byznatine, p. 346; Vasiliev, op. cit., vol. 11, p. 425.

(59) Vasiliev, op. cit., vol. 11. p. 430.

مانويل زوجة المانية وهي برتا عام ١١٤٦(٦٠) ، وعند وفاتها اتخذ زوجة لاتينية أخرى وهي ماريا الانطاكية عام ١١٦١م(٦١) . كما أن مانويل قد أُعجب بالنظم والتقاليد الغربية وأدخلها إلى بلاطه . كما استخدم الكثير من اللاتين في دوائره السياسية والعسكرية(٦٢) . وأوى العديد من اللاتين المنفيين ، وخاصة الثائرين النورمان ، وقدّم لهم العون والدعم . كما أن هؤلاء اللاتين قد محضوا بدورهم مانويل الولاء والاخلاص ، وقد أعرب المؤرخ اللاتيني وليام الصوري عن ذلك بصراحة وركّز في أكثر من موضع على تعاطف مانويل مع اللاتين والترحيب بهم(٦٣) .

ورغم أن الامبراطور مانويل قد اتخّذ عدة اجراءات ضد اللاتين ، بل بالاحرى ضد التجار الايطاليين المقيمين في الامبراطورية من اعتقالات ومصادرات كما حدث عام ١١٧٠ وعام ١١٧١م . إلا أن اجراءات مانويل هذه ، انما كانت نتيجة جشع هؤلاء التجار وعجرفتهم وتجاهلهم لأوامره من جهة ونتيجة الاستياء العام الذي اعتمر في قلوب رعاياه من جهة أخرى . بل ربما كانت هذه الاجراءات نتيجة ضغط الجماهير البيزنطية التي كانت تنظر إلى هؤلاء الايطاليين ـ تجاراً وسياسيين ـ على أنهم دخلاء عليهم وغرباء عنهم ، وأنهم قد بنوا ثراءهم على حساب قوتهم اليومي . فعند وفاة مانويل عام ١١٨٠م كان عدد الايطاليين الموجودين في القسطنطينية حوالي ستين ألفاً ، ويبدو أن عدد البنادقة كان يفوق عدد البيازنة والجنوية معاً(٦٤) .

وعند وفاة مانويل ازداد الموقف تعقيداً بالنسبة لعلاقات الايطاليين الموجودين في الامبراطورية بالشعب البيزنطي ، وذلك لان أرملة مانويل ، وهي ماريا الانطاكية اللاتينية تولّت الوصاية على ابنها الكسيوس الثاني . وكانت ماريا هذه أول لاتينية تحكم في القسطنطينية ، وقد أظهرت تعاطفاً وميلاً كبيراً تجاه أبناء جنسها المقيمين في الامبراطورية ، او الوافدين عليها . كما أن مساعدها ومستشارها الكسيوس البرتوسيباتوس قد أظهر بدوره ميلاً ملموساً تجاه اللاتين عامة ، وأخذت قلوب الشعب البيزنطي تجيش بالحقد على اللاتين المقيمين بين ظهرانيهم وعلى ماريا ومستشارها لأنهما

(60) Bailly, Byzance, p. 330; Ostrogorsky, op. cit., p. 338.
(61) William of Tyre, Hist. of deeds, vol. 11, pp. 287-92.
(62) Diehl, Byzantium, p. 220; Ostrogorsky, p. 346.
(63) William of Tyre, vol. 11, p. 461.
(64) Heyd, vol. 1, p. 221.

كانت تنطلق من القصر واتهموا ـ وربما كانوا على حق ـ الامبراطورة ماريا بالخيانة وبالليالي الحمراء مع «عشيقها» ومستشارها البرتوسيباتوس . وسرعان ما زادت عزلة السلطة عن الشعب ، وبحثت الامبراطورة ومستشارها عن مؤازرة الاجانب(٦٦) . فأخذ الشعب يتململ للاجهاز على السلطة والايطاليين اللاتين المقيمين في القسطنطينية . ودعمت الكنيسة الشعب ، وأخذت المؤامرات تطل بألف رأس ورأس للاطاحة بالقيادة الفاسدة . ولكن لم يكتب لهذ المحاولات النجاح لأنها كانت تفتقر الى القيادة الشجاعة(٦٧) . وفي تلك الظروف العصيبة دخلت شخصية أندرنيق كومنين(٦٨) مسرح الاحداث لتضع حداً للنفوذ الايطالي ـ اللاتيني ـ الغربي ولتدفع بالعلاقات البيزنطية ـ الايطالية الى حافة الهاوية .

في أغسطس من العام ١١٨٢م زحف اندرنيق نحو القسطنطينية على رأس حفنة من المحاربين القدماء . فضلاً عن بعض القوات الاسلامية على حد قول ابن جبير(٦٩) . وانتشرت الشائعات في القسطنطينية أن اندرنيق هو المنقذ الوحيد لهم مما هم فيه . وعندئذ بعثت الامبراطورة بقوات برية وبحرية لصد تقدم أندرنيق . وكانت أفضل عناصر هذه القوات من اللاتين الايطاليين الذين أغرتهم الرواتب المرتفعة . أو على الاقل صدّقوا الاشاعة التي انتشرت بين البيزنطيين آنذاك بأن المستشار البرتوسيباتوس قد وعد العناصر اللاتينية في الجيش بأنه سيسمح لهم بنهب العاصمة

(65) William of Tyre, Hist. of deeds, vol. 11, pp. 461-62.
(66) Ibid., p. 462.
(67) Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine state, pp. 350-51.

(٦٨) ان اندرنيق كومنين هو ابن عم الامبراطور مانويل كومنين ، وكان في عهد الاخير دوقاً على قيليقيه ، ولكنه تحوّل الى متهتك . وعاش حياة الفجور علناً وترك قيليقية يبحث عن ملذاته في الامارات الصليبية ، وعاش حياة غير شرعية مع ابنة عمه ثيودورا ـ أرملة ملك بيت المقدس بلدوين الثالث ـ وهرب بها الى المسلمين ، وأنجب منها أولاداً . ثم القى مانويل القبض على زوجته وأولاده ، واضطر اندرنيق لطلب العفو من الامبراطور ، فعفا الاخير عنه وأقطعه قلعة قرب البحر الأسود ليعيش فيها مع زوجته وأولاده ، ولكن اندرنيق كان يطمع في العرش ، ووجد فرصة في الأحداث التي كانت القسطنطينية مسرحاً لها بعد وفاة مانويل . عن حياة أندرنيق انظر : ابن جبير ؛ ص ٩٩ ـ ١٠٠ ؛
William of Tyre, 11, pp. 345-46, 463; Michel the Syrian, pp. 345-356, 361; Sempad, p. 619; Nicetas, pp. 416-22.

(٦٩) ابن جبير : ص٩٩ ـ ١٠٠ .

وتحويل البيزنطيين الى عبيد إذا نجحوا في صد تقدم أندرنيق نحو العاصمة(٧٠) .

على أن العناصر البيزنطية الوطنية انسحبت من القوات التي بعثتها الامبراطورة ، قبيل الاصطدام بقوات اندرنيق ، وانضمت الى الأخير الذي تمكن من تطويق بقية القوات ، التي كانت غالبيتها من اللاتين . وانهار هؤلاء تحت أقدام الكثرة التي تؤيد اندرنيق(٧١) .

وقبل أن يعبر أندرنيق بقواته البوسفور الى العاصمة ، انفجرت ثورة شعبية مسلحة في القسطنطينية ، وتفجّرت من خلالها كل الاحقاد والضغائن التي يكنّها الشعب البيزنطي ضد الايطاليين المقيمين في عاصمته ، تجاراً وسياسيين ، وزحفت الغوغاء الى احياء الايطاليين تدّمر وتقتل وتذبح . وتحولت الى حرب شعبية قومية باسم البيزنطيين والارثوذكسية ضد اللاتين والكاثوليكية . وحدثت مجزرة مرعبة قتل فيها معظم اللاتين المقيمين بالعاصمة(٧٢) . ولم ينج منها النساء والاطفال والمرضى الذين يعالجون في المشافي(٧٣) . وعومل الكهنة والقسس الكاثوليك معاملة عنيفة ، وبيع عدد كبير من هؤلاء اللاتين في سوق النخاسة كرقيق للتجار المسلمين(٧٤) . هذا الى أن مساكنهم قد تعرّضت للنهب ، وكنائسهم ، التي وجدَ فيها الكثيرون ملجأ لهم ، قد أُحرقت . واحياء بكاملها للايطاليين قد دُمّرت وحُوّلت الى رماد . كذلك هُوجمت الأديرة التي التجأ اليها اللاتين ، وقتلوا مندوباً بابوياً كان في مهمة كنسية في القسطنطينية . ولم تكن هذه المجازر ضد اللاتين تجري في العاصمة فحسب وانما انتشرت في كل انحاء

(70) Nicetas, p. 321.

(71) William of Tyre, 11, p. 463.

(٧٢) يقدر المؤرخ الأرمني فارتان عدد الذين قتلوا في العاصمة اثناء هذه المجزرة ب /٣٠/ ألفا ، بينا يقدّر الرحالة ابن جبير ـ الذي كان في جزيرة صقلية اثناء هذه الأحداث ـ عدد القتلى ب /٥٠/ألفا ، اما المؤرخ وليام الصوري فانه لا يعطي رقماً لضحايا هذه المجزرة أنظر : ابن جبير المصدر السابق ، ص٩٩ :

Vertan le Grand, in r.H.C. Arm. vol. 1, p. 437;

(٧٣) بيّن المؤرخ وليام الصوري ان هذه المجازر تعود بشكل رئيسي الى خلافات دينية وربطها بالخلاف القائم بين الكنيستين الكاثوليكية والبيزنطية الارثوذكسية حول موضوع العقيدة وطقوس العبادة . أنظر :

William of Tyre, Hist. of deeds, vol. 11, p. 462.

(٧٤) قال وليام الصوري أن البيزنطيين قد باعوا حوالي أربعة آلاف لاتيني للاتراك بالأموال كرقيق . أنظر : William of Tyre, vol. 11, p. 465.

الامبراطورية(٧٥) . ولم تتوقف هذه المجازر الا عندما عبر أندرنيق البوسفور «ببطء شديد» ـ وربما ليعطي البيزنطيين فرصة الانتقام من اللاتين ـ ودخل العاصمة وأعاد اليها النظام .

وهنا يجب أن نتوقف قليلاً لنوضّح أن الرواية السابقة هي للمؤرخ اللاتيني وليام الصوري ، بوصفه المصدر الوحيد الذي قدّم تفصيلات وافية عن هذه المذابح . وقد كتب وليام هذه الاحداث وهو بعيد عن مكان وقوعها مسافة كبيرة ، واذا كانت قصة المجازر لم تفقد شيئاً أثناء رحلتها من القسطنطينية الى فلسطين ـ حيث يعيش وليام الصوري ـ إلا أنه من المؤكد ان المؤرخ بالغ قليلاً في وصفه المثير لتلك الأحداث وبالغ كثيراً في تعليل أسبابها . أما المصادر الأغريقية والجنوية والبيزاوية فقد ذكرت هذه المجازر باختصار شديد ورأت فيها نذير سوء . والغرابة ان المصادر البندقية لم تأت على ذكر هذا الحادث على الاطلاق . كما أن هناك مرسوم بابوي واحد يشير الى اضطهاد اللاتين بشكل عرضي . ولذلك فإنه من الخطأ أن نقبل كل كلمة وردت في رواية وليام الصوري ، التي صورّت لنا الغوغاء وقد ازهقت الأرواح دون تمييز. ومهما يكن من أمر فإن هذه المجزرة لم تكن ـ بشكل عام ـ أكثر وحشية مما فعله الصليبيون بالعرب المسلمين عندما احتلوا بيت المقدس ، ولم تكن بالبربرية التي عامل بها أرناط المسيحيين الارثوذكس اثناء غارته العنيفة ضد جزيرة قبرص المسيحية(٧٦) .

والواقع أن وليام الصوري كان موضوعياً في رواية هذه الاحداث دون أن يشعر ، وذلك عندما يتحدث عن ردود فعل الايطاليين واللاتين تجاه هذه المجازر ، بشكل لا يقل إثارة او حتى مبالغة عن الصورة التي قدمها عن أعمال البيزنطيين . ولنسمع ما يقوله وليام الصوري : «لقد كانت معظم ضحايا هذه المذابح من اللاتين الذين لم يرغبوا في الفرار أو من الذين لم يتمكنوا من الفرار. بينما استطاع الكثيرون من اللاتين أن يهربوا وينجوا بأنفسهم من المذبحة ، وذلك لأن أربعا وأربعين سفينة كانت موجودة في

(٧٥) انظر التفاصيل الكاملة عن هذه الرواية عند :

William of Tyre, vol. 11, pp. 461-67.

(76) Runciman, The Eastern schism, p. 132.

ميناء القسطنطينية آنذاك ، وقد امتلأت باللاتين الهاربين أو الذين نجوا من المجزرة . كما استطاعت بعض السفن الأخرى أن تهرب واحدة في إثر اخرى ، حتى تمكنت من اللحاق بالأربع والأربعين سفينة السابقة . ويتابع وليام الصوري روايته قائلاً : «ان أعداد هؤلاء الهاربين كانت كبيرة وكان لديهم القوة والوقت الكافيين للانتقام من البيزنطيين بطريقة رائعة . حيث قام هؤلاء بمهاجمة السواحل البيزنطية الممتدة من مدخل البحر الاسود الى مدخل البحر المتوسط ، وأعملوا سيوفهم بكل السكان البيزنطيين المقيمين على تلك الشواطىء» . ويتابع الصوري روايته : واقتحموا البيوتات كما شقوا طريقهم الى الأديرة وذبحوا الرهبان والقساوسة البيزنطيين وأحرقوا الأديرة مع الأهالي الذين التجأوا اليها ، ونهبوا الأديرة والبيوتات بكل ما تحويه من الذهب والفضة والجواهر . ثم اتجهوا الى شواطىء تسالونيكا حيث قاموا هناك بنهب وسلب وحرق كل ما صادفهم وذبحوا اعداداً لا تحصى من السكان البيزنطيين(٧٧) .

هذه هي رواية وليام الصوري عن المذابح ، ولكننا لا نوافقه على قوله بأن هذه الاعمال التي قام بها الشعب في القسطنطينية هي ضد اللاتين بشكل مطلق وانما كانت ضد الايطاليين بالذات ، الذين شكلوا الغالبية العظمى من اللاتين المقيمين في القسطنطينية ما بين تجار وسياسيين متنفذين . يضاف الى ذلك ان وليام الصوري ركّز على الخلاف الديني واعتبره الدافع الرئيسي لثورة البيزنطيين ولم يعر اهتماماً للعوامل السياسية والاقتصادية التي كانت وراء هذه الاحداث . ويبدو ان ما حدث ـ كان ببساطة ـ حركة عفوية وشعبية انطلقت في عاصمة العالم المسيحي الشرقي ضد جاليات تجارية أجنبية استقرت في المدينة ، منذ قرن من الزمن وأثرت وبنت مجدها المادي على حساب قوت الشعب البيزنطي .

واذا اتصفت هذه الحركة الشعبية بالوحشية ـ كما يقول المؤرخ الصوري ـ فان ما رواه لنا عن ردود فعل اللاتين الذين هربوا ونجوا من المجزرة ، لا يقل وحشية على الاطلاق عما جرى في العاصمة ، كما يبدو للباحث الموضوعي .

حقيقة إن مذابح الايطاليين في بيزنطة هي محصلة لتراثٍ من العداء ، ولا نستطيع

---

(77) William of Tyre, Hist. of deeds, vol. 11, pp. 466-67.

أن نفصل مذابح عام ١١٨٢ م عن موجة الاعتقالات التي حدثت قبل عقدٍ تقريباً من الزمن (١١٧١ م) . وكلا الحدثين هما مقدمة طبيعية للحملة الصليبية الرابعة .

رغم أن اندرنيق كومنين (١١٨٣ ـ ١١٨٥ م) أفرج عن المعتقلين البنادقة ودفع تعويضاتٍ للايطاليين عن خسائرهم،ورغم توسيع اسحق انجيلوس (١١٨٥ ـ ١١٩٥ م) لامتيازات التجار الايطاليين ، ورغم محاولات الترضية التي قدّمها الكسيوس الثالث انجيليوس (١١٩٥ ـ ١٢٠٣ م) ، ورغم كل ذلك فان الجمهوريات الايطالية والدوائر السياسية الدينية في ايطاليا والغرب الاوروبي عامة ، اعتقدت أن حلّ المسألة البيزنطية أصبح ضرورة ملحة تقتضيها المصالح الاقتصادية والسياسية والدينية للقوى الايطالية بخاصة والغرب اللاتيني بعامة . فألسنة اللهب التي تصاعدت من الأديرة ـ التي احرقها اللاتين الذين هربوا من مجزرة عام ١١٨٢ م ـ ظلت مشتعلة لتضيء الطريق أمام الصليبية الرابعة ، وتذكّر قادتها أنه من هنا الطريق الى القسطنطينية ، كما أن الدخان الذي تصاعد من الأحياء والمستودعات الايطالية التي أحرقها البيزنطيون في القسطنطينية ظلت متصاعدة تذكّر البيزنطيين وسادتهم أن الانتقام لن يتأخر كثيراً .

الفصل الثاني

حملة الملك النورماني وليام الثاني ضد بيزنطه عام ١١٨٥ م ونهاية الصراع النورماني ـ البيزنطي

لم تؤدِ معاهدة سنة ١١٥٨ م ، بين بيزنطة والمملكة النورمانية ، إلى خلق الاستقرار في العلاقات بينهما ، إذ كان الملك النورماني وليام الأول (١١٥٤ ـ ١١٦٦ م) عديم الثقة بالمشاريع السياسية لمانويل كومنين (١١٤٣ ـ ١١٨٠ م) في شبه الجزيرة الايطالية . واستمر الملك النورماني يوجه اللوم للعاهل البيزنطي بسبب استقبال الأخير اللاجئين السياسيين النورمان الذين طردهم وليام إثر ثوراتهم ضده . وكان ان استمرت العلاقات متوترة بين وليام الأول ومانويل كومنين حتى وفاة الأول عام ١١٦٦ م . وهناك رواية تشير إلى أن الحزب المؤيد لبيزنطة ، في المملكة النورمانية ، طلب من العاهل البيزنطي التدخّل في صقليه واقامة شقيق الملك المتوفي ملكاً عليها . ولكن مانويل رفض هذا العرض ، بل تفاوض مع الملكة مرغريت ـ أرملة وليام الأول والوصية على عرش المملكة ـ بشأن زواج الملك الصغير وليام الثاني من ابنته ووريثة عرش الامبراطورية البيزنطية ماريا ، إلا أن مشروع الزواج هذا لم يتحقق[1] . وفي العام ١١٧١ م قرر مانويل التقرب من الملك النورماني وليام الثاني ، وذلك لأن مانويل كان على علاقة سيئة جداً مع البندقية نتيجة الاعتقالات والمصادرات (١١٧١م) . وعرض الامبراطور البيزنطي على الملك النورماني الزواج من ابنته للمرة الثانية ، وعلى الرغم من أن ماريا لم تعد الآن الوريثة للعرش البيزنطي ، لأن زوجته ماريا الانطاكية قد انجبت له ولداً وهو الكسيوس الثاني ١١٦٩م ، فقد قبل الملك النورماني العرض البيزنطي . وتقرر الزواج بين ماريا ابنة مانويل وبين وليام الثاني . وأُتفق ان تسافر الاميرة البيزنطية الى تارنت في ربيع عام ١١٧٢م . وتوجه الملك

(1) Chalandon, Hist. de la domination, vol. 11, pp. 303, 307, and note 1; Cam. Med. Hist. vol. iv, pp. 230-31

النورماني بنفسه الى تارنت انتظاراً لوصول ابنة مانويل وعروسه ولكنها لم تصل على الاطلاق(٢) . ويُفترض ان عدم وصول ماريا هو أن والدها كان يحلم بزواج رفيع لابنته من وريث بربروسا على العرش الألماني(٣) .

والواقع ان تصرف مانويل كومنين قد جرح شعور الملك النورمانـي ، وجـاءت احداث بيزنطة ، بعد وفاة مانويل لتساعد وليام الثاني على الانتقام ليس لكرامته الشخصية فحسب ، وإنما للمحاولات النورمانية التي ابتدأ بها جويسكارد قبل قرن من الزمن ، للسيطرة على بيزنطة ، والتي احبطها البيزنطيون . ولكنه لم يتمكن في النهاية من الانتقام لسقوط العسكرية النورمانية العريقة امام تسالونيكا ، لأن وليام الثاني ظهر على مسرح العلاقات البيزنطية ـ النورمانية في أدوارها النهائية .

ان مذابح اللاتين (عام ١١٨٢م) في القسطنطينية خلقت المناخ الملائـم لحملـة نورمانية جديدة ، وكانت ورقة رابحة بيد القوى الايطالية . فالايطاليون الذين نجوا من المجزرة التي حلّت بهم في العاصمة البيزنطية والاقاليم الامبراطورية عادوا إلى اوطانهم يقصّون الأهوال المرعبة التي حلّت بهم ، وأخذوا يحرّضون الغرب الاوروبي عامة لأخذ الثأر من بيزنطة .

وكان أن قفز اندرنيق كومنين الى العرش البيزنطي من خلال مذابح الايطاليين عام ١١٨٢م ، وافتتح عهده بالتخلص من المستشار البرتوسيباتوس والامبراطورة ماريا ، بشكل أو بآخر(٤) . وفي العام التالي (سبتمبر ١١٨٣ م) تُوج انـدرنيق أمبراطـوراً مساعدا لألكسيوس الثاني ابن مانويل كومنين ، والبالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً . ولكن بعد فترة قصيرة لقي الامبراطور الصغير حتفه على يد اندرنيق وجماعته(٥) ،

2) chalandon, les comnenes, vol 11, pp. 371-72; Setton, Hist. of the Crusades, pp. 137-38; Cam. med. Hist. vol. 4, p. 231.

(3) Setton, Hist. of the Crusades, vol. 11, p. 138.

(٤) انظر ذلك عند : ابن جبير : رحلته ، ص ٩٨ : أيضاً أنظر :

William of Tyre, Hist. of deeds, vol. 11, p. 467.

(٥) كان الامبراطور الكسيوس الثاني قد خطب الابنة الثانية للملك الفرنسي لويس السابع (وشقيقة فيليب اغسطس) واسمها اجيني . وقدمت الخطيبة الى القسطنطينية واتخذت اسما بيزنطياً وهو «آنا» . ولم يتم الزواج وقتئذ لصغر سنها . حيث كان الكسيوس في الحادية عشر من عمره وكانت خطيبته في العاشرة من عمرها . وعندما غدر اندرنيق بالكسيوس الثاني ، تزوج من خطيبته اجيني علماً أن عمرها كان ثلاثة عشر عاماً في حين كان اندرنيق في الثالثة والستين من عمره . =

وبذلك أصبح اندرنيق امبراطوراً دون منافس (١١٨٣ ـ ١١٨٥م) . ولكنه لم يلبث أن شن حملة دموية ضد كبار رجالات بيزنطة ، وضد كل من يشتبه به بأنه يطمع في السلطة ، وتحوّلت العاصمة الى بركة من الدماء لم يفرق فيها بين الاخيار والأشرار(٦) . وانتشر السخط على اندرنيق ، وأخذت المؤمرات تُدّبر ضده ، بعد أن أدرك البيزنطييون أن طغيان اندرنيق لا يقل عن طغيان اللاتين والحكومة اللاتينية السابقة . وفرّ الكثير من البيزنطيين ـ خوفاً على أرواحهم ـ إلى الغرب الأوروبي ، الذي رحبّ بهم . وكان هؤلاء اللاجئون البيزنطيون يلقون الترحيب بشكل خاص في بلاط الملك النورماني وليام الثاني في باليرمو(٧) .

في الوقت الذي كانت فيه بيزنطة تعيش هذه الاحداث ـ في ظل اندرنيق ـ كان الملك النورماني وليام الثاني يتأهب لغزوها ، ولكن لماذا ؟

لقد اعتقد المؤرخ البيزنطي المعاصر نيقتاس قونياتس ان السبب في هذا الغزو النورماني هو أن قريباً للامبراطور مانويل كومنين ، واسمه الكسيوس كومنين ، كان قد فر من بطش اندرنيق الى باليرمو ، وطلب مساعدة وليام الثاني للوصول الى العرش البيزنطي ، وأن الأخير قد محّضه الدعم والتأييد وأخذ يعد حملته لمساعدته(٨) .

ولكن الرحالة ابن جبير ـ الذي كان ماراً بصقلية في ذلك الوقت ـ يخبرنا بأنه سمع اشاعة مفادها أن الذي التجأ الى الملك النورماني وحرضه على استعادة عرشه المغتصب هو الكسيوس الثاني نفسه ، ابن مانويل كومنين ، الذي قدم الى صقلية

= انظر :

William of Tyre, op. cit., vol. 11, pp. 449-50, 467;

روبرت كلاري : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ص ٥٤ وما بعدها ؛

Finlay, Hist. of Creece, vol. 111, p. 212. Norwich, The Kingdom, p. 330.

(٦) رغم ما اتصفت شخصية اندرنيق من التقلب والفجور وحب الدماء ، إلا أن المؤرخين المعاصرين مدحوه لأنه عالج مساويء الادارة الحكومية في بيزنطة وخلّصها من الفساد وقلّم اظافر الارستقراطية . والمؤرخ نيقتاس مدحه بشكل خاص ، لأن اندرنيق كان عادلاً في موضوع الضرائب حتى أن جُباة الضرائب كانوا يخافونه كثيراً لأنهم لم يكن بامكانهم زيادة هذه الضرائب وارهاق الشعب . انظر تفاصيل ذلك :

Nicetas, in C. S. H. B., pp. 422-23.

(7) Nicetas, p. 342.

(8) Ibid., pp. 384-85.

بحجة خادم لأحد الرهبان ، وأن عدداً من الجنوية الذين كانوا يسافرون ـ عادة ـ الى القسطنطينية ويعرفون شخصية الكسيوس الثاني هذا ، قد أثبتوا شخصيته وأعلنوا صدق هويته ، ولذا استقبله وليام الثاني بحفاوة بالغة وعقد العزم على مناصرة قضيته ، بل انه أخذ يعدّ حملة لمساعدته(٩) .

إلا أن مطران تسالونيكا ـ يوستاثيوس ـ الذي كان معاصراً لهذه الأحداث ينفي رواية ابن جبير ويقول أن شخصية الكسيوس الثاني هي شخصية مزيفة ، وهو في حقيقته ابن فلاح من اليريا(١٠) .

في الواقع لا يمكننا الاقتناع بسهولة بأقوال هؤلاء المؤرخين ، والنظر اليها ـ حتى ولو كانت صادقة ـ على أنها الاسباب الحقيقية الكامنة وراء الحملة النورمانية التي يستعد لها الملك النورماني وليام الثاني . فالعلاقات البيزنطية ـ النورمانية التي رسمنا خطوطها الرئيسية في بحثنا هذا ـ منذ أيام جويسكارد (ت ١٠٨٥م) وحتى هذه الفترة التي نحن بصددها (١١٨٤ ـ ١١٨٥م) لا تسمح لنا بقبول مثل هذه التفسيرات الساذجة . قد لا يخلو ما رواه نيقتاس وابن جبير من الصدق ، فالانقلاب الذي قام به اندرنيق في بيزنطة من الطبيعي ان ينشأ عنه مطالب أو مطالبون بالعرش ، ولكن هل نسينا أن هذه اللعبة النورمانية اصبحت مكشوفة بالنسبة للبيزنطيين ، وبالنسبة للقوى الايطالية ، بل وبالنسبة للنورمان ايضا ؟ ألم يخترع جويسكارد قبل قرن من الزمن تماما مدّعياً ، وهو راهب أيضا ، بالعرش البيزنطي باسم ميخائيل السابع ليبرر غزوه ـ امام البيزنطيين والنورمان والبابوية ايضاً ـ للامبراطورية (١٠٨١ ـ ١٠٨٥م) ؟ ألم يخترع بوهيموند بن جويسكارد مدعيا بالعرش البيزنطي باسم احد اولاد الامبراطور «رومانوس الرابع ديوجينيوس ليبرر غزوه لبيزنطة عام ١١٠٧ ـ ١١٠٨م ؟

وقد أشار بعض المؤرخين المحدثين أمثال : شارل ديل وفازيلييف وفرينوس ، أن الحملة النورمانية هذه يمكن ان تعتبر الى حد بعيد رداً على المذابح التي حلّت باللاتين

---

(٩) ابن جبير : رحلته (طبعة دار التراث ـ بيروت) ، ص٢٧٧ .

(10) Norwich, The Kingdom., p. 332; Brand, p. 161.

في القسطنطينية قبل ثلاث سنوات (١١٨٢م)(١١) . ولكن يبدو أن هذا التفسير ضعيف والدليل على ذلك أن الجمهوريات الايطالية ـ بيزا وجنوه والبندقية ـ لم تشترك اطلاقاً بهذه الحملة النورمانية رغم ما قامت به هذه الجمهوريات لاثارة القوى الايطالية للثأر من المذابح . يضاف الى ذلك أن المملكة النورمانية لم تتأثر بمجازر القسطنطينية ، لأنه لم يكن في الامبراطورية البيزنطية جاليات نورمانية تجارية ، كما هو الحال بالنسبة للبندقية وجنوه وبيزا . وذلك لأن الصراع بين النورمان في جنوب ايطالية وصقلية من جهة وبيزنطة من جهة أخرى لم يسمح لمثل هذه الجاليات بالقيام في الأراضي الامبراطورية وفضلاً عن هذا كله فان الرحّالة بنيامين التطيلي ، الذي زار المدن الرئيسية في الامبراطورية البيزنطية قبيل هذه الاحداث ، لم يشر الى وجود جاليات تجارية نورمانية ، علماً أن هذا الرحالة كان يعير اهتماماً ملحوظاً للشؤون التجارية والصناعية باعتبار أن للجاليات اليهودية مكانة خاصة في حقل التجارة في الأمبراطورية البيزنطية آنذاك .

لقد أعد وليام الثاني حملته ، خلال شتاء عام ١١٨٤ ـ ١١٨٥م ، ضمن اجراءات أمن مشدّدة . ويطالعنا ابن جبير بتفاصيل مثيرة حول السرّية التي اتبعت في اعداد هذه الحملة . ويقول أن أمراً قد صدر من الملك وليام الثاني باقفال جميع موانىء صقلية وعدم السماح لأية سفينة بمغادرتها ، وذلك تحاشياً لوصول أنباء هذه الاستعدادات الى القسطنطينية . وقدّر ابن جبير الاسطول الذي أُعد للحملة ب /٣٠٠/ سفينة مقاتلة و /١٠٠/ سفينة لنقل الجند والطعام والذخيرة(١٢) . أما المؤرخ نيقتاس فيقول أن عدد قطع الاسطول النورماني الذي وصل الى مياه القسطنطينية بعد ذلك حوالي /٢٠٠/ سفينة(١٣) . اما القوات البرية فقد قدّرها مطران تسالونيكا بحوالي /٨٠/ ألفاً من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان(١٤) .

---

(11) Diehl, Hist. of the Byz. Empire, p. 134; Vesiliev op. cit., vol. 11, pp. 437-38; Vryonis, Byzantium and Europe, p. 145.

(١٢) ابن جبير : رحلته المكتبة الصقلية ، ج ٢ ، ص٩٧.

(13) Nicetas, p. 474.

(14) Chalandon, Hist. de la domination, vol. 11, p. 404.

وقد عهد وليام الثاني بقيادة الأسطول في هذه الحملة ، الى ابن عمه تانكريد ليسي(١٥) ، كما عهد بقيادة الجيش البري الى الكونت بلدوين ويساعده في القيادة الكونت ريتشارد . وامتدح المؤرخ نيقتاس شجاعة ومهارة بلدوين هذا ، وقال أنه كان يشبّه نفسه بالاسكندر الكبير المقدوني(١٦) . وتجدر الاشارة الى أن الجيش الذي حشده الملك وليام الثاني تألف من عناصر قومية متعددة من صقلية وأبوليا وكلابريا ، فضلاً عن عناصر بيزنطية ايضاً وكان قسم من هؤلاء قد تطوعوا مجاناً مكتفين بما قد يحصلوا عليه من الغنائم(١٧) .

ومهما يكن من أمر فإن القوات النورمانية أبحرت من ميناء مسينا ـ في جزيرة صقلية ـ بتاريخ ١٣ يونيو من العام ١١٨٥م ، واجتازت الادرياتي ، وافتتحت اعمالها الحربية ، كالمعتاد ، بمدينة دورازو التي وصلتها في ٢٤ يونيو من نفس العام (١١٨٥م)(١٨) .

وتشير المصادر إلى أن وصول الحملة النورمانية الى دورازو كان مفاجأة قاسية على اندرنيق كومنين . ولكن ألم يعلم هذا الامبراطور باستعدادات الحملة واهدافها قبل اقلاعها من صقلية ؟ حقيقة ان الملك وليام الثاني لجأ الى السرية الكاملة في إعداد الحملة ، حتى لا تعلم بيزنطة ، وكما أشار الى ذلك ابن جبير ، ولكن ألم يذكر هذا الرحالة ـ اثناء حديثه عن استعدادات وليام الثاني واجراءات الأمن المشددة التي اتخذها ـ بأن السفينة الجنوية ، التي كان يقلّها اثناء رحلته ، تمكنت من مغادرة ميناء تراباني اثناء فترة اقفال الموانىء الصقلية وذلك بعد أن قام ربان هذه السفينة برشوة المسؤولين عن حراسة الميناء(١٩) ، ألا تسمح لنا هذه الاشارة ، من ابن جبير ، بالقول

---

(١٥) ان تانكريد ليسي Tancred of Leecce هو ابن غير شرعي لابن الملك روجر الثاني البكر ، وابن روجر الثاني هذا مات عزباً في حياة والده ولكنه رزق طفلاً سفاحاً وهو تانكريد ليسي ، وسوف يتسلم العرش بعد وفاة الملك النورماني وليام الثاني عام ١١٨٩م . انظر :

Runciman, The sicilian vespers, p. 25; Tout, op. cit., vol. 11, p. 301.

(16) Nicetas, pp. 470-71.

(17) Ibid., p. 358; also Cf. chalandon, Hist. de la domination, vol. 11, pp. 404-405.

(18) Nicetas, p. 411; Vasiliev, vol. 11, p. 437.

(١٩) ابن جبير : رحلته ، ص ٩٦ ـ ٩٨ .

الى احتمال تسرّب أنباء هذه الحملة ـ بطريقة أو بأخرى ـ الى بيزنطة وأن السلطات البيزنطية لم تجر الاستعدادات اللازمة ، خاصة وان اندرنيق كان غارقاً عندئذٍ بين النساء والدماء ؟.

وعلى أية حال فقد علم اندرنيق بأمر الحملة النورمانية ، وهي تعبر الادرياتي ، ولذا بعث حاكماً عسكرياً الى مدينة دورازو وهو يوحنا براناس ، لمعالجة الموقف . ولكن الأخير وصل الى تلك المدينة قبل يوم أو يومين من وصول الحملة النورمانية اليها ، ولهذا كان يعوزه الوقت لتحصين المدينة ودفاعاتها ، وهذا بدوره يفسر لنا سرعة سقوط دورازو بيد النورمان الذين انقضّوا عليها «كالصقور الجارحة» ـ كما يقول نيقتاس ـ واستسلم حاكمها يوحنا براناس في ٢٤ يونيو (١١٨٥م)(٢٠) .

بعد أن ترك القادة النورمان حامية عسكرية في دورازو ، أخذت قواتهم تشق طريقها دون مقاومة الى مدينة تسالونيكا(٢١) . وفي نفس الوقت أخذ الاسطول النورماني بقيادة تانكريد يدور حول البيليوبونيز متجهاً الى تسالونيكا ، لفرض الحصار البحري عليها ، وبالفعل وصل الجيش البري ـ بقيادة بلدوين وريتشارد ـ الى أسوار مدينة تسالونيكا في ٦ أغسطس ، في حين وصل الأسطول في ١٥ أغسطس ـ بعد أن احتل في طريقه جزائر كورفو وسيفالونيا وزانت ـ وبدأت القوات النورمانية بمحاصرة المدينة براً وبحراً(٢٢) .

وكان حاكم هذه المدينة هو داود كومنين ، الذي يوجه اليه المؤرخ نيقتاس أقذع الشتائم ويتهمه بالتخنث والتخاذل وأنه «أضعف من امرأة وأجبن من غزال» ، فعلى الرغم انه أُعطي الأوامر لمنازلة العدو النورماني في كل فرصة ، وعلى الرغم من أنه كان يمتلك الوقت الكافي لتحصين المدينة وتقوية دفاعاتها ، إلا أنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل ، حتى أن السهام نفذت من الرماة اثناء الحصار وأظهر داود ارتباكاً واضحاً في حين قاتلت الحامية والشعب ببسالة وبذلت اقصى ما سمحت لها به وسائلها . ويتابع

(20) Nicetas, in C.S.H.B., pp. 411 ff'

(٢١) قال بنيامين التطيلي : وهي بلده. واسعه بناها سلوقس أحد الأمراء الأربعه الذين قاموا بعد الاسكندر ... ويعاني يهود هذه المدينة اضطهاداً سديداً ، ويحترف اغلبهم الصناعات اليدويه» . بنيامين التطيلي : رحلته ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

(22) Nicetas, in C.S.H.B. pp. 385-86'

نيقتاس روايته قائلاً : «إن داود كان يخاف من أندرنيق أكثر مما يخاف من النورمان ، ولذا فضّل ان يقع بأيديهم أسيراً على ألا يعود الى ذلك الطاغية»(٢٣) .

وفي ٢٤ أغسطس استسلم الحاكم البيزنطي ـ داود كومنين ـ وسقطت تسالونيكا بيد النورمان وهي المرة الأولى التي تسقط فيها هذه المدينة ، خلال قرن من الصراع النورماني ـ البيزنطي. ولا نستطيع ان نحمل المسؤولية الكاملة الى ذلك الحاكم البيزنطي ، ونتهمه بالخيانة العظمى ـ مثلما فعل نيقتاس ـ فلقد برهنت بعض الدراسات الحديثة على أن المدينة كانت ستسقط حتى ولو لم يستسلم حاكمها . فدفاعات المدينة ضعيفة ، ولا يمكن أن تصد مثل هذا الجيش الهائل . فضلاً عن أن الفرقة الالمانية المرتزقة ـ التي كانت تعمل مع الحامية البيزنطية في الدفاع عن تسالونيكا ـ قد تسلّمت رشوة من النورمان وخانت المدينة . كما أن الفلاحين الأرمن الذين يعيشون في ضواحي تسالونيكا قدموا خدمات كبرى للجيش النورماني ، اثناء حصار المدينة(٢٤) .

ويطالعنا المؤرخ البيزنطي نيقتاس برواية تقشعرّ لها الأبدان عما فعله النورمان في تسالونيكا بعد أن دخلوها ، وهي تشبه الى حد بعيد ما رواه المؤرخ اللاتيني وليام الصوري عن مذابح اللاتين في القسطنطينية . ورغم أن نيقتاس لم يكن موجوداً في تسالونيكا اثناء تلك الأحداث ، إلا أنه يرويها ـ! كما يقول ـ نقلاً عن مطران تسالونيكا ـ يوستاثيوس ـ الذي كان داخل المدينة وعاش تلك الأحداث بنفسه . ومما قاله نيقتاس أن القوات النورمانية اكتسحت المدينة في ساعات قليلة ، وأعملت القتل بالرجال والنساء والاطفال والشيوخ ورجال الدين ، واغتصبت النساء والفتيات والراهبات ، ونهبت بيوت الأهلين ودمّرت واحرقت ، وانتهكت حرمة الكنائس ، وألقت بالايقونات الى النار ، وأخذت ترقص على المذابح «التي ترتعد أمامها الملائكة نفسها وتغني أغانٍ بذيئة»(٢٥) ...

---

(23) Ibid., pp. 286- 87.

(24) Chalandon, Hist. de la domination, vol. 11, pp. 408-409; Norwich, The Kingdom, pp. 335-36; Brand, Byzantium Confronts The west p. 164.

(25) Nicetas, C.S.H.B., pp. 392-94.

ويميل عدد من المؤرخين المحدثين امثال : اوستروغروسيكي وفازيلييف وفرينوس الى الاعتقاد بأن ما فعله النورمان في تسالـونيكا انمـا هو ثأر لما حل باللاتـين في القسطنطينية عام ١١٨٢م(٢٦)، اضافة إلى أنه دلالة خطيرة لما سيحدث للبيزنطيين عام ١٢٠٤م .

ومهما يكن من أمر فقد تمكن القائد النورماني بلدوين ، بعد عدة أيام ، أن يعيد شيئاً من النظام لهذه المدينة ، إلا أنه سرعان ما التهم الثمانون الفا من النورمان طعام المدينة وأقوات السكان ، واكتسحت المجاعة تلك الحشود وهلك قسم منهم وتكدست أزقة المدينة بجثث القتلى من السكان ، والتي بلغت حوالي سبعة آلاف، والتي لم تجد من يدفنها ؛ ومع حرارة اغسطس اللافحة ، فقد انتشرت الأوبئة في المدينة ، وأكثر النورمان من شرب الخمور كتعويض لنقص الطعام الذي ألم بالمدينة من جهة ولأن اليهود والأرمن الموجودين في الضواحي كانوا يبيعون الطعام للقوات النورمانية بأسعار مرتفعة جداً، مما أدى الى هلاك ثلاثة آلاف فرد من القوات النورمانية بسبب الجوع(٢٧) .

وفي الوقت الذي كانت فيه القوات النورمانية تعبث بمدينة تسالونيكا وضواحيها شعر اندرنيق بخطورة الموقف ، وأدرك أن المدينة التالية ، في برنامج الغزو النورماني ، إنما هي القسطنطينية نفسها ، ولذا اتخذ اندرنيق عدة اجراءات سياسية وعسكرية لمواجهة الموقف . فعلى الصعيد السياسي أخذ يتقرّب من صلاح الدين الأيوبي ، طالباً منه العون والنصيحة لمواجهة النورمان . كما تقرّب اندرنيق من البندقية ودفع لها القسط الأول ـ فوراً ـ من التعويضات التي كانت تطالب بها . كذلك فتح اندرنيق باب المفاوضات مع البابوية من أجل الحصول على دعمها لكبح جماح النورمان(٢٨) . الا أن جميع هذه الاتصالات لم تؤدِ الى ما توخاه انـدرنيق . امـا على الصـعيد العسكري فقد بعث الامبراطور اندرنيق بخمسة جيوش لمواجهة الموقف وصدّ التقدم النورماني . وكان على رأس كل جيش قائد مستقل . وكان ابنه يوحنا قائد أحد هذه

(26) Ostrogorsky, op. cit., p. 355; Vasiliev, op. cit., vol. 11, pp. 437-38; Vryonis, op. cit., p. 145.

(27) Norwich, The Kingdom., p. 337; Chalandon, Hist. de la domination, vol. 11, pp. 409-411; Brand, op. cit., pp. 167-69.

(28) Ostrogorsky, op. cit., p. 355; Vasiliev, op. cit., vol. 11, pp. 436-37; Cam. Med. IV, p. 245.

الجيوش . ولكن الأخير ذهب بجيشه الى مدينة فيلوبوليس وأضاع وقته في أعمال القنص ، بينما رابطت بقية الجيوش على التلال القريبة من تسالونيكا دون أن تتجرأ على مهاجمة القوات النورمانية(٢٩) .

وفي أوائل سبتمبر (١١٨٥م) بدأت القوات النورمانية بمغادرة تسالونيكا ، متجهة الى القسطنطينية ، ووصلت طليعة هذا الجيش تحت قيادة بلدوين الى مدينة موسينوبوليس Mosynopolis ، الواقعة في منتصف الطريق بين تسالونيكا والقسطنطينية ، في حين توجّه قسم من الجيش النورماني الى مدينة سيرس Serres ، الواقعة على نهر ستريمون Strymon(٣٠) .

وعندما وصلت أخبار اعمال النورمان في تسالونيكا ، وزحف القوات النورمانية الى العاصمة ثار سكان القسطنطينية . وبسرعة غير متوقعة أعلن اسحق انجيلوس (١١٨٥ ـ ١١٩٥م) امبراطوراً ، وذلك في ١٢ سبتمبر (١١٨٥م) ، ولقي اندرنيق مصيراً شنيعاً ، وهذه الثورة في العاصمة غيّرت مسار الأحداث(٣١) .

اتخذ اسحق انجيلوس اجراءات سريعة لمعالجة الموقف . فقد عرض الصلح على القائد النورماني بلدوين ، الا أن الأخير رفض ذلك(٣٢) . وعندئذ عيّن الامبراطور قائداً عاماً للجيوش الخمسة ـ التي سبق أن بعثها اندرنيق ـ وهو القائد الكسيوس براناس ، وبذلك اصبحت هذه الجيوش جيشاً واحداً وتحت قيادة رجل قدير . كما عزّز الامبراطور اسحق هذا الجيش بكل ما تملكه الامبراطورية من قوات ومواد . وتقدمت القوات البيزنطية تحت قيادة الكسيوس براناس لمواجهة الغزو النورماني الذي أصبحت طلائعه تتقدم في تراقيا نحو العاصمة(٣٣) .

وكانت نقطة الضعف في الجيش النورماني ـ بعد مغادرة تسالونيكا ـ هي انقسامه الى فرق ، وانشغال رجاله بأعمال السلب والنهب وهم في طريقهم الى القسطنطينية ، بدلاً من التقدم مباشرة الى المدينة الأخيرة . وبطبيعة الحال كانت هذه فرصة طيبة

(29) Nicetas, in C.S.H.B., p. 412.

(30) Ibid., pp. 411-14.

(٣١) حول مصير اندرنيق انظر :

Nicetas, pp. 440 — 46; Vartan le Grand, p. 437.

(32) Nicetas, pp. 477 — 78.

(33) Ibid., pp. 465 — 67.

للجيش البيزنطي ، حيث أسرع قائده براناس وانقض كالصاعقة على الفرقة النورمانية التي كانت تعبث في ضواحي موسينوبوليس وشتت شملها ، وولّت الأدبار للاحتماء في هذه المدينة فلاحقتهم القوات البيزنطية وحطمت بوابات المدينة واضطر النورمان الى الفرار ، وعندئذ طلب القائد النورماني بلدوين الصلح ، فقبل براناس ، ولكن سرعان ما أدرك الأخير - كما يقول نيقتاس - أن النورمان غير جادين في الصلح وانما غرضهم من طلب الصلح هو كسب الوقت ريثما تصل بقية فرق الجيش النورماني ، ولهذا انقّض الجيش البيزنطي ، اثناء المفاوضات ، على الجيش النورماني ، على حين غرة ، والحق به هزيمة ساحقة وذلك في ٧ نوفمبر (١١٨٥م) ، وانتهت هذه المعركة بقتل عدد من النورمان وأسر عدد آخر وعلى رأسهم القائدين النورمانيين بلدوين وريتشارد ، فضلاً عن المدعي بالعرش البيزنطي الكسيوس كومنين ، الذي سرعان ما سُملت عيناه(٣٤) .

أما بقية القوات فقد ولّت الادبار الى تسالونيكا ، وعندما سمعت بقية الفرق النورمانية في سيرس بهذه الهزيمة ولتّ الأدبار بدورها الى تسالونيكا . واثناء هذه الاحداث انقضّ سكان مدينة تسالونيكا على الحامية النورمانية الموجودة في مدينتهم ، وقام الجيش البيزنطي بملاحقة فلول القوات النورمانية الى تسالونيكا ، ولكن الأخيرة اضطرت الى ترك المدينة والفرار في شتى الاتجاهات ، فبعضهم اتخّذ طريقه الى دورازو وبعضهم ركب بعض السفن من ميناء تسالونيكا وهرب الى صقلية والبعض الآخر أجهز عليه البيزنطيون في تسالونيكا(٣٥) . اما بالنسبة الى الاسطول النورماني ، فبعد أن انتظر وصول القوات البرية سبعة عشر يوماً في مياه القسطنطينية ، لفرض الحصار على المدينة الأخيرة ، اضطر بدوره الى الانسحاب والعودة الى صقلية ، بعد أن تمزق الجيش البري . وبذلك انتهى الخطر البحري عن العاصمة البيزنطية(٣٦) .

---

(٣٤) يقول نيقتاس ان المدعي بالعرش البيزنطي ، الكسيوس كومنين ، قد رافق الحملة النورمانية . ومنذ وصوله الى الأرض البيزنطية - برفقة هذه الحملة - أخذ يسلك سلوكاً امبراطورياً ، معتبراً نفسه الامبراطور الحقيقي لبيزنطة . ويقول نيقتاس أيضاً أن الكسيوس هذا كان يرغب في الوصول الى العرش البيزنطي بأية طريقة وبأي ثمن .
أنظر : Nicetas, pp.414 - 416.

(35) Nicetas, pp. 466 — 72; Finlay, vol. III, pp. 222- 23.
(36) Nicetas, pp. 467 —474; Setton, vol. 11, p. 37.

وهكذا تمزقت الحملة النورمانية التي اسفرت عن مقتل عشرة آلاف من القوات النورمانية ، وأسر أربعة آلاف أخرى . ويقول نيقتاس أن اسحق انجيلوس عامل الأسرى النورمان بعنف وقسوة ، ورغم احتجاجات الملك وليام الثانـي على هذه المعاملة ، فإن الامبراطور استمـر بهـذه المعاملـة دون الاهتمام باحتجاجـات الملك النورماني(٣٧) .

ان فشل الحملة النورمانية كان له وقع الصاعقة على الملك النورماني وليام الثاني ، الذي وضع كل ثقله فيها . ولذا اراد الانتقام من بيزنطة بعمل سريع ، فبعث اسطوله في العام التالي (١١٨٦م) تحت قيادة الاميرال مرجريت . وقام الأخير بنهب سواحل وجزر بحر ايجه البيزنطية . كما اتجه مرجريت هذا الى جزيرة قبرص وتحالف مع اسحق كومنين(٣٨) . وكان أن الحق مرجريت هزيمة ماحقة بالأسطول البيزنطي الذي بعثـه الامبراطور اسحق انجيلوس ربيع عام ١١٨٧م لاخضاع قبرص واعادتها الى حضن الامبراطورية ، ووقع قادة الأسطول البيزنطي ـ وهما يوحنا كونتوستيفانوس والكسيوس كتاتزيس ـ بيد الأميرال النورماني مرجريت ، الذي بعـث بهما الى باليرمـو . وفي خريف العام نفسه عاد الاسطول النورماني الى صقلية بناء على أوامر الملك وليام الثاني(٣٩) .

بعد كل هذه الأحداث تم توقيع معاهدة صلح بين الملك وليام الثاني والامبراطور البيزنطي اسحق انجيلوس . وعلى الرغم من أننا لا نعرف بنود هذه المعاهدة ومتى تم التوقيع عليها إلا أن الدراسات الحديثة تميل الى القول بأن هذه المعاهدة ربما تم توقيعها باعقاب فتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقـدس في اكتوبـر من العـام

---

(37) Nicetas, pp. 475-76; Finlay, Vol. 111, p. 223.

(٣٨) في عام ١١٨٤م عيّن الامبراطور اندرنيق كومنين قريبه اسحق كومنين حاكماً على قبرص . غير أن اسحق لم يكد يصل الى الجزيرة حتى استبد بالأمر وقطع صلته بالقسطنطينية وتلقّب بلقب أمبراطور قبرص . وقد نجح اسحق هذا في توطيد سلطانه بالجزيرة . وتعسّر على اباطرة القسطنطينية عزله أو التغلب عليه . واصبحت الجزيرة مأوى الفارين من اضطهادات اندرنيق وبذلك انفصلت قبرص عن الامبراطورية ، وكانـت خسـارة استـراتيجية وتجـارية بالنسـبة الى الامبراطورية . انظر عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص٢٤ ـ ٢٥ انظر ايضاً : ;Finlay, vol. 111, pp. 212 — 13 ostrogorsky, p. 334; vasiliev, vol. 11, p. 437.

(39) Nicetas, pp. 483 — 85; Setton, 11, p. 37.

١١٨٧م . وذلك لأن وليام الثاني تأثر بفتح صلاح الدين للقدس ، وأراد أن يكرّس كل موارده ووقته لمساعدة الأراضي المقدسة ، ولذا فقد رغب ألا يتورط في حروب جديدة مع بيزنطة تشغله عن ذلك ، ولذا وقّع معاهدة الصلح مع اسحق انجيلوس . ويبدو أن هذه المعاهدة تم التوقيع عليها إما عام ١١٨٨م أو عام ١١٨٩م وذلك لأن الكونت ريتشارد ـ الذي كان أسيراً عند البيزنطيين ، والذي يُفترض أن سراحه قد أطلق بناءاً على هذه المعاهدة ـ قد وصل إلى ايطاليا عام ١١٨٩م(٤٠) .

والواقع أن هذه الحملة هي حلقة من حلقات الصراع النورماني ـ البيزنطي الذي ابتدأ قبل قرن من الزمن ، وهي تجديد أمين ، في الأهداف والاساليب ، لمحاولات جويسكارد وبوهيموند لجعل الدولة النورمانية سيدة عالم البحر المتوسط عن طريق احتلال بيزنطة . فلو كان جويسكارد في موضع وليام الثاني لما تأخر لحظة في القيام بهذه الحملة ، بل وبصورة اكثر حماسة ، بل لو كان جويسكارد لكان الانتصار حليف هذه الحملة النورمانية الضخمة ، خاصة وأن العوامل المساعدة على الانتصار كانت متوفرة بشكل لم يسبق له مثيل ، فالاضطرابات التي ألمت ببيزنطة في ظل اندرنيق ، وتحطم العلاقة بين بيزنطة والبندقية وبالتالي عدم وقوف الأخيرة ـ وكالمعتاد ـ إلى جانب بيزنطة ، وتحطم التحالف الالماني ـ البيزنطي من جهة وقيام التحالف النورماني ـ الالماني بزواج كونستانس ـ ابنة روجر الثاني ووريثة العرش النورماني ـ من هنري السادس ابن بربروسا ووريث العرش الالماني من جهة ثانية (٤١) . وجاءت العوامل المشجّعة على قيام الحملة مثل تحريض المدعين بالعرش البيزنطي ـ اذا صدق ابن جبير ونيقتاس ـ ، والسخط الذي عمّ القوى الايطالية والغرب الأوروبي عامة نتيجة مذابح اللاتين في القسطنطينية عام ١١٨٢م .

ان العوامل المساعدة على الانتصار والعوامل المشجعة على قيام الحملة كانت كلها اوراق رابحة بيد الملك النورماني وليام الثاني ، الا أنه لم يحسن استخدامها بشكل متقن ، ولهذا تحطّمت الحملة بعد أن حققت انتصارات عجز اسلافه عن تحقيقها .

ان الحملة النورمانية عام ١١٨٥م ، والمعاهدة التي وقعت بين اسحق انجيلوس

(40) chalandon, Hist. de la domination, vol. 11, pp. 414 — 17; Norwich, The Kingdom p. 344.
(41) Runsiman, the Sicilian vespers, p. 24.

وليام الثاني ، وضعت نهاية عملية للصراع النورماني-البيزنطي الذي استمر قرناً ونيفاً من الزمن . وذلك لأن المشاكل الداخلية والخارجية لكلا الدولتين قد حالت دون استمرار هذا الصراع إلا أن هذه الحملة قد كشفت للقوى الايطالية التمزق الذي تعيشه بيزنطة وبالتالي ضعف العسكرية البيزنطية عن حماية القسطنطينية من السقوط ، أمام حملة تتفادى اخطاء الحملات النورمانية السابقة .

بوفاة الملك النورماني وليام الثاني عام ١١٨٩م(٤٢) يبدأ العصر الذهبي للمملكة النورمانية بالأفول والانحسار ، وبدأت الأسرة المالكة نفسها ـ آل هونقيل ـ بالانقراض التدريجي(٤٣) . فلقد توفي وليام الثاني دون أن ينجب وريثاً للعرش النورماني(٤٤) . وكانت الوريثة لوليام هي عمته كونستانس(٤٥) ، وأُعلن يوم الخطوبة ـ بموافقة وليام الثاني ـ أن كونستانس وهنري هما الوريثان الشرعيان للعرش النورماني(٤٦) .

ان شعوب المملكة النورمانية كانت تكره الملك الالماني ، ولهذا بدأت المؤامرات في المملكة منذ وفاة وليام الثاني . واسفرت هذه المؤامرت ـ بدعم من الحزب الوطني النورماني ـ عن اعتلاء تانكريدليسي ، حفيد روجر الثاني ، العرش النورماني ، وتوج ملكاً عام ١١٩٠م(٤٧) . إلا أنه سرعان ما دبت الانقسامات في المملكة النورمانية ، وتزعّم رئيس اساقفة باليرمو الحزب المؤيد لحق كونستانس وهنري السادس في وراثة العرش ، وقام تانكريدليسي بموجة اعتقالات واسعة بين صفوف هذا الحزب(٤٨) ، وفي

(42) Ambroise, the crusade of Richard lion — heart. (Eng.trans. by hubert, Newyork, 1941) p. 40.

(43) Runciman, the sicilian vespars, p. 25.

(44) Ambroise, op. cit,. p. 49.

(٤٥) كونستانس هي ابنة الملك روجر الثاني . وكانت قد ولدت بعد وفاة ابيها بعدة أشهر (١١٥٤م) . وكان عمرها عند زواجها من هنري السادس/٣١/ عاماً في حين كان هنري في العشرين من عمره . انظر : Ambroise, op. cit., p. 40, Note 20; Runciman, op. cit., p. 24.

(46) Curtis, Roger of sicily, pp. 433 — 34; Runciman, op. cit., p. 24.

(47) Ambroise,, op. cit., p. 49; Setton op. cit., vol. 11, p. 39; tout, op. cit., vol. 11, p. 301; curtis, op. cit. p. 437.

(٤٨) كان أهم ما اعتقله تانكريد هي الملكة جوانا ـ أرملة سلفه وليام الثاني ـ وهي شقيقة الملك الانكليزي ريتشارد قلب الأسد . وحرمها تانكريد من مهرها . وصادف وقتها مرور ريتشارد بجزيرة صقلية في طريقه الى الشام في الصليبية الثالثة . فاضطر تانكريد الى الافراج عن جوانا . كما حاول اقناع ريتشارد بالتحالف معه ضد هنري السادس . ورغم أن ريتشارد وعده بذلك . إلا أن هذه الوعود ذهبت مع الريح . انظر حول ذلك : Ambroise, op. cit., p. 49; tout op. cit., vol. 11, p. 301; Runciman, op. cit., p. 25.

ذات الوقت زحف هنري السادس على رأس قواته (١١٩١م) من المانيا إلى جنوب ايطاليا لانتزاع حقوقه في المملكة النورمانية ، وبعد أن تُوج امبراطوراً في روما ـ وهو في طريقه (١١٩١م) ـ تصدّى له الملك تانكريد قرب نابولي ، واضطر هنري السادس للانسحاب ، في حين وقعت زوجته ـ كونستانس ـ اسيرة بيد الملك تانكريد ، واضطر الأخير الى اطلاق سراحها بعد تدخُل البابا(٤٩) .

ان الخطر الالماني على المملكة النورمانية دفع الملك تانكريدليسبي لاقامة علاقات طيبة مع الامبراطورية البيزنطية ، ولهذا تحالف تانكريد مع اسحق انجيلوس لدعم موقفه ضد هنري السادس(٥٠) . ودُعّم هذا التحالف بزواج ايرين ابنة الامبراطور اسحق انجيلوس من روجرابن الملك تانكريدليسبي(٥١) .

وفي أوائل العام ١١٩٤م توفي الملك تانكريدليسي ، تاركاً ولداً قاصراً ، اسمه وليام الثالث ، كوريثٍ للعرش النورماني فتولت ارملته ـ سيبيلا ـ الوصاية على وليام هذا . ولكن هنري السادس ـ امبراطور الدولة الرومانية المقدسة في الغرب ـ زحف في نفس العام (١١٩٤م) على المملكة النورمانية وقبض على سيبيلا وسجنها ، وقتل العديد من اتباعها ، واختفى الملك الصغير وليام الثالث دون أن يُعرف مصيره . وبذلك استرد هنري السادس حقوقه في العرش النورماني ، وتوج الأخير ملكاً على صقلية في باليرمو في عيد الميلاد من العام ١١٩٤م ، بعد انقراض آخر ذَكرٍ من آل هوتفيل ، واصبح هنري السادس بذلك امبراطوراً على المانيا وملكاً على نورمان ايطالية الجنوبية وصقلية(٥٢) .

ان اعتلاء هنري السادس العرش النورماني شكّل خطراً حقيقياً ، لم يسبق له مثيل ، على الامبراطورية البيزنطية ، خاصة إذا تذكرنا ما سبق أن أشرنا إليه سابقاً ،

---

(49) Setton, op. cit., vol. 11, p. 117; tout op. cit., vol. 11, p. 306; Runciman, the Sicilian vespers, p. 25.
(50) Ostrogorsky, hist. of the Byzantine, p. 305.

(٥١) لقد تم هذا الزواج بمدينة برانديزي في سهر اغسطس من العام ١١٩٢م . وكان روجر ابن الملك تانكريد ليسي وقتها دوقاً على ابوليا ولكن سرعان ما توفي روجر هذا ، في ديسمبر من العام التالي (١١٩٣م) ، وبقيت ايرين ابنة الامبراطور اسحق في كنف تانكريد ليسي . انظر :
Tout, the Empire and the papacy, vol, 11, pp. 309 — 310.
(52) Rogerof wendover, Flowers of history, vol. 11, p. 140; Tout, the Empire ant the papacy, voi. 11, p. 310; Runciman, the vespers, p. 25; Hussey, the Byzantine world, pp. 70 — 71.

من أن أهم المبادىء التي اعتمدت عليها بيزنطة في سياستها الايطالية طوال القرن الثاني عشر ، هو العمل بأي شكل على منع قيام أي تفاهم بين الالمان والنورمان ، والعمل على كسب الألمان ضد الملوك النورمان ، وقد رأينا كيف نجحت هذه «الاستراتيجية» حتى منتصف القرن الثاني عشر ، ومن ثم أخذت تتحطم منذ اعتلاء بربروسا العرش الالماني (١١٥٣م) ، حيث اتخذت ألمانيا سياسة مستقلة ومتناقضة ومعادية للسياسة البيزنطية في ايطاليا . وتفاقم الموقف في أواخر ذلك القرن ، حينما تزوج ابن بربروسا من وريثة العرش النورماني ، وجاء تتويج هنري السادس ملكاً على صقلية ليجسّد بشخصه عدوين مريرين لبيزنطة هما : النورمان والالمان وليشكّل عليها خطراً ماحقاً ، في الوقت الذي اعتلى فيه العرش البيزنطي اباطرة ضعاف ، او بالأحرى كانت الامبراطورية كلها تسير نحو الهاوية .

ذلك أن هنري السادس حمل في نفسه أحقاد الألمان على البيزنطيين(٥٣) وأطماع النورمان في الامبراطورية البيزنطية ، فضلاً عن أن بيزنطة تحالفت مع تانكريد ليسي ـ عدو هنري السادس وكان لدى هنري السادس دليلاً على هذا التحالف وهو أن ايرين ، ابنة الامبراطور اسحق ، وزوجة ابن تانكريد ، قد وقعت أسيرة بيد العاهل الالماني عندما اكتسح الأخير (عام ١١٩٤م) المملكة النورمانية(٥٤) . وهكذا تجمعت العوامل التي جعلت بيزنطة وهنري السادس في موقف عدائي تجاه بعضهما .

---

(٥٣) إن أحقاد الألمان على البيزنطيين تنبع أساساً من تناقض مصالحهما في ايطاليا ومن دعم مانويل للمدن اللمباردية في صراعها ضد بربروسا ، وتنبع أخيراً من النهاية المأساوية لصليبية بربروسا ، حيث اشترك بربروسا في الحملة الصليبية الثالثة ، التي انطلقت بعد فتح صلاح الدين لبيت المقدس . وأثناء عبور بربروسا الأراضي البيزنطية وقعت أعمال عنف بينه وبين البيزنطيين ، حتى أن بربروسابعث أثناءعبوره رسالةإلى ابنه هنري السادس يطلب منه الاتصال بجنوةوبيزا والبندقية لتجهيزحملة بحرية للتعاون معه على فتح القسطنطينية . واضطر اسحق انجيلوس عندئذ الى الاتصال بصلاح الدين الأيوبي ضد بربروسا . وكاد الموقف يتفاقم بين العاهلين لولا أن تم الصلح بينهما في ادريا نوبل في يناير عام ١١٩٠م . وعلى أية حال فشلت حملة بربروسا وغرق الأخير في احدى أنهار قليقية (يونيو ١١٩٠م) . والمهم في ذلك ان هنري السادس حمل بيزنطة المسؤولية الكاملة في فشل صليبية والده وربما وفاته أيضاً . انظر ابن سداد : ص١١٥ ، ١٢٣ ـ ١٢٨ ؛ عاشور الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٨٤٥ ـ ٨٥٢ .

(54) Nicetas, in C. S. H. B., pp. 548 — 49, 635; chalandon, hist. de la dommation, vol. 11, pp. 447 — 48; Branu, p. 190.

وفي أوائل العام ١١٩٥م(٥٥) بعث هنري السادس سفارة الى القسطنطينية يطلب من أسحق أنجليوس تحقيق ثلاثة أمور أولاً : تسليمه الأقاليم الممتدة من مدينة دورازو حتى مدينة تسالونيكا ، وذلك لأن القوات النورمانية التي بعثها وليام الثاني عام ١١٨٥م قد فتحتها وان كان البيزنطيون قد أستردوها . ثانياً : دفع التعويضات اللازمة عن الأضرار التي لحقت بحملة والده بربروسا الصليبية اثناء عبور الأخير الأراضي البيزنطية عام ١١٨٩م ، ثالثاً : تقديم الدعم الحربي البحري للحملة الصليبية التي يعتزم هنري السادس القيام بها الى فلسطين . ويعلّق المؤرخ البيزنطي نيقتاس على هذه المطالب بقوله أن الوفد الالماني قد تفوه بها «كأنما سيدهم هو سيد السادة وأمبراطور الأباطرة»(٥٦) .

وقبل أن تصل المفاوضات بين السفارة الألمانية واسحق انجيليوس الى نتيجة ما ، وقع انقلاب في القسطنطينية اطاح باسحق انجيليوس واعتلى العرش شقيقه الكسيوس الثالث انجيليوس (١١٩٥ ـ ١٢٠٣) . فما كان من هنري السادس عندئذ الا أن بعث بسفارة ثانية في العام التالي (١١٩٦) الى الكسيوس الثالث انجيليوس مهمتها هذه المرة مزدوجة أولاً : الحصول على مبلغ كبير من المال مقابل تنازله عن المطالب الثلاثة السابقة . ثانياً : التلميح بالتهديد ، وامكانية توجيه حملته الصليبية ـ التي كانت وقتئذ قد أعدّت بشكل كامل ـ الى القسطنطينية لدعم حقوق أسحق انجيليوس في العرش البيزنطي ، اذا لم تدفع هذه الاموال . ويعترف نيقتاس ان الامبراطور قد خشي التهديد الالماني ، ووجد أن الموقف يقتضي «شراء السلام» من العاهل الالماني ـ النورماني ، وكان «السعر» الذي حدده هنري السادس لسفارته هو خمسة آلاف جنيهاً ذهبياً تقريباً(٥٧) .

وكان أن قَبِلَ العاهل البيزنطي ـ مضطراً ـ من حيث المبدأ دفع هذا المبلغ ، الا أنه بعث بسفارة الى صقلية تطلب من هنري انقاص المبلغ المطلوب . ونجحت السفارة

(٥٥) في هذا العام خطبت الأميرة البيزنطية ايرين الأمبراطور أسحق وأرملة روجر بن تانكريد ليسي من فيليب سوابيا ، شقيق هنري السادس ، وربما أمل هنري ان يجد في هذه المصاهرة حجة للتدخل في شؤون بيزنطة . عن زواج ايرين من فيليب . انظر : Nicetas, p. 635.

(56) Nicetas, pp. 627 — 28; Diehl, Byzantium, p. 219.

(57) Nicetas, in C. S. H. B. pp. 628 — 30.

البيزنطية في هذا السبيل ، وأصبح المبلغ المطلوب /١٦٠٠/ جنيها ذهبيا تقريباً . وبقيت السفارة البيزنطية في باليرمو ريثما وصلت الدفعة الاولى من هذا المبلغ من القسطنطينية(٥٨) . ويخبرنا نيقتاس أن الامبراطور الكسيوس الثالث انجيليوس اضطر ـ لدفع المبلغ الذي طلبه هنري السادس ـ أن يفرض على البيزنطيين ـ في العاصمة والاقاليم ـ ضريبة عرفت «بضريبة الالمان»(٥٩) . ولم تتخلص الامبراطورية من هذه الضريبة الا بوفاة هنري السادس(٦٠) ، قبل القيام بصليبيته الى الشام ، وذلك في ٢٨ سبتمبر من العام ١١٩٧م ، وبذلك أزيح كابوس ثقيل أحدق ببيزنطة عدة سنوات(٦١) .

إن الدراسات الحديثة لم تحسم بعد مسألة فيما اذا كان هنري السادس جادّاً في تهديده بتوجيه حملته الصليبية ضد بيزنطة أو فيما اذا كان يهدف فقط ابتزاز الاموال من الامبراطورية البيزنطية لتسخيرها في تحقيق مشاريع أو مغامرات أخرى ؟.

إن أول من زعم بأن هنري السادس كان يعتزم تحويل حملته الصليبية ضد بيزنطة هو المؤرخ البيزنطي المعاصر نيقتاس قونياتس(٦٢) ، وحاكاه بعض المؤرخين المحدثين ، ولكن هل يكفي ما ذهب اليه نيقتاس لنقول بأن هنري السادس كان جادّاً في تهديده باحتلال القسطنطينية ؟

ومهما يكن من أمر ، فان الذي يهمنا تأكيده هو أن البعد النورماني في مشروع هنري السادس كان واضحاً ، فمن جهة حمل أطماع النورمان في الامبراطورية البيزنطية ومن جهة أخرى أعطى المملكة النورمانية حماية ودعما ألمانيّاً بحيث أصبح من المستحيل على أباطرة الدولة البيزنطية ـ وخاصة في تلك الفترة بالذات ـ التفكير

(58) Ibid., pp. 630-31.

(59) Ibid., PP. 631-43.

(٦٠) يبدو أن البابوية كانت قد عارضت مشروع هنري السادس في مهاجمة بيزنطة ، وان البابا الح على هنري أنه لا يجوز له كمسيحي أن يجعل هدفه القسطنطينية وأن عليه أن يوجه جهده «لاسترداد» بيت المقدس من المسلمين . ويبدو أن هدف البابا من وراء هذه النصيحة لم يكن هدفاً دينياً فحسب بل كان يخشى أيضاً أنه إذا زالت القسطنطينية من الوجود وغدا هنري سيد امبراطورية مسيحية عالمية ، أن تهدد الاخطار الكرسي البابوي وأن يصبح البابا نفسه تحت رحمة الامبراطور الذي لن ينازع سيادته بعد أي منازع .

أنظر : عاقل ، المرجع السابق ، ص٣١٢ .

(61) Finlay, Hist. of Creece, vol. 111, p. 251; Setton, Hist. of the crusades, vol 11, p. 119.

(62) Nicetas, in C.S.H.B., pp. 629, 633.

باستعادة حقوقهم في ايطاليا الجنوبية ، التي ناضل من أجلها آل كومنين قرناً من الزمن ، ومن جهة ثالثة فإن الامراء النورمان كانوا يتمنون بل وربما يحرضون هنري السادس على السير وفق الاستراتيجية النورمانية التي وضع أساسياتها روبرت جويسكارد لحلّ المسألة البيزنطية .

وعلى أية حال اذا لم يكن هنري السادس جاداً في تحويل حملته الصليبية ضد الامبراطورية البيزنطية فان شقيقه فيليب سوابيا والقوى الايطالية والغرب الأوروبي اللاتيني عموما كان جادّاً في تحويل الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ م لاحتلال القسطنطينية وحل المسألة البيزنطية .

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ م : أحداثها ـ مسألة تحويلها ـ نتائجها .

اذا ألقينا نظرة موضوعية وشمولية على القضايا التي تحكمت في مسار العلاقات السياسية بين الامبراطورية البيزنطية والقوى الايطالية ، خلال القرن الثاني عشر ، ندرك أن هذه القضايا ترتبط ببعضها أرتباطاً وثيقاً بحيث كانت كل قضية نتيجة وسبباً في آن واحد ، وأن كل القضايا قد شكلت ـ بتفاعلها مع بعضها وتطورها ـ المجرى العام والتيار الرئيسي الذي اندفعت فيه العلاقات بين الاطراف المعنية . فإذا كان الصراع السياسي بين بيزنطة والقوى الايطالية قد بدأ ـ في هذا القرن ـ بالمسألة الانطاكية ، الا أنه لم ينته بالتهديد الالماني ـ النورماني (بالنسبة للامبراطورية البيزنطية والقوى الايطالية معاً) وإنما وصل الى نهايته الحقيقية بسقوط أحد الاطراف الرئيسية في هذا الصراع من خلال الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م ، وأقصد به الامبراطورية البيزنطية . والشيء الذي نود أن نؤكده هو ان العلاقات السياسية بين بيزنطة من جهة والقوى الايطالية من جهة أخرى لم تتطور بعفوية وانفعالية ولم تكن مجرد حوادث وردود فعل ، وانما كانت تنبع هذه العلاقات وتتطور وتنعطف وتتراجع ... وفق المصالح العليا للاطراف المعنية بالصراع ، الا أن طرفاً رئيسياً من هذه الاطراف كان يضعف تدريجياً ، وكانت قواه الذاتية تُستَنفذ كلما تطورت هذه العلاقات وتعقّدت القضايا التي تتحكم في مسارها ، وأقصد به الامبراطورية البيزنطية ، التي وصلت الى نهاية القرن الثاني عشر ، بعد صراع طويل ومرير مع القوى الايطالية ، دفاعا عن حدودها ومصالحها حيناً ودفاعاً عن وجودها احيانا ، وصلت مجهدة ومنهوكة القوى بحيث كان من السهولة بمكان أن تسقط هذه الامبراطورية بضربة مطرقة خارجية مركّزة . وهذا ما حدث في الحملة الصليبية الرابعة .

عندما اعتلى البابا انوسنت الثالث الكرسي البابوي (١١٩٨م) ، وجّه عنايته القصوى لشن حملة صليبية يشترك فيها الغرب والشرق المسيحيين ، وكتب بذلك الى القيادات السياسية في أوروبا يحثّها على حمل الصليب لاسترداد الاماكن المقدسة من أيادي المسلمين(١) . وفي نفس العام (١١٩٨م) قام فولك أسقف نيللي(٢) يبشر بهذه الحملة ، التي أصطلح على تسميتها بالحملة الصليبية الرابعة ، وبرفقته المندوب البابوي ، بطرس من كابوا ، الذي أخذ يعلن باسم البابا أنوسنت الغفران الكنسي لكل من يشترك في هذه الحملة(٣) . وكان قد لبى هذا النداء نخبة من فرسان الغرب ، وفي مقدمتهم كونت شمبانيا ، واسمه ثيبوت ، الذي انتخب قائداً لهذه الحملة(٤) .

ولقد شكّل الفرسان ـ الذين عقدوا العزم على الاشتراك في هذه الحملة ـ لجنة مهمتها اتخاذ كافة التدابير اللازمة لتنظيم مسيرة الحملة واختيار الطريق المناسب ووسائل النقل اللازمة . وكان من بين هذه اللجنة المؤرخ المشهور جوفري فيل هاردوان(٥) ، الذي كان شاهد عيان على أحداث هذه الحملة وأكثر المؤرخين ثقة فيا رواه عن وقائعها . ورأت هذه اللجنة أن البندقية أكبر وأفضل ميناء يمكن أن يؤمّن السفن اللازمة لنقل الصليبيين الى «ما وراء البحر» . ولذا اتجهت اللجنة الى البندقية ، ووصلتها في فبراير من عام ١٢٠١م . حيث رحّب الدوج انريكو داندولو بمطالب هذه اللجنة ترحيباً حاراً ، وتعهد بتجهيز السفن اللازمة لنقل /٤٥٠٠/ حصاناً و/٩٠٠٠/ رجلاً من حملة الدروع و/٤٥٠٠/ فارساً و/٢٠,٠٠٠/ من الجنود المشاة اضافة الى امداد الصليبيين بالمؤون مدة تسعة أشهر . وتعهدت البندقية أيضاً بأنها ستلتزم ببنود هذه الاتفاقية مدة سنة كاملة بدءاً من تاريخ مغادرة الصليبيين لميناء البندقية(٦) وكان المبلغ الذي اتفق أن يدفعه الصليبيون للبنادقة ـ ازاء هذه الخدمات كلها ـ هو /٨٥/ ألفاً من الماركات الفضية . على ان يتم دفع كامل هذا المبلغ قبل

---

(1) Vasiliev, Hist. of The Byzantine Empire, vol. 11, p. 451.

(٢) نيللي هي أبرسية تابعة لاسقف باريس . أنظر : روبرت كلاري : فتح القسطنطينية ، الترجمة ، ص٣٣ .

(3) Villehardouin, G., The Conquest of Constantinople, p. 29.

(4) Ibid., pp. 29-32; Chronical of Morea, p. 72.

أيضاً أنظر : روبرت كلاري : فتح القسطنطينيه ، ص٣٣ ، ٣٧ .

(5) Villehardouin, p. 31; C hronical of Morea, p. 76.

(6) Villehardouin, pp. 31— 33.

أن يغادر الصليبيون ميناء البندقية(٧) . وتعهّدت البندقية ـ اضافة الى ذلك ـ بأنها ستلحق الاسطول المخصص لنقل الصليبيين بخمسين سفينة على نفقتها الخاصة «اكراماً لوجه الله» ولكن شريطة أن يمتلك البنادقة نصف كل ما تفتحه الحملة في البر والبحر . وقد وافق الطرفان على كل هذه الامور ووقعا معاهدة في هذا الشأن في أبريل من عام ١٢٠٢م وصدّق عليها البابا انوسنت الثالث بعد ذلك بقليل(٨) .

وكان الهدف المباشر لهذه الحملة هو احتلال مصر(٩) ، وذلك لأن مصر هي المركز الرئيسي للقوة العربية ـ الاسلامية في الشرق(١٠) . ولكن هذا الهدف بقي سراً في أذهان القادة ، بينما لم يعرف الصليبي العادي المشارك في هذه الحملة سوى أن الحملة متجهة الى بلاد «ما وراء البحر»(١١) .

بعد عودة اللجنة من البندقية ، وقبل ان يشرع الصليبيون في حملتهم ، توفي الكونت ثيبوت . وانتخب بونيفاس مركيز مونتفرات خلفاً له لتولي قيادة الحملة(١٢) . وبذلك انتقلت قيادة الحملة من رجل فرنسي الى أمير ايطالي.ومنذ أوائل سنة ١٢٠٢م أخذت الجموع الصليبية تتوافد على البندقية ، التي كانت نقطة تجمع للانطلاق . ودفع الصليبيون قسماً من المبلغ المتفق عليه للبنادقة ، إلا أن البنادقة أصروا على قبض كامل المبلغ المتبقي ـ وقدره /٣٤/ ألفاً من الماركات ـ قبل مغاردة البندقية(١٣) . واضطر الصليبيون أخيراً الى قبول اقتراح تقدم به الدوج البندقي أنريكو دوندولو مفاده ، ان يقوم الصليبيون بمساعدة البنادقة لاسترجاع مدينة زارا من ملك هنغاريا واعادتها الى السيادة البندقية ، وذلك مقابل امهال الصليبيين في دفع المبلغ المتبقي(١٤) .

(7) Ibid., pp. 33- 34.
(8) Ibid., pp. 33- 35; Eric, op. cit., p. 59, 102:

أيضاً : كلاري ، ص٤١ ـ ٤٢ .

(9) Villehardouin, p. 35.
(10) Ault, op. cit., p. 353.
(11) Villehardouin, p. 35;

كلاري : ص٣٩ .

(12) Villehardouin, pp. 37- 38.

أيضاً كلاري : ص ٣٧ ـ ٣٩ .

(13) Villehardouin, pp. 40- 43.

(١٤) في الواقع هناك خلاف في هذه النقطة بين المؤرخين المعاصرين . فالمؤرخ روبرت كلاري يقول أن الدوج قرر أمهال =

ويبدو أن قضية الأمير البيزنطي الكسيوس (الرابع) بن اسحق انجيليوس قد ظهرت قبل أن تتوجه الحملة الصليبية الى مدينة زارا . وملخص هذه القضية أن الكسيوس الثالث انجيليوس قام بانقلاب في القسطنطينية عام ١١٩٥م وأطاح بشقيقه الامبراطور اسحق انجيليوس وأودعه وابنه الكسيوس (الرابع) السجن . واعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية(١٥) . إلا أن الأخير تمكن من الفرار حيث التجأ الى صهره (زوج اخته) فيليب دوق سوابيا يطلب مساعدته لاسترجاع عرش والده(١٦) .

وكان ان اتجه الصليبيون الى زارا في بداية شتاء عام ١٢٠٢م ، وفرضوا عليها الحصار ، واثناء ذلك وصل مندوب من البابا أنوسنت الثالث وأعلن احتجاج البابا على مهاجمة هذه المدينة المسيحية وهدّد بالحرمان الكنسي للصليبيين والبنادقة اذا اقتحموا المدينة(١٧) الا أن الصليبيين خضعوا لتأثير البنادقة وتم احتلال المدينة دون اهتمام بتحذير البابا(١٨) . واثناء وجود الصليبيين في زارا وصل وفد يمثل الملك الالماني فيليب السوابي والأمير البيزنطي الكسيوس الرابع لاقناع الصليبيين بضرورة مساعدة الأخير لاسترجاع عرش والده . وتضمنت الرسالة ـ التي حملها الوفد للصليبيين من الملك الألماني ـ بأن الكسيوس هذا قد تعهّد مقابل ذلك بـ «وضع كنيسة القسطنطينية تحت السيادة البابوية»، وبدفع مبلغ/٢٠٠,٠٠٠/ ألفاً من الماركات الفضية ، وتموين القوات الصليبية ، وانه سوف يرافق الصليبيين الى مصر بنفسه ومعه /١٠/ آلاف جندي وعلى أن يستبقي فرقة مؤلفة من /٥٠٠/ فارس لحراسة أرض «ما وراء البحر»(١٩) . وبعد مناقشات مطوّلة وافق الصليبيون والبنادقة على العروض التي تقدم بها وفد فيليب سوابيا باسم الكسيوس الرابع انجيليوس . ولكن

= الصليبيين في دفع المبلغ المتبقي على أن يدفع هذا المبلغ من الغنائم والاسلاب التي ستحصل عليها الحملة أي أنه لا يربط بين المبلغ المتبقي ومهاجمة مدينة زارا . ويقول هذا المؤرخ أن مهاجمة المدينة الأخيره قد تم نتيجه تحريض الدوج للصليبيين للتمتع بهذه المدينة الغنية ولقضاء فصل الشتاء فيها . أما المؤرخ فيل هاردوان ومؤرخ موريه فيتفقان ـ كما أوردنا في المتن ـ أن مهاجمة زارا كان مقابل أمهال الصليبيين دفع المبلغ المتبقي .

أنظر روايات هؤلاء المؤرخين الثلاثة : روبرت كلاري : ص٤٣ ـ ٤٤ ؛
Villehardouin, pp. 43- 44; chronical of Morea, p. 79.

(15) Chronical of Morea, p. 80.
(16) Villehardouin, pp. 44- 45.
(17) Ibid., p. 48.
(18) Ibid., pp. 48.
(19) Ibid., p. 50.

من الملاحظ أن تمزقاً عنيفاً ألم بالقوات الصليبية بعد أن قرر قادتها تحويل الحملة الى القسطنطينية . حيث هربت أعداد هائلة من الصليبيين الى الشام مباشرة ، وأعداد عادت الى فرنسا . حتى ان المؤرخ فيل هاردوان يقول : «أن أعدادنا قد نقصت بشكل مرعب ، وأخذت تتضاءل يوماً بعد يوم»(٢٠) .

وكان أن أصدر البابا قراراً بحرمان الصليبيين والبنادقة عندما سمع باحتلال زارا . ولكن سرعان ما استجاب لتوسلات الصليبيين واعلن رفع الحرمان الكنسي عنهم ، إلا أنه أبقاه على البنادقة ، وفي ذات الوقت طلب من الصليبيين «الحفاظ على وحدة الجيش الصليبي»(٢١) .

ويقول فيل هاردوان انه عندما سمع البابا بنية الصليبيين والبنادقة في توجيه الحملة نحو القسطنطينية ـ ندّد على لسان مندوبه ـ بهذا المشروع(٢٢) . إلا أن المؤرخ روبرت كلاري يخبرنا أن الاساقفة المرافقين للحملة أفتوا بشرعية الذهاب الى القسطنطينية لاعادة حقوق الكسيوس الرابع انجيليوس في العرش البيزنطي(٢٣) .

وانطلق الصليبيون والبنادقة من زارا نحو القسطنطينية . وانضم اليهم في إحدى مراحل الطريق الأمير البيزنطي الكسيوس (الرابع) انجيليوس(٢٤) . واحتلوا في طريقهم عدداً من الجزر والمدن الساحلية البيزنطية . وعندما ووصلوا الى القسطنطينية ضربوا الحصار عليها (يونيو ١٢٠٣م) . وعندئذ أدرك الامبراطور الكسيوس الثالث انجيليوس (١١٩٥ ـ ١٢٠٣م) عجزه عن صد المهاجمين فهرب من المدينة في حين اتجهت جماهير العاصمة الى السجن وأعادت اسحق انجيليوس الى العرش البيزنطي . دون ان يحدث احتلال فعلي للقسطنطينية من قبل الصليبين أو البنادقة(٢٥) .

---

(20) Ibid., p. 52.
(21) Ibid., p. 53.
(22) Ibid., pp. 50- 51.

(٢٣) روبرت كلاري : ص٧٧ .

(٢٤) يقول روبرت كلاري أن الأمير الكسيوس قد لحق بالصليبيين عند جزيرة كورفو . بينما قال فيل هاردوان أن اللقاء بين الأمير الكسيوس والدوج البندقي والمركيز مونتفرات قد تمّ في مدينة زارا في حين كانت القوات الصليبية قد غادرت زارا . أنظر كلاري : ص٦٧ . أيضاً :
Villehardouin, op. cit., pp. 54- 55.

(25) Villehardouin, pp. 57- 58, 62- 73; chronical of Morea. pp. 83- 84; Ostrogorsky, op. cit. p. 369;
أنظر أيضاً : روبرت كلاري : ص٧٨ ، ٨١ ; Vryonis, op. cit., p. 151

وبقيت القوات الصليبية والبندقية خارج أسوار العاصمة . وأخذ قادتها يُطالبون الكسيوس الرابع ووالده اسحق بتنفيذ التعهدات التي قطعها لهم ، ولكن اسحق وابنه ترددا في دفع المبلغ المتفق عليه للصليبيين والبنادقة . ثم طلب فرصة لتأمين المبلغ وبقية التعهدات(٢٦) . واثناء ذلك (اغسطس ١٢٠٣) حدثت اضطرابات واصطدامات عنيفة في القسطنطينية بين اللاتين المقيمين فيها والسكان البيزنطيين . وأشعلت النيران في الأحياء التي يقطنها اللاتين في المدينة . ويشير المؤرخ المجهول لموريه(٢٧) الى ان المدبر لمذابح «اللاتين» هذه في القسطنطينية هو الكسيوس الرابع انجيليوس نفسه ، وذلك في محاولة منه للتخلص من المعاهدة او الاتفاقية الموقّعة بينه وبين الصليبيين والبنادقة . ويطالعنا المؤرخ فيل هاردوان(٢٨) بتفاصيل مثيرة عن هذه الحوادث التي وقعت في القسطنطينية ويقول ان النيران التهمت احياء اللاتين ومخازنهم ومتاجرهم وأسواقهم ، فضلاً عن أعداد هائلة قتلت ، واضطر اللاتين المقيمون في القسطنطينية الى اصطحاب اولادهم وزوجاتهم وممتلكاتهم ـ التي تمكنوا من انقاذها ـ واتجهوا الى المعسكر الصليبي . ويقدر هذا المؤرخ عدد اللاتين الذين التجأوا بـ/١٥/ألفاً .

وأثناء ذلك وقع انقلاب في القسطنطينية بقيادة الكسيوس الخامس دوقاس (مورزفلوس) . وبدعم من الحزب الوطني اعتلى العرش بسرعة عجيبة وتخلص من اسحق وابنه اللذين تربعا على العرش بدعم من قوى أجنبية(٢٩) وعندئذ قرر الصليبيون والبنادقة اقتحام المدينة ، خاصة بعد ان أفتى المندوب البابوي المرافق للحملة الصليبية بشرعية احتلال القسطنطينية ووضعها تحت سيادة كرسي روما(٣٠) . وشنّ الصليبيون والبنادقة هجوماً ساحقاً على المدينة ، براً وبحراً ، وقاوم البيزنطيون

---

(٢٦) يخبرنا المؤرخ روبرت كلاري أن الكسيوس الرابع قد دفع للصليبيين مبلغاً قدره /١٠٠/ ألفا من الماركات ، أي نصف المبلغ المتفق عليه . واقتسم الصليبيون والبنادقة هذا المبلغ . ودفع الصليبيون من حصتهم البالغة /٥٠/ ألفاً المبلغ الذي لا زال في ذمتهم للبنادقة وهو /٣٤/ ألفاً من الماركات . إلا أن المؤرخ فيل هاردوان ينفي أن يكون الكسيوس الرابع قد دفع أي مبلغ للصليبيين والبنادقة عندما عاد بمساعدتها إلى العرش البيزنطي . أنظر رواية المؤرخين :

Villehardouin, pp. 76- 79.

كلاري : ص٩٥ .

(27) Chronical of Morea, p.86.
(28) Villehardouin, p. 79.
(29) Villehardouin, p. 84; chronical of morea, pp. 88- 89.
(30) Villehardouin, p. 85.

بشجاعة وعناد ملموسين . وفي ابريل (١٢٠٤م) اقتحمت القوات «الصليبية» القسطنطينية ، وبدأت بأعمال القتل والذبح والسلب والنهب ... ويخبرنا فيل هاردوان(٣١) ـ الذي كان شاهد عيان ـ بتفاصيل وافية عن الأعمال الوحشية التي ارتكبها بنو جلدته ضد القسطنطينية ، مدينة وسكاناً ، وبعد ذلك تقاسم الصليبيون والبنادقة الامبراطورية البيزنطية . وانتخب بلدوين كونت فلاندرز (اللاتيني الكاثوليكي) أمبراطوراً على القسطنطينية وتوج في مايو ١٢٠٤م في كنيسة آيا صوفيا ... وانتخب توماس موروسيني (البندقي اللاتيني الكاثوليكي) بطريركاً على كنيسة القسطنطينية الارثوذكسية(٣٢) .

وهكذا سقطت الامبراطورية البيزنطية بيد اللاتين ، وحل محلها عدد من الدويلات اللاتينية الاوروبية الاقطاعية ، ورغم أن الحزب الوطني بقيادة ثيودور لاسكاريس قد أقام أمبراطورية في نيقية(٣٣) ، ورغم أن البيزنطيين قد اعتبروا أن الامبراطورية الأخيرة هي الامبراطورية الشرعيّة ، ورغم أن الامبراطورية اللاتينية التي أقيمت في القسطنطينية عام ١٢٠٤م قد سقطت عام ١٢٦١م ، وعادت الامبراطورية البيزنطية الشرعية الى مقرها الشرعي(القسطنطينية) على يد آل باليولوجوس عام ١٢٦١م ، الا أن الامبراطورية البيزنطية لم تسترجع تألقها ونفوذها السابقين(٣٤) .

ومهما يكن من أمر فقد نجحت القوى الايطالية في حلّ المسألة البيزنطية عن طريق احتلالها ، بعد محاولات تمتد أكثر من قرن إلى الوراء . محاولات بدأها روبرت جويسكارد عام ١٠٨١ ـ ١٠٨٥م وابنه بوهيموند عام ١١٠٧ ـ ١١٠٨م ، وروجر الثاني عام ١١٤٧ ـ ١١٥٠م ، ووليام الثاني عام ١١٨٥م .

ولما كان المفروض في الحملة الصليبية الرابعة أن يكون هدفها الاساسي هو مهاجمة

---

(31) Ibid., PP. 88—92; Chronical Of Morea, PP. 92—93;

أيضاً : كلاري : ص١٢٢ ـ ١٢٣

(32) Villehardouin, PP. 93—97; Chronical Of Morea, PP. 93—95;

أيضاً : كلاري : ص١٠٩

(33) Villehardouin, P. 110;

أيضاً كلاري : ص١٢١

(34) Vasiliev, Op. Cit., 11, P. 469.

مصر ، فإن تحولها عن هدفها هذا واتجاهها من البندقية إلى مدينة زارا ثم إلى القسطنطينية ، يثير تساؤلاً حول سر هذا التحول ودور البندقية فيه ؟

إن مسألة انحراف الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية تشكّل ظاهرة بالغة التعقيد في تاريخ العصور الوسطى وما زال الجدل مستمراً . ذلك أن المؤرخين المحدثين انقسموا في موقفهم من مسألة انحراف الحملة الصليبية الرابعة الى مدرستين . المدرسة الأولى تقول بأن تحويل الحملة كان نتيجة لظروف طارئة ولم يكن نتيجة لخطة مرسومة مسبقاً من إحدى القوى ، وهؤلاء يسمّون باتباع «نظرية الصدفة» theoris du hazard . والمدرسة الثانية تقول أن تحويل هذه الحملة كان نتيجة خطة متعمدة ومدروسة ، وهؤلاء يطلق عليهم اسم اتباع «نظرية التعمد»(٣٥) .

وحتى عام ١٨٦٠م لم تخضع مسألة تحويل الحملة الرابعة للمناقشة وذلك لأن كل المؤرخين اعتقدوا في صحة كل ما قاله المؤرخ المعاصر والمشارك لهذه الحملة وهو فيل هاردوان والذي عرض حوادث الحملة الصليبية الرابعة على أنها مجموعة مصادفات ، ولم يشر اطلاقاً الى أية خيانة أو خطة متعمدة من البنادقة أو الصليبيين أو البابوية أو الملك الألماني .

وفي عام ١٨٦١م اتهّم العالم الفرنسي لاتري Mass- Latrie(٣٦) البندقية ـ التي كان لها مصالح تجارية هامة في مصر ـ بأنها وقّعت اتفاقاً سرياً مع سلطان مصر ، مما أدى الى ضغط البنادقة على الصليبيين ثم تم تغيير مجرى الحملة عن هدفها الاصلي واتجهت لاحتلال القسطنطينية .

وبعد فترة قصيرة دفع العالم الألماني كارل هوبف Karl hoph(٣٧) نظرية ماس لاتري إلى الأمام وحاول اثبات خيانة البنادقة للقضية الصليبية مؤكداً أن المعاهدة التي وقّعها البنادقة مع سلطان مصر ـ والتي أشار اليها ماس لاتري ـ قد وقعت بالفعل في ١٣ مايو من عام ١٢٠٢م .

وبعد ذلك قام العالم الفرنسي هانوتو Hanotaux(٣٨) بدحض نظرية ماس لاتري

(٣٥) انظر مناقشة بعض هذه النظريات عند فازيلييف :

Vasiliev, Op. Cit., 11, PP. 457 FF.

(36) Masslatrie, Hist. De L'ile De Chypre, 1, PP. 162— 63.

(37) Kerl Hoph, Geschichte Griechenlands, 1, P. 188.

(38) Hanotaux, Les Venetiens Ont— Ils Trahi La Chrètienté en 1202? in RH, Iv (1887), PP. 74— 102.

وبالتالي نظرية كارل هوبف ، وقال أنه إذا كان البنادقة هم المحرضون الرئيسيون في تغيير اتجاه الحملة الصليبية الرابعة فإن لديهم دوافع واضحة وهي الرغبة في اخضاع زارا من جهة وارجاع الامير البيزنطي والثأر من الكسيوس الثالث انجيلوس ـ المتربع آنذاك على العرش البيزنطي ـ بسبب تعاطفه مع البيازنة من جه ثانية ، وبالتالي الحصول على الفائدة فيما اذا توزعت الامبراطورية الى أجزاء . . . ك دحض هانوتو نظرية ماس لاتري وهوبف القائمة على اتفاق مزعوم بين مصر والبندقية . . . هانوتو بأنه اذا أصبح البنادقة خونة فان ذلك ليس نتيجة اتفاقهم السري مع المسلمين وعلى وجه الحصر بسبب أنهم وضعوا نصب أعينهم دائماً تحقيق مصالحم التجار . . في الامبراطورية البيزنطية .

وفي عام ١٨٧٥م قال العالم الفرنسي الكونت دي ريان(٣٩) .Count de Riant . أن المحرض الرئيسي في تغيير اتجاه الحملة الرابعة لم يكن الدوج البندقي داندولو ولكنه ملك المانيا فيليب سوابيا ، ويرى الكونت ريان في تغيير اتجاه الصليبية الرابعة انه حلقة أو مظهر من مظاهر الصراع الطويل بين البابوية والامبراطورية وربما أمل فيليب في أن نجاح الحملة سوف يمكّنه من الانتصار في صراعه ضد البابا ومنافسه على العرش الألماني اوتو بورنسويل (٤٠) .

وفي مطلع القرن العشرين فنّد العالم الروسي فاسيليفسكي Vasilievsky نظرية ريان وبرهن أن فرار الكسيوس الرابع الى الغرب الاوروبي لم يحدث ـ كما اعتقد كل المؤرخين ـ عام ١٢٠١م وإنما حدث عام ١٢٠٢م(٤١) .

وبعد ذلك عاد العالم الفرنسي تسيير Tessier(٤٢) إلى الرأي الذي ساد عام ١٨٦٠م وهي نظرية الصدفة اعتماداً على ما قاله فيل هاردوان ، وقال بأن الحملة الرابعة هي حملة صليبية فرنسية وفتح القسطنطينية لم يكن انتصاراً المانياً أو بندقياً وانما كان انتصاراً فرنسياً .

---

(39) Count De Riant, «Innocent Vol. 111, Philippe De Souabe Et Boniface De Montferrat,» 'in Ravue Des Questions Historiques, Vol. 18 (1875), PP. 5—75.

(٤٠) يعتقد «فازيليف أنه على الرغم من أن فيليب كان يطالب بحقوق له في الامبراطورية البيزنطية كأخيه هنري السادس إلا أنه لم يمتلك خطة (أي فيليب) أو مشروعاً بشكل توقف عليه مصير الحملة الرابعة .
Vasiliev, Op. Cit., Vol. II, PP. 457-58.

(41) Vasiliev, 11 P. 457.

(42) Tessier, J., La Quatrieme Groisade— La Diversion Sur Zura Et Constantinople, (Paris 1884), PP. 183— 84.

وأخير نشر العالم هنري جريجوري Henri Grégoire بحثا تحت عنوان «مسألة انحراف الحملة الصليبية الرابعة»(٤٣) حاول فيه أن يثبت أن بونيفاس مونتفرات هو المسؤول عن تحويل الحملة الى القسطنطينية وذلك بالتعاون مع فيليب السوابي الذي كان يحمل أطماع شقيقه هنري السادس في الامبراطورية البيزنطية،وقد اعتمد هذا الباحث في نظريته على ما رواه المؤرخ المعاصر روبرت كلاري من أن بونيفاس كان قد أخبر الصليبيين وهم في مدينة زارا ـ عند نهاية عام ١٢٠٢م أو بداية عام ١٢٠٣م ـ أنه كان قد قابل في عيد الميلاد السابق (ديسمبر ١٢٠١م) الأمير البيزنطي الكسيوس ابن اسحق في بلاط الملك الالماني فيليب السوابي ؟ ويقول هذا الباحث أنه بعد ثلاثة أشهر من هذه المقابلة التي يخبرنا بها بونيفاس تم انتخاب الأخير قائداً للحملة بدلاً من ثيبوت . ولهذا يربط الباحث بين المقابلة التي تمت بين بونيفاس وبين الأمير البيزنطي من ناحية وبين انتخاب الأول قائداً للحملة من ناحية أخرى . كما اعتمد هذا الباحث في فرضيته على العلاقات العريقة التي تربط آل مونتفرات وبيزنطة والمصالح السياسية لهذه العائلة في الامبراطورية البيزنطية والشرق عموماً . ويصل هنري جريجوري أخيراً إلى أن عدم اعتلاء بونيفاس عرش الامبراطورية اللاتينية الجديدة في القسطنطينية إنما يعود الى معارضة البابا انوسنت الثالث الذي كان يكره فيليب سوابيا ـ حليف بونيفاس مونتفرات ـ فضلاً عن أنه كان لا يثق في بونيفاس نفسه ، مما جعل الأحداث في النهاية تخدم مصالح الفريق الثالث وهم البنادقة .

حقيقة أن الاستيلاء على القسطنطينية وتقسيم الامبراطورية البيزنطية لم يكن نتيجة عفوية لسلسة غيرةمتوقعة من الأحداث ، بل على العكس ان انحراف الحملة الرابعة كان مقصوداً منذ البداية . فالنظرة الموضوعية للتاريخ تعلّمنا أن الأحداث التاريخية مرتبطة بشروط الزمان والمكان وأن التاريخ يسير وفق قوانين موضوعة لا تمليها الصدف والظروف الطارئة وإنما تنبع من الحركة العميقة لحياة البشر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومن حقنا أن نمحص آراء الآخرين ولكننا لسنا ملزمين بقبولها دون اقتناع وذلك لان هدفنا الأول هو البحث عن الحقيقة التاريخية وهدفنا الأخير

(43) Grégoire, H., «The Question Of Diversion Of The Fourth Grusade», In Byzantion, Vol. 15, (Boston, 1941), PP 158— 66.

فهم الحدث التاريخي فهماً موضوعياً في ضوء هذه الحقيقة .

في الواقع لا نستطيع فصل الدور الذي لعبته البندقية ـ وبقية الجمهوريات الايطالية في تحويل الحملة الرابعة ـ عن المجرى العام لتطور العلاقات الاقتصادية بين البندقية والامبراطورية البيزنطية خلال القرن الثاني عشر . وقد رأينا خلال هذه الدراسة كيف حرّكت البندقية ـ بمهارة متناهية ـ سياستها بين المسلمين والنورمان والبيزنطيين والألمان نحو هدفها الكبير هو احتكار تجارة عالم البحر المتوسط .

كذلك بيّنا بوضوح خلال البحث كيف أن أزمة العلاقات الاقتصادية والسياسية بين البندقية والقسطنطينية بدأت منذ أواسط القرن الثاني عشر ، وانها وصلت الى الذروة في موجة المصادرات والاعتقالات التي قام بها مانويل كومنين للبنادقة وممتلكاتهم ، المقيمين في القسطنطينية عام ١١٧٠ وعام ١١٧١م ، وكيف انفجرت الأزمة بشكل أكثر عنفاً من خلال مذابح عام ١١٨٢م ؛ وأوضحنا أن العلاقات بين البندقية وبيزنطة قد استمرت متوترة وتنذر بأحداث خطيرة منذ ذلك الوقت رغم محاولات الأباطرة البيزنطيين التي استهدفت استرضاء الجمهوريات التجارية الايطالية .

وقبيل الحملة الصليبية الرابعة فإن العلاقة بين البندقية والكسيوس الثالث أنجيلوس (١١٩٥ ـ ١٢٠٣م) كانت سيئة للغاية . وعلى الرغم من أن الكسيوس هذا وقّع معاهدة مع البندقية عام ١١٩٩م إلا أنها لم تُنفّذ ، في حين كان الشعور العدائي بين الطرفين يزداد يوماً بعد آخر،فلم يكن هذا الامبراطور يستسيغ تفوق البندقية في تجارة امبراطوريته ، ولذا فانه شجع منافستها وهي مدينة بيزا . وطبقاً لما رواه نيقتاس فإن الامبراطور الكسيوس الثالث انجيلوس أثار حرباً بين بيزا والبندقية فضلاً عن أن الحكومة الامبراطورية آنذاك تجاهلت الحقوق التي مُنحت للبنادقة بموجب المعاهدات المعقودة بين بيزنطة والبندقية ، في حين كانت هذه الحكومة توسّع الامتيازات الممنوحة لكل من جمهوريتي بيزا وجنوه(٤٤) .

ولهذا نظر البنادقة ـ الذين اعتادوا منذ وقت طويل أن تكون لهم اليد العليا في أسواق الامبراطورية ـ بعينٍ ملؤها الغيرة والحسد للامتيازات المتزايدة التي يحصل

(44) Nicetas, In C.S.H.B., PP. 712— 13.

عليها جيرانهم (البيازنة والجنوية) ، وتطلعوا الى تغيير «الحكومة البيزنطية» حتى يتسنى لهم استرداد مكانتهم السابقة،وربما يستطيعون ـ عندئـذ ـ كبـح جمـاح القرصنـة المتعاظمة والتي لا تجني منها البندقية ـ ذات التجـارة الواسعـة ـ بقـدر ما تخسر وتفقد(٤٥) .

ولذا فإننا عندما نناقش دور البندقية في الحملة الصليبية الرابعة فانه يجب أن نأخذ بعين الاعتبار القضايا التالية :

أولاً : إن الاهداف العظمى التي عملت البندقية من أجلها منذ أواسط القرن العاشر وحتى الحملة الرابعة إنما هي احتكار التجارة الشرقية عموماً وبناء امبراطورية تجارية تتحكّم باقتصاديات عالم البحر المتوسط .

ثانياً : إن المستعمرة البندقية الموجودة بالقسطنطينية قد تعرّضت خلال عقد من الزمن تقريباً (١١٧٠ ـ ١١٧١م ، ١١٨٢م) الأكثر من نكبة «الاعتقال والمصـادرة والمذابح» ، ولـم ينس البنادقـة هذه الأحـداث ؛ خاصـة وأنهم لم يحصلـوا على التعويضات التي طالبوا بها عن الخسائر التي لحقت بهم نتيجة تلك النكبات ، أو بالأحرى بالشكل الذي يرغبون به(٤٦) .

ثالثاً : تصاعد كراهية البيزنطيين ـ شعباً وحكومة ـ للبنادقة المقيمين أو الزائرين للأراضي البيزنطية .

رابعاً : اقـدام الاباطـرة البيزنـطيين على توسيع امتيازات البيازنـة والجنـوية في الامبراطورية ، على حساب حقوق البنادقة وامتيازاتهم ، خاصة في فترة آل انجيلوس (١١٨٥ ـ ١٢٠٣م)(٤٧) ، وهذا بدوره شكلّ خطراً كبيراً على الأهداف العظمى لتجارة البندقية .

ان هذه الاعتبارات ـ وغيرها ـ هي التي كيّفـت موقف البنـدقية من الحملـة الصليبية الرابعة ؛ وهي التي كانت تدور في أذهان البنادقة وهم يلعبون دورهم بمهارة في تحويل الحملة الصليبية الرابعة . يضاف الى ذلك كله شخصيّة الدوج انريكو دوندولو الذي كان المحرك الرئيسي في هذه الحملة . فعلى الرغم من أنه كان في الثمانين ـ ان لم

(45) Fotheringham,. Op. Cit., PP. 32—33.
(46) Vasiliev, Op. Cit., Vol. 11, PP. 458—59.
(47) Grégoire, H., Op. Cit., P. 161.

يكن أكثر ـ من عمره . عندما اعتلى عرش الجمهورية الا أنه كان يفوق الشباب حيوية ونشاطاً ووطنية فمن يقرأ المصادر الأصلية للحملة الرابعة يشعر أن الدوج انريكو هو القائد الأول لهذه الحملة ـ البنادقة والصليبيين على حد سواء ـ فهو ينصح القادة الصليبيين الذين كانت تبدو لهم «نصائحه» «مقبولة ومعقولة» دائماً ؛ فضلاً عن ذلك فان الدوج كان يمتلك معلومات دقيقة عن جغرافية بيزنطة واقتصادياتها ويعرف المناطق والجزر الخصبة منها والقاحلة ، ويعرف نوعية انتاج كل منطقة(٤٨) ؛ يضاف الى ذلك أن انريكو كان يدرك المصالح العليا لجمهوريته والأهداف الاقتصادية الكبرى التي يعمل البنادقة من أجلها ، ناهيك عن أنه كان خبيراً اقتصادياً من الطراز الأول . وهناك رواية مفادها أن الدوج انريكو هذا سبق له أن زار مدينة القسطنطينية(٤٩) ، ويحتمل انه كان في المدينة الأخيرة أثناء احداث عام ١١٧١م التي صادر فيها مانويل كومنين ممتلكات البنادقة واعتقلهم ، وأن البيزنطيين قد وجهوا الى عينيه ـ أثناء وجوده في القسطنطينية ـ أشعة الشمس عن طريق مرآة مقعرة مما أدى الى فقدانه بصره(٥٠) . ولهذا فانه كان لا يزال يحقد على البيزنطيين .

وكان أن أدرك داندولو بأن المنجم الذي لا ينضب لمصادر الثروة هو الشرق عامة ، المسيحي منه والاسلامي ، واقتنع في الوقت ذاته بأن الطريق الوحيد لحماية المصالح العليا للجمهورية في هذا الشرق هو وضع الامبراطورية البيزنطية تحت ادارة البنادقة(٥١) . ومن هنا ظهرت مصلحة البندقية في غزو الامبراطورية البيزنطية أكثر من مصلحة أي أمير ايطالي أو فرنسي ، بل ربما اقتنعت الجمهورية بوجهة نظر الجاليات البندقية التجارية المنتشرة في أنحاء الامبراطورية البيزنطية عامة والقسطنطينية بشكل خاص أن المصلحة التجارية العليا للجمهورية تُوجب نقل مقر الحكم من البندقية الى القسطنطينية كما فعل قنسطنطين ، في بداية القرن الرابع للميلاد ، عندما نقل العاصمة من روما الى القسطنطينية(٥٢) . ولهذا كله قررت الجمهورية أن تضرب بجرأة في مركز السلطة وتضع الاسس العملية لسيادتها ومجدها التجاري في

(48) Villehardouin, Op. Cit., P. 59.
(49) Ibid., P. 59.
(50) Vasiliev, Op. Cit., Vol. 11, P. 452.
(51) Cam. Med. Hist. Vol. P. 276.
(52) Hodgson, Venice, P. 409.

القسطنطينية نفسها وسط حطام الامبراطورية البيزنطية وعلى انقاضها(٥٣) .

ولم يكن للبنادقة الدور الرئيسي في توجيه الحملة الصليبية واحداثها فحسب وانما أيضاً في تقسيم هذه الامبراطورية وتوزيع المناصب والغنائم والمناطق أيضاً . ذلك أن الدوج رفض أن يرشّح نفسه لمنصب الامبراطور في القسطنطينية ، وأيد ترشيح بلدوين ـ كونت الفلاندر ـ لهذا المنصب(٥٤) . وفي الوقت ذاته عارض ترشيح الامير الايطالي بونيفاس مونتفرات لهذا المنصب . ويعتقد عدد من المؤرخين المحدثين ان معارضة انريكو لترشيح بونيفاس يعود الى عدة أسباب أهمها :

أولاً : إن بونيفاس كان رجلاً قوياً وخشي الدوج أن تتحول الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ـ في ظل بونيفاس ـ الى قوة كبرى ربما تتعارض مصالحها مع مصالح البندقية ؛ بينما بلدوين اضعف من أن يقاوم نفوذ البندقية(٥٥) .

ثانياً : إن ممتلكات بونيفاس في لمبارديا ـ قريبة جداً من مدينة البندقية ـ مما يسهل عليه غزو أراضي البندقية بينما كانت ممتلكات بلدوين ـ كونت الفلاندر ـ بعيدة عن جمهورية البندقية(٥٦) .

ثالثاً : كان بونيفاس حليفاً لملك ألمانيا فيليب السوابي(٥٧) الذي كانت أطماعه في ايطاليا تشكّل خطراً على مصالح البندقية .

رابعاً : لقد خشي الدوج انريكو ـ في حالة اعتلاء بونيفاس مونتفرات عرش الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينة ـ أن يقوم الأخير بعقد اتفاق مشترك مع جنوه ، خاصة وان العلاقات التقليدية بين جنوه وبين عائلة مونتفرات عامة وشخصية بونيفاس بشكل خاص كانت وطيدة(٥٨) . ولعل ما قاله المؤرخ روبرت كلاري يؤكد لنا النقطة الأخيرة ، فقد قال هذا المؤرخ إن بونيفاس هو القائد الصليبي الوحيد الذي نصح الصليبيين ـ أثناء الاستعداد للقيام بالحملة الرابعة ـ بضرورة الاتصال بجمهورية «جنوه» أو بيزا أو البندقية لتأمين نقل القوات الى مصر(٥٩) .

---

(53) Ault, Op. Cit., 345.
(54) The Chronical Of Morea, PP. 94— 95.
(55) Fotheringham, Op. Cit., P. 35.
(56) Vasiliev, Op. Cit., Vol. 11 PP. 462— 63.
(57) Tout, Op. Cit., Vol. 11, PP. 347— 48.
(58) Fotheringham, Genoa And The Fourth Crusade, P. 36.

(٥٩) انظر : روبرت كلارى : ص٤٠ .

ويعتقد أحد المؤرخين(٦٠) ان بصيرة الدوج خانته تلك المرة لانه لم يكن من مصلحة البندقية أن تكون الامبراطورية اللاتينية الجديدة في القسطنطينية ضعيفة ، بل إن مصلحة البندقية وتفوقها التجاري يقتضي أن تكون الامبراطورية قوية وصامدة لمواجهة الاعداء في الخارج والاضطرابات في الداخل ، خاصة وقد سبق للبندقية أن اختبرت بنفسها تجربة الحكم الضعيف المتقلقل في القسطنطينية منذ وفاة مانويل كومنين وحتى الحملة الصليبية الرابعة . ولكن رغم أنه كان ذلك من مصلحة البندقية أن تكون الامبراطورية قوية الا أن همّها الأول كان أن تدعم الامبراطورية الجديدة مطالب البندقية المتعلقة بالاحتكار التجاري ، ومهما يكن الإمبراطور الجديد فإنه مدان بمنصبه هذا إلى البندقية . وعلى هذا سيكون مستعداً ـ على سبيل المكافأة ـ أن يمنح البندقية امتيازات تفوق امتيازات سائر المدن الايطالية الاخرى ، بل والاكثر من ذلك ـ كما أشار نيقتاس ـ فقد كان من الضروري بالنسبة للبندقية ألا يكون الامبراطور الجديد صديقاً لجنوه وبيزا(٦١) ، وربما من هنا جاءت معارضتها لترشيح بونيفاس مونتفرات .

بعد أن رفع البنادقة الى عرش الامبراطورية اللاتينية الشخصية التي يرغبونها ـ كما أسلفنا ـ وبعد أن أصبح توماس موروسيني بطريركاً كاثوليكياً على كنيسة القسطنطينية الارثوذكيسة ، حسب اتفاق مسبق بين الصليبيين والبنادقة(٦٢) ، حصلت البندقية على حصة الأسد من الغنائم والأسلاب والمنهوبات والمناطق ، التي نتجت عن احتلال الحملة للقسطنطينية وتقسيم الامبراطورية . ذلك أن البنادقة حصلوا على كميات كبيرة من الذهب والفضة ، وقدّر فيل هاردوان ما حصل عليه البنادقة بـ /٥٠/ ألف ماركاً من الفضة(٦٣) ، فضلاً عن كميات كبيرة من الغنائم غير النقدية مثل الأقمشة والمنسوجات الحريرية والأحجار الكريمة ومحتويات الكنائس والايقونات الثمينة ، بل وكل ما هو ثمين على وجه هذه الأرض والتي تم نهبها من القصور الملكية والكنائس والأديرة وبيوتات الأهلين(٦٤) وبذلك غصت كنيسة القديس مرقص

(60) Fotheringham, Op. Cit., P. 35.
(61) Nicetas, Op. Cit., P. 789.
(62) Chronical, Of Morea, PP. 93— 95; Villehardouin, PP. 96— 97.
(63) Villehardouin, PP. 93— 95.
(64) Ibid., PP. 92— 95.

بالثروات والأسلاب المنهوبة من مدينة القسطنطينية ، والأحصنة البرونزية الأربعة التي كانت تزيّن ميدان السباق في القسطنطينية ، والتي انتزعها الدوج انريكو من القسطنطينية ، لا زالت الى اليوم تزيّن مدخل كتدرائية القديس مرقص في البندقية ، وتذكّر ، في الوقت ذاته، بذلك الحادث العظيم الذي أتاح للبندقية امبراطورية في الشرق(٦٥) .

وفضلا عن ذلك وأهم منه أن البندقية حصلت ـ نتيجة اتفاقية تقسيم الامبراطورية البيزنطية التي وقّعها البنادقة والصليبيون عشية فتح القسطنطينية على يد اللاتين ـ على ⅜ القسطنطينية (أي ربع ونصف ربع العاصمة) وعلى عدد من أهم المدن والجزر والمواقع في الامبراطورية مثل : مدينة دورازو على الساحل الشرقي للادرياتي ، وعلى كورون Coronومودون في شبه جزيرة البيلوبونيز (المورة) ، وعلى مدينة هرقلية Heraclea وادرنه في تراقيا ، وعلى جاليبولي Gallipali على ساحل بحر مرمرة ؛ اضافة الى أهم الجزر البيزنطية مثل سيفالونيا Cephalonia وزانث Zacynthos وكريت Grete وايوبيا Euboea وناكوس Naxos وساموس Sanos واندروس Andros وليبسوس Lesbos وغيرها من أهم جزر بحر ايجه(٦٦) واصبح دوج البندقية ـ نتيجة هذه المواقع الهامة ـ يتحكّم عملياً في أربعة بحار وهي الادرياتي وايجه ومرمرة والأسود(٦٧) . ومنذ ذلك الوقت اتخذ دوج البندقية لقب «سيد الربع ونصف ربع جميع الامبراطورية البيزنطية» وظل خلفاء داندولو يستعملون هذا اللقب حتى منتصف القرن الرابع عشر(٦٨) . وفي الوقت ذاته فقد أُعفي الدوج من تقديم فروض الاحترام والطاعة للامبراطور اللاتيني الجديد(٦٩) .

واذا تأمّلنا مليّاً هذه المواقع التي حصلت عليها البندقية وتوزعها الجغرافي ، نجدها كلها أراضٍ خصبة ومواقع تجارية ممتازة ونقاط عسكرية هامة . وتجدر الاشارة إلى أن

(65) The Chronical Of Morea, P. 97, N. 68.

(٦٦) انظر تفاصيل ذلك عند :
Tout, vol. 11, p. 348; Painter, p. 52; Diehl, Hist. of the Byzantine Empire, p. 139; vasiliev, vol. 11, pp. 462-66; Stephenson, p. 439; Ostrogorsky, p. 376; Luzzato, pp. 77-78' Vryonis, p. 160

(٦٧) بور : ص ٥٣ .

(68) The chronical of Morea, p. 97, n. 68; Tout, vol. 11, pp. 348.
(69) Vasiliev, vol. 11, pp. 462-64.

عدد سكان جمهورية البندقية كان لا يتناسب على الاطلاق مع هذه الأماكن والمساحات الشاسعة التي حصلت عليها الجمهورية ، وبالتالي لم يكن بامكانهم الاحتفاظ بها كلها ، ولهذا فقد تنازلت الجمهورية عن حقوقها في المواقع البرية واحتفظت فقط بأهم المواقع الساحلية ، فضلاً عن أهم الجزرذات الاهمية الاقتصادية والاستراتيجية والتجارية في الادرياتي ومرمرة وايجة والأسود(٧٠) .

ومع أن بعض الكتاب تناولوا باستفاضة دور البندقية في الحملة الصليبية الرابعة ، إلا أن قلة ضئيلة منهم كتبوا عن دور بيزا وجنوه في هذه الحملة وعما كسبه أو خسره الجنوية والبيازنة ، نتيجة هذه الحملة ، أو بتعبير آخر تأثير هذه الحملة ـ التي كانت عملياً بقيادة البندقية ـ على تجارة جمهوريتي جنوه وبيزا ومستقبلهما في الامبراطورية اللاتينية الناشئة .

وهكذا فإن حصيلتنا ضئيلة عن الدور الذي لعبته جمهوريتنا جنوه وبيزا في أحداث الحملة الصليبية الرابعة . وقد أشار كل من المؤرخين المعاصرين ـ فيل هاردوان وكلاري ـ إشارة خفيفة الى هاتين الجمهوريتين . فالمؤرخ كلاري قال أن بونيفاس مونتفرات كان قد نصح الصليبيين بضرورة الاتصال ببيزا أو جنوه أو البندقية لتأمين نقل القوات الصليبية الى مصر(٧١) . أما المؤرخ فيل هاردوان فقال انه بعد أن تم توقيع المعاهدة مع البندقية بشأن نقل الصليبيين ، اتجه قسم من اللجنة ، التي وقّعت المعاهدة مع البندقية ، الى جمهورية بيزا وجمهورية جنوه للبحث في امكانية تقديم مساعدة من هاتين الجمهوريتين الى الحملة الصليبية(٧٢) . ولكن لم يتعرض هذان المؤرخان الى أي دور لهاتين الجمهوريتين في هذه الحملة غير هاتين الاشارتين . بل إننا نستبعد أن يكون لجنوه وبيزا دور في تحوّيل هذه الصليبية ضد القسطنطينية وذلك اعتماداً على الوضع المتحيز والاستثنائي الذي حصل عليه البيازنة والجنوية في الامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور الكسيوس الثالث انجيلوس ، والذي لم يحصلوا عليه على الاطلاق في أي فترة سابقة من علاقاتهم ببيزنطة ، علماً أن هذا

---

(70) Luzzato, op. cit., pp. 77-78.

(٧١) كلاري : ص ٤٠ .

(72) Villehardouin, op. cit., p. 35.

الوضع الممتاز للجنوية والبيازنة في القسطنطينية قام أساساً على حساب امتيازات وحقوق البنادقة ؛ فكيف ـ والحالة هذه ـ سيشترك البيازنة والجنوية مع البنادقة في توجيه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية ؟ ولهذا نستبعد أن يكون لهاتين الجمهوريتين أي دور في توجيه هذه الحملة ضد بيزنطة .

ثم إن الهدف المباشر للبندقية بعد قيام الحملة الرابعة صار كبح جماح البيازنة والجنوية ، الذين غدا لهم مركز متميز في القسطنطينية،ولم يلبث هذا الهدف بالنسبة للبنادقة أن فاق أي اعتبار صليبي أو روحي ؛ ومن جهة اخرى فقد توقّع البيازنة والجنوية أن يضعف مركزهم في القسطنطينية اذا احتل الصليبيون والبنادقة القسطنطينية . ولهذا رمى البيازنة بالذات ثقلهم مع البيزنطيين ضد الغزاة (الصليبيين والبنادقة) ، ووقفوا الى جانب الامبراطور الكسيوس الثالث أنجليوس في الدفاع عن العاصمة ضد الكسيوس الرابع انجيلوس المدعوم بالقوات الاجنبية (الصليبية والبندقية)(٧٣) ولم ينل البيازنة ثمن مساعدتهم وتحالفهم مع الكسيوس الثالث لأنهم ـ كما اثبتت مجريات الاحداث ـ قاتلوا الى جانب الطرف الخاسر .

ان الحرائق التي اندلعت في القسطنطينية ((غسطس ١٢٠٣م) والتي التهمت أحياء ومخازن واسواق ومستودعات الجاليات التجارية الايطالية كانت نقطة تحوّل بالنسبة الى الجاليات البيزاوية والجنوية المقيمة في القسطنطينية وموقفهم من الأحداث الدائرة(٧٤) . فالبيزنطيون ـ الذين هاجموا هذه الأحياء ـ لم يفرّقوا بين احياء البيازنة والجنوية ـ الذين يقفون الى جانبهم ضد البنادقة والصليبيين العزاة ـ وبين أحياء البنادقة ، وهذا أجبر كل الايطاليين (البيازنة والبنادقة والجنوية) القاطنين في القسطنطينية على ترك مستوطناتهم ـ التي لحقها الدمار بفعل الحرائق ـ والتجأوا مصطحبين معهم زوجاتهم واطفالهم وثرواتهم وممتلكاتهم التي تمكّنوا من انقاذها من الحرائق ـ إلى المعسكر الصليبي ـ حول القسطنطينية ـ حيث وجدوا فيه الأمان والحماية من غضب الشعب البيزنطي(٧٥) .

---

(73) Fotheringham, «Genoa and the Fourth Grusade» p. 33.

(٧٤) قارن هذه الاحداث بمذابح القسطنطينيه عام ١١٨٢م .

(75) Villehardouin, p. 79.

ولما كان البيازنة في حالة حرب مع البندقية قبيل الحملة الصليبية الرابعة(٧٦) فإنهم كانوا مُهددين بالطرد من الامبراطورية البيزنطية عندما سقطت الأخيرة بيد البنادقة ، ولم يكن بامكان البيازنة الاحتفاظ بامتيازاتهم أو استعادتها إلا بعقد صلح مع جمهورية البندقية(٧٧) .

وكان الأمر أخف قسوة بالنسبة الى جنوه ـ من حيث المبدأ ـ نتيجة علاقاتها الوطيدة بقائد الحملة بونيفاس مونتفرات ، كما أشرنا سابقا ، ولكن رغم ذلك فقد كان الجنوية مُعرّضين لفقدان امتيازاتهم السابقة في الامبراطورية ، أو الحقوق التي قد يمنحها لهم الحكام الجدد في الامبراطورية في حالة نزاعهم مع البندقية .

وبشكل عام فإن بقاء حقوق وامتيازات جمهوريتي بيزا وجنوه في القسطنطينية والامبراطورية اللاتينية اصبحت متوقفة على سياسية هاتين الجمهوريتين تجاه جمهورية البندقية .

ولهذا كله كانت الصليبية الرابعة انتصاراً اقتصادياً وسياسياًلجمهوريةالبندقيةالتي كان رعاياها في بيزنطة ـ قبيل الحملة ـ يعيشون في خطر دائم ومعرضون للطرد من بحر ايجه والمتوسط ؛ ولكن البندقية استطاعت ـ من خلال الحملة الرابعة ـ وبضربة واحدة إعادة سيادتها على طول شواطىء الامبراطورية ، فضلاً عن العاصمة . وبدأت في بناء سيادتها على أسس راسخة وثابتة وليس مجرد امتيازات امبراطورية تمنح لهم(٧٨) ، بل لم تعد الامتيازات الخاصة بالبنادقة في الامبراطورية البيزنطية وقفاً على رغبة الامبراطور ، بل أصبحت الآن جزءاً من دستور الامبراطورية الجديدة(٧٩) .

ويرى بعض الباحثين أن أهم ما حدث في تاريخ التجارة الاوروبية بين سقوط روما بيد البرابرة في أواخر القرن الخامس للميلاد واكتشاف أمريكا في أواخر القرن الخامس عشر ، انما هو الحملة الصليبية الرابعة(٨٠) ، التي وضعت الأسس العملية للامبراطورية التجارية الايطالية عامة والبندقية بشكل خاص ، امبراطورية البرجوازيين التجار ،

---

(76) Nicetas, pp. 712-13.
(77) Fotheringham, p. 34.
(78) Luzzato, p. 77.
(79) Fotheringham, p. 33.
(80) Ault, p. 355.

التي كانت حدثاً اقتصادياً واجتماعياً خطيراً لا في تاريخ المجتمع الأوروبي فحسب وإنما في تاريخ العالم أجمع .

وخلاصة القول إن سقوط القسطنطينية بيد اللاتين يعتبر من الفصول السوداء في التاريخ الأوروبي قاطبة ، فالقسطنطينية التي قاومت الغزوات الأجنبية مدة سبعة قرون ـ بعد سقوط روما ـ سقطت بيد الفرنجة (الصليبيين) والبنادقة عام ١٢٠٤م .

لقد تجسّدت في الحملة الصليبية الرابعة كل الآمال السياسية والاقتصادية والكنسية التي اعتمرت قلوب القوى اللاتينية في الغرب الأوروبي منذ فترة طويلة ، وجاءت هذه الحملة خاتمة «معقولة» للصراع السياسي والاقتصادي والكنسي بين القوى الايطالية والامبراطورية البيزنطية خلال القرن الثاني عشر للميلاد .

وإذا كانت الحملة الصليبية الرابعة ضربة عنيفة و«مصيرية» لبيزنطة ، بحيث لم تصحُ منها الأخيرة ، وفقدت بنتيجتها أهميتها الدولية إلى الأبد ، إلا أن هذه الحملة أيضاً كانت كارثة بالنسبة الى الحركة الصليبية ومستقبلها ، حيث كشفت دفعة واحدة عن هويتها المادية «والاستعمارية» التي حاولت أن تخفيها قرناً ونيفاً من الزمن وراء أوراق التوت ... كشفت أن الثروات المادية أعظم اهمية من الثروات الروحية ...!.

الباب السادس

العلاقات الكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في القرن الثاني عشر للميلاد .

الفصل الأول

الأصول التاريخية للعلاقات الكنسية

بين روما والقسطنطينية

إن بحث العلاقات بين كنيستين مسيحيتين عظيمتين ـ الكنيسة الغربية الكاثوليكية والكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ـ ليس بالمهمة السهلة ، ومحاولة تحديد هذه العلاقات ـ كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين ـ في تباين الممارسات والطقوس بين الكنيستين ، وفي اختلاف التنظيمات الكنسية بين روما والقسطنطينية ، عبث لا طائل تحته ؛ لأن العلاقات بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية هي في حقيقتها العلاقة بين حضارة الشرق وحضارة الغرب ، هي العلاقة بين عالم الشرق ، بقيمه وتراثه وبيئته وعاداته وتقاليده ، وبين عالم الغرب ، بقيمه وتراثه وبيئته وعاداته وتقاليده ، ولهذا فإن الإطار الحضاري هو الإطار العلمي الذي يجب أن توضع فيه مسألة العلاقات بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية في العصور الوسطى .

وربما كان علماء اللاهوت والمؤرخون الكنسيون أجدر بتناول هذا الموضوع من باحث في التاريخ ، ولكن ربما يكون الأخير ـ من ناحية أخرى ـ أقدر على إدراك النتائج السياسية والاقتصادية التي ترتبت على العلاقات الكنسية ، ولذا فإننا سنحاول التركيز على القضايا السياسية والاقتصادية التي تحكمت في العلاقات الكنسية ، دون أن نهمل ، في الوقت ذاته ، المسائل اللاهوتية ، التي كانت موضع الحوار بين الكنيستين ، والتي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بتلك القضايا ، وساهمت في صياغة العلاقات بين روما والقسطنطينية ، في القرن الثاني عشر ، موضوع بحثنا(١) .

---

(١) تقتضي الأمانة العلمية أن أشير إلى أنني اعتمدت ، في علاج فصول هذا الباب ، بشكل رئيسي على مخطوطات جامعة البلمند وعلى مخطوطات دير سانت كاترينا الموجودة في جامعة الاسكندرية وعلى الموسوعة اللاهوتية (البترولوجيا) . فضلاً عن المصادر الصليبية المعاصرة . وكذلك أفدت فائدة كبيرة من بعض الدراسات العلمية الحديثة المعنية بهذا=

والواقع إن الظروف السياسية والاقتصادية والثقافية ، التي ألّمت بالعالم الروماني ، في القرون الأولى للميلاد ، لعبت دوراً هاماً في تكييف العلاقات بين الكنيستين ـ الشرقية والغربية ـ وساهمت إلى حد بعيد في تحديد الإطار العام لمفهوم الإيمان لدى شعوب العالم الروماني في الشرق والغرب في العصور الوسطى .

وعندما نشر الحواريون والرسل الدعوة المسيحية في عالم البحر المتوسط ، في أواسط القرن الأول للميلاد ، كان هذا العالم يشكّل وحدة سياسية وثقافية واقتصادية واحدة ، وذلك في ظل امبراطورية واحدة ، وهي الامبراطورية الرومانية ، وفي ظل عاصمة واحدة ، وهي روما ، وفي ظل ثقافة واحدة ، وهي الثقافة الاغريقية ـ الرومانية(٢) .

ولكن وحدة العالم الروماني أخذت في الإختفاء التدريجي منذ أواخر القرن الثالث للميلاد . وانقسمت الامبراطورية الرومانية الى قسمين : شرقي وغربي . وأخذ كل قسم يشقّ طريقه نحو عالم يختلف عن عالم القسم الآخر . ولا يخفي عنّا أن انقسام الامبراطورية كان في حقيقته تعبيراً عن الفروق الحضارية بين شطريها ، وعن الفروق بين حضارتين مختلفتين ، في العالم الروماني ، بل وعقليتين مختلفتين ونظرتين إلى الحياة والعالم كله مختلفتين . فالقسم الشرقي ، الذي نطلق عليه اليوم اسم الامبراطورية البيزنطية أو الامبراطورية الشرقية أو الاغريقية أو بيزنطة ، كان في غالبيته من الاغريق ، وكانت حضارته هي الحضارة اليونانية ذات الفكر الفلسفي الجدلي ولغته هي اللغة اليونانية ، التي تميزت بالمرونة والرقة والقابلة للتعبير عن أعقد الأفكار المجردة(٣) . أما القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية فقد كان في غالبيته من اللاتين ، وحضارته كانت من بقايا الحضارة اللاتينية ولغته كانت اللغة اللاتينية التي تميّزت بصعوبة المراس وفقر المفردات(٤) .

= الموضوع ، وبخاصة كتاب ستيفن رنسيان «القطيعة الشرقية» وكتاب دفرونيك «قطيعة فوتيوس» وكتاب ايفري «البطريركية البيزنطية» . وفضلاً عن ذلك فقد افدت كثيراً من حواري مع اساتذة التاريخ الكنسي واللاهوت ـ العرب منهم واليونانيين ـ أثناء دراستي في مكتبة بجامعة البلمند .

(2) Ware, T., The Orthodox Church, p. 52.

(3) Runciman, The Eastern Schism, pp. 4,8.

(٤) فمثلا كلمة Filioque في اللاتينية تعني «الانبثاق» ولكن نجد في اللغة الاغريقية أربع كلمات مستقلة يمكن لها أن تعطي =

فاذا كانت وحدة اللغة من العوامل الاساسية التي تؤدي إلى وحدة الفكر ، فإن عدم وجود لغة مشتركة بين شطري العالم المسيحي جعل من الصعوبة بمكان أن يفهم كل منهما الآخر ، أو أن يقرأ أحدهما ما يكتب الآخر . وكانت القلة من بين الطرفين من تعرف لغة الطرف الآخر . وأخذت هذه القلة بالاختفاء تدريجياً منذ انقسام الامبراطورية(٥) . ثم جاء سوء الترجمة ليعمّق الأزمة وليزيد الخلافات بين شطري العالم المسيحي(٦) . ولهذا كله فمن الطبيعي أن يطلّ الناس في القسم الشرقي من الامبراطورية الى الحياة من زاوية غير الزاوية التي أطل الناس منها الى الحياة في القسم الغربي . وقد ظهرت هذه الحقيقة أقوى ما تكون في تفسير المسائل المتعلقة بالعقيدة المسيحية(٧) .

والواقع أن القرن الرابع الميلادي كان قرناً حاسماً في تاريخ المسيحية . فقد حققت المسيحية انتصارها على الوثنية من جهة وفيه بُذرت أولى بذور النزاع بين الكنسية الشرقية والكنسية الغربية من جهة ثانية(٨) . وإذا كان الامبراطور قنسطنطين الكبير (٣٠٥ ـ ٣٣٧م) قد أصدر مرسوم ميلان عام ٣١٣م ، الذي اعترف فيه بالمسيحية كديانة «مرخصة ومساوية للأديان الوثنية القديمة»(٩) ، إلا أنه سرعان ما دعا الى عقد مجمع مسكوني لمناقشة النزاع الذي نشب بين أريوس وأثناسيوس حول علاقة المسيح الابن بالاله الأب(١٠) .

= معنى كلمة «الانبثاق» . انظر :

M.P.G. Vol. 126, pp. 228- 29.

(٥) يُقال أن بطريرك القسطنطينية المسهور والعلامة الذائع الصيت فوتيوس لم يكن يعرف اللغة اللاتينية ، على الرغم أنه عاش في أواسط القرن التاسع انظر :

Ware, The Orthodox Church, pp. 53, 56.

(6) Jugie, Le Schisme Byzantine, pp. 39-42.

(٧) عاسور : أوربا ، ج١ ، ص ٥٧ .

(٨) ان أفضل الدراسات الحديثة عن النزاع بين الكنائس في المرحلة المبكرة من تاريخ المسيحية هو كتاب العالم الكنسي كرينسلاد :

Greenslade, s.L., schism in the early church, london 1964.

(٩) انظر النص الكامل لمرسوم ميلان عند المؤرخ المعاصر يوسابيوس القيصري

Eusebius, The History of the Church, pp. 401-404;

(١٠) عُقد هذا المجمع عام ٣٢٥م في مدينة نيقيه بآسيا الصغرى . ويُعتبر أول مجمع مسكوني ، وترأسه الأمبراطور=

ورغم أن مجمع نيقية المسكوني (٣٢٥م) قد فشل في استئصال الآريوسية ، إلا أن النزاع ذاته ساهم في تقسيم الامبراطورية من الوجهة الدينية ، إذ أخذت الآريوسية في الانتشار في القسم الشرقي من الامبراطورية بشكل مذهل ، في حين أخذت الاثاناسيوسية في الانتشار في القسم الغربي . والجدير بالذكر أن مجمع نيقية وهو أول مجمع مسكوني ، نجح في صياغة بعض القواعد الأساسية للعقيدة والايمان ، لتكون رباطاً فكرّياً يشدّ المسيحيين في شطري العالم المسيحي ، وعُرفت هذه القواعد بقانون الايمان النيقاوي(١١) . كما تمّ الاعتراف رسمياً ـ في هذا المجمع ـ بوجود ثلاث كراسٍ بطريركية في العالم المسيحي مرتّبة بالشكل التالي : روما ، الاسكندرية ، انطاكية(١٢) .

وما كاد هذا المجمع المسكوني يُنهي أعماله حتى بدأ قنسطنطين في تأسيس عاصمة ثانية للامبراطورية في القسم الشرقي ، إلى جانب العاصمة القديمة ـ روما ـ ألا وهي القسطنطينية ، التي دشنها قنسطنطين عام ٣٣٠م لتكون «روما الجديدة» الى جانب روما القديمة ، أو ربما لتأخذ دور العاصمة الامبراطورية(١٣) . وأخذت القسطنطينية تنمو على حساب روما ، خاصة وأن روما الجديدة أعظم موقعاً وثراءً من روما القديمة . ولكن المهم في ذلك أن أسقف القسطنطينية كان حتى ذلك الوقت مجرد أسقفٍ مساعدٍ لرئيس أساقفة هرقلية . وهذا ـ بطبيعة الحال ـ لا يتناسب مع العاصمة الجديدة ،

= قنسطنطين الكبير نفسه وحضره حوالي ٣١٨ أسقفاً . وكانت مهمته مناقشة النزاع الذي نشب بين اثنين من قساوسة الاسكندرية وهما ، أريوس واثاناسيوس ، ولقد اعتقد اريوس أن المسيح (الابن) أدنى مرتبة من الاله (الأب) ، والأب وحده ـ في نظر آريوس ـ استحق لقب الاله ، أما الابن فانه لم يكن سوى اله ثانوي منخفض في الرتبة والمنزلة ، وهو مخلوق غير مولود . أي أن رأي آريوس محاولة جديدة لتأكيد وحدانية الأب بينما تمسك خصوم آريوس بولادة الابن من الاب قبل كل الدهور وبمساواة الابن للأب في الجوهر وأن الابن مولود غير مخلوق ، وفي النهاية لعن المجمع آريوس وحرّم آراءه . انظر :

قوانين المجامع والرسل : مخطوط رقم ٦٠٠ ، سيناء ـ عربي ـ ورقة رقم آ و ب .

(11) Fliche et Martin, vol. 111, pp. 85-87;

(١٢) لقد أسس كنيسة روما القديس بطرس بينما أسس كنيسة الاسكندرية القديس مرقص ، أما كنيسة انطاكية فقد أسسها القديسان بطرس وبولس . أنظر :

Eusebius, op. cit., pp. 85-89, 107-153.

(١٣) أنظر دوافع قنسطنطين في تأسيس العاصمة الثانية للامبراطورية . عند :

Vryonis, Byzantium and Europe, pp. 27-28.

التي يتحتم ان يتمتع أسقفها بمقام أكثر علواً ويتناسب مع مقام العاصمة الجديدة . وعلى هذا سرعان ما جاء المجمع المسكوني الثاني عام ٣٨١م ، والذي عُقد في العاصمة الجديدة (القسطنطينية)(١٤) ليقرّر في المادة الثالثة من القوانين التي أصدرها

«أما أسقف القسطنطينية فله التقدم في المنزلة بعد أسقف روما مباشرة لأن القسطنطينية هي روما الجديدة»(١٥) .

ورغم أن هذه المادة لم تهدّد أسقف روما ، كما هدّدت أسقف الاسكندرية ، فقد أخذت العلاقات بين روما والقسطنطينية تسوء ، أو بالأحرى بدأ النزاع بينهما . ذلك أن أسقف روما استشاط غضباً من جرّاء هذا الارتفاع المفاجىء لأسقف القسطنطينية . وافتتح البابا داماسيوس الأول (٣٦٦ ـ ٣٨٤م) أولى صفحات النزاع مع القسطنطينية . حيث عقد مجمعاً محلياً في روما ، في العام التالي لمجمع القسطنطينية (٣٨٢م) ، تم فيه الاحتجاج بشدة على جعل أسقف القسطنطينية بالمرتبة الثانية بعد أسقف روما . وبالتالي رفض الاعتراف بهذه «الترقية» لأسقف روما الجديدة . وأكد مجدداً الترتيب الذي أقرّه المجمع المسكوني الأول بالنسبة للكراسي الأسقفية في العالم المسيحي(١٦) .

لم يكن بإمكان أسقف روما الجديدة ـ التي أسست بعد أكثر من ثلاثة قرون من مولد السيد المسيح ـ التراجع ازاء غضب واستياء روما القديمة التي أُسست وعاشت زهرة أيامها في عهد الوثنية . ولهذا فقد كان على بطريرك القسطنطينية أن يشق طريقه من خلال صراع طويل ليس ضد بطريرك (بابا) روما فحسب وانما ضد بطريرك الاسكندرية أيضا ، الذي استاء بدوره من تقديم أسقف القسطنطينية عليه . ويرى بعض المؤرخين المحدثين أنه لم يكن في نية الآباء الذين حضروا مجمع القسطنطينية (٣٨١م) توجيه الاهانة الى روما القديمة عندما رفعوا من مكانة أسقف روما الجديدة ،

---

(١٤) عُقد هذا المجمع في عهد الامبراطور تيودوسيوس الكبير (٣٧٩ ـ ٣٩٥م) وحضره حوالي ١٥٠ أسقفاً . وكانت مهمته المباشرة تفنيد اراء مقدونيوس الذي علّم أن الروح القدس أقل من الأب والأبن في الجوهر . وعُرف مقدونيوس واتباعه «بأعداء الروح» ولعن المجمع آراء مقدونيوس وحرّمها . انظر : قوانين المجامع والرسل : مخطوط رقم ٦٠٠ سيناء ـ عربي ـ ورقة رقم ٧ أ .

(15) Fliche et Martin, Op. cit., Vol. 111, pp. 386 FF.
(16) Greenslade, S.L., Schism in the early church. pp. 82-83.

أو أن قرارهم هذا يعبّر عن نزعة انفصالية لدى الكنائس الشرقية عن كنيسة روما ، وانما كان مجرد تقديم شيء من المجاملة والتكريم للعاصمة الجديدة من جهة ومحاولة لتحطيم غرور بطريركية الاسكندرية التي أخذ أسقفها أثاناسيوس يخلق الكثير من التعقيدات بسبب تزايد نفوذه وتأثيره في الأوساط المسيحية من جهة أخرى(١٧) .

ومهما يكن من أمر فقد رد أسقف روما ، على رفع أسقف القسطنطينية في المجمع المسكوني الثاني برفع «النظرية البطرسية» بشكل صريح منذ عهد البابا داماسيوس نفسه . ولعل أهم ما تتضمنه النظرية البطرسية هو أن كنيسة روما تأتي في المرتبة الأولى لأن مؤسسها هو القديس بطرس ، الذي تُوفي وهو أسقف عليها ايضا . فضلاً عن أن روما هي العاصمة العريقة للامبراطورية الرومانية . وبما أن مؤسسها هو القديس بطرس فإن أسقف (بابا) روما هو خليفة القديس بطرس . وبما أن الأخير كان أمير الحواريين وبيده مفاتيح السماء وسلطة العقد والحل ، فان خليفته (أي أسقف أو بابا روما) هو أمير أساقفة العالم المسيحي كله ، وبيده مفاتيح السماء وسلطة العقد والحل . ومنذ عهد البابا داماسيوس أصبح تعبير البابوية مرادفاً تماماً لتعبير سيادة كرسي روما أو كرسي القديس بطرس(١٨) .

وجاء المجمع المسكوني الرابع عام ٤٥١م ليدفع بالعلاقات بين روما والقسطنطينية الى مرحلة أكثر تعقيداً(١٩) ، وذلك عندما قرر الآباء المجتمعون بالاغلبية ـ رغم معارضة مندوبي البابا ـ في المادة ٢٨ من القرار الذي صدر عن هذا المجمع : منح أسقف القسطنطينية نفس الامتيازات التي يتمتع بها أسقف روما . كما منح الآباء المجتمعون لقب «بطريرك» الى أساقفة الكنائس الخمس وفقاً للترتيب التالي : روما ، القسطنطينية ، الاسكندرية ، أنطاكية ، بيت المقدس(٢٠) .

(17) Runciman, The Eastern Schism, pp. 13-14; Cam. Med. Hist. vol. IV, pp. 433-35.
(18) Cam. Med. Hist. Vol. IV, p. 433; Vryonis, op. Cit. pp. 36-37.

(١٩) عقد المجمع المسكوني الرابع في مدينة خلقدونية بآسيا الصغرى ، في عهد الامبراطور ماركيان (٤٥٠ ـ ٤٥٧م) وشهده حوالي ٦٣٠ أسقفاً وكانت مهمته الأولى تفنيد آراء أوطوخوس أو اطيخة Eutyches وهو أحد رهبان القسطنطينيه ، الذي قال أن الطبيعة الانسانية في المسيح قد امتزجت بالطبيعة الالهية حتى تلاشت فيها ، ولعن المجمع آراء اوطيخة وحرمه وأقر أن للمسيح طبيعتين ، (لاهوتية وناسوتية) ولكن باقنوم واحد لا ممتزج ولا مفترق . أنظر :
قوانين المجامع والرسل : مخطوط رقم ٦٠٠ سيناء ـ عربي ـ ورقة رقم ٨ أ .

(٢٠) لقد أسس كنيسة بيت المقدس القديس يعقوب . انظر :

وكان أن قوبلت المادة الـ ٢٨ هذه بالرفض والاستياء الشديدين من قبل البابوية التي اعتبرتها امتهاناً للنظرية البطرسية . ولذا أعلن البابا ليو الكبير (٤٤٠ ـ ٤٦١م) احتجاجه على هذه المادة واعتبرها انتهاكاً صارخاً للترتيب الكنسي الذي أقره المجمع المسكوني الأول . وأعلن البابا ـ ليو ـ في ذات الوقت أن كرسي القسطنطينية لم يؤسس على يد أي من الرسل في حين أُسست الكراسي الأخرى على أيدي الرسل الحواريين(٢١)

إذا كانت القسطنطينية قد انتصرت في خلال المجمع المسكوني الثاني في أواخر القرن الرابع ، ومن ثم تأكد انتصارها من خلال المجمع المسكوني الرابع في منتصف القرن الخامس ، فإن روما انتصرت في أواخر القرن الخامس نفسه ، وذلك عندما سقط القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية بأيدي البرابرة الجرمان ، وتحطّمت بفعل ذلك ـ عملياً ـ الوحدة السياسية بين الغرب والشرق المسيحيين . والدليل على ذلك أن المؤسسة الوحيدة التي بقيت سالمة من الدمار ـ بعد الغارات البربرية ـ في الغرب الأوروبي هي الكنيسة . وفي الوقت الذي اختفت فيه معالم السلطة الامبراطورية في القسم الغربي ـ بهروب نواب الأباطرة وحكام المقاطعات والمدن ـ فإن البابا هو الشخصية الوحيدة التي بقيت في موقعها تفاوض الزعماء الجرمان وتدير شؤون المدن(٢٢) . وفي الوقت الذي دمّر الغزو البربري مراكز الثقافة العلمانية في ايطاليا والغرب الأوروبي عامة ، فإن الثقافة الوحيدة التي بقيت ، خلال هذه الفترة المظلمة ، كانت موجودة في الكنيسة ولأجل الكنيسة ورجال الدين فقط(٢٣) . وبهذا كله فقد ازداد النفوذ البابوي ، وأخذ أسقف روما يشق طريقه ليحتل مكان الامبراطور في القسم الغربي من الامبراطورية ، وليصبح حاكماً مطلقاً ومصدراً رئيسياً للتشريع(٢٤) .

ان سقوط القسم الغربي من الامبراطورية بأيدي البرابرة الجرمان وبروز أسقف

= أعمال الرسل : مخطوط رقم ١٧٢ سيناء ـ عربي ـ ورقة رقم ١١ أ .

(21) Diehl, Byzantium, pp. 211-12;

(٢٢) انظر : موس ، ميلاد العصور الوسطى ، الترجمة العربية ، ص ٤٠ .

(23) Ware, The Orthodox Church, p. 56.

(24) Runciman, The eastern Schism, p. 9.

روما ، من خلال التدمير الشامل الذي ألم بكل مظاهر الحضارة في الغرب الاوروبي ، دفع النزاع بين روما والقسطنطينية الى مرحلة أكثر عمقاً وشمولاً في آن واحد . وسرعان ما انعكس ذلك على مفهوم الدين والإيمان لدى شعوب الغرب والشرق ، وبالتالي أصبحنا أمام شعبين يعتقدان باله واحد وبيسوع المسيح وفي الثالوث وفي الاسرار المقدسة ، ولكن تصورهما لهذه العقائد وبالتالي للممارسات كانت مختلفة الى حدٍ بعيد . ففي الوقت الذي اعتقدت فيه القسطنطينية أن المجامع المسكونية سلطة مُلهمة ومؤثرة في مسائل العقيدة والعبادة والتنظيم الكنسي ، كانت روما تعتبر السلطة المطلقة ليست لهذه المجامع وإنما هي لخليفة القديس بطرس ، وان مهمة هذه المجامع ليست سوى التصديق على الآراء البابوية ونشرها(٢٥) . وفي الوقت الذي اعتبر بطريرك القسطنطينية نفسه انساناً يمكن أن يخطيء(٢٦) ، فان اسقف روما اعتبر نفسه معصوماً عن الخطأ بشكل مطلق . وفي الوقت الذي كان فيه الشرق عموماً يُشرك العقل في قضية الايمان ، أو بالأحرى يخضع العقيدة الدينية للجدل الفلسفي ، وكما عبر عن ذلك البابا جريجوري الأول الكبير (٥٩٠ ـ ٦٠٤م) حين قال : «إذا كنا نحن اللاتين لا نملك مهارة الاغريق الفلسفية واللغوية إلا أننا صنّا العقيدة من الزلل»(٢٧) . وكما عبر عن ذلك أحد مؤرخي الأرمن في القرن الثاني عشر للميلاد ، وهو جريجوار الكاهن ، بقوله «ولم يكن لهم شاغل (أي الملوك البيزنطيون) سوى توقيع الضرائب واثارة المناقشات الدينية»(٢٨) . واذا كان الشرق المسيحي كذلك فان الغرب رفض مناقشة حتى القضايا غير الاساسية في مجال العقيدة والايمان ، وفي الوقت الذي لعب فيه الشرقي ، سواء أكان مثقفاً علمانياً أو انساناً عادياً ، دوراً ملموساً في الشؤون

---

(25) Ibid., P. 10.

(٢٦) من المعروف أن المجمع المسكوني الثالث الذي عقد بمدينة افسس عام ٤٣١م كان لمناقشة الآراء التي طرحها بطريرك القسطنطينية آنذاك وهو نسطوريوس (٤٢٨ ـ ٤٣١م) . وقد قال نسطوريوس ان للمسيح طبيعتين ولم يقرّ أن المسيح هو من مريم البتول وانها ولدت إلهاً . ولعن المجمع آراء نسطوريوس وحرمه من الكنيسة وأقرّ أن المسيح ابن الله الوحيد وانه تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء . انظر : قوانين المجامع والرسل : مخطوط رقم ٦٠٠ ـ سيناء عربي ـ ورقة رقم ٧ ب .

(27) Diehl, Byzantum, p. 212.

(28) Grégoire Le Pretre, in R. H. C. Doc. Arm. Vol. p. 193.

الدينية(٢٩) ، وبالتالي وجود رأي عام واضح وناضج إزاء المسائل اللاهوتية في الشرق(٣٠) ، بحيث لم يتردد في توجيه النقد الى الكهنوت والامبراطور معاً ، فإن الفكر العلماني في الغرب كان مفقوداً الى حدٍ بعيد وبالتالي فقد كان الرأي العام في الغرب ساذجاً ومفهوم العقيدة والايمان في أوساطه كان محلياً وصارماً في آن واحد(٣١) .

وفي الوقت الذي قبل فيه الاساقفة الشرقيون أن تكون للامبراطور السلطة «شبه المطلقة» في الشؤون اللاهوتية ، رغم أن هذا لم يكن متوقعاً في بلاد تشبّع أهلها بالعقل الجدلي الفلسفي ، فان اسقف روما رفض تدخل الامبراطور في الأمور الدينية . وفي الوقت الذي وضع فيه الشرقيون الكنيسة في خدمة الامبراطورية ، وربما كانت الكنيسة ديواناً من دواوين الدولة ، فان الغربيين رفضوا ذلك بمنتهى الكبرياء والعنف(٣٢) ، على أساس أن الدولة تقع داخل الكنيسة وليس العكس . وفي الوقت الذي تولى فيه البابا دوراً قيادياً بالنسبة الى كنائس الغرب الأوروبي وتمتّع بسلطة ثيوقراطية ، بعيداً عن أنظار ونفوذ الأباطرة ، فان زميله القسطنطيني كان يفتقر في أكثر الأحيان الى مثل هذه الاستقلالية(٣٣) .

على أن غزو الامبراطور جستنيان في القرن السادس لايطاليا لم يلبث أن وضع البابوية تحت السيادة الامبراطورية وبالتالي أُعتبر البابا واحداً من رعايا الامبراطور . وقد توقّع جستنيان نفسه أن يتلقى الطاعة من الأساقفة الغربيين بشكل مماثل للطاعة التي يقدمها الأساقفة الشرقيون . إلا أن سياسية جستنيان وغيره من الأباطرة الشرقيين تجاه البابوية فشلت فشلاً ذريعاً على المدى البعيد ، لأن البابوية أصبحت قوة معنوية ذات تأثير أدبي في الغرب الأوروبي كله(٣٤) .

---

(٢٩) لعل أبرز مثال على دور العلمانيين في الشؤون اللاهوتية في الشرق هو وصول المفكر العلماني الشهير فوتيوس الى منصب بطريرك القسطنطينية في أواسط القرن التاسع . انظر : Ware, op. cit., p. 56.

(٣٠) لقد أشار القديس جريجوري من نيسا (ت ٣٩٤م) عن اهتمام الانسان العادي في القسم الشرقي من الامبراطورية بالمسائل اللاهوتية وقال : «اذا سألت أحداً من أهل القسطنطينية عن ثمن احدى الحاجات أجابك بحزم بأن المسيح مولود غير مخلوق . واذا سألت عن سعر الخبز أجابك بأن الآب أعظم من الأبن» انظر :
Vryonis, Byzantium and Europe, p. 38.

(31) Runciman, The Eastern Schism, p. 11.

(32) Diehl, Byzantium, p. 212.

(33) Greenslade, The Schism in the early Church, p. 71; Ware, the Orthodox Church. p. 55.

(34) Diehl, Byzantium, p. 213.

واحتدم النزاع بين القسطنطينية وروما في أواخر القرن السادس ، وذلك عندما اتخذ بطريرك القسطنطينية لقب «المسكوني» Oeumenicul . وبذلك أسبغ على نفسه صفة عالمية ، الأمر الذي أثار احتجاج البابا جريجوري الكبير (٥٩٠ ـ ٦٠٤م) بشدة ـ ودون أن يحقق نجاحاً كبيراً ـ على اعطاء لقب مسكوني لبطريرك القسطنطينية(٣٥) . ويبدو أن لكلمة مسكوني مدلول في القسطنطينية يختلف عن المعنى الذي فهمته روما . ويعتقد أحد المؤرخين أن هذا اللقب كان بالنسبة الى بطريرك القسطنطينية تشريفياً ولا يمنحه سلطة على زملائه البطاركة ، أي كان له مدلول أقل بكثير مما افترضته روما، التي اعتقدت أن هذا اللقب يعني ادعاء بطريرك القسطنطينية رئاسة الكنيسة المسيحية في كل أنحاء العالم المسكون(٣٦) وذلك لان كلمة «مسكوني» في المفهوم الروماني «البابوي» تعني أكبر رجال الكنيسة في العالم المتمدن(٣٧) .

اذا كان سقوط القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس جاء لمصلحة البابوية ، فإن الفتح العربي الاسلامي لبلاد الشام ومصر في القرن السابع للميلاد ، كان ـ كما يبدو ـ لمصلحة بطريركية القسطنطينية،فعلى الرغم من أن بطاركة الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس استمروا في ممارسة شعائرهم الدينية بمنتهى الحرية في ظل الحكم العربي الاسلامي ، واستمروا يحتفظون بلقبهم الذي منحته لهم المجامع المسكونية ، إلا أنه لم يعد بامكانهم منافسة بطريركية القسطنطينية على زعامة العالم المسيحي الشرقي أو بالأحرى على زعامة القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، ولم يعد بامكان روما الضغط على القسطنطينية من خلال الاسكندرية(٣٨) ، وبالتالي أصبح التنافس أو النزاع بين الشرق والغرب في حقيقته بين القسطنطينية وروما .

---

(35) Ibid., p. 212;

أيضاً : سميرنوف : تاريخ الكنيسة المسيحية ، الترجمة العربية ، ص ٣٤٧ ؛ اومان : الامبراطورية البيزنطية ، الترجمة العربية ، ٩٣ ؛ لورنس : تاريخ الكنيسة المسيحية ، الترجمة العربية ، ٣ ، ص ٢٣٥ .

(٣٦) لورنس : ج٣ ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

(37) Jugie, Schisme Byzantin, pp. 22-24.

(38) Greenslade, The Schism in the early church, p. 83.

وفي القرن الثامن دفعت سياسة تحطيم الايقونات(٣٩) ـ التي دشّنها الامبراطور البيزنطي ليو الثالث الايسوري ـ العلاقات بين روما والقسطنطينية الى مرحلة بالغة الخطورة ، وأضافت الى المشكلات المعلقة بينهما مشكلة جديدة . وعلى الرغم من أن الامبراطور ليو وخلفاءه لم يحاولوا فرض سياستهم المعادية للايقونات على المقاطعات الغربية ، إلا أنه سرعان ما انتشر السخط في ايطاليا . ويبدو أن البابوية وجدت في هذه السياسة فرصة للتدخل في شؤون الكنيسة الشرقية ، ومحاولة فرض سيادتها عليها ، خاصة وأن عدداً من كبار رجال الدين الشرقيين ـ أمثال القديس يوحنا الدمشقي(٤٠) ـ عارضوا سياسة تحطيم الايقونات ، وربما أمل هؤلاء أن يتلقّوا في معارضتهم هذه الدعم والتأييد من روما . وبالفعل فقد عقد البابا جريجوري الثالث (٧٣١ ـ ٧٤١م) مجمعاً دينياً ضمّ الاساقفة الايطاليين فقط ، في روما (بتاريخ ٧٣١م) ، أصدر فيه قرار الحرمان ضد كل من قاوم احترام الايقونات واكرامها(٤١) . وكان أن ردّ الامبراطور البيزنطي ليو الثالث الايسوري على قرار البابا بحرمان اسقف روما من دخل أوقافه في كلابريا وصقلية ، ورفع سلطته الروحية عن كنائس اليريا وكلابريا وسردينية وألحقها ببطريركية القسطنطينية(٤٢) .

ولم يلبث أن تفاقم الخطر اللمباردي على ايطاليا ـ في النصف الثاني من القرن

---

(٣٩) الايقونة لفظ يوناني معناه الصورة أو الرسم . وهو يُستعمل في المصطلحات الدينية للاشارة الى الصور والاشكال الدينية . وتنقسم سياسه تحطيم الايقونات الى مرحلتين الأولى من عام ٧٢٦م حتى عام ٧٨٧م ، وفي السنة الأخيرة عقدت الامبراطورة ايرين المجمع المسكوني السابع وأعادت الاعتبار للايقونات ، والمرحلة الثانية من عام ٨١٥م حتى عام ٨٤٣م ، وفي السنة الاخيرة أعادت تيودورا الاعتبار للايقونات .

انظر : دوافع ونتائج سياسة تحطيم الايقونات عند : عاشور : اوروبا ، جـ١ ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ ؛ عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٧ ـ ١٥٣ ، ١٦٦ ـ ١٦٨ ، ١٨٨ ـ ١٨٩ ؛ رستم : كنيسة انطاكية ، جـ٢ ، ص ٧٩ ـ ٨٧ ؛ عمر كمال : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٣ ، ٩٤ ـ ٩٩ ؛ اسحق عبيدة الامبراطورية الرومانية ، ص ٩٤ ـ ٩٦ ؛ موس : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٦ . انظر أيضاً :

Sullivan, Heirs of the Roman Empire, pp. 98-99, 105, 124-25.

(٤٠) عاش القديس يوحنا الدمشقي في مدينة دمشق في عهد الامبراطور ليو الثالث الايسوري (٧١٧ ـ ٧٤١م) واشتهر بالورع والتقى والتقوى والامانة ودرس وتعمق في الكتاب المقدس ودخل سلك الرهبنة . انظر : أعمال الرسل : مخطوط رقم ١٧٢ سيناء ـ عربي ـ ورقة رقم ٥٣ ب .

(٤١) انظر : فسر : تاريخ اوروبا العصور الوسطى ، جـ١ ، ص ٨٢ ؛ اسحق عبيد : روما وبيزنطة ، ص ٥ .

(42) Runciman, The Eastern Schism, p. 20; Oman, The Dark ages, pp. 282-85.

الثامن ـ وعجز البيزنطيون عن الوقوف في وجه الغزاة الجدد ، فضلاً عن استياء البابوية من بيزنطة لانتزاعها بعض الكنائس والحاقها بالقسطنطينية . أدت هذه العوامل مجتمعة الى دفع البابوية للتوجه نحو الفرنجة وطلب العون منهم لدفع الخطر اللمباردي . ولم يلبث أن بلغ التحالف البابوي ـ الفرنجي ذروته بتتويج شارلمان امبراطوراً في روما ، في عيد الميلاد عام ٨٠٠م ، بيد البابا ليو الثالث (٧٩٥ ـ ٨١٦م)(٤٣) .

ولا شك في أن تتويج شارلمان(٤٤) كان طعنة نجلاء صوّبتها البابوية الى الأباطرة البيزنطيين ، الذين كانوا يتمسكون دائماً بمبدأ وحدة الامبراطورية الرومانية من جهة وينظرون الى كل الفرنجة على أنهم برابرة لا أكثر من جهة ثانية(٤٥) . ولذا رفضت الحكومة الامبراطورية في القسطنطينية الاعتراف بالامبراطور الجديد (شارلمان)(٤٦) ، وبدا في نظرها مدّعياً ومغتصباً بل و«تافهاً وسخيفاً» على حد قول باراكلاف(٤٧) . وفي نفس الوقت أصبح البابا في نظر البيزنطيين مجرد مواطنٍ متمردٍ وجاحدٍ لأنه قام بتتويج «شارلمان الفرنجي»(٤٨) .

واذا كان القرن التاسع قد بدأ ـ كما أسلفنا ـ بانتصار البابوية من خلال تتويج شارلمان (٨٠٠م) ، الا أن أوساط هذا القرن حملت في طياتها أزمة خطيرة بين الكنيستين ـ روما والقسطنطينية وهي المعروفة اليوم بأزمة فوتيوس أو قطيعة فوتيوس ومسألة الكنيسة البلغارية .

ذلك أنه حدث في عام ٨٤٧م أن عيّنت الامبراطورة ـ ثيودورا ـ بطلة إعادة عبادة الايقونات ـ اغناطيوس بطريركاً على كنيسة القسطنطينية(٤٩) . ورغم ما كان يتميز به

(43) Ware, The Orthodox Church, p. 53; Diehl, Byzantium, p. 214; Vryonis, Byzantium and Europe, p. 66.

(٤٤) انظر معاني ودلالات تتويج شارلمان بالنسبة لفكرة الامبراطورية الواحدة عند : ديفز: شارلمان ، الترجمة العربية ، ص ١٨٢ ـ ١٨٩ ؛ باراكلاف : الدولة والامبراطورية ، ترجمة د . جوزيف نسيم ، ١٨٣ ـ ١٨٩ .

(45) Vryonis, Byzantium and Europe, pp. 67-68; Ware, The Orthodox Church, p. 53.

(٤٦) اضطرت بيزنطة أن تعترف بشارلمان (٨١٢م) مقابل الانسحاب من البندقية والتنازل عن فتوحاته في دالماشيا انظر : Vryonis, pp. 67-68.

(٤٧) باراكلاف : الدولة والامبراطورية . ص ١٨٦ ؛ انظر أيضا : Ware, Op. cit., p. 53.

(48) Diehl, Byzantium, p. 214.

(٤٩) انظر بعض التفاصيل عن ذلك : أعمال الرسل : مخطوط رقم ١٧٢ سيناء ـ عربي ـ ورقة ٢٩ أ .

الاخير من ورع وتقوى إلا أنه كان يحتقر الفكر العلماني ويتصف بضيق أفقه فضلاً عن تزمته(٥٠) . وكان أن استهلّ اغناطيوس أعماله بعزل جريجوري ، رئيس أساقفة سيراكوزة ، لأعمال شاذّة كان قد ارتكبها(٥١) . وعندئذ رغبت البابوية في استغلال هذا الحادث ، فاستدعت جريجوري هذا إلى روما . ويبدو أن الأخير أثار بعض الشكوك حول الطريقة التي انتخب فيها اغناطيوس بطريركاً على القسطنطينية أمام البابوية . وعلى أية حال فقد تبنت الأخيرة قضية جريجوري المعزول هذا ، وبعثت الى اغناطيوس تطلب منه كشف أعمال المجلس الذي تمّ فيه إدانة جريجوري - رئيس اساقفة سيراكوزة - والتّهم التي وُجهت اليه ، إلا أن اغناطيوس رفض السماح لروما بالتدخل في شؤون بطريركية القسطنطينية وبذلك أُشعل فتيل النزاع(٥٢) .

وفي عام ٨٥٦م انتهت فترة وصاية ثيودورا وتولى ابنها الامبراطور ميخائيل الثاني الذي قام بخلع البطريرك اغناطيوس(٥٣) عن كرسي كنيسة القسطنطينية(٥٤) وذلك عام ٨٥٨م . وبعد ذلك قام الاساقفة بانتخاب مفكر علماني ذائع الصيت وهو فوتيوس(٥٥) . وكان الأخير أعلم أهل عصره وسبق أن تحمّل العذاب في سبيل الدفاع عن الايقونات(٥٦) فضلاً عن انه صاحب سيرة طاهرة وعقيدة مستقيمة(٥٧) . وكان أن تمّ ترسيم فوتيوس في كنيسة الحكمة الالهية (آيا صوفيا) في القسطنطينية من قبل جريجوري - رئيس اساقفة سيراكوزا وعدو اغناطيوس - ومن قبل الاسقف اسطفان وهو أحد اتباع اغناطيوس(٥٨) وانتهت عملية خلع اغناطيوس ورسم فوتيوس بطريركاً على القسطنطينية بسلام ووئام(٥٩) داخل الكنيسة الشرقية .

(50) Dvornik, F., Thephotian Schism, pp. 17 ff.
(51) Cross, F. L., The Oxford Dictionary of the Christian Church, p. 1069.
(52) Runciman, The Eastern Schism, p. 22.

(٥٣) يعتقد الأب دفرونيك أن اغناطيوس قد استعفى من منصبه عن رضى واختيار واشار على الاساقفة أن ينتخبوا غيره . انظر : مناقشة ذلك :

Dvornik, Photian Schism, pp. 36-50.

(54) Jugie, Schisme Byzantin;

(٥٥) إن أفضل دراسة عن فوتيوس وعصره كتاب دفرونيك :
Dvornik, F., The photian Schism, Cambridge, 1948.
(56) Dvornik, Op; cit., p. 50.
(57) Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, p. 199.
(58) Jugie Op. cit., p. 107; Dvornik, Op. cit., p. 50, n. 4.
(59) Jugie, Op. cit., p. 108, n. 2; Dvornik, Op. cit., pp. 52-53.

ولكن سرعان ما ساءت الأمور بين أغناطيوس وفوتيوس ، إذ رفض الأول الاعتراف بالثاني ، فرأى فوتيوس أنه من الحكمة أن يبعث برسائل الى زملائه البطاركة ، بما فيهم أسقف روما نيقولا ، يخبرهم فيها بانتخابه بطريركاً على القسطنطينية ، ويُظهر في ذات الوقت «بيان ايمانه»(٦٠) مثلما جرت العادة سابقاً(٦١) وذلك في محاولة منه لكسب تأييدهم في نزاعة مع سلفه ؛ وطالما أن اغناطيوس كان على علاقة سيئة جداً ـ كما ألمحنا ـ مع بابا روما فان فوتيوس توقّع أن يقف البابا الى جانبه ـ بشكل طبيعي ـ ضد أغناطيوس(٦٢) .

وكان أن وجد البابا نيقولا في النزاع بين اغناطيوس وفوتيوس فرصة طيبة ليفرض ادعاءه في السيادة وفق النظرية البطرسية(٦٣) . ولذا فانه أخذ ينتظر باهتمام شديد تطور المسألة في القسطنطينية . وفي عام ٨٦١م عُقد مجمع ديني في القسطنطينية ، بدعوة من الامبراطور ميخائيل الثالث ، لبحث عددٍ من الامور الرئيسية . وبعث البابا ـ بناء على دعوة الامبراطور ـ وفداً لحضور هذا المجمع ، وكلف البابا مندوبيه ـ الـذين اختارهم لحضور مجمع القسطنطينية ـ بأن يطلبوا من المجتمعين اعادة النظر في قضية اغناطيوس من جهة وطلب إعادة المقاطعات التي سبق أن انتزعها الامبراطور ليو

---

(٦٠) عندما كان يُنتخب بطريرك في احدى الاسقفيات الكبرى فإن واجب هذا البطريرك الجديد أن يبعث الى زملائه البطاركة الآخرين ببيان يتضمن الايمان المقدس أو العقيده التي يؤمن بها ويعمل على هديها وفي سبيلها فاذا قبل البطاركه مضمون هذا البيان فان اسم البطريرك الجديد يدرج في لوحات خاصة في الكنيسه وتسمى الذبيحته **Diptych** ، ويصبح هذا البطريرك معترفاً به من قبل زملائه الآخرين . فاذا كانت لوحات احدى الكنائس الكبرى لا تتضمن اسم أحد بطاركه الكنيسة الأخرى ، فيُفهم من ذلك أن هناك قطيعة بين هاتين الكنيستين ، وعلى أيه حال فان الذبيحتات **Diptychs** ليست معياراً دقيقاً لعلاقات الكنيسه ، فعندما سقط القسم الغربي من الامبراطورية بيد البرابره لم يتمكن البطاركة السرقيون أن يبعثوا الى زميلهم الروماني «ببيان ايمانهم» والعكس أيضا صحيح ، وكذلك عند الفتح العربي لم يتمكن البطاركة السرقيون ـ في بعض الاحيان ـ من الاتصال بزميلهم القسطنطيني أو الروماني : انظر :

Michel the syrian, R.H.C. Arm. Vol. 1, p. 377; ware, The Orthodox Church, p. 65.

(٦١) منذ فتره تحطيم الايقونات وحتى عهد تيودورا نفسها ـ بطله اعاده الايقونات ـ فان بطاركة القسطنطينيه امتنعوا ، بأمر الأباطره،عن ارسال «بيان الايمان» الى روما . انظر :

Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine state, pp. 199-200.

ايضا : اسد رستم : كنيسه انطاكية ، ج٢ ، ص ١١١

(62) Ware, Op. cit., p. 61;

سمبرنوف : تاريخ الكنيسه المسيحيه ، ص ٣٨٤ .

(63) Ware, op. cit., p. 62

الثالث الايسوري من البابوية ، مثل صقلية واليريا وغيرهما من جهة ثانية(٦٤) .

وبالفعل عُقد المجمع المذكور (٨٦١م) وبناء على طلب الوفد البابوي بحث المجتمعون قضية اغناطيوس وقرروا أخيراً ـ وبموافقة مندوبي البابا ـ خلع أغناطيوس والاعتراف بفوتيوس بطريركاً شرعيّاً للقسطنطينية(٦٥) .

رغم ارتياح البابا نيقولا لنتائج المجمع السابق ، إلا أنه استاء من ممثليه لأنهم لم يسجلوا أي تقدم في موضوع المقاطعات المسلوخة ، ولهذا أجل البابا الاعتراف بفوتيوس إلى أن يحصل على هذه المقاطعات ، ويبدو أنه كتب الى فوتيوس بما يشير الى ذلك(٦٦) .

وكان أن ادرك فوتيوس أن الثمن الذي حدده البابا نبقولا للاعتراف به باهضاً . ولذا أخذ الطرفان ينتظران تطور الظروف . وأثناء ذلك وصل وفد الى روما يمثّل البطريرك المعزول اغناطيوس ويطالب بحقوقه ، فأصغى البابا الى أقوال هؤلاء ، وسرعان ما عقد مجمعاً دينياً في روما (٨٦٣م) وأعلن فيه أن غناطيوس هو البطريرك الشرعي للقسطنطينية ، وأن فوتيوس مجردٌ من كل صفة كنسية(٦٧) .

وجاءت مسألة الكنسية البلغارية لتضيف الى العلاقات الساخنة بين روما والقسطنطينية تعقيدات جديدة . حقيقة لم يكن بامكان فوتيوس أو الامبراطور ميخائيل نفسه اعادة المقاطعات التي يطلبها البابا ، وخاصة مقاطعة اليريا ، وذلك لان البعثات التبشيرية البيزنطية كانت قد حققت نجاحاً ملموساً في نشر المسيحية على المذهب الاثوذكسي في تلك الجهات من جهة فضلاً عن رسوخ النفوذ السياسي البيزنطي من جهة نانية ، وخاصة في بلغارية ومورافيا الواقعتين في مقاطعة اليريا(٦٨) .

ولكن سرعان ما تحول الملك البلغاري بورس Boris نحو روما ، بعد أن رفضت القسطنطينية طلبه القاضي باعطاء الكنيسة البلغارية الاستقلال وتعيين بطريرك

---

(64) Dvornik, Photian Schism, pp. 70-77.

(65) Ibid., pp. 78-88; ware, The Orthodox Church, p. 61;

أسد رستم . كنيسة انطاكية . ج ٢ ص ٣٢٥ .

(66) Dvornik, op. cit., pp. 90-96.

(٦٧) رستم : كنيسة انطاكية . ج٢ ص١٢٦ ـ ١٢٧ .

(68) Vryonis, Byzantium and Europe, p. 83.

بلغاري عليها ، أملاً في الحصول على شروط أفضل لدى البابوية ، وطلب بورس من البابا ايفاد ممثل عنه لتنظيم الكنيسة البلغارية ، وفي نفس الوقت صرف البعثات التبشيرية البيزنطية(٦٩) .

ولا شك في أن تحوّل بورس كان نكسة لكنيسة القسطنطينية ، حيث وصل الممثل البابوي وبرفقته البعثات التبشيرية ، الى بلغاريا ، وأخذت هذه البعثات الكاثوليكية بمهاجمة بعض التعاليم الدينية ، التي كانت قد نشرتها البعثات البيزنطية في أوساط المملكة البلغارية مثل زواج رجال الدين ، واخذت البعثات الكاثوليكية تصرّ على اضافة كلمة «والأبن» **Filioque** الى العقيدة النيقية(٧٠) . وكان لهذه الاضافة أخطر النتائج على العلاقة بين روما والقسطنطينية وسنرى كيف أن اضافة هذه الكلمة كان الشغل الشاغل للدوائر الكنسية في الشرق والغرب في القرن الثاني عشر ، وكيف اعتبرها المعتدلون ـ من الجانبين ـ أنها العقبة الوحيدة في سبيل وحدة الكنيسة .

وعندما سمع البطريرك فوتيوس بما تبشر به البعثات الكاثوليكية في بلغاريا وخاصة الاضافة للعقيدة النيقية،استشاط غضباً فكتب مقالاً عنيفاً هاجم فيه، انحراف قانون الايمان النيقاوي عند اللاتين باضافة الـ**Filioque** وأعلن فوتيوس أن هذه الاضافة هي انتهاك صارخ للعقيدة النيقية وانحراف لِما اتفق عليه الآباء في المجامع المسكونية ومنافٍ للكتاب المقدس(٧١) .

---

(69) Ware, The Orthodox Church, p. 63; Cam. Med. Hist., Vol. 4, p. 452;
ايضا : عبيد : روما وبيزنطة ، ص١٠ .

(٧٠) ان كلمةالفيليوغو **Filioque** كلمة لاتينية ، معناها «والابن» ، وقد اضيفت هذه الكلمة إلى صيغة العقيدة النيقية التي أخذت تقبل بها الكنائس الغربية في القرون التالية . فقد كان آباء مجمع نيقية المسكوني الأول (٣٢٥م) قد قرروا أن (روح القدس تنبثق من «الأب» وحرم مجمع نيقية منذ ذلك الوقت أية اضافة على العقيدة النيقية . ولكن أثناء الصراع بين الاسبان الكاثوليك والقوط الغربيين الأريوسيين أخذ الكاثوليك يصرون على المساواة بين الأب والابن وذلك لأن الاريوسيين قالوا بعدم المساواة ، ولهذه اضافوا (أي الكاثوليك) أن روح القدس لا تنبثق من الأب فقط وانما من الابن ايضاً ، ومن هنا جاءت كلمة الفيليوغو . وفي مجمع توليدو الكاثوليكي باسبانيا عام ٥٨٩م أُدخلت الزيادة الى العقيدة النيقية . وبذلك كانت مخالفة العقيدة النيقية ، وانتقلت هذه الاضافه الى فرنسا في عهد شارلمان ومن ثم انتقلت الى المانيا ، وأخذت تتسرب الى ايطاليا في القرن العاشر . إلا أن البابوية لم تقبل رسمياً هذه الاضافة إلا في أوائل القرن الحادي عشر . أنظر :

Ware, op. cit., pp. 58- 59.

(٧١) انظر النص الاصلي والكامل لمقالة فوتيوس في البترولوجيا الاغريقية :

M.P.G. Vol. 102. Cols. 721-41.

وعام ٨٦٧م حدث انقلاب في القسطنطينية انتهى بمقتل الامبراطور ميخائيل الثالث واعتلاء باسيل الأول المقدوني (مؤسس الأسرة المقدونية) . وترتب على ذلك أن أُعيد اغناطيوس الى عرش بطريركية القسطنطينية وعُزل فوتيوس(٧٢) . وعلى أثر هذا الانقلاب في البطريركية أعيدت العلاقة مع روما ، وتمّ عقد مجمع في القسطنطينية عام ٨٦٩م ، وعرف هذا المجمع «بالمجمع المعادي لفوتيوس» حيث تم فيه ادانة فوتيوس ولعنه(٧٣) .

وبدا لفترة ما أن هذه الأحداث هي انتصار لروما ، وأن البابوية قد خرجت منتصرة في صراعها مع فوتيوس ، إلا أن هذا الانتصار كان قصير الأمد ، لان المستقبل القريب لم يلبث أن كشف عن تغييرات مذهلة . ففي عام ٨٧٠م حدث تحول في موقف الملك البلغاري بورس واتجه ثانية الى القسطنطينية ، فعندما لم يحصل من روما على شروط أفضل بشأن الكنيسة البلغارية ، صرف البعثات التبشيرية الكاثوليكية ، واستدعى ثانية الأساقفة الارثوذكس البيزنطيين وبطبيعة الحال كان هذا التحول طعنة عنيفة بالنسبة لروما(٧٤) ، وكان في ذات الوقت انتصارا للقسطنطينية في المسألة البلغارية .

وفي عام ٨٧٧م توفي البطريرك اغناطيوس وأُعيدْ فوتيوس ثانية الى العرش البطريركي ، وعادت البابوية تساوم فوتيوس على قضية الاعتراف به ، واشترطت أن ذلك لن يتم إلا اذا سُلّمت الكنيسة البلغارية للبابوية ، ولكن لم يكن بامكان القسطنطينية ـ دينياً وسياسياً ـ التراجع في مسألة الكنيسة البلغارية وذهبت محاولات البابوية سدى في هذا المجال(٧٥) . وفي عام ٨٧٩م عقد مجمع في القسطنطينية وهو «ضد المجمع الذي عقد ضد فوتيوس ٨٦٩م» حيث تم فيه لعن كل من لعن أو أدان فوتيوس ، ولقد قبلت مقررات هذا المجمع في روما ، وأصبح فوتيوس سيد الكنيسة البلغارية دون منازع(٧٦) .

---

(72) Ware, op. cit., pp. 63-64; Dvornik, op. cit., pp. 132-37.
(73) Ware, op. cit., p. 64; Gross, op. cit., p. 1069.
(74) Ware, op. cit., p. 64.
(75) Dvornik, The photian Schism, pp. 147-55, 160-80.
(76) Ibid., pp. 180-89; Jugie, Schisme Byzantine, pp. 120-30.

وكان الاعتقاد السائد حتى وقت قريب ان ما حدث بين فوتيوس وروما انما انتهى الى قطيعة رسمية بين القسطنطينية وروما ، حتى أن الباحثين الغربيين أطلقوا عليها اسم «قطيعة فوتيوس» والباحثون الشرقيون أطلقوا عليها اسم «قطيعة نيقولا» نسبة للبابا نيقولا الأول الذي كان معاصراً للفترة الأولى من بطريركية فوتيوس وفي ذات الوقت الذي اعتبر فيه الارثوذكس فوتيوس قديساً وبطلاً مناضلاً في سبيل كنيسة القسطنطينية فإن الكاثوليك الغربيين اعتبروا فوتيوس «مهندس القطيعة»(٧٧) .

وعلى أية حال فقد نجح عدد من الباحثين ، وفي مقدمتهم الأب دفرونيك ، في اثبات أنه لم يحدث في زمن فوتيوس قطيعة بين القسطنطينية وروما واستمرت الكنيستان تناول أحدهما الأخرى ، ورضي البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ ـ ٨٨٢م) عن فوتيوس واعتبروه بطريركاً شرعياً على كنيسة القسطنطينية ، وفي نفس الوقت فإن البابا يوحنا الثامن لم يؤكد على قضية الاضافة «والابن» التي قالت بها البعثات البابوية في بلغاريا ،كما أنه لم يحاول فرض النظرية البطرسية على الشرق ، وربما أدرك يوحنا الثامن هذا أن سياسة سلفه البابا نيقولا الأول قد هددت بشكل خطير للغاية ، وحدة العالم المسيحي(٧٨) . ولكن رغم أن العلاقات بين روما والقسطنطينية ظلّت قائمة في حياة فوتيوس إلا أنها أخذت في الفتور التدريجي بعد وفاته عام ٨٩٧م ، خاصة وأن صراع فوتيوس مع البعثات التبشيرية الكاثوليكية في بلغاريا ، وما كتبه في مقالته ضد الاضافة الى العقيدة النيقية قد كشفت عن خلاف عنيف في القضايا اللاهوتية فضلاً عن أنها أثارت الدوائر الدينية في الشرق والغرب ، وستكون كلمة الـ Filioque عقبة في كل الجهود التي بذلت لتحقيق الوحدة بين الكنيستين .

(77) Ware, The Orthodox Church, pp. 64-65.
(78) Dvornik, The Photain Schism, pp. 202-36; Also: sullivan, Heirs of the Roman Empire, p. 128.

الفصل الثاني

القطيعة الشرقية عام ١٠٥٤م ونتائجها

انتهى الصراع بين القسطنطينية وروما في أواخر القرن التاسع بتسوية بين فوتيوس والبابوية ، ولكنها كانت تسوية مؤقتة ، بل ربما كانت مقدمة لصراع ـ بين الكنيستين الكبيرتين ـ أكثر عمقاً وشمولاً مما حدث في زمن فوتيوس . ويمكننا القول في ذات الوقت أن ما حدث زمن فوتيوس جاء نتيجة طبيعية لجميع عناصر الاختلاف الموجودة بين العالم الشرقي والغربي المسيحيين .

أما العلاقات بين القسطنطينية وروما في القرن العاشر فكانت سلمية الى حد بعيد ، دون أن تُحلّ المشاكل العقائدية المعلقة بينهما وإنما جُمّدت ، وذلك نتيجة لانشغال الامبراطورية البيزنطية في فتوحاتها في عهد الاسرة المقدونية من جهة ونتيجة لانحطاط البابوية بسبب تسلط العلمانيين على كنيسة القديس بطرس من جهة ثانية(١) . على أن قيام الامبراطورية الرومانية المقدسة في أواسط ذلك القرن ، على يد البيت السكسوني في المانيا(٢) ، وبالتالي تزايد النفوذ الألماني في ايطاليا ، شكّل خطراً عقائدياً لما تؤمن به القسطنطينية ، التي نظرت الى الانتصار الالماني في ايطاليا ، على أنه انتصار للآراء الدينية الألمانية التي تصر على اضافة كلمة «ومن الابن» الـ **Filioque** الى العقيدة النيقية(٣) .

ثم كانت فتوحات أباطرة الاسرة المقدونية في البلقان والشام والبحر المتوسط ، في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عسر ، مما أمدّ الغرب الاوربي بفرصة طيبة آمنة للحج الى بيت المقدس وزيارة الأماكن المقدسة ـ براً وبحراً ـ دون خوف ، في

---

(١) انظر بارا كلاف : الدولة الامبراطوريه ، ص٢١٠ ـ ٢١٢

(٢) المرجع السابق ، ص٤٣ ـ ٤٠ ، ص٢٩٦ وما بعدها .

(3) Runciman, The Eastern Schism, pp. 27-30.

الوقت الذي كانت الحركات الاصلاحية الدينية ، مثل الكلونية(٤) تشجع حركة الحج وتنظمها ، مما أدى الى كثرة اعداد الوافدين من غرب اوربا ، عبر الأراضي البيزنطية في طريقهم الى الأراضي المقدسة ومما أدى الى كثرة عدد اللاتين الكاثوليك المقيمين في القسطنطينية لاسباب اقتصادية بشكل خاص ، في الوقت الذي أخذت فيه أعداد هائلة من البيزنطيين في زيارة ايطاليا(٥) ، وزيارة روما بالذات باعتبارها تحوي ضريحي القديسين العظيمين بطرس وبولس .

ورغم تجدد الاتصالات بين الغرب والشرق المسيحين ، في أوائل القرن الحادي عشر ، والتي لعب فيها الرهبان البيزنطيون ، المقيمون في ايطاليا الجنوبية ، دوراً كبيراً للوصول بين الكنيستين(٦) . فقد حدثت قطيعة على الصعيد الرسمي بين روما والقسطنطينية ، منذ أوائل القرن الحادي عشر . ففي عام ١٠٠٩م بعث بابا روما سيرجوس الرابع ـ بعد انتخابه لمنصب البابوية ـ «بيان ايمانه» الى القسطنطينية ، وكان هذا البيان يتضمن الاضافة (Filioque) إلى العقيدة النيقية . وكان بطريرك القسطنطينية آنذاك اسمه سيرجوس أيضا . ورغم أن الأخير لم يحتجّ على تضمين البابا الاضافة في بيان الايمان ، إلا أن البطريرك القسطنطيني سيرجوس لم يدرج اسم البابا سيرجوس في قوائم الكنيسة البيزنطية(٧) . وهذا يعتبر من الناحية الرسمية أن هناك قطيعة بين الكنيستين . ولكن يبدو أنه لم يكن لهذا الحادث ـ آنذاك ـ أية مضاعفات خطيرة بالنسبة للعلاقة بين روما والقسطنطينية . وبعد خمسة أعوام على بيان البابا سيرجوس ، المتضمن الاضافة ، نادت البابوية للمرة الثانية بهذه الاضافة وذلك أثناء حفلة تتويج الامبراطور الالماني هنري الثاني في روما عام ١٠١٤م ، حيث رُتلت في تلك المناسبة العقيدة النيقية ، وكانت تقول بالانبثاق من الأب «ومن الابن»(٨) . وكان تبنّي البابوية لهذه الاضافة نذير أحداث خطيرة بالنسبة للعلاقات بين كنيستي روما والقسطنطينية .

---

(٤) عن الحركة الكلونية انظر :
Barton, The Medieval Church, pp. 33-34.
(5) Gay, J., L'Italie meridionale et L'Empire Byzantine, pp. 391-95.
(6) Ibid., pp. 392-95.
(7) Ware, The Orthodox Church, p. 65.
(8) Every, G., The Byzantine Patriarchate, pp. 144-45.

ثم حدث في عام ١٠٢٤م أن بعث البطريرك البيزنطي يوستاثيوس EUSTATHIUS إلى البابا يوحنا التاسع عشر (١٠٢٤ ـ ١٠٣٢م) يقترح عليه تسوية الخلافات بين الكنيستين ، وبأن تعترف القسطنطينية بتقدم روما في المكانة والاحترام شرط عدم تدخل الأخيرة في شؤون القسطنطينية الداخلية وسائر الانحاء التي تقع في حوزة الامبراطورية البيزنطية . وكان أن وافق البابا الروماني على اقتراحات البطريرك البيزنطي(٩) ، إلا أنه سرعان ما سحب هذه الموافقة نتيجة لأصوات الاحتجاج التي عمّت الدوائر الدينية في الغرب الاوربي آنذاك ، والتي أخذت تتهم البابا بأنه عاجز عن حكم الكنيسة العالمية وأنه : «اذا كان بالامكان تقسيم السلطة الزمنية بين عدد الحكام ، فان السلطة الروحية ـ سلطة القديس بطرس في العقد والحل ـ لا يمكن أن تقسم الى عقد والى حل(١٠)

Bind and Loose to Bind and to loose

وجاء اكتساح النورمان لاملاك الدولة البيزنطية في جنوب ايطاليا ، منذ أوائل القرن الحادي عشر ، ليدفع بالعلاقات بين القسطنطينية وروما الى مرحلة الانفجار . ذلك أن جنوب ايطاليا كان آنذاك مسرحاً يتنازعه المذهبان، الارثوذكسي والتابع لبطريرك القسطنطينية ، والكاثوليكي التابع للبابا في روما ، وكان هذا الانقسام المذهبي نتيجة اختلاف التركيب السكاني لهذه المنطقة التي تضم الاغريق واللاتين معاً . وعلى الرغم من كون ابوليا وكلابريا تتبعان بيزنطة سياسياً ، إلا أن بطريركية القسطنطينية لم تحاول التدخل في شؤون الكنائس الكاثوليكية القائمة في هذين الاقليمين ؛ على أن الوضع في ابوليا كان أكثر حساسية من بقية الاقليم ، إذ كانت الكنائس الاغريقية واللاتينية متواجدة جنباً الى جنب ، ففي الوقت الذي كان الاغريق يتطلعون نحو القسطنطينية من أجل الحماية ، فإن كنيسة القسطنطينية لم ترض عن تطلع اللاتين في ابوليا الى ما وراء الحدود الى روما(١١) .

وكان أن وقفت البابوية ، من الانتصارات الأولى التي حققها النورمان على

---

(9) Jugie, Schisme Byzantin, pp. 168-69.
(10) Runciman, The Eastern Schism, p. 36
(11) Gay, L'Italie Meridionale, PP. 414— 29.

البيزنطيين في جنوب ايطاليا ، موقف المؤيد وذلك لأن هؤلاء النورمان كانوا ينتمون الى المذهب الكاثوليكي ، وكان بريد ايطاليا يحمل الى العاصمة البيزنطية بين آونة وأخرى أنباء التوسع النورماني (الكاثوليكي) في المقاطعات البيزنطية في جنوب ايطاليا ، وضغط النورمان ـ بموافقة البابوية ـ على الكنائس الارثوذكسية في المناطق التي دخلت في حوزتهم حتى تتبع هذه الأخيرة الطقوس والشعائر الدينية اللاتينية (الكاثوليكية)(١٢) .

وفي منتصف القرن الحادي عشر أتت الحركة الكلونية الى العرش البابوي بأحد المتحمسين للاصلاح الكنسي وهو البابا ليو التاسع (١٠٤٨ ـ ١٠٥٤م) الذي أدرك ـ فور اعتلائه السدة الرسولية ـ أن النورمان عقبة في وجه الاصلاح الكنسي في جنوب ايطاليا(١٣) ففي الوقت الذي كانت المبادىء الكلونية تشق طريقها في فرنسا وبورجنديا وألمانيا ، فإن السيمونية وزواج رجال الدين كانت منتشرة وعلى أسوأ شكل ، في جنوب ايطاليا . وعلاوة على ذلك فقد أخذ الخطر النورماني يقترب من حدود روما ذاتها ، بعد أن نجح هؤلاء في اجتياح الامارات اللمباردية ، ولذا قررت البابوية تبديل موقفها من الفاتحين النورمان ، وبدأ البابا ليو التاسع بالبحث عن الحلفاء لكبح جماح النورمان ، وكان لا بد له من التوجه إلى أعداء النورمان ، الى بيزنطة التي أعلنت عن لسان ممثلها اللاتيني في جنوب ايطاليا ، وهو آرجيروس ابن الثائر الأبولي ميلو ، استعدادها للتحالف مع البابوية ضد النورمان(١٤) .

وبالفعل تم التحالف البابوي ـ البيزنطي ضد النورمان ، وانطلق الجيش البابوي بقيادة البابا ليو التاسع نفسه لمنازلة النورمان ، إلا أنه هزم هزيمة نكراء في معركة سيفتاتي (١٠٥٣م) ووقع البابا ليو التاسع أسيراً في يد النورمان الذين اصطحبوه معهم إلى بينفنتو وفي نفس العام كان النورمان قد هاجموا الجيش البيزنطي بقيادة آرجيروس وألحقوا به هزيمة قاسية ، قبل أن يتمكن من اللقاء مع الجيش البابوي(١٥) .

---

(12) Runciman, Hist. Of The Crusades, Vol. I. P. 69.
(13) Baintion, The Medieval Church, PP. 33— 35; Setton, Hist. Of The Crusades, Vol. I, PP. 208— 9.
(14) Gay, Op. Cit., PP. 433— 34; Also Setton, Op. Cit., P. 208.
(15) Haskins, The Normans, P. 203; Curtis, Roger Of Sicily, P. 54.
Every, The Byzantine Patriarchate, P148.

وفي الوقت الذي كانت الدوائر السياسية في العاصمة البيزنطية تعمل عن طريق قائدها اللاتيني في جنوب ايطاليا ـ أرجيروس ـ على التحالف مع البابوية لكبح جماح النورمان ، وانقاذ ما يمكن من المقاطعات البيزنطية في أبوليا وكلابريا ، كانت الدوائر الدينية في القسطنطينية تفكّر بطريقة أخرى وتنظر الى ما هو أعمق من المصالح السياسية التي يسعى إليها الامبراطور البيزنطي ؛ ذلك أن البطريرك البيزنطي في تلك الفترة كان ميخائيل كريولاريوس (١٠٤٣ ـ ١٠٥٨م) ، وهو موظف حكومي متقاعد ، ورُسم كاهناً (بطريركاً) في أواخر حياته ، وكان ادارياً قديراً ، إلا أنه اتصف بعقلية الموظف المدني الصارمة ، ورغم أنه كان يفتقر الى ذكاء وثقافة فوتيوس إلا أنه كان يتمتع بشعبية هائلة في القسطنطينية(١٦) .

وكان ميخائيل كريولاريوس يشكّ في ممثل بيزنطة في جنوب ايطاليا ، وهو آرجيروس اللاتيني ، بل وكان يكرهه ويشك في نسبه وماضيه ، وفي الوقت ذاته كان ميخائيل هذا ممتعضاً جداً من نفوذ آرجيروس على الامبراطور البيزنطي قنسطنطين مونوماخوس (١٠٤٢ ـ ١٠٥٥م) الذي كان يتعاطف مع آرجيروس ويدعمه في قضية التحالف مع روما لمواجهة الخطر النورماني(١٧) .

ولا شك في أن البطريرك كريولاريوس كان يدرك الظروف التي تلم بالكنائس الارثوذكسية الواقعة في المقاطعات التي يكتسبها النورمان في جنوب ايطاليا ، كما كانت الأنباء الواردة من جنوب ايطاليا تؤكد باستمرار أن النورمان يجبرون الكنائس الاغريقية في تلك المنطقة على ممارسة الطقوس والاعراف اللاتينية ، وأن البابوية ترحب بعمل النورمان هذا ، بل ربما حرضتهم على ذلك ؛ ولذا كله طلب البطريرك ميخائيل (أواخر عام ١٠٥٢م) من الكنائس الكاثوليكية الموجودة في القسطنطينية أن تتبع الاسرار والطقوس الدينية اليونانية الارثوذكسية ، ولكن هذه الكنائس رفضت الامتثال لارادته مما جعله يلجأ الى اغلاقها(١٨) . ومن ثم حرّض كريولاريوس رئيس كنيسة اخريدة ، وفي الوقت ذاته رئيس الكنيسة البلغارية ، واسمه ليو ، أن يكتب

---

(١٦) عن شخصية البطريرك ميخائيل كريولاريوس وأعماله انظر :
Cerularius, M., Letters, In M.P.G., Vol. 120.
(17) Every Op. Cit., PP. 148— 49; Runciman, The Eastern Schism, PP. 39— 40.
(18) Jugie, Schisme Byzantin, PP. 189— 90; Ware, The Orthodox Church, P. 66.

رسالة الى البابا يوضح له فيها الانحرافات في الطقوس الدينية عند اللاتين ؛ وبالفعل كتب ليومن اخريدة رسالة هاجم فيها اعراف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، مثل استخدام اللاتين للخبز غير المختمر Azymes في السر المقدس Sacrament وصوم أيام السبت وأكل لحم المنخنقة ، واختتمت الرسالة بقول ليو «من يصوم السبت-ويقدس على الفطير (اي الخبز غير المختمر) ليس يهودياً ولا وثنياً ولا مسيحياً وانما هو خليط أشبه ما يكون بجلد النمر المرقط»(١٩) .

وكان أن وصلت هذه الرسالة الى البابا ليو التاسع في ظرف حرج للغاية ، حيث كان الحَبر الأعظم في الأسر النورماني ، بعد هزيمة سيفتاتي (يونيو١٠٥٣م) ، في مدينة بينفتو . وقام السكرتير البابوي المشهور الكاردينال همبرت Humbert بترجمة رسالة ليومن أخريدة من اللغة الاغريقية الى اللاتينية . ولا يستبعد أن يكون الأخير قد أساء الترجمة بل ربما تعمد الإضافة اليها اعتماداً على جهل البابا لليونانية(٢٠) .

وقد استشاط البابا ليو التاسع غضباً من مضمون هذه الرسالة ، وأمر سكرتيره همبرت أن يرّد فوراً عليها «برسالتين» أحداهما الى كريولاريوس وليومن أخريدة والثانية أن تُترك بدون عنوان ، لرد التُهم الموجهة الى الكنيسة اللاتينية من جهة وابراز تفوق الكنيسة الرومانية على أساس هبة قنسطنطين(٢١) من جهة اخرى . وبالفعل أعدّ همبرت الرسالتين وفي الرسالة الاولى هدّد بامتيازات خليفة القديس بطرس ، ونعت فيها كل من كريولاريوس وليومن اخريدة بالحماقة «لأنهما تجاسرا في الحكم على السدة الرسولية التي لم يستطع أحد من السابقين أن يحاكمها» ، وفي نهاية الرسالة نصح همبرت كلاً من البطريرك كريولاريوس والاسقف ليو أن «يندما على فعلتهما وأن

---

(١٩) انظر النص الكامل لرسالة ليومن أخريدة في البترولوجيا الاغريقية :
Leo Of Ochrida, Epistola, In M.P.G., Vol. 120, Cols. 836 FF.

(20) Jugie, Schisme Byzantin, P. 193, N.L.

(٢١) ان هبة قنسطنطين هي وثيقة مزوّرة صُنفت في القرن الثامن لتدعيم سلطة الكنيسة الرومانية . انظر رأي ملاتيوس ـ رئيس أساقفة اثينا ورأي جراسيموس في كتابه تاريخ الانشقاق ، ج٢ ، ص٨٠ ـ ٨١ ؛ وكذلك انظر النص الاصلي لهبة قنسطنطين عند: Cantor, The Med. World, Doc. No. 26, PP. 125—31.

يرجع كل منهما عن الطريق الخطرة التي انزلق بها»(٢٢) .

على أن هاتين الرسالتين اللتين أعدهما همبرت ـ بلسان البابا ـ لم يتم ارسالهما ، وذلك نتيجة لتوسط يوحنا اسقف تراني بين الطرفين ، ونجح الأخير في اقناع البطريرك البيزنطي بأن المصلحة البيزنطية في جنوب ايطاليا تقتضي الابقاء على أفضل العلاقات مع روما وأكد له في الوقت ذاته أن البابا ليو التاسع انسان فاضل ويجب مخاطبته باسلوب أكثر اعتدالاً(٢٣) . وعلى هذا فقد كتب البطريرك كريولاريوس رسالة الى البابا ليو التاسع تختلف في لهجتها واسلوبها اختلافاً جذرياً عن الرسالة التي سبق أن حرّض أسقف اخريدة على كتابتها ، كما أن الامبراطور قنسطنطين مونوماخوس نفسه كتب رسالة من قبله الى البابا ليو يشرح له فيها ضرورة التحالف السياسي بينهما ويؤكد له تحمسه لهذا التحالف ، ولم تتعرض هاتان الرسالتان الى موضوع الأعراف والطقوس وخلاف اللاتين والاغريق في هذا الصدد . على أن البطريرك كريولاريوس استهل رسالته هذه إلى الحبر الروماني بمخاطبته «كأخ» وليس «كأب» وفي الوقت ذاته وقّع البطريرك رسالته باسم «البطريرك المسكوني»(٢٤) .

ان رسالة البطريرك البيزنطي لم تحقق ما هدفت اليه ، لأن البابا هاله استخدام كريولاريوس لقب «مسكوني» التي تعني في المفهوم البيزنطي «رئيس الكنائس المسيحية في كل انحاء الامبراطورية» والتي ترجمها همبرت للبابا بأنها تعني «رئيس الكنائس المسيحية في العالم أجمع»(٢٥) . ولذا كلف البابا الكاردينال همبرت بالرد على رسالة البطريرك البيزنطي . وبالفعل أعدّ همبرت رسالتين باسم سيده البابا : إحداهما الى الامبراطور البيزنطي قنسطنطين مونوماخوس والثانية إلى البطريرك كريولاريوس . وكانت الرسالة الأولى تحوي شكوى البابا الى الامبراطور من تصرف البطريرك كريولاريوس وفيها يطلب البابا من الامبراطور قنسطنطين تسهيل مهمة الوفد البابوي الذي سيقوم بتسليم هذه الرسالة . أما الرسالة الثانية ـ الموجهة الى كريولاريوس ـ

(22) Jugie, Op. Cit., PP. 193— 94.

انظر ايضا جراسيموس: نفس المرجع ، ج٢ . ص٧٨ ـ ٧٩

(23) Gay, l'Italie Meridionale, PP. 492— 500.

(٢٤) انظر : نص رسالة ميخائيل كريولاريوس في البترولوجيا الاغريقية : M.P.G., Vol. 120, Cols. 781— 96.

(25) Runciman, The Eastern Schism; P. 43.

فإنها تحوي توبيخاً للبطريرك لانه استخدم لقب مسكوني وفي الوقت نفسه تُلقي ظِلاَلاً على قانونية انتخاب كريولاريوس ، وتعرّج هذه الرسالة على اغتصاب بطريرك القسطنطينية امتيازات كنيستي انطاكية والاسكندرية الرسوليتين ، وتشير هذه الرسالة ايضا الى «وقاحة» البطريرك وتجاسره على نقد الطقوس والاعراف اللاتينية ، وخاصة استخدام الخبز غير المختمر ، واختتمت رسالة البابا الموجهة الى كريولاريوس بالأمل والرجاء أن يجد الوفد البابوي ، عند وصوله الى القسطنطينية ، أن البطريرك كَريولاريوس قد عاد الى رشده وندم وتاب باخلاص وصدق(٢٦) .

وقام همبرت بحمل الرسالتين الى القسطنطينية ، على رأس وفد بابوي يتألف من الشماس فردريك اللوريني ، وهو المستشار البابوي ، وبطرس رئيس أساقفة امالفي(٢٧) . وفي مطلع سنة ١٠٥٤م عرّج الوفد البابوي الى ابوليا ، قبل أن يغادر ايطاليا الى القسطنطينية ، حيث التقى بممثل بيزنطة في تلك المنطقة ، وهو آرجيروس الذي كان على علاقة رديئة جداً مع البطريرك كريولاريوس ـ كما أسلفنا ـ ونصح آرجيروس الوفد البابوي بأن يتجاهلوا البطريرك أثناء وجودهم في القسطنطينية وأن يتعاملوا فقط مع الامبراطور . وكانت هذه النصيحة حمقاء وذلك لأن شخصية كريولاريوس كانت أكثر شعبية وقوة ونفوذاً من شخصية الامبراطور مونوماخوس ـ(٢٨) .

وعندما وصل الوفد البابوي الى القسطنطينية في أبريل من العام ١٠٥٤م ، قام بزيارة الامبراطور أولاً ، تمشياً مع نصيحة آرجيروس ثم عرّج على البطريركية فاستقبله البطريرك كريولاريوس وحوله رهط من المطارنة وقضى العرف المسيحي بأن يدخل الكردينال على البطريرك المسكوني بتواضع جم خافض الجناح ، ولكن المصادر المعاصرة وصفت دخول همبرت ، على رأس الوفد البابوي ، الى كنيسة الحكمة الالهية بشكل يختلف عن هذا العرف ، حيث اقبل همبرت شامخ الأنف رافع الرأس ، ووقف أمام البطريرك ، ممتنعاً من الجلوس ، وقد نصب صدره ومط حاجبيه ودفع برسالة

---

(26) Jugie, Schisme Byzantin, PP. 196— 98; Also Bréhier, Le Schisme Oriental. PP. 97 FF.,

(27) Ware, p 67.

(28) Runciman, PP. 44- 45

البابا الى كريولاريوس دفعاً ثم خرج أزهى من الغراب ، دون أن يقدم التحيات المعتادة(٢٩) .

وكان أن استشاط البطريرك البيزنطي غضباً من تصرف الوفد البابوي ومن مضمون الرسالة التي حملها اليه ، والتي احتوت على أقذع الشتائم بحق البطريرك ، ويقال ان البطريرك اعتكف مع حاشيته لدراسة هذه الرسالة . وبعد ذلك وصل هؤلاء الى افتراض مفاده أن أحداً قد عبث برسالة البابا والدليل على ذلك أن الرسالة مُهرت بالخاتم ثانية . واستنتج البطريرك أنه لا يستبعد أن يكون آرجيروس قد اطلّع على الرسالة وحرّف في نصها الاصلي ، خاصة وأن الكراهية استحكمت بين هذين الرجلين (كريولاريوس وآرجيروس) ثم كيف كان بامكان هذا البابا ترتيب سفارته وموضوع هذه الرسالة مع المندوبين وهو في الأسر النورماني ؟(٣٠) . ولذا رفض البطريرك الاعتراف بسلطة المندوبين البابويين . وبعد عدة أيام من وصول الوفد البابوي ، توفي البابا ليو التاسع (١٥ أبريل ١٠٥٣م) . وتمشياً مع القانون الكنسي فإن المندوبين لم يعد بامكانهم تمثيل بابا متوفي ، وبالتالي لم يعدْ للوفد البابوي ـ من وجهة نظر كريولاريوس ـ أية شرعية على الاطلاق(٣١) .

وفي اثناء اقامة الوفد البابوي في العاصمة البيزنطية قام همبرت بترجمة الرسالة التي سبق أن أعدها للرد على ليو من أخريده ـ والتي لم يبعثها آنذاك كما أسلفنا نتيجة توسط رئيس أساقفة تراني ـ الى اللغة اليونانية ـ ويبدو أن البيزنطيين علموا ما تضمنته هذه الرسالة من الانتقادات العنيفة للأعراف الاغريقية ، فتصدى أحد الرهبان البيزنطيين واسمه نيقتاس سيتاتوس Nicetas Stethatus ورد على همبرت بمقالٍ

---

(٢٩) أيضاً جراسيموس : ج٢ ، ص١٠١ ـ ١٠٣ ؛ رستم : كنيسة انطاكية ، ج٢ ، ص٢٢١ .

(٣٠) ان هذه السكوك التي راودت ميخائيل كريولاريوس قد كتبها بنفسه في رسالته الى بطرس بطريرك انطاكيه . انظر النص الأصلي للرسالة : جراسيموس : تاريخ الانسفاق ، ج٢ ، ص١٠١ ـ ١٠٣ ؛ أيضاً في :

M.P.G.,Vol.120, Cols. 784-5. Cols. 784— 5.

(٣١) بعد وفاة ليو التاسع عين الامبراطور الالماني هنري الثالث البابا فيكتور الثاني . والأخير لم يكن له علاقة بالمندوبين ولو افترضنا أنه كان يعلم بوجودهم في القسطنطينيه . انظر :

jugie, Schisme Byzantin, P,199, N.4

عنيفٍ هاجم فيه الطقوس اللاتينية مثل استخدام الخبز غير المختمر وصيام السبت وتحريم زواج رجال الدين(٣٢) . وعندما قرأ همبرت ما كتبه هذا الراهب استشاط غضباً وفقد توازنه ، فبدلاً من أن يرد على ستيثاتوس رداً علمياً يفند فيه حججه ، فإنه أوسع الراهب البيزنطي شتماً واعتبره «حيواناً وسافلاً وزانياً ورئيساً للهراطقة» وقال همبرت في جوابه لستيثاتوس «ان هذا الراهب لم ينحدر من دير للرهبان . وانما من بيت للدعارة»(٣٣) و «اعتبر الكرسي القسطنطيني اسقفية متمردة خاضعة لبطريركية روما وعامل صاحبها معاملة مرؤوس مذنب يجب عليه التماس الصفح من رئيسه الكريم ، فظنّ أن ميل الامبراطور نحوه لأسباب سياسية يكفي لقهر البطريرك والشعب» وانتهى الصراع بين همبرت والراهب البيزنطي بتدخل الامبراطور مونوماخوس الذي اجبر الراهب أن يسحب ما قاله ويعتذر من همبرت(٣٤) .

اما البطريرك كريولاريوس فقد احتفظ بصمته خلال هذه الفترة كلها ، بل ربما تجاهل الوفد البابوي كلّياً وأخذ يرقب الأمور عن كثب ، ويبدو أن هذا الموقف أثار غضب الكردينال همبرت . ذلك أنه حدث ظهر يوم السادس عشر من يوليو (تموز) (من العام ١٠٥٤م) أن توجه الوفد البابوي يتقدمه همبرت الى كنيسة آيا صوفيا ، حيث دخلها والقداس على وشك البداية ، فاتجهوا نحو المذبح ووضعوا قرار الحرمان ضد كريولاريوس وليو من اخـريدة والمستشـار البطـريركي واتباعهـم ، بحضـور الاكليروس والبطريرك ، ثم نفضوا غبار أقدامهم وخرجوا وهم يقولون «يسوعُ الله ينظر ويحكم بيننا وبينكم»(٣٥) .

وقد هرع أحد الشمامسة البيزنطيين خلف المندوبين يتوسل اليهم استرداد القرار ، إلا أن هؤلاء أبوا ذلك ، فألقى به الشماس في الارض وبعد قليل وصل هذا القرار الى

---

(32) M.P.G., Vol. 120, Cols. 1012— 1022;

انظر أيضاً : جراسيموس : تاريخ الانسقاق ، ج٢ ، ص٨٤ .

(33) Jugie, Schisme Byzantin, PP. 200— 202;

اسحق عبيد : روما بيزنطة ، ص٣١ .

(34) Jugie, Op. Cit., PP. 202— 203:

انظر : الاجتهاد في سبيل الاتحاد ، ص٢٠ ؛ جراسيموس : المرجع نفسه ، ج٢ ، ص٨٤ ـ ٨٥

(35) Ware, The Orthodox Church, PP. 51, 67

البطريرك الذي صُعق عندما اطّلع على ترجمته اليونانية(٣٦) ، وأسرع البطريرك إلى الامبراطور قنسطنطين مونوماخوس الذي صُدم بدوره من هذه الوثيقة الخطيرة ، وبعث رسولاً يرجو الوفد البابوي تسليم النسخة الأصلية ، فعاد رسول الامبراطور بالنسخة الأصلية للقرار وتابع همبرت ورفيقاه طريقهم الى روما(٣٧) . «وجاء عملهم هذا أقرب الى التمثيل المسرحي منه الى عملٍ كنسي»(٣٨) .

على أن أهم ما جاء في قرار الحرمان هذا(٣٩) هو الاتهامات الموجة الى الطقوس الاغريقية ولشخص البطريرك كريولاريوس نفسه « ... ولكن بالنسبة الى ميخائيل المسمى بطريركاً على سبيل المجاز وبالنسبة الى مشاريكه في جنونه ...» وانهم مثل السيمونيين يبيعون موهبة الله ....» ومثل الآريوسيين يعيدون تعميد المعمدين ... وعلى الخصوص اذا كانوا من اللاتين ..» وأن البيزنطين قد «قطعوا من الدستور انبثاق الروح القدس من الابن» . كما أن ميخائيل قد «أغلق كنائس اللاتين واضطهدهم بالقول والفعل في كل مكان اضطهاداً شديداً ...»(٤٠)

وسرعان ما انتشر خبر قرار الحرمان بين سكان العاصمة ، فهبت زوبعة شعبية في القسطنطينية تناصر الكنيسة ضد اللاتين والامبراطور أيضاً : فأسرع الأخير يرجو البطريرك احراق القرار وفي الوقت نفسه القي القبض على أقرباء آرجيروس الذين باتوا موضع اتهام الجماهير الغاضبة(٤١) . واستجاب كريولاريوس لرغبة الامبراطور ، وعقد مجمعاً دينياً (في ٢٣ يوليو ١٠٥٤م) تم فيه توقيع قرار الحرمان على همبرت ورفيقيه ولعن كل من ساهم في حرمان همبرت واعداده . ولكن البطريرك رفض احراق القرار والحرمان الهمبرتيين لأنه رغب «أن يبقى شهادة على العار الابدي والذنب الدائم

---

(36) Ware, Op. Cit., P. 51.
(37) Runciman, The Eastern Schism, P. 49.

(٣٨) الاجتهاد في سبيل الاتحاد ، للمرسلين البوليسين ، ص٢١ .
(٣٩) انظر النص الاصلي للحرم عند : جراسيموس : تاريخ الانسقاق ، ج٢ ، ص٨٦ ـ ٨٩ :
(٤٠) انظر التفنيد العلمي لحرم همبرت من الناحية العقائدية والسياسة عند : جراسيموس : تاريخ الانسقاق ، ج٢ ، ص٨٩ ـ ٩٣ ؛ أيضا :.Runciman, The Eastern Schism, PP. 48—49
(٤١) انظر خطاب الامبراطور الى كريولاريوس . جراسيموس : تاريخ الانسقاق ج٢ ، ص٩٨ ـ ٩٩ ؛ أيضاً : M.P.G Vol. 120, Cols. 736—48; Jugie, Op. Cit., PP. 212—13.

اللذين لحقا بأولئك الذين جدفوا على إلهنا مثل هذا التجديف»(٤٢) .

وبعد أيام من هذه الأحداث بعث البطريرك كريولاريوس برسالة الى بطريرك انطاكية بطرس ، في محاولة منه لكسب تأييد الأباطرة الشرقيين لموقف القسطنطينية ازاء هذه الأحداث ،(٤٣) . ولكن البطريرك الانطاكي اتخذ موقفا معتدلا ، حث فيه البطريرك القسطنطيني على التغاضي عن بعض الاختلافات في الطقوس مثل حلق اللحي وأكل اللحوم ... ، وركز البطريرك الانطاكي على قضية واحدة ـ وهي الاضافة الى قانون الايمان النيقاوي ـ واعتبرها «شراً عظيماً» واختتم بطرس ـ بطريرك انطاكية رسالته الجوابية الى كريولاريوس بقوله «وبناء عليه أترامي على أقدامك واتضرع اليك أن تكون متساهلاً أكثر مما أنت لكي لا تكون وأنت راغب في إقامة الساقط قد جعلت سقوطه أكثر ثقلاً ، لأنه بسبب عدم اتفاق قليل بين كنيستنا وبين السدة المتسعة كل هذا الاتساع (أي البابوية) قد نشأت كل هذه المصائب . فأنا أظن ان هؤلاء اذا أصلحوا زيادتهم في دستور الايمان فلا يبقى لنا شيء نطلبه منهم بل يمكننا أن نغض النظر عن مسألة الفطير أيضا . فأتضرع اليك أن توافقني على هذا الرأي بأن لا نطلب كل شيء حتى لا نخسر كل شيء(٤٤) .

وبهذا الشكل انتهت هذه الأحداث بحرمان كنسي متبادل بين الكنيستين ، ولكن يجب أن نأخذ باعتبارنا أن نص الحرمان الهمبرتي يشمل البطريرك كريولاريوس وليو من اخريدة والمستشار البطريركي وكل «الذين يتبعونهم في ضلالاتهم»(٤٥) . فهذه الفقرة الأخيرة تُوحي أن الحرم يشمل الشعب البيزنطي الذي هاج في العاصمة في أعقاب الحادث يعلن مساندته ووقوفه الى جانب البطريرك كريولاريوس ولكن الحرمان الذي أصدرته كنيسة القسطنطينية بحق هؤلاء المندوبين كان محدّداً ، بحيث شمل

(٤٢) اصدر هذا المجمع قراراً رسمياً عُرف بالسيموبه Semeiouma أي المحاسبه ، وهو سجل لكل الأحداث التي جرت مع الوفد البابوي . انظر النص الكامل لهذا القرار : حراسيموس : المرجع نفسه ، ج٢ ، ص٩٥ ـ ٩٨ . أيضاً انظر النص عند .M. P. G., Vol. 120 Cols. 736—48

(٤٣) انظر الرسالتين اللتين بعثهما كريولاريوس الى بطريرك انطاكيه بطرس :—M.P.G., Vol. 120, Cols. 789—93, 815
20.

(٤٤) انظر النص الكامل لرساله بطرس الثالث بطريرك انطاكيه الى كريولاريوس :.M.P.G., Vol. 120, Cols. 796—816

(45) Jugie, Op. Cit., PP. 203—208;

فقط المندوبين الثلاثة وكل من ساهم في وضع الحرمان الهمبرتي واعداده ولم يشمل بأي شكل من الأشكال البابوية والكنيسة الغربية عموما(٤٦). ولكن ما هو حجم هذا الحدث بالنسبة الى العلاقات بين الكنيستين ؟

حقيقة إن هذا الحدث حفل في العصور الحديثة بأهمية أكثر بكثير مما أعطاه المعاصرون لتلك الأحداث. إن الحدث يجب أن يُوضع في الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك، حتى يمكن فهمه على حقيقته، بل لا بد من فهمه أيضا وفق اللوحة العامة لتطور العلاقات بين روما والقسطنطينية منذ مرسوم ميلان ٣١٣م. إن الوثائق البيزنطية المعاصرة تشير الى أن السبب في هذه القطيعة انما هو «حسد البابا من اتخاذ بطريرك القسطنطينية لقب مسكوني»(٤٧). ولكن هل كان هذا اللقب جديداً على اسقف القسطنطينية ألم يتخذه بطريرك القسطنطينية منذ أواخر القرن السادس(٤٨) ؟ ان البيزنطيين المعاصرين اعتبروا ما حدث أزمة عابرة، وربما كان لهم الحق في ذلك، فالعلاقات بين روما والقسطنطينية كانت في معظمها أزمات عابرة بين عالمين مختلفين، والعلاقات الطيبة بينهما كانت تقام فوق الأزمات أو فوق الألغام في أكثر الأحيان. ذلك ان المصالح السياسية للامبراطورية البيزنطية هي التي كانت تدفع الأزمات أحيانا الى الخلف أو هي التي كانت تفجرها في الوقت المناسب وفقاً للمصلحة السياسية العليا للدولة، وربما كانت هذه احدى مآثر قنسطنطين العظيم !

وتشير الوثائق اللاتينية المعاصرة الى أن السبب في الانشقاق انما هو: «رسالة الذم والافتراء التي بعثها كريولاريوس للبابا»(٤٩)؛ ولكن هل هذه المرة الاولى التي يحمل فيها بريد القسطنطينية «ذمّاً وافتراءاً» الى خليفة القديس بطرس ؟ ان رسالة كريولاريوس هذه لم تكن ذماً وإنما كانت نقداً لمجموعة من الأعراف اللاتينية، وعلى هذا فان ما كتبه فوتيوس، في هذا الصدد قبل قرنين من الزمن، كان أكثر عنفاً

---

(46) M.P.G. Vol. 120 Cols. 786— 48; Jugie, Op. Cit., PP. 212— 15.

(٤٧) جلاء الابصار من غشاء الاكدار: مخطوط رقم ٤٨٧ بلمند - عربي ورقة رقم ٨٧.

(48) Diehl, Byzantium, P. 212.

(٤٩) جلاء الأبصار من غشاء الاكدار: مخطوط رقم ٤٨٧ بلمند عربي ورقة رقم ٨٧.

وعمقاً ، ويجب والحالة هذه أن يكون «أكثر ذمّاً وأكثر افتراءاً» مما كتبه كريولاريوس أو بالأحرى ليومن اخريدة ؟.

ونحن لا نستطيع في حقيقة الأمر أن نفصل حدث فوتيوس عن حدث عام ١٠٥٤م ، فاذا كان هناك ثمة قطيعة ، فانها قد بدأت مع فوتيوس ونيقولا الأول . ولكن القضية أعمق من ذلك ، فقطيعة عام ١٠٥٤م وحدث فوتيوس ايضاً ، انما كانا نتيجة طبيعية لتطور تاريخي طويل ومعقد من العلاقات بين الكنيستين ، بدأ قبل القرن الحادي عشر وقبل القرن التاسع وهو نتيجة طبيعية للخلاف الحضاري والثقافي والسياسي والاقتصادي الذي كانت تبنى فوقه العلاقات الطيبة أحياناً .

والواقع أن أحداث «القطيعة» (عام ١٠٥٤م) كانت أكثر إثارة من النتائج التي ترتبت عليها . إن ما حدث زمن كريولاريوس ليس انشقاقاً نهائياً كما خُيل لبعض الباحثين ، لأنه لم يكن اول نزاعٍ أو انشقاقٍ بين الكنيستين ويكفي للتدليل على ذلك ان ننظر الى لوحة العلاقات التي رسمنا خطوطها الرئيسية في مقدمة هذا الباب . ولكن لعل أهم النتائج التي ترتبت على قطيعة أو انشقاق عام ١٠٥٤م) بالنسبة الى الكنيسة الشرقية هو انشطار الرأي العام في الدوائر الدينية في الامبراطورية البيزنطية بين فئة متطرفة وربما كانت بزعامة كريولاريوس وأنصاره ، تعارض بشكل مطلق كل ما هو لاتيني وروماني ، والفئة الثانية يمكن ان نعتبرها فئة معتدلة ، وربما كانت بزعامة بطرس الثالث بطريرك أنطاكية وأنصاره ، وكانت هذه الفئة الأخيرة ترى أنه بالامكان تجاوز الخلافات الثانوية وايجاد تسوية للاختلافات الجوهرية ، وذلك حفاظاً على وحدة الكنيسة المسيحية في العالم أجمع(٥٠) ويبدو أن الاتجاه الأول ، أو الفئة المعارضة لكل ما هو لاتيني كانت له القوة والنفوذ بعيد الانشقاق ، وإذا كانت المصالح السياسية للامبراطورية قد دفعت الأباطرة بعد ذلك الى كبح جماح هذا التيار أحياناً أو التخفيف من غلوائه ، إلا أنه استمر حيّاً ويعمل بأشكال وأساليب مختلفة ، وفي الوقت ذاته فإن الاتجاه الثاني أو الفئة المعتدلة ، التي ترغب في التفاهم مع روما ، استمرت بدورها تعمل بعدة أساليب لتقريب وجهات النظر وايجاد صيغة للتفاهم المشترك بين الكنيستين .

(50) Every, The Byzantine Patriarchate, pp. 150-52.

أما تأثير هذه القطيعة على العلاقة بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني فإنه لم يكن عنيفاً كما يصوره البعض ، لأن القطيعة لم تكن نهائية ، كما أنها لم تؤثر على مركز البابوية في الغرب أو في الشرق ، فضلاً عن أنها لم تحدث الانقسام في الدوائر الدينية الغربية مثلما حدث في الشرق البيزنطي ؛ وفي الوقت ذاته فإن القطيعة لم تؤثر على مركز الكاثوليك في الامبراطورية البيزنطية . والدليل على ذلك أن الغربيين استمروا يتوافدون الى القسطنطينية بعد القطيعة ، سواء أكانوا تجاراً أو حجاجاً أو زواراً أو عابري سبيل ، كما استمر هؤلاء يبنون كنائسهم الخاصة على الأرض البيزنطية ، وظل المرتزقة الغربيون يخدمون في الجيش البيزنطي . وفضلاً عن ذلك كله فقد استمر الحجاج اللاتين يعبرون الامبراطورية البيزنطية الى الأراضي المقدسة والى بعض الأديرة الخاصة ، في بيزنطة ، التي كان يعيش فيها الرهبان اللاتين والاغريق معاً دون أن يذكروا أو يتناقشوا في قضية «اللحية أو الخميرة» . ومن ناحية أخرى فقد استمر اليونانيون (البيزنطيون) في الذهاب إلى روما لزيارة ضريح الرسولين بطرس وبولس ، وبينهم أعداد هائلة من أشهر الرهبان ، ويذكر الأب بوليه أن من بين هؤلاء الزوار الاغريق جمهوراً كبيراً من الأحداث التائبين قد قدموا بقيادة أحدهم المدعو نيقولا وهم يهتفون كيرياليصون «يا رب ارحم»(51)

والواقع ان الغزو النورماني لجنوب ايطاليا في أواسط القرن الحادي عشر هو الذي فجّر الموقف بين القسطنطينية وروما عام ١٠٥٤م ، وسوف نرى خلال الدراسة أن النورمان في جنوب ايطاليا وصقلية هم الذين كانوا ـ في معظم الأحيان ـ سبباً في خلق الأزمات بين روما والقسطنطينية وفي الوقت ذاته سبباً لتقاربهما .

ولما كانت المصلحة السياسية للامبراطورية البيزنطية تقتضي ابقاء الحوار مفتوحاً مع روما ، فإنه لم يكن من السهل كبح الخطر النورماني أو تجاوزه أو التصدي له دون الدخول في علاقات واضحة مع البابوية . ولذا كانت الظروف الأمنية بالنسبة لبيزنطة تُوجب الابقاء على أفضل العلاقات مع البابا بغض النظر عما قد يدور في خلد بطريرك القسطنطينية . وكان أن جاءت الامبراطورة تيودورا (١٠٥٥ ـ ١٠٥٧م) لتكبح جماح البطريرك كريولاريوس ، فأعادت فتح الكنائس اللاتينية في

(51) Poulet, O.S.B.,Hist. du Christianisme, (Paris 1935), Vol IX, p. 400.

القسطنطينية وبذلك خلقت جواً مناسباً للتفاهم مع روما ، وأسرع البابا فيكتور الثاني (١٠٥٥ ـ ١٠٥٧م) في الكتابة الى الامبراطورة بلغة المحبة وبألطف العبارات راجياً تخفيض الرسوم التي تفرض على الحجاج الغربيين وهم في طريقهم عبر الامبراطورية الى بيت المقدس ؛ وأُعيد آرجيروس الى الخدمة لدى بيزنطة(٥٢) . والمعاصر لهذه الأحداث لا يشعر ان هناك قطيعة أو انشقاقاً قد حدث بين روما والقسطنطينية قبل ثلاث سنوات .

ولكن سرعان ما قدّم النورمان العون للبابوية لكي توجه الأخيرة طعنة قاسية لبيزنطة ، وذلك لأن البابوية كانت قد اقتنعت خلال ذلك الوقت ، وبعد هزيمتها الشنعاء في سيفتاتي (١٠٥٣م) أنه من غير الممكن اخضاع النورمان بقوة السلاح وأن المصلحة الدينية والسياسية تقضي جعلهم حلفاء للبابوية(٥٣) . ولذا قام البابا نيقولا الثاني (١٠٥٩م) بمنح جويسكارد لقبْ دوق على أبوليا وكلابريا والامارات اللمباردية الأخرى . وأقسم جويسكارد يمين الولاء والطاعة للكنسية الرومانية(٥٤) . وهذا بدوره دفع الامبراطورية البيزنطية الى التقرب من المانيا لمواجهة التحالف البابوي ـ النورماني ؛ وأدركت البابوية خطورة قيام التحالف الأخير ولهذا انتهز البابا اسكندر الثاني (١٠٦١ ـ ١٠٧٣م) فرصة اعتلاء ميخائيل السابع العرش البيزنطي (١٠٧١ ـ ١٠٧٨م) ليبعث وفداً الى القسطنطينية لتهنئة العاهل الجديد من جهة ويبحث موضوع الوحدة بين الكنيستين من جهة ثانية . على أن المفاوضات التي أجراها المندوب البابوي ـ حول وحدة الكنيستين ـ لم تسفر عن شيء وانما أُجِّلت الى وقت غير محدد(٥٥) .

وفي عام ١٠٧٣م حمل بريد ايطاليا أخباراً مفادها أن جويسكارد يخطط لغزو بيزنطة ، فكتب الامبراطور ميخائيل السابع الى البابا جريجوري السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م) يطلب منه العمل على كبح جماح النورمان ومنع جويسكارد من تنفيذ مشروعه ، وفي الوقت ذاته دغدغ أحلام البابا باقامة الوحدة بين الكنيستين(٥٦) .

(52) Every, op. cit., pp. 152-53.
(53) Haskins, The Normans., p. 203.
(54) Chalandon, Hist. de la domination Normand, Vol. 1, pp. 170-72; Every, Op. cit., p. 154.
(55) Runciman, The Eastern Schism, pp. 57-58.
(56) Ibid., p. 59.

وبالفعل نجح البابا في احباط مشروع جويسكارد من جهة وفي اقامة صداقة بين الحكومة البيزنطية والنورمان على اساس المصاهرة من جهة ثانية ، حيث تزوج قسطنطين ابن الامبراطور ميخائيل هيلانة ابنة الزعيم جويسكارد(٥٧) . وفي الوقت نفسه كتب البابا جريجوري يخبر العاهل البيزنطي بأنه عازم على القدوم الى الشرق على رأس جيش لمحاربة الأتراك (السلاجقة) وأنه سوف يعقد خلال ذلك مجلساً في القسطنطينية لتسوية المشكلات المعلقة وتحقيق الوحدة بين الكنيستين ، ولكن عندما تأكد البيزنطيون من انحسار الخطر النورماني عن الامبراطورية أخذوا يديرون الحوار مع جريجوري في حلقة مفرغة حتى انشغل جريجوري السابع في الصراع مع الامبراطور الألماني هنري الرابع ، وبالتالي لم يتمكن من الحضور الى القسطنطينية(٥٨) .

وفي عام ١٠٧٨م خُلع ميخائيل السابع عن العرش البيزنطي ، واعتلاه نيقفور الثالث بوتانياتس (١٠٧٨ ـ ١٠٨١م) . وهب جويسكارد وجريجوري يدافعان عن ميخائيل ، واخترع جويسكارد ميخائيل سابعاً ليبرر غزوه لبيزنطة ، ووقف البابا جريجوري يؤيد الزعيم النورماني في كل ما يتخذه من اجراءات ضد بيزنطة . فكتب البابا في ٢٥ يوليو (تموز) من عام ١٠٨٠م الى أساقفة أبولياوكالابريا يطلب منهم تقديم كل مساعدة ممكنة للحملة التي يعدها جويسكارد ضد بيزنطة(٥٩) ، كما أصدر البابا قرار الحرمان ضد نيقفور الثالث(٦٠) . وفي الوقت ذاته وافق على التدجيل الذي ابتدعه جويسكارد عندما جعل من أحد الرهبان الامبراطور ميخائيل السابع(٦١) .

ولا شك في أن موقف البابا جريجوري من حملة جويسكارد ضد بيزنطة أثار استياء البيزنطيين وغضبهم ، ولكن قبل أن يبدأ الزعيم النورماني في تنفيذ مشروع الحملة ـ التي بحثناها في الباب الأول ـ اعتلى الكسيوس كومنين العرش البيزنطي (١٠٨١ ـ ١١١٨م) فما كان من البابا جريجوري السابع إلا ان رشق الامبراطور الجديد بحرمانه

(57) ANNA,The Alexiad,pp. 30-31.
(58) Every, The Byzantine patriarchate, p. 155; Cam. Med. Hist. Vol. IV,P.464; Kellett, A Short Hist. of Religions, pp. 284-86.
(59) Charanis, p., "The west and the origin of the first crusade", p. 24.
(60) Runciman, Hist. of the Crusades, Vol. 1, p. 69.

(٦١) انظر الباب الأول عن الغزو النورماني ضد بيزنطة (١٠٨١ ـ ١٠٨٥م) .

أيضاً من الكنيسة(٦٢) واستمر البابا في دعم الغازي النورماني في مشروعه ضد الامبراطورية البيزنطية . وهذا التأييد الذي لم يكن ـ بطبيعة الحال ـ لمصلحة العلاقات بين الكنيستين ، إذ سجلت القسطنطينية على روما ـ من خلال موقف جريجوري هذا ـ موقفاً خطيراً كان لا بد له من أن يترك أثره على العلاقات الكنسية . ولعل الدليل على ذلك تلك الصورة القاتمة التي رسمتها المؤرخة البيزنطية آنا كومنين للبابا جريجوري السابع ، علماً بأن هذه المؤرخة كتبت مؤلفها بعد نصف قرن تقريباً من عهد جريجوري السابع ، وهذا يكشف لنا الانطباع الذي سجله البابا في أذهان البيزنطيين علمانيين وكنسيين ، عندما أيّد الغزو النورماني ضدهم . ولنستشهد بهذه العبارة التي كتبتها آنا كومنين ، ففي إطار حديثها عن معاملة البابا جريجوري السابع لسفراء الملك الالماني هنري الرابع قالت(٦٣) : «ان عمل البابا (أي جريجوري) يعتبر أبشع انتهاك واهانة تصدر من مثله ، وعمله هذا فاق في وقاحته وسفاهته أعمال البرابرة ، ان كرامتي النسائية تمنعني من ذكر هذا الانتهاك وتلك الاهانة التي ألحقها البابا بالسفراء ، وهذه الاهانة لا تليق بأن تصدر عن كاهنٍ أو قسٍ كبيرٍ فحسب بل انها غير لائقة أن تصدر عن أي انسانٍ يحمل اسماً مسيحياً ، انني أكره عقل هذا البربري (أي البابا جريجوري) ، ولا أريد أن أدنس قلمي وصحافي التي أكتب فيها بوصف الأعمال التي قام بها هذا البابا بشكل صريح وواضح ، فلقد أنتج الدهر اناساً ذوي اخلاقيات لا حياء فيها ولا خجل ، وهل هذا صنع رجل ادعّى يوماً بأنه سوف يكون زعيم العالم كله ، ان اللاتين يؤكدون ويعتقدون بذلك ، وهذا جزء من تبجحاتهم ...»(٦٤) .

وكان ان ردّ الامبراطور الكسيوس كومنين على الحرمان البابوي باغلاق الكنائس اللاتينية الموجودة في القسطنطينية ، ما عدا كنائس البنادقة الذين كانوا الى جانبه في

---

(62) Chalandon, Alexis, pp. 62-63; Every, The Byzantine patriarchate, p. 156.

(٦٣) عن الصراع بين هنري الرابع وجر يجوري السابع انظر :

ANNA, The Alexiad, pp. 33-36; Otto of Freising, The deeds of Barbarossa, pp. 28-29.

انظر أيضاً عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٣٥٣ ـ ٣٦١.

(64) ANNA, The Alexiad, pp. 33-34.

الصراع ضد جويسكارد(٦٥) ، وبذلك عادت العلاقات بين روما والقسطنطينة الى طريق مسدود ، واستمرت كذلك حتى وفاة الحليفين جريجوري السابع وجويسكارد في نفس العام ١٠٨٥م(٦٦) .

وفي عام ١٠٨٨م . اعتلى البابا أوربان الثاني العرش البابوي(٦٧) ورأى البابا الجديد ان المسألة البيزنطية عولجت بشكل خاطىء ، ولذا بادر بارسال وفد الى القسطنطينية عام ١٠٨٩م يحمل معه قراراً برفع الحرمان الكنسي عن الكسيوس كومنين ويطلب في الوقت ذاته فتح الكنائس اللاتينية التي كان قد أغلقها الكسيوس . وبالفعل جرت مفاوضات ودية بين الوفد البابوي من جهة والكسيوس كومنين والبطريرك القسطنطيني نيقولا الثالث من جهة ثانية ؛ وعلى أثرها كتب البطريرك الى أوربان يؤكد له أن الكنائس اللاتينية فتحت وهي تمارس شعائرها بحرية واقترح البطريرك على البابا تأجيل ادراج اسم البابا في لوحات الكنيسة في القسطنطينية ريثما يأتي البابا الى القسطنطينية لمناقشة المسائل المعلقة بين الكنيستين أو ريثما يصل «بيان ايمانه» الى القسطنطينية ؛ ولكن البابا اوربان لم يتمكن من الحضور ، كما أنه لم يبعث بيان ايمانه لانه سوف يتضمن كلمة والابن ايضاً Filiogue ، وبالتالي لم يتم ادراج اسم اوربان في لوحات دبيختات كنيسة آيا صوفيا . الا انه رغم ذلك فقد كان لفتح باب الحوار بين القسطنطينية وروما في عهد أوربان الثاني أهميته الكبرى في خلق جو ودي بين الكنيستين وفي اعادة نوع من الوئام الذي تصدع أكثر من مرة منذ قطيعة عام ١٠٥٤م(٦٨) .

والواقع ان الكتابات والأبحاث اللاهوتية التي تداولتها الدوائر الكنسية في الامبراطورية البيزنطية وفي ايطاليا على حد سواء في عهد الامبراطور الكسيوس كومنين والبابا اوربان الثاني ، تُوحي لنا بأن موجة الاعتدال قد تملّكت العديد من

---

(65) Every, Op. cit., p. 156.

(66) Kellett, A short Hist. of Religions, p. 286.

(٦٧) عن شخصية أوربان الثاني انظر :

Hayward, A Hist. of the popes, pp. 167-68.

(68) Jugie, op. cit., pp. 240-43.

كبار رجالات الدين في الطرفين . ففي عام ١٠٩٠م كتب شماس بيزنطي الى رئيس الكنيسة البلغارية ثيوفيلاكت - وهو مفكر بيزنطي لامع - يسأله في أخطاء اللاتين ، وأجاب ثيوفيلاكت الشماس بقوله : ان الاختلاف بين اللاتين والاغريق حول قضية الزواج والمعمودية والصيام والخبز واللحية والخواتم الذهبية والألبسة وأكل اللحم ... لاتعتبر قضايا مهمة . وقال : من المضحك ان نقاطع اللاتين لان رجال الدين عندهم يحلقون اللحى ويلبسون الخواتم ويرتدون الأثواب الحريرية الملونة . وقال ثيوفيلاكت انه لمن العسف حقاً ان يستمر الاغريق في التفتيش عن أخطاء غيرهم وألا يعترفوا بامكانية وقوعهم في مثلها(٦٩)ولكن ثيوفيلاكت سجل خطيئة أساسية على روما وهي قضية الاضافة الى المجمع النيقاوي «والابن ايضا Filioque» واعتبرها خطيرة للغاية . ورأى ثيوفيلاكت أن ادعاء روما بصحة قول ما لمجرد صدور هذا القول عن أسقفها في ظرف رسمي ادعاء مردود «حتى ولو تكلم البابا بصوت بطرس وهز مفاتيح السماء في وجوهنا» وأضاف «انه من الهراء والاساءة الى بطرس أن نستند الى السلطة المستمدة منه لنعلن عقيدة لم تقرها مجامع الكنيسة»(٧٠) . وأضاف ثيوفيلاكت أنه يجوز للاتين الاحتفاظ بكلمة «الابن ايضا» ولكن لأغراض تفسيرية شرط أن يذكروا أن هذه الكلمة لم ترد في العقيدة النيقية . وركّز أيضاً على قضية هامة وهي أن اختلاف اللغة هو سبب الاضطرابات ، وخاصة فقر اللغة اللاتينية في المصطلحات اللاهوتية(٧١) .

أما في الدوائر الايطالية فقد ساد اعتدال مشابه أيضا . فعندما سُئل رئيس أساقفة كانتربري وهو الأسقف أنسلم اللاتيني (١٠٣٣ - ١١٠٩م)(٧٢) وصديق البابا أوربان

---

(69) Theophylact, Archbishop of Bulgaria, in M.P.G., Vol. 126, cols. 221-23.

(70) Ibid. Cols. 228-29, 241;

انظر ايضا : رستم : كنيسة انطاكية ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(71) Theophylact, in M.P.G. Vol. 126, Cols. 221-24.

(٧٢) ان كانتربري هي مطرانية انكلترا . عن حياة أنسليم وفلسفته الدينية ودوره في النزاع بين البابويه والامبراطورية انظر : عبد الرحمن بدوي : فلسفة العصور الوسطى ، ص ٦٥ - ٧٨ . عاسور : اوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص١٦٣ - ١٦٥ .

الثاني ، عن رأيه ، في مجمع باري عام ١٠٨٩م(٧٣) وفي الاختلافات بين اللاتين والاغريق ، فإنه لم ير في هذه الاختلافات ما يبرر الانشقاق أو يقود إليه وركز أنسلم على قضية واحدة فقط وهي قضية الاضافة «والابن أيضا» Filioque ؛ واعتبر أنسلم أن الاغريق هم أخوة اللاتين ولم يعتبرهم على الاطلاق «منشقين»(٧٤) .

ويبدو من الواضح أن العلاقات بين روما والقسطنطينية استمرت بعد قطيعة (عام ١٠٥٤م) ورغم ما تعرضت له العلاقات بعد ذلك من أزمات إلا أنها كانت عابرة . فالمسيحيون الشرقيون والغربيون لم يشعروا أن هناك ثمة انشقاق أو قطيعة بينهما ؛ وكان يأمل العلمانيون والكنسيون أن سوء التفاهم بين شطري العالم المسيحي يمكن أن يسوّى دون صعوبة ؛ خاصة وأن هناك تياراً قوياً في الدوائر الكنسية في كلا الجانبين يؤمن ويعمل على ايجاد المناخ الملائم لتسوية الخلافات العقائدية التي هي موضع خلاف بين الكنيستين . ولكن كان للحروب الصليبية أو للحركة الصليبية الدور الأول في تأكيد هذه القطيعة وترسيخها وذلك حينما أمدت الشعبين الاغريقي واللاتيني ـ بروح الكراهية وأنزلت مسألة العلاقات الكنسية بين روما والقسطنطينية الى الأوساط الشعبية في الشرق والغرب جميعاً .

---

(٧٣) عن مجمع باري الذي عقده اوربان الثاني في ابوليا عام ١٠٨٩م . انظر :
انظر : جراسيمون : المرجع نفسه . ج٢ . ص١٥٧ .

Runciman, The Eastern Schism, pp. 76-77;

(74) Roger of Wendover, Flowers of Hist., Vol. 11, pp. 367-68; Leib, Rome, Kiev et Byzance, pp. 287-94.

الفصل الثالث

بعض تأثيرات الحركة الصليبية على العلاقات الكنسية بين روما والقسطنطينية .

لا شك أن الرغبة في مساعدة المسيحيين في الشرق كانت احدى الدوافع التي أثارت البابا اوربان الثاني لشن الحرب الصليبية . ويبدو أن الاتصال بين الكسيوس كومنين والبابا اوربان الثاني ـ كما أسلفنا ـ جعلت الأخير على دراية كاملة بالمسألة السلجوقية والأخطار التي تحيق ببيزنطة ، فضلاً عن أن الحجاج الغربيين نقلوا للبابا الصعوبات التي يواجهها زوار بيت المقدس(١) . وربما اعتقد اوربان الثاني ـ ازاء هذه المعطيات ـ ان من مصلحة العالم المسيحي كله أن يهبّ الغرب لانقاذ الشرق واذا تم ذلك فانه من المؤكد سوف يساعد على تخفيف هذا التوتر بين القسطنطينية وروما ، وبالتالي سوف يتم الاعتراف بالبابا زعيماً لا منافس له على العالم المسيحي في الشرق والغرب(٢) .

على أن الحركة الصليبية كما فهمها الغرب كانت تعتبر شيئاً غريباً كلية بالنسبة للامبراطورية البيزنطية ، فبالنسبة للأخيرة لم يكن هناك شيء جديد في الحرب ضد المسلمين ؛ وكل ما في الأمر هو أن الحروب بين الطرفين كانت تتجدد نتيجة ظروف سياسية ، وحتى مسألة «استرداد» الأرض المقدسة ـ التي كانت في يوم ما إقليماً يخضع للامبراطورية البيزنطية ـ يعتبر واجب الدولة البيزنطية وليس التزاماً على كل العالم المسيحي في الشرق والغرب . يضاف الى ذلك كله ان الانشقاق الديني بين الكنيستين جعل من الصعوبة وجود قاعدة لعمل مشترك مع الغرب الاوروبي ، ولهذا فان جل ما كانت تريده بيزنطة من الغرب آنذاك هو مرتزقة وليس جيوشاً على رأسها

---

(١) انظر رواية آنا كومنين عن حج بطرس الراهب وفشله بذلك وعودته الى اوربا ودوره في اثارة الحرب الصليبية الأولى :
ANNA,The Alexiad, pp. 248-9.

(2) Runciman, The Eastern Schism, P. 78.

قادة من كبار امراء الغرب تعمل في كيان مستقل عن الدولة البيزنطية(٣) . ولقد اعتقدت بيزنطة أنه اذا كان لا بد من قيام حرب ما ضد المسلمين فانها هي الوحيدة المؤهلة والمختصة ـ بحكم تجربتها الطويلة مع المسلمين ـ في ادارة العمليات وتوجيهها(٤) .

وعلى هذا فان الخلاف في تصوّر الحرب مع المسلمين ، بين الشرق والغرب المسيحيين ، هو الذي قاد الى كل السلبيات في علاقة بيزنطة مع الصليبيين ، بل ومع روما من خلالهم . فمنذ البداية أعلنت بيزنطة عن دهشتها لهذه الحركة ومن ثم تحولت هذه الدهشة الى ريبة وشك في أهدافها ونواياها حتى اضطرت الى مقاومتها . وفي ذلك قالت المؤرخة البيزنطية آنا كومنين ، عندما استهلت حديثها عن الحملة الصليبية الأولى ،: «لقد سمع الامبراطور (أي والدها الكسيوس كومنين) اشاعة مفادها أن جيوشاً لا تحصى من الفرنجة تقترب ولقد خشي الامبراطور وصول هؤلاء لانه يعرف جيداً سلوكهم وطبيعتهم وأخلاقهم وجشعهم وحنثهم بالمعاهدات لأتفه الأسباب ، ولم يكن ما سمعه الامبراطور مجرد اشاعة بل هو حقيقة واقعة ، وعلى أية حال فانه لم يجبن وأعد نفسه لكل طارىء محتمل ، وكانت الحقيقة أكبر مما صورتها الاشاعة لأن الغرب وكل القبائل البربرية التي تسكن ما بين الجانب الأقصى للادرياتي وما بين اعمدة هرقل ، هاجرت جميعها كأنها جسم واحد وزحفت نحو آسيا مروراً بأوروبا»(٥) .

ومن رواية هذه المؤرخة نفهم أن بيزنطة نظرت الى الحرب الصليبية على أنه مشروع اوروبي (فرنجي ـ بربري) واعتبرته حركة سياسية ؛ وكان من حقها أن تشعر بالخوف من هذه الحشود التي أخذت تتدفق على أراضيها «وكأنها أنهار تنحدر من كل حدب وصوب»(٦) . بل يبدو واضحا أن بيزنطة كانت أكثر واقعية من البابوية ـ كما أثبتت الأحداث ـ في فهمها للدوافع التي تحرك الجموع الصليبية . أو ذلك «الهيجان الذي لم يسبق له في التاريخ الانساني مثيلاً» على قول آنا كومنين(٧)

(3)Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine state, p. 320.
(4) Bailly, Byzance, p. 332.
(5) ANNA,The Alexiad, p. 248.
(6) Ibid., p. 249.
(7) Ibid., p. 250.

ومن هنا كانت البداية الحقيقية للأزمات التي تفجّرت بين روما والقسطنطينية خلال عصر الحروب الصليبية كله ، فأهداف الامبراطور البيزنطي ومصالح دولته تتناقض أو بالأحرى تتعارض مع أهداف البابوية والحركة الصليبية التي أشرفت على تنظيمها . ذلك أن الصليبيين الذين قدموا لانقاذ الشرق المسيحي رفضوا أن يكونوا مرتزقة لدى الامبراطور الذي لم يكن بحاجة إلا لمرتزقة يعملون تحت امرته . واذا كان الصليبيون قد قدموا لمحاربة المسلمين فان الكسيوس كومنين لم يكن عدواً بشكل مطلق للمسلمين ، انما عدواً لفئة منهم وهم الأتراك السلاجقة ، الذين انتزعوا آسيا الصغرى من الامبراطورية البيزنطية ، واذا كان الصليبيون والبابوية قد اهتموا في المقام الأول في الاستيلاء على فلسطين وبيت المقدس فان بيزنطة اعتبرت ذلك فكرة خيالية إلى حدٍ بعيد(٨) . هذا الى أن فكرة الحرب المقدسة لم تكن فكرة يمكن قبولها في المجتمع البيزنطي ، فعلماء اللاهوت الارثوذكس أمثال القديس بازيل القيسري ، قد أكد بأن الحرب لا يمكن أن تكون مقدسة حتى ولو كانت ضرورية(٩) .

ومهما يكن من أمر فإن الجيوش الصليبية عبرت الأراضي البيزنطية خلال عام ١٠٩٦ ـ ١٠٩٧م ، ووجد الصليبيون أنفسهم في أرض غريبة عنهم ، فالأرض البيزنطية ـ المسيحية الارثوذكسية ـ كانت بالنسبة لهم موحشة ، ولغة سكان هذه الأراضي كانت بالنسبة لهم غامضة مبهمة ، ومدن هذه الأرض بدت لهم كبيرة مرعبة ، وكنائسها البيزنطية اختلفت في صورتها عن كنائسهم ، ورجال الدين الارثوذكس ـ بذقونهم السوداء وكعكات شعورهم وثيابهم السوداء ـ كانوا غير رجال الدين اللاتين الكاثوليك الذين اعتادوا رؤيتهم(١٠) .

ومن جهة أخرى فان الشعب البيزنطي لم يُظهر ارتياحاً كبيراً عندما رأى «منقذيه» يجتازون أراضيه ، حتى أن الفلاحين البيزنطيين أخفوا المؤن والأطعمة ورفضوا اكرام من جاء لينقذهم(١١) ، والجيش الامبراطوري المكلف في مراقبة الصليبيين وهم في

---

(8) Bayens and Moss, Byzantium, p. 322; Diehl, Byzntium, p. 217.
(9) St. Basil of Caesarea, letter No. 188, in M. P. G., Vol. 32, Col. 681.
(10) Runciman, The Eastern Schism, p. 80-86.

(١١) المؤرخ المجهول : الجستا ، ص ٢٦ ، ٢٨ .

طريقهم الى العاصمة لم يتوان عن استخدام العنف معهم عندما ينحرفون عن الطريق المرسوم(١٢) .

وقد صدم البيزنطيون وهم يرون الجيش الصليبي يضم حجاجاً مسلحين وأساقفة ورجال دين يذهبون الى القتال ، واعتقد البيزنطيون انه اذا كان الأساقفة والرهبان جنوداً في الجيش الصليبي فلا بد أن يكون زعيم هؤلاء ـ أسقف روما ـ وخليفة القديس بطرس ـ امبراطوراً حقيقياً للغرب الأوروبي المسيحي(١٣) . وأعربت آنا كومنين عن دهشتها وهي ترى بطرس الراهب يقود الجموع الصليبية الى القتال(١٤) .

أما البابوية فكانت ترقب نتائج رسلها الى الشرقين : المسيحي والاسلامي ، وتنظر بقلقٍ شديد فيما اذا كانت المفاهيم الجريجورية الاصلاحية سوف يكتب لها الانتشار في الشرق المسيحي ! وهكذا حتى نجح الصليبيون والبيزنطيون في تجاوز اللحظات الصعبة التي ألمت بعلاقاتهما في بداية الحملة ، ووصل الصليبيون الى انطاكية ، ونجحوا في احتلالها بعد ملحمة عظيمة نادرة في التاريخ(١٥) .

وتركّز النزاع بين بيزنطة والصليبيين ، منذ بداية الحملة على انطاكية التي انتزعها بوهيموند النورماني ، اللاتيني ، وصديق البابا اوربان الثاني(١٦) . فلم يكن بامكان بيزنطة الاكتفاء بالاحتجاج بالنسبة الى اغتصاب حقوقها في انطاكية ، مثلما حدث في الرها ، فضلا عن الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية التي تتمتع بها انطاكية ، فان معظم سكانها هم من الاغريق البيزنطيين الارثوذكس . وجاء اغتصاب بوهيموند لأنطاكية ليعطي المسألة الانطاكية بعداً دينياً ، بل لا يُستبعد أن يكون عمل بوهيموند هذا قد دمّر كل فرصة كان بامكانها أن تؤدي الى إعادة الوحدة بين الكنيستين التي كانت تشكل جزءاً أساسياً من خطة اوربان الثاني وهدفه في شن الحرب الصليبية(١٧) .

---

(١٢) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(13) Every, The Byzantine Patriarchate, pp. 158-59.

(14) ANNA, The Alexiad, pp. 248-50.

(١٥) عن فتح انطاكية انظر أصول المسألة الأنطاكية في بداية الباب التالث من هذه الدراسة .

(١٦) عن العلاقة بين بوهيموند واوربان الثاني أنظر :

Yewdale, Bohemond, pp. 31-32.

(17) Setton, Hist. of the crusades, Vol. I, p. 373.

ومن الملاحظ جيداً أن جميع الحملات الصليبية منذ الصليبية الأولى ـ بما فيها الحملة الرابعة ـ كانت تضم جناحاً صليبياً معتدلاً راغباً ، عن صدق ، في العمل على التعاون مع البيزنطيين ، وقد مثّل هذا الجناح في الصليبية الأولى المندوب البابوي ادهيار ، وربما كان الأخير يعمل وفق وصايا سيده البابا أوربان الثاني ، بل ربما كان الوحيد من بين الصليبيين الذي كان يعرف ما يدور في عقل اوربان الثاني(١٨) .

وكانت بطريركية انطاكية بيد البيزنطيين منذ عام ٩٦٩م ؛ وكان البطريرك يوحنا السابع في أنطاكية أثناء حصار الصليبيين لها . ويوحنا هذا رجل بيزنطي من مدينة القسطنطينية ، وكان قد رفض أن يتخلى عن شعبه عندما اقترب الصليبيون من أنطاكية ، وعامله الأتراك معاملة قاسية أثناء الحصار الصليبي لانطاكية . ولدى استيلاء الصليبيين على المدينة الأخيرة أسرع أدهيار وأعاد البطريرك البيزنطي يوحنا السابع الى عرشه(١٩) . ودخل عدد من الأساقفة اللاتين الكاثوليك في الخدمة الالهية في كنيسة انطاكية الرسولية تحت رئاسة يوحنا السابع البيزنطي الارثوذكسي(٢٠) . وعندما أراد الصليبيون تعيين بطرس الناربوني اللاتيني أسقفاً على البارة بعثوا به الى انطاكية حيث رسم على يد البطريرك البيزنطي يوحنا السابع(٢١) .

وفي أغسطس من عام ١٠٩٨م توفي المندوب البابوي أدهيار(٢٢) وخسر الصليبيون بوفاته قائداً روحياً عظيماً(٢٣) ، بل خسر البيزنطيون فيه صديقاً أظهر ميلاً واضحاً للتعاون معهم(٢٤) ، وعمل ما في وسعه لتأليف القلوب ، وخاصة جهوده في إعادة البطريرك يوحنا الى كرسي انطاكية ، كما أسلفنا قبل قليل . وكانت وفاة المندوب البابوي نقطة تحول خطيرة ـ على المدى البعيد ـ في العلاقات بين روما والقسطنطينية ؛ وسرعان ما ظهرت نتيجة وفاة ادهيار ، حيث بعث الصليبيون رساله

---

(18) Runciman, The Eastern schism, p. 86.
(19) Roger of Wendover, Flowers of Hist., Vol. 11, p. 422. Every, the Byzantine patriarchate, p. 160.
(20) Albert of Aix, in R. H. C. occ. Vol. IV, p. 433.

(٢١) المؤرخ المجهول : الجستا ، ص ١٠١ : أيضاً انظر :

Raymond D'Agiles, in R. H. C. occ. Vol. 111, p. 266.

(٢٢) المؤرخ المجهول :، ص ١٠٠ .

(23) M. of Westminster, The Flowers of Hist., Vol. 11, p. 24.

(24) Every, OP. Cit., p. 158.

إلى البابا أوربان الثاني(٢٥) ، يقترحون عليه القدوم الى الشرق لتسلم كنيسة انطاكية ، كنيسة القديس بطرس . وفي الرسالة ذاتها قصّ الامراء على البابا الصعوبات التي واجهتهم من قبل «الهراطقة الاغريق والأرمن واليعاقبة»(٢٦) ، وهذا يعني تجاهلاً كلياً لوجود البطريرك الشرعي الارثوذكسي يوحنا السابع ، الذي أعاده ادهيار قبل فترة وجيزة الى كرسيه(٢٧) .

أما بوهيموند فقد أدرك أن بيزنطة لن تغفر له اغتصاب حقوقها في انطاكية ، واعتقد أن اغريق المدينة وبطريركها يوحنا السابع سوف يقدمون الدّعم للعاهل البيزنطي اذا حاول انتزاع انطاكية من الصليبيين . ولذا أخذ يضايق البطريرك يوحنا وعامله بشيء من الفظاظة والشك ؛ وربما رأى فيه «عميلاً بيزنطياً» ، وفي ذات الوقت أخذ يتجاهله ، فعندما عينّ الصليبيون أساقفة لاتين على طرسوس وارتاح (حارم) والمصيصة والرها ، فإن رسم هؤلاء الأساقفة الجدد تم على يد البطريرك اللاتيني لبيت المقدس دايمبرت ، علماً أن ذلك كان من حق البطريرك الانطاكي(٢٨) . وازاء أحوال كهذه اضطر يوحنا السابع الى مغادرة انطاكية والتجأ الى القسطنطينية وبرفقته عدد من كهنته ؛ وفور وصول البطريرك الانطاكي الى القسطنطينية استقال من منصبه وقام الاكليروس الانطاكي الذي رافقه بانتخاب خلف له(٢٩) . وفي نفس الوقت أسند بوهيموند بطريركية انطاكية الى القس اللاتيني برنارد دي فالنس(٣٠) . وبذلك أصبحت للكنيسة الانطاكية حكومتين إحداهما في المنفى ، بالقسطنطينية وتدعمها بيزنطة ؛

---

(٢٥) انظر النص الكامل لرسالة الامراء الصليبيين للبابا أوربان الثاني عند :

Chartre, Chronical., pp. 55-58.

(٢٦) يعتقد رنسيان أن المقصود بكلمة «الهراطقة الاغريق» التي وردت في رسالة الأمراء للبابا ، هم البوليسيون الذين يتكلمون الاغريقية ، وهؤلاء كانوا يعينون ـ كما أشار الى ذلك ريموند داجيل ـ في المناطق المجاورة لانطاكية .

انظر :

Raymond D'Agiles, in R. H. C. occ. Vol. 111, p. 262; Runciman, The Eastern Schism, p. 87.
(27) Chartre, Chronical., pp. 55-58; Every, The Byzantine patriarchate, p. 161.
(28) Runciman, The Eastern Schism, p. 92.
(29) Every, The Byzantine patriarchate, p. 162; Smail, The Crusading warfare, p. 51;

انظر : جراسيموس : تاريخ الانشقاق ، ج٢ ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

(٣٠) لقد استمر برنارد هذا بطركاً على انطاكية مدة ست وثلاثين سنة (١١٠٠ ـ ١١٣٦م) وبعد وفاته خلفه رالف اللاتيني . انظر :

William of Tyre, Hist, of deeds., Vol. 11, p. 60.

والاخرى في انطاكية ، لاتينية تدعمها روما ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت قضية إعادة البطريرك الشرعي الى انطاكية قضية مركزية في سياسة بيزنطة تجاه امارة انطاكية النورمانية الكاثوليكية ، خاصة وأن عدداً من الارثوذكس السوريين اعترفوا بالبطريرك الموجود بالمنفى بأنه البطريرك الشرعي لانطاكية ، وأن البطريرك اللاتيني فالنس مغتصب لحقوق الكنيسة الرسولية(٣١) .

وهكذا حدث انشقاق في بطريركية انطاكية ، مما ترك أثراً عميقاً في الصراع بين روما والقسطنطينية وكان من النتائج الأولى للحركة الصليبية على العلاقات بين الطرفين .

ومن ناحية اخرى فإننا لا نستطيع أن نغفل ما جرى في بيت المقدس وأثره على العلاقات بين كنيستي روما والقسطنطينية . فقبل أن يفتح الصليبيون بيت المقدس ، عام ١٠٩٩م ، كان البطريرك الشرعي الارثوذكسي لبيت المقدس ، وهو سيمون ، يعيش منفياً في قبرص بعد أن فرّ من بيت المقدس عام ١٠٩١م نتيجة الضيق الذي حلّ بالمسيحيين من قبل السلاجقة(٣٢) . وعندما وصلت الجيوش الى انطاكية عام ١٠٩٨م ، اتصل المندوب البابوي ادهيار بالبطريرك سيمون معترفاً به البطريرك الشرعي الوحيد لبيت المقدس(٣٣) ؛ بل حدث عندما بعث ادهيار تقريراً من انطاكية الى أوروبا ـ عن سير الأعمال في الشرق ـ ان كتب هذا التقرير باسم البطريرك سيمون ، بطريرك بيت المقدس ، وعندما طلب ادهيار نجدة من الغرب كتبها باسم البطريرك سيمون وأعطاه في نهاية الرسالة لقب البطريرك الرسولي Apostolicus ؛ وكانت لهجة ادهيار في رسالته الاخيرة تُوحي أن سيمون يتكلم وكأنه رئيس كل الأساقفة ـ الاغريق واللاتين ـ في الشرق(٣٤) .

---

(31) Every, Op. cit., pp. 161-63.

(32) Cf. Grousset, Hist. des Croisades, Vol. 1, p. 74.

(٣٣) عندما اتصل ادهيار بالبطريرك سيمون المنفي في قبرص ، أسرع الأخير بارسال مواد غذائية وذخيرة من الجزيرة الى الصليبيين في وقت كان الصليبيون بحاجة ماسة الى المساعدة . وقد استقبلت عطايا سيمون لدى الجمهور الصليبي بعرفان الجميل . انظر

Albert of Aix, in R. H. C. occ, Vol. IV, p. 489.

(34) Runciman, The Eastern Schism, pp. 85-86.

على أن البطريرك سيمون توفي قبل أيام قليلة من دخول الصليبيين الى بيت المقدس (يوليو ١٠٩٩م)(٣٥) . وقام الصليبيون فور وصولهم الى بيت المقدس بتعيين بطريرك لاتيني على كنيسة القدس ووضعوا «أساقفة لاتين في بقية الكنائس التابعة لبطريركية بيت المقدس . واستهل البطريرك الجديد آرنولف مهمته في بيت المقدس بطرد عدد من الكهنة الارثوذكس من كنائسهم ، وقام بتعذيب الرهبان الارثوذكس لكي يعترفوا له أين خبأ البطريرك سيمون «الصليب الحقيقي» قبل أن يهرب الى قبرص(٣٦) . وذهب ديمبرت ـ الذي حلّ مكان آرنولف بطريركاً على بيت المقدس ـ بهذه السياسية المعادية للارثوذكس الى أبعد من ذلك ، حيث طرد الارثوذكس من خدمة الضريح المقدس وجعلها وقفاً على اللاتين فقط ، كما أن دايمبرت قد صدم الحشمة الشرقية عندما أدخل الكاهنات للخدمة في الضريح المقدس(٣٧) .

ومنذ ذلك الوقت (١٠٩٩م) وحتى استرداد صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس عام ١١٨٧م(٣٨) ، وجدت حكومتان(٣٩) لبطريركية بيت المقدس احداهما تعيش في المنفى ، في قبرص ؛ والثانية في بيت المقدس ؛ وحكومة المنفى هي الحكومة الشرعية الارثوذكسية ، حيث استمر رجال الدين الذين رافقوا سيمون الى قبرص ، في انتخاب البطاركة ومن تم انتقلوا الى القسطنطينية وتلقوا الدعم والتأييد من القسطنطينية . أما الحكومة الثانية ، وهي وليدة الحرب الصليبية ، فكانت لاتينية كاثوليكية ، وكانت تتلقى الدعم والتأييد من روما ، بل أن بطاركة بيت المقدس اعترفوا بتبعيتهم للبابا ، والتجأوا اليه اثناء صراعهم مع العلمانيين ، أو أثناء صراعهم مع الاكليروس اللاتيني(٤٠) .

وهكذا أوجدت الحركة الصليبية ، التي بشرّ بها أوربان الثاني «فافر للصدام بين روما والقسطنطينية ، وخاصة المخفر الانطاكي الذي وضع أساسياته بوهيموند ، فضلاً

(35) Albert of Aix, Op. cit., p. 489.
(36) Raymond d'Agiles, in R. H. C. occ. Vol. 111, p. 302.
(37) M. of Edessa, Chronique., pp. 233-34.

(٣٨) عن عوده البطريركية الى الارثوذكس بعد فتح صلاح الدين للقدس انظر : عاشور : الحركة الصليبيه ، ج٢ ، ص ٨٢٦ ـ ٨٢٧ .

(39) Ware, The Orthodox Church, p. 68.

(40) William of Tyre, Hist. of Deeds, Vol. 1, pp. 460-61.

عن أن الاحتكاك الذي تمّ بين الجموع الصليبيةوالشعوب البيزنطية خلال اجتياز الصليبيين للامبراطورية،قدخلق الأرضية المناسبة لنمو العداء بين الشعبين اللاتيني والاغريقي ، مما كان له الأثر البعيد على العلاقة بين الكنيستين . ورغم المساعي التي بذلها أدهيار في بداية الحركة لخلق الألفة والتعاون بين الاغريق واللاتين ، ورغم انه ضرب مثلاً طيباً في علاقته مع البطريرك الانطاكي وبطريرك بيت المقدس معترفاً فيهما بأنهما البطريركيان الشرعيّان للكنيستين الرسوليتين ، إلا أن فرص الانقسام والشقاق كانت متوفرة كثيراً .

ثم جاءت حملة عام ١٠١١م الصليبية أو الحملة النورمانية كما تسميها آنا كومنين(٤١) ـ عبر الأراضي البيزنطية ـ وارتكبت الشيء الكثير من أعمال السلب والنهب في طريقها(٤٢) ، وهدد رجالها العاصمة البيزنطية أثناء مرابطتهم حولها انتظاراً لوصول بقية الفرق(٤٣) . وانتهى بهم المطاف بتمزيقهم على يد السلاجقة الأتراك قرب سيواس ، وذلك عندما اتجهوا شرقاً لانقاذ بوهيموند من الاسر التركي(٤٤) . ولقد حمّل الصليبيون والغرب الاوروبي عامة الامبراطور البيزنطي مسؤولية تلك الكارثة التي حلت بالصليبيين(٤٥) ، واتهمت الكسيوس كومنين بالتآمر مع الأتراك ضدهم(٤٦) . وانعكست هذه الاتهامات على علاقة بيزنطة بالبابوية ، إذ أخذت الأخيرة تقتنع تدريجياً ـ من خلال تقارير الصليبيين القادمة من الشرق والمفعمة بتهم الخيانة لبيزنطة ـ أن البيزنطيين غير مخلصين للحركة الصليبية ، بل انهم يعملون على اجهاضها من خلال استمرار العلاقات الدبلوماسية بين بيزنطة والأتراك . وربما زاد الامتعاض سوءاً أن المراسلات التي تمت بين الكسيوس كومنين والخليفة الفاطمي قد وقعت بيد الصليبيين ، خاصة وأن الامبراطور البيزنطي ينكر فيها وجود أية علاقة بينه وبين الغزو الفرنجي الصليبي لفلسطين(٤٧)

وكان أن أدرك العاهل البيزنطي أن البابوية حنقت عليه وعلى شعبه وأن الغرب

(41) Anna, The Alexiad, P. 288.
(42) Ibid., PP. 288—90; Albert Of Aix, Vol. Iv, PP. 560—81.
(43) Anna, PP. 288—90; Albert Of Aix, PP. 560—62.
(44) Anna, PP. 288—90; Albert Of Aix, 564—66.
(45) M. Of Edessa, P. 243.
(46) Diehl, Hist. Of The Byzantine Empire, P. 123.
(47) Runciman, The Eastern Schism, P. 93.

الاوروبي يردّد التهم التي وجهها الصليبيون للبيزنطيين ، ولذا عمـل الامبراطـور البيزنطي على تغيير هذه الصورة التي ارتسمت ـ وفيها الكثير من المبالغة ـ في اذهان اللاتين ، فقام بالتوسط لدى الخليفة الفاطمي للافراج عن عدد من الاسرى «الفرنج» ونجح في ذلك . وقدم الاسرى شكرهم وامتنانهم للامبراطور ومن ثم بعثهم الى الغرب الاوروبي مكرمين معززين ليدحض الأقاويل المعادية للبيزنطيين(٤٨) . كما استقبـل الكسيوس كومنين الأسقف اللاتيني مانياس ، وشرح له الظروف التي ألمت بحملة سنة ١١٠١م الصليبية ، وعدم مسؤولية بيزنطة عن الكارثة التي حلّت بها ، واقتنع الأسقف اللاتيني بذلك ووعد بأنه سيعمل على تبرئة بيزنطـة في الدوائـر الـدينية والسياسية في الغرب . ولكن الأسقف عمل بعكس ما وعد حيث رفع تقريراً رسمياً الى مجمع بينفنتو عام ١١٠٢م عن خيانة البيزنطيين للصليبيين(٤٩) .

ثم كانت حملة بوهيموند ضد بيزنطة (١١٠٧ ـ ١١٠٨م) ، ومحضها البابا باسكال الثاني الدعم والتأييد . فلقد كان من السهل على بوهيموند اقناع البابا باسكال بخيانة بيزنطة للقضية الصليبية وذلك لأن الأخير كان لا يزال يذكر تقرير مانياس ، ولا يزال يذكر ما كتبه اليه الصليبيون من الشرق ، وما نقله له الحجاج . ولذا وقف البابا باسكال الثاني الى جانب بوهيموند في حملته ضد «بيزنطة المسيحية» ، وبعث مندوباً عنه ، وهو الاسقف برنو ، يبشر بحملة بوهيموند في الغرب الاوروبي(٥٠). وبذلك اتخذت تلك الحملة الصفة «الصليبية» ، كما لو أنها كانت موجهة ضد المسلمـين . والواقع ان موقف باسكال الثاني ودعمه وتبشيره بحملة بوهيموند ضد الامبراطورية ، كان في حقيقته تجديد لموقف البابا جريجوري السابع ، الذي وقف مؤيداً ومبشراً بحملة روبرت جويسكارد ضد بيزنطة (١٠٨١ ـ ١٠٨٥م) .

والواقع أن كنيسة روما سجلّت في عهد باسكال الثاني خطيئة كبيرة بالنسبـة لعلاقاتها مع بيزنطة ، فإذا كان جريجوري السابـع قد أيّد الغـازي النورمانـي ـ جويسكارد ـ ضد بيزنطة وحرم العاهل البيزنطي الكسيوس كومنين من الكنيسة ، وإذا

---

(48) Anna, The Alexiad, PP. 301— 302; Finlay, Hist. Of Greece, Vol, 111, P. 118.
(49) Yewdale, Bohemond, P. 107.
(50) Anna, Op. Cit., P. 318; Finlay, Op. Cit., Vol. 111, P. 118. Yewdale, Op. Cit., P. 108; Vasiliev, Hist. Of The Byzantine Empire, Vol, 11, P. 410; Setton, Hist. Of The Grusades, Vol. 1, P. 391.

كان جريجوري السابع قد جرح شعور البيزنطين بموقفه هذا ، فان قرار الحرمان ضد الامبراطور سرعان ما الغاه البابا اوربان الثاني ؛ ولكن تبشير البابا باسكال الثاني بحملة «صليبية» ضد امبراطورية مسيحية ارثوذكسية يعني أن البيزنطيين ـ من وجهة نظر البابا ـ ليسو أفضل من المسلمين(٥١) . وعلى هذا فاذا كان طرد البطريرك الانطاكي يوحنا السابع من انطاكية نقطة التحول الاولى في العلاقات بين روما والقسطنطينية منذ بداية الحركة الصليبية ، فإن تأييد البابا باسكال الثاني لحملة بوهيموند ضد بيزنطة كان نقطة التحول الثانية والأكثر خطورة على صعيد العلاقات ليس بين الكنيستين وانما بين الشعبين المسيحيين اللذين ترعاهما روما والقسطنطينية .

ولحسن حظ العالم المسيحي ، في الشرق والغرب على حد سواء ، أن حملة بوهيموند مُنيت بفشل ذريع ، واضطر الأخير أن يوقّع معاهدة ديابوليس (ديفول) ١١٠٨م مع بيزنطة(٥٢) ، وبحضور الممثل البابوي . وتضمنت هذه المعاهدة فيما تضمنت إعادة البطريرك الشرعي البيزنطي الى عرش الكنيسة الانطاكية وعزل اللاتيني(٥٣) . وأقسم بوهيموند على الالتزام بالمعاهدة . إلا أن عودة بوهيموند الى ايطاليا ورفض تانكريد الاعتراف بها ، جعل معاهدة ديفول حبراً على ورق كما ناقشنا ذلك سابقاً .

لا يستطيع أحد أن ينكر أن البابوية حققت انتصاراً تاريخياً من خلال الحركة الصليبية ، وهذا الانتصار هو نجاح برنامج كثلكة الكنائس الشرقية في المدن والامارات الصليبية في بلاد الشام ؛ ذلك ان نجاح الحملة الصليبية الأولى وتعيين اثنين من البطاركة اللاتين أحدهما على كنيسة القديسين بطرس وبولس ، في انطاكية والثاني على كنيسة القديس يعقوب في بيت المقدس ، كان حلماً راود مخيلة البابوية منذ القرن الخامس للميلاد . وتبعية هاتين الكنيستين الرسوليتين لكنيسة روما أو بالأحرى احتواء روما لهما ، كان انتصاراً عظيماً على طريق الزعامة الدينية العالمية ، التي ناضلت من أجلها روما منذ القرن الرابع للميلاد . وكان ذلك ـ في الوقت نفسه خسارة كبرى لبطريركية القسطنطينية .

(51) Runciman, The Eastern Schism, P. 94.

(٥٢) انظر النص الكامل للمعاهدة عند آنا كومنين :

Anna, The Alexiad, PP. 348— 58.

(53) Ibid., P. 355; Yewdale, Bohemond, P. 129.

فمنذ الفتح الاسلامي في القرن السابع والقسطنطينية هي زعيمة العالم المسيحي الشرقي . وبطريركية انطاكية وبيت المقدس هما بطريركيتان ارثوذكسيتان ، والشعوب التابعة لهما هي شعوب على المذهب الارثوذكسي : إن انطاكية وبيت المقدس اعترفتا بتقدم اسقف القسطنطينية عليهما أدبياً . وانطاكية بالذات كان بطاركتها إما اغريقاً بيزنطيين أو خريجي المدارس اللاهوتية الاغريقية . وكان الارثوذكس التابعون لانطاكية وبيت المقدس ينظرون الى الامبراطور البيزنطي أنه مسؤول عن حمايتهم . ومن هنا جاءت خسارة القسطنطينية وكان انتصار روما . وربما رغبت روما في اخضاع القسطنطينية عن طريق احتواء انطاكية وبيت المقدس اللتين كان يعتمد عليهما بطريرك القسطنطينية للصمود في وجه روما ونظريتها البطرسية . وسبق أن ذكرنا أن ميخائيل كريولاريوس كان قد بعث برسالة مطولة الى زميله بطريرك انطاكية بطرس الثالث يخبره فيها بما جرى بينه وبين همبرت (عام ١٠٥٤م) ويطلب منه الوقوف الى جانبه ضد روما .

وكان أن أدركت بيزنطة الارتباط العميق بين الجانبين السياسي والديني في المسألة الانطاكية ، وعملت على حل المسألة من الزاويتين في آن واحد . وقد ناضل الكسيوس كومنين عشرين عاماً ، ليحّل المسألة الانطاكية ويوقف برنامج الكثلكة الذي تبناه نورمان انطاكية ، وفشل . كما ناضل من بعده ابنه ثم حفيده وفشلا في ذلك سياسياً ودينياً . وكان يتوجب على روما ازاء المساعي التي بذلها آل كومنين لحل المسألة الانطاكية ، أن تقف مدافعة عن الامارة النورمانية ، بل أن تقف مدافعة عن الانتصار الكنسي الذي حققته من خلال الحملة الصليبية الأولى ؛ ففي حين أن روما لم تقبل تسوية المسألة الانطاكية إلا على أساس ابقاء اللاتين في مراكزهم الدينية بدءاً من البطريرك وحتى كاهن القرية ، كانت القسطنطينية بعكس ذلك تقبل تسوية المسألة الانطاكية بأي شكل ولكن بشرط إعادة الارثوذكس الى مناصبهم واسقفياتهم التي عزلوا عنها بدءاً من البطريرك وحتى الخوري في القرية . واتضح إصرار القسطنطينية على ذلك من خلال ثلاث معاهدات رئيسية عقدها الاباطرة البيزنطيون مع امراء انطاكية وهي معاهدة ديابولس (ديفول) عام ١١٠٨م ومعاهدة انطاكية عام ١١٣٧م ومعاهدة المصيصة عام ١١٥٩م . وهي المعاهدات التي شرحناها في الفصول

السابقة . وعندما جدّد يوحنا كومنين حملته الاولى ضد نورمان انطاكية (١١٣٧ ـ ١١٣٨م) أصدر البابا انوسنت الثاني مرسوماً (١٢ مارس ١١٣٨م) يدعو فيه كل اللاتين الذين يخدمون في الجيش البيزنطي الى الانسحاب وترك الخدمة ، إذا هاجم يوحنا كومنين أمارة انطاكية أو الممتلكات اللاتينية الاخرى في المشرق(٥٤) . وهذا المرسوم يفسر لنا القلق الذي كانت تنظر به البابوية الى التقدم البيزنطي في شمال الشام ، فالفتح السياسي لا بد أن يتبعه فتح ديني ففي كل مكان تحل فيه السيطرة البيزنطية يتم تعيين أساقفة بيزنطيين(٥٥) . وجاء مرسوم البابا انوسنت محاولة لإعاقة هذا التقدم السياسي ـ الكنسي . وعندما ادخل بوهيموند الثالث ، ولأول مرة منذ عزل يوحنا السابع عام ١١٠٠م ، بطريركاً بيزنطياً على انطاكية عام ١١٦٥م ثارت البابوية وثار اللاتين في الشرق بدعم من البابوية ، حتى تدخل زلزال عام ١١٧٠م ليضع حداً لحياة اثنا سيوس الثاني ، وليعيد البطريرك اللاتيني ايميري الى كرسي انطاكية(٥٦) .

ثم جاءت الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٧م ، لتكشف ما حققته الحركة الصليبية بعد نصف قرن ـ بالنسبة لعلاقات روما مع القسطنطينية ، ففي الحملة الأولى (١٠٩٧) كان الجناح المعتدل بين الصليبيين تجاه القسطنطينية يتمثل بالدرجة الأولى في رجال الدين المرافقين للحملة بزعامة المندوب البابوي أدهيمار الذي رغب في التعاون مع البيزنطيين . وكانت الميول العدوانية تجاه بيزنطة والارثوذكس تتركز بشكل واضح بين الأمراء بزعامة بوهيموند . ولكن في الحملة الصليبية الثانية كانت الصورة مغايرة تماماً . فبينما عمل رجال الدين بزعامة ادهميار في الحملة الأولى على كبح جماح الامراء وتحريضهم على التعاون مع البيزنطيين ، وبينما أتى الصليبي العادي في الحملة الأولى الى الشرق وهو لايحمل أفكاراً مسبقة عن الخلاف بين كنيستي روما والقسطنطينية ، إذ بالصليبي العادي في الحملة الصليبية الثانية يأتي الى الشرق وهو مؤمن مسبقاً بالمثل الذي كان يعّم الغرب الاوروبي آنذاك «إنني أخشى اليونانيين (البيزنطيين) حتى وهم يحملون الهدايا»(٥٧) . والقارىء المتمعن لمؤرخ الحملة

(54) Chalandon, Les Comnenes, Vol. 11, P. 164.
(55) Odo Of Deuil, De Profectione. Ludovice Vii In Orientem, P. 69.
(56) Michel The Syrian, In R.H.C. Doc Nrm. Vol. 1, PP. 360, 71.
((57) Odo Of Deuil, De Profectione., P. 25.

الفرنسية ـ في الصليبية الثانية ـ أودو من دويل(٥٨) يمكنه أن يكتشف بدقة الخلفية الذهبية التي كانت تتحكم في علاقات الكاثوليك (اللاتين) بالارثوذكس (الاغريق)، خلال اجتيازهم للأرض البيزنطية. إن مؤرخ الحملة الفرنسية يكشف في حديثه عن الخلافات الدينية التي هي موضع خلاف بين الكنيستين، بينما المصادر المتعلقة بالحملة الأولى لا تشير اطلاقاً لمثل هذه الخلافات. ويقول هذا المؤرخ «إذا استخدم رجال الدين اللاتين المذبح الاغريقي لاقامة القداس فإن الاغريق يقومون بعد ذلك بتطهير المذبح اعتقاداً منهم أن اللاتين قد دنسوه»(٥٩). ويقول أيضاً «إذا تزوج البيزنطيون (الأغريق) من نساء لاتينيات فإنهم يجبرونهن على العماد مرة ثانية وفقاً للطقوس الاغريقية». ثم يذكر هذا المؤرخ الخلافات الموجودة بين الكنيستين حول قضية الانبثاق Filioque وقضية تقديم القربان المقدس ... الخ(٦٠). كذلك يطالعنا مؤرخ الحملة الثانية برواية لها أهمية كبيرة في الكشف عن عمق الخلافات الحضارية بين الطرفين، ويقول أنه صادف أثناء وجود الجيش الفرنسي حول القسطنطينية عيد القديس دينيس «ولما كانت الكنيسة الاغريقية تحتفل بهذا العيد أيضاً فقد بعث الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين بنفرمن خيرةالقساوسة الاغريق وهم مزودون بدفوف ذهبية الى معسكر الملك لويس (لويس السابع ملك فرنسا) ليرتلوا الأناشيد الدينية والصلوات بهذه المناسبة. ويعترف المؤرخ صراحة: «ان ما أنشده هؤلاء القسس الاغريق كان غريباً عن مسامعنا لغة ومعنى، فهو مغاير لما اعتدناه في صلواتنا اللاتينية، ومعظم هؤلاء الكهنة (أي القساوسة الاغريق) كانوا من الخصيان»(٦١).

ويبدو أن الجناح المتطرف في الحملة الصليبية الثانية كان يتركّز في رجال الدين المرافقين لها. فهذا الأسقف لانجر Langer يحرض الملك لويس على احتلال القسطنطينية وقال له: «إذا احتلينا القسطنطينية فإن المدن الاخرى ستخضع لنا طوعاً» وأضاف الأسقف قائلا للملك لويس السابع: «ان القسطنطينية مدينة مسيحية

(58) Loc. Cit.
(59) Ibid., P. 55.
(60) Ibid., P. 57.
(61) Ibid., PP. 67—69.

اسماً وليس في الواقع والحقيقية» . ثم أخذ الأسقف يذكر الملك لويس بما فعله والد الامبراطور مانويل (أي يوحنا كومنين) أثناء حملتـه على انطـاكية(٦٢) عام ١١٣٧ - ١١٣٨م . وقال الأسقف «الجليل» : «ان الصليب وضريح السيد لن يكونا في أمان طالما جلس على عرش هذه المدينة هذا الانسان (أي الامبراطور البيزنطي) الذي هو عدو القديس بطرس وعرشه الرسولي في انطاكية»(٦٣) . وهنا نود أن نؤكد أن المسألة الانطاكية كانت مسألة أوروبية ، والبعد الديني فيها كان واضحاً وأساسياً بالنسبة للدوائر الكنسية في الغرب الاوربي ، وانتصار البابوية في هذا السبيل لم يكن من السهل التنازل عنه لأن المدافع عن عملية «الرومنة» ، التي نجح نورمان انطاكية في فرضها ، لم يكن البابا وحده وانما اللاتين الكاثوليك في الغرب الاوربي . وهذا يعني من جهة أخرى أن المسألة الانطاكية بمفهومها الديني كانت مخفراً متقدماً زرعتـه الحركة الصليبية التي بشرت بها البابوية ونظّمتها وعملت على جني مكتسباتها .

وعندما طلب مانويل كومنين من كبار رجالات الحملة الفرنسية اداء يمين الولاء والطاعة ، صاح أسقف لانجر قائلا : «هو ذا الانسان الغادر (أي الامبراطور) فانه يُظهر ما كان يبطن ، لقد أتى يطلب منكم أنتم التبعية وأن يكون سيداً عليكم ، وهو لايصلح أن يكون فصلاً لكم اما نحن يا سيدي الغالي (مخاطباً الملك لويس) فيحسن بنا الحصول على ما ينبغي منه بقوة السيف ، كما وأننا لن نرضى بهذا الوثني لنا سيداً»(٦٤)

ان هذه المشاعر العدوانية تجاه بيزنطة ، وبهذه الصورة بالذات ، لم تكن موجودة في الحملة الصليبية الأولى بين الامراء أنفسهم ، ناهيك عن رجال الدين ! وهـا هي المصادر المتعلقة بالحملة الاولى لا تشير الى «وثنية» الامبراطور البيزنطي ، ولا تشير الى تحمس الامراء الى احتلال القسطنطينية ، ولا تشير الى أن الامبراطور البيزنطي هو عدو القديس بطرس ! فكيف ولدت المشاعر العدوانية ؟ لقد ولدت من خلال الحملة الصليبية الاولى وبعدها ؟ ونتيجة للتقارير المُبَالغ فيها عن موقف بيزنطة العدائي من

(62) Ibid., P. 69.
(63) Ibid., P. 71
(64) Ibid., P. 79.

الصليبيين ، وهي التقارير التي كان قد بعثها الصليبيون الى الغرب الأوروبي ؛ فضلاً عن اتهام الدولة البيزنطية بأنها السبب في الكارثة التي حلت بالصليبيين عام ١١٠١م . يضاف الى هذا كله اغتصاب بوهيموند لحقوق بيزنطة في أنطاكية وقيامه بحملة ضد الامبراطورية البيزنطية . هذه الحملة التي أحاطها بجوٍ من العداء والدعاية التي أظهرت القسطننطينية في صورة العدو اللدود للغرب وكنيسته مما جعل البابوية تبارك تلك الحملة .

حقيقة لقد كان في الحملة الثانية تيار معتدل ولا يحمل مشاعر عدوانية تجاه البيزنطيين ، ولكن المؤرخ أودو المرافق لهذه الحملة لا يخبرنا بمنزلة هؤلاء المعتدلين وحجمهم بالنسبة للتيار المعادي بزعامة أسقف لانجر . ويقول هذا المؤرخ : «إن حديث الأسقف لانجر قد وجد تعاطفاً لدى البعض ولكنه لم يجد تعاطفاً عند البعض الآخر ، وأجابت الفئة الأخيرة قائلة : «اننا لا نستطيع ورغم اننا لا نعرف القانون الكنسي ـ ان نحكم على مدى صدق عقيدتهم (أي عقيدة البيزنطيين) واذا كانوا قد هاجموا انطاكية فهذا عمل شرير فعلاً ، ولكن ربما كانت لديهم من الاسباب الوجيهة ما دفعهم للقيام بمثل هذا العمل» وقال المعتدلون : «انه بامكاننا ان نهاجم المدينة المسيحية الغنية والثرية (أي القسطنطينية) ، ونغني أنفسنا ، ولكن في عملنا هذا سوف نَقتل ونُقتل ، فإذا كان ذبح المسيحيين سيغفر لنا ذنوبنا فلنبدأ في القتال !!!»(٦٥) .

وهكذا كانت الحركة الصليبية وبالاً على العلاقات بين روما والقسطنطينية فخلقت لها مشاكل جديدة فوق المشاكل المتراكمة بينهما منذ القرن الرابع . وأحدثت انشقاقاً ليس بين القسطنطينية وروما فحسب وانما داخل البطريركيات الرسولية الشرقية ، والذي كان بدوره عاملاً أساسياً في دفع العلاقة بين روما والقسطنطينية إلى مرحلة يصعب فيها حوار . واذا كان أوربان الثاني قد استهدف في حركته الصليبية تحقيق الوحدة الكنسية فإن حركته نسفت أية امكانية لتحقيق هذه الوحدة . وإذا كان اوربان قد استهدف انقاذ الشرق البيزنطي من السلاجقة الأتراك فقد خلق

---

(65) Odo of Deuil, Op. Cit., p. 71.

للبيزنطيين خطراً اشد وانكى من الاتراك وهو الخطر الصليبي . واذا كان اوربان قد استهدف تقريب شعوب شطري العالم المسيحي فانه دفع بهما الى التباعد أكثر وخلق في نفوسها الميول العدوانية وخلق الكره والحقد والحسد ، وخلق بين الشعبين المرارة والضغينة التي حملتها الأجيال اللاتينية والبيزنطية . إن الحركة الصليبية قد افهمت الانسان العادي في بيزنطة وغرب أوربا ، أفهمت الفلاحين في البلقان والاقنان في غاليا ، أن هناك خلافاً عقائدياً وكنسياً بين روما والقسطنطينية .

ان الفشل المخزي الذي ألمّ بالحملة الصليبية الثانية لا يقلّ في حجمه عن الآمال الوضاءة التي عُلقت عليها . وعاد الفرنسيون الى بلادهم وفي أذهانهم تفسير واحد لما حلّ بهذه الصليبية وهو «خيانة البيزنطيين وغدرهم» . وكان أن ذعرت الدوائر الدينية في الغرب الأوربي . وصُعق القديس برنارد ـ رئيس دير كليرفو ـ عندما علم بفشل الحملة الصليبية التي بشر بها(٦٦) . واعتقد أن هناك قوى شريرة قد عملت لافشال حملته وعاد الملك لويس السابع الى بلاده وهو يُلقي التصريحات المندِدة بالبيزنطيين «الانذال» خاصة بعد أن كاد يقع ضحية الصراع النورماني ـ البيزنطي حول كورفو عام ١١٤٩م(٦٧) . ونتيجة لذلك كله أخذت أناشيد «الخيانة البيزنطية» للقضية الصليبية تتردد بزعامة كبار رجالات الكنيسة اللاتينية وأكثرهم نفوذاً كنسياً وسياسياً في الغرب الاوربي وفي مقدمتهم برنارد كليرفو والأب سوجر رئيس دير دينيس(٦٨) ، والأب بطرس الوقور رئيس دير كلوني والأسقف لانجر الذي كان يرافق الحملة وأخذت أفكار لانجر تتردد في أوربا «لن يكون الصليب والضريح بأمان طالما جلس على عرش القسطنطينية هذا الانسان» ، «الامبراطور البيزنطي عدو القديس بطرس» «القسطنطينية مدينة مسيحية اسماً»(٦٩) . وتعاطف البابا اوجينيوس الثالث مع مشروع الحلف الأوربي الذي ضم روجر الثاني ولويس السابع وبرنارد كليرفو والأب سوجر وبطرس الوقور وعدداً من كبار رجالات العالم الغربي . ولكن البابا بالذات كان

(٦٦) عن دور برنارد في التبشير بالحملة الثانية انظر :

Odo of deuil, op. cit., pp. 9, 11, 13.

(67) Chalandon, les Comnenes, vol. 11, p. 331; Curtis, op. cit., p. 235.

(٦٨) عن الأب سوجر انظر :

Odo of deuil, op. cit., pp. 15-17.

(69) Odo of Deuil, p. 69.

أعقل من كل هؤلاء ، فلم يشجعهم كثيراً على القيام بالحملة المقترحة ضد بيزنطة (١١٥٠م) ، وسرعان ما تفجّر الموقف بين البابا وروجر الثاني ، وانسحب البابا من المشروع المقترح وانهار مشروع الحملة «الأوربية» دفعة واحدة(٧٠) .

والمهم في ذلك أن قيام عدد كبير من كبار رجالات الدين في الغرب الأوربي ، من أمثال برنارد رئيس دير كليرفو والآباء الآخرين بالتبشير بحملة ضد بيزنطة كان نذير سوء بالنسبة الى العلاقات بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية .

وظلت أفكار لانجر تختمر في اذهان الشعوب في الغرب الأوربي حتى وجدت الاجابة عليها في مستهل القرن الثالث عشر (١٢٠٤م) وفي ذلك يقول رنسيمان : «ان الصليبيين لم يجلبوا السلام وانما جلبوا السيف الذي مزق العالم المسيحي»(٧١) .

(70) Chalandon, Hist. de la domination, vol. 11, pp. 120 ff.
(71) Runciman, The Eastern Schism, p. 101.

الفصل الرابع

المساعي التي بُذلت لتحقيق الوحدة بين الكنيستين وأسباب فشلها

رغم الظواهر السلبية التي ألّمت بالعلاقات بين روما والقسطنطينية منذ الحرب الصليبية الأولى ، بعد فترة طيبة من الانفراج في عهد اوربان الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) ؛ ورغم العلاقات العدائية التي سادت بين اللاتين والاغريق خلال الحملة الصليبية الأولى وبعدها ، ورغم صراع بيزنطة مع نورمان انطاكية وسياستهم في كثلكة الكنائس الشرقية ؛ رغم كل ذلك فاننا ، نستطيع أن نلمس بعض المحاولات لتحقيق الوحدة الكنسية بين روما والقسطنطينية . ومع أن هذه المحاولات محدودة وجاءت - في معظمها - نتيجة لدوافع سياسية معينة ، فان ذلك يكتشف عن وجود فئة ، في روما والقسطنطينية على حدٍ سواء ، كانت لا تزال تؤمن بضرورة الوحدة الدينية وأن كل المسائل المعلقة بين الكنيستين الكبيرتين لا تبرر القطيعة أو الانفصال بأي شكلٍ من الأشكال .

ويبدو أن التسوية التي تمّت بين البابا أوربان الثاني والامبراطور الكسيوس كومنين قد شجعت الأخير على إستمرار الحوار مع روما وابقاء الباب مفتوحاً مع الدوائر الكنسية في الغرب الأوربي . ولذا نجد الكسيوس يتبادل الرسائل مع رؤساء أديرة مونت كاسينو وخاصة اوديريسيوس Oderisius . ولم تأت هذه المراسلات بينهما على ذكر الموضوعات المحرجة مثل الFilioque«ومن الابن» أو استخدام الخبز غير المختمر ... «وانما قصر الامبراطور حديثه مع هذا الأب حول تلهفه لمساعدة الصليبيين . ولقد لّمح الكسيوس إلى أن التعاون مع الصليبيين لم يكن ممكنا . وعندما توفي اوديريسيوس عام ١١٠٥م واصل خلفاؤه مراسلاتهم مع الكسيوس كومنين(١) .

(1) Runciman, The Eastern Schism, pp. 105-106.

ولكن يبدو أن هذه المراسلات قد قُطعت عندما سقط البابا باسكال الثاني ضحية حملة بوهيموند (عام ١١٠٧ ـ ١١٠٨م) . كذلك أنشأ الكسيوس كومنين في تلك الفترة نفسها مأوى للحجاج الغربيين وهو تكية سيفيتوت Civetot وسلمه لرهبان كلونيين(٢) .

وفي عام ١١١١م نُكبت البابوية بزحف الامبراطور الآلماني هنري الخامس (١١٠٥ ـ ١١٢٥م) على روما ، وما صحب ذلك من اعتقال الامبراطور هنري الخامس للبابا باسكال الثاني ، واضطر الأخير الى التنازل عن حقوقه في التقليد الكنسي ، وعندما أُفرج عن هذا البابا قام بتتويج هنري الخامس امبراطوراً(٣) . وفي العام التالي على هذه الحادثة (١١١٢م) بعث الامبراطور الكسيوس برسالة الى جيرارد ، رئيس دير مونت كاسينو ، اعرب له فيها عن بالغ أسفه لما حلّ بالبابا باسكال . ثم بعث الكسيوس رسالة أخرى في تلك الفترة الى السلطات المدنية في مدينة روما شكرهم فيها على ثباتهم ووقوفهم الى جانب البابا في صراعه ضد هنري الخامس ، واقترح الكسيوس عليهم في رسالته أنه مستعد لقبول التاج الامبراطوري الغربي له ولابنه يوحنا . وكان أن استجاب الرومان وبعثوا بوفدٍ الى القسطنطينية . ووعد الامبراطور الوفد الروماني بأنه سيأتي بنفسه الى روما في الصيف (صيف عام ١١١٢م) . ولكن حدث عندئذ أن ألمّ المرض بالامبراطور الكسيوس واقعده عن الرحلة الى روما ؛ وبعث من يمثله في هذه المهمة . على أن الشكوك تدور فيما اذا كان الكسيوس كومنين قد حمل هذا المشروع محملاً جدّياً . ولكن من المؤكد أن طرح هذا المشروع يخلق للعاهل البيزنطي نفوذاً في ايطاليا وروما بالذات(٤) .

وفي عام ١١١٢م بعث البابا باسكال الثاني خطاباً الى الكسيوس كومنين يطلب فيه وجوب وضع العلاقات بين الكنيستين على أسس متينة ومناسبة ؛ وذكر البابا في رسالته للعاهل البيزنطي بأن بطريرك القسطنطينية كان في الأزمان الغابرة يتبع الأسقف الروماني ، وكيف يرفض اليوم استقبال مندوبيه أو رسائله . وأكد باسكال الثاني أن الخطوة الأولى لحل جميع المسائل المعلقة بين الكنيستين إنما تكمن في

---

(2) ANNA, The Alexiad, pp. 235-40.
(3) Sourcebook, Ed. and Tr. By thatchar, Doc. No. 83, 84, pp. 161-64.
(4) Chalandon, Alexis, pp. 260-61.

اعتراف بطريرك القسطنطينية بتقدم وسيادة الكرسي الروماني(٥) .

ويبدو من رسالة البابا باسكال الثاني أن الأخير كان لا يزال ينظر إلى بطريرك القسطنطينية من خلال ظروف ومفاهيم القرن السادس ، حينما كان البطريرك يرهب مخالفة إرادة الامبراطور . ولكن القيصرية ـ البابوية التي مارسها جستنيان قد انتهت في مطلع القرن الثاني عشر ، وحدث تطور جذري في علاقات الكنيسة البيزنطية بالدولة البيزنطية . فضلاً عن أن الرأي العام في القسطنطينية قد تبلور بحيث لم يعد بامكان الامبراطور أو حتى البطريرك تجاهله في مسائل العقيدة والعلاقات مع روما . ولذا كله ردّ الامبراطور الكسيوس على باسكال الثاني رداً غامضاً(٦) ، لأنه أدرك أن الثمن الذي حدده البابا للوحدة بين الكنيستين كان باهظاً .

وفي نهاية العام ١١١٣ أو أوائل العام ١١١٤م وَفَدَ الى القسطنطينية رئيس أساقفة ميلان واسمه بطرس غروسولانو Grosolano فدعاه الامبراطور الكسيوس لمناقشة موضوع الانبثاق والخبز مع علماء اللاهوت الاغريق . وتمت المناقشة بحضور الامبراطور نفسه(٧) ، ولكنها لم تسفر عن أية نتيجة ، إذ كان الطرفان يمتلكان حُججاً قوية ومنطقية ، دون أن يتمكن أي طرف من اقناع الطرف الآخر . والسبب في ذلك أن حججهم قد بنيت على مقدمات منطقية مختلفة . حقيقة ، إن حجة اللاتين في موضوع الانبثاق الـFilioque كانت أكثر وضوحاً من حجة الاغريق ، ولكن مفهوم اللاتين عن الثالوث المقدس كان أقل دقة واتزاناً من مفهوم الاغريق(٨) .

ثم كان أن تجددت المساعي لايجاد صيغة مشتركة ومقبولة للوحدة بين الكنيستين ، بعد فشل الحوار والجهود التي بُذلت في عهد البابا باسكال الثاني والامبراطور الكسيوس كومنين . وبعث البابا كاليكست الثاني (١١١٩ ـ ١١٢٤م) وفداً الى القسطنطينية لبحث امكانية اعادة الوحدة بين الكنيستين البيزنطية والرومانية . ورد

---

(٥) الاجتهاد في سبيل الاتحاد ، ص ٢٩ .

(6) Chalandon, Alexis, pp. 262-63.

(7) Ibid., p. 263; Runciman, The Eastern schism, pp. 108-109.

انظر أيضاً : كنز النفائس في اتحاد الكنائس ، ص٢٨ ـ ٢٩ .

(8) Runciman, Op. cit., p. 109;

كنز النفائس : ص٢٩ .

الامبراطور يوحنا كومنين (١١١٨ ـ ١١٤٣م) على اقتراح البابا برسالة مؤرخة في حزيران (يونيو) من العام ١١٢٤م ، أعرب فيها العاهل البيزنطي عن الفائدة العظيمة التي ستنتج عن اعادة توحيد الكنيستين ، وتنتهي رسالة يوحنا كومنين الى الأسقف الروماني بتعداد الهدايا التي أرسلها الامبراطور الى البابا(٩) . ولم تؤد هذه الاتصالات الى أية نتيجة ايجابية بين الطرفين .

ثم تابع البابا هونوريوس الثاني (١٢٢٤ ـ ١١٣٠م(١٠)) المفاوضات التي بدأها سلفه مع القسطنطينية بشأن موضوع الوحدة بين الكنيستين . ولكن هذه الجهود فشلت ولم تطرح الرسائل التي تبادلها هونوريوس الثاني والامبراطور يوحنا كومنين سوى أشياء عامة(١١) وبالتالي لم تضع مشروعاً محدّداً لتوحيد الكنيستين .

وفي عام ١١٣٦م وفدت الى القسطنطينية شخصية لاتينية ذات أهمية كبيرة وهو انسليم أسقف هافلبرج الذي أتى في مهمة سياسية ، مكلفاً بها من قبل الامبراطور الألماني لوثر الثاني (١١٢٥ ـ ١١٣٧م) تستهدف طرح مشروع للقيام بعمل مشترك بين الأخير ويوحنا كومنين ضد رورجر الثاني . على أن المهم في ذلك الحوار الذي جرى بين الأسقف أنسلم وأسقف نيقوميديا الاغريقي نيقتاس حول المسائل التي لا تزال تفصل بين الكنيستين وبالتالي تحول دون توحيدهما . وكان الموضوعان الرئيسيان للمناقشة هما قضية الانبثاق وقضية الخبز غير المختمر الذي يستخدمه اللاتين . وبالنسبة الى الموضوع الأول فقد أعلن نيقتاس استعداده للموافقة على أن روح القدس منبثقة من خلال الابن وليس من الابن ، على أن يُعتبر ذلك تفسيراً للعقيدة النيقية وليس اضافة عليها(١٢) . وكلام نيقتاس هذا هو تأكيد كامل لكل ما سبق أن قاله ثيوفيلاكت عام ١٠٩٠م . وأعلن نيقتاس : «اننا لاننكر تقدم كنيسة روما بين البطريركيات الاخوات الخمس ونوافق على أن تترأس المجامع المسكونية ، ولكنها هي التي انشقت عنا بكبريائها عندما خرجت عن حدود سلطانها ...» وقال نيقتاس : «كيف يمكننا أن نقبل منها (أي من روما) أوامراً صادرة عنها بدون استشارتنا وبدون

(9) Chalandon, les Comnenes, Vol. 11, p. 162.
(10) William of Tyre, Hist. of deeds, Vol. 11, p 61.
(11) Chalandon, les Comnenes, Vol. 11, p. 163.
(12) M.P.G., Vol. 129, Cols. 224 FF.

علمنا ، واذا كان الحبر الروماني يريد أن يرشقنا بأوامره من عرشه المجيد العالي ويريد أن يقضي بيننا ويحكمنا تحكّماً واستبداداً فأي أخوية تصبح كنيستنا وأي أبوية تتصرف بشؤوننا ، وإذا كان هذا هو حالنا فإننا نصبح عبيد الكنيسة لا أبناءها وتصبح كنيسة روما سيدة قاسية متجبرة متصلفة على جماعة من الأرقاء لا أمّاً تقية لأولادها»(١٣) . أما انسليم فقد ركز في حديثه على أنه من حق روما أن تكون المرجع القضائي الأعلى ، لأن أحكامها كانت دائماً صحيحة ولأنها لم تقع مرة واحدة في الهرطقة ، ثم أظهر عن حقها في التقدم والسلطة لانها وريثة القديس بطرس(١٤) . وعلى أية حال فان هذا الحوار لم يؤد الى نتيجة ما ولم يكن أكثر من جدل خبراء دين أو علماء في اللاهوت ، ولم تكن البابوية هي البادئة فيها . ولكن هذا الحوار يكشف بوضوح القضايا المركزية ـ العقائدية والسياسية ـ التي تقف في طريق الوحدة : قضية الاضافة الى المجمع النيقاوي وقضية زعامة الأسقف الروماني .

على أن اعتلاء مانويل كومنين العرش البيزنطي (١١٤٣ ـ ١١٨٠م) وميله الى اللاتين عموماً(١٥) ، واهتمامه بشكل كلي بالسياسات الاوربية والايطالية بشكل خاص ـ كما بينا ذلك باسهاب في الفصول السابقة ـ اعطي المساعي الدائرة من أجل الوحدة بين الكنيستين زخماً جديداً وقوياً . ذلك أنه شجّع الحوار بين روما والقسطنطينية بشأن الوحدة ، ولكن مانويل خلط بين السياسة والدين خلطاً عجيباً ، وهو بهذا يقلّد جده الكسيوس كومنين (١٠٨١ ـ ١١١٨م) ، الذي سبق أن عرض مشروع الوحدة مقابل التاج الروماني ، منتهزاً بذلك الصراع بين باسكال الثاني وهنري الخامس كما أشرنا الى ذلك في موضعه .

في عام ١١٥٤م وفد انسليم هافلبرج ثانية الى القسطنطينية ، وفي طريقه عرّج على تسالونيكا حيث تباحث مع بازيل رئيس أساقفة المدينة الأخيرة وتبين من الحوار ، الذي تركّز على قضية الانبثاق والخبز ، أن التباعد لا زال كبيراً بين آراء الطرفين ،

---

(13) Chalandon, les Comnenes, Vol. 11, p. 163; Runciman, The Eastern Schism, pp. 115-17.

(١٤) انظر مقتطفات هامه من هذا الحوار عند :

جراسيموس مسرة : تاريخ الانشقاق ، ج٢ ، ص١٨٠ ـ ١٨٢ : أسد رستم : كنيسة انطاكيه ، ج٢ ، ص٢٩١ ـ ٢٩٢.

(15) William of Tyre, Hist of deeds, Vol. 11, p. 461.

وتوضّح مرة أخرى أن السبب الأساسي في هذا التباعد هو اصرار روما على السلطة المطلقة والطاعة العمياء(١٦)، وبذلك فشلت هذه الندوة التي دارت بين اثنين من كبار علماء اللاهوت في العالم المسيحي في العصور الوسطى .

وفي العام التالي (١١٥٥م) بعث البابا هارديان الرابع (١١٥٤ ـ ١١٥٩م) رسالة الى رئيس أساقفة تسالونيكا ، بازيل الآنف الذكر ، وفي هذه الرسالة أوصى هادريان رئيس الأساقفة خيراً بالوفد البابوي المتجه الى القسطنطينية في مهمة سياسية(١٧) . ولكن رسالة هادريان الرابع هذه الى بازيل تضمنت قضية الوحدة بين الكنيستين ، وأصر البابا في رسالته على أن البابوية هي الحكم الأعلى في كل المنازعات الكنسية في العالم المسيحي قاطبة ، ونعت البابا هادريان الرابع ، في رسالته الى بازيل ، أعضاء الكنيسة الاغريقية «بالخراف الضالة» . وبعث رئيس الأساقفة ، بازيل ، برده الى البابا هادريان الرابع ، أكد له فيه أنه من الممكن وصف الاغريق «بالخراف الضالة والدرهم المفقود لو أنهم قاموا بتحريف العقيدة النيقية واستخدموا الخبز غير المختمر» وأعرب بازيل في ختام رسالته عن أمله بامكان حل كل المسائل التي تعيق مسألة الوحدة بين الكنيستين فيما إذا توفرت النية والارادة الطيبة(١٨)

والواقع أن مانويل كومنين كان حريصاً للغاية على خلق التعاون بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية . ولأجل ذلك عمل على إزالة الخلافات الكنسية والعقائدية التي كانت قد اثيرت في الدوائر الدينية ، ويخبرنا المؤرخان المعاصران لمانويل (كناموس نيقتاس) أن الأخير قد تدخل في مجمع القسطنطينية الذي عُقد عام ١١٦٦م مستخدماً نفوذه على رجال الدين الأرتوذكس وذلك لكي يفصلوا بشكل نهائي في تفسير بعض القضايا اللاهوتية التي هي موضع خلاف بين الكنيستين(١٩) .

---

(16)Runciman, The Eastern Schism, p. 119.

(١٧) كانت مهمه هذه السفاره متابعة المفاوضات التي بدأها العائد البيزنطي باليولوغ أثناء الحملة البيزنطية على ايطاليا (١١٥٤ ـ ١١٥٨) وذلك بهدف تنسيق التعاون بين البابويه وبيزنطه ضد الملك النورماني ولياء الأول . انظر تفاصيل ذلك في الباب الثاني من هذه الدراسة .

(١٨) جلاء الابصار من غساء الاكدار . مخطوط رقم ٤٨٧ ـ بلمند ـ عربي ورقه رقم٩٣ ـ٩٤ :انظر ايضا جراسيموس : المرجع نفسه . ج٢ . ص ١٨٥ .

(19) Kinnamos, p. 251; Nicetas, p. 275.

وفي نفس العام (١١٦٦م) بعث الامبراطور مانويل وفداً ، الى البابا الكسندر الثالث (١١٥٩ ـ ١١٨١م) ، يعرض عليه رسمياً توحيد الكنيستين ، وانهاء القطيعة الدينية ، وذلك مقابل اعطائه التاج الروماني واقامة الوحدة الامبراطورية . وبتعبير آخر اخضاع كنيسة القسطنطينية للبابوية مقابل وضع التاج الروماني على رأس مانويل كومنين . ويبدو واضحاً أن الأخير قد تعهد بإمداد البابا بأموال هائلة(٢٠) ، متمشياً مع القول الشائع «أن روما يمكن أن تُباع إذا وجدت مشتري» ويعلق شالندون على ذلك بقوله : «ان المبلغ الذي عرضه مانويل كومنين كان يستطيع أن يشتري به ليس روما فقط وانما ايطاليا كلها» التي كانت وقتها مستعدة للاعتراف به نتيجة للخطر الالماني الذي يحدق بها(٢١) .

وبعث البابا الكسندر الثالث سفارة من قبله الى القسطنطينية لمتابعة المفاوضات مع مانويل بشأن موضوع الوحدة . وقال كناموس أن البابا طلب من خلال سفارته هذه من مانويل كومنين نقل مقر الامبراطورية الى روما مقابل الحصول على التاج الروماني ، ولكن الامبراطور رفض هذا الشرط ، وبذلك فشلت المحادثات(٢٢) .

وفي عام ١١٦٩م كتب مانويل كومنين ثانية إلى البابا الكسندر الثالث ، يقترح عليه المناداة به امبراطوراً على الغرب عند دخول قواته روما وفي الوقت نفسه المناداة بالكسندر الثالث بطريركاً على القسطنطينية ، خاصة وأن البطريرك البيزنطي لوقا كان قد توفي في أوائل تلك السنة (١١٦٩م) . وكانت هذه فرصة طيبة للامبراطور حتى لا يصطدم ببطريرك على الكنيسة أثناء عرضه لهذا المشروع على البابا(٢٣) . وأجاب البابا الكسندر الثالث على العرض الثاني الذي تقدم به مانويل بقوله أنه ليس من الضروري وصوله الى كرسي القسطنطينية ، بل يكفي أن يوافق بطريرك القسطنطينية على الأمور التالية : **أولاً** : الاعتراف لكنيسة روما بالاسبقية **ثانياً** : أن يتّم ادراج اسم البابا في لوحات(الذبيختاق) كنيسة الحكمة الالهية بالقسطنطينية **ثالثاً** : قبول التقاضي أمام البابا الروماني(٢٤) . وربما كان بامكان مانويل اقناع الدوائر الدينية في

---

(٢٠) انظر جلاء الابصار ، مخطوط رقم ٤٨٧ بلمند ـ عربي ورقة رقم ٩٤ ـ ٩٨ .
(21) Chalandon, les Comnenes, Vol. 11, pp. 564-65.
(22) Kinnamos, p. 262.
(23) Runciman, The Eastern Schism, pp. 120-21.
(24) Kinnamos, Op. cit., p. 262.

بيزنطة بقبول النقطة الأولى والثانية ولكن كان من الصعوبة بمكان اقناعها بالنقطة الثالثة . ولذا أُحبط المشروع الآنف الذكر ، ولم يكن بامكان مانويل تأجيل انتخاب بطريرك جديد على كنيسة القسطنطينية ، فاعتلى كرسي الكنيسة الأخيرة البطريرك ميخائيل الثالث (١١٦٩ ـ ١١٧٧م)(٢٥) . وكتب الأخير رداً قاسياً على المطالب الثلاثة التي اقترحها البابا الكسندر الثالث . وختم ميخائيل الثالث رده بقوله : «ليكن المسلم سيدي الدنيوي أفضل من أن يكون اللاتيني سيدي الروحي ، فاذا خضعت للأول فانه سوف لن يجبرني على المشاركة في عقيدته ، أما اذا خضعت للثاني فانه سوف يبعدني عن الله»(٢٦) . ولا شك في أن موقف هذا البطريرك القسطنطيني أضر كثيراً في مسألة الوحدة بين الكنيستين ، ويدل في الوقت ذاته على رغبة عميقة في الحفاظ على استقلال بطريركية القسطنطينية وحريتها الروحية .

وكانت المساعي التي بذلت من أجل الوحدة بين الكنيستين في عهد البابا الكسندر الثالث ومانويل كومنين هي آخر المساعي الجدية في هذا السبيل(٢٧) . ورغم أن حديثاً خصباً من أجل الوحدة الكنسية قد جرى في عهد اندرنيق كومنين (١١٨٣ ـ ١١٨٥م)(٢٨) ، وفي عهد اسحق انجيلوس (١١٨٥ ـ ١١٩٥م) ، وفي عهد الكسيوس الثالث انجيلوس (١١٩٥ ـ ١٢٠٣)(٢٩) ، الا أنه كان في حقيقته حواراً سياسياً مؤقتاً وانتهى بالفشل الذريع ، خاصة وقد جرى بعكس عواطف الشعوب البيزنطية واللاتينية جميعاً .

ولعل أهم الأسباب التي أدت إلى فشل الجهود التي بذلت لتوحيد الكنيستين ، الشرقية والغربية ، هي :

---

(٢٥) كان ميخائيل الثالث الملقب بانخيالس عدواً للافرنج (اللاتين) . انظر : الاجتهاد في سبيل الاتحاد ، ص ٢٩ .

(26) Runciman, The Eastern Schism, pp. 121-22.

(٢٧) يطالعنا المؤرخون الأرمن بروايات عديده حول مساعي مانويل كومنن لتحقيق الوحدة بين الكنيسة البيزنطية والأرمنيه . انظر عن ذلك :

Michel the Syrian, in R.H.C. Arm., Vol. 1, pp. 336-69;
Vartan the Great, in R.H.C. Arm., Vol. 1, p. 535;
Saintnerses, in R.H.C. Arm., Vol. 1, pp. 589, 597.

(٢٨) لقد بنى اندرنيق عام ١١٨٥م كنيسه في القسطنطينية ومنحها دخلاً معيناً وأعطاها للاتين لممارسة شعائرهم كما حاول التقرّب من البابا للحصول على الدعم ضد النورمان . انظر :

Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire, Vol. 11, pp. 436-37, 39.

(29) Runciman, The Eastern Schism, pp. 135, 142-43.

أولاً : الاختلاف في مفهوم الوحدة الكنسية : فالنظرية البابوية طالبت بأن تكون سلطة البابا على جميع كنائس العالم المسيحي موضوعاً مسلماً به ، وبالتالي فان مفهوم الوحدة بالنسبة الى الكنيسة الرومانية هو خضوع الكنائس الشرقية لروما ؛ أما بالنسبة للبيزنطيين فقد كان الاعتقاد السائد هو أن السلطة العليا هي للمجامع المسكونية ، وأن حكومة الكنيسة يجب أن تكون بأيدي البطريركيات الخمس : روما والقسطنطينية والاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس وعلى هذا فان معنى الوحدة في القسطنطينية هو أن يسترد أسقف روما مكانته باعتباره الأول بين المتساويين لا أكثر(٣٠) .

ثانيا : الربط بين الوحدة والتاج : عندما طرح الكسيوس كومنين وحفيده مانويل قضية الوحدة الكنسية كانت القضية مرتبطة بالحصول على التاج الروماني الغربي . وربما كان الاباطرة يعبرون بذلك عن فكرة تسود جميع المثقفين البيزنطيين ، والدليل على ذلك ما أشار إليه كناموس من أن كل أسياد ايطاليا منذ القوط لا يحق لهم الا لقب ملك ومن اتخذ منهم لقب امبراطور فقد تم ذلك اغتصاباً(٣١) . وعندما شعرت البابوية أن ثمن الوحدة هو التاج الروماني أخذت تتراجع في الوقت المناسب ، ولم تكن ترغب اطلاقاً استبدال الامبراطور الألماني بالبيزنطي .

ثالثا : الطرح البابوي لقضية الوحدة : ان البابوية كانت تطرح قضية الوحدة الكنسية مع القسطنطينية لأهداف سياسية ودينية في آن واحد ، ولكنها كانت حذرة في كل ذلك . وحماسة البابوية لقضية الوحدة كان يتوقف على وضعها السياسي في ايطاليا(٣٢) وعلاقاتها مع النورمان والألمان . فهادريان الرابع طرح الوحدة مع مانويل لحماية نفسه من بربروسا ، وعندما تفاهم الأخير مع البابا تلكأ الكسندر في موضوع الوحدة وانسحب بلباقة من الحوار الدائر .

رابعا : معارضة بطريرك القسطنطينية : من الملاحظ أن مبادرات الوحدة بين

(30) Ibid., p. 58.
(31) Kinnamos, p. 218.
(32) Chalandon, les Comnenes, Vol. 11, p. 568.

الكنيستين ، التي انطلقت في القرن الثاني عشر ، كانت من جانب الامبراطور البيزنطي حينا أو من جانب البابا الروماني حينا آخر ، فما هو رأي الأسقف البيزنطي بذلك ؟ حقيقة إن رجال الدين البيزنطيين عموماً لم يعيروا كبير أهمية للحسابات السياسية للأباطرة البيزنطيين . فكنيسة القسطنطينية كانت تشعر تماماً بأنها كنيسة «أعظم مدينة في العالم المسيحي» ، وهذا الشعور دفعها للاستخفاف بالكنيسة الرومانية ، ونظرت إلى ادعاءات البابوية في السمو والسيادة العالمية على أنها «غطرسة»واضحة وعلى هذا لا نغالي إذا افترضنا أن البطريرك البيزنطي لعب دوراً ما في احباط محاولات الوحدة مع روما ، فالوثائق الشرقية تذكر صراحة أن البطريرك كان يعارض قضية الوحدة مع البابا ، وهذه المعارضة لا تنبع من رفض الفكرة وإنما من الادراك بأن الثمن الروماني لهذه الوحدة كان باهظاً . واعتقد البطريرك أن الوحدة ستتم على حسابه وعلى حساب استقلال كنيسته ، وادرك أن الوحدة ـ كما تطرحها روما وكما قبلها الأباطرة البيزنطيون من أجل التاج الروماني ـ إنما هي عملية احتواء كاملة لكنيسة القسطنطينية . واذا كان البطاركة البيزنطيون قد اضطروا الى السكوت عن محاولات الوحدة بين الاباطرة والبابوات ، فانهم كانوا يدركون البعد السياسي لهذه المحاولات وانها «من باب السياسة والتدبير»(٣٣) . وعلى الرغم من ذلك فقد اصطدم مانويل أكثر من مرة مع رجال الدين الارثوذكس في القسطنطينية عندما طرح مشروع الوحدة مع روما(٣٤) .

خامسا : غرور الرأي العام البيزنطي وأثره على قضية الوحدة : لا نستطيع أن نغفل دور الرأي العام البيزنطي وأثره في قضية الوحدة الكنسية . ولقد أشرنا في أكثر من موضع في هذا الفصل الى الرأي العام في القسطنطينية وقدرته على المشاركة في القضايا اللاهوتية . وكان العلمانيون في بيزنطة أقل انفعالاً في نظرتهم الى الغرب عموماً ؛ ولكن أخطأوا عندما أخذوا يقيّمون البابا الروماني والكنيسة الغربية من خلال سلوك وأعمال الصليبيين . فالمؤرخة آنا كومنين ، التي كتبت

(٣٣) انظر : حلاء الابصار . مخطوط رقم ٤٨٧ بلمند ـ عربي ـ ورقه رقم ٩٤ ـ ٩٥ .
(34) Chalandon, les Comnenes, Vol. 11, p. 569.

مؤلفها «الألكسياد» في وقت ما بعد سنة عام ١١٤٠م ، تردد في أكثر من موضع من كتابها كلمة «بربري وبرابرة لنعت اللاتين ، «لا أستطيع أن أذكر أسماء هؤلاء الصليبيين لانها أسماء بربرية»(٣٥) «ان الكسيوس كان يدرك طبيعة الفرنجة القائمة على الغدر والخيانة»(٣٦) . ونظرت آنا كومنين باستخفافٍ للبابوات ـ علماً أنها لم تذكر اسماً واحداً لهؤلاء البابوات ـ وأشرنا سابقا كيف اتهمت البابا جريجوري «بالبربرية»(٣٧) . ولقد أخطأت آنا كومنين عندما نظرت الى كل الفرنجة واللاتين من خلال الصليبيين وأخطأت حينما نظرت الى الكنيسة الرومانية من خلال دعم البابوات للنورمان ضد بيزنطة . ان ما كتبته هذه المؤرخة البيزنطية يعكس الشعور السائد في بيزنطة ، ويعكس ما يدور في خلد الرأي العام والعلمانيين في الشرق البيزنطي . ولكن الخطورة الحقيقية بالنسبة الى قضية الوحدة مع روما تكمن في بعض المفاهيم المتطرفة التي تطالعنا بها آنا كومنين نفسها ، وربما كانت هذه المفاهيم هي التي تحكّمت في الحوار الدائر من أجل الوحدة مع روما . فتقول هذه المؤرخة : «عندما انتقل المقر البابوي من روما الى هنا (أي القسطنطينية) الى الملكة الحقيقية للمدن ، وكذلك مجلس الشيوخ والادارة كلها ، انتقلت معه ايضا الدرجة والسيادة الكهنوتية الجليلة ، وكان أن منح الاباطرة منذ ذلك الوقت الاسبقية الى كرسي القسطنطينية ، ومجمع خلقدونية (٤٥١م) رفع أسقف القسطنطينية الى المركز الأرفع ووضع كل الأسقفيات في المسكونة تحت سيادته»(٣٨) .

والواقع ان آنا كومنين ترتكب خطيئة خطيرة في فهمها لمقررات مجمع خلقدونية(٣٩) : الخطورة في مغالطتها ـ وهي الأميرة المثقفة المعتزة بتراثها وثقافتها ـ أن يكون رأيها هو الرأي السائد في بيزنطة في أواسط القرن الثاني عشر ، عندما كتبت مؤلفها . فاذا كان العلمانيون والرأي العام اجمالاً في بيزنطة ينظر الى اللاتين عموماً على أنهم «برابرة»

(35) ANNA, The Alexiad, p. 263.
(36) Ibid., p. 272.
(37) Ibid., pp. 33-34.
(38) Ibid., p. 34.

(٣٩) انظر مقررات مجمع خلقدونيه في مقدمه هذا الباب .

ويعتبر البابوات «برابرة» ويفهم مقررات خلقدونية بهذا الشكل ، فمن الطبيعي والحالة هذه أن تكون «ادعاءات البابا بالسيادة والسمو بالنسبة لهم مرفوضة» . ويبدو أن آنا كومنين فيما كتبته حول هذه النقطة لا تمثّل الرأي العام كله ، لأن في عصرها كتابات أكثر تواضعاً فيما يتعلق بهذا الموضوع ، وانما تمثّل فئة من العلمانيين ، وربما كان لهذه الأخيرة الدور الرئيسي في دفع الحوار الدائر مع روما من أجل الوحدة الكنسية الى طريق مسدود .

سادساً : أثر الحركة الصليبية على قضية الوحدة : إن أعمال الصليبيين خلال اجتيازهم الأراضي البيزنطية ، والأمارات التي أقامها الصليبيون في مناطق تدعي بيزنطة ملكيتها ، مثل انطاكية ،،، والصراع البيزنطي ـ النورماني حول انطاكية ، وخلع البطريرك الارثوذكسي في انطاكية ، وسياسة الكثلكة التي اتبعها الصليبيون في بيت المقدس وانطاكية على حساب البيزنطيين ، ووقوف البابوية إلى جانب حملة بوهيموند ضد بيزنطة ،. كان لكل المواقف والأحداث الأثر البالغ في مسألة الوحدة بين الكنيستين .

هذه هي أهم الأسباب التي أدت الى فشل المساعي من أجل الوحدة بين الكنيستين في القرن الثاني عشر ،،، ولكن هذه الاسباب كانت ترتكز على قضايا عقائدية تفصل بين الكنيستين وأهمها قضية الاضافة الى مجمع نيقية ، والتي عجزت الدوائر اللاتينية والبيزنطية عن حلها ، وقضية السمو البابوي المعتمد على النظرية البطرسية ،،، وخلال الحوار الذي دار في هاتين المسألتين وغيرهما من المسائل الكنسية لم يظهر احدهما الميل الى النزول عن القليل من رأيه .

لقد دارت المحادثات من أجل الوحدة في حلقة مفرغة وبالتالي غدت عديمة الجدوى . وعندما طرح الامبراطور والبابا القضية بشكل جدي فانهما كانا يخشيان أية اتفاقية فارغة المضمون ، وكلاهما كان يفكر من سيكون السيد في هذه الوحدة ، الامبراطور أم البابا ؟ من سيكون سيد العالم اذا تحققت الوحدة ؟ وامام هاتين النظريتين : النظرية البابوية والنظرية الامبراطورية فان قضية الوحدة صارت مستحيلة . واذا كانت ثمة نتيجة للمفاوضات فهي انها عمّقت جذور الخلاف بين الطرفين حول الوحدة بين الكنيستين .

الفصل الخامس

القطيعة الحقيقية : بعض تأثيرات الحملة الصليبية الرابعة على العلاقات الكنسية

بدأت العلاقات بين روما والقسطنطينية ـ منذ أواسط القرن الثاني عشر ـ تتخذ اتجاهاً خطيراً . ويمكن للباحث أن يرسم خطاً بيانياً لتصاعد العداء بين الشعبين : اللاتيني والاغريقي ، وهذا العداء الشعبي بدأ من خلال الحملات الصليبية وأخذ يتفاقم كلما ازدادت هذه الحملات وكلما توضحت نتائجها في أذهان الشعوب المسيحية في الشرق والغرب .

فاللاتين لم يتخلوا عن الاعتقاد في أن البيزنطيين مسؤولون عن الصعاب التي لحقت بالحملة الصليبية الأولى وأن الامبراطور البيزنطي مسؤول عن كارثة حملة عام ١١٠١م الصليبية . والبيزنطيون لم ينسوا اطلاقاً أن روما دعت جويسكارد في غزوه لبيزنطة (١٠٨١ ـ ١٠٨٥) ولم ينسوا أن جريجوري السابع حَرَمَ الكسيوس كومنين من الكنيسة ولم ينسوا أن باسكال الثاني أيّد وبشرّ بحملة بوهيموند بن جويسكارد ضد بيزنطة عام ١١٠٧ ـ ١١٠٨م والبيزنطيون لم ينسوا أن اللاتين قد اغتصبوا انطاكية وطردوا البطريرك الارثوذكسي منها . واللاتين لم ينسوا تهديد يوحنا كومنين لانطاكية وإذلال أميرها الفرنسي الأصل ، ريموند من بواتية عام ١١٣٧م . والبيزنطيون لم ينسوا قرارالباباانوسنت الثاني الذي يدعوفيه اللاتين الخروج من جيش يوحنا كومنين إذاهدّد انطاكية والممتلكات اللاتينية في الشرق . والبيزنطيون لم ينسوا الغارة البربرية التي قام بها أرناط على قبرص . واللاتين لم ينسوا الاذلال الذي لحق بهم ـ من خلال أرناط ـ أمام المصيصة عام ١١٥٨م . واللاتين لم يتخلوا عن الاعتقاد في أن الكارثة التي حلّت بالصليبية الثانية إنما كانت بتدبير بيزنطة . والبيزنطيون لم ينسوا ان حلفاً اوربياً قد شكّل ضدهم بتعاطف من البابا ورجال الدين الغربيين عام ١١٥٠م .

هذه الأحداث وغيرها كانت تخلق العداء والكراهية بين الشعبين اللاتيني والاغريقي ، وكان هذا العداء الشعبي يتصاعد باستمرار ، وينعكس على علاقة القسطنطينية مع روما ، وعلى مستقبل هذه العلاقة ، لأن الكنيسة ورجال الدين لم يكونا بمعزلٍ عن الشعب . فالبابا كان يشعر ، وبوعي ، بما يختلج في نفوس رعاياه اللاتين ، وهؤلاء بدورهم كانوا يشعرون أن البابا هو زعيمهم الروحي ، والكنيسة البيزنطية ، والبطريرك البيزنطي كان يشعر بما يكمن في قلوب الاغريق (البيزنطيين) من كراهية تجاه اللاتين ولذا كان طبيعياً أن ينعكس العداء الشعبي على العلاقة بين الكنيستين .

أما التجار اللاتين الذين وفدوا الى الامبراطورية البيزنطية فقد شكلوا جالياتٍ ثريةٍ في المدن الكبرى من هذه الامبراطورية(1) ، وأخذوا ينظرون بازدراء الى البيزنطيين ، وأخذ الأخيرون ينظرون بحسدٍ وحقدٍ الى أولئك الأثرياء المستوطنين بين ظهرانيهم ، واعتقد البيزنطيون أن الجاليات التجارية في القسطنطينية وغيرها إنما هي مستعمرات تضطهدهم من خلال السوق والمصارف . وجاءت سياسة مانويل كومنين (١١٤٣ ـ ١١٨٠م) لتثبّت مواقع هؤلاء اللاتين ـ التجار والسياسيين ـ في الامبراطورية ، ولتثبّت في ذات الوقت العداء البيزنطي لهم ولتدفعه الى الانفجار . وبعد وفاة مانويل تولت الوصاية على العرش أرملته اللاتينية ماريا الانطاكية ومستشارها . ووصل اللاتين ، في فترة الوصاية إلى أرفع المناصب في الدولة البيزنطية واعتقد الشعب أن هذه الحكومة «لاتينية» . وأخذت الحركات الشعبية تتحرك ولكنها فشلت في القضاء على تلك الأوضاع(2) .

أما الامبراطور اندرنيق كومنين فقد أراد أن يستغلّ العداء الشعبي البيزنطي للحكومة القائمة ، وانتهز الشعب قدوم اندرنيق لانقاذهم من تسلّط اللاتين . فقاموا بالثورة ضد الجاليات اللاتينية في العاصمة (١١٨٢م) واعملوا السيف في رقاب النساء والشيوخ والأطفال ورجال الدين اللاتين ، بما فيهم المندوب البابوي الذي كان في

---

(1) Nicetas, pp. 220-21.

(٢) انظر : جلاء الأبصار : مخطوط رقم ٤٨٧ بلمند ـ عربي رقم ٩٩ ؛ أيضاً أنظر :

William of Tyre, 11, pp. 461-62.

القسطنطينية آنذاك(٣) . وانتقم اللاتين الذين نجوا من المذبحة بمهاجمة كل ما صادفوه فهاجموا الاديرة والكنائس وذبحوا الرهبان والقساوسة البيزنطيين(٤) .

وكان أن صُعقت البابوية ـ والغرب الاوربي عامة ـ لما حلّ بالايطاليين واللاتين عامة من مذابح في القسطنطينية . وربما ساد الاعتقاد في الدوائر الغربية آنذاك أن هذه المذابح انما هي تكفير عن الإثم الذي ارتكبه اللاتين عندما نادوا في الماضي بحرب مقدسة ضد بيزنطة . وابن جبير بالذات ينظر الى مذابح اللاتين في القسطنطينية من الزاوية الدينية ويعتبرها نتيجة الانقسام الديني بين الشعبين(٥) . كما أن وليام الصوري اعتبرها أيضاً نتيجة الانقسام الديني بين اللاتين والاغريق ، ونتيجة كره الاغريق للاتين لأن الأخيرين يختلفون عن بيزنطة في عقائدها(٦) .

وجاءت الحملة النورمانية عام ١١٨٥م لتفعل في تسالونيكا بالبيزنطيين مثل ما فعله هؤلاء ـ وبشكل أكثر عنفاً ـ باللاتين قبل ثلاثة أعوام في القسطنطينية . والواقع أن مذابح تسالونيكا فاقت مذابح القسطنطينية في كونها متعمدة ومدروسة ، وانها لم تكن عفوية ، فضلا عن انها جرحت المشاعر الدينية في العالم البيزنطي قاطبة . ان مذابح اللاتين عام ١١٨٢م كانت موجهة أصلاً ضد التجار الايطاليين ، ومن ثم تحولت ـ مع الغوغاء ـ ضد اللاتين القاطنين في العاصمة جميعاً ، لكن مذابح تسالونيكا استهدفت جرح المشاعر الدينية لدى البيزنطيين : «القتلُ في الكنائس وامام الصور المقدسة ، حرقُ الايقونات ، الرقصُ على المذابح تدنيسُ الكنائس البيزنطية بقذاراتهم ...»(٧) . حقيقة ان الحملة النورمانية لم تأت للثأر من البيزنطيين على مذابح القسطنطينية ، ولكن فسرها المعاصرون من اللاتين والاغريق بأنها عملية انتقام من خلال مذابح تسالونيكا ، حتى أن عدداً من المؤرخين المحدثين اعتبرها عملية انتقام لمذابح اللاتين عام ١١٨٢م(٨) .

ثم جاءت الصليبية الثالثة لتوجّه طعنة نجلاء للكنيسة البيزنطية وذلك باقامة دولة

(3) William of Tyre, Hist. of deeds, Vol. 11, pp. 463-65; Nicetas, in C. S. H. B., pp. 291 FF.
(4) William of Tyre, Hist. of deeds, Vol. 11, pp. 466-67.
(٥) ابن جبير : رحلته ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ .
(6) William of Tyre, Op. cit., Vol. 11, pp. 461-62.
(7) Nicetas, in C. S. H. B., pp. 392-94; Norwich, The Kingdom, pp. 336-37.
(8) Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire. Vol. 11, pp. 437-38; Vryonis, Byzantium and Europe, p. 145.

لاتينية في جزيرة قبرص واخضاع رجال الدين الاغريق في هذه الجزيرة للسادة اللاتين(٩) . وأصبح الصراع في قبرص مصدراً من مصادر الحنق والغضب والكراهية المتبادلة بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية . ولم يتخلص الأغريق في قبرص من هذه السيطرة اللاتينية إلا بالفتح العثماني لجزيرة قبرص في القرن السادس عشر .

وانعكس تفاقم العداء الشعبي في أواخر القرن الثاني عشر على الكتابات الدينية التي كتبت آنذاك ، بحيث لم نعد نلمس روح الاعتدال والتسامح الذي كان عند تيوفيلاكت وبازيل ، وانما نجد أنفسنا أمام آراء دينية متطرفة ترفض التعاون مع اللاتين . وقد ظهر ثيودور بلسامون في أواخر القرن الثاني عشر(١٠) ، وهو يُعتبر المحامي المدافع عن الكنيسة البيزنطية ، ويظهر صراحة بكتاباته «ان الامبراطور البيزنطي أعلى مقاماً من البابا الروماني ولا يجوز للامبراطور إكراه الكنيسة الاغريقية على الخضوع الى الكنيسة الرومانية ، لانه بهذا يسخر من مقرارات المجامع المسكونية التي أقامت سلطة البطريركيات الخمس وأقرت دستوراً للايمان عبثت به روما وأضافت «ومن الابن» Filioque»(١١) . وعلى هذا فإن آراء بلسامون عن الكنيسة اللاتينية غير قابلة للتسوية على الاطلاق ، حتى أن بلسامون هذا قال : «انه لا يجوز مناولة اللاتين في السر المقدس»(١٢) . ان آراء بلسامون هذه لا تعبّر عن وجهة نظره كبطريرك فحسب وإنما تعبر عن وجهة نظر الدوائر الدينية في بيزنطة وعن مشاعر الرأي العام في الامبراطورية . وبعد بلسامون اعتلى البطريركية القسطنطينية يوحنا العاشر (١١٩٩ ـ

---

(٩) كان اسحق كومنين قد اعلن نفسه امبراطوراً على قبرص (١١٨٤م) . وأثناء مرور الملك الانجليزي ريتشارد قلب الأسد في الصليبية الثالثة الى الشام اصطدم مع اسحق كومنين لعدة أسباب وانتهى الاصطدام باعتقال ريتشارد للامبراطور اسحق (١١٩١م) ، ومن ثم باع ريتشارد الجزيرة الى جاي لوزجيان قبل عودته الى بلاده ، وقام بذلك في الجزيرة ملك لاتيني . والمهم في ذلك أن احتلال اللاتين لجزيرة قبرص قد أدى إلى اخضاع الاكليروس والأساقفة الارثوذكس الى السلطات الروحية اللاتينية وأعدم عدد من الكهنة الارثوذكس الذين رفضوا الخضوع والتبعية لروما . عن امتلاك ريتشارد جزيرة قبرص ومن ثم بيعها الى لوزجيان انظر :
Ambroise, The crusade of Richard, pp. 82-83; Hill, Hist. of Cyprus, Vol. 11, pp. 45-47, 111, 1041-1104.

(١٠) بلسامون وهو بطريرك القسطنطينية (١١٨٥ ـ ١١٩٥م) والشهير بـ «ثيودورس الرابع» وهو مفكر بيزنطي لاهوتي لامع . انظر كتاباته في :
Theodore Balsamon, in p. g., Vol. 138.

(11) M. P. G., Vol. 138, Col. 93.

(12) Ibid., Col. 968.

١٢٠٦م) الذي لم يكن أقل تطرّفاً من سلفه تجاه الكنيسة الرومانية ، خاصة وقد عاصر الكارثة التي ألّمت بالامبراطورية البيزنطية من خلال الحملة الصليبية الرابعة .

وأخيرا جاءت الحملة الصليبية الرابعة لتفجّر الموقف نهائياً بين الكنيستين ، ولتكون النتيجة المعقولة لتفاقم العداء الشعبي ، بين اللاتين والبيزنطيين ، الذي بدأ بالتصاعد قبل قرن من الزمن تقريبا .

ان الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٣ ـ ١٢٠٤م) لا تعنينا بحد ذاتها(١٣) وانما المهم بالنسبة لنا في نهاية هذا الباب ما انتهت اليه العلاقات بين الكنيستين من خلال الحملة الصليبية الرابعة وبعدها . تولىّ المنصب البابوي سنة ١١٩٨م رجل من أعظم الشخصيات التي تولت هذا المنصب في العصور الوسطى ، وهو البابا انوسنت الثالث(١٤) ، الذي وضع لنفسه وللكنيسة وللبابوية برنامجاً ضخماً في مقدمته محو آثار حروب صلاح الدين في الشرق واغتصاب بيت المقدس مرة أخرى من المسلمين(١٥) ؛ فضلاً عن اهتمامه البالغ بمسألة توحيد الكنيستين(١٦) ، ولذا دعا أنوسنت الى حملةٍ صليبيةٍ . وقام فولك أسقف نيللي Foulques of Neuilly عام ١١٩٨م يبشر بهذه الحملة ، وبرفقته المندوب البابوي بطرس من كابوا الذي أخذ يعلن باسم سيده البابا الغفران الكنسي لكل من يشترك بهذه الحملة الصليبية(١٧) .

وصدّق البابا انوسنت على المعاهدة التي وقعها الصليبيون مع البنادقة (١٢٠١م) بشأن نقل القوات الصليبية الى مصر(١٨) . ولكن عندما اختار الصليبيون بونيفاس مونتفرات قائداً للحملة ـ خلفاً لثيبوت ـ شعر البابا بالامتعاض وربما أدرك أن زمام الحملة سيفلت من يده ، وذلك لأن بونيفاس ـ من وجهة نظر البابا ـ لم يكن مشهوراً

---

(١٣) انظر الأحداث الرئيسية لهذه الحملة في الفصل الأخير من الباب الخامس

(١٤) يعتبر البابا انوسنت الثالث من أقوى الشخصيات التي اعتلت الكرسي الروماني ، ويعتبره كثير من المؤرخين خلفه هيلد براند الحقيقي (جريجوري السابع) فقد كان طموحاً واسع الآمال ومتمسكاً أشد التمسك بحقوق البابويه وفق النظريه البطرسية عن انوسنت الثالث وأحوال البابوية في عصره انظر :
هارسان وباراكلاف : الدولة والامبراطوريه ، ص ٥٢ ، ٦٠ ـ ٦١

(١٥) عاشور : الحركة الصليبيه ، ج١ ، ص ٩٢٩ .

(16) Vasiliev, Op. cit., Vol. 11. p. 453.

(17) Villehardouin, G., The Conquest of Constantinople, pp. 29-32; The Chroronicle of Morea, p. 72.

(18) Villehardouin, Op. Cit., p. 35.

بتقواه ، رغم أنه مثال للفضائل الفروسية ، فضلاً عن أنه يرتبط بصداقة وطيدة بالملك الالماني فيليب السوابي(١٩) .

وعندما سمع البابا بنية الصليبيين في توجيه الحملة ضد مدينة زارا المسيحية هدّدهم بالحرمان الكنسي ؛ وعندما اتجهت الحملة فعلاً الى المدينة الأخيرة (١٢٠٢م) وصل مندوب عن البابا انوسنت وأعلن قائلا «باسم سيدي البابا أحرم عليكم مهاجمة هذه المدينة لان أهلها هم من المسيحيين ، وانتم أيضاً تحملون اشارة الصليب»(٢٠) ؛ وأثناء حصار الصليبيين لهذه المدينة (زارا) رفع سكانها كتاباً كانوا قد حصلوا عليه من البابوية يتضمن الحرمان لكل من يهاجم زارا أو يُلحق بها شراً ، ولكن البنادقة ـ كما يقول المؤرخ المعاصر روبرت كلاري ـ رفضوا الامتثال لمضمون هذا الكتاب واقتحموا المدينة(٢١) .

لقد استشاط البابا انوسنت غضباً عندما رأى الحملة الصليبية وقد احتلت مدينة زارا «المسيحية» دون الاهتمام بأوامره(٢٢) . ولذا أصدر قراراً يحرم فيه الصليبيين والبنادقة من الكنيسة الا أنه سرعان ما خضع البابا للأمر الواقع ورفع الحرمان عن الصليبيين نتيجة التوسلات التي بذلها هؤلاء(٢٣) . إلا أنه لم يرفع الحرمان عن البنادقة(٢٤) . والشيء الجدير بالذكر أن البابا لم يحرّم على الصليبيين ، أو لم يمنع الصليبيين ـ الذين تّم رفع الحرمان عنهم ـ من التعاون أو مزاملة البنادقة ـ الذين ما زالوا تحت الحرمان ، بل ربما كان البابا يُوحي للصليبيين بالابقاء على تحالفهم وذلك عندما كان يطلب منهم باستمرار الحفاظ على «وحدة الجيش»(٢٥) .

أما دور البابا انوسنت الثالث في الحملة عندما ظهرت قضية الكسيوس الرابع

---

(19) Cam. Med. Hist. Vol. Iv, p. 278.

(20) Villehardouin, Op. Cit., p. 48.

(٢١) روبرت كلاري : المصدر نفسه ، ص٤٨ ـ ٤٩ .

(22) Loagnon, L'Empire Latin De Constantinople, PP. 32- 33.

أيضاً أنظر : روبرت كلاري : ص٤٩ ـ ٥٠

(23) Villehardouin, P. 53;

(24) Vasiliev, 11, p. 454.

أيضاً أنظر : روبرت كلاري : ص٤٩ ـ ٥٠

(25) Villehardouin, p. 53;

انجيلوس ومسألة تحويل هذه الحملة الى القسطنطينية فقد كان وما زال موضع خلاف بين المؤرخين . فالمؤرخ المجهول لموريا يطالعنا برواية مفادها أن الملك فيليب سوابيا كتب الى البابا انوسنت يخبره بأمر الأمير البيزنطي الكسيوس الرابع أنجيلوس ويرجوه مساعدته . وأن البابا وافق على ذلك وكتب بدوره الى الصليبيين يطلب منهم التخلي عن الحملة إلى«الشام»والتوجه الى القسطنطينية لاعادة الأمير البيزنطي الى العرش ، وأن كل من سيموت في هذه الحملة يعتبر شهيداً تُغفر له ذنوبه وكأنه مات عند قبر السيد المسيح(٢٦) . أما المؤرخ فيل هاردوان فانه يخبرنا برواية أخرى مفادها أن المندوب البابوي قد احتج احتجاجاً شديداً وعنّف الصليبيين عندما قرروا مساعدة الامير البيزنطي وقال لهم «معنى هذا اننا سنسير لمحاربة المسيحيين»(٢٧) . أما المؤرخ روبرت كلاري فقد قال أن الاساقفة المرافقين للحملة قد افتوا بشرعية الذهاب إلى القسطنطينية لاعادة حقوق الكسيوس الرابع في العرش البيزنطي(٢٨) .

لا يعنينا ـ في خاتمة هذا الباب ـ أن نحدد المسؤول عن تحويل الحملة الصليبية الرابعة ، عن هدفها الأصلي ، وهو مصر ، إلى القسطنطينية ؛ فقد ناقشنا هذه المسألة بتفصيل وافٍ في نهاية الباب السابق من هذه الدراسة ؛ وإنما الذي يهمنا نتائج هذه الحملة بالنسبة إلى العلاقة بين الكنيستين .

ان أكثر ما حز في نفوس البيزنطيين وجرح مشاعرهم هو نهب محتويات كنيسة آيا صوفيا بشكل كامل(٢٩) واحراق العديد من الايقونات والمخطوطات والكتب المقدسة(٣٠) .

حقيقة ان البابا صُدم لان يقوم جنود المسيح بشهر السلاح ضد شعب مسيحي ، حتى وان كان هذا الشعب يرفض الاعتراف بسيادته . وكان البابا قد هدد بالحرمان اذا احتل الصليبيون القسطنطينية ، ولكن عندما تم الاحتلال فعلاً وجد أنه من

---

(26) The Chronicle Of Morea, PP. 81—82, 93.
(27) Villehardouin, PP. 50— 51.

(٢٨) كلاري : ص٧٧ .
(٢٩) الدر المنظوم في أخبار ملوك الروم . مخطوط رقم ٤٨٨ . بلمندر ـ عربي . ورقة ٢٣٥ .

(30) Nicetas, PP. 757— 63.

الافضل الاعتراف بالأمر الواقع والاستفادة منه(٣١)

لم يلبث الصليبيون أن انتخبوا بلدوين كونت الفلاندر امبراطوراً وموروسيني البندقي بطريركاً ، على القسطنطينية ، حسب اتفاق مسبق(٣٢) .

وبذلك اعتلى عرش الكنيسة البيزنطية بطريرك لاتيني ، وفرّ البطريرك البيزنطي الشرعي يوحنا العاشر . وأدرك البابا أنوسنت الثالث أن تحويل شعب بكامله وصبغه باللاتينية أمر غير ممكن ، فأوصى بملاطفة الاساقفة البيزنطيين وبعدم التسرع في سياسة تعيين أساقفة لاتين ، وأدرك خطورة توضّع كهنة من اللاتين فوق كنائس شعب بيزنطي أرثوذكسي . ولذلك بعث البابا مندوباً يحمل نص القسم الذي يجب أن يقطعه الاساقفة البيزنطيون . ويتضمّن الولاء لروما والاعتراف بسيادة البابا . وعلى أية حال فإن الاساقفة الاغريق قد صُعقوا مما حدث ، فتركوا مناصبهم وانطلقوا الى نيقية ، حيث قامت في هذه المدينة امبراطورية بيزنطية تحت رئاسة لاسكارس . وانتخب الأساقفة الارثوذكس بطريركاً بيزنطياً شرعياً في هذه المدينة (نيقية) . واستمر الوضع كذلك حتى سقطت الامبراطورية اللاتينية ـ التي أُقيمت في القسطنطينية ـ عام ١٢٦١م ، وعادت الامبراطورية البيزنطية الى القسطنطينية كسابق عهدها مع الاكليروس ، الاغريقي الارثوذكسي الشرعي .

والواقع ان الحملة الصليبية الرابعة كانت نتيجة طبيعية للأطماع السياسية والاقتصادية والكنسية التي اعتمرت قلوب الاوروبيين عامة والقوى الايطالية بشكل خاص في الامبراطورية البيزنطية . واذا كانت البابوية قد انتصرت من خلال هذه الحملة ، وتربع على كرسي كنيسة آيا صوفيا بطريرك لاتيني يتبع البابا الروماني ، وبذلك حققت البابوية حلماً راودها منذ القرن الرابع للميلاد ؛ إلا أن هذا الانتصار كان مؤقتاً ، إذ فشلت البابوية في كثلكة الاغريق ولم يمض نصف قرن تقريباً إلا وتحطمت القشرة الكهنونية التي تربّعت فوق الكنائس الاغريقية . وإذا كانت الكنيسة البيزنطية قد تمزقت بفعل هذه الحملة ، إذا كانت كنيسة بلغاريا وطرابزون

---

(٣١) كنز النفائس : ص٢٩ ـ ٣٠ ؛ الاجتهاد في سبيل الاتحاد ، ص٣٠ .

(٣٢) كلاري : ص ١٠٩ .

والصرب قد استقلت عن بيزنطة نتيجة ذلك ، وإذا كان البطاركة الشرعيون قد عاشوا في نيقية ، ولكن ذلك لم يكن خسارة على المدى البعيد ، إذ عاد البطاركة البيزنطيون إلى كرسيهم بعد نصف قرن تقريبا . ولكن المهم في ذلك أن الحملة الرابعة خلّفت انشقاقاً حقيقياً بين الكنيستين ، وكانت في ذات الوقت خاتمة لعلاقات متوترة امتدت حوالي ثمانية قرون الى الوراء .

ان البيزنطيين لم ينسوا اطلاقاً الحملة الصليبية الرابعة ، خاصة وقد اعتقدوا أن البابوية كانت وراء هذه الحملة وأن هؤلاء الصليبيين هم جنود الكنيسة الرومانية . وفضلاً عن ذلك فان الدوائر الكنسية في الغرب الاوربي عامة اقتنعت منذ أوائل القرن الثاني عشر أن بيزنطة هي العدوة اللدودة للصليبيين ، واعتقدت ، منذ كارثة صليبية عام ١١٠١م ، أن أي برنامج صليبي سينطلق في المستقبل يجب ان يتّجه لحل المسألة البيزنطية والاستيلاء على القسطنطينية . ومن هنا جاء تأييد باسكال الثاني لحملة بوهيموند عام ١١٠٧م ، ومن هنا جاءت تصريحات الاسقف لانجر في الحملة الصليبية الثانية بأن : «القسطنطينية مدينة مسيحية اسماً لا فعلاً» ومن هنا قوله : «ان الصليب وضريح السيد لن يكونا في أمان طالما جلس على عرش القسطنطينية هذا الانسان (الامبراطور البيزنطي) الذي هو عدو القديس بطرس وعرشه» ومن هنا جاءت دعوة القديس برنارد رئيس دير كليرفو عام ١١٥٠م لتشكيل حلف أوروبي ضد بيزنطة والتبشير بحملة لاحتلال القسطنطينية .

ان سقوط القسطنطينية كان حلماً راود الدوائر الكنسية فضلاً عن الدوائر الاقتصادية والسياسية في الغرب الاوربي . ولكن هل هذا الحلم كان لمصلحة المسيحية ؟ هل كان لمصلحة القديس بطرس وكنيسته ؟ هل كان لمصلحة الشعوب المسيحية في الشرق والغرب ؟

ان الرُسل لم ينشروا الدين المسيحي بين «الوثنيين» بالقوة في القرون الأولى للميلاد فكيف حاول خلفاء بطرس ـ أمير الحواريين ـ نشر الكاثوليكية بين المسيحين «بالقوة» ؟!

وعلى أية حال فان الحلينّ ، السياسى

العلاقات الكنسية ، واستمر الشعبان - الشرقي والغربي - المسيحيان يشقان طريقهما ، كل على حده الى العصور الحديثة

لا نستطيع القول أن البابوية وراء تحويل الحملة الى القسطنطينية ، ولكن كانت فئة كبيرة من رجالات الحملة الصليبية الرابعة تعتقد أن البابا الروماني سيرحّب باحتلال القسطنطينية واخضاع الكنيسة الشرقية للكنيسة الغربية ؛ والبيزنطيون - بدورهم - اعتقدوا آنذاك أن الصليبيين قد استباحوا مدينتهم وقسموا امبراطوريتهم بوحيٍ من البابوية .

إن الصليبية الرابعة قضت على أي أمل بالوحدة بين الكنيستين ، وزادت الخلاف اتساعاً . وخلقت انشقاقاً حقيقياً ... ومن هنا كانت الكارثة على العلاقات الكنسية بين روما والقسطنطينية في العصور الوسطى .

الخاتمة

ليست مهمة الباحث في التاريخ التقاط الزوايا الغامضة أو المضطربة في حياة الشعوب أو في علاقاتها وتحليلها تحليلاً علميّاً والكشف عن منعطفاتها المبهمة وعرضها عرضاً فنياً شاملاً فحسب ، وانما جوهر مهمته هو البحث عن خلفيّات الاحداث وكشف القوى المحركة والمتحركة في العلاقات الانسانية واستنباط العلة والمعلول والسبب والنتيجة ، في حركة هذه العلاقات ، والوصول الى أكثر النتائج معقولية واقربها الى الواقع التاريخي ، في بعديه الزماني والمكاني ، وذلك استناداً إلى أوثق المصادر وأحدث المراجع . ومن هنا فان الأفكار التي سأختم بها هذه الدراسة ليست في حقيقتها الا مجموعة من الفرضيات ، أو بالأحرى وجهات نظر ، قابلة للخطأ والصواب ، وربما تحمل جانباً من كليهما معاً ، وذلك طالما نحن أمام قضايا تاريخية ، اجتماعية ، انسانية تخضع لعامل النسبة .

وفي هذا البحث تصديت لعلاج موضوع في القرن الثاني عشر للميلاد ، وهو العلاقات السياسية والكنسية ، بين طرفين : أولهما : الامبراطورية البيزنطية ، وثانيهما : القوى الايطالية : وهي البابوية والجمهوريات التجارية الايطالية والدولة النورمانية في جنوب ايطاليا وصقلية . ولكن القوى الايطالية هذه لا تشكّل طرفاً واحداً وانما كل منها طرف مستقل له آماله ومصالحه الخاصة والتي تتعارض بدرجات متفاوتة مع مصالح وآمال بقية القوى الايطالية .

والواقع أننا لانستطيع أن نفصل العلاقات السياسية عن العلاقات الاقتصادية وبالتالي عن العلاقات الكنسية أثناء حديثنا عن «العلاقات» بين بيزنطة والقوى الايطالية . واذا اقتضت منهجية البحث تناول كل شكلٍ من هذه العلاقات على حدة ، إلا أن كل هذه الأشكال متفاعلة مع بعضها وتؤثر وتتأثر ببعضها بشكل مباشر وهي كلها في النهاية تصوغ الوحدة الموضوعية الكاملة للعلاقات اذا ما نظرنا اليها النظرة الشمولية العلمية .

إن أولى النتائج التي يمكن أن يخرج بها الباحث المتعمق في العلاقات البيزنطية ـ الايطالية خلال القرن الثاني عشر : أن القضايا الرئيسية التي تحكمت في هذه العلاقات ليست جديدة في حقيقتها وانما كانت معالمها الرئيسية قد توضّحت أمام الأطراف المعنية في مستهل القرن الثاني عشر ، وانما الجديد في هذه القضايا هو الأساليب التي استخدمتها الاطراف المعنية في هذه العلاقات على ضوء المعطيات السياسية والاقتصادية التي طرحت نفسها خلال القرن الثاني عشر .

كانت القضية الرئيسية التي تحكمت في العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والقوى الايطالية في القرن الثاني عشر هي مسألة الاملاك البيزنطية في جنوب ايطاليا (ابوليا وكلابريا) التي انتزعها النورمان في أواسط القرن الحادي عشر ـ هذا من وجهة النظر البيزنطية ـ أما من وجهة النظر النورمانية فقد كانت هذه المسألة بشكلٍ آخر وهي : مسألة انتزاع اعتراف بيزنطة بالوجود النورماني الشرعي في تلك المنطقة وكان أن رسمت بيزنطة استراتيجية سياسية لحل هذه المسألة من وجهة نظرها في مستهل القرن الثاني عشر . وقد اعتمدت هذه الاستراتيجية على :

أولا : التحالف مع الامبراطورية الالمانية ضد النورمان الذين كانت تتناقض مصالحهم مع المصالح الالمانية في ايطاليا . ومن هنا جاء التحالف البيزنطي الالماني ضد عدو مشترك ، وكان قد وضع اساسيات هذا التحالف الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين والامبراطور الالماني هنري الرابع .

ثانياً : التحالف مع جمهورية البندقية التجارية والحصول على الدعم البحري منها ضد النورمان ، وكانت البندقية ـ في مستهل القرن الثاني عشر ـ تنظر الى الدولة النورمانية في جنوب ايطاليا وصقلية على أنها مصدر خطر على تجارتها ومستقبلها ، خاصة وأن محاولة النورمان للسيطرة على الضفة الشرقية للادرياتي أو بالأحرى على الامبراطورية البيزنطية تعتبر كارثة بالنسبة للتجارة البندقية التي تتطلب ابقاء المياه والاسواق البيزنطية مفتوحة امام حركتها . وكان قد وضع اساسيات هذا التحالف الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين ودوج البندقية دومنيكو سيلفو . ورغم أن هذا التحالف كان لمصلحة الطرفين ازاء عدو مشترك

إلا أن العاهل البيزنطي منح البندقية امتيازات تجارية هائلة في امبراطوريته ثمناً لتحالفها معه ودعمها البحري ضد الغزاة النورمان (عام ١٠٨١ ـ ١٠٨٥م) .

ثالثاً : فتح حوار مع البابوية في مسألة الوحدة بين الكنيستين وذلك في محاولة لاقامة تحالف بابوي بيزنطي ضد النورمان ؛ وقد بدأ هذا الحوار في مستهل القرن الثاني عشر الكسيوس كومنين والبابا أوربان الثاني .

وفي بدايات القرن الثاني عشر تحكّمت المسألة الأنطاكية في العلاقات بين القوى الايطالية والامبراطورية البيزنطية . وكانت هذه المسألة في أصولياتها استمراراً للمسألة الأولى ـ مسألة الاملاك البيزنطية في جنوب ايطاليا أو مسألة انتزاع اعتراف بيزنطة بشرعيّة قيام الدولة النورمانية في تلك المنطقة ـ وبالتالي كانت نتيجة من نتائـج الصراع النورماني البيزنطي . ولقد ذهب البعض الى القول بأن تأسيس امارة انطاكية النورمانية على يد بوهيموند بن جويسكارد كان نتيجة عدم تمكن الأخير من وراثة ممتلكات أبيه في أبوليا وكلابريا ، وأن ما حصل عليه بوهيموند ـ بعد صراعه مع أخيه روجر بورصا ـ من ممتلكات لا تكفي مطامحه التي ورثها عن أبيه ، وذهب البعض الآخر الى القول أن تأسيس بوهيموند لامارة انطاكية إنما هو في حقيقته نتيجة من نتائج الحملة الصليبية الأولى ومعطياتها السياسية والروحية . ولكن يحق لنا أن نطرح القضية بشكل آخر : هل سيعمل بوهيموند على إقامة أمارة له في الشرق لو كانت املاكه في جنوب ايطاليا كافية لمطامحه أم لا ؟ أوهل سيعمل بوهيموند على إقامة هذه الامارة لو ورث كل ممتلكات والده في جنوب ايطاليا أم لا ؟. ومن جهة أخرى هل سيعمل بوهيموند على اقامة امارة له في الشرق لو لم تقم الحملة الصليبية الأولى أم لا ؟.

وقد عالجنا هذه القضية بعناية وحاولنا كشف النقاب عما أحاط بها من غموض ، وقارنا بين مختلف آراء المؤرخين حولها ، وأمكننا أن نحدد أسباب فشل البيزنطيين في ايجاد تسوية ـ تتفق ومصالحهم ـ للمسألة الانطاكية ، في حين نجـح النورمـان في تأسيس امارة ـ أدت مهمتها ولعبت الدور الذي رسم لها الى حد بعيد ـ عاشت أكثر من قرن ونصف من الزمن .

ومهما تباينت هذه الأسباب فان الشيء الذي نود أن نؤكده هو أن القوى الصليبية في الشام لعبت دوراً في افشال بيزنطة لحل المسألة الانطاكية . إذ وقفت القوى الصليبية في الشام الى جانب نورمان انطاكية ومحضتهم الدعم والتأييد ـ سياسياً وعسكرياً ـ وتولى ملوك بيت المقدس الوصاية على انطاكية أكثر من مرة وتفانوا خلال ذلك في خدمتها وحمايتها والدفاع عنها ، حيث كانت أمارة انطاكية النورمانية ـ من وجهة النظر الصليبية ـ الخط الدفاعي الأول ضد البيزنطيين اذا ما حاول الأخيرون الأدعاء بحقوق لهم في الامارات الصليبية أو مهاجمتها ، فضلاً عن أنها خط دفاعي ضد الخطر العربي ـ الاسلامي على الامارات الصليبية . ومن هنا يجب أن نفهم محاولات بيزنطة للتقرب من الأمراء الصليبيين لعزلهم عن أنطاكية . بل ويمكننا أن نذهب الى أبعد من ذلك في تحديد عوامل فشل بيزنطة في حل المسألة الانطاكية ـ ودون ان نتجاوز الوقائع التاريخية ، ونقول أنه ربما كان العرب المسلمون في الشام ومصر مسؤولين أيضا ـ وبشكل ما ـ عن الفشل البيزنطي في تسوية المسألة الانطاكية في الربع الأول من القرن الثاني عشر . فلو كان العرب المسلمون ، في تلك المرحلة ، من القوة بحيث شكّلوا خطراً حقيقياً على الامارات الصليبية ، وعلى مملكة بيت المقدس الصليبية بشكل خاص ـ لاضطر الامراء الصليبيون ـ ازاء الخطر العربي الاسلامي ـ أن يقلّصوا دعمهم لامارة انطاكية النورمانية أو بالأحرى فإنهم ـ عندئذ ـ لن يتمكنوا من تقديم المساعدات اللازمة لنورمان انطاكية ، لأنهم سيُجبرون على الانكفاء وراء اماراتهم والدفاع عنها ازاء الخطر العربي ، وهذا بدوره ربما كان عاملاً ايجابياً في النشاطات التي كانت تبذلها بيزنطة لحل المسألة الانطاكية . ويبدو أن البيزنطيين كانوا يدركون خطورة بقاء المسلمين مكتوفي الأيدي ازاء الامارات الصليبية في الشام ، وانعكاس ذلك على المسألة الأنطاكية وهذا ربما يفسر لنا محاولة الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين لحث الخليفة العباسي (عام ١١١١م) للقيام بعمل مشترك ـ بيزنطي اسلامي ـ ضد الصليبيين .

وربما كانت هناك قوانين موضوعية تحكمت في علاقات بيزنطة بالقوى الايطالية في تلك المرحلة : فعندما كانت الدولة النورمانية في ايطاليا تعاني الانحطاط والتمزق وكانت بالتالي عاجزة عن الدفاع عن نفسها وعن تقديم أي دعم لنورمان انطاكية ،

كان الأمراء الصليبيون يقفون الى جانب نورمان انطاكية بكل ثقلهم ، خاصة وأن العرب المسلمين كانوا لا زالوا مكتوفي الايدي ازاء الصراع الدائر في الشام . ولكن عندما ظهر الخطر الاسلامي على الأمارات الصليبية وعلى أمارة انطاكية كان نورمان ايطاليا وصقلية قد تخلصوا من التمزق والانحطاط ووحدوا صفوفهم تحت قيادة روجر الثاني الذي توج ملكا عام ١١٣٠م . وكان على بيزنطة أن تتحرك وفق هذه المعطيات السياسية ، وكان عليها أن تجمّد صراعها مع نورمان انطاكية ـ بعد آخر محاولة بيزنطية ضدهم بقيادة مانويل عام ١١٥٨ ، لتتفرغ لمواجهة احداث الجبهة الغربية وتعاظم القوى النورمانية في ايطاليا وصقلية ، والتصدي لاطماع روجر الثاني في الشرقين ـ البيزنطي والصليبي ـ.. ولهذا اضطرت بيزنطة ان تنقل الصراع بينها وبين القوى الايطالية الى مواقع أخرى ـ بعيداً ـ عن انطاكية ، أو بالأحرى نجحت القوى الايطالية في جرّ بيزنطة من مسرح انطاكية الى الشبكة الايطالية ، ورفع الضغط البيزنطي عن انطاكية . ومن هنا اوضحنا أنه إذا كانت القوى الايطالية قد حرصت في بدايات القرن الثاني عشر على نقل الصراع بينها وبين بيزنطة الى انطاكية ـ ازاء الضعف الذي ألم بالدولة النورمانية في ايطاليا في تلك المرحلة إلا أن الاضطرابات الداخلية والاخطار الخارجية التي احدقت بأمارة انطاكية النورمانية في أواسط القرن الثاني عشر ، جعلت نورمان ايطاليا يعملون على نقل الصراع البيزنطي النورماني الى مكان آخر غير انطاكية ، خاصة وأنهم شكلوا في عهد روجر الثاني قوة لها شأنها في عالم البحر المتوسط . ويبدو أن بيزنطة أدركت ذلك وكان امامها اختيار صعب بحيث لم يكن بامكانها تجاهل الخطر النورماني القادم من ايطاليا وفي ذات الوقت لم يكن بامكانها التخلي عن صراعها مع نورمان انطاكية . واضطرت بيزنطة الى نقل الصراع أخيراً الى الجبهة الغربية وتصدّت بنجاح لحملة روجر الثاني (١١٤٧ ـ ١١٥٠م) ومن ثم نقلت الحرب الى ايطاليا ١١٥٤ ـ ١١٥٨م ، وخلال ذلك كانت الامبراطورية البيزنطية تندفع بكل ثقلها نحو المشاكل الايطالية ، وفي ذات الوقت كانت امارة انطاكية النورمانية تضعف تدريجياً امام الخطر الاسلامي بقيادة صلاح الدين الأيوبي ، الذي نجح في استعادة بيت المقدس ومن ثم تقليم أظافر نورمان انطاكية .. وظلّت انطاكية حتى سقطت بيد الظاهر بيبرس عام ١٢٦٨م ، وبذلك حلت المسألة

الانطاكية على أيدي قوى غير بيزنطية وغير نورمانية .

هذا الى أننا كشفنا النقاب عن ان قيام المملكة النورمانية عام ١١٣٠م على يد روجر الثاني كان بداية مرحلة جديدة من الصراع النورماني البيزنطي ، وكان تحدياً صارخاً للامبراطورية البيزنطية ومصدر خطر حقيقي على مصالحها وحقوقها لا في ايطاليا فحسب وانما في عالم البحر المتوسط . وقد ردّت الامبراطورية على ذلك التحدي بترسيخ التحالف بينها وبين المانيا ضد روجر الثاني وانطلق الملك الالماني لوثير الثاني في أعقاب ذلك الى ايطاليا لتقليم أظافر النورمان ، ورغم أن لوثير قد فشل على المدى البعيد في تحطيم المملكة النورمانية ، إلا أن التحالف الالماني ـ البيزنطي ـ ظل قائماً .

وكان أن أدركت بيزنطة بعد تجاربها العنيفة المتتالية مع جويسكارد وبوهيموند وروجر الثاني : أن كبح جماح النورمان وتحطيم أطماعهم في أراضيها وخلق الاستقرار الداخلي في الامبراطورية ، وخاصة في الاقاليم الغربية ، واستعادة حقوقها المغتصبة في ايطاليا ، قضايا ترتبط كلها بعضها ببعض ، ومن هنا جاءت حملة مانويل كومنين على ايطاليا عام ١١٥٤ ـ ١١٥٨م . ويبدو أن تحطيم هذه الحملة ـ رغم الانتصارات التي حققتها المرحلة الأولى ـ كان الى حد كبير نتيجة الموقف الألماني ، فقد كانت مصالح بيزنطة والمانيا في ايطاليا متناقضة ورغم التحالف الذي رسم خطوطه الكسيوس كومنين وهنري الرابع بين الدولتين الا أن هذا التحالف كان يقوم على تناقض جذري في مصالح الطرفين في ايطاليا ورغم أن التناقض لم ينفجر إلا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، فان السبب في ذلك يعود الى قيام الدولة النورمانية التي شكّلت خطراً على الطرفين الالماني والبيزنطي ، وبالتالي دفعتها للتحالف من أجل هدف محدّد وهو القضاء على المملكة النورمانية ، دون أن يدري أي من الطرفين ، الالماني أو البيزنطي ـ كيف ستسوّى مصالحها في ايطاليا بعد القضاء على تلك الدولة النورمانية . لقد أخذ التناقض البيزنطي الالماني يظهر جلياً بالنسبة الى ايطاليا منذ اعتلاء بربروسا العرش الالماني (١١٥٣م) واطماع الاخير في احتواء ايطاليا ، ومن هنا جاء التفكك التدريجي للتحالف التقليدي بين بيزنطة والمانيا ، وأخذ ينعكس ذلك على العلاقات بين بيزنطة وايطاليا ، وسرعان ما تحول هذا التفكك في التحالف الى

حرب غير معلنة بين بيزنطة والمانيا عندما دعمت الأولى الحلف اللمباردي ضد بربروسا .

وقد تتبعنا العلاقات البيزنطية الايطالية في القرن الثاني عشر ، اذ كانت الامبراطورية البيزنطية تحرص في سياستها خلال القرن الثاني عشر على اثارة التناقض بين القوى الايطالية ومنع قيام اي تحالف بين هذه القوى كلها ضدها ، ونجحت في النصف الأول من ذلك القرن في جذب البندقية الى صفها ، ومن ثم تحييد جنوه وبيزا أزاء الصراع النورماني البيزنطي ، وفي ابقاء الباب مفتوحاً بين القسطنطينية والبابوية في موضوع الوحدة الكنسية .... ، ولكن مذابح اللاتين في القسطنطينة عام ١١٨٢م والتي جاءت بدورها ذروة من ذرى العداء الشعبي الذي أخذ يتصاعد بين اللاتين والاغريق في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، قد جعل القوى الايطالية تتقارب من بعضها أو بالأحرى جعل القوى التي تربطها ببيزنطة مصالح متشابكة مثل البندقية تنتقم لنفسها .

واذا انتقلنا الى الجانب الكنسي في العلاقات البيزنطية الايطالية في القرن الثاني عشر ، فنجد انفسنا أمام قضايا ليست جديدة في جوهرها وإنما الجديد فيها هو الطريق والاساليب التي تمّ فيها تناول هذه القضايا ، فضلاً عن بعض المعطيات السياسية والاقتصادية في القرن الثاني عشر ، والتي أثّرت في الخلافات المذهبية فزادت بعضها اتساعاً والبعض الآخر عمقاً وتعقيداً . فمن حيث المبدأ لا نستطيع ان نفصل العلاقات السياسية عن العلاقات الكنسية أثناء حديثنا عن العلاقات بين روما والقسطنطينية فالعلاقات الكنسية تخضع بدورها للعوامل السياسية وتؤثر وتتأثر بها بشكل مباشر . فعندما كانت تلتقي المصالح السياسية بين البابوية وبيزنطة كانت الخلافات الكنسية تجُمد أو تُدفع الى الخلف حيناً أو يتم بحثها بشيء من الموضوعية وبأقل ما يمكن من التعصب الأعمى أحياناً أخرى لاحدى الكنيستين .

ان الفروق الحضارية واللغوية والاقتصادية هي التي تحكّمت في العلاقات بين روما والقسطنطينية منذ بداية العصور الوسطى وساهمت مساهمة فعالة في تكييف القضايا الكنسية . فقد كان من الصعوبة بمكان انْ يفهم الاغريق واللاتين بعضهم وأن يجدوا قاعدة للتفاهم طالما كانوا يفتقدون لوحدة اللغة وبالتالي لوحدة الفكر ، وهذا التناقض

الحضاري هو الذي تحكم ـ بالتعاون مع العوامل السياسية ـ في العلاقات الكنسية بين شطري العالم المسيحي .

وفي اواسط القرن الحادي عشر انفجرت العلاقات بين الكنيستين بشكل أكثر حدة مما حدث في عصر فوتيوس والذي اصطلح على تسميته بالقطيعة الشرقية (١٠٥٤م) . وفي الواقع لم يكن هذا الحدث تجاوزاً لمنطوق العلاقات التقليدية بين روما والقسطنطينية وإنما كان في حقيقته ، نتيجة معقولة للخلافات او الصراعات العريقة بين الطرفين . وقد أعطى المؤرخون المحدثون أهمية لهذا الحدث أكثر مما أعطاه المعاصرون . وكما أكدنا خلال هذه الدراسة ، فان هذا الحدث يجب أن يوضع في الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في بيزنطة وايطاليا معاً ، حتى يمكن فهمه على حقيقته ، وأن يُوضع في ذات الوقت في مكانه الطبيعي في لوحة العلاقات التاريخية بين روما والقسطنطينية . ولذا لا يُستبعد أن يكون المعاصرون قد نظروا الى «القطيعة» على أنه حدث عابر أو ازمة مؤقتة . والدليل هو أن العلاقات بين الكنيستين قد استمرت بعد «القطيعة» ، ولم يكن هناك احساس شعبي ـ في روما والقسطنطينية ـ أن هناك ثمة قطيعة بين الكنيستين ، بل كانت هناك فئة في الشرق والغرب المسيحيين تأمل في تسوية «سوء التفاهم» بين الطرفين ، بل وكانت تعمل هذه الفئة على ايجاد المُناخ الملائم لتسوية الخلافات الكنسية . ولكن هذه المحاولات ذهبت سدى وكان للحركة الصليبية الدور الاساسي في تأكيد هذه القطيعة وترسيخها ، وذلك عندما أمدت الشعبين ـ الاغريقي واللاتيني ـ بروح الكراهية وانزلت مسألة الخلافات الكنسية والعلاقات بين روما والقسطنطينية الى المستوى الشعبي .

وقد أوضحنا خلال باب العلاقات الكنسية أن الحركة الصليبية ـ شكلاً مضموناً ـ كانت وبالاً على العالم المسيحي كله ، وذلك لأن الانسان العادي في بيزنطة وغرب أوربا أخذ يشعر أن هناك تباين كنسي شاسع بين الاغريق واللاتين ، بل والأخطر من ذلك أن اللاتيني أصبح ينظر ـ خلال الحروب الصليبية ـ الى الكنيسة البيزنطية على انها «مشكلة» يجب أن تُحل ، وأخذ البيزنطي يشعر بالمقابل أن الحركة الصليبية ومضامينها السياسية والاقتصادية والدينية ، أصبحت «كارثة» يجب تجاوزها .. وربما اجهاضها .

يبدو أن بعض الدوائر الدينية ـ في بيزنطة وغرب أوربا على حد سواء ... قد أدركت

خطورة انزلاق العلاقات الكنسية وراء قوافل الحجاج والتجار «الصليبيين» ، وحاولت ايجاد مخرج من الغيوم القاتمة التي اكتنفت العلاقات بين روما والقسطنطينية خلال الحروب الصليبية ، ولهذا فقد فتحت حواراً من أجل الوحدة بين الكنيستين . ولكن جميع المساعي التي بُذلت من أجل تلك الوحدة قد باءت بالفشل ، ان لم تكن قد عمقت الاختلافات وزادت التناقضات اتساعاً وعمقاً . ولا نستطيع أن نُعطي سبباً واحداً لهذا الفشل ، وإنما هناك مجموعة من العوامل دفعت الحوار الى حلقة مفرغة : فقد كان هناك تباين في مفهوم الوحدة الكنسية لدى شعوب الطرفين وكانت قضية ربط التاج الامبراطوري بالوحدة الكنسية ، وكان الطرح البابوي لقضية الوحدة طرحاً سياسياً «تكتيكياً» ، وكانت هناك معارضة البطريرك البيزنطي ، وكان تأثير الحركة الصليبية ذاتها ، وكان تأثير الرأي العام البيزنطي على المساعي التي بذلت من أجل الوحدة . وبذلك فشلت مساعي الوحدة وعمقت هذه المساعي الاختلافات بين الكنيستين .

وأخيرا جاءت الحملة الصليبية الرابعة ، التي كانت نتيجة للصراعات الكنسية والاقتصادية والسياسية ، ليس بين روما والقسطنطينية فحسب وانما بين القوى الايطالية كلها ومن ورائها الغرب اللاتيني وبين الامبراطورية البيزنطية . وساهمت هذه الحملة في خلق انشقاق حقيقي بين الكنيستين المسيحيتين الكبيرتين لا زال العالم المسيحي في الشرق والغرب يعيشه حتى الآن .

واذا انتقلنا الى الجانب الاقتصادي في العلاقات بين بيزنطة والقوى الايطالية فاننا نجد القضايا أكثر وضوحاً في هذه العلاقات . ولقد أكدت خلال الدراسة أن الجمهوريات التجارية الايطالية رسمت سياستها تجاه بيزنطة بما يتفق ومصالحها الاقتصادية والتجارية ، بحيث أن أي تهديد لهذه المصالح الاقتصادية كان ينعكس أثره فوراً على الاستراتيجية السياسية . اما بالنسبة الى بيزنطة فإن الامور كانت تسير على عكس الوضع السابق بحيث أن المصالح السياسية للامبراطورية كانت هي الأساس الذي قامت عليه علاقاتها الاقتصادية تجاه القوى الايطالية عامة والجمهوريات بشكل خاص . وبعبارة أخرى فان المصالح الاقتصادية بالنسبة الى الجمهوريات (البندقية وجنوه وبيزا) كانت تشكل الاساس الصلب الثابت لسياستها

الخارجية التي غدت بمثابة الاداة المرنة والمتغيرة لخدمة تلك المصالح . هذا في حين كانت المصالح السياسية للأباطرة البيزنطيين هي الأساس الصلب والثابت لسياستهم الخارجية وكان الاقتصاد هو الادارة لخدمة هذه المصالح . وهكذا قامت العلاقات بين الجمهوريات التجارية الايطالية وبيزنطة على طرفي نقيض وربما كان هذا التناقض هو الذي تحكّم في مسار العلاقات بين بيزنطة والقوى الايطالية كلها .

ان قيام الدولة النورمانية في جنوب ايطاليا وصقليه ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، ومحاولة الزعماء النورمان السيطرة على الادرياتي والعالم البيزنطي ، شكّل دون شك تهديداً خطيراً للمصالح التجارية للجمهوريات ، وبالتالي كان ذلك تناقضاً مع متطلبات اقتصادها ونموه ومستقبله . وكانت البندقية بالذات اكثر هذه الجمهوريات تأثراً بظهور القوة النورمانية الجديدة في عالم البحر المتوسط ، ومن هنا جاء التحالف البندقي ـ البيزنطي ، منذ اواخر القرن الحادي عشر ، ضد النورمان الايطاليين .

واذا نظرنا نظرة شمولية للصراع السياسي نجد اللوحة التالية : ان الصراع بين الكسيوس كومنين وروبرت جويسكارد (١٠٨١ ـ ١٠٨٥م) كان لمصلحة جمهورية البندقية بالدرجة الأولى ، حيث حصلت على امتيازات اقتصادية وتجارية هائلة في الامبراطورية البيزنطية ، وكانت بذلك هي الرابح الرئيسي في هذا الصراع ، وكان الاقتصاد البيزنطي هو الخاسر الحقيقي من جرّاء هذا الصراع . والصراع الذي نشب بين الكسيوس كومنين وبوهيموند بن جويسكارد سواء في انطاكية أو في البلقان (١١٠٧ ـ ١١٠٨م) كان في حقيقته لمصلحة جمهورية البندقية ، حيث حصلت على امتيازات تجارية جديدة ، فضلاً عن تأكيد وتوسيع الامتيازات القديمة وذلك نتيجة وقوفها الى جانب بيزنطة ، وكانت بذلك هي الرابح الحقيقي في هذا الصراع ، بينما كان الخاسر الحقيقي هو الاقتصاد البيزنطي . والصراع الذي احتدم بين مانويل كومنين وروجر الثاني ١١٤٧ ـ ١١٥٠م كان لمصلحة البندقية ، التي حصلت على امتيازات تجارية جديدة ، فضلاً عن تأكيد الامتيازات القديمة وتوسيعها في الامبراطورية من جراء دعمها للبيزنطيين ضد النورمان ، وبذلك فقد كان الرابح الحقيقي جمهورية

البندقية التجارية ، والخاسر الرئيسي هو الاقتصاد البيزنطي . والصراع الذي نشب بين مانويل كومنين ووليام الأول على الأرض الايطالية ما بين عام ١١٥٤ ـ ١١٥٨م كان في حقيقته لمصلحة البندقية التي كانت مصالحها التجارية تتناقض مع الأهداف السياسية للنورمان والبيزنطيين معاً . ولذا فقد كان يهمها سقوط إحدى القوتين ، أواستمرار الصراع بينهما .

وهكذا فقد كان الاقتصاد البيزنطي هو كبش الفداء في معظم الصراعات السياسية بين الامبراطورية البيزنطية والقوى الايطالية ، وكانت جمهورية البندقية التجارية هي الرابحة في تلك الصراعات . وهذا أدى الى سقوط الاقتصاد البيزنطي تدريجياً . بأيدي اجنبية ، ايدي البنادقة ، الذين احكموا قبضتهم عليه بقوة بحريتهم وحاجة بيزنطة المستمرة الى هذه البحرية .

ان المسألة الرئيسية التي ركز عليها المؤرخون المحدثون في دراساتهم حول الحملة الصليبية الرابعة هي : من هو المسؤول عن تحويل هذه الحملة الى بيزنطة ؟ هل البنادقة أم البابوية أم فيليب سوابيا أم قضية الأمير الكسيوس الرابع ؟ . ولقد بحثنا هذه المسألة في ختام الباب الخامس وأبدينا وجهة نظرنا في الفرضيات التي طُرحت لحل هذه المسألة ولكننا نظرنا الى الحملة الصليبية الرابعة من زاوية أخرى ، فبحثنا عن السبب في سقوط الامبراطورية البيزنطية بأيدي رجالات الحملة الرابعة ، وأوضحنا انه لو أن هذه الحملة فشلت في احتلال القسطنطينية لما تطّرق أحد لبحث موضوع من هو المسؤول عن تحويلها ولكن نظراً لأن هذا التحويل ادى الى «سقوط» الامبراطورية البيزنطية في أيدي اللاتين و «اقامة امبراطورية لاتينية» فإن مسألة تحديد المسؤول عن التحويل طُرحت على بساط البحث وإذا كان الأمر كذلك فانني آثرت ضرورة البحث في مسألة سقوط الامبراطورية وأسباب هذا السقوط ، مع ايضاح ان تحويل الحملة لم يتطلب بالضرورة سقوط الامبراطورية . والواقع أن الباحث المتعمق في العلاقات البيزنطية الايطالية خلال القرن الثاني عشر يستطيع أن يكتشف الكثير من العوامل التي ساهمت في سقوط القسطنطينية بيد اللاتين من خلال الحملة الصليبية الرابعة ، ولكن يبقى العامل الرئيسي ، والذي أدى سقوط

الامبراطورية ـ هو سقوط الاقتصاد البيزنطي قبل سقوط الامبراطورية ، ولقد أثبتنا في هذه الدراسة أن الاقتصاد البيزنطي كان يهوي تدريجياً ـ منذ مستهل القرن الثاني عشر ـ نتيجة سيطرة التجار الايطاليين على مرافقه الرئيسية وسقوط هذا الاقتصاد يعني سقوط الامبراطورية من الناحية العملية . إن الجهاز السياسي في الدولة البيزنطية في أواخر القرن الثاني عشر لم يعد سوى قشرة خارجية تربض على اقتصاد مُحَطم ، بحيث صار من اليسير عندئذ على أية قوة خارجية أن تحتل القسطنطينية ، وشاءت الظروف أن تكون القوة الوحيدة المهيئة ، نفسيا واقتصاديا وعسكريا ، لتوجيه ضربة مركّزة للامبراطورية البيزنطية في أواخر القرن الثاني عشر هي جمهورية البندقية .

وعلى هذا فقد أوضحنا أن احتلال البندقية للامبراطورية البيزنطية لم يبدأ في حقيقته من خلال الحملة الصليبية الرابعة وإنما بدأ منذ أوائل القرن الثاني عشر عندما امسكت بخناق الاقتصاد البيزنطي وزرعت مستعمرات تجارية عبر الامبراطورية ، وانني بذلك لا أُعفي بقية القوى الايطالية من مسألة تحويل الحملة او سقوط القسطنطينية ، وانما أردت أن أؤكد ان البندقية هي الطرف الرئيسي الذي حسم لمصلحته الصراع بين القوى الايطالية والغرب الاوربي من ناحية والدولة البيزنطية من ناحية أخرى

ثبت المصادر والمراجع

مجموعات المصادر ومختصراتها :

(1) Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae. Bonn, 1828—97. (C.S.H.B.).
(2) Migne, J.P. Patrologiae Cursus Completus. I, Patrologia Latina, 221 Vols. Paris, 1844—55 (M.P.L.)
11. Patrologia Graeco— Latina, 161 Vols. In 166 Paris, 1857— 66. (M.P.G.).
(3) Recueil Des Historiens Des Croisades. Publ. Académie Du Inscriptions Et Belles Lettres. Paris, 1841—1966.
(4) Documents Arméniens, 2 Vols. 1869—1906. (R.H.C.Arm.)
(5) Historiens Occidentaux, 5 Vols. 1844—95. (R.H.C. Occ.).

أولاً المصادر الأجنبية :

— Albert of Aix:
Liber Chistianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restione Sancta Hierosolvmitanae Ecclesia, in R.H.C. Oco., Vol., IV.
— Ambroise:
The crusade of Richard Lion- Heart, (Trans. From the old French By M.J. Hubert,)Newyork, 1941.
— Anna Commnen;
The Alexiad, (Trans. By E.A.S. Dawes), London, 1967.
—Balsamon,Theodore, Patriarch Of Antioch, in: M.P.G., Vols. CXXXVLL« CXXXVLLL, Paris 1865.
— Basil Of Caesarea, Saint, Letters, in: M.P.G., vol. XXXLLL.
— Cerularius, Michael, Patriarch of Constantinople Letters, in M.P.G., vol. CXX- Paris, 1880.
— Choniates, Nicetas, Historia, in: C.S.H.B.,Bonn, 1835٢
— Eusebius:
The History of Church (Trans. By G.A. Williamos), Penguin, 1965.
— Fulcher Of Chartres,:
Chronicle of the First Crusade, (Translated By Martha E.M.); Philadelphia 1941.
— Grégoire Le Pretre:
Chronique, in R.H.C.Doc. Arm. Vol. I, Paris, 1869.
— Guiragos, de Kentzag, in: R.H.C.Doc Arm. vol. paris 1869.
- Hethoum, Comte de Groigas, in: R.H.C. Doc Arm. vol 1, Paris, 1869.
- Kinnamos, J., Epitome Historiarum, in: C.S.H.B., Bonn, 1836.
- Matthew of Edessa, Chronique, (French Trans. by E. Dulaurieur), Paris, 1858.
- Matthew of Westminster, The Flowers of History, (Trans. By C.D. yone), 2 Vols., London, 1853.
- Michel the Syrian, La Chronique de Michel le Syrien, in R.H.C. Doc Arm. Vol. L, Paris, 1869.
- Odo of deuil, De profectione Ludovici Vll in : Orientem (ed. V.G. Berry) Newyork, 1948.
- Otto Of Freising, The Two Cities, (Ed. and Tr. By C.C. Mierow), Newy York, 1928.
- Otto Of Freising , The deeds of The Frederic Barbarossa , (Ed. and Tr. By C.C. Mierow), New York 1953.
- Orderic Vitalis, Historia Ecclesiastica, (Ed. A. Le Prevost and L. Delisle) 5 Vols., Paris 1838- 55
— Psellus, Micheal, Fourteen Byzantine Rulers. (Ed. and Tr. By E.R.A. Sewter). London., 1966.
- Raymond of Aguilers, Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem, in R.H.C. Occ., Vol., 111.
- Roger of Wendover, Flowers of History (Trans. From the Latin By J.A. Giles) 2 vols. London, 1849.

-Saint Nerses de Lampron, in: R.H.C. Doc. Arm. vol. I, Paris, 1869.
- Sempad, Connetable, In: R.C.C. Doc. Arm. vol. I, Paris, Paris, 1869.
- The Chonicle of Morea, Crusaders as Conquerars, (Translated From the Greek With Notes and Introdu Ction By Harold E. Lurier), New York and London, 1964.
— Theodore of Studium, Letters, M.P.G., vol XCIX. Theophylact, Archbishop of Bugaria, in M.P.G., vol. CXXVI paris (......).
- Vahram d, Edesse, in R.H.C. Doc. Arm. Vol. I, Paris, 1869.
- Vartan Le Grand, in R.H.C. Doc. Arm. Vol. I paris, 1869.
- Vartan Le Grand, in R,.H. C. Doc. Arm. vol 1, paris, 1869.
- Villehardouin, G., The Conguest Of Constantinople, (Translated By M. R. B. Shaw) London, 1963.
- William of Tyre, A History of deeds done Beyond the sea, 2 vols. (Trans. By E. A. Babcock and A. C. Krey), New York, 1947.

ثانيا : المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة :

- **مخطوط** «الدر المنظوم في أخبار ملوك الروم» ،بلمند عربي رقم ٤٨٨ .
- **مخطوط** «جلاء الابصار من غشاء الاكدار» بلمند ـ عربي رقم ٤٨٧ .
- **مخطوط** «أعمال الرسل» سيناء ـ عربي رقم ١٧٢ .
- **مخطوط** «قوانين المجامع والرسل» سيناء ـ عربي رقم ٦٠٠ .
- ابن أبي الدينار (القيرواني) : المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس . (المكتبة الصقلية ، ج٢) .
- ابن الأثير (الحسن علي بن أبي الكرم/ ت ٦٣٠هـ) :
  - الكامل في التاريخ ، ج ١١ ـ ١٢ ، القاهرة ، ١٩٦٣م .
  - التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، القاهرة ، ١٩٦٣م .
- ابن جبير الكناني (أبو الحسن محمد بن أحمد/ ت٦١٤هـ) :
  رحلته (المكتبة الصقلية ، ج٢) .
- ابن حوقل (ابو القاسم بن حوقل النصيبي/ ت ٣٦٧هـ) : صورة الأرض ، جزءان ، ليدن ، ١٩٣٨م .
- ابن خلكان (شمس الدين بن محمد/ ت ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان ، (المكتبة الصقلية ، ج٢) .
- ابن عبد الظاهر (محي الدين) : الروض الزاهر في سيرة السلطان الملك الظاهر ، تحقيق د . عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٩٧٦ .

- ابن عذاري (المراكشي) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، (المكتبة الصقلية ، ج٢) .
- ابن شباط (ابو عبد الله محمد بن الحسن) : ديوان صلة السمط وسمت المرط ، (المكتبة الصقلية ، ج٢)
- ابن شداد (بهاء الدين بن شداد/ ت ٦٣٢هـ) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق د . جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م .
- ابن العبري (ابو الفرج بن هرون الملطي) : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ، ١٨٩٠م .
- ابن العديم (كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد/ ت٦٦٠هـ) : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ٣ أجزاء ، تحقيق د . سامي الدهان ، دمشق ١٩٥٤ - ١٩٦٨م .
- ابن قاضي شهبة (بدر الدين/ ت٧٧٤هـ) : الكواكب الدرية في السيرة النورية ، بيروت ، ١٩٧١م .
- ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن القلانسي/ ت٥٥٥هـ) : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨ م .
- ابن منقذ (اسامة/ ت١١٨٨م) : كتاب الاعتبار ، برنستون ١٩٣٠م .
- أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل/ ت٧٣٢هـ) : تقويم البلدان ، باريس ، ١٨٣٠م .
- أبو عبد الله الأنصاري : نخبة الدهر وعجائب البر والبحر ، (المكتبة الصقلية ، ج٢) .
- الادريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، طبعة روما ، ١٨٧٨م .
- الدمشقي (ابن فضل الكاتب) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، (المكتبة الصقلية ، ج٢) .
- الزهري (محمد بن أبي بكر) : كتاب الجغرافية ، (المكتبة الصقلية ، ج٢) .

- القزويني (الأندلسي) : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، (المكتبة الصقلية ، ج٢) .
- الاصطخري (أبو اسحق ابراهيم محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي) : مسالك الممالك ، ليدن ، ١٩٦٧م .
- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك/ ت ٧٦٤هـ) : الوافي بالوفيات ، (المكتبة الصقلية ، ج٢) .
- الاصفهاني (عماد الدين) : تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت ، ١٩٧٨م .
- ناصرخسرو: سفرنامة ، نقله الى العربية د . يحيى الخشاب ، القاهرة ، ١٩٤٥م .
- ياقوت الحموي : معجم البلدان

ثالثاً : المصادر المعربة :

- المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمه إلى العربية د . حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٥٨م .
- بنيامين التطيلي : رحلة بنيامين التطيلي الأندلسي (٥٦١/٥٦٩هـ / ١١٦٥ - ١١٧٣م) ترجمها عن الأصل العبري عزرا حداد ، بغداد ، ١٩٤٥م .
- روبرت كلاري : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمه عن الفرنسية القديمة د . حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

رابعا : المراجع الأجنبية :

—Adelson, H. L., Medieval commerce, New York, 1962.
— Ashour, S., and Rabie, H., (ed.), Fifty Documents,Cairo, 1971.
Ault, W. O., Europe in middle ages, Boston, 1946.
— Bailly, A., Byzance, Paris, 1948.
— Bainton. R. H., The Madieval Church, New York, 1962.
— Baldwin, M. W., The medieval church, New York 1960.
— Baynes and Moss, Byzantium, Oxford, 1948.
— Bent, J. T., Genoa, How the Republic Rose and Fell, London, 1881.
— Brand, C. M., Byzantium Confronts the west 1180-1204, Cambridge, 1968.
— Bréhier, L. L'Eglise et L'Orient au Mayen Age: Les Croisades, Paris, 1928.
— Brown, H. F., «The venetians and the venetian Quarter in Constantiople to the close of the twelfth Century», in the Journal of Hellenic Studies, vol. XL (1920).
— Cambridg Medieval history, vol. IV, The Byzantine Empire, Part 1: Byzantium And its Neighbours, ed. By J. H. Hussey Cambridge, 1966.

— Cantor, N. F., The Medieval world: 300-1300, New York, 1967.
— Cate, J. L., «A Gay Grusader», Byzantion, vol. XVI, (1942-43).
— Chalandon, F., Essai Sur le Régne d'Alexis Comnene, (1081-1118), Paris, 1900.
— Chalandon, F. Histoire de la Domination Normande en Italie et en Sicile, 2 vols. Paris, 1907.
— Chalandon, F. les Comnénes, T. 1': Jean 11 Camnéne et Manuel Comnène, Paris, 1912.
— Chalandon, F. Histoire de la première Croisade. Paris, 1925.
— Charanis, p., «The West and the origin of the First Crusade», Byzantion XIX, (1948-49).
— Charanis, p. «On the Social Structure of the later Roman Empire», Byzantion, Vol. Vol. XVII (1944-45).
— Cross, F. L., The oxford Dictionary of the Christian Church, Oxford, 1957.
— Curtis, F., Roger of sicily, New York, 1912.
— Diehl, C., History of the Byzantine Empire, (Trans. By G. B. ives) Princeton, 1925.
— Diehl, C., L'Europe Orientale de 1081-1453, Paris, 1945.
— Diehl, C., Byzantium: Greatness and Decline (Trans. from the French By N. walford), New York, 1957.
— Dvornik, F., The Photian Schism, History and Legend, Cambridge, 1948.
— Eric ,John, «Anote on the Prehiminaries of the fourth crusade», Byzantion, vol. XXVIII, (1958).
— Every, G., The Byzantine Patriarchate 451-1204, London, 1962.
— Finlay, G., A History of Creece vol. III, Oxford, 1877.
— Fotheringham, J. K., «Genoa And The Fourth Grusade», in the English Historical Review vol. XXV (1910).
— Fliche, A., «La Réforme Grégorienne et la Reconquète Chrétienne (1057-1125), vol. VIII of Histoire de l'Eglise, ed. Eliche, A. and Martine, E. Paris, 1950.
— Gay, J., L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin. Paris, 1904.
— Gay, J. Les Papes du XIE siède et la Chrétienté, Paris, 1926.
— Greenslade, S.L., Schism in the early church, London, 1964.
— Grégoire, HK, «The Question of the Diversion of the Fourth Crussade», Byzantion, vol. XV (1940-41).
— Grousset, R., Histoire des Croisades, 3 vols. paris, 1934-36.
— Guerdan, R., Byzantium, Its triumphs and tragedy, (Trans. By D. L. B. Hartley), London, 1956.
— Guerillot, A., et Guyot, L., Les Epices, Paris, 1963.
— Haskins, C. H., The Renaissance of the twelfth Century, Cambridge, 1128.
— Haskins, C. H., The Normans in European history, London, 1935.
— Hayward, F., A History of the Popes London, 1931.
— Hefele, C.J., Histoire des conciles (Trans. and ed. H. Leclereq). Paris, 1907 (in Progress).
— Heyd, W., Histoire du Commerce du levant du moyen-Age, 2 vols., Leipizig, 1923.
— Hodgson, F.C., The Early History of venice, London, 1901.
— Hill, G., History of Cyprus, 3 vols., Cambridge, 1940-52.

— Joranson, E., «The Inception of the Career of the Normans of the Italy-Legend and History», in Speculum, vol. XXIII (1948).
— Jugie, M., Le Schisme Byzantin. Paris, 1941.
— Kellett, E.E., A short History of Religions, London, 1962.
— Leib, B. Rome, Kiev et Byzance, Paris, 1924.
— Longrion, J., L'Empire latine de Constantinple et la Principaute de Morée, Paris, 1949.
— Lopez, R.S., and Raymond, I.W., Medieval Trade in the mediterrean world, New York, 1961.
— Luzzatto, G., An Economic History of Italy, Translated from The Italian By Philip Jones, London, 1961.
— Mas Latrie, L., Histoire de la maison de lusignan, vol., 1, Histoire; vol. II and III, Documents, Paris, 1852-61.
— Munro, D.C., Did the Emperor Alexius I ask for aid at the Council of Piacenza?, in American Historical Review, vol. XXVII. New York, 1922.
— Munro, C.C., 'The Speech of Pope Urban II at Clermont', in American Historical Review, vol. XI. New York, 1906.
— Norwich, J.J., The Normans in the south 1016- 1130, New York, 1967.
— Norwich, J.J., The Kingdom in the sun 1130-1194, London, 1970.
— Oman, C., A History of the Art of war in the Middle Ages, 2 vols., New York, 1924.

— Oman, C., The Dark ages, London, 1908.
— Ostrogorsky, G., History of the Byzantine state, (Trans. By Hussey), Oxford, 1956.
— Painter, S., Mediaeval society, New York, 1953.
— Painter, S., A History of the Middle Ages (284-1500), New York, 1954.
— Pirenne, H., Medieval Cities, Translated from the French By Frank D. Halsey, Princeton, 1934.
— Pirenne, H., Economic And Social Histoy of The Mediaeval Europe, (Trans. From the French By I. E. Clegg) London, 1936.
— Pirenne, H., A History of Europe, (Trans. By B. Mial), London, 1961.
— Runciman, S., A History of the Crusades, 3 vols. Cambridge, 1951-54.
— Runciman, S., The Sicilian Vespers, London, 1961.
— Runciman, S., The Eastern Schism, Oxford, 1936.
— Setton, K. M. (ed.) A History of the Crusades, 2 vols., Philadelphia, 1958-62.
— Smail, R. C., Grusading Warfare (1097-1193), Cambridge, 1956.
— Stephonson, C., Mediaevel History, Washington, 1944.
— Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire, New York, 1960.
— Thatcher, O. J., And Mcneal, E. H., (ed.) A Source Book For Mediaeval History, New York, 1905.
— Tout, T. E., The Empire and Papacy (918 -1273), 2 vols. London, 1899.
— Ullmann, W., The Growth of Papal Government in the middle Ages, London, 1965.
— Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire (224-1435), 2 vols., Printed in U.S.A. 1961.
— Vryonis, s., Byzantium and Europe, London, 1967.
— Ware, T., The orthodox Church, London, 1963.

— Waley, D., The Italian City-Republics, London, 1969.
— Yewdale, R. P., Bohemond 1, Prince of Antioch, Princeton, 1917.

خامساً : المراجع العربية والمعربة :

ـ العدوى (د . ابراهيم أحمد) : المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى القاهـرة ، ١٩٦١م .
ـ الاثينى (نقولا امبرازي) : كنز النفائس في اتحاد الكنائس ، عربه عن اليونانية يوحنا حزبون ، القاهرة ، ١٩٠٤م .
ـ الاجتهاد في سبيل الاتحاد ، تأليف فئة من المرسلين البولسيين ، بيروت ١٩٣٩م.
ـ أرشيبالد (لويس) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، (٥٠٠ ـ ١١٠٠م) ، ترجمة : أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠م .
ـ أرنولد (سيرتوماس) : تراث الاسلام ، ترجمة جرجيس فتح الله ، بيروت ١٩٧٢م .
ـ أومان (شارل) : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة د.. مصطفى طه بدر القاهـرة ، ١٩٥٣م .
ـ باركر (أرنست) : الحروب الصليبية ، ترجمة : د . السيد الباز العريني القاهرة ، ١٩٦٠م .
ـ بدوي (د . عبد الرحمن) : فلسفة العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
ـ بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة د . حسين مؤنس ومحمـود يوسف زايد ، القاهرة ، ١٩٥٠م .
ـ توفيق (د . عمر كمال) : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
ـ حاطوم (د . نور الدين) : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا ، بيروت ، ١٩٦٧م .
ـ حبشي (د . حسن) : الحرب الصليبية الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٨م .
ـ حسنين (د . عبد المنعم محمد) : سلاجقة إيران والعراق ، القاهرة ١٩٧٠م .
ـ دوسن (كروستوفر) : تكوين أوروبا ، ترجمة ومراجعة د . محمد مصطفى زيادة ، والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٦٧م .
ـ ديفز (هـ . و . كاريس) : شارلمان ، ترجمة د . الباز العريني ، القاهرة ١٩٥٩م .
ـ رستم (د . أسد) : الروم ، جزءان ، بيروت ١٩٥٦م .

- رستم (د . أسد) : كنيسة أنطاكية ، ٣ ، بيروت ، ١٩٥٨م .
- رنسيمان (ستيفن) : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ، ١٩٦١م .
- سرور (د . محمد جمال الدين) : الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٧٠م .
- سميرنوف (أفغراف) : تاريخ الكنيسة المسيحية : ترجمه عن الروسية الكسندروس (مطران حمص) ، ١٩٦٤م) .
- عاشور (د . سعيد عبد الفتاح) : قبرس والحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
- عاشور (د . سعيد عبد الفتاح) : الحركة الصليبية ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٧١م .
- عاشور (د . سعيد عبد الفتاح) : أوروبا العصور الوسطى ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٧٢م .
- عاشور (د . سعيد عبد الفتاح) : النهضات الأوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة ، (بالاشتراك مع د . محمد أنيس) ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
- عاشور (د . سعيد عبد الفتاح) : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس في عصر الحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
- عاقل (د . نبيه) : الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ، ١٩٣٩م .
- عبيد (د . اسحق) : روما وبيزنطة ، ١٩٧٠ م .
- عبيد (د . اسحق) : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ـ القاهرة ، ١٩٧٢م .
- فشر (هـ . أ . ل) : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جزءان ، نقله الى العربية د . محمد مصطفى زيادة وآخرون ، القاهرة ، ١٩٦٦م .
- كاهن (كلود) : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، المجلد الأول ، نقله الى العربية د . بدر الدين القاسم ، بيروت ، ١٩٧٢م .
- كولتون (ج . ج) : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة د . جوزيف نسيم يوسف ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
- ماجد (د . عبد المنعم) : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، بيروت ، ١٩٦٦م .

- موس (هـ . سانت ل . ب) : ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
- مسره (جراسيموس) : تاريخ الانشقاق ، ٣ أجزاء ، الاسكندرية والقاهرة ، ١٨٩١م - ١٨٩٩م .
- نسيم يوسف (د . جوزيف) : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، الاسكندرية ، ١٩٦٣م .
- نسيم يوسف (د . جوزيف) : دراسات في المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينة ، في سيناء ، مجلة كلية الآداب الاسكندرية ، ١٩٦٩م .
- نسيم يوسف (د . جوزيف) : علاقات مصر بالممالك التجارية الايطالية في ضوء وثائق صبحي الأعشى ، منشورات كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٩٧١م .
- هارتمان (ل . م) وباراكلاف (ج) : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى ، ترجمة د . جوزيف نسيم يوسف ، القاهرة ، ١٩٧٠م .
- مرسيلهم (يوحنا لورنس فان) : تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة ، ترجمة هنري هرس ، بيروت - ١٨٧٥م .

* * * *



هذا الكتاب

تعتبر العلاقات السياسية والاقتصادية بين الشرق البيزنطي والغرب الأوروبي من الموضوعات الشائكة والمعقدة ، خاصة وأن أطراف النزاع بينها [illegible] متداخلة في بعضها ، والمسرح الذي جرت فيه الأحداث [illegible] على [illegible] المصالح والأهواء ، وتتناقض [illegible] الأحيان وذلك وفقاً للتقلبات الظروف والأحوال .

وهذا الكتاب ثمرة دراسة علمية دقيقة وجهد طويل بذله الباحث بمقدرة وصبر وأناة ، [illegible] العربية ، [illegible] العلاقات بين القوى [illegible] في [illegible] صورها ومظاهرها ، ويوضح [illegible] ما فيها من [illegible] وصراعات ، هادئة أو صاخبة ، ويميط اللثام عن كل ما فيها من مزالق ومناورات ظاهرة أو خفية ، ويكشف عن كل ما فيها من مصالح [illegible] متناقضة [illegible] متباينة أو متفقة [illegible] متقاربة ، وذلك بغية استخراج الحقيقة [illegible] الأهواء وسط الأعاصير السياسية [illegible] فترة من [illegible] العصور الوسطى [illegible] وأخطرها .